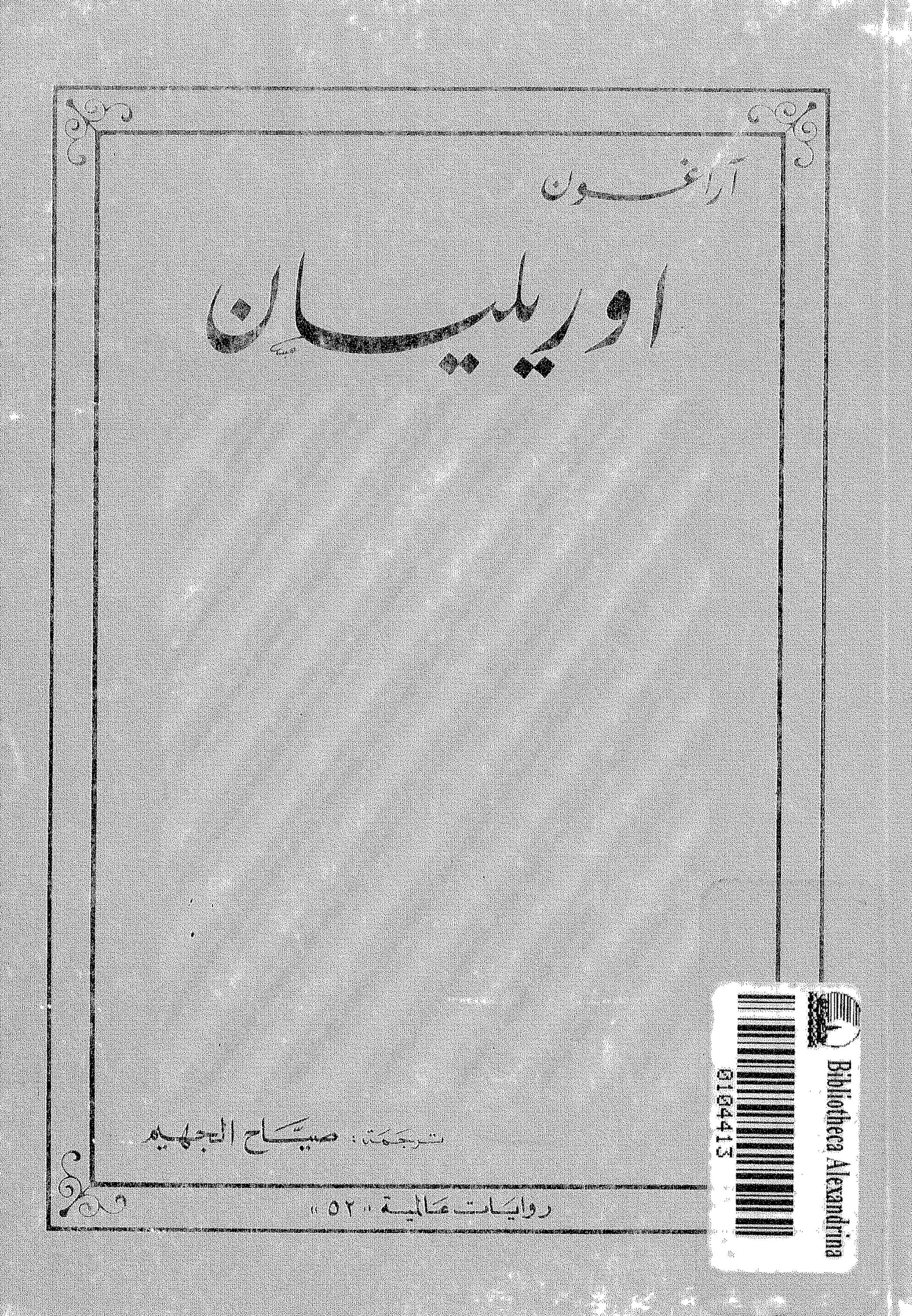

آراغون
اوريليان
ترجمة: صباح الجهيم
روايات عالمية «٥٢»
Bibliotheca Alexandrina
0104413

الإشراف الفني: زهير الحمو

اوريليـــان

روايات عــالميــة

« ٥٢ »

آراغــــون

أوريليان

ترجمة:

صيّاح الجهيم

منشــورات وزارة الثقــافة
في الجمهورية العربية السورية
دمشق ١٩٩٥

العنوان الأصلي للكتاب:

AURELIEN

ARAGON

GALLIMARD

أوريليان = Aurelien/ أراغون ؛ ترجمة صياح الجهيم .-
دمــشق: وزارة الثــقــافــة، ١٩٩٥ . - ٦٦٩ص، ٢٤سم . -
(روايات عالمية؛ ٥٢)

١- ٨٤٣ ف آ ر ا أ ٢ - العنوان ٣- العنوان الموازي
٤- أراغون ٥ - الجهيم ٦- السلسلة
مكتبة الأسد

الايداع القانوني : ع - ٣٢٠ / ١ / ١٩٩٥

إن الشخصيّات والمواقف في هذه الرواية محضُ تخيّل، وكلّ شبه يمكن أن يُلمح فيها بين تلك الشخصيات والمواقف وبين الوقائع العادية أو الأشخاص العاديين إنما هو من قبيل الاتفاق الخالص، وهو خارجٌ كلّياً عن مشيئة المؤلف.

المرة الأولى التي رأى «اوريليان» فيها «بيرينيس»، وجدها بشعةً حقاً.. لم تعجبه. لم يحبّ كيفية لُبسها. ما كان ليختار هذا القماش. كانت له أفكارُه عن القماش. كان قماشاً رآه على نساء كثيرات. وقد حملهُ ذلك على ألاّ يتوسّم خيراً في هذه التي تتسمّى باسم اميرةٍ شرقيّة دون أن يبدو عليها أنها تعدّ نفسها ملزمةً بسلامة الذوق. كان شَعرُها كامداً، هذا اليوم، سيّءَ التصفيف. الشعرُ المقصوص يحتاج إلى عنايةٍ دائمة. وما كان بوسع اوريليان أن يقول أكانت شقراء أم سمراء. فهو لم يمعن النظر إليها، وقد بقيَ له منها انطباعٌ مُبهمٌ، عام، من التبرّم والسُخط. حتى إنه تساءَل لماذا. كان ذلك غير متناسب.

كانت أقرب إلى القصر والشحوب فيما أظنّ.. ولو كان اسمها «حنّة» أو «ماري» لما عاد ففكّر فيها بعد ذلك. أما «بيرينيس»! يالها من خرافة غريبة. هذا هو بعينه ماكان يُسخطه.

هناك بيتٌ من الشعر لراسين ذكّرتْهُ حالُه هذه به، بيتٌ لازمه أثناء الحرب، في الخنادق، وفيما بعد، وهو مسرّحٌ، بيتٌ لم يكن ليراه بيتاً جميلاً، أو أن جماله كان يبدو له موضعاً للشك، لا سبيل إلى تفسيره، لكنه حاصره وما يزال يُحاصره.

ظللتُ زمناً طويلاً هائماً على وجهي في «قيصرية...»[1]

الأشعار، على العموم، كانت..: لكن هذا البيت كان يتردد ولا ينفك يتردّد. لماذا؟ هذا مالم يكن يفسّره. وعلى نحو مستقلّ تماماً عن قصّه «بيرينيس».. الأخرى، الحقيقية... بيد أنه لم يكن يتذكّر هذه الأغنية العاطفية التي لاتني تُعاوده إلا في خطوطها العامة.

---

(١) البيت من مأساة راسين «بيرينيس». **المترجم**

سمراء إذن «بيرينيس» المأساة. أما «قيصرية» فهي من ناحية انطاكية، بيروت، منطقة تحت الانتداب، بل لقد كانت شديدة السمرة، وما تشاءُ من الأساور، وأكوام من أدوات البهرجة ومن البراقع، «قيصرية» ... اسمٌ جميل لمدينة، أو لامرأة، اسم جميل على كل حال،

قيصرية... ظللتُ زمناً طويلاً... آه، مالي! أصبحتُ خَرِفاً! لاسبيل إلى التذكّر: ماسم الشخص الذي كان يقول هذا، كان رجلاً مديد

القامة، مُهدّماً، كئيباً، خائر القوى، بعينين فحميتين، الملاريا... التي كمنت ولم تظهر إلا عندما أصبحت «بيرينيس» على وشك الزواج في روما، من شخص تافهٍ معتدٍ بجماله،(١) ممتلىء الجسم، له هيئةُ بائع المنسوجات الذي يمدح بضاعته على نحو ما يلبس ثوبه الروماني، تيتوس،

يلا مزاح، نيتوس،

ظللتُ زمناً طويلاً هائماً على وجهي في قيصرّية...

لا بد أنها مدينةٌ عريضةُ الطرقات، خاويةٌ، يخيّم عليها الصمتُ. مدينةٌ نزلتْ بها مصيبةٌ، شيءٌ كالهزيمة، مدينةٌ موحشةٌ، مدينةٌ صالحةٌ للرجال الذين بلغوا الثلاثين والذين لا يتعلقّون بعد ذلك، بشيء، مدينةٌ من الحجر يجوبُها المرءُ ليلاً دون أن يؤمن بطلوع الفجر،

كان «اوريليان» يرى كلاباً تهربُ خلف الأعمدة، وقد بُوغتتْ وهي تمزّق جيفةً، وسيوفاً مهجورةً، ودروعاً، بقايا معركة مخزيةٍ..

الغريب أن إحساسه بالنصر كان ضئيلاً جداً، لعل ذلك لأنه سافر إلى «التيرول» وإلى «سالزكاميرجوت»، وأنه رأى «فيينا» في هذه اللحظة التي كان الدانوب يحمل فيها جثث المنتحرين، وكان سقوط العملة يُثير في السُيّاح دواراً كريهاً، خُيّل إلى «اوريليان» أنه قد هُزِم، لا لأنه صاغ ذلك لنفسه بوضوح، بل هكذا، على نحو غريزي، هُزم، هناك، هزمتْهُ الحياةُ، وعبثاً كان يقول في نفسه: دعْكَ من هذا، فنحن المنتصرون...

---

(١) لم يتروج تيتوس «بيرينيس» مع حبه لها خوفاً من عضب روما، المترجم

لم يشفَ تماما من الحرب.

أخذتْه الحربُ قبل أن يَحْيا. كان من تلك القرعة التي خدمت ثلاث سنوات وأحست أنها ممكنة التسريح عندما فاجأها آب ١٩١٤.

فقضت ثماني سنوات في خدمة العلم... لم يكن شاباً مبكّراً في شبابه، لقد وجدتْه الُثكنةُ غيرَ مختلف عن الطالب الثانوي الذي هجر أسرته إلى الحيّ اللاتيني سنة ١٩٠٨. انتزعتْه الحربُ من الثكنة وأعادته إلى الحياة بعد هذه السنوات الطوال من العيش الموقت، من تعوّد هذا العيش الموقّت. فلا المخاطر ولا الفتيات الفاتنات تركن، في الحقيقة، أثراً في ذلك القلب. هو لم يُحبّ ولم يَحْيَ. ولم يمت وهذا شيءٌ غير قليل، وكان أحياناً ينظر إلى ذراعيه الطويلتين الهزيلتين، وإلى ساقيه اللتين تشبهان ساقي الصقر، وإلى جسده الفتّي، جسده السليم، فيرتعش وهو يستعيد الماضي، ،يفكّر في المشوّهين، رفاقه، الذين يُشاهَدون في الشارع، وفي الذين لن يعودوا إليه.

هاقد مضى عليه ثلاث سنوات، وهو حرٌ، لايُطلَبُ منه شيءٌ، إلا أن يتدبّر أمره، ولا تُهيّأ له وجبتُه كلّ يوم مع وجبات الآخرين، وفي مقابل ذلك فهو لم يعدْ يُحيّي أحداً. وهو في والثلاثين تماماً، نعم، حَسَبَ عمره في حريران. إنه فتى بالغٌ رشده. لم يكن بوسعه أن ينظر إلى نفسه نظرةً جادة ويقول: رجلٌ، وأخذ يأسف على الحرب. لا على الحرب، في الحقيقة. على زمن الحرب. فهو لم يشف منها بعدُ. لم يعثر بعدُ على ايقاع الحياة. كان يتابع الحياة التي كان يحياها آنئذ كل يومٍ بيومه. وذلك بالرغم منه. وكان يؤجّل إلى الغد، منذ ثلاث سنوات ساعة القرار. وكان يتصوّر مستقبله، بعد تلك الساعة، وهو يجري جرياناً مختلفاً، أشدّ حيوية، مُنهكاً. كان يحب أن يتصوره هكذا. لا أكثر. ثلاثون عاماً. والحياة لم تبدأ بعد. ماذا ينتظر؟ لم يكن يحسن شيئاً إلا أن يتسكّع. وكان يتسكّع.

...ظللتُ زمناً طويلاً هائماً على وجهي في قيصريه...

ربما كان هذا هو معنى تلك الذكرى الكلاسيكية... لقد حمل حمّى الملاريا من جيش الشرق حيث أنهى خدمته. أخذ يتذكّر بشيءٍ من الحنين تلك السهولة في «سالونيك»، النساء اليونانيات، الروايات المزيّفة التي لا تخدع أحداً، تعدّد العروق، تلك القوادة الشديدة، في كل مكان، في الشارع، في الحمّامات... كان اوريليان ذا قامة فوق الوسط، وحاجبين أسودين كثيفين يلتقيان بين العينين، وقسَمات جَهْمةٍ، وجلدٍ غير مستوٍ قليلاً، متغضّن. وكان آنذاك ذا شاربين فحلقهما لدى عودته. لا لأن أحداً طلب إليه ذلك. لا. بل لقد طُلِبَ ذلك إلى أحدهم أمامه، في عشاءٍ، في قاعة المناوبة، حيث دعاه صديقٌ له، طالبٌ خارجي في المستشفيات، هو أخو كاتبٍ كان سيغدو كاتباً كبيراً لو قُيّضت له الحياة، وبرفقته اتفق لأوريليان أن يقضي الحرب. ذلك ما دعا أخاه الذي حلّ بباريس حديثاً، إلى التردّد على وسطٍ أدبي كان خلاصةَ مدعوّيه، هذا المساء. كان هناك امرأةٌ جميلةٌ جداً، ووقحةٌ جداً. تقول إنها لا تنظرُ البتّة إلى الرجال ذوي الشوارب. أقالت ذلك ليسمعها اوريليان؟ لم يعتقد ذلك، لكن الطالب الخارجي انسحب لحظةً وعاد وقد ضحى بشاربيه. ليست هذه القصة مدهشةً، ثم إنها معروفة. وقد كان مع السيدة على العشاء ناشرٌ رواها، وكثيرٌ من المؤلفين لديه رووها في كتبهم رواياتٍ شتّى. وإن المرءَ ليتساءل لماذا؟ ثمّة تفاهات نستوقف. بل إن هذه منشورةٌ ولا بد من الاعتذار عن ذلك. لكن أحداً لم يلحظ أن اوريليان حلق شاربيه بعد ثمانية أيام. ولم يعلّق أحدٌ على ذلك. ذلك لأن اوريليان لم يكن يثير اهتمام أحد. كان طالباً في الحقوق لم ينجح في امتحانه وهو يقضي وقته في مكتب محامٍ مرموق من غير شك، لكن دون أن يكون أحد هؤلاء الرجال المتألقين، مفاخر القضاء. ومع ذلك فهذه القصة تُظهر أكثر من أي شيء آخر بطء ردود أفعال اوريليان، وأنه يتأخر عن فعل ما يجب فعلُه.

فبعد شهرٍ فقط إنما قال في نفسه أن صديقه الطالبَ الخارجي ربما كان يُغازل تلك السيدةَ الجميلةَ الوقحة. لم يُدهشهُ ذلك أول الامر. ولم تكن هذه المرأة قد اعجبته، هو اوريليان. ومع ذلك، فلا بدّ أنه أقدم لا شعورياً على حلق شاربيه

من أجلها. فعلى شيءٍ من الشبه بها، بتلك السمراء المشوقة القدّ، كان يتصوّر المرأة التي تُدعى بيرينيس، لكن بيضاء مثل حصاةٍ مغسولةٍ جيداً. تصوّرها كذلك... عندما حدّثه باربنتان عن ابنة عمه بيرينيس (مع أنه مضى نحوُ عامين على حادث الشاربين)..

ومن هنا شيءٌ من خيبة الأمل. كان يسعى إلى تذكّر قسمات بيرينيس هذه. فإذا أخطأ التذكّرَ، عادِ إلى ذهنه، على نحو مزعج، رسمُ قماش ثوبها من البيج البشع بمضلّعاته الزغبة... ما لَهُ ولذلك؟

مرّر أصابعه في شعره الجعْد، كما يُمرّر المشطُ. أخذ يفكّر في التماثيل الموضوعة في ساحات قيصرية. تماثيل ربّات الصيد، ربات الصيد ليس غير بنظراتهن الزائغة.

وعند أقدامهن ينام متسوّلون.



-٢-

لم يكن يحب سوى السمراوات وكانت بيرينيس شقراء، شقرتُها كامدة، وكان يحب النساء الطويلات على شاكلته، وكانت قصيرة دون أن تكون لها تلك السحنةُ الطفوليةُ التي يمنحها القصرُ أحياناً، وكان شعرها المقصوص خشناً، ولونها شاحباً وكأن الدم لم يجر تحت الجلد. لم يكن جبينُها منخفضاً وكانت تلك الضفيرة تصغّره كثيراً. إن ما كان يحيّر في هذا الوجه ذي الوجنتين البارزتين هو العينان، العينان السوداوان خلف أهداب لا لون لها. وكانت غرابتهمالا تنبع من سوادهما بل من طابع التحدّب فيهما، كالذي نجده لدى الظباء، ومن قوس الحاجبين المائل الى الصدغين والذي يكاد يكون آسيوياً. وكان الفم مُدهشاً أيضاً كانت الشفتان مرتفعتين، دون أن تكونا سميكتين، وكانتا بالطبع حمراوين في هذا الوجه الشاحب. مع حركاتٍ اختلاجية ماغتة ينخفض فيها طرفاهما في تعبير من الألم الذي لا يُسَوّغُه شيءٌ. وفكّر اوريليان: شفتا فتاة. وكان الأنفُ نحيفاً وقصيراً، أرنبتاه بارزتان يحملهما على الارتعاش أدنى انفعال. وكان يبدو أن هذه القسمات المجتمعة هنا تخصّ عدة نساء متميزات بعضهن عن بعض. والذي كان يُسبغ عليها شيئاً من الوحدة هو هذه الأسالة الخالصة في صفحة وجهها، هو هذا الميل في وجنتيها حيث يسقط النورُ الملامسُ على رسم كامل، لكنه غريب وكأن النحّاتَ شُغف بالوجنتين، بكمال الوجنتين، وذلك بالرغم مما سوى ذلك.

عندما كان اوريليان يُحاول تصوّر جسد بيرينيس، لم يكن يُفلح في ذلك. كان يردّد على نفسه أنها قصيرة، وهذا كل ما استطاع أن يُثبته في ذهنه عنها، ولا شكّ أنها لو كانت مشوهةً او بارزة الصدر لِلاحَظَ ذلك، بيد أنه كان يتذكّر، بجهدٍ بالغ لونَ ثوبها، لا أكثر، ومرةً أخرى، لم تكنْ تُذكّر بفتاة صغيرة، كان لا بدّ لهذا الجسد من أن يتكّون من أن يحيا، لكن كيف؟ الساقان النحيفتان كانت بيرينيس تغطيهما هذا اليوم بجوربين من الصوف.وهو أمر بدا لاوريليان متكلّفاً، غير مُستحسن.

المشيء الوحيد الذي أحبّه فيها رأساً كان صوتها. صوتٌ خفيضٌ دافيءٌ، عميقٌ، ليليٌّ، حافلٌ بالاسرار مثل عيني الظبية تحت ضفيرة المعلّمة تلك، كانت بيرينيس تتكلّم بشيءٍ من البطء، مع اندفاعات مباغتة سرعان ماتكبتُها، مترافقة بوميضٍ في العينين مثل وميض العقيق. وفجأة كان يبدو على هذه المرأة الشابة إحساسُها بأنها فَضَحت نفسها، فتنخفض زاويتا فمها، وترتجف الشفتان، ثم ينتهي ذلك كلّه بابتسامة، وتتوقّف الجملةُ التي بدأتها تاركةً أمر اتمام الفكرة الجريئة لحركةٍ خرقاء من اليد؛ وحينئذٍ تُرى الأهدابُ الخبازيةُ وهي تُسبل، وقد بلغ من نحافتها أنه كان يُخشى عليها من التمزّق.

لا بد من القول أيضاً أن بيرينيس كانت تحرّك كتفيها حركةً كأنها تريد أن نمنع شالها من الانزلاق، وهي حركةٌ كانت تخلّصها من ورطةً عندما كانت لا ترغب في متابعة الحديث أو عندما ترغب في تغيير مجراه.

كان قد قال لها «ليس لك هيئة ابنة «البروفانس»[1]. كان في صوتها نكهة، ليست نكهة اللهجة، بل نكهة اللهجة المصحّحة، شيء من عدم اليقين، فأجابت أنْ ليس في ذلك ماهو غريب فأمّها من «الفرانش كونتيه»، وليس لها من ابيها سوى العينين السوداوين.

كان «ادمون باربنتان» يُضايق اوريليان بأسئلته: «هل رأيت إذن ابنةَ عمي بيرينيس؟ هذا كلّ ماتقوله عنها؟»، ومئة سؤال آخر كان ينبغي أن نجيب عنها بمثل هذا الأسلوب «إنها فاتنة... شخصٌ غريب... طبعاً، طبعاً، إنها تعجبني كثيراً...» لأن قوله إنها لاتعجبه، وهو الحقّ، يتطلّب أن يشرح ذلك، أن يتكلم كلاما لا نهاية له.

كان ادمون يمزح وماذا يضيرهُ في نهاية الأمر، من رأي اوريليان بابنة عمّه؟ لقد نزلت عند باربنتان في باريس، وستعود إلى مقاطعتها. المصادفة وحدها هي التي أرادت أن يأتي اوريليان العاطل عن العمل ليرى رفيق الجبهة القديم. كان ينزعج دائماً من الترف في هذا المنزل، وكان يستحسن خمر

(١) مقاطعة في فرنسا **المترجم**

باربنتان الفاخر واستخفافه. خرجا معاً بعد الغداء. ،انحدرا من «باسي»[1] نحو المدينة عن طريق الأرصفة، «ليكورلارين». كان الجو صحواً مائلاً إلى البرودة. وكان الهواء والشارع نقيين نظيفين، مثل ادمون باربنتان الذي كان يُثير الدهشة دائماً أنه يسير على قدميه. وكان اوريليان دائم النظر خلفَ صديقه ليرى إن كانت عربتُه لا تلحق به. وهو يسير مع ذلك سير لاعب كرة القدم.

«هذا، إذن، كل ماتقوله عن بيرينس؟»

هوسٌ. ليس لديه ما يقوله عنها، لكن بما أن امتناعه عن الكلام عليها، سيجّر ادمون إلى استنتاجات فَلْيقلْ : «إنها تبدو رقيقة جداً. لا شك أنها مصدرٌ للراحة في المنزل. حضورُ امرأة مثل هذه...»

لقد حاول أن يقول شيئاً خالياً من الابتذال يُعفيه من الكلام بعد ذلك، أكثر من محاولته أن يقول شيئاً فكّر فيه حقاً. فمن حيثُ الرقّةُ كان يجد في ابنة الاقليم الصغيرة هذه شيئاً من تلك الرقّة. وبدا له أنْ ليس هذا هو ماكان ينبغي أن يقوله، ونحن نعلم كيف يفكّر الناسُ: لقد كّونوا فكرتهم عن أحد الناس وصاغوها مرات عديدة، ولم يجدوا معارضةً، بل إنهم قد لقوا موافقة عليها. فاتخذت تلك الفكرة مرتبة الفكرة المفروغ منها. ولم يَنْجُ «ادمون» من هذه الآلية. فقهقه ضاحكاً. آه، منْ غلطكَ...

«رقيقة؟ بيرينيس؟ رقيقة؟ حسناً، ياصاحبي، أتمنّى لك رقيقات بالعشرات مثل هذه الرقيقة! أسخفُ شيء سمعتُه في حياتي! أنتَ تمزح. ألم تنظر إليها؟ إنها مصدر للراحة إذن، وأنيقة. تريد أن تقول. كالشيطان في الإناء المقدس. الجحيم في البيت!».

رفع اوريليان حاجبيه من الدهشة. أيّ شيطان؟ أي إناء مقدّس. لم يشأ أن يقول مايفكّر فيه بخاصة وهو أن بيرينيس هذه لاتبدو له لافتةً للنظر، وأن الشيطان مع ذلك... الحاصل أننا لا نكون بحضرة الشيطان دون أن نحّس برعشةٍ خفيفةٍ. وتمتم بشيء من هذا القبيل لم يلحظه ادمون. كان اليومُ يوماً من

(١) حي ارستقراطي في باريس.

آخر تشرين الثاني مشمساً، وكانت العربات تجري على الطرق المكدّمة دون ضوضاء ولا غبار، وكانت الاشجار العاريةُ ترسمُ تشابكاتها السوداء فوق الممرات وكأنها من عمل الصياغة المزخرف. كان كلّ شيءٍ نظيفاً ومُترفاً تماماً، حتى «القصر الصغير» الشنيع الذي نظر اليه اوريليان وكأنه عدوّ شخصي.

ورغبةً منه في أن يقول شيئاً ما كعادته، قال. «أَوْضحْ ماتقول...» ونظر إليه، على الفور، لأن أدمون استنتج من ذلك أنه يهتم بابنة عمه، ولم يزده الإنكارُ سوى ترسيخ هذا اليقين. ولذلك انطلق يوضّح له رأيه في بيرينيس.

الأمرُ جليّ، في آخر الأمر. هذه المرأة تحترق. مثل امرأة كُتب عليها الهلاك، لعل الجحيم هو حياتها. حياة خفيفة، هادئة، موفقة بالفعل، ولا أقول لك غير هذا. في الاقليم. وزوجها هو ايضاً ابن عمٍ بعيد لي. فتى من النوع الطّيب. فكرٌ شديد الفضول، لكنه محدود، أُغرمتْ بهِ وهي صبيّةٌ، أو أُغرِم بها. مَنْ يَدْري؟... الحاصلُ أنها قصةٌ قديمة علقتْ بها، ولم تشأ أن ترجع عنها لأن الاسرة كانت تعارض هذا الزواج في اول الامر... ثم إنه ثَخُن وبَشِعَ منذ الثانية والعشرين أو الثالثة والعشرين، لستُ أدري، لكن هذين الزوجين نُؤْذي رؤيتهما... أرادتْهُ ولم تَرْجع عن كلامها... وتزوّجا بعد الحرب ولا شك أنه كان يُمثّل بالنسبة إليها، بعد الحرب، الحياةَ الفكرية، والروايات التي كان يُعطيها إياها، والفلسفة اتي كان يقرؤها ولا تفهمها، أو على الأقل التي لم تكن تحفظ منها سوى صورٍ لا رابط بينها... تم إن لها من الإباء مايمنعها من الاعتراف بأن المأساة هاهنا.

لقد كابرتْ ولسوف تُكابر. إنها تستمر في هذا الزواج غير المعقول. وهي تؤكّد أنها تعبد زوجها، ولعلها تحبّه... والزوج يقوم بجمع مجموعةٍ من الصحون وعلى نحو جد ذكّيٍ. ومن الطريف الاستماع إليه وهو يتحدث في هذا الموضوع، أصحاب الاختصاص مثيرون للاهتمام عندما يتحدثون عن اختصاصهم،

الصحون!... إنها اختصاص ضيّق قليلاً... آه! هو صيدليّ، بالطبع...

لكن أخْلِه من صحونه، فلا يبقى منه شيءٌ... غبيٌ حقيقيٌ...»

افترقا في ساحة «الكونكورد». ليس في العالم مكان أكثر ترفاً، ترفاً على نحو مبالَغٍ فيه. وقدّر اوريليان أن ذرة الغبار قد تُلحظ فيها، تملّكتْهُ فكرةُ الترف، فكرةٌ طاغيةٌ من الترف، أكثر مما تملّكته بيرينيس، نظر إلى باربنتان وهو ينأى ببزته الحسنة التفصيل، وحذائه الثمين، ومنكبي رياضيّ من المجتمع الراقي. تذكرّه وهو في الوحل، في «الشمبانيا»[1]، وقد تغيّر شكله، وتغطى بملابس صوفية متنافرة، وهو غير حليقٍ، وسخٌ، يشرب من الالكسير المهدّىء كمصل اللبن ليُوقف ذلك الاسهال المستعصي الذي جعل ساقيه ترتخيان، هزّ اوريليان كتفيه.



(١) مقاطعة فرنسية

-٣-

كان درب «ادمون باربنتان» سريعاً وباهراً. بدأ بداية سيئةً، لكن الأمور استتبّت أخيراً في الثلاثين ولم يعد الوضعُ الباهرُ لهذا الشاب يثير أياً من الانتقادات التي مرّ بها شبابُه. ثم إن الحرب طمست كلّ ذلك أيضاً حين وضعتْ المسافات الضرورية. ومَنْ ذا الذي ظلّ يلتفت الى الحكايات القديمة؟ كان يكفي أن يكون آل «باربنتان» الاثنان، ادمون و«بلانشيت» رفيعي التهذيب، في رغَدٍ من العيش، محموديْ العشرة، وان كانا صَعْبين في علاقاتهما.

ارتحل ادمون من مقاطعته حوالي ١٩١٠، وهو ابن طبيب في المقاطعة كان يعمل في السياسة المحلية، وأصبح بفضل المصادفة أمين سر «كيسنيل» كيسنيل العظيم، قطب اصحاب سيارات الأجرة الذي كانت أعماله العقارية ضخمة، ومالبث أن أصبح موضع ثقته. وكان يقال إن ادمون قُيّضَ له أن يُبرهن لمعلّمه أن رجال أعماله يختلسونه، وقد رأى «كيسنيل» الذي حقّق صفقةً عظيمة في مراكش، في هذا الشاب، أمين السر اللامع الذي يُعجب النساءَ إعجاباً شديداً، المتمّم لعمله. هذا على الأقل ما كان يُروى، وأن باربنتان أظهر جُرأةً حين ترك الطبّ ليندفع إلى الأعمال التجارية. والحق أن هؤلاء الذين يروون ذلك يريدون أن ينسوا أن ادمون كان عشيق عشيقة «كيسنيل» وهي فتاةٌ حسناء، ايطالية، وأن «كيسنيل» كان يعلم ذلك، وأنه أراد أن يوفّر لهما السعادة إذ يوفّر الثروة لأدمون. وعلى كل حال، لم يبق أيّ داعٍ لتذكّر ذلك كله لأن كارلوتا تزوجت في النهاية، من كيسنيل بعد أن أدركت أن ادمون أفلت من يديها حين وقع في حبّ ابنة معلّمه، وأن «بلانشيت كيسنيل» العنيفة والعنيدة، اجبرت والدها على القبول لتصبح زوجة «ادمون باربنتان». ثم كانت الحربُ ومات «كيسنيل». ووهبتْ «كارلوتا» بيتها في «رأس الآنتيب» الصليبَ الأحمر، وأكسبَها تفانيها في خدمة الجرحى وسام جوقة الشرف. وكانت ابنة زوجها التي لم تعد تغار من الماضي، لاتراها إلا نادراً، لأن كارلوتا كانت دائمة السفر من القاهرة إلى لندن، ومن فينيسيا إلى الهند. وبيع منزل «حديقة مونسو» لتسديد نفقات الإرث الباهظة،

بعد أن زهدتْ فيه الأرملة والزوجان اللذان كان يقيمان في شارع «رينوار» في منزل من طابقين ومصطبة. وكانا يقضيان الصيف في دارتهما، في «بيارتيز» كما يخبر بذلك دليل «بوتان». وكان ادمون يجتمع بين وقت وآخر بمجلس الادارة، ويمثّل فيه زوجته وأرملة ابيها.

وكان من لاعبي غولف «البوليه»، كان ينظر إلى ذلك كله وكأنه مَزْحةٌ. وكان مضحكاً عندما يتكلم عنه، لم يكن يؤمن بهذه العمليات السحرية التي كانت ثروته تنبع منها مع ذلك. ولم يكن اتحاد شركات سيارات الأجرة بحاجة إليه عملياً، «لقد كبر، كالفطر، على مؤسسيه، ولم يكن جيلُ اصحابها الجديدُ يولي ذلك الاتحاد من العناية ما أولاه كيسنيل وشركاؤه، كان هناك رجالُ ادارةٍ ماهرون، وضربٌ من جهاز ضاعت فيه الذاتيةُ الفردية. وإذا كان باربنتان قد احتفظ بمكتبه (وهو مكتب كيسنيل القديم) الذي يُفترَض أن يمرّ به بانتظام، إلا أنه كان جلياً أنه إنما أراد أن يحتفظ بحريته أكثر مما أراد أن يضحّي بها للأعمال التجارية. وكان ذلك الاتحاد، تفادياً منه لمساوىء الرسملة، يقوم بشراء الأراضي، ويبني، وفي مبنى شركة «العقارات والسيارات» التابع له كان مكتب «باربنتان». والواقع أنه اكتفى بأن يكون غنياً ووجد ذلك كله مهزلةً كان اوريليان يحب كثيراً تلك اللهجة اتي يصطنعها «باربنتان» ليتكلم عن الشؤون المالية، لم يكن مغفلاً البتّة، ولا رصيناً، ضد المغرور. بل كان فيه «جانب» مشعوذٌ... فاجأ اوريليان نفسه وهو يفكّر في هذه الكلمة «جانب» الملائمة جداً، التي تنطبق على كل شيء عندما يُقْصَد إلى تحديد مالا نعرف تحديده، مالا يشبه غيره، كانت تلك الكلمة حينئذٍ شائعة، شائعةً على نحو فظيع، كان ذلك آتياً من روّاد «الثور على السطح» ومن جمهور الباليهات الروسية، لم يكن اوريليان من هؤلاء، لكنه كان يصاب بالعدوى من ناقلي الجرثومة، مثل ذلك الطالب الخارجي الذي تحدّثنا عنه آنفاً. «الجانب» المشعوذ هو إذن ولادة المال وعلم تحويله. حبٌ غريب، رجال حول طاولة، يقرأ أحدهم تقريراً لا يُصغي إليه أحد، ثم يجري تبادلُ التوقيعات وتتم الولادة عند شبابيك المصارف، في الحسابات

الخاصة بالطبع، في الطابق الأول،لا حيث تنتظر عامةُ الناس الجالسين على مقاعد من السنديان، وبين أصابعهم الأرقام النحاسية.

كان من غير المعقول تقريباً أن يكون لهذا الشاب الرياضي الأنيق الملبس، مايمتّ بصلة إلى تلك الشخصيات التي تكتنفها الأسرار، التي لا وجه لها، والتي كانت تكّون في خيال اوريليان، عالمَ رجال المال، رجال الدليل الدين نستطيع أن نتتبّع آثارهم في فهرس الشركات المساهمة من الكهرباء إلى المناجم ومن صناعة النسيج الى الخطوط الحديدية.

كان ذلك يخيفه قليلاً عندما يفكّر فيه، ثم إن ذلك كان يجتذبه لاتصاله بعالم مجهول. وفي الوقت ذاته كان يقول مي نفسه إن ذلك كان أثراً مس آثار الحرب، كان ضرباً من تجديد شباب المجتمع وعلامةً على... لقد تربى بروح الأسف على العهد البابليوني وعهد جنرالات الخمسة والعشرين عاماً.

في ذات مساء من صيف ١٩١٦، في أعالي «الموز» شهد الملازم المرشح «اوريليان» قدوم طبيب مساعد أُلحق بسرية المشاة التاسعة حيث كان قائد فصيلة السرية الثالثة عشرة. وكانت سرية من الأشدّاء، نقيبُها ضابطٌ متخرج من المدرسة العسكرية، وكلهم شاربو خمرٍ بلا طعام، ازوار نساء، ألاّفٌ للصخب، وبينهم من نال أوسمة من أوسمة الحرب، وقد عُزِل. فيها اربعة أطباء مساعدون، قُتِلَ أحدُهم، أما الآخرون فلم يستطيعوا أن يصمدوا أمام هذا الهرل القذر والكحول، والاستنفار الدائم، وأما الآخير فلم يكن يطيق تلك الاعارات اتي كانت متوقعة على المخفر الصغير، مع تلك الضوضاء التي تحدثها الضفادع في الأسلاك الشائكة واتي تُوهم دائماً بهجوم مضاد، بدورية، وأصيب بمرض في القلب. ولذلك استُقبِل القادمُ الجديد بروحٍ ناقدة. كان طالباً في الطب ترك مهنته وتذكّر تسجيله في غمرة الحرب ليتخلص من كتيبة قنّاصةٍ كان فيها عريفاً. وقد ساعده ذلك أيضاً في زمن السلم من أجل تأجيل خدمته. ثم إن بارينتان هذا كان وسيم الطلعة، حلو الصوت. كان يغني في المطعم وقت تناول الحلوى.

وقد انيطت اليه مهمةُ الطباخ، فكان يقوم بها قياماً حسناً. وكان يتلقّى بالبريد كبداً دسمة. لم يكن عديم الشجاعة، فلقي القبولَ.

ومع أنه كان هو واوريليان من سن واحدة وقرعة واحدة، فقد كان لا بد من سنة كاملةلكي يرتبط به اوريليان، ودلك قبل سفره بالذات الى سالونيك في ١٩١٧ في الفتره الحافلة بالاضطرابات، في هذا الوقت، لم يعد اوريليان يؤمن بشيء.

لقد طال أمدُ الحرب كثيراً، وزاد عليها تلك الثكنة المخيبة للآمال، كانت الروح المعنوية في حالة يُرثى لها. الجنود والضباط أيضاً، لفَرْط ماكانوا يسمعون أن الألمان لا يجدون مايأكلونه، وما يصيبهم من شظايا الحجارة في وجوههم. تم ذلك الجو الذي لايتغير. «فردان»، «آرتوا»، «الشامبانيا»، في ذلك الشتاء القاسي الذي حلّ بهم. وهذا بالذات ماحدا «اوريليان» الى تسجيل اسمه عندما طُلب المتطوعون الى الشرق. فبالرغم من قصة «الدردنيل» لا بد أن يكون للبلاد هناك وجهٌ آخر، وهل آمن بشيء قط، في الحقيقة؟... الأفضل ألا يكثر المرء من سؤال نفسه. إن هؤلاء الذين يسرفون في التفكير هم الذين سيسقطون ذات يوم. هكذا يُقتل الناسُ. يأخذون أولاً باضناء انفسهم. يقولون في أنفسهم إنهم لن ينجوا، وحينئذ لا ينجون. جميع القصص التي تُروى بهذا الصدد، لعلها من قبيل المصادفة. لكن إذا كان الناس يعيشون في عالم من المصادفات فإن اللقاء بين رجلٍ ورصاصة إنما هو مصادفة.

حينئذ تغلّب مرحُ الطبيب المساعد باربنتان وكونُه من صنف هؤلاء الذين ينطبق عليهم القولُ متى عرفت الشرّ سهل عليك اتقاؤُه، على شكوك الملازم الثاني «ليرتيلوا». فكان كلما اشتدت همومُه لم يجد ما يقاوم به الودّ الذي أخذ يشعر به تجاه هذا الشاب الذي كان سيجده سطحياً ومتكلّفاً، لو ظلّ يتوقف عند مثل هذه الأمور في حين أحسّ الجميعُ بقوّة أنهم طُعمةٌ للموت. لا يختار المرء رفقاءه في الحرب كما أنه لا يختار أصدقاءه في زمن السلم. كان اوريليان في هذه اللحظة بأشدّ الحاجة إلى مَنْ يتعلّق به. كانا يلعبان بالشطرنج معاً، دون أن يُحسنا اللعبة، ابتدأت الأمورُ هكذا، ثم افترقا. وكان لا بدّ من هذا الحرح، عند نهاية الحرب تماماً، ومن هذا السفر الطويل على ظهر سفينةٍ، ومن

العـودة إلى الشـاطىء اللاروردي، ومن المسـتـشـفى، لكي يتـيح له الحظّ ثانيـة الاتصال بهذا الصديق «ديفوكوا» الذي كاد ينساه، وقد تبين أن المستشفى الذي عولج به وساقُه في الجبس، مع الجرح الجاني الذي أبى أن يلتئم، إنما هو بيت السيـدة «كيسنيل» أرملة والد زوجة ادمـون. بدا له ذلك علامة دالّة.. فكتب إلى طبيبه المساعد القديم. ربما دفعه إلى ذلك أملٌ خبيءٌ بأن يُدلَّلَ قليلاً، بأن يحظى بعناية أكبر. فالتقيا، وتشعّب بهما الحديث.



-٤-

الحقيقة أن اوريليان كان لا يحب كثيراً أن يُحدّث عن الحرب، وأنه كان يخشى ترثرة الذين خاضوها كما كان يخشى الفضولَ الفاسد للذين لم يخوضوها. ماكان بوسعه أن يشرح النتيجة المنطقية لهذه الأشياء، لكن سياسة مابعد الحرب كانت تضايقه تقريباً بالطريقة نفسها، لم يلبّ دعوات شركات القدامى من افواجه. ودعته جمعياتٌ كثيرة فلم يدخل أيّاً منها. كان يُنقّل معه حربه، وله وحده وكأنها جرحٌ خفيٌ. كان سيءَ المعرفة بما يجري، الانتخابات، الوزارات. لم يكن يقرأ ذلك البتّة في الصحف، وكان يفضّل عليها الرياضة والمسرحيات. وكان يصغي بشرودٍ إلى مايُقال له عنها، وكانت الكلمتان او الثلاث التي تلفظها شفتاه حينئذ تنمّ على جَهله، وتجعل أصدقاءه يصنّفونه على أنه من رجال اليمين. طيّب، قبلنا باليمين، أنت، يارجل اليمين... اوريليان الذي هو من اليمين...

لم يُبِلّ من هذا المرض الذي طال، لم يكن يفلح في الهيمنة على أفكاره، ولم يكن يعثر على مجال لاستخدام طاقته، وعلى الأصح لم يكن يُحسن أن يُريد. وتلك نتيجةٌ طريفةٌ لحالة عنيفة تبدو أنها مدرسةُ الشجاعة والعزم الرجولي. لكن الجندي لا يُصمّم من ذاته أو هو لا يُصمّم إلا في إطار عملٍ مفروض عليه، كان اوريليان يقول في نفسه أن الحرب ماكان لها أن تقذف بجميع الناس في هذا التذبذب، وكان يتّهم طبيعته. ولم يَعلم أنه كان يشارك في مرضٍ كثير الانتشار.

بيد أنه كان بحاجة إلى العمل ليعيش، فالجوع والبؤس قد يحلان محل رؤسائه ليُمليا أمرهما الجديد بالسير، لكنه كان مبتلىً بهذه البلّية المستساغة وهي أن عليه ألا يفكّر في غده. فإرث والديه الذي وُزّع عند موتهما بينه وبين أخته البكر جعل لها المعملَ الذي كان زوجُها يُديره فعلياً منذ حوالي عشرين سنة، وحصل هو على أرض «سان جينيه» التي كان يستثمرها مزارعون ممتازون، وكانت المزارعة مع مايُرسله إليه زوج «ارماندين» كل سنة، تبلغ نحو

ثلاثين ألف فرنك، كان ذلك حينئذ هو اليُسر الذي عبّر عنه مسكنه العزوبي في جزيرة «سان لويس»[1]، وسيارته الصغيرة ذات الأحصنة الخمسة، وفكرته عن الحرية.

وإذا كان قد تسجّل مي كلية الحقوق مذلك تنازلٌ خالصٌ منه للرأي العام. فلم يكن ينوي الدوامَ فيها، بل إنه فعل ذلك التماساً للعُذر، ورداً على أسئلة أصدقاء الطفولة الدين التقاهم. وقد مضى عليه من الزمن مايكفي حقاً لنسيان ماكان تعلّمه قبل الحرب، وحتى قبل الخدمة العسكرية. تصوّروا ثغرةً من ثماني سنوات. نحح حينئذ في امتحانات السنة التانية، ولم يزد على ذلك، وعلى مقاعد الدراسة، تعرّف بخاصة على الفتيات اللواتي كن يتهّربن من بيوتهن بحجة الدروس. وهكدا اتّصل بأوساط شتّى، وكان أكثر اهتماماً بتنوع الناس والأوساط منه بالقوانين التي تحكمهم، وشيئاً فشيئاً، هجر الدروس والفتيات اللواتي كان يلقاهن فيها، ولعل ذلك لأنه استنفد امكانات المدرسة كا نُستنفد امكانات المقهى الذي ألفناه. كان يحّس على العموم، بأنه طاعنٌ في السن جدا وسط هؤلاء الشباب الذين كانوا أصغر منه بعشر سنوات، وكان التدريب الذي يقوم به لدى المحامي «بيرجيت» خالياً من الجّد. وقد قبل به المحامي «بيرجيت» في مكتبه وإن زاد عن اللزوم لأنه كان يعرف أهله. وكان يعلم أن اوريليان ليس سوى هاوٍ، شابٍ ذكي من عير شك، يمكنه أن يوضّح قضية الزبون توضيحاً جيداً خيراً من توضيحه لقضية الزبونة على كل حال، وكان تكليفه استجواب احدهم مع ورقة وقلم كسباً للوقت، إد سرعان ماكان يعثر على النقطة الجوهرية. صحيح، لكنه كان غير منتظم الدوام. ماكان يمكن الاعتماد على وجوده، وكان المحامي بيرجيت، من جهة أخرى، يفهمه لم يكن طموحاً أبداً، وكان له إيراده... لم ينصحه، وكفّ عن اعتباره مساعداً، ودعاه إلى العشاء في نهاية الأمر. ترك «ليرتيئوا» الدراسة، دون أحاديث ولا مناقشات. ولم يعد يعمل شيئا.

كانت عطالته تغتذي بقلق يشبه كثيراً القلق الذي عرفه في اوقات الفراغ الطويلة، في الخنادق. ولا شك أن قلق الخنادق هو الذي مهّد الطريق لقلقه

---

(١) في باريس.

الحاضر، وجَعَل الانتظار بلا غاية وجعل غياب المنظور شيئاً طبيعياً فيه. مع هذا الفرق الجوهري وهو أنه يستطيع الآن أن يعتقد أنه سيّد حياته.

ماذا يلزمه إذن فوق ذلك أو غير ذلك؟ من الخطأ الحكمُ بهذه السرعة على اوريليان، والاعتقاد بأنه راض، أو الاستدلال بقلقه على مطامح أعلى، على الطمع. فالحياة التي قُدّرتْ له، هذه الراحة، هذه الطمأنينة الظاهرة، لا يد له فيها. لم يتحرّ هو ذلك كله، لم يرغب فيه. لقد وجد ذلك كله عند عودته. وحتى شقّته كانت لصديق مُعْسر أخذها خدمةً له، وابتاع عربته من رفيقٍ بدأ تمثيله النيابي. وكان في غنى عن زيارة الخياط فهو يؤثر الملابس الحاهزة. ولم تكن له مبادرة أولئك الذين يحبّون الطعام. كان غير مبالٍ بالطعام. ولّما لم يتخذ في بيته شيئاً لأعداد الطعام فقد اكتفى بالحانة الصغيرة على رصيف «بيتون»، وهي مطعم رخيص الثمن كان يأكل فيه البحّارة. كانت إقامتُه هكذا، منذ ثلاث سنوات. وإذا مافكّرنا أن هذهِ السنوات الثلاث كانت، في الحقيقة، حياته كلها، بعد ثماني سنوات من الخدمة، وبعد الأيام غير المسؤولة في الحي اللاتيني عند خروجه من الثانوية، أدركنا أنه بلغ الثلاثين ولم يكد يدخل الحياة، وأنه مازال يحّس وهو في الثلاثين، أنه في ثياب رجلٍ اخر، مثل دخيلٍ في هذا العالم، مثل طفل انسلّ الى غرف الاستقبال في مسكن ريفي، مغاليق شبابيكه مُسدلة، والأغطية تغطي أثاثه.

الغريبُ في القصة كان فقط في أنه وصل إلى هنا عبر سهول الشمبانيا والأرتوا المرعبة، عبر شمس «تراسيا» والعنف القاتل. الغريبُ أنه عاش في الخنادق الطباشيرية، في الوحل، في الأرض والقَذَر، قبل أن يحلّ بهذا المِجثم الذي تديره السيّدة «دوفيني» خادمة المنزل. الغريبُ كان تلك القوة الغافية والذكرى القابعة في نفسه، ذكرى الذين ماتوا بين يديه، لم يكن يفكّر في ذلك الا قليلا، فالمرءُ ينحّي جانباً الصور المؤلمة لزمن انقضى، تلك التي لا يُكرهها شيءٌ على الظهور ثانية. إنها تنتقل، على نحوٍ غير محسوس إلى مصاف الأحلام، إلى اشتباه الأحلام القديمة وما فيها من إحساسٍ بأنها قد شوهدت من قبل، قد حُلم

بها من قبل. لم يكن اوريليان متأكداً مثلاً، من بعض فصول طفولته، ومن المساجرات بين أبيه وأمه في هذه الشقة في شارع «كورسيل» حيث استقرّوا حالما استطاع «جاك دوبريه» أن يؤمن سير المعمل، دون الحضور الدائم للسيد «ليرتيلوا» الأب. إن الكثير من شؤون طفولته كان فيها هكذا إبهامُ الأحلام واشتباهَها، بل ربما كان ذلك مبالغاً فيه لقد احتفظ احتفاظاً أقوى بذكر بعض الفصول التي كان واثقاً ثقة ثابتةً أنه حلم بها... مثلا أن لصوصاً كانوا يسطون بشكل معتاد على غرفته وهو طفل، عن طريق الشرفة، مع طقطقة الأرضية الخشبية كل ليلة، ومع خفقان القلب الذي أصابه فيما بعد وهو مضطجعٌ، في الأسلاك الشائكة، في «الايبارج»...

كان السيد والسيدة «ليرتيلوا» على غير وفاق وإن لم ينفصل أحدهما عن الآخر. الأسبابُ ذاتها لها أو يبدو أن لها نتائج متعارضة.فالمشاجرات العائليةُ دفعت «ارماندين» إلى الزواج،أما «اوريليان» فقد كان يزعم أنه إن لم تكن له علاقات نسائية أو إن لم يتزوج فمردّ ذلك إلى تلك التجربة العائلية التي كانت تجري أمام عينيه، وكانت كلمةُ «عائلة» فضلاً عن ذلك، تتخذ في فمه مذاقاً مرّاً، مثل كثير من الكلمات. كان يزعم، في نهاية الأمر، ولكي يكون صادقا مع نفسه، كان يعترف أن تلك حجةٌ ملائمة، اخترعها ذات يوم وردّدها لكي يتخلص من المُسائلين والمزعجين. لقد اعتاد الناسُ أن الرجل إذا بلغ الثلاثين أفصح عن رغبته في الزواج واتخذت حياته مسارَ حياة الآخرين. ومَنْ لا ينصاعون لهذه القاعدة يثيرون السخط والقلق، على نحوٍ يقل أو يكثر، أي إن لم تكن فيهم آفةٌ ظاهرة، نقصٌ ينمّ على ذاته. ثم إن هناك الأزواج الذين يجدون هذه الحياةَ سيئةً. فالعزبُ دون علاقة غرامية شيطانٌ. كان يكفي أن يُرى اوريليان وهو يُحدد النظر إلى امرأة ليُدرِك الخطرُ. لا شك أنه لم يكن «دون جوان» لكن الآخرين لا يعلمون عن ذلك شيئاً. والقليل من الجاهزية الدائمة عند الرجل تغدو محسوسةً ولا تكاد تُغتفر لدى مَنْ ليسوا مثله، ولا سيما إن كان أطول منهم بسبعة سنتيمترات أو ثمانية، وإن كان عريض المنكبين، وبدا عليه أنه لا يتمّسك بشيء،

يجب دائماً أن نتذكّر أنه لم تكن لديه سوى ثلاث سنوات حرّة لكي يحدّد مصيره. ثلاث سنوات اراد فيها اوريليان أولاً أن يعوّض فيها تجربة الزمن الضائع، لا في الدّوامة العسكرية، لكن في حياته الخاصة. أرادت أخته على الفور أن تزوجه، كانت أخته على العموم تحبّ أن تزوّج الناس. كانت الحياة خارج الزواج تبدو لها غير ممكنة التصوّر، فارتمت بعزمٍ على «جاك ديبريه» منذ بلوغها سنّ الرشد، وارتاحت إلى ذلك. كان لها ذوقُها الراسخُ في الحب، والحاجةُ إلى الرجل الذي هو أساسُ عالمها. ولذلك كانت هذه المرأة الشريفة لا تفهم البتّة كيف لا يتزوج الإنسان، إلا أن يكون ذلك من جرّاء روح التهتك الكريهة. ولا بدّ من القول أنها لم يكن لها أيّ تأثير في أخيها الشاب، وفشلت جميعُ محاولاتها، بل إنها أبعدت أشدّ الابعاد، «اوريليان ليرتيلوا» عن الزواج. كان ـ هو واخته ارماندين ـ متباينين تبايناً شديداً، وكان يكفي ان تفكر على نحو من الأنحاء حتى ينعطف إلى قرار معاكس.

هذا التباين بينهما لم يكن معنوياً فحسب. لم يكن بينهما جامعٌ، من الناحية الجسدية، سوى القامة المشتركة. كانت ارماندين ديبريه امرأةً طويلة، لكنها ضخمة على خلاف اوريليان، مع ضربٍ من امتلاء الشبع، وجلد مشدود على عضلات ربلة، بحيث أنها لم تكن تُعطى أكثر من عشرين عاماً وأنها لم تبدُ قط في الاربعين. وكانت شقراء أيضاً، شقرتها معقولة تباين سواد شعر أخيها. شقرة ملساء بقدر ماكان سواده جعداً. وكانت هادئة، قوية. والخلاصةُ أنها كانت المرأة اللازمة لجاك ديبريه هذا الدموي، المشدود الحزام، الذي حافظ لفرط ممارسته الرياضة على المشية الخفيفة لجسد تترصّده السمنةُ، ذي شارب مدبّب وشعر قصير واقف، وذقن ضخمة، وعنق غليظ إلى الحد الذي لا يمكن العثور على قمصان له. وكان، على كل حال، يخدع ارماندين كثيراً. لكنه كان من اولئك الرجال الذين لا تكفيهم امرأةٌ واحدة، وحتى ولا المرأة النهمةُ مثل زوجته.

في المشاجرات بين السيد والسيدة «ليرتيلوا»، كان هذا الفرق الجسدي بين ولديهما موضوعاً يتردّد ما شاء له التردّد لأن ارماندين كانت حقاً تشبه

أباها. لكن اوريليان لم يكن يشبه لا السيد ليرتيلوا ولا أمه الجميلة، الرقيقة الجسم، الشديدة الخفّة، الدقيقة، مثل جميع أفراد أسرتها في اهلها. وكان الناسُ يؤكدون أن الوصية والقسمة في أسرة «ليرتيلوا» فُسّرتا على هذا الاساس، وان السيد «ليرتيلوا» ترك المعمل لابنته لا لابنه، وأن أرض «سان جينيه» آلت إلى الابن من جهة الأم. ولقد دار بخلد «اوريليان» أحياناً أنه ليس من أسرة «ليرتيلوا» وأن أمه عرفت عشيقاً، رجلاًطويلاً أسود من أقرانه وأوحى اليه بذلك، من جهة أخرى، أناسٌ طيبون. وربما كان بحّاراً. وبعدُ فلا قيمة تُذكر لهذا. كان اوريليان على جانب كبير من التهاون بحيث أنه لم يحاول قط جلاء هذه الحكاية وكان أحياناً لا يسوءه التفكير في أن هذه القصة حقيقية. فقد أحب كثيراً هذه الأم التافهة، الخارجة عن جادة الصواب، مع أنها لم تمنح ابنها الكبير الذي هبط عليها من السماء، سوى القليل من الوقت.

كانت ارماندين تكبره بثماني سنوات، ،كان عمره ثلاثة عشر عاماً عندما تزوجت. ولم تقم بدور الأخت الكبرى إلا عند عودته من الحرب لتقدّم له فتيات كانت ترعاهن وترى أنهن يصلحن أزواجاً لأخيها. كان قد وُضع في مدرسة داخلية ثانوية، لأنه كان يُضايق أباه وأمه. كان موضوعاً لأحقاد مستمرة. وبعد أن تزوجت ارماندين، كان وحده هو الذي يشوّش تلك الحياة الاجتماعية الراقية اتي تحياها فيرناند ليرتيلوا الجميلة. كان يحبّها، تلك الام الجميلة، على طريقته. كانت هي فكرته الأولى عن المرأة، بسبب التعقيد غير العادي لزينتها، والعناية التي كانت توليها نفسها. لم يكن يحب أباه الشديد الشبه بارماندين الى الحد الذي يغدو فيه ذلك الشبه مزعجاً، بشاربيه الطويلين ونظارته الأحادية الزجاجة. كان اوريليان الشاب في فوجه في «كوميرسي» عندما علم بتلك النهاية القاسية التي انتهت بها قصة والديه اللذين قُتلا كلاهما في حادث سيارة، على الطريق، قرب آفينيون. حادث. لم يقنع اوريليان قط قناعة تامة بأن سبب القتل حقاً حادثٌ. كان ابوه يقود السيارة فاندفعت بسرعة جنونية لترتطم بشجرة. كان أبوه يُحسن قيادة السيارة ولا شيء يفسّر هذا الجنون، هذه السرعة الطائشة،

هذه الوثبة فجأة خارج الطريق الذي لم يكن يمرّ عليه احدٌ. لعله الغضبُ، المشاجرةُ. كان عمرُ «فرناند ليرتيلوا» حينئذٍ ستة وأربعين عاماً، وكان الناس يتحدثون عن زينتها. وكان اوريليان يفكّر في أبيه، على الرغم منه،وكأنه قاتل. منذ عشرين سنة كان وميضُ القتْل في عينيه. ففي ذات يوم كان الوالد والابن عائدين فيه الى المنزل، وكان عمر اوريليان خمسة اعوام...

عندما يُقتل أبوك وامك في حادث سيارة فأنت تُمنَح اجازةً للدفن. جرى الدفنُ في «آفينيون»، في ريح الميسترال العنيفة، في قلب الشتاء من عام ١٩١٢. وقد كان هناك صديقٌ قديم للاسرة بادر الى الدفن، وكان الاولاد يدعونه العم «بليز»، مع أنه لم يكن شيئاً يذكر بالنسبة إليهم، وامرأته الطيبة التي لعلها كانت جميلة قبل اربعين سنة، بصوتها الجهوري وشعرها المسبّل، استقبلا اوريليان وعُنيا به. أما أختـه فلم يرها إلا في الموكب وقد انتظرت ثوب الحداد اربعـا وعشرين ساعة لتأتي، كان «ديبريه» وزوجته التي وصلت بثوب الحداد، يسيران خلف النعشين، مع ذلك الفتى العسكري الطويل، ووكيل الاسرة. وكان «ديبريه» يمسك «ارماندين» من ذراعها ليمنعها من النحيب. وكان يسحق تلك الذراع بقبضة رجل الأعمال الى الحد الذي استطاع فيه، عند المساء، أن يعد آثار تعزية أصابعه الخمس على جلد امرأته. حينئذ علم اوريليان نهائياً أنْ ليس بينه وبين هذين الزوجين، أسرته، أي جامع مشترك.

لكن اذا كان إلحاح «ديبريه» وزوجته على تزويجه قد أبعده عن الزواج، فربما كان بوسعه أن يُسارع فيربط حياته خارج الزواج، بامرأة كما كان يحلم بهن أو بامرأة قد يعجبها، بواحدة من تلك النساء اللواتي كان يعجبهن. لأنه كان مُعجِباً. ولم تبدر منه قط البوادرُ اتي قد تستبقي المرأة. وكل ماقام من علاقات بينه وبين فتوحاته النسائية ـ وفي هذه الكلمة شيءٌ من عدم الدقة بالنسبة إلى اوريليان ـ قد انحلّ بسرعة كبيرة لأن النساء لا يتحملن هذا الإغفال المزوج بالاحترام الذي يكنّه لهن. كان عزباً أيضاً بسبب كلّ هذه السنين بدون أي

شخص، ومنذ أول صباح كانت النساد يشعرن أنهن دخيلات عليه، ولا يغفرْن له ذلك.

ومع ذلك فقد فكّر أحياناً في صديقتين أو ثلاث كان يمكن لهّن أن يبقين هنا، أو أن يَعُدْنَ، أن يعدن دائماً إلى أن... كانت تلك أحلام يقظة غير تامة، ملتبسة. كان اوريليان يخشى أن يكذب على النساء، أن يُضطر إلى الكذب عليهن. لم يقل قط لامرأة أنا أحبك، مع أنه حاول أن يفكّر في ذلك. كانت له فكرة ساميةٌ جداً عن الحب. وكان له أيضاً هذا الحياءُ من الاعتراف بالحب. وهو حياءُ يستطيع أن يحول، أكثر من أي شيء آخر، دون ولادة الحب. لم يحبّ قط. كما كان واضحاً أنه لم يُحَبّ قط. ويمكن القولُ إن بعض النساء قد رضين باوريليان، لا أكثر، وهو في ذلك شبيه بأولئك الفتيات الجميلات اللواتي يلقين كثيراً من النجاح، لا من التعلق بهن. بل لقد ترك لدى عشيقاته إحساساً بأنه هو الفتاة في مغامرتهن. وكان ذلك يهزهن هزاً، ولا سيما بسبب مظهره الجسماني الذي يخلو من اللطف المتكلف. وكن ينفصلن عنه من ذاتهن، وقد أصابهن شيءٌ من الخيبة، دون أن يحقدن عليه، سعيدات لأنه لم يلحّ عليهن، ومتكّدرات. جسم عجيب.

كان يحتفظ بصداقاته الانثوية عندما يفقد الحب. بل كان يغدو موضعاً للسر مريحاً. والحاصل أنه لم يكن يترك آثاراً خطيرة، وكان ذلك مدهشاً لأنه كان يستطيع ان يمنح الدوار، لكن مرةً واحدة. وقلّما كانت تستأنف العلاقة، دون أن يُفسّر السببُ في ذلك.



ـ٥ـ

قالت بيرينيس: « مهلاً، يابنَ عمي، فهو لم ينظر إليّ».

وظهرت عليها المضايقة الشديدةالتي بدا أنها تزيد من شحوبها. وتابع بارينتان.

بما أني أكرّر لك أنه لم يكن له من همّ طوال الطريق سوى الكلام عليكِ، وطرح الأسئلة غير المباشرة، بلهجة من يخاف ان يكتشف الآخرون دخيلة نفسه...

قاطعته بلانشيت قائلة:

ـ أنت سخيف، ياصاحبي، بمضايقتك بيرينيس. فأنت ترى أن ذلك مزعج لها...

ـ وما المزعج في أن تُعجِبَ، وأن تُعجب شاباً مثل اوريليان الذي لا هو سيء ولا هو خالٍ من الجاذبية. وإذا كانت بيرينيس تعلّق على ذلك مثل هذه الأهمية، فأنا أميل إلى الاعتقاد أنها هي أيضاً...

نهضت بيرينيس وعَبَرتْ الصالة. بدا عليها أنها تتعذّب حقاً، وتبعها ادمون بنظره بين المقاعد والنمارق، مثل زورق بين صخور الشواطيء. وكانت ثلاث درجات عراض تفضي الى المكتبة بسقفها الجلدي القرطبي المذهب والأحمر والأسود. لكن المرأة الشابة لم تذهب بثوبها الأزرق طلباً لكتاب يَصْرفها عمّا كانت فيه، فمن المكتبة يمكن المرور الى المصطبة. والهواء الذي اندفع الى الغرفة دلّ على أنها فتحت النافذة.

كان عمر بلانشيت حينئذ سبعةً وعشرين عاماً. وقد احتفظت بضفائرها الشقراء ـ ضفائرها منذ أن كانت طالبة داخلية ـ المعقوصة على شكل دُويرات فوق الأذنين. كان وجهُها طويلاً كوجه أبيها، وكان مناسباً لها أنه سمنَ سمنةً خفيفةً. وكانت لا تكاد تفارق الثيابَ السوداء، وبدرت منها تلك الحركةُ المألوفة من يديها المفتوحتين عارضتين راحتيهما ومتباعدتين، وهي حركة كان ادمون يمازحها بها.

ـ رويدَكَ، لقد هِجْتَها مرةً أخرى... أنت تعلم جيداً أنها عصبية، وهي تأتي إلينا لتُسَرّي عن نفسها، وأنت سوف...

ـ أيتها الغِرّة الصغيرة، ما الذي يُسَرّي عن امرأة أكثر من رجل يغازلها.

ـ لكنه لا يغازلها...

ـ سوف يفعل ذلك.

ـ ماهذا، أهي مؤامرة؟

على المصطبة المعّرضة للريح، كانت بيرينيس ترتعب من كل خردوات السقوف فوقها قبعات الزنك، الخوذات ذات الدخان. فرسانٌ ودون كيشوت، مداخن... ثمّ هل في العالم منظر أبلغ تأثيراً من أعالي مباني «باسي» المتسلّقة فوق غيرها، والتي تشكل مايشبه نيويورك ضائعةً في أراضٍ غير مسكونة.

كان المنظر يُشرف على السين والقناة وجسر «الميترو» مع «التروكاديرو» و «شان دي مارس» وبرج «ايفل» وكل المدينة، كل المدينة اتي تنتهي بالبياض هناك، مثل عروس، بكنيسة «القلب الاقدس» وبين الفينة والفينة بريقٌ ذهبيٌ على قبة في شمس الشتاء. أعماقُ الشوارع كالشقوق.

لم تستطع «بيرينيس» أن تمنع نفسها ،من الجمع بين باريس الراعشة المجهولة المحفوفة بالاسرار وبين هذا الشاب الطويل الصَموت الذي لم يفعل مايضايقها، والذي لم يزد على أن ناولها صحفة الطعام، وإن التقت نظرتَه مرةً واحدة. قلبت الريحُ على المصطبة أصيصاً من الفخّار فتحطّم. وارتعبت بيرينيس واغرورقت فجأة عيناها بالدموع، أهو طالعُ سوء؟ كلا. لا ينبغي لها أن تستسلم للطوالع، كما كانت تستسلم قديماً في البيت الكبير، لا ينبغي لها، وباريس من حولها مترامية الأطراف، عير مضيافة، وعلى جيدها الرمادي أضواء وردية عريضه،.كان يدعى اوريليان.

دخلت الصالون «ماري روز» و«ماري فكتوار» مع المربيّة، كان عمر «ماري روز» سبع سنوات، من مواليد ١٩١٥، عندما انقطعت اخبار ادمون الذي كان في فردان، عن بلانشيت، وكان عمر «ماري فكتوار» بعمر النصر، أي ثلاث

سنوات ونصف، وكانتا تلبسان كلتاهما ثيابا بيضاء، وقد رُدّ شعرهُما إلى أعلى الرأس بشريط وردي، وكانتا كلتاهما تشبهان أمهما وجدهما صاحب سيارات الأجرة.

قالت المربيّة: سوف آخذهما إلى منتزه «رانلاغ». لكن «بلانشيت» كانت تنظر الى زوجها وهو يعبث بالهاتف.

- «مالكَ، ياصاحبي؟ (حسناً، يا آنسة، يمكنك أن تأخذيهما) لمن تُريد أن تهْتف، دون أن أسمع؟».

كانت تعرفه... وما كانت تعرفه فيه... احمرّ خجلاً، واغتاظ من أن أمره قد انكشف مرة أخرى.

- «أوه! دون أن تسمعي!، ماري روز هيّا، ألا تعانقين والدك؟ ليس لديّ ما أقوله للسيدة «دي بيرسيفال» مما لا تستطيعين... حسناً حسناً ياصغيرتي الحلوة، وأنت، ياصغيرتي «فكتوار»؟ (ورفع بيد ممدودة البنت الصغرى، وكأنه يريد أن يُرقصها في النور، ثم حطّها على الأرض، ولم تفارق يدُه الأخرى الهاتفَ)

«آه! تريد ان تهتف للسيدة «دي بيرسيفال»...؟»

امسكت الآنسة بالبنتين باتضاعٍ، وقد غاب لونها. وقادتهما إلى الباب. وعندما خرجت قال «ادمون»:

- أهو تقريعٌ لي؟

- تقريع؟ ياالهي، لا. بين عشيقاتك مَنْ تثير غيرتي، إلا «بيرسيفال» التي بلغت...

- ستة وثلاثين عاماً.

- تُصرّح هي بها! ويعود تاريخ حماقات شبابك معها إلى ... متى... إلى؟

قالت ادمون وهو يفرّق بين المقاطع

- سنة الف وتسعمئة وثماني عشرة، ياعزيزتي، كنت حبلى، وكانت الاجازات قصيرة

ـ لستُ ألومك على شيء.

ـ لا ينقصنا سوى هذا... بالمناسبة القطاع الهاتفي، هل تذكرين، أهو «باسي» أم...

ـ «تيرن»، كيف، ينبغي أن تعرف ذلك خيراً مني!

طلب الرقم من «تيرن» وهمس، وهو ينتظره، ويده على الهاتف، وقد استدار نصف دورة «لا استطيع أن أتصوّر أنّ «تيرن» هي القطاع الذي نطلب منه شارع «بيلفي»...»

لم تكن السيدة «دي بيرسيفال» في بيتها.

ـ طيب، سأمرّ عليها.

وقالت بلانشيت: «خُذْ لها شيئاً من البنفسج، فهي تحبّه، وهذا فصلُه...»



- ٦ -

عندما تلقّى «ليرتيلوا» دعوة السيدة ديرسيفال» وهي بطاقة خبازّية الون، نُقش عليها شمواهٌ[١] يثب من جبل صغير الى آخر تحت راية كُتب عليها. «أنا أخترق الوادي»[٢]، قلّبها عشر مرات بين اصابعه متسائلا عما يَعْنيه ذلك. لقد قُدّم، قبل ستة أشهر، في «بوا» ولم يعد يذكر مَنْ الذي قدّمه، إلى أرملة المؤلف المسرحي الذي كان زينةَ «البولفار» قبل الحرب. ثم اذا بها تدعوه فجأة، لم تكن البطاقة بطاقة زيارة مع «ستستقبل»، كلا، بل كلمة خطتّها بيدها. «أما زلتَ تذكرني؟؟؟ سيزورني بعضُ الأصدقاء مساء الخميس، فتفضّل، ياسيدي العزيز، بالانضمام اليهم في نحو الساعة العاشرة، بالسترة الرسمية لانها تناسبك. دون إلزام... ومن المستحسن أن تحضر قبل خمس دقائق، فإني أودّ أن أكلمّك قبل أن يصل المدعوون. وإذا أصْرَرْتَ أن تَحْمل إلي شيئاً ما، فليكنْ باقةً من البنفسج، لا بنفسج «بارم»، بل البنفسج العادي. لستُ أقبلُ شيئاً آخر ممّن أحبهم كثيراً!!! «ماري دي بيرسيفال».

تخيّلها مرة أخرة. ليست بالطويلة، ولا هي بالمائلة الى القصر، برأسها الكبير، وشعر بلون الحناء، وأساليب مركب يشق البحر، وساقين جميلتين تحب ان تُريهما، لكن في ذراعيها ونهديها نضجاً بارزاً... وتلك الشفة الرقيقة، النهمة.

نظر مرةً أخرى إلى البطاقة الخبّازيّة، ودهش من وفرة علامة التعجب والاستفهام، الثنائية والثلاثية، وكلمة «تفضّل» بأحرف كبيرة...

فكّر: «لن أذهب»، ونظر إلى مفكّرته... الخميس كان حراً.

كان «روبيردي بيرسيفال» طاعناً في السن بالنسبة إلى امرأته، عندما مات في غمرة الحرب، مما حرمه من نشر اسمه في باب الوفيات في الصحف

---

(١) شمواه حيوان مي جبال البرينيه المترجم

(٢) بين اخترق الوادي وبين الاسم بيرسفال جناس تام المترجم

كما كان من حقّه أن يأمله. كان ذلك في أيام هجوم «نيفيل». وكان الموتُ قد انخفضت قيمتُه قليلاً. لكن موته جاء في الوقت المناسب لكي لا يَحْرم من الإرث «ماري»، وكانت تحبّ الطيّارين، والجنود الانكليز، وحتى المدنيين، مع أنها كانت منفصلة عن زوجها فعلاً بعد مايشبه الفضيحة. ولم يصل الامريكيون إلا فيما بعد؛ إن منديلاً مخططاً وعليه نجوم ليُجمّل نقابَ امرأة. وهكذا فان حقوق مؤلف «ابتسمي للطفل»، «بابوجٌ وقلب»، نيني، اخفضيَ تنورتك»، وكثير غيرها من المسرحيات التي لاقت نجاحات باهرة جعلت الحياة ممكنة لهذه المرأة التي ماتزال شابة ولم تتجاوز السادسة والثلاثين. وقد جعلت من شقتها في شارع «البيل في» مُجمّعاً لأشياء غريبة، جميعها بيضاء، أكاليل نعوش، باقات أعراس لافتات نزل «إلى الجواد الأبيض» آنيةٌ لبنيّة بيضاء، كلب من الخزف مجعّد الوبر، داراب صغيرة من البورسلين الانجليزي، زنجي معرض يلبس ثياباً بيضاء، بالحجم الطبيعي، عند باب غرفة الطعام، وفي غرفة الطعام أغرب مجموعة من واقيات الصدر، من القمصان البيضاء، مع جميع النقوش والتخطيطات والمضلعات المصنوعة باللون الأبيض على نسيج أبيض من بلاد «الكو» حتى «اللاند»،مروراً بحفلات الاوبرا.

في الآنية المنتشرة في كل مكان، بنفسج وأزهارٌ كنسيّة مذهبة، الأثاث مذهّب، وهو مالم يعد يُصْنع، وعلى الآرائك والكرسي ساتان ابيض؛ أما الستائر فمبطنة باللون الذهبي عند النوافذ.

هذا الجنون حَمَل الناسَ على الإكثار من الكلام بل والكتابة، ونشرت «الفيغارو» حول ذلك رسالةً موجزة تقول فيها السيدة «دي بيرسيفال» إنه بما أن الآخرين يضعون على الجدران صحوناً كان يجب أن تكون على المائدة، فهي لا ترى لماذا لا تضع على تلك الجدران قمصاناً رجاليّة[1]، كانوا يقولون إنها قمصان عشّاقها. والحقيقة أبسط من ذلك دائماً.

---

(١) عير قياسية لكنها تناسب «نسائية» الشائعة

وفوق ربع مؤخرة بيانو أبيض من طراز «ايرار»[1] صورة سيدة المنزل رسمها «فان دنجن». تحت عينيها دوائر واسعة خضراء، وشعرها أحمر، وساقاها متصالبتان تبرزان من الفستان البرتقالي في تصغير جريء، وفي يدها سيجارة دخانُها أزرق. وكانت العلاقة بين الأصل والصورة معدّة للتأمل، مثل علاقة ما ينتقل إلى الخلود، بلا شك.

وصل اوريليان في الساعة العاشرة والدقيقة الخامسة والعشرين، وفي اعتقاده أن ذلك مضحك،ولم يكن يعلم إن كان مدعواً بعد العشاء، أو إن كانت السهرة تبدأ إذ ذاك. والواقع أنه لم يكن هناك أحدٌ، وأن الخادم أدخله إلى الغرفة الكبيرة التي كانت غارقة في الظلمة إلى نصفها، وسط أشباح بيضاء، واشياء تافهة متكدّسة. وكان الزنجي يحرس بابَ غرفة واطئة رأى فيها الأقداح والصحون وأنضاد الشطائر، والكافيار، والزجاجات، وادوات المزج. وفي داخلها كان النور نافذاً.

انتظر عشرين دقيقة كاملة بباقته من البنفسج، وقد استبدّ به شعور اللامعقول، ولا سيما بسبب كثرة البنفسج في الأصص، فما أكثر، إذن، الناس الذين «تحبّهم كثيراً» السيدة «دي بيرسيفال»...

أخرجه صوت منحدر من الرواق فوق، خلفه، من السُعار الهادر الذي كان فريسةً له.

«سيد ليرتيلوا»! كنتُ أعلم أنك ستأتي!

كانت تهبط الدرج في فستان مذهب، يغطي الصدر والكتفين، بلا أكمام، وقد بدا ضيقاً، وكانت تضع على شعرها قبعّة صغيرة مذهبة لها أجنحة قصيرة انتفخ من تحتها الشعر الناري القاتم. وخُيِّل إلى اوريليان أنه لم يكن يُرى في الوجه الناصع البياض سوى الفم الذي كان مثل خطٍ دقيق من الحمرة. أقبلت تمدّ يدها اليمنى، وترفع بيدها اليسرى الفستان القصير رفعاً خفيفاً. وهي بذلك كانت تُري ساقيها. لكنها عندما هبطت الدرج أخيراً، رآها اوريليان تتقدم

(١) صانع بيانوات فرنسي مشهور المترجم

بانفعال، لأنها لم تكن تمشي بل كانت تتقدم بسلطان جسمها، وتلك الطريقة الراقصة للحذاء الذهبي ذي الكعب الأسود، التي تتحدّى التوازن والتي تجعل بعض النساء لا يُقاوَمْن. وفكّر بكثير من عدم الاحترام «سيارة السيدة جاهزة...» ووقعت عيناه بتثاقل على ذلك العنق المزيّن، الممدود، المقبل عليه.

«آه! سيد ليرتيلوا، أنا عظيمة السرور برؤيتك هنا حتى لأظن أنني مجنونة حقاً... أو شاردة الذهن لأني لم أطلب منك أن تأتيني أبكر من ذلك... وهو يحمل لي باقةً من البنفسج»!

تناولتها منه بعجلة، وهو ينهض من تقبيل يدها الذي ترك على شفتيه الإحساس بشدّ خواتمها، وحملتها كما يُحمَلُ الشيءُ الثمينُ، الشديد الندرة، الذي لم يُرَ من قبل، كانت الباقة قدّامها لكي لا تغيب عن ناظريها، وذقنُها متّجهةٌ الى شيء أبيض سحبتْه من العتمة، من وراء المصابيح. وقالت

- ما أظرفه، مع ذلك!

تساءل اوريليان إن كانت تقصد البنفسج، ودهش قليلاً، كما دهش من الحركة المسرحية التي بدرت منها وهي تعود بأصيص الورود إليه. أجلستْه قربها، على أريكةٍ لشخصين، كان كلٌ منهما عليها بجانب الآخر وقبالته.

استَرْوحَ عطرها ولاحظت ذلك، وهتفت قائلة

- لا تسألني عن نوع عطري! سنبدأ صداقتنا برفض من قبلي، وسيكون ذلك فألاً سيئاً إن البوح بنوع العطر هو كالتعري أمام أول عابر سبيل.

وبدا عليها أنها لاحظت مافي هذا الحديث من فظاظةٍ، فوضعت يدها على يد اوريليان، فأحسّ مرة أخرى بخواتمها «ولستّ أول عابر سبيل...»أدرك ذلك جيداً، وفكّر في نفسه أنه لو طلب إليها أن تتعرّى لما تعرّضتْ صداقتهُما لأن تبدأ بالرفض. إلامَ كان ذلك يَقصد، على العموم؟ كان يتردّد بين البرودة والوقاحة، وتغلَبت الضرورةُ في أن يقول شيئاً على الوقاحة.

«إني أتساءل، ياسيدتي العزيزة، كيف تذكّرتني فجأة... إن صحّ تذكّري، ففي غاب بولوني، كان لي الشرف...» (وانحنى انحناءةً خفيفة.) «وإذن...

ـ إذن، ماذا؟ أيها السيد العزيز؟ أتظن أنه يسهل نسيانُك إذا كنتُ قد رأيتك هناك في الغاب؟

ـ كلا... الحاصل... كيف استطعتِ أن تعرفي أن السترة الرسمية تناسبني جداً؟»

نظرت إليه منذهلة، ثم تذكّرت، وانقلبت لتُحسن الضحك، وضحكت أخيراً ضحكة حادة...

«أولاً، يجب أن يقال ذلك دائماً للرجال. فهذا يحيّرهم ويرضي غرورهم، ويسرّهم، ثم ما الخطر؟ السترة الرسمية تناسب دائماً أكثر من السترة العادية...»

نظرت إليه خلسة لترى إن كان ظنّه قد خاب. لم يخب ظنّه، كان يبتسم، وربما كان يبتسم بشيء من الضيق. وأدرك من جهة أخرى لعبتها، تلك النظرة المائلة. فغيّرت مناورتها.

«بالنسبة اليك، كنتُ رأيتُكَ بالسترة الرسمية مرّتين أو ثلاثاً، من بعيد، مع السيدة «دي نوتنكور...»

أظهر توجعّه من الغمزة بـ«آه»؟ تنمّ على الضيق، مما أطلق الضحك ثانية، وأحسّت السيدة «دي بيرسيفال» أن عليها تنمية هذا الضيق...

«نعم،وطبعاً، أنت لم تلحظ حضوري، لما تعودّتَ من أن تتجه جميعُ الأنظار اليك...

ـاقسمُ لكِ أنني إن كنتُ أتذكّر حقا... في حفلة سترافنسكي الموسيقية...

ـ لا... في «البوف»

ـ أوه! كان هناك زحمةٌ شديدة...

ـ وفي سهرة تلك الراقصة الدادائية...»

لجأ من جديد إلى الوقاحة.

ـ في حفلة كارياتيس؟ ممكن... لكني كنت باللباس...»

نظرت السيدة «دي بيرسيفال» نظرة الصياد إلى الطريدة التي وثت وثبةً

لعلها لا تنفعها، لكنها أخّرت إطلاق النار

ـ جميلةٌ هي «ديان دي نوتنكور... وإن كانت قاصرة فكرياً قليلاً.. أنت تحبها كثيراً، فيما أعتقد؟»

أراد «اوريليان» أن يقول «كان ذلك فى العام الفائت...» لكنه جَبُنَ وصاغ فكرته:

ـ إنها امرأة رائعة، أؤكد لك ذلك.

ـ أوه! أنا أعرفها. نحن من جيل واحد.

ومرة أخرى، فكّر اوريليان على هامش ماكان يقوله «من جيل واحدٍ... هذه كلمة مطّاطة...» لا أهمية لما قاله، ولا ريب في أن ذلك بدا لمحدثته في كل مرة مثل إضاءة للعينين اللتين لاتلبثان أن تنطفئا على الفور، لتكونا شاهدتين على هذه المناجاة الداخلية، صالبت ساقيها وكشف الذهب عن ركبتيها. كانت تعلم ماتفعله، وانخفضت عينا «اوريليان».

استأنفت كلامها

ـ«ديان تبدو شابة بالنسبة إلى الستة والثلاثين عاماً، في الحقيقة، كلانا، أنا وهي، كان يمكن أن نكون صديقتين للسيدة والدتك.

ـ كانت أمي تحب كثيراً البنات الصغيرات...

ـ مجامل...

ـ عمري ثلاثون عاما...»

عضّ شفتيه: كان ذلك فوق الحدّ. لقد حاد عن هدفه وهو أن يعلم لماذا استدعته هذه المرأة. قطّب بين حاجبيه.

ـ «كل هذا يُبعدنا، ياسيدتي العزيزة، عن السترة الرسمية... ما الذي ذكّرك بوجودي على هذا النحو المُسعد لي؟»

تملصت من الجواب، وردّت فستانها، وكأن نظرات اوريليان أذعرتْها.

«اوه! أنا أعلم جيداً من أجل مَنْ جئتَ هذا المساء!

ـ عجباً!....

- أنت ترى، أيها الطائش، أنك لم تأتِ من أجلي!»

أحسّ بنفسه أنه أحمق، فاحتجّ

قالت:

- «لا، لا. أعرف مَنْ يشغلكَ في هذه اللحظة، وهي ليست السيدة «دي نوتنكور... ولسوف تراها... وسأتواطأ معك، بما أنه لا بدّ من ذلك!»

تنهدت، انزعج، وتخوّف من إظهار انزعاجه، «تعجّب قائلاً:

- «أنتِ تحدثينني عما لا أفهمه! بل جئتُ لأراك... وأنا أجهل كلّ الجهل مَنْ تنتظرين، ومن جهة أخرى...

- اوه! حسناً، اطمئن. سوف تأتي.

- مَنْ هذه؟ أوكد لك أنْ ليس هناك «هذه»...

- اوه! ممتاز، ممتاز، كنْ متحفّظاً! يالك من رجل عالي التهذيب! لكن لا تقلْ إنك جئتَ من أجلي...»

أوشك أن يلفظ شيئاً لا سبيل إلى مُقاومته، شيئاً مقنعاً ليدلّل على صدق نيّته: الحقيقة على كل حال... أنه لم يأت من أجل السيدة «دي بيرسيفال» بل من اجل علامات التعجب. كان يشتاق الى معرفة المرأة التي تبذّر على هذا النحو بعلامات التعجب. لعل ذلك لن يقع موقعاً حسناً. لكنه كان سيفعله لو لم يدخل أحدهم.

كان شاباً لم يكد يتجاوز العشرين إلا قليلاً، بسترة رمادية فاتحة، بعيداً عن العناية بأناقته، وسخ الحذاء، وليس في بنطاله ثنيةٌ. مع ذلك الهزال، هزال السن، وشعر كث رُدّ إلى الخلف ووجه شاحب كثير الحركة.

قالت السيدة «دي بيرسيفال» وهي تناوله أصابعها

- بول، وصلتَ متأخراً جداً، وأنتَ لم تلبس... ألم تلتقيا من قبل؟ «بول ديني» الشاعر... السيد «اوريليان ليرتيلوا»...

- أهلاً... تعلمين، ياماري، أن سترتي الرسمية غير صالحة...

- لا، ماذا جرى لها؟

ـ مالكِ، لقد قلت لك ثلاث مرات . أنني أحرقتها في ظهرها بقنديل «بنسن»...

ـ ومن آين جاءتك هذه الفكرة؟

ـ إنها ليست فكره، احترقت بقنديل «بنسين»...

ـ السترات الرسمية وقناديل «بنسين» يابول، ليس لها أي مسوّغ للالتقاء خارج الشعر الحديث...

ـ شرحتُ لكِ أن ماحدث كان في ذلك المساء، في مُخْـ....

ـ وهل تلبس اللباس الرسمي حين تذهب الى المختبر؟»

والتفتت إلى اوريليان

ـ بول ديني لا يكتفي بإن يكون شاعراً. فهو يجمّد جميع انواع الأسماك والأفاعي في المعهد ألاوقيانوغرافي.

ـ إنني أدرس نقطة تجمّد السوائل الداخلية في الحيوانات

شرح الوافدُ الجديد ذلك متوجهاً إلى «ليرتيلوا» بلهجة صوته الحميمة المختلفة جداً عن اللهجة التي استأنف بها قوله

ـ كنتُ قد ارتديتُ ثيابي لكي لا أعود إلى «آسنير» ولكي لا تنتظريني... ولا سيما أنني مضطر إلى البقاء إلى مابعد الساعة الثامنة مساء في ذلك المختبر مع تلك الدعاميص المشؤومة... ثم إني حين جئت لأتحقق من أن كل شيء في مكانه، استدرتُ، وكان هناك قنديل بنسين...

ـ طيّب، دعْكَ من السترة الرسمية.. لكن لديك سترة زرقاء، ومالم أعطك مربّيةً، فانك تخرج مدعوكاً على نحو غريب... وهذا الحذاء... اذهب، يا عزيزي إلى المطبخ، سيمسحونه لك... سيأتيني زوّارُهذا المساء...»

تمتم الشاب شيئاً بلهجة غاضبة، لكنه خرج من باب صغير في صدر غرفة الطعام، وخطف في طريقه شطيرةً خطف امرىء يتردد على هذا المنزل، ودلّ بذلك على دوره فيه. تبعتْه «ماري دي بيرسيفال» بعينيها.

ـ «اثنان وعشرون عاماً، تصوّرْ! أقلّ مني بأربعة عشر عاما... وله موهبة

غنية... وهو عازف بيان! سوف تسمعه! لكن أربعة عشر عاماً!... الحاصل...
هذا يجعلني مضحكة، لأن ابني الأكبر له من العمر أربعة عشر عاماً، ياسيد
ايرتيلوا، أنا، ابني الأكبر له أربعة عشر عاماً! ألا ترى أن هذا لا يُصدّق؟...»

انتظرتْ أن يقول «لا يُصدّق!»، ولم يقلها.

أردفت.

- تزوجتُ وأنا جد فتية...لكن الشيء الغريب أن يكون لنا ابنٌ بكاد...
يكاد... اتفهمي؟ بالطبع، أنتَ لا تتصوّر..

- يمكن أن يكون لي ابن اربعة عشر عاماً... كنتُ مبكّر النضج..

- لا؟ كان لا بد أن تبلغ الخامسة عشرة...

- لم أبلغها تماماً...

- يا للفظاعة! عندما أفكر أن ماكس ربما... هو ابني...

آه! أنت لا تعلم إلى أي حدّ لا تطيق الأمّ مثل هذه الفكرة...

- لقد كانت لي أم، ياسيدتي العزيزة...

دخل «بول ديني» مسروراً من حذائه، وقال:

- أهو يلمع جيداً؟

- أيها الصبي الوسخ! اعزفْ لنا شيئاً ليُغْفَرَ لك!»

تكلّف التمنّع، ثم رفع غطاء البيان، وجلس وأخذ يوقّع أنغاماً مؤتلفة، دون
أن يعزف شيئاً، مستطرداً من نغم إلى نغم.

- أنتَ لا تُحتَمل، يابول، أنت لا تُحتَمل هذا المساء... اعزف شيئاً، في
نهاية الأمر!»

كان يتسلّى بعزف موسيا «الجاز» لا أكثر...

قالت لاوريليان:

- ينبغي ألا تُعيره انتباهاً، وتلك أفضل وسيلة لكي نحصل منه على شيء،
نعم، تصوّر أن ماكس الكبير ابني... أربعة عشر عاماً... هاوٍ للأدب... إنه يتشبه
«دي بيرسيفال»، بالتأكيد... وهو ينظم الأشعار أيضاً... ولعله تأثّر قليلاً بجان

كوكتو .. ياالهي، لمَ لا؟ «سول ديني» لا يسمعنا لحسن الحظ... إنه لا يطيق كوكتو في فن الرسم... إنه فريدٌ من نوعه في وسطه... وعندما يتحدّثون عنه، فكأنه في الحقيقة... أنا، أحبّ جان كثيراً، إنه طريفٌ، وله أفكاره، ونباهته... أتعرفه؟

كان اوريليان قد رآه، لكنه لم يكن يعرفه «ـ اسمعْ، لقد قلتُ لك ذلك! إنه يَعْزف الآن... «لاغـازا لادرا»... اه! أنا أعـشق روسـيني، «دونيـزيتي»... «ايلزير»... جميعُ الناس في هذا الزمن على كل حال... أتعرف «الايطالية في الجزائر»... و «نورما»... لا أحد يستطيع، في أيامنا، أن يغنّي «نورما»...

كان اوريليان يتساءل مَنْ سيلقى هذا المساء عند السيدة «دي بيرسيفال» وهو ساهٍ عن هذه الموسيقا الايطالية التي لم يكد يحبّها، عندما توافدت زمرُ الحضور، بينما كانت ماري تغيّر الإضاءة، وتُظهر دفعةً واحدة مصابيحَ صغيرة في جميع الارتفاعات مثل النجوم في تلك الغرفة، وكشّافاً للنور أبيض كبيرا في السقف، فوق منطقةٍ من العتمة.

حضر أولاً زوجان مسنان، المرأةُ بلفافة خضراء على شعرها الرمادي، وفستان متسذّر، أما الرجل فكان عقيداً، عقيداً جداً، مدبّب الشاربين، الشعرة التي لا تريد أن تنتظم مع اخواتها. وقبل أن ينتهي التعارف حضر آل باربنتان مع ابنة العم من الريف... وآنسة يونانية بثوب أسود، كل مافيها كبير، الأنف والعينان والقدمان وذراعاها العاريتان اللتان لم تكونا تستطيعان أن تلتقطا وشاحاً فاتحاً. كانت السيدة «دي بيرسيفال منهمكة».

هل يعرف الجميعُ بعضهُم بعضاً؟... السيد ليرتيلوا... العقيد والسيدة دافيد... الآنسة آغا توبولوس... الجميع يعرفون آل باربنتان، لا؟ أعتذر... ادمون باربنتان الآنسة آغا توبولوس.. السيدة باربنتان... اوه! ما آغباني! أروع الجميع، ابنة عمكما السيدة... السيدة...»

كانت «بيرينيس» مركز الاهتمام

قالت بلانشيت باربنتان بعجلة «السيدة لوسيان موريل...

ـ بالضبط... السيدة موريل... أين أضعتُ رأسي؟ أنا التي لم تنظّم هذه السهرة إلا من أجلها، من أجلها!... إنها فاتنة! ابُرزي... لكي ينظروا إليك، باسبدي، ما أجمل هذا الفستان!» أجل، كان فستاناً جميلاً، أسود في الأسفل، مع رسمٍ لخطوط بيضاء تعرضُ كلما صعدتْ، مثل دوائر حول حجر أُلقي في الماء، وبهايته بيضاء عند تقويرته، أشد بياضاً من الساتان مع دثار اسود صغير ملقىً على الكتفين. ولعل الفستان أو المرأة هما مايستوقف، هذا الجسم وهو أكثر لحماً وأكثر امتلاءً مما يُؤذن به هذا الوجه الخالي من الاتساق، على كل حال، زمّتْ الآنسة آغاتوبولوس شفتيها ونظر الجميع إلى بيرينيس (السيدة لوسيان موريل، كما فكّر اوريليان). قالت، مثل طفلةٍ صغيرة، بتصميمٍ مفاجىء وبحركة من فمها تشبه القبلة «لوتوس».

دهشتْ السيدة «دي بيرسيفال» «كيف»؟ ماذا تقول؟

ـ «لوتوس» [(١)] كانت هي الكلمة التي سُمعتْ حقاً، اتجهت ربّةُ المنزل، وعليها مظهر الأشخاص الكبار الذينْ يتخلّون عن فهم ولدٍ، اتجهت باستفهامها الصامت إلى السيدة باربنتان التي كانت ترتدي فستاناً ضيّقاً رمادياً، عاري الظهر، له ذيلٌ مما كان يُعْمَل حينئذٍ، مربّع لكنه من الكبر بحيث تتعثّر به القدمان.

أوضحتْ بلانشيت:

ـ قالت «لوتوس، وهو اسم الفستان في مجموعة الخيّاط

ـ آه! حسنٌ... وهو من عند مَنْ...

ـ «بواريه!»

صرخت بيرينيس بالاسم وبعجلة أصعدت الدم إلى وجنتيها. كانت فخورة بأن تملك فستاناً من عند «بواريه». هزت السيدة دي بيرسيفال رأسها، وعيناها تلمعان

ـ كان ينبغي لي أن أخمّن ذلك.

---

(١) نيلوفر أبيض.

أحسّ اوريليان كم في هذه الجملة الصغيرة من نقدٍ ومن ازدراء لهذه الريفية اتي تجري بشكل طبيعي الى «بواريه»، ولم يكن بوسع أحد أن يعلم أن الفكرة كانت فكرة بلانشيت التي أعطت ابنةَ عمّ زوجها هذا الفستان، خصّيصاً لهذه السهرة.

«آسف، يا صديقتي العزيزة، لقد نسيتني... فأنت لم تعرّفي بي...»

كان هذا «بول ديني» الذي برز من عند البيان مثل اليعازر الذي قام من بين الاموات.

«أوه! صحيح. بول... بول ديني، الشاعر... السيدة بارينتان، السيدة موريل...»

وكانت الآنسة آغاتوبولوس تثرثر مع السيدة دافيد والعقيد، وجرّ ادمون السيدة دي بيرسيفال إلى زاوية. قالت «بيرينيس» بحرارةٍ وبصوت منخفض لبلانشيتْ: «الشاعر، هذا شاعر! هل قرأتِ أشعاره؟ فأسكتتْها الأخرى. كان اوريليان يتابع اللعبة. كان ذلك مثيراً... وإن ساءته قبل مرّة. من المؤكد أن ذلك كان بسبب الفستان..

سألت السيدة بيرسيفال باربانتان.

ـ حسناً، هل أنت مسرور؟ أهذا ماكنتَ تتمناه؟

ـ أجل، ياصديقتي العزيزة، أنتِ لم تتغيري... فأنتِ ذكيةٌ أبداً في الصداقة وفي اللذة...

ـ اسكتْ... لو سمعكَ بول... إن لي الفضل في ذلك، وصاحبك اوريليان يعجبني...

ـ سيكون لكِ متى شئتِ، ياماري، لأن بيرينيس لن تلبث في باريس الا قليلاً... وإذا كنتُ أرغب في أن تحمل ذكرى تستعيدها عنه، فلا أريد أن يكون ما تحتفظ به حزناً...

ـ لستُ أفهمك.

ـ اوه! حسناً، إن اوريليان الوسيم معروف، وهو ليس بالخطير. فمغامراته

تنحل كما تنعقد، وبلا مأساة، وهذا ما يلائمني بالنسبة إلى ابنة عمي. هوىً عابر...

ـ أنا معجبةٌ بك، ياادمون، أنا معجبة بك. أنتَ تملك التصرّف بها وبه... وقبل كل شيء لم يتم هذا بعد...

ـ سوف يتم...

ـ رائع! لكن يجب ان تكون لذلك الحرارة التي تلائمك... لهب غير مسرف الطول... ثم تنفخ عليه متى رأيتَ أنه يجب أن ينطفىء... أتعلم أن هذا خطر!

ـ دعكِ من ذلك! أنتِ تتحدثين عن هذه الأمور مثل طالبة داخلية. إن بيرينيس بلغت النضج اذي يتيح لها أن تخدع زوجها.. وتصوري أنني لست، غاضباً، غبيّ «لوسيان» هذا...

ـ ماحاجتكَ إذن، ياعزيزي، إلى «ليرتيلوا» هذا؟ فأنت نفسك فتى كبير...

ـ لم تُحسني التفكير... بيرينيس ابنة عمي... ثم هناك بلانشيت...

ـ لأن ذلك يضايقك...

لنقلْ إنني لا أجدُ رغبةً...

كانت السيدة باربنتان تتقدم نحوهما.

«كنت أقول لزوجك، ياعزيزتي، أنني أجد السيدة «موريل» بكل بساطة، عذبةً... وأنني لو كنتُ في مكانه... لكنه لا يتطلع إلى سواك...

قالت بلانشيت:

ـ أتظنين ذلك حقاً؟

وجلستْ بجانبهما على طريقتها المتأنّقة، أَرْوحَ جلسةٍ واندفعت في الحديث عن انتصارات «ادمون»، وهو حديث دفعه الى الفرار.

قضى اوريليان، على عادته، بعض الوقت كي يُدرك أن السؤال الذي طرحه عى ماري دي بيرسيفال يجد جوابه في الأحداث نفسها، لم تكن تتوقع أن يغازل الآنسة آغا توبولوس، ولا السيدة باربنتان... وأذن، فالأمر واضح. ثم ألم تقل إن السهرة كانت عى شرف بيرينيس... على شرف السيدة لوسيان

موريل؟ لكن كيف خطر لهذه المرأة أن تعتقد أنه جاء من أجل بيرينيس؟

كانت بيرينيس تحادث الشاعر، وكان الشاعر يبدو كالصبي المراهق الفاسد سعيداً جداً في ان تخصّه «اللوتوس» بالامتياز. كما بدا عليه أنه يجد ذلك جدّ طبيعي. شخصان من عمر واحد مع ان عمر بيرينيس ربما كان اربعة وعشرين عاماً... أو ثلاثة وعشرين.

كان الشاعر يشرح لها.

ـ لديّ كتيّب طُبع حديثاً في «سان بارى» ومخطوطةً لدى «كرا»... نعم... لا... ليست قصائد، هذه المرة...

ـ أهي رواية؟

ـ لا، لا. لا يُخيفني سوى شيء واحد هو أن تُعْتَبر رواية... إنها نوعٌ من النزهة، حلم يقظة، شيء لا يمكن تصنيفه، وفيها استطرادات في كل الاتجاهات، قليلٌ من جان جاك، وقليلٌ من «ستيرن»... أوه! يجب أن أسكت، فمن الغباء المسرف ايضاح ذلك... ثم إنك عديمة الاكتراث لذلك!

ـ لستُ عديمة الاكتراث البتّة. هذا يهمني، أتعلم أنني أقرأ، ألتهم... نزهةُ حلم يقظة... أين يقع ذلك؟

ـ ليتنا نتحدّث عن شيء آخر؟ ماذا تحبيّن. وما الذي تعرفينه قبل كل شيء؟

ـ اوه! ستقول عني إنني غبيّةٌ شديدة الغباء... «مولن الكبير» ثم «شارل لوي فيليب»... ورامبو طبعاً...

ـ آه؟ رامبو؟

غيّر لهجته. أصبح مهتمّاً بدوره.

ـ ألا ترعبين في شطيرة، في شيء من «الجن»، أتحبين آبولينير؟

فطن اوريليان أنه لا يكلّم أحداً وأنه ينظر إلى بيرينيس. هل سيقع، مثلاً، في شباك السيدة «دي بيرسيفال» هكذا؟ أين تلك السيدة موريل التي أرادت أن تراه ثانيةً؟ ليس في الأمور ماينبىء بذلك. وفجأة ثارت ثائرته. لسبب خفي أريد

له أن يهتم ببيرينيس هذه. كلا. بل سيهتّم بـ... بمَنْ؟ بالآنسة آغاتوبولوس مثلا، ينبغي انتزاعها من العقيد، من العقيد وزوجته. فتقدّم نحو الثلاثة.

ـ ألم ألقك، يا آنسة لدى آل «شلزر» منذ ثلاثة أشهر؟

ـ طبعاً... ما أعظم ذاكرتك! كان هناك خلقٌ كثير... وكنتُ قد وصلتُ لتويّ إلى باريس...

كانت تلفظ الراء غيناً على نحو بشع. قال العقيد

ـ آه! اليونان! أنت تشعرين، دون شك، أنك تهبطين علينا من «الاولمب»... الاكروبول... رينان...

ومن تحت لفافة الرأس الخضراء برز صوتُ السيدة دافيد العميق مع شيء من اللهجة الألزاسية كما يبرز الحلزون

ـ لاتحدّث الآنسة عن اليونان، ياصاحبي، هي أعرفُ بها منكَ... هل زرت اليونان، ياسيد «ليرتيلوا»؟

تحدّث عن سالونيك. ونظر إلى الرفيقة اتي اختارها لنفسه، يمكن أن تفسد السهرة. جسمٌ غريب، أما بالنسبة الى اليونان فكانت مرسومة رسماً مثل شخصيات نجود «بايو».

لكنه شاهد بطرف عينه السيدة دي بيرسيفال تراقبه. قال في نفسه مهما يكن من أمر فإن في هذا الفتاة الطويلة غير المتناسقة شيئاً مثيراً... وعلق العقيدُ بباربنتان. وبدا على امرأته تعبيرٌ أصابَ قلبَ اوريليان: لقد أحسّت أنها غريبة بينه وبين اليونانية، بعد أن تركها زوجُها... حينئذ ارتفع صوت البيان من جديد، وكان من الممكن رؤية كأس[1] بيرينيس الأسود والأبيض منحنياً على الموسيقا، وبول ديني يعزف، وقد ظهرت على وجهه تكشيرات صغيرة تشفّ عن الجهد الذي تبذله أصابعه. بدت حركة كتفيه وجسده كله، إلى ذراعيه الرقاصتين

(١) كأس زهرة اللوتس أوكمّها المترجم

اللتين كأنهما تضفران قشاً. كان يعزف موسيقا الجاز البطيئة.

قال العقيد.

ـ ياسيد باربنتال، كيف حالُ النائب الشيخ؟

ـ شكراً لك، أبي مايزال كما كان. نشاط جنوني. وقد سمعتُ انه يُعَدّ صالحاً للوزارة وهذا مايُشعرني بأني ابن متآمر.

ـ إنه يصلح لأن يكون وزيراً ممتازاً للصحة...

كانت بيرينيس تتابع الموسيقا على وجه «بول ديني» الصبياني. ذلك الفم الحَرِد والغريب. كان يعزف شيئاً غريباً بهجاً. وقد سُرّت حين تعرّفتْ المعزوفة، قالت

ـ «بولنك»!

رفع الآخرُ ذقنه مدهوشاً.

ـ أتعرفينها؟ أتعجبكِ؟

أجابت «نعم» برأسها، وعيناها مفتوحتان، واضافت.

ـ إنها تُضحك.

مما دفع العازف الى زمّ شفتيه، وتساءل إن كان ينبغي أن يَسْتغرب هذه الريفية أو أن يتعالى عليها، وأخذ يعزف شيئاً غريباً، نشازاً.

ـ وهذه، هل تعرفينها؟ ماقولُكِ؟ (لا، لم تكن بيرينيس تعرفها) إنها من موسيقا «جان فريديريك سيكر»... شاب... موسيقي عظيم...

ومن طريقة قوله «شاب» كان يمكن أن يُفهَمَ أن «بولنك» الذي لعله كان في الثالثة والعشرين لم يعد شاباً بالنسبة اليه.

وفجأة، حدث في الغرفة شيء كالريح. رأت بيرينيس في عيني بول أن شيئاً قد طرأ.

كان الإعصارُ امرأة دخلت. كان وراءها رجلٌ، لكن المرأة هي التي دخلت. لم تكن كالاعصار، كانت كشيء مثل ريح البحر. ماكان بالامكان معرفة ما الذي

يختلف فيها هذا الاختلاف عن الآخرين، لكن، يا للعجب، كم كانت مختلفة!...
كانت صامتة كلّ الصمت، ولم تتخلص بعد من الظلمة ومن الشارع، وكتفاها مرتفعتان بعد ان خلعت لتوها معطفاً كان ضرورياً جداً في هذا البرد القارس. لم تشأ أن تفرض نفسها بألقها، كان في عينيها قصرُ نظر واهدابهما طويلة لم تكد تتشقق بعضها عن بعض، وكان الرأس مردوداً إلى الخلف، والذقن جدّ حادة، وبدا العنقُ الضخم، بسبب تقويرة الفستان الضيق، كأنما ينزل إلى مابين النهدين، إلى موضع النهدين.

همست بيرينيس «ما اجملها!»

لم تكن هذه الكلمة هي المناسبة، لكن اللغة فقيرةٌ جداً، ولم يَعْرض لها غيرُها. كانت امرأةً كبيرة، طويلة أكثر منها كبيرة، امرأة طويلة شقراء، رمادية، مجمّلة بالمساحيق بحيث بدت شديدة الشحوب. كانت بعمر مَنْ تجاوز الشباب، وليس بالوسع أن يمتنع المرءُ عندما يتساءل ماعمرُها؟ عن التفكير في أن عمرها هو عمر الحب.

قال اوريليان كنتُ غبياً. فلم تكن بيرينيس هي المقصودة!

كان يعلم مَنْ هي هذه الوافدة الأخيرة في فستانها المخملي الأخضر المائي، أطول مما كان يُلبَسُ هذا العام، هذا الفستان الذي كان جديراً أن يجعل من جميع النساء الأخريات لو ارتدينه حزمةً من الحزم، بطيّاته حول الخصر التي تنطلق منه رأساً لتتكسّرعند العقبين مثل احجار التماثيل، وهذا الشريط الأسود الذي يلتف حول الشعر المقصوص، شعر فتى مجنون يتذكره الناس بسبب «داننزيو»، بسبب مشهد «الساتليه» المشهور في نهاية آخر نصرٍ لها حيث تمسك في الفضاء فوق الرأس خصلة من الشعر ملفوفة على يدها اليسرى. كان الجميع يعرفونها، حتى بيرينيس التي لم تتعرّفها، اتجهت السيدة «دي بيرسيفال» اليها وكان بالطبع، في الحركة المزدوجه لهاتين المرأتين، خصومةٌ، صراعٌ يَختصر صداقةً وألفَ غيرةٍ. وفكّر اوريليان في انهما ستفترس كلٌ منهما الاخرى. فتعانقتا.

همس «بول» لبيرينيس «هذه «رور ملروز «فقالت: لذلك هي عظيمة الجمال! وسألت والسيد؟ - هذا زوجها...

كان يبدو كمن يعتذر عن وجوده، كان أطول منها، لكنه كان يتدبّر أمره لكي لا يُلحظ ذلك. لا بد أن يفكر أنه كان نافعاً مثل زينة طاعية في إثرها. كان جديراً بأن يحمل ذيل فستانها لو كان لفستانها ذيل. وفضلاً عن ذلك سبقها في الدخول.

فلعله كان سيحمل لها الكراسي، سيهيّء لها مكاناً، وسيعود بطوق ذهبي، بدرّاجة، بطاولة حمراء، بمنديل...

هتفت ماري دي بيرسيفال

- روزتي، روزتي! ياله من فستان لا يُصدّق... لا يُصدّق... القديم! القديم! فقط «فيوبي» كالعادة؟ كنتُ أُخمّنُ ذلك... ليس هناك سواها... لو كان لي أنا فستان كهذا لبدوتُ مثل بائعة في سوق الخضروات... لكن روز هذه! إنها برديه وكأن لم يكن شيء!

حينئذ أحدثت «روزملروز» تأثيرها، حينئذ فقط بعد أن ظُن أن الدهشة بها قد زالت، ذلك أن صوتها قد دخل المكان، لا سبيل الى التعبير بغير ذلك. كان صوتاً محتشماً دافئاً في آن واحد، شبيهاً بالرعشة، قالت

- اسقني، اسقني شيئاً ياماري، شيئاً من الكحول، أي شيء... الجوّ فظيع... كدتُ أموت في الخارج...

بادر الجميعُ، الرجال. لكن زوجها سبقهم.

هذا التحفّظ، هذا الجبين العريض، هاتان العينان الشديدتا السواد... كان زوجها رجلاً شديد الهزال، وربما كان أصغر سناً مما يبدو، بجبينه الهادىء المتغضّن، وقناعه الاجتماعي الراقي، وذلك البطء في الحركات الذي تكذّبه المهارةُ السريعة التي خدمَ بها زوجته. كان ثمة شيءُ مؤثّر في العناية التي نمّ عليها شخصُه. وكان، بين جميع الرجال هنا، الوحيد الذي يحرص بوضوح على أناقته، لم يكن في سترته الرسمية شيء خاص، أو لعله ضيق الكمّين؛ ومع

ذلك فإن هذه السترة الرسمية تبدو أنه قد فُكّر فيها. وكان وجهه مائلاً إلى السمنة على نحوٍ غير منتظر. لا شيء غير وجهه، ليس جميلاً على الإطلاق، كان يبدو رجلاً مهماً، لكنه كان يمكن أن يكون مراقباً في المسرح جاءت به روز إرضاءً لهواها. لا بد أنه يعلم ذلك، ويمارسه

لم تهدأ الجلبة التي أثارتها كلمات «روز» الاولى.

كان هناك توافد الرجال للسلام على الممثلة الكبيرة ومسارعتهم الخرقاء ليُنسوا النساءَ الأخريات تلك اللحظة التي أهملوهن بها، أضف إلى ذلك صوت السيدة دي بيرسيفال الذي عدا حاداً وهي تطلب الشمبانيا الفاخرة والكافيار، مع أنها كانت تفضل الشطائر بالسلطة والويسكي الايرلندية.

ترك بول ديني البيان وقام بدور الخادمة في المنزل، وبين يديه صحون تريد أن تنهار وثلاثة أقداح في يد واحدة. وصاحت به الآنسة آغاتوبولوس «إياكَ فستاني، لكن هذا الإنذار كان كاذباً. فهدأت ورأت حينئذٍ أن اوريليان، بجنبها، لم يكن ينظر الا إلى «روز»، وقالت وعلى فمها الكبير تعبير هزلي ومرّ: «لا بأس! لقد خانني الحظّ، هذا المساء، إني أرى ذلك جيداً» وشدّت باصابعها على كمّ «ليرتيلوا»، فالتفت اليها مذهولاً. ربما كانت بشعة لكنها لم تكن غبية. احمرّ قليلاً وقال. «ماذا تقصدين؟» وكأنه لم يفهم. هزّت رأسها وقالت ستذهب من غير شك وتحمل إلي أيضاً كأساً من الشمبانيا؟ فأسرع، مرتبكاً ومرّ بين بلانشيت وزوج «روز» اللذين كانا يتحادثان عند مدخل غرفة الطعام، وسمع مرة أخرى قرب الطاولة باربنتان يشرح للعقيد. «لقد تزوجّتْ طبيبها... بعد أن أعيتها الحيلُ... كان الدكتور «ديكور» يصرّ كثيراً منذ سنوات... فهو يعْبدها... وهو يسهر على جسمها، ووجهها، ومجدها وشبابها... إنه يخترع لها حليباً ودهوناً... لقد عرفته قليلاً من قبل...

وبينما كان يعود ومعه كأس الشمبانيا انتزعتْه ماري من الآنسة «آغاتوبولوس» وكانت ماري تبدو وكأنها التهبتْ على حين غرّة، واستفاقت على

الرغبة في اثارة الإعجاب، في أن تلمع، من جرّاء ظهور «روز» المتهدّد.

تناولت اليونانية الكأس على عجلٍ، وكان فمُها كفم مهرّج مسكين، كأنها تريد أن تقول لاوريليان: «أرأيتَ؟»، حاول أن يقول «لا» بعينيه، لكن السيدة دي بيرسيفال اختصرت هذا النفي، وسحبته.

- كيف تضيّع سهرتك مع هذا الحصان الكبير،ياصاحبي العزيز، ثمّة مَنْ ينتظرك، هيّا.

- حقاً، أنت عظيمة الطيب، ولم يضع الوقتُ سدى....

- الرجال مجانين: إني أهيئ لقاءً... ثم إني...

- النساء غريبات لمَ تفعلين ذلك؟

- قلْ شكراً ولا تسألْني أكثر من ذلك، أنا أحبّ «زوي» كثيراً... الآنسة «آغاتوبولوس»... لكنك ستُصاب بلطمات لمجرّد الكلام معها...

- لستُ من رأيكِ... إن لها سحراً... أتعلمين ما الذي يُقال عن النساء الكبيرات الانوف.

أنتَ قليلُ الحياء... ليس هذا هو المقصود.

- وما المقصود، ياسيدتي العزيزة معي أنا، هذا هو المقصود دائماً... فعندما أنظر إليك، أقول في نفسي...

- إياك أن تقول لي ذلك! هيّا خلّصْ السيدة موريل من هذا التور الصغير «بول ديني»... حبّاً وصداقةً لي...

- غيورة؟

- دعْكَ من هذا! لكنْ أين تربّي هذا الوحش! إنها تنتظرك.

- مَنْ؟ بيرينيس؟

عضّ شفتيه:

- قصدتُ السيدة موريل... أنتِ تمزحين! أتظنين انني لم أفهم؟

- تفهم ماذا؟

- أنك لم تستدعيني إلا من أجلكِ، من أجلكِ وحدكِ...

قال ذلك وانحنى عليها بخبثٍ انحناءةَ المحبّ الأول، ومن وراء ماري، كان

ينظر إلى «روز» جالسة على نمرق في هالةٍ من الظل، وهي تتحدّث مع باربنتان واقفاً.

قالت ماري وهي مغتبطة:

ـ أنت مغرورٌ، أنت مغرور يظنّ أن جميع النساء عند قدميه وأنْ ليس عليه الا أن يختار، لكن مع ذلك، أتختار «زوي»!

ـ إذا كثرت النسوةُ ضعتُ، وقد يكون من المؤكّد أن آخذ الزنجية... هذا مفهوم...

ـ اصغِ إليّ، بيتي ليس... كيف يقال ذلك على نحو لائقٍ؟ ماخوراً...

ـ أفضّل أن أكون عديم اللياقة...

ـ لا تخاطر! هيا اذهبْ والقَ السيدة موريل!

ـ لكن ماهذا الاصرار، في النهاية! أن كنتِ تعتقدين أنني ضللتُ طريقي هذا الزمن الطويل... كوني لطيفةً...

التبس على السيدة دي يرسيفال معنى هذه الكلمات الأخيرة فأغمضت عينيها.

ـ كوني لطيفة... أهي التي طلبت إليك أن تجمعينا؟

ـ السيدة موريل (وتفتّحت عيناها) يا الهي، لا!

ـ كفى مزاحاً... ليست السيدة موريل... أهي السيدة ملروز...

ـ روز؟ آه! عجيب! إني أمنعك من هذا... مَنْ شئتَ، لكن غير روز! لن أتقبّل هذا.

ـ تظاهري بالبراءة...

أقسمُ لكَ... هذه بلاهة... إنني أعبد الدكتور... زوجها... أما هي فأنا أنذركَ، أنا غيورة...

كان اوريليان كلما احتجت هنّأ نفسه على نفاذ بصيرته. الأمرُ واضحُ لكل ذي عينين، إنما استدعته من أجل «روز». إن له أولاً فكرةً خاطئة عن المثلات. ثم إن السيدة دي يرسيفال كانت ماكرةً كانت تتصور أن تدفعه جهاراً إلى امرأة أخرى، لأنها اكتشفت فيه روح المخالفة الذي اوشك أن يفعل

فعله ضد بيرينيس بلا سبب، ومن قبيل الحذر... لكنه كان يشتاق، ولو مرة، أن يحمل نفسه حملاً... كان به فضولٌ إلى معرفة روز...

- روز، لا، ياصغيري روز، لا! سوف اغتاظ من ذلك. كلتانا تعبد الأخرى، أتفهم... القصة طويلة... مع بيرسيفال قديما... ولاحظْ، مع بيرسيفال لم أكن أبالي... إنها امرأة غير عادية... لا ينبغي أن أقول لك ذلك، أنا حمقاء... لا أستطيع أن أكون ظالمة... أتفهم، كلما أعجبني رجل... جميع النساء يمكننا مقاومتهن... لكن هذه لها نبوغُها... النبوغ... انه لشيءٌ غدّار، النبوغ عند امرأة... ثم ينبغي لها أن تدعني وشأني... إن لها فنّها، وانتصاراتها، لن تفعل أنتَ بي هذا! لستُ مستبدّةً برأيي مَنْ تريدُ، بلانشيت، زوي، هيّا، زوي، بما أنها تشوقُك...»

تظاهر اوريليان أنه لم يلحظ أن ماري تمنحه ثقتها، ولا اللهجة التي اتخذها الحديثُ فجأةً. لقد قُلبتْ الأشياءُ بينهما على حين غرة وكأنها مقرّرة. كانت تغازله... وكأنه كانت هناك اسابيع من الاستيضاحات، من مواعيد لم تتمّ، ورسائل، ومغاضبات، أتاحت لهما أن يصلا إلى هذا الحدّ... لكن «ليرتيلوا» كان يعلم أن ذلك كان يتضمن خطتين متناقضتين، موضوعين يتتاليان، كالموضوعين في التتالي الموسيقي... المكرُ، المكر! كل ذلك لكي تدفعه دفعاً أشد إلى هذه المرأة... سأل:

- ما عمرها؟

أدارت «ماري» رأسها مرتين وقد دهشت «مَنْ؟ روز؟ آه! لا، أنا أصرّح بعمري، لا بعمر صديقاتي... يمكن أن نخطىء... نجاحاتها من قبل الحرب... نجاحاتها الأولى...

- لعلها كانت فتيّة جداً...

- نعم، بالتأكيد... كُنّا كلنا فتيات جدا قبل الحرب... كلّنا... وروز أيضاً... لا تكاد تكبرني ألا قليلاً... قليلا... دقيقٌ أمرُ التذكّر...

- على كل حال بحسب زوجها...

ـ أوه! الدكـتـور «ديكور» أصـغـر منهـا بكثـيـر! لا بد أنه بلغ الثـالثـة والثـلاثين... لا أقل من عـشـر سنوات... ومع ذلك فـإن «روز» لم تبلـغ الأربعين... وهل تبلـغ المرأة الأربعين إذا كـانت «روز»؟ وهو يـعـبـدهـا، أتعلم. هذا يؤلمني أحياناً.، لأن لها فنّها، وأنت تفهم ذلك. ذلك العالم الخاص بها حيث لا يدخل هو، لا شك أنه يتألم في بعض الأيام...»

تركها تتحدّث، بدأ يحّس بحضورها، حتى وهو يفكّر في «روز» بدأ يدرك كيف ستكون في سريرها. وهو الأمر الذي استشفّه بغموض في رسالتها... علامات التعجب... وفاجأ نفسه وهو يحلم، ياله من تناقض! مثل الصياد الذي لا ينـي يغيّر طريدته، بل لقد فكر على نـحـو لاذع في إحـدى تناقـضـاته الأشـد ادهاشـاً: فـقـبل هنيـهة أعرضَ عن بيـرينيس لأنه ظن أنه يُدفَع إليـهـا دفـعـاً، أما الآن، فكلما اكتشف لعبة ماري المزدوجة، وكلما ثبّتته انكاراتها الماهرة على روز، ازداد انسياقاً وازداد انزلاقُه في المنحدر تحت قدميه...

قاطع «بول ديني» ماري التي لم تنته من كلامـهـا عن «روز» وزوجهـا. وجهُ خبيث المزاج، فمُ طفلٍ مشرفٍ على البكاء، وقد ازداد شعره الكستنائي تشعّثاً.

ـ مامعنى هذا، ياسيدتي؟ لم توجهي إلي الكلام طوال السـهرة... وصلتُ، فوجدتكِ مع هذا السيد...

كان يتكلم بقوة، ويقوم بحركات، أوقفتْه ماري

ـ مابكَ يا«بول»؟ مشاحنة؟ لسنا وحدنا...

ـ لا أبالي... أنت تهزئين بي... تهملينني... لا تتركين السيّد...

وأشـار بـحـركـة طويلة، شـأن المرة السـابقـة إلى «اوريليـان» الذي أخـذ يضحك.

ـ أستطيع أن أقول لك بسهولة، ياصغيري بول، أنكَ لم تُفارقْ السيدة «موريل» طوال السهرة...

ـ هذه هي الغيرة إذن! لا تغشّي، ياماري. أنا الغيور، وأنا لي الحقّ...

ـ لك الحق في أن تسكت أو في أن تذهب لتنام.. اعــــذرْني، ســـيّد «ليرتيلوا»...

وجّرت شاعرها بذراعه، ابتعد اوريليان واشعل سيجارة، وتردّد بين اتجاهين، نحو «روز» أو نحو «بيرينيس». ومال إلى بيرينيس لأن الأمر كان أقل خطراً، لكنه اصطدم بباربنتان الذي ترك امرأته مع روز، والسيدة دافيد مع الدكتور. وشاءت لعبة المبادلة الدائرية أن تتحدّث بيرينيس، في ركنها، مع العقيد.

ـ هيّا، ادمون، أفهمْني قليلا، العقيد دافيد. ماهو؟ وماذا يفعل هذان الزوجان هنا؟

ـ هما يقضيان السهرة... مثلنا وفيما عدا ذلك، لعب العقيد دوراً سياسياً ما... لا يمكن أنك لم تسمع عنه... كان تماماً من جماعة الجنرال بيكار، في بداية القرن... ثم خدعوه، كان ينبغي أن يُرفَّع فجعلوه يُراوِح في مكانه... بيد أن هناك من يروي القصة رواية مختلفة... ترك الجيش، وكان مدير مكتب في وزارة الحرب، أو شيئاً من هذا القبيل. وقد زعموا أنه انتقم من رؤسائه... لا أدري، فأنا أحبهّ كثيراً، إنه رجلٌ رائع، وهم ذوو آراءٍ شتّى... إنه يعمل مع «بريان»... الغريب بالنسبة الى عقيد مثله أنه داعية متحمّس من دعاة نزع السلاح... داعٍ إلى السلام...

تجهّم «اوريليان» عقيد يدعو إلى السلام؟ يا للعبث! لاحظ «باربنتان»:

ـ عجباً، ها إن المحاربَ القديم يعود إلى الظهور فيك! لم أر لك مثل هذه الهيئة منذ «فردان»...

ـ اغربْ عني مع «فردان»... لكن نزع السلاح! في اليوم الذي نغادر فيه «الرين»...

ـ اوه! أنت تعلم أنني أُرهقتُ خلال السنوات الأربع، أَدَعُ لك أمر العناية بهؤلاء النسوة الجميلات... وإن تفضّلت فخلّصْ لي ابنةَ عمي من العقيد... مع أن هذه البنت الغريبة الأطوار يبدو عليها أنها تجد تسلية بالغةً معه... (وتجلّى

المكرُعلى وجهه المنتظم، المشدود كثيراً) وإلا أعدتك إلى الآنسة «زوي بولوس»... كنت تبدو شديد التعلّق بهذه الفتاة المشوّهة.

ـ دعك من هذا! من أين طلعتْ هذه؟

ـ من أملاك ابيها الذي أوى ماري عندما قامت برحلتها إلى «السيكلات» في سنة فائتةٍ... أتعلم أين تقع أملاك الوالد؟ في «ليسبوس». هذا يوضح كل شيء...

دفعه بلطمةٍ مفاجئة نحو بيرينيس، انحنى اوريليان ليعود إلى روز، لكنْ، في هذه اللحظة، وبينماكان «بول ديني» يصبّ كأساً من الويسكي وهو بادي السخط، تقدّمت السيدة «دي بيرسيفال» من روز، ويداها ممدودتان قائلةً بأعلى صوتها:

ـ لن ترفضي طلبنا يا «روزنا» العظيمة... أليس كذلك، يا روز؟ الجميع.. السيد «ليرتيلوا» مثلاً...

تساءل لماذا لفظت اسمه، لم يسمعْ جيداً الكلمات الأولى...

ـ الجميع... جميعهم... هذا الشاعر الصغير الذي لا يُطاق... العقيد... ولا أذكر لكِ النساءَ، يا روز، إني أعرفكِ... ستقولين لنا شيئاًما!

سُمع «بول ديني» يختنق في كأس الويسكي، وارتفعتْ ضوضاءُ التوسّلات. بلى... بلى... اوه، أرجوكِ... لمَ لا... بينما كانت روز تؤكد أنها دخّنت كثيراً، وأنها فقدتْ صوتها، لأنها متعبة... وفجأةً أحسّ بمَنْ لامسَ ذراعه.

فالتفتَ ورأى بيرينيس: كانت تومىء إيماءً بعينيها المفتوحتين لتشير إلى الممثلة. لم يستطع اوريليان أن يمنع نفسه من التفكير في الشبه بين هذه المرأة الشابة وبين أحد حيوانات الغابات. بدت كأنما تنبعث من تحت الأوراق بنظرتها، نظرة الظبية، تلك الماسة السوداء التي لا أضلاع لها...

سألها، فهمست:

ـ اطلبْ منها، أنتَ... لن ترفض لك طلباً...

ـ يالها من فكرة غريبة!

قالت:

ـ لا أستطيع، أنا...

وفجأةً، رمتْ بنفسها إلى الوراء، وقد أرعبها هذا الاعتراف، وخاطبت بلانشيت، من جهتها، الدكتور «ديكور»

ـ دكتور! قلْ لها... إنها تسمع منك...

ـ ما أعظم هذا الخطأ، ياسيدتي! فلا سلطان لي على «روز ملروز»...

انسلّ بول ديني بكأسه إلى جانب اوريليان، وهمس:

ـ قلْ لي، هل أدركت مايجري، نحن في عام ١٩٢١... وسوف تلقي السيدةُ اشعاراً... في صالون.. من المؤسف أنْ ليس هاهنا مدفأةٌ لمرفقها...

اقتنعت الممثلةُ، فنهضت، وأمسكتْ عنقَها بيديها كأنما تريد أن تُدفىء حنجرتها، مع حركة من الكتفين تعني دون شك

ليكنْ مايكون... كانت بجانب مصباح على ساقٍ، وكانت كمّتهُ البيضاء الذهبية تتيح للضوء الخافت أن يمرّ نحو وجهها، لكن جسدها المغمور بالضوء مباشرة بدا في ثنايا الفستان هو الجوهري، الجوهري اللاشعوري للكلمات الآتية من الرأس، وكان هناك حفيف الحرير المتسارع الذي أحدثه فستانُ بلانشيت وهي تجلس، والذبذبة المبهمة للرجال لكي يروا رؤيةً أفضل، وهبط على الوجوه شفقٌ من الانتباه،

أغمضت روز عينيها، وأخذت نفساً عميقاً كأنه تنهيدة، وشوهد نهداها يرتعشان، وذراعاها تمتدّان على طول جسدها، ويداها خلفها، وصار في الجوّ ضيقٌ شديد، سُمِعَ الصمتُ، وأحسّ الناسُ بدقات الساعة الجدارية التي لم تكن تُلحَظ حتى الآن، أين كانت هذه الساعةُ الجدارية؟ ثم إن التمثال انتعش برعشات، ولم تكد تتحرك الثنايا الخضراء المائية، وارتفعت الذداعان، وتصالبتا، كأنما كانتا تبحثان، على الكتفين، عن خِمار غير مرئي، كان التمثال

ينضمّ بين ذراعيه نفسه. وانفتحت العينان ببطء، وتلوّى الفمُ قليلاً، واتّخذ الشكلَ الفارغ لقبلة، وملأه صوتٌ، صوتٌ راعش، صوتٌ لاشبيه له:

«عانقتُ فجر الصيف... لم يكن يتحرّك شيءٌ على واجهة القصور. كان الماء راكداً. لم تفارق معسكراتُ الظلال دربَ الغابات، سرتُ موقظاً الأنفاسَ الحيّةَ والفاترة، نظرت الأحجارُ الكريمة، ونهضتْ أجنحةٌ بلا ضوضاء...[1]»

لم يستطع اوريليان ان يرفع عينيه عن يدي «بول ديني» الشاحبتين اللتين كانتا تتشنجان حول كأسه. كان يُخشى من أن يكسرها، إذ أن الأصابع العصبية كانت تتسلّق وتهبط. كان هذا الشاب متضايقاً تماماً، وقد انتابه نوعٌ من الحياء الهائج، فخفض أنفه وكفّ عن النظر الى الممثلة. دُهش اوريليان إذ أنه لم يرقط على وجه «إنسانيّ» تعبيراً عن البغض بهذا النقاء وهذه الشدة. كان في هذا التعبير شيءٌ بَعيدٌ جداً عن التناسب مع المشهد، حتى إنه لم يعر القصيدة سوى انتباه تافه، متمسكاً، دون أن يعلم لماذا، بهذا الهمس الفضي الذي للقصيدة في مركزها حيث تُحدث كلمة «شلاّل» صوتاً غريباً.

«في أعلى الدرب، قرب غابة من الغار، لففتهُ بالغلائل المجمّعة، وأحسستُ قليلاً بجسده الضخم. الملاك والصبي في أسفل الغابة... وعند اليقظة كان الوقت ظهراً».

تعاظم الصوتُ كالانتصار، ،دوّت الجملة الأخيرة التي هي ختام آخر القصيدة مثل الأجراس المعدنية. ودهش الحضور لأنهم لم يسمعوا الدقات الاثنتي عشرة. ضوضاء المستمعين المتخلّصين، المقدّرين، المتنوعين، والتعجب الذي عبّروا عنه، وفظاعة الإطراءات، واللهجة الزائفة للصفات...

همس اوريليان في أذن «بول ديني» تمالكْ نفسك.. فذلك يُرى...

كان ذلك كأنما أدير الزرّ الكهربائي. فجرى الدمُ من جديد تحت جلد الوجه. وانتعشت العينان. وأدركت اليدان أن ماتمسكان به كأسٌ. تنهّد «بول»

---

(١) النص لرامبو من الإشراقات. **المترجم**

تنهّداً خفيفاً ومال نحو جاره:

«... البغيّ... لاأستطيع أن أتحمّل هذا... كل ماتشاء، ماعدا هذا... ماعدا هذا... ماعدا رامبو...

قال «اوريليان» الذي لم يعرف أن القصيدة لرامبو

- آه! أكان رامبو؟

وفكّر أن «روز» كانت رائعة، ومضحكة قليلاً ككل مايلامس المأساوي. وكان حساساً لما جعل الشاب يصكّ أسنانه. وكذلك للمرأة الواقفة أمامه، لهذا الحسّ العجيب بالجمود والاضطراب. قال «بول» أيضاً: «البغيّ...» وشرب جرعة كبيرة من الويسكي. ازدحم الناسَ حول «روز» يتوسّلون إليها أن تقول أيضاً شيئاً آخر، ماتشاء... فاقترح بول على اوريليان. «الذئب والحمل[1]...» وسمح لنفسه بضحكة صغيرة... إنها تتمنّع لتُلقي ذلك المثل! أحس اوريليان بانزعاج من مشاركته بهذا الهرء. فأشاح بوجهه، ووقعت عيناه على بيرينيس. كانت العبرات المنهمرة تجري على خدّيها. عبرات حرّى غير مكفكفه. وعيناها غائبتان كأنما تتابعان أغنيةً.

وبناء على طلب الطبيب، أي على اقتراحه، بدأت الممثّلة العظيمة قصيدة لـ«داننزيو»، قصيدته لفرنسا التي ألقتها في العالم كله...

❊ ❊ ❊

(١) من أمثال لافونتين. **المترجم**

— ٧ —

كان «اوريليان» يعرف في نفسه هذا العيب، هذه السمة من سمات الطبع على الأقل، التي تجعله لايُتمّ شيئاً، لاالفكرة ولا المغامرة. كان العالم عنده مليئاً بالاستطرادات التي تقوده دائماً على غير هدى. كان مايعزم عليه من عزم ومن قرارات يُخفق أمام ذلك. لم يكن ذلك من قبيل التردّد. لكنه لما كان موضعاً للجذب من كلّ شيء فعلام يقتصر؟ وهو لم يكد يصوغ لنفسه حقيقة مؤكّدة حتى يبدو غير المؤكد فيها، وحتى يكون مستعداً للمراهنة ضد نفسه، ولاعتناق اليقين المضاد.

إن هذه الأمسية كلها، عند السيدة دي بيرسفال التي استبدّ به منها حنقٌ على مناورة لم يُحط علماً بها، وإن أخذ يتصوّرها، قد ألفَتْه موزّعاً بين حركاتٍ شتّى: فالشعور المعتاد أكثر من غيره وهو أن يُقاوم كل ماأريد له أن يفعله كان يوشك أن يُخلي مكانه لدى اوريليان لمجرّد الفضول في أن يسترسل في لعبةٍ لم يشارك فيها. لكن أقوى الإغراءات كان تنوّع النساء. كان اوريليان ميّالاً بطبيعته الى الانتقال من هذه الى تلك، وقادراً على النشوة مع «روزي» الهزيلة الشنيعة ومع روز العظيمة التناسق، العارفة من غير شك بأمور الحب، على حدّ سواء. كان بوسعه أن يتصوّر نفسه مع «زوي» في أغطية السرير، وأن يتصوّر الحركات العجلة التي بها تطفىء الكهرباء، وكيف ستخلع فستانها. لكنه كان يحمل من شارع «بيل توي» بخاصة هاجس ماري، لما في ذلك من إمكان، من احتمال، من بذل. إن الرجل لايدع امرأة تمضي دون إحساسٍ رهيب بالتشوّش، بالخيبة. لقد تخيّل ساقيها، وحذاءها من عند «هلستر»، وأحس بيديها الملوعتين بالخواتم.

ومع ذلك فإن «روز»... وجه روز الساكن تقريباً، الذي لاعمر له كالحب. هذا التمثال الخارج من بين أصابع المدلّك الماهرة. هذا الجسد المنقوع بالحليب

والفكر، السرّ... وكونها كانت عشيقة غابرييل داننزيو لم يكن يملؤه بالأوهام بل إن ذلك كان يضايقه قليلاً. كان يحب لها أن تكون أقرب الى الإغفال. لكن هناك مع ذلك جاذبية المسرح، لمن يعرفه معرفة سيئة. عطر الأسطورة...

وفي وسط ذلك كله، كان كلما أعرض عنها؛ وكلما ألحت عليه صورةٌ أخرى، محتْ بقوة أعظم النساء الأخريات. تكاد لاتكون امرأة أو صورة، وكانت تعثر في أقل الأشياء على قوتها، وقدرتها على أن تُلهي عن غيرها. التعبير الهارب الذي تغيّر الذاكرة طبيعته، حين تثبته... هذا المزيج من الصينيّة (اللوتوس) والنار... هذه الطبيعيّة أي... فبين جميع النساء الحاضرات هذا المساء، كانت هي وحدها تجلس وتنهض لتجلس وتنهض، هي وحدها التي تتنفّس بلا خداع... هل هذا مؤكد، بعد كل شيء؟ رأى مرة أخرى دموعها على خدها، فاهتزّ اهتزازاً أشدّ من ذي قبل... عندما كانت تسيل حقاً... لابدّ أن «روز» تُتقن البكاء. لكن «تتقن»...! وأخيراً لمَ يخفي عن نفسه ممّ كان يتكون وسواسُ بيرينيس بخاصة؟ كان اوريليان يعرف مابه من غرور، أية كبرياء مجنونة يجب أن يملكها الإنسان لكي لا يكون مجبولاً بالغرور! إن الرجل الذي لايهزّه اعترافُ امرأة ويعدّه ديناً مستحقاً.. هذا الرجل غير موجود. كان اوريليان يسمع بيرينيس بوضوح، كما لو أن الكلمات لُفظت في لحظتها «... لن أستطيع، أنا...» وفرار عينيها، عيني الظبية المطاردة، في نهاية الجملة.

«لن أستطيع، أنا...» ماذا أرادت أن تقول بالضبط. ينبغي له أن يستعيد السياق بيقين. كان ممكناً مع ذلك أنها تقصد أنها لن تجرؤ على مواجهة السيدة ملروز... بكل بساطة. فكيف لم تخطر هذه الفكرة له؟ تفسير طبيعي. أحسّ بالحجل قليلاً ألاّ يجد هذا التفسير إلا بعد فوات الوقت. أكان ينبغي له أن يكون مغروراً أكثر مما كان يظن؟ حسناً، المشكلة حُلّتْ... فليكنْ. ومع ذلك...

ومع ذلك فهو لم يتردّد إذ ذاك في التأويل الممكن. ولكي لايظهر له الالتباس فيها، كان لابد من عنصر آخر، فُقد منذ ذلك الوقت، من نور البداهة

التي ترافق الكلام... كان يصغي في ذاكرته الى النبرة التي وضعتها بيرينيس في ذلك الكلام... لم يكن الأمر كذلك... كان يغش نفسه بالتأكيد... كان يغش نفسه.. وكان الصدى الخدّاع يضعف ماشاء له الضعفُ. «لن أستطيع أنا...» كان هذا صوته هو لاصوتها هي، كان يريد بكل قوة أن يقولها ماسمعه دون أن يفكّر فيه. فماذا الذي فهمه؟ «لن أستطيع، أنا...» نعم هذه المرة، كان الأمر كذلك.. تقريباً... هل أرادت أن تقول حقاً... لن أستطيع أنا أن أرفض... شيئاً... لو طلبته مني... مهما يكن ذلك الشيء... أنا بيرينيس... لك أنتَ، اوريليان... رأى نفسه مضحكاً· إن تجزئة هذه الجملة الصغيرة ردّه الى المدرسة... التحليلات.. أستطيع فعل مضارع من فعل استطاع... كفى!

لأن ذلك قد يَعْني أيضاً: «لن أستطيع، أنا، أن أرفض ذلك لرجل... أي رجل... أي لأحدهم... لا أُحسن الرفض...»

لماذا إذن ذلك الانسحاب المفاجىء؟ لعلها أدركت، بعد أن تكلّمت المعنى الآخر الذي اتّخذته الجملة بالنسبة إليها... على كل حال، كان هو مُبْعَداً من الجملة... ولم تتضمّنه صراحةً. «أستطيع، أنا...»

آه، هذه المرة، استعاد ذلك النبرَ العابر! لم يكن هو الذي يفكّر، بل بيرينيس... بيرينيس... أية عذوبة يضعها في هذا الاسم... فاجأ نفسه. لاشك أن هذه العذوبة كانت تناسب ملكة قيصرية لاالسيدة لوسيان موريل. لم تكن هذه أول مرة يستدرك فيها خطأه ليسمّيها باسم زوجها. وكأنه يلوم نفسه على هذه الدالّة، أو كأنه يخافها، أو يخاف شيئاً من هذه الدالة. غير معقول.

وردّد أمام نفسه· بيرينيس... ليقنع نفسه برباطة جأشه.. بيرينيس... بيرينيس... وهاهو ذا يرى العبرات... السيدة لوسيان موريل.

حسناً. ماهذه المازوشية؟ إن كان اسم بيرينيس يعجبه... أراد أن يمتحن نفسه تماماً، فقال همساً، وقد تأكد من أنه يَملك وحده سرّ الأداء المضبوط «لن أستطيع، أنا..» لم يكن شيئاً سوى اوريليان وهو يتكلم بصوت الرجل... دعك، بمَ رحت تفكر؟ أيها النادل، سيد كار!

كان اوريليان متّكئاً بمرفقه في حانة «لولي»، فـي «مونمارتر». لقد توقف هنا، آلياً، بعد شـارع «بيل فوي». كان ثمة شيء يزيل عنه النعاس. لعله جميع هؤلاء النسوة. أو إحداهن. كانت آفة اوريليان أنه يسير في النوم. وكان يحب أن يشرد في أماكن النور هذه حيث لاتنطفىء الحياة إذا نام الآخرون. كانت له هنا عاداته. وينبغي ألا نـحث كثيراً في سهرة «ماري» عن أسباب هذا التسكّع. لقد جاء الى هذا المكان بالأمس وربما قاده إليه الغدُ أيضاً.

«أنت وحدكَ».

التفتَ وابتسم لسيمون. لقد سئمتْ من مراقصة الروّاد. فاتكأت بمرفقها قربه.



— ٨ —

لايجد الباريسيون اللذة التي يجدها الريفيون بمدينتهم. فباريس بالنسبة إليهم، أولاً تنحصر في مستوى عاداتهم وفضولهم. الباريسي يحوّل مدينته الى بعض الأحياء، فيجهل كلَّ مايتجاوزها، كل مايكفّ أن يكون باريس بالنسبة إليه. ثمّ ليس هناك ذلك الشعور المتصل تقريباً بالضياع الذي هو السحر الحلال. تلك الطمأنينة في ألاّ نعرف أحداً وألاّ يلقانا أحدٌ مصادفةً. كان يقع له أن يحسّ هذا الإحساس الغريب، على العكس، في المدن الصغيرة التي يمر بها مروراً، والتي يكون فيها الوحيد الذي لايعرف أحداً من الآخرين.

لكنْ فكّر في الأمر عندما يسلّمك هذا التخفّي تلك الغابة من الحجارة، تلك الصحارى المرصوفة.

كانت بيرينيس تستمتع بوحدتها. لأول مرة في حياتها غدت سيّدة نفسها. فلا بلانشيت ولادمون كانا يفكّران في استبقائها. ولم تكن ملزمةً حتى لأن تهتف لتقول إنها لن تعود للغداء عندما كان يحلو لها أن تتابع نزهتها. أوه، يالشتاء باريس الجميل، ووحله، وقذارته، وشمسه على حين غرّة! حتى ذلك المطر الناعم الذي أخذ يروقها هنا، فإذا غدا شديد النفاذ، وجدت المتاجر والمتاحف والمقاهي والمترو. كل شيء سهلٌ في باريس. لاشيء أبداً شبيه بذاته فيها.. ففيها شوارع وجادّات يتلهّى فيها المرءُ في المرة المئة كما يتلهّى في المرة الأولى. ثم إذا لم يكن الإنسانُ تحت رحمة الطقس السيّء...ساحة النجمة مثلاً... سرْ حول النجمة، واسلك جادةً، بلا تعيين، ستجد نفسك، دون أن تختار حقاً، في عالم مختلف عن الذي تغيب فيه الجادة التالية... كالتطريز حقاً، تلك النزهات... بيد أننا عندما نطرّز نتابع رسماً مصنوعاً، معروفاً، زهرةً أو عصفوراً. أما هنا فلا يمكننا أبداً أن نعرف مسبقاً إن كان الفردوس الحالم في جادة «فريد لاند» أو العجيج السوقي في جادة واغرام، أو ذلك الريف ذو التخاريم في جادة

«الغابة». النجمة تشرف على عوالم مختلفة، كالكائنات الحيّة. عوالم محتلفة تغوص فيها أذرعها المضيئة. هناك إقليم جادة «كاربو»، والجلال التحاري للشانزيليزيه».

وهناك جادة فيكتور هوغو.. كانت بيرينيس تحب أن تدلف من حادّة من هذه الجادات التي تنسى دائماً نظام تتاليها، الى شارع مُقرِّب لتقصد الى الجادة التالية، كما لو كانت تترك ملكةً من أجل فتاة، ورواية فروسية الى قصة لوباسان. كانت طرقاً حيّة تفضي من ميدان الى ميدان آخر من ميادين الخيال، وكان يطيب لبيرينيس أن تكون هذه الشوارع كذلك قطعاً من مقاطعة غريبة ،مفاجئة أو شوارع فارغة كأن شباك شرفاتها رسوم معقّدة لأعمال قاطنيها وواجباتهم، أو التشابك الملتبس للفنادق والغرف المفروشة، والحانات، والنساء العابرات سراً، ممّا يبعث، وعلى خطوتين من الأحياء الغنية، الرعشة الفاجرة لأبناء الأسرة الغنية وللفئات المنحرفة. وفجأة كانت المدينة تنفتح على منظور، وكانت بيرينيس تخرج من هذا العالم الذي كان يرعبها ويجتذبها، لترى على البعد قوس النصر، ونحوه خط الأشجار الذي حُبس من الأسفلَ بشبكة. ماأجمل باريس! كم من منعطف حتى حيث الطرقات مستقيمة واضحة الحدود...

ليس في الريف من مكان يتغير فيه المشهد بمثل هذه السرعة. ليس من مكان لافي «الآلب»، ولا على شواطىء البحر من غذاءٍ بمثل هذه القوة من أجل حلم امرأة شابة، عاطلة عن العمل، مفتونة بذلك وحرّة، حرّة بأن تفكر على هواها، دون أن تراقب نفسها، ودون أن تخشى من أن تَفْضح أعماق قلبها على وجهها، أو أن تفلت جملةً تأسف عليها لأنها قد تسيء الى أحدهم.

كانت تشتهي أحياناً أن تغيّر مدينتها، فتقفز الى الباص، أيّ باصٍ وتقصد الى الطرف الآخر من باريس. وكانت تحب أن تبقى في مكان وقوف الركاب يدفعها الذين يصعدون والذين يهبطون. وكانت حسّاسة لتغيّر الكثافة في الأحياء، لاتكلّ عن استشعار التحوّلات من حولها. كان شارع «ربفولي» يبدو

ضيّقاً جداً بعد «الشانزيليزيه»، وبعد «الكونكورد»، وكان تالياً تماماً كما تلو الفكرة مراحل المحاكمة الى هدفها، بحذاء حديقة أولاً، وكأن خيال الأشجار الحرّة قبل قليل صارت الآن محجوزة خلف هذه الشباك السوداء، تجتاحها شيئاً فشيئاً التماثيل لتُعدّ بيرينيس كي تسير بحذاء قصر. وكانت الأقواس من الجهة الأخرى تُضيف طابعها من الزخرف المنطقي لتوسّع الأحجار هذا. وبعد قليل يسلم القصر والأقواس مكانها بسرعة، وحينئذٍ يتخلى الشارع عن الخيال الى العقل، البيوت من الجهتين، بيوت كسائر البيوت.

كبرياء التجارة مع «الساماريتين» كصرحٍ. الساماريتين التي تحلّ محلّ اللوفر. تجارة «الهال» عبر الشارع. ثم فرجة الأشجار المبذولة أيضاً عند المرور بمستوى «الشاتليه»، نحو الضفة اليسرى وأحلامها. ثم ينتهي الأمر. فإذا قطعنا دار البلدية، اختنق الشارعُ واستمرّ في شارع «سانت انتوان» المفعم بالذكريات، المثقل بالتهديدات، الى أن يبلغ الباص تلك الساحة الضخمة، هذه النسخة المطابقة لساحة النجمة والتي يرتفع فيها عمود تموز التذكاري.

هنا يمكن للعبة أن تُستأنف... كانت بيرينيس تَتيه من جديد من شارع «الروكيت» الى جادّة هنري الرابع، ومن ضاحية «سانت انتوان» الى قناة «سان مارتان»...

ولامجال للكلام على الحي اللاتيني، فسرّه عظيم بالنسبة الى امرأة من الريف تراه مع كل ماقالت الروايات عنه، مع سحر التقاليد. ثم هناك المكتبات الكبرى الملأى بالكتب المنشورة الحديثة التي تعادل ثمار «ايديار»، في ساحة «المارلين»، في شارع «سان جيرمان»، لدى «كريس»، حيت يمكن أن يتجوّل المرءُ ساعات وهو يقرأ الكتب والمجلاّت بين الصفحات غير المقصوصة. وثمة حانوت رمادي صغير في شارع الاوريون أحبّت فيه النساءَ اللواتي يُدرْنه. إحداهن، الشقراء قالت لها إنها من «السافوا» وباعتها الطبعة الأولى لـ«جول رومان» وكتاب «بول ديني» الصغير «ممنوعُ الدخول». كان محيّراً، قصيراً. الكتب تحت معارض «الأوديون» لها جاذبية مختلفة. ولم تكن متأكّدة من ان حق التفرج

مسموح.

تلك معجزة باريس. كان بوسعها أن تكفّ عن التفكير، ألا تُحسّ أنها انحنتْ من الطيبة والتقى، أن تعود كما كانت من قبل طفلةً تثب الحبلَ دون أن تطرح على نفسها الأسئلة. كان يمكنها أن تضحك بلا سبب، لايُربكها إنسان يسألها بالنية الحُسنى: ماالذي يُضحككِ؟. كان يمكنها أن تنظر الى الناس أو تتجاهلهم، وأن تنسى «لوسيان» دون أن تلوم نفسها على ذلك. كان هناك الجادّات الكبرى، واللوكسمبورغ. كان هناك محطة الشرق، وكان هناك «مونروج». وتغيير الحي لم يكن خيانة لأحد: لن توبّخها «الانفاليد» على الوقت الذي قضته في «بوت شومون».

عادت الى شارع «رينوار» سعيدة، لدنةً، بوجنتين مورّدتين وكأنها جرت في الحقول طوال النهار. صاحت بها بلانشيت: «ثمة رسالة لكِ»... رفعت قبعتها، وتناولت الرسالة وقد غدت جديّةً فجأةْ. ومضت الى المصطبة لكي تقرأها فوق هذه المدينة التي ستفقدها ذات يوم، لكي تقرأها ببطء، ضاغطةً كل كلمة على قلبها، تلك الرسالة الملأى بالحنان، اللطيفة، الطيبة، التي شهّتْها أن تعضّ وأن تنتحب.

سألتها بلانشيت على المائدة:

– ماذا يقول لكِ لوسيان؟

– أوه! لاشيء، كعادته... أن أتسلّى... وتحيّاته لكِ... أصابتْ أمي نوبةُ روماتيزم...

قاطعهما أدمون بغير مناسبة.

– بالمناسبة، صادفتُ ليرتيلوا ...

قطّبت «بلانشيت» حاجبيها. فهي لاتكاد تحب اوريليان. هذا واضحٌ للعيان.

– وإذن؟

– إذن... لاشيء... صادفتُ «ليرتيلوا». قلتُ إنني صادفتُ ليرتيلوا.

حسناً. توقف البحثُ في الحادث، وسُمع صوت الشوكات، حينئذ قال ادمون كمن يجيب عن سؤال:

– «في جادة الغابة»... كان ماشياً. فالتقطتهُ وأعدته الى مسكنه... مسكنه أخّاذٌ حقاً...

لم تكن بيرينيس تشتهي الحديث، بيد أنها أحسّت أن الأمور ليست على مايُرام بين قريبيْها. ولذلك طرحت سؤالاً دون أن تهتم بالجواب، لكي تُغذّي الحديث، لكي تدع لبلانشيت إمكانَ أن تثور عصبيتها من غير جلبة. سألتْ:

– وأين يسكن؟

رفع ادمون رأسه، ونظر الى «بلانشيت»، ثم التفت الى ابنة عمه:

– في «جزيرة القديس لويس...» غرفتان ومطبخ... لكنك لاتستطيعين أن تتصوّري...

تذكّرت بلانشيت فجأة أنها نسيتْ أن تقول شيئاً للمربية..بصدد الأولاد... فنهضت، وأوقعتْ كرسيَّها... ورفعته .. وخرجتْ...

قالت بيرينيس:

– مابها؟ لعلك كنتَ شريراً معها، يابنَ عمّي...

❋ ❋ ❋

— ٩ —

ياله من يومٍ جميل! لم يُر منذ زمن بعيد مثلُ هذا الشتاء... عندما يُخالط مثلُ هذا الجفاف الشمسَ التي يعترضها الصقيع، في ضواحي باريس وحدائقها المعرّاة، والجدران الرمادية التي أزهر عليها النورُ فجأة، والأحراج المتصالبة وفقاً لخطوط هندسة الغابات، والدهشة عند أحد المنعطفات من استمرار طائفة من أوراق الشجر، خضرتُها عقيمة، على عكس نتاج البيت الزجاجي... ماكان ألذّ السير بسيارة الأحصنة الخمسة في بحر الأسبوع عندما لايتعرض المرءُ لملاقاة الناس على الطرقات، أو في النزل السخيفة! «بديهي أن المرء يستطيع أن يمضي أبعد من ذلك، وأن يَتعمّق داخل البلاد، بعربة أقوى من هذه...

– هل لاحظتِ ياصديقتي العزيزة، أننا كلما ابتعدنا عن باريس، بدا لنا أننا ننحرف عن الزمن؟ فعلى بعد خمسين كيلومتراً نغدو في القرن التاسع عشر، لكننا نُدرك القرن الثامن عشر على مئة كيلومتر... إن ذلك يكوّن مناطق.. وهكذا حتى نبلغ العصر الوسيط...

كان يحبّ ويعرف تلك الطرقات الصغيرة التي$بها يخرج من الانتقال المعتاد لدى الباريطيين الذين يلزمون بيوتهم، والذين تظل طرين «كاترسو» عندهم هي العقدة وهي أفضل الطربات، فيما يتّصل بالسياحة بالسيارة. أو أن٤هؤلاء الناس كانوا يريدون مهما كلّف الأم] أن يكون لهم هدف، أن يذهبوا لريارة شيء ڤا... أن يكرّموا بكاوتشوك عجلاتهم مشهداًمصنّفاً. مال اوريليان قليلاً نحو رفيقته وأشار بيده الى السهل الذي كانا يقطعانه، وهو سهلٌ محدّبٌ قليلاً، عارٍ كما شاء له العريُ، دون أن يكون فيه مايستوقف النظر، مما تعلّمنا أن ننظر إليه عبر أجيالٍ من الرسّامين، والأرض فيه مقلوبةٌ بغباءٍ هنا، مهملةٍ هناك، مع منحدرات خفيفة من الأعشاب الضارة، وأكوام صغيرة من الخشب اليابس... وكله بلون أرنب لها عدة بطون...

همست «ماري دي بيرسيفال» التي لم تكن ترى ماكان ينبغي أن يُرى، والتي كانت تشدّ نفسها الى جارها تحت غطاءِ الفرو: أنتَ رجلٌ محيّر. نظر إليها. كانت تظهر تعبيراً عاشقاً، وفمُها ممدود إليه. لم تكن تفهم شيئاً مما يُعجب اوريليان. كان ذلك واضحاً. لكن هل سألها؟ لا. إنها امرأة لمدن الميالا والريفيرا. أراهنُ أنها مشغوفة بالنخيل. ذلك أسوأ، أو أفضل... تنهّدت: «ياعزيزي» جاء ذلك مثل الشَعْر على الحساء، مع تلك البرودة القليلة القاطعة في الأنف.

أخذا يعبران الآن من طريقٍ محدّبة، ضرباً من سياج يابس شائك تحيط به أسلاك حديدية مع لافتات لاعدّ لها مكتوباً عليها. المصَاد[1] خاص.

تنهّدت السيدة «دي بيرسيفال» وقالت كمن تلوم:

- ياعزيزي، عندما أفكر فيما يؤكّده الناس من أن لي أجملُ ساقين في فرنسا، وأنك لم تُثْنِ عليهما أدنى ثناء...

انعطف اوريليان بحركة من المقود حول عربة أبت أن تتنحّى، ثم صحح مساره. وأرسل يده تتقرّى بلطف تحت الرداء، وغايته أن يمرّ بها على الساقين المذكورتين الى الحدّ الذي يقف عنده الجوربان، ثم نظر الى الشمس المائلة الى الغروب:

- لِمَ أكرّرُ ماقاله جميعُ الناس... وماتعلمينه جيداً؟... ثم إن ذلك ليس اكتشافاً: فلقد أريتني إياهما من قبل... أما ساقيَّ... فلم تقولي لي شيئاً عنهما...

ضحكت ضحكة المرأة الراقية، وفكّرت قليلاً، ثم غضبتْ. «ياعزيزي، لايُصدَّقُ ماأنتم عليه... رجال هذا الجيل... بنات حقاً... كأنكم لم تخوضوا الحرب... أنتم مشغولون بأنفسكم... قليلو الرقّة...

- أتظنين أن خوض الحرب يجعل الرجل رقيقاً؟

---

(١) المصاد: الصيد ومكانه.

– لست أعلمُ، أنا... الذين سبقوكم كانت لهم تقاليد، لطفٌ...

هزّ كتفيه. كان بوسعه أن يقول بسهولة كلمات فظّة، لكنه خشيَ أن يسرّها. وقالت أيضاً: أنتم تسيئون معاملتنا...

– إنّي أكره أولاً هذه الجمـوع.. أنا أُسيءُ معـاملتك، أنا أُسيءُ معاملتكنْ... أما نحن، أنتم... مَنْ نحنُ وأنتم؟ أم أنك تقصدين أن تضعيني في كيس واحد مع «ديني» الصغير...

– أنتَ غبيّ! أولاً، إني لاأغتاب «بول». لالأني خَدعتُه معك... إن له موهبة عظيمة... وعودٌ، الحاصلُ أن له موهبة... أنت لم تقرأ «ممنوعٌ الدخول» بالطبع... وله مزايا كثيرة من كرم القلب...

انتابتْ اوريليان ضحكةٌ من تلك الضحكات المجنونة البلهاء التي لاسبيل الى ردّها. اعتذر. لكن الاعتذار يُفاقم الأشياء، كما نعلم. ثم هدأ: «عفواً، فلم أشأ أن أجرحك...

– أنت لاتجرحني... لكنك تظلم ذلك الصغير، ويمكنك أن تكون أكرم... بعدما جرى...

قال بكل نيّة طيبة

– ماذا؟ ماذا جرى؟

وحينئذٍ جاء دورها لتردّ بضحكة مجنونة، لكنها ضحكةٌ مخنوقة من بيان ميكانيكي. كان المشهدُ يتغيّر. قرية. إعلانات كبيرة عن مشروبات وزيوت للسيارات. وسارا في طريق أوسع. سيارات. كانت ماري تفكّر وهي غارقة في الغطاء. واستغل اوريليان ذلك ليَختلس منها بعضَ لحظات الوحدة. وتابعت أفكارها بصوتٍ عال، وكأن دورةً كبيرة قادتها الى بداية مابعد الظهيرة هذه...

كان رائعاً حقاً الركن الصغير الذي قدتّني اليه... هذا الفندق... أتظن أن كثيراً من الناس يعرفونه؟ خُيِّل إليّ أنْ لا... لعل ذلك ساذج... أو لأنك، في نهاية الأمر، قد شوشّتني..

– شكراً.

- لا، أنا التي تشكرك لأنك دلّلتني عليه...

- نعم، وهكذا يمكنه أن يصلح لخدمتك مرةً أخرى...

هتفت:

- يالك من وقح، يالكَ من وقح! ثمّ لمَ لا؟ سنعود إليه...

قال.

- أوه! إن كان هذا وحده مايُسعدك...

صمتتْ لحظة ثم عادت الى هجومها.

- أيها الخليع، لقد جئت الى هذا النزل مع جميع نساء الأرض...

كشّر، لم يكن يحب هذه اللغة. فعاقبها:

- كلهنّ، لا. نحو اثنتي عشرة...

لقد أرضى فضوله من تلك التي كان يسمّيها بينه وبين نفسه «الأرملة بيرسيفال». وكان كلما عرفها ازداد يقيناً بأنها أرملة، الأرملة بيرسيفال. متلا هذا التفكير عن نقص الرقة لدى أبناء جيله... لقد ضاجع عالماً لامرأةً.. عالماً مضى زمنُه. بعاداته وتقاليده. حتى عندما يكون المقصود أن... آه، الآن يستطيع أن يقول ماذا تعادل علامات التعجب! ومع أنه في الحقيقة أوشك ألا يكرّم هذه السيدة المعفّرة بالمسحوق، التي كانت شديدة العناية بنهديها حتى في اللحظة التي كانت تسترخي فيها، عندما خطرت لها تلك الفكرة المكدِّرة مي أن تتأوّه في أذنه: «كلّ ماتشاء... إلا الولد!»

ومن سخطه لهذه الذكرى المزعجة، ضغط بشدّة على دوّاسة السرعة، فوثبتْ السيّارة. صاحت:

- ماذا حلّ بك؟

- إني أنتقم!

سارا لحظة دون أن يكلّم أحدهما الآخر. ثم لم تستطع أن تصمد

- أنا أجدكَ شديد التحللّ.

- تقصدين من التقاليد. أليس كذلك؟... أنتِ تحبّين الكذبَ.

- يمكنكَ ألا تكذب...

- يمكنني أن أكذب أيضاً..

- أنت غريبُ اليوم...

- أنا على عادتي...

- هذا ماألومك عليه، ياشريرا كأن لم يًجْر شيءُ.

- وماذا جرى؟

- وأيضاً! أيها الفظّ!

- أنا فظّ؟ ظننتُ نفسي متحفّظاً لأنني لم أتذكر كثيراً...

- عجباً! أتعلم أن رجالاً ترجّوني عشر سنوات من أجل مامنحتكَ إياه من أول مرة.

- أأنت نادمةٌ على ذلك؟

- ستجعلني أندم عليه.

- تندمين على أيٍّ منهما؟ السنوات العشر أم المرة الأولى؟

- أنت لاتُحتمل... هل سأُفتَتن بكَ، لأتجاوز حماقاتك؟ لاأتمنى ذلك!

انتظرتْ جملةً لم تأتِ

- أأنا التي عليها أن تتصرّف معك كما يتصرف الرجالُ معنا؟ وهل ينبغي أن أرتجف لأستبقيكَ؟ أن أنتظركَ، أن أتصوّر ماالذي يسرّك... أن أقدّم لك ربطات العنق...

- كلا... كلا.. قلت لكِ إني لستُ «بول ديني»...

- أتريد أن أضحّي به لك؟

- ياللسماء! لاتفعلي شيئاً من ذلك! لاتضحيات يا«ايفيجيني» العزيزة...

- لأنك لو طلبتَ ذلك مني لرفضتُ طلبك بكل صراحة... لن أدع ذلك الولد يتألم من أجل شخص لاقلب له مثلك.. أجل، إنه ولدٌ بالنسبة إلي... مثلما هو رجل... وأنا أعلم جيداً مايفصلنا، وأن ذلك لن يدوم طويلاً... لست أتمسك

به، على كل حال... لكن ليحتفظْ من لقائنا بذكرى... ذكرى...

سلّم «ليرتيلوا» بطاقة الوقود لمكتب رسوم الدخول الى باريس وقد بقي مايكفي من النور في أعالي السماء، وأخذت البيوت تسبح في هواء «بارم».

– أأُنزلكِ في شارع «بيل فوي»؟

قالت وهي تمسك بذراعه:

– الآن؟ الآن؟ اصغِ... كنْ لطيفاً... أرني مسكنك... أشتهي ذلك... ولم يَبقَ لي ماأخشاه...

– إذا شئتِ... إلا أن تتعرضي لمصادفة أحد...

– فليكن... سنسرع على الدرج!

غالبا العتمة ووصلا جزيرة «سان لويس» قبل الظلام الصاعد من النهر. والتفّتْ السيدة دي بيرسيفال التي أصلحت وجهها، وتلفّحت بمنديلٍ كبيرٍ من الصوف الانكليزي، بحيث لم يبدُ منه سوى عينيها، وقالت:

– وأيضاً، لايتصوّر أحد... هذه السكنى في منزل في باريس يعرفك فيه جميع الناس... وفي أي دورٍ مسكنك؟

– في الأعلى

– في الأعلى؟ لكن هذا جنون! مسكن العزب يؤخَذُ في الطبقة الأرضية، في الدور المسروق عند الاقتضاء...

– ليس هذا مسكنَ عزب، إنه منظر...

كان المنزل في مقدمة الجزيرة، نحو منحدر النهر حيث تنتهي الضفةُ بباقة من الأشجار، ومنعطف منعزل وكئيب حيث يأتي العشاقُ والبائسون ليرتفقوا[1]. صعدا. أخذ اوريليان ينظر الى الساقين وهما تسرعان لتتسلقا الدرج أربعاً فأربعاً. نعم، لابأس بساقيها، لكن يجب ألا نبالغ.

عرف البوّابُ المستأجر، عند مروره، فأضاء الدرج. ولم تكن ماري تتوقّع ذلك فزادت من تدثّرها وحثّت خطاها. وفي الدور الرابع توقّفت، وقلبها يدقّ

(١) ارتفق: اتكأ بمرفقه للتأمل.

«أهذا هو؟»، لا. هاهنا درج جانبي نصعد فيه دوراً وبصف... واندفعت الى الشقة ولم يكد الباب يُفتح.

– كنت خائفةً أشدّ الخوف من ألقى الأمير «ر»... في الدرج! أتعرفه؟

– يسلم كلانا على الآخر عند مطلع الدرج.

أخذت تجري في الغرف كما تفعل طفلةٌ صغيرة

– رائع، رائع... برج حمام... لكنه رائع.

الحقيقة أنها كانت لاتنظر الى الأشياء إلا قليلاً جداً. كانت تخبّىء في رأسها فكرةً حزرها «ليرتيلوا» في غَبَش الغرفة بشيء من الضجر. وقالت أيضاً وهي تُلقي نظرة خاطفة على الأريكة البيج

– عندما أفكر فيما قد جرى هنا...

لكنها لم تكد تُتمّ جملتها حتى أطلقت صرخةَ إعجابٍ صغيرة.

كانت آخر مزقة من النهار تضفي مسحةً سحريةً على المشهد الذي كان المنزل فيه يتقدّم على شكل قَرْنٍ كالسفينة. كان المنزل فوق تلك الأشجار العريضة والفريدة التي تحفّ بطرف الجزيرة، وكان قلبُ المدينة يُرى على الضفة اليسرى وقد أخذت تلمع فيه المصابيح، كما كان يُرى خطُّ النهر الذي يضمها، ويعود، ويضمّها من جديد ويتّحد بالذراع الأخرى، فيما وراء الأشجار، الى اليمين، وهي تطوّق جزيرة «سان لويس». وكان هناك «نوتردام» وهي أجمل كثيراً من جهة صدر الكنيسة منها من جهة فنائها، والجسور، لاعبةً حجرَ الرِجْل[1]، لعبةً غريبة، من قوس الى قوس، بين الجزر، وهناك، في مقابل قلب المدينة على الضفة اليمنى... وباريس، باريس مفتوحة مثل كتابٍ بمنحدرها اليساري الأقرب صوب «سانت جينيفييف»، والبانتيون، والصفحة الأخرى ملأى

(١) حجر الرجل. لعبة الصغار المعروفة، وهي هنا على سبيل المجاز. **المترجم**

بحروف مطبعيّة تصعب قراءتها في هذه الساعة حتى الجناح الأبيض لكنيسة «القلب الأقدس»... باريس الهائلة، التي لايشرف عليها شيء لاكما هي الحال على مصطبة آل باربنتان.. باريس التي تُرى من قلبها، في أقصى خفاياها، بأصواتها المجاورة، التي يغشّيها النهر المتعدّدُ حيث كان ينزل قارب، قاربٌ طويل طُليتْ حافاته بالمنيوم[1]، وعلى حباله غسيل يُنشَّف، وشخوص بدا عليها أنها تلعب عليه لعبة التخبئة... وكان في السماء أيضاً ركنُها من المنيوم...

وفجأةً، انطفأ كلُّ شيء، وغدت المدينةُ سميكةً، وفي الليل خَفقَ مايُشبه القلبَ. وأرسل القاربُ شكاةً طويلة ممزّقة. وبوّقت سياراتٌ. ولاحظت ماري وميضَ طيور الخبل في النوافذ المضاءة وهي أكثر عدداً. فالتفتت الى اوريليان ورأت أن نظره شارد يتبع النهر، وكأنما كان يحاول أن يتعرّف هناك جسر الاسكندر الثالث على الأقل.

قالت، وبدا له صوتُها غريباً:

- ياله من مكان عجيب!

- أليس كذلك؟ هاقد مضى ثلاث سنوات... ولم أتعوَّد... لقد قال لي باربنتان الذي جاء بي الى هنا ذات يوم، شيئاً عن هذا المكان، شيئاً ينيره قليلاً بالنسبة إليّ... بغرابة...

- وماهو؟

أصابتها الغيرةُ من ادمون سلفاً.

- قال لي إنني أسكن هنا في طيّة مرفق النهر، في «ميمه م» الوريدية.

- جميلٌ هذا... قمين بـ «بول نوران».

- لاأعتقد، وقد شوّشني ذلك.

- بفي في ادمون شيءٌ من طالب الطب... ومن المثير أنه هجر حَماه الذي أراده... ولذلك تفوح منه العفونة...

---

(١) المنيوم: اكسيد الرصاص الأحمر. **المترجم**

قاطعها اوريليان بجفاف شديد.

ـ قلتُ لك إن هذا يشـوّشني... أن أفكّر في أني هنا في «الميم» الوريدية من السين... تبلبلني طريقتي في النظر الى مالم يمكن أن يصبح لديّ مألوفاً تماماً... إنه يتغير تغيّراً هائلاً مع الساعات والفصول... وهو يغنّي أغنيةً هي نفسها دائماً... لكن اذا شئنا أن نعود الى «الميم» الوريدية... ولست أعلم أن المرء يموت وهو يقطع طيّةَ المرفق كما يُقطع المعصم اذا كان فيلسوفاً ويملك مفصورة...

ـ اسكتْ!

ـ السين يتحدث طوال الوقت، طوال الوقت عن الانتحار... فكم يَطوي... وصرخات روّاده... مايبلبلني هو أن عليّ الآن... لكي ألتزم بتلك الصورة «للميم» الوريدية... أن أتصوّر باستمرار معنى هذا الماء الذي ينساب، هذا الدم الأزرق أمامي... إنني أدرك جيداً أنه يأتي من الخلف وأنه يجري نحو المنحدر، نحو البحر... لكن الأوردة... ماري، أوردة المرفق تأتي من اليد، لتصعد نحو الكتف، نحو القلب... قد أميل الى تصور الأشياء على العكس... القلب في الجبال... يجب أن نعتقد أن القلب هو البحر، ياله من نموّ زائد! وأن الأصابع مثل الجذور مع ركام ثلوج في الأظافر...

لقد ذهب بعيداً عنها في هذا الليل الذي أرخى سدوله، تماماً حتى ان السيدة دي بيرسيفال اشتهت أن تبكي.. بدا لها غريب الأطوار. هذه اللغة التي لم تكن تتوقعها منه... من هذا العاشق الوقح... الواقعي جداً... وقالتها بينها وبين نفسها بالانكليزية، لأن الأشياء التي لاتُطاق تصبح أكثر احتمالاً عندما تترجمها الى الانكليزية... وهمست

ـ لقد بردتُ...

لم يسمعها أو لم يُرِدْ أن يسمعها. وصمت. وأخذ يملأ عينيه بالعتمة، وكأنما يملؤهما بذخيرة سحرية. أدركت أنها الرابحة لو انسلّت، لكنها أرادت أن تلقي أيضاً نظرة خاطفةً على مقرّه، فدخلت الغرفة التي كانت غرفة ومكتباً في الوقت نفسه، لونها بيج وأسمر مع أثاث من السنديان الفاتح... ظلّ اوريليان في

الخارج... نادته إذ لم تجد الزرَّ الكهربائي. قال بصوت تغيّر كلّياً.

ـ المعذرة، لاأحسُّ أنني بحال حسنة...

ـ مابكَ، ياصاحبي؟

أدار زرَّ مصباح على الطاولة الكبيرة. جاءه النورُ من تحتُ. ارتعبتْ من تبدّل قسماته، وردّدتْ. مابكَ؟

كان وجهه يعبّر تعبيراً شديداً عن الضيق. لقد اكتهل فجأةً، وكان العرق يتصبّب منه برغم البرد. واربدّ لونُه وكأنما وضع قناعاً، أو رماه، على الأصح. وحول العينين غضونٌ صغيرة. والفم مفتوحٌ نصف فتحة. والتنفس صعب. تناولت يده الباردة، المبلّلة.

أحسّت أنه يرتعش. أعاد قوله: لاأحسّ أنني بحال حسنة... فارتعبتْ.

تمدّد، ياصغيري، هيّا... مابكَ. أنتَ مصابٌ بقشعريرة... ماالذي أستطيع أن أفعله لك؟ أعندكَ كحول؟ ربما نفعك المشروب الساخنُ؟ كم يُرعج... أنني لاأعرف حتى المطبخ..

قال.

ـ لا، لاشيء، دعيني، ياماري...

تهالك على الأريكة نصفُه مستلقٍ ونصفُه جالسٌ. كدّست له الوسائد خلف رأسه، تحرّكها أمومتُها، وهي تتكلّم:

ـ اهدأْ... اهدأ... لعلك بَرَدْتَ... ربّما في الفندق... مشيتَ حافيَ القدمين... قيل لي إن هناك نزلات وافدة سيّئة...

ـ لا، لا... ليس هذا مهماً، دعيني، ماري، أعرف مابي، أحب أن أبقى وحدي... سيزول ذلك...

كانت أسنانه تصطكّ، وكانت الحمّى تهزّه وكان يُقارب بين كتفيه كأنما يريد أن يدع عاصفةً تمرّ.

ـ يجب أن تضطجع... لاأريد أن أتركك هكذا... الطبيب...

ـ قلتُ لكِ إنني أعرف ماهذا... الحميّات... حملتُ هذا من الشرق...

سحبت غطاء السفر الذي لقيته على الأريكة، وغطّته. فقبل ذلك نصف قبول

ـ أحبّ أن أبقى وحدي..

نزعتْ حذاءه، وأمسكت بقدميه بين يديها

ـ أنت ترتجف من الحمّى، وقدماك متجمّدتان... يجب أن تضطجع...

كان ذلك شيئاً غريباً، لقد فهمت فجأةً شيئاً ما لم يكن يجرؤ على خلع ثيابه أمامها، خلع ثيابه كالمريض... هزّت كتفيها لهذه الأفكار... حملته على التخلّص من ثيابه، بكل ما أُوتيتْ من مُلاطفةٍ خرقاء قليلاً، وفظة قليلاً، مع الصوت المزعج لكعبيها على أرض الغرفة، موشكة على السقوط إذ تعثرت بهدب سخيف من أهداب السجادة، ورفعت غطاء الزينة من على الأريكة، وكشفت عدّةَ السرير، والأغطية، ودخلت قسراً في خصوصيته كعزب. وعندما اضطجع رأت الهاتف على الطاولة الصغيرة المنخفضة قرب الأريكة. طلبت رقماً، فسألها بضعف:

ـ مَنْ تطلبين؟

ـ الدكتور «ديكور»... بلى، بلى... لاتكنْ طفلاً.

ـ لاحاجة بي الى الطبيب... عندي «كينين»...

ـ اسكت!... واعرام سبعة وثلاثون... آه! هذا أنت دكتور! عرفتُ صوتك! نعم... ماري... ماري... لا، ليس من أجل «روز»... عندي مريض... بالتأكيد... شكراً...

ـ مهلاً، قلتُ لكِ. لاتزعجيه...

ـ أنا في انتظارك... في جزيرة «سان لويس»...

كان المريض يتململ، وهو متكدّر. ذهبتْ لتأتيه بالويسكي من الخزانة الصغيرة التي استطاعت أن تستدلّ عليها. سيكون الدكتور هنا بعد خمس عشرة دقيقة... أجل، ستنتظره... لم تكن تخبىء سرّاً عن زوج «روز»... ثم إن هذا لبس وارداً... أين الأقداح؟

وبينما كانت تصبّ الكحول، رفعتْ عينيها فرأت على الجدار شيئاً أوقفها أثناءَ حركتها. شيءٌ مصنوع من الجص. رأس امرأة، وجه مستعارٌ فقط. وجهٌ كالذي يؤخذُ قالبُه من الموتى. هذا الشيء الأبيض المغمض العينين كان معلّقاً هنا في مكانٍ مختار. ولابد أن هَذا الوجه هو أول مايراه من سريره في الصباح. وفجأة أحسّت ماري بالغيرة. اشتهتْ أن تصرخ، وعضّتْ شفتيها. أيّ كشف! الرجلُ العاشقُ المدلّه وحده يمكنه أن يعيش قبالة هذا الوجه الذي بدا عليه أنه كَفَّ عن التوجّع، هذا الوجه الذي تعود فيه الابتسامةُ من وراء الألم. من تكون هذه المرأة؟ خطتْ خطوةً نحوها، وهي تصبّ لاشعورياً الويسكي التي كانت تبعث صوتاً فريداً في القدح. أمعنت النظر، في هذا الوجه ذي العينين المغمضتين. فعرفته. وحينئذ تألّمت حقاً.

أعطتْ اوريليان الكينين، وانتظرت الطبيب. في الخارج، كانت المدينةُ تقوم بمصاحبتها الليلية لهذه الأفكار في هذا الرأس الطائش. قالت في نفسها، وهي تنظر الى المريض المتكبّب في أغطيته والذي تخضّه عاصفةُ الملاريا

«كم كبرتُ... كم كبرتُ...» وأخيراً، طُرق البابُ.

* * *

- ١٠ -

هناك أنواع شتى من اللون الرماديّ. هناك الرمادي المليء بالوردي الذي هو انعكاسٌ لقصري التريانون[١]. هناك الرمادي الأزرق الذي هو أسفُ السماء، الرمادي البيج لون الأرض بعد حرثها. الرمادي من الأسود الى الأبيض والذي يصطبغ به الرخام. لكن هناك رمادياً وسخاً، رمادياً رهيباً، رمادياً أصفر ضارباً الى الخضرة، رمادياً شبيهاً بالقار، طلاءً بلا شفافية، خانقاً، حتى لو كان فاتحاً، رمادياً قَذِراً، رمادياً بلا صَفْحٍ، الرمادي الذي يجعل السماء أرضيّةً مبتذلة، هذا الرمادي الذي هو حظيرةُ الشتاء، وحل الغيوم قبل الثلج، هذا الرمادي الذي يشكك بالأيام الجميلة ليس مُقْنطاً في أي مكان أبداً مثلما هو في باريس فوق هذا المشهد المترف الذي يسطّحه شيئاً فشيئاً عند قدميه ذلك الجدار الواسع والفارغ لسماءٍ لاتعرف اللين، في صباح أحد من كانون الأول فوق جادّة الغابة...

في هذا الأحد، عند قدم هذا الستار الرؤيوي[٢]، كان شريطُ الجادّة الدقيقُ والطويل، بأشجاره العارية، ومروجه الخالية من العشب، بكهوفه البيضاء لسكانه من أصحاب الملايين، يَحْمل على سطوحه العريضة زبداً راعشاً من المتنزّهين، ووسط رائحة الجياد كان الرمل المتفتت ورَوْثُ ممرّ الخيّالة يحدثان أمام تمثال «آلفان» الواقف في مدرّجه الكلسي، ترقيماً من السحب لحوافر الخيول التي يَحْمل كلٌّ منها على ظهره ثروةً أو دماراً.

كانت علية القوم في ثيابها التي لايصح أن نقول عنها إنها أنيقة حقاً، والتي جاءت تعرض هنا طقومها، وفروها الفضي، وكلابها الطويلة الشعر والقصيرة الشعر، قد أخذت تكثّفُ، ولا سيّما وراء جادة «مالاكوف». إن هذا الجزء من الجادة حلَّ بعد الحرب محلّ درب «الفيرتو»، في نزهات الفتيات،

---

(١) في فرساي.

(٢) نسبة الى رؤيا يوحنا اللاهوتي، المؤذنة بنهاية العالم. المترجم

والسيدات المتقدّمات في السن، والرجال الحسيي الهندام. كان هناك خليطٌ من علية القوم. الحقيقي منهم، ونصف الحقيقي، والزائف كلّ الزيف، ومن الذين يجيئون ليتمسّحوا بهم. وكانت اللحظة الأنيقة أو التي تُعدّ كذلك هي الثانية عشرة تماماً. كان هناك سيدات يُمتْن من الخجل إن رآهنّ الناس في جادّة الغابة في الثانية عشرة إلا خمس دقائق. وكان هناك شباب مكتئبون أو شرهون يتسكعون هنا منذ العاشرة صباحاً، ولا عمل لهم، ويعلّلون أنفسهم بهذا الظُهر وبما يَفْترض من نساء يفوح أريجهن، ويلبسن الملابس النفيسة، يلسعهن الهواء الندي؛ وكانوا برؤوسهم المسكينة، رؤوس موظفي المتاجر والطلاب والفنيان يبنون سلفاً، على نظرة محتملة، روايات نعثُر فيها على مؤلفي «المجموعه المختارة»، وبودلير، والحياة الباريسية الى آخر ماكتبه «فابيانو». وكان هناك الخروج من القدّاس في »سانت اونوري ديلو«.

كان المطرُ قد هطل مبكّراً، لكن الجوّ كاد يكون حسناً –والحمد لله– منذ التاسعة، أي إنه كان شنيعاً لكن دون أن يتخبّط الناسُ في الوحل. أرض الجاده وحدها كانت تحفظ بذكرى المطر. لم يكن فيها نقع ماء لكن كان تحت الحصى المنتثر حفيرةٌ في الأرض لونُها مائل الى لون الكرتون. وكانت تمرّ صفوفُ مزقزقة من الشبيبة ينحني بعضُهم على بعض ليتحادثوا، والذين في الطرفين من فوق رفيقاتهم في الوسط. وعلى الكراسي الحديدية المثقّبة سيدات مُسنّات يتخفّفن مثل حلوى بائتة. وبدا الناسُ كأنما حضروا لشيء ما، دون أن يعلموا ماذلك الشيء. ذلك مثل مشيتهم المستعجلة. فمن الواضح أن كانون الأول كان قاسياً، لكنْ، لا، لم تكن الغلطة غلطة كانون الأول. ففي أي شهر من شهور السنة كانوا سيحتفظون بهذه الخطوة التي يخطوها ناس يقصدون الى مكان ما، في حين أن هدفهم الوحيد كان هذا المكان نفسه. كان ذلك جزءاً من طقوس الاحتفالات، أن يوحي المرءُ بأنه جاء على عجلٍ وهو مارٌ، وذاهب الى مكان آخر أو آت من مكان آخر لأنه قد وعد أحدهم بذلك، تنازلاً منه. لم يضعْ أحدٌ قانونَ النزهة هذا. كما لم يضعْ أحدٌ هذا المنعَ المطلقَ مع ذلك، من عبور جناح

«الدوفين»، عند مدحل الغابة، ومن الوصول إليه، في حين كان مسموحاً مع ذلك دخول رواق الغابة حتى أول منعطف... كان ذلك مايفعله الجميع، وهذا كل شيء، ومن أنفسهم، دون أن يحسّوا بلا معقولية هذه الخطوات المنبئة عن الغيب بعد الباب. والحق أن هذه الحطوات لم تتجاوز ١٩٢٢، وأنها، في ١٩٢٣ كانت ستجعل الآخرين ينظرون إليك على أنك فظٌ غليظ. إذ ذاك صار الناس يقفون على السطح الترابي أمام المحطة. إد ذاك فقط. وبالطبع، كان في باريس أناسٌ من جنس الدين كانوا يأتون ويظلّون على الجادة، لكنهم لم يكونوا يُرَوْن هناك قط لأنهم كانوا «يعلمون» أفضل من غيرهم، لاكثيراً، لكن أفضل قليلاً، وأنهم لو قُطِّعوا تقطيعاً لما قبلوا المجيء.

هذا ماشرحته بلانشيت لبيرينيس بعبارات أخرى كما كانت ستُطلعها على مصطلح الأقمشة الدارجة في هذا العام. وأضافت دون سوء نيّة أن جادّة الغابة كانت ريفية قليلاً.

قالت بيرينيس بتلك الطريقة الفاتنة التي كانت لها وهي ألا تغضب ممّا يُغضب.

ـ لأني ريفيّة بالذات تشوقُني جادة الغابة في صباح الأحد... أما أنتِ فمعك العالم كله، إن شئتِ... ستطيعين أن تحتقريه... لكني أنا... هل تتصورين ماميديتي الصغيرة التي لم تصبح بعد منطقةً فرعية مع أن فيها من السكان أكثر مما في أية منطقة في المقاطعة.

ـ هيّا، مادام ذلك يسرّكِ...

تركتا السيّارة في جادة «مالاكوف»، سيارة «ويسنر» كبيرة، بحراسة «جان» السائق. كانت الصغيرتان أمامهما، وقد توردّتا، وألهبنهما ألعابٌ غير محتملة اخترعتها «ماري روز» لتُدهش «ماري فكتوار». استخفّ الفرحُ بيرينيس. كانت تلتهم بعينيها كلَّ شيء. كانت ترى كثيراً من النساء الجميلات فقالت لها بلانشيت إن كانت ترى هذه الكثرة منهن فمن السهل فهمُ ذلك. وكانت الفساتين تُلقي بها في جنون الفضول فتجبر «بلانشيت» فجأة على أن تعود

أدراجها لتتأمل طاقماً صغيراً رائعاً حقاً. وكانت تردّد جملاً التقطتها في طريقها، وتسعى الى أن تتصوّر مايقصّه الناسُ بعضُهم على بعض. مثل هؤلاء العلماء الذين يعيدون تركيب الماموث استناداً الى سنٍّ وُجدت في قطعة خبز من ذلك العصر. كانت بلانشيت تضحك من ذلك كله، وتحسّ بتراخي المقاومة فيها، فتترك نفسها على سجيّتها. استضاءت بيرينيس كلياً مرتين أو ثلاثاًوكأنها تعرّفت أحداً. كان ذلك خطأ دائماً. لكن ابنة عمها رأت في هذه اللحظات العابرة الى أي حدٍّ يمكنها أن تصبح جميلةً على حين غرّة. وأدركت مايمكن أن يُعجب فيها. وفكّرت: «آه! هكذا...» وفي الوقت نفسه فقدتْ شيئاً من تلقائيتها. تصوّرت سحر بيرينيس واقعاً على ادمون. كان ذلك غير معقول البتّة، لكن ماحيلتها؟ فكل مايتصل بسحر النساء في نظر الرجال كان يرتبط دائماً بادمون. مع أن...

- ظننتُه أيضاً السيد «ليرتيلوا».

أفلتتْ هذه الجملة من بيرينيس فاحمرّت. وشحبت بلانشيت. كانت تلك صدمةً لها. في هذه اللحظة بالذات. مجرّد اتّفاق. لكنها أحسّت، على كل حال، بهذه الصدمة في كبدها كتلك التي يصدمك بها جرسُ المنبّه. ليس هذا بذي أهمية. وسيزول. وسألت بلهجةٍ هادئة تماماً، وفيها شيء من السخرية:

- آه؟ أكان هذا، إذن؟ تتعرفين أحدهم كل عشر خطوات، لذلك...

- اوه! يابنة عمي، تعلمين جيداً أنني لاأستطيع أن أخبّئَ شيئاً: لقد قال لي ادمون في يوم غير بعيد أنه صادف «ليرتيلوا» في جادّة الغابة... وإذن، كنت أقول في نفسي، بشكل طبيعي تماماً... إن كان هذا هو مُتنزّهه المعتاد... ثم إن هناك كثيراً من الشباب مثله بين المارّة... طِوالٌ نحفاء، ولهم أكتاف... الحاصل شبابٌ جميلون.

عضّتْ بلانشيت شفتيها: «من أجل هذا إذن حرصتْ هذا الحرصَ الشديد على المجيء الى الغابة... من أجل هذا...» وقالت لها:

- إن كنتُ أفهمك جيداً، فإن السيد ليرتيلوا يعجبكِ؟

كانت الصغيرتان تضحكان، وتتدافعان، وتعودان الى أمهما وهما تتراكضان. كان ذلك مثل زوبعةٍ من البهجة تسنّى لبيرينيس فيها أن تفكّر،

وقالت أخيراً

ـ نعم، يعجبني... فهو ليس كالآخرين...

ـ لا؟ وفيمَ؟

ـ إنه لايحكي جملاً رنّانة. ويبدو كمن له قصة، قصة غير معروفة.

فهتفت بلانشيت على نحوٍ غير إرادي

ـ اوه! على كل حال، إنه ليس عاشقاً!

ـ حقاً؟

خرجت هذه الكلمة من بيرينيس بحيويّة شديدة، حيوية السرور، حتى ذهلت بلانشيت منها.

ـ أكان يسوءكِ لو كان محبّاً؟

ـ لا... لكن ذلك كان سيغيّره في نظري...

صمتتا وسارتا قليلاً. كانت بلانشيت تتجهّم. عادت بيرينيس الى الكلام على المارة، والزينة النسائية.

فقاطعتها السيدة «باربنتان»

ـ اصغي إليّ، يابيرينيس، أريد أن أكلّمكِ بجدّية... اصغي إليّ... اصغي إليّ...

ـ لكنني أصغي إليك، أنتِ غريبة!

ـ بيرينيس، أتحبّين زوجَكِ... أتحبّين «لوسيان»؟

ـ بالتأكيد... لكن ماالذي...

ـ صَه... دعيني أقل لك... أنتِ تحبّين زوجكِ، بيرينيس، وأنتِ هنا لعدّة أسابيع، لعدّة أيام... فإذا انتهت هذه الأيام عدتِ الى «لوسيان»... الى حبّكِ... الى حبّه... لا، لاتقاطعيني... لاتبتسمي هكذا... لاتقاطعيني!

وقربهما توقّفتْ سيارةُ زرقاء من طراز «بوغاتي» وهي تفرقع وسط طائفة من الفتيات الصاخبات اللواتي اندفعن الى السائق.

ـ لاتطيشي، بيرينيس... من أجل هذه الأيام القليلة... من أجل تهوّركِ في هذه الأيام القليلة، إن حياةً بأكملها ستَفْسُد، ستتّسخ... لاتبتسمي هكذا... لستُ

أعظك... ولستُ أظنّ نفسي في معبد... إن مغامرةً واحدة ليست شيئاً ذا بال هذا مايُعتقد على الأقل... إنها تُنسى... هذا مايُعتقد على الأقل... ليس المغامرة... ليست المغامرة هي الوسخة... التي تلطّخ... ومع ذلك... مع ذلك فنحن سنفكر فيها، فيما بعد، بالرغم منا، وماتبقّى، كل ماتبقّى، الشيء المهمّ، الذي به نتمسّك... الذي هو الحياة... الحب الحقيقي... ماالحيلةُ، نحن نحقد عليه إذ يستمر عندما يتلاشى ماسواه... لم يكن ذلك شيئاً هاماً... هو الذي اتّسخ... هو[1]..

- تركتْها بيرينيس، وهي مأخوذةٌ، تتكلم. خُيِّل إليها أنها رأت ابنة عمها مبلّلة العينين. لعله البردُ، إذ لايمكن أن يكون في ذلك كله شيءٌ شخصي كانت بلانشيت لاتعيش إلا من أجل «ادمون»، وكانت المأساةُ هنا، وأن ادمون... تبيّنتْ بيرينيس ذلك، وقالت:

- الحاصل أن السيد «ليرتيلوا»... لم أقلْ له ثلاث كلمات. لستُ مشغوفةً به، أؤكد لك ذلك. إنه يعجبني كثيراً. لعله الشخص الذي رأيته عندكم والذي أعجبني أكثر من غيره... كنت أود أن أكلّمه... بالتأكيد... لالشيء إلا لأستطيع بعد ذلك، وأنا مستغرقةٌ في أحلامي أن أعطيه لهجة صوته في هذه القصص التي اخترعها عندما أكون وحدي... والتي أُدخل فيها الناسَ الدين صادفتُهم . لاأكثر... فلكي أتذكّر «ديني» الصغير جئتُ بكتابه.. بأشعاره... والسيد «ليرتيلوا» مثله مثل غيره.

- مثل غيره؟ أتعتقدين ذلك حقاً؟

- أؤكد لك ذلك... أنتِ حمقاء! عجباً، إني لاأكاد أتذكّره... ولا أدري ماشكله... أؤكد لكِ... إن هذا حقيقيٌّ جداً حتى اني توهّمته في كثير من المتظرّفين... معتقداً طوال الوقت أنني أراه فيهم...

كانت تقول ذلك بكل براءة. ولم يبدُ أن ذلك أقنع السيدة بارسان

- وهكذا تودّين، عندما تصبحين وحدكِ، أن تتمكّني من تذكّره تذكّراً أفضل... طائشة!

---

(١) بلانشيت هنا تتحدث عن تجربتها الخاصة كما سيأتي، لكن الغيرة المبطنة هي التي تحركها. **المترجم**

ـ مهلاً، مهلاً، يابلانشيت! أنا في الغالب وحدي، هناك، في منزلنا.. وحدي في معظم الوقت... ولابدّ لي من أن أشغل رأسي...

ـ والقلب؟

ـ القلب؟ أتعلمين أنْ لاقلبَ لي... أي لم يعدْ لي قلبٌ... كان هناك لوسيان... وأخذ قلبي... ولم يبقَ من قلب...

ـ لستُ واثقةً من ذلك، ياصغيرتي... اوه! لاتتصنّعي! وهل يعلم الإنسانُ إن كان له قلب؟

لم تكن بيرينيس تصغي، لم تعد تصغي. لقد تعرّفت حقيقة على بعض الناس هذه المرة. تعرّفت عليهم في جادّة الغابة. كم كانت تحسّ أنها باريسية! ولم يكن ذلك خطأً... امرأتان أقبلتا عليها، إحداهما طويلة والأخرى تكاد تكون قصيرة، حسنتا الملبس، متأنقتان، كأنهما خارجتان من عند الحلاّق، من عند الخياط، من بين يدي المدلك، وقد رُشّتا بالذرور، وبألوان اصطناعية ولطيفة على نحو عجيب، وكأنما كُويت ثيابهما لتوها، وكأنهما لم تطأا الأرض بأقدامهما، فاحتفظت بالطية التي طوتها بها خادمةٌ في بيتٍ راقٍ... الحاصلُ. كانت السيدتان «ماري دي بيرسيفال» و«روزملروز» مع مظلّتين ملفوفتين تحت الذراع، كما يحمل الضباطُ العصيَّ.

قالت ماري وقد بدت الدهشةُ عليها.

ـ اوه! يالها من مفاجأة! تركنا لتوّنا السيد «ليرتيلوا»...

السماء الرمادية، السماء المترامية الأطراف والفارغة، السماء الكثيفة، استعادت بهبّةٍ واحدة كلّ أهمية إرهاقها، والناس، غبار الناس هذا، برؤوسهم، ؤوس النمل المجنون، الذين أحرقوا أمام المرآة ساعات ليقضوا هنا بضع قائق، هؤلاء الناس عادوا صغاراً، مع الأشجار الصغيرة، والجياد الصغيرة، البيوت الصغيرة، والمرجات الصغيرة، على لوحة الذوق السيء الذاهبة من ساحة النجمة الى الغابة. ومن جهة أخرى، كانت الساعة الثانية عشرة وعشرين قيقة... ساعة العودة: ماري روز! هيّا، ماري روز!.

- ١١ -

دخل البحّاران الأمريكيان الطويلان الحانة وكأن اهتزازاً شديداً قد حدث. فضحكُهما المتتابع جعل النساءَ يلتفتْن، وينظرن الى وجهيهما، وجهين حمرتُهما داكنة، مسفوعين، تحت شعر واقف كالقش وقصير.

عملاقان: الراقص المتهن «لويجي» الذي يشبه مقلمة من اللّك (١) الأسود، تجمّع على نفسه لكي يمرّ قربهما دون أن تنشب السترةُ الرسمية بأقدامهما، وتمتم بانكليزيته الايطالية. «عفواً، ياسيدي»، كان سيدعو سيدة ناضجةً الى الرقص.

تنهّدت سيمون: لاخلافَ في ذلك... إنهما ثملان. لكنهما جميلان، هذان الشخصان... جميلان حقاً... المصيبة أنهما لايُحسنان أن يضبطا نفسيهما... ولولا ذلك... أنت تفهم، «لولي» يحرص على حشمة المظهر... واذا ماخُطفت إحدى هذه العصافير فإن ذلك سيُرى على الفور... وأنت تعلم أن «لولي» لايمزح... إذا ماخرجْنَ فليفعلْنَ ماشئْنَ، أما داخل الدار فلا خلاعة... لقد أُوقفتُ عن العمل خمسة عشر يوماً ذات شهر غير بعيد.. وطبيعي أنني لاأشتهي أن أعود الى ذلك!

كانت ترشف عصير البرتقال قرب السيّدين ببذلتهما، الواقفين، المرتفقين على واجهة الحانة وهي ممرّ ضيّق مُلبّس بالأكاجو. والديكور زجاجات مختلطة بأعلام صغيرة لجميع الأمم. والنادلان الأبيضان اللذان يذهبان ومجيئان، وعند الباب المطلّ على المرقص، أمينة الصندوق، السيدة «لولي» بذاتها، وهي فينيسية ضخمةٌ مغطّاة بالخواتم، تدقّق حساباتها طوال الليل. إنها آلة للحسابات. كان يمكن أن يكون الوقت الثانية عشرة والنصف ليلاً، لكن الوقت كان متماثلاً. تحت الأضواء الوردية المخفيّة في الأفاريز والتي تغمر التيمات المعلّقة في الجدران من لعبٍ وشارات نوادٍ أمريكية، وأعلام جامعات، وإعلانات للشمبانيا، ولوحات تركها

---

(١) عصارة صمغية حمراء. **المترجم**

شخصٌ من اوروعواي ثمناً لحسابه، وجهاز اليانصيب الآلي الذي كان يحرّكه بين الحين والآخر زبونٌ ثملٌ قليلاً. ونحو ستّ نساء لم يكنّ يرقصن في هذه اللحظة، وكنّ يتناولن قدحاً أو يثرثرن بكل بساطة مع رجال يُسرّون عن أنفسهم، بعد محطّة في المرقص، أو أنهم بكل بساطة لايذهبون ليجلسوا، إذ لم يكونوا بثياب لائقة، ثم إن الشمبانيا في الحانة ليست إجبارية. وفي طرف الحانة، انكايزية ثملةٌ قليلاً، جاثمةٌ على مقعد، وذقنها موضوعٌ قرب قدحها، تحدث عن كثبٍ ارجنتينياً في بذلته. ومن حين لآخر، كانت تترك محفظتها، ورشّاشة البودرة تسقطان، فيلتقطهما الأرجنتيني حتى دون أن ينحني بعفوية مُذهلة. وكانت اللوحةُ كلها تزاوج بين ملابس الرجال القاتمة وبين ألوان قوس قزح في فساتين المساء: البرتقالي، الفستقي، التوتي، الزمردي، الأبيض المبرّق، المذهّب بالمعدن، والأوشحة الناشرة أدخنةً وردية أو مياهاً زرقاء على المقوّرات الدرّاقية أو الحليبيّة، أو التي كقلب فطيرة الحلوى، أو رغوة الشمبانيا... ماأغرب هذه الذيول الصغيرة التي تضاف الى فساتين المساء نصف القصيرة! كان ذلك يُسبغ على المشية تلألؤاً مُرْتبكاً، وأهميةً غريبةً على أحذية المساء التي كانت كأنما تريد أن تنشب بها وتمزّقها... أجال الدكتورُ نظره طويلاً في هذه الظهور الشابة والقليلة النفور. ثم التفت نحو «ليرتيلوا»: أتريد كأساً أخرى؟ قال اوريليان بكتفيه: «لمَ لا؟». «أيها النادل. الشيء نفسه... لاثنين...» كان مشهداً لطيفاً أن يُرى وهو يصب في الخلاّط.

قالت سيمون لاوريليان: «أجددّت الطلب؟... كم يشرب صديقك!» وقالت هذه الجملة الأخيرة همساً. ثم قالت بصوتٍ غَنِج: «لم تقدّمْني...» تراجع اوريليان بجذعه وقام بحركة التعريف بين جاريه على يمينه ويساره: «دكتور، سيمون، صديقة... أحد أصدقائي، سيمون...

سألت مهتمّةً:

ـ هل السيّد طبيب؟

أجاب الآخر بذلك النوع من اللهجة الساخرة والمتواضعة التي يصطنعها بين الحين والحين مع أناس لم يتوقّع لقاءهم:

- نعم، وعندما يروق لي، ياآنسة..

منذ أن جاء زوج «روز ملرون» الى منزل ليرتيلوا بسبب نوبة الملاريا، تكوّن بين الرجلين نوعٌ من صداقةٍ متواطئة شديدة الغرابة، وتوطّدت بسرعة. لقد تلاقيا كثيراً مصادفةً، وساعدا تلك المصادفة قليلاً. في هذه اللحظة، كانت روز تمثّل في «بروكسل»: «جيكوندا»، جيكوندا «دانونزيو» في دورٍ عظيم، حيث كانت «الدوز» لامثيل لها. وهي سابقةٌ خطرة... فالدكتور «ديكور» لم يرافق امرأته. وكان يحسّ أنه وحيدٌ جداً. فانجرف في فلك «اوريليان». والحق أنه كان نُكثر من الشراب، شراب كؤوس كبيرة من «الجين».

سألتْ سيمون. «أمعك سيجارة». أخرج «ليرتيلوا» علبته المذهبة، وبحركه من يده، وبينما كانت سيمون تطبطب سيجارتها، قدم «اللوكي سترايك» الى «ديكور». سحبوا بصمتٍ الأنفاس الأولى، ثم أوضح «ليرتيلوا»

- سيمون صديقة قديمة..

فصحّحت له:

- رفيقة...

- وعندما آتي الى هنا مساءً لأختم أمسيتي، وأنسى الناس قليلاً... نمضي دائماً لحظةً معاً... وأنا أدفع لها ثمن كأسها...

قالت سيمون حادّةً:

- كأسٌ واحدة. أنت تعلم، يادكتور، أن مايَحْسوه الناسُ هنا مضرٌّ بالمعدة... اوه، لاأريد أن أقول... لا! ونحن هنا من العاشرة مساءً الى الخامسة صباحاً، ولابد من تناول شيءٍ مامن وقتٍ الى آخر، ثم على الطاولات، مهما كان قليلاً مانتناوله من الشمبانيا... لابدّ من ذلك... روّاد الحانة... وإذن فلا بدّ من كأس من عصير البترقال، أترى... وهذه الكأس من عند رفيقي!

ضحكت قليلاً ببلاهة، ودغدغت أذن اوريليان، وأضافت «كالأخ وأخته»، وغمزت بعينها، ثم قالت جادّةً ومُسِرَّةً «ذلك منذ زمن بعيد جداً... ألن تصحبني مرةً أخرى ذات مساء؟... مازلتُ أسكن في المكان نفسه...»

كان الدكتور ينظر إليها بفضول. كانت كما يجب أن تكون تماماً، ولاشيء غير ذلك. فتاة أقرب الى الطول، شقراء، بشعرها المقصوص والمُعنى به، المعقوص عقائص عاطفية، حول وجه كوجه الهرّة، وبأنفها القصير، الخانس الذي يشدّ الشفة العليا لتكتشف قليلاً عن أسنان صغيرة ناصعة البياض. وكانت عيناها المجمّلتين، ورموشها المزرقّة، تحمل تعبيراً مستفهماً، أبداً، تصنّعاً أو غباءً خالصاً. وكانت عنقها وظهرها مقبولين، ويداها مدوّرتين، لكن عادةً سيئة كانت تجعلها تجلس وكتفاها مرفوعتان، غارقتان الى الخلف، فتبدو دائماً كمن يلملم فستانها وخمرها، كما تلملم الأغطية اذا فوجئتْ على السرير. وكان ذلك يجوّف لها صدرها قليلاً. ومع هذا كان فستانها فقيراً وإن كان غالي الثمن، كالفساتين التي ترى في واجهات شارع «بيغال» و«فونتين». كان فستاناً وردياً، مع ريشات مصبوغة بلون أشد قتامة حول التقويرة. وعلى الكتف قرنفلةٌ غضّةٌ مع أوراق بذلك الأسلوب الهوائي يتهافت هُواةُ الأزهار على تعليقها في العروة.

- آه، سأتركك لحظةً... أتعذرني؟ (وبطرفة عين متواطئة كعادتها) «العمل... هل تسمح لي، يادكتور؟

- أرجوكِ...

- سيكون هناك عرضٌ عارٍ... المشهد، تعلمان... اذهبا لرؤيته... لابأس به...

نصحتْ هذه النصيحة وابتعدت، وهي لاتني تلملم حولها، بتلك الحركة الآلية، تلك الحماية المحتشمة لعدّة سرير متنقّلة... وفي الصمت الذي حمله هذا الذهابُ بين الرجلين سُمِعَ، بشدة أكبر وبدقّة أعظم، ضجيجُ المكان، هذا المهاد من الضوضاء الملائم جداً للوحدة، مع الجلبة المزدوجة لأحاديث الحانة والاوركستر التي كانت تعزف «البانغو» جانباً، وأصوات الراقصين، وهتافات

المرح، وصوت «لولي» الذي كان يصيح في المدخل، بين حين وحين «اولّي! اولي!» مع حركة مناسبة، لكي يشجّع ذلك الجوَّ الاسباني. وكان البحّاران الأمريكيان اللذان يحيط بهما جمعٌ من السيدات، يدفعان بغير حساب، ثمنَ الشراب، ويقرّبان رأسيهما ليتمكنا من غناء أغنية «جوني وفرانكي»، ممّا أفرح مستمعاتهما.

قال اوريليان رداً على سؤالٍ لم يُطرَح. «ماذا تريد؟... مازلت أصاحب هؤلاء البنات. وذلك يغيّر، ويريح. آه! لا، من أجل المضاجعة. ياالهي!... كلاّ... الحق أن ذلك يقع لي نادراً جداً. حياتهن كئيبة، وهي في حقيقتها، بسيطة كلّياً. يجب ألا نراهن في وضح النهار. مالم يكن في زمرة من تلك الزمر التي نشتهي فيها أن ننتحب... كذبهن ليس كذباً. إنها مواضعات محترمةٌ جداً. مواضعات مسكينة صغيرة. وأنا أشعر معها بالراحة حين أخرج من ذلك العالم الذي أعيش فيه ،الذي لايحملن أية فكرة عنه.. لامكائد. إذا كنا نشتهي... ثم بعد ذلك. كالأخ والأخت، كما تقول سيمون... أحب كثيراً هذا المكان اللامعقول... حيث من المؤكّد أن تلقاني هنا نحو هذه الساعة... لأنني، على الأعمّ، مُبتلىً بالسيدات المتزوجات اللواتي يتركنني لقدري... عزباً مسكيناً، ليذهبن ويلقبن مالكهن صاحب البراءة... أو في النهاية...

- أنا الذي سأشفق على العزب المسكين...

- لايشفق أحدٌ إلا على نفسه، هذا متّفقٌ عليه... أنا أحيا أي أنام كلّ ليلة، وأستيقظ كلّ يوم بين ذراعيْ «السين»...

- طفلٌ كبير!

- اضحكْ، اضحكْ... بين ذراعي «السين» كالغريق... ومع الزمن يصبح ذلك فكرةً مستحوذة... رأيتُ كثيراً من الموتى في حياتي... إن صورة النهر التي تمتزج بأحلامي، كما تمتزج، فيما أظن، صورة الجُرف الثلجية بأحلام الجبليين، يجب أن نُعارضها بشيء... بجوّ الابتهاج... إن الفلاحين يرقصون لكي لايخافوا بعدُ من القوى الطبيعيّة...

ـ وأنتَ، لكَ هذه الحانة... «اولّي، اولّي»

ـ تماماً... ولقد مزجتُ قصصي كلها بهذا المكان... وإليه جئتُ بكل صاحباتي... حتى إن صديقتي سيمون تعرفهن اذا رأتهن... وانها تقول لي ألم تعد تراها الحمراء الطويلة... أو السمراء القصيرة التي لاتحتمل الشمبانيا...

ـ آه! يحسُن بي أن أعرف ذلك، عندما تغازل امرأتي بإصرار... سأعرف ممّن أستعلم...

كان قرعُ الطبل يُعلن بدءَ العرض.

ـ أتذهب إليه، دكتور؟... لا... موافق... نحن أفضل هنا...

ـ أنت جسمٌ غريب، «ليرتيلوا»... وكلما عرفتُك وجدتُك مختلفاً عمّا كنتُ أتصوّر... لك صيتُ دون جوان... وأنا أتساءل الآن لمَ لم تتزوج، ومع الأولاد... مع الأولاد من ناحية المرقص... إني أراك جيداً هكذا...

ـ ربما، يادكتور، ربما... لكن... فيما يتّصل بالأولاد...

أراد أن يقول شيئاً فتوقّف فجأة، لعله الحياء. كانت عيناه تحلمان بعيداً... أما «ديكور» فكان يضحك في أعماقه إذ رأى نفسه رسولاً للزواج. وفي مدى لحظة، تغشّتْ الأشياءُ، غشّاها شيءُ كبيرٌ مبهمٌ ومتناسق. خُيِّل إليه أنه يسمع صوتاً معروفاً وعميقاً، صوتاً محبوباً وممرّقاً... نبّهه فجأة صوتُ اوريليان الى هتاف الزوجين، وقد سعد بأن يراه شارداً، لأن ذلك كان يخفي هربه العابر هو نفسه:

ـ ها أنت ذا تعود الى التفكير بـ«روز»!

انتفض الدكتور وقال: «لا... بلى... لايجوز أن أُخفي شيئاً عنك... كنتُ أُسائل نفسي كيف سيتمّ الأمرُ في بروكسل.. وأنتَ، اذا كنت تعتقد أني لم أر شرودك عني!».

سكتَ اوريليان وابتلع جرعةً كبيرةً من «الجين»:

ـ شيء غريبٌ، أمسياتنا، ياعزيزي... نحن رفيقان متوافقان من أجل هذا بالذات... لأننا نستطيع أن نصمت معاً... أو نتكلم دون أن يُصغي الآخرُ حقاً...

فكّرْ في روز، ياصاحبي، فكّرْ في روز، ولا تتحرّجْ مني...

- إني أفكّرُ دائماً بروز، حتى عندما أتكلّم عن أي شيء آخر... لايستطيع أحد أن يَسْرقها مني... ومن عادتي أن أفكّر في «روز» أمام أيّ إنسان... لكن مع ذلك أين شردتَ أنت، يا«ليرتيلوا» أيضاً؟ ألم تكن تفكّر في روز أنتَ...

- لا، دكتور، لا. سأقول لكَ فيمَ كنتُ أفكّر، وسيبدو لك ذلك سيّئَ الذوق... كان الأمرُ كذلك، ولا أدري لمَ... أضعت حلقة التسلسل... نعم، الفكرة التي ضللتُ عنها والتي ألقتْ بي في هذه القصص العتيقة... عمّ كنا نتحدث؟

- عن الزواج.

- آه! صحيح... عن الزواج... الأولاد... حينئذٍ رأيتُ فجأةً ركناً من «الشمبانيا»... بصفاء خارق للعادة... رائحة الأرض... الرطوبة العميقة... النور... وكان في الأسلاك الشائكة جثةٌ لم يمكن رفعُها منذ أيامٍ وأيام..

صمت مرةً أخرى.. وطال الوقتُ. ثم «وساءلتُ نفسي أيضاً... لابد أنك خضتَ الحربَ... أين كان ذلك؟

تغضّن قليلاً وجهُ «ديكور» الشاحب. وقال بهدوء تام، وهو هدوء يشبه هدوء الفيلم الأمريكي: «نعم... كجندي في المؤخّرة...»

علا التصفيقُ. لقد أنهى الراقصون الروسُ عَرْضهم.

قال «اوريليان» بخجلٍ وبنوعٍ من الشعور بالدونيّة «أتعلم أنني لم أخرج من الحرب تماماً بعدُ... لم أتخلّصْ منها تماماً... إنني ماأزال أستيقظ ليلاً وبي خوفٌ من الألغام، كما كانت الحال في ١٩١٥... ثمّة الكثيرُ من هذه الأشياء في هذه الحياة اللامعقولة... الحرب... ماتزال هي التي أهرب منها الى حانة «لولي»...

وفجأة عاف الكلام على ذلك، فحاول بعنفٍ أن يعثر على الاستطراد الضروري. لكن الاستطراد جاءه بكل بساطة من صاحبه.

قال الدكتور: نعم، نحن جميعاً نهرب من شيءٍ ما... فكرة لم تُصغْ، على الأغلب، فكرة ملازمة... لم أستطع قط العودة الى منزلي اذا كانت «روز» غائبةً

عنه... إني أتسكّع ليالي... ليس «الجين» شيئاً رديئاً... «روز»، ياعزيزي، «روز»... آه! ليس بوسعك أن تفهم، فأنت لم تعشق قط... كيف أُعبِّر لكَ؟ «روز»، بالنسبة إلي... «روز» هي حربي... هكذا... حربي أنا... لعل هذا يُعبّر لكَ أكثر من أي شيء آخر، حربي أنا، حربي العظمى!

وضحك ضحكته المتأنّقة، وعاد الى الأرض، بأنف من قال شيئاً متكلّفاً، شيئاً تكعبيّاً، ألا تجد...

وتابع كلامه: ماذا تريد، الناس الذين هم أسياد أنفسهم، الذين لهم دخولهم يمكنهم بيسر أن يصمدوا في هذا الجو من العقلانية الرفيعة... بودلير، رامبو، فيرهارين... حيث تجد روز نفسها، بصورةٍ جد طبيعية، في بيتها، لأسبابٍ تتعلق بالعبقرية... أما المساكين مثلي!

واستأنف لهجة الوقاحة والتذلّل.

ـ أقول لكَ إنها حربي/.. الحرب كلها... لقد علّمونا في الثانوية أن الحرب هي قانون الحياة... مَنْ قال هذا؟ «هيراقليط» ياعزيزي، هيراقليط... لكن الرجل الذي يتزوج امرأةً غنيّة، سرعان ماينسى الفرقَ بين امرأته وبينه... انظرْ الى باربنتان... عرفتُه في الكلية قديماً... مَنْ الذي كان يلومه على سيّارته؟ ليس الأمرُ واحداً عندما تكسب المرأة حياتها، وبطريقة صاخبة... مسرحية إن جاز لي القولُ... بوسعكَ أن تنهك نفسكَ... أن تلجأ الى الشعر... ليس لك حتى الحق في الكلام على الحب... أنت قوّادٌ سوقيّ...

ـ آه! مهلاً، دكتور، أنت تبالغ... فلكَ مهنتُكَ...

ـ نعم، لنتحدّثْ عنها... كان بوسعي أن أغدو طبيباً... طبيباً حقيقياً... مع مركز... سيخبرك باربنتان عن ذلك... لكني تركتُ كلَّ شيء من أجلها... يتعذّر الاستقرارُ في مكان ما مع هذه المترحّلة... هذه الهاربة... في المراحل الأولى... ثم إن الأمر كان شديد القسوة... فعدَلتُ عن ذلك...

ـ لكنك تمارس مهنتك!

ـ أمارسها، أمارسها... في الصيف، أقضي موسم المعالجة في إحدى مدن المياه... وأنا أدعى الى هناك بسببها، أعلم ذلك جيداً... روز تتعالج لتظل

رهيفة... ويالها من دعايةٍ لمؤسسة المياه الحارة والكازينو! ويتعذّر في سائر العام أن يكون لي مكتب، شيءٌ ثابتٌ... وإذن فقد تدبّرتُ أمري... فبما أنني أصبحتُ طبيب «روز» قبل كل شيء، وأنني أنا الذي يُعنى العناية الكلّية بجمالها... على كل حال، لم أكن لأتحمّل أن يعمد آخر... شيء مثير، الغيرة... أن يكون لها عشّاق، ياالهي... لكن هذا... مجرّد التفكير فيه يصيبني بالبرد... ماذا كنتُ أقول؟ آه نعم، وإذن فقد انزلقت الى هذا الاختصاص، وهو غير جدير بالاهتمام كثيراً، هو غير علمي... العناية بالجمال، التدليك، الحِمْية لتظلّ شابةً وجميلة... ويجانبي طبعاً هذا المثال الرائع... هذا الدليل على مهارتي، روز دائماً... أنت ترى إذن أنني حتى في مهنتي، أغتذي بـ«روز». أتظن أن المسرح، والعبقرية، أتظن ذلك يعوّض على واحدة مثل «روز»... لابدّ من المال شأنها شأن جميع الذين لايعلمون ماذاك... في هذا الجو من العقلانية الرفيعة... ولذا فقد ابتكرتُ أشياء... تولّهتُ بسيّدة روسية... من الأرستقراطية العُليا، في المنفى، وهي لاتأكل إلا في صحون القيصر... وهي تصنع مستحضرات للتجميل... وأنا أوصي بها... وتسير الأمور عندما أكون بمعيّة روز في البرازيل أو البلقان... مراهم للتجميل تشدّ الجلد... وهناك مرهم قذرٌ شكلاً ورائحةً... يُدهَنُ به الوجه، وهو يلدع، كالنار بكل بساطة... ثم لايلبث اللذعُ أن يهدأ... ويُغسَلُ الوجه بمادة أنا ابتكرتُها... فيعود الجلد الى جلد ابن خمسة عشر عاماً، وذلك لمدة اثنتي عشرْة ساعة... وقد تخيّلنا أن نضع صورة «روز» على قارورة المرهم... فأنت ترى جيداً...

ملأ كأساً جديدة. كان «اوريليان» يصغي الى صاحبه، ويفكّر في «روز»، تخيّلها وهي في منزل «ماري» في فستان المخمل الأخضر المائي، وتخيّل فمها. غريبٌ أن يعلم المرء هكذا الوجّه الآخر لهذا الجمال... والأغربُ أن الدكتور كان يجعلها بهذه الوسائل أشدّ جاذبية أيضاً... ويثير الفضول. أبعد اوريليان الفكرة التي كانت تتسلّ بمكرٍ الى نفسه. فلا شك أن «روز» كانت مشجِّعةً على نحو فريد عندما تناولوا ثلاثتهم العشاء معاً... لكن حب هذا الرجل لامرأته كان عظيماً جداً، فريداً...

همس «ليرتيلوا» «كم تحبّها! لابد أن يكون شيئاً مُبلبلاً ذلك الحبّ، الحب الذي في الكتب... والذي يدوم.. أسابيع... وأشهراً... وأعواماً... السعاده...

قهقه ديكور السعادة! آه! نعم... السعداء لاتاريخ لهم... يالها من مزحةٍ... ليس هناك من سعادة. هناك الحرب... ياهيراقليط العزيز القديم!... الحرب...

فكّر «اوريليان» آه!... هاقد جاء الشرحُ الموسّع .. ونظر الى ذلك الوجه الطويل، وهو أقل هزالاً من الرجل ذاته، الى تلك الجبهة العريضة المقوّسة، والشعر الأملس الذي يكاد يكون أزرق، والعينين السوداوين، وتعبير المرارة المكبوح.. لم يكن يستطيع أن يقرّر اعتبار «ديكور» كائناً متكلّفاً، لكن إن كان ذلك كله طبيعياً فيا للفظاعة!... إن اعتدال هذه الشفة الملأى بالمرارة لابد أنه كان ثمرة سنين وسنين من الألم. كانا تقريباً بقامةٍ واحدة... لا، كان الدكتور أقصر قليلاً...

- «روز»، ياصديقي، فَتْحٌ دائم... هناك الخَيبات... فنحن لانربح جميعَ المعارك... هناك لحظات يجب أن نخسر فيها، أن نترك ساحة المعركة... أن نحتال... وذلك لكي نُحسن الظفر... ليس العالم فارغاً أيضاً... هناك كائنات أخرى... رجالٌ ونساءٌ وحوش... «روز» حرّة... كائن فذّ كهذا... بأي حق أطلب منها أن ترفض مايُغريها؟... العبقريةُ لها حقوقُها... يجب فقط أن نكون أقوى ممّا يُغري... أن نكون مايدوم... فتعود إليّ...

ماأكثر ماصار اوريليان يكره نفسه... فما كان يسكنُه، لم يكن، في حُكْمه، جميلاً.. وكان تقديرُه كله يذهب الى هذا الرجل، الى هذا الصديق الجديد... لكن صورة «روز» كانت تملأ الحانة، مع دخان السجائر الدوّار، تلك اليقظة الراعشة للحياة فيها، عندما تنتقل أبداً من السكوت الى الكلام. كان يراها ثانية وهي تمدّ شفتها لتطلب خبزاً، خبزاً فقط. وكأنها كانت تبحث عن قبلة. ومرة أخرى، عادت الى الدكتور تلك اللهجة المتذلّلة، المليئة بالأفكار المبطّنة، وهو مالم يكن يحبّه «اوريليان» فيه

- خذْ مثلاً، في ذلك المساء القريب العهد... كنتُ أنظر الى روز وهي تنظر

إليكَ... لاتحتجّ، أنا أعرفها... نظرتْ إليك في مدى دقيقة كما يُنْظَر الى شيء في الواجهة... أعرف مايعنيه ذلك... اوه! لقد مرّ ذلك، على نحو طبيعي... لاأدري لمَ أقول لك ذلك... لأن ذلك هو حياتي... السعادة... الحرب... أنت أيضاً ممّن يستطيعون أن يحبسوا أنفسهم في جو العقلانية الرفيعة... أنت لاتخلط حبّك بالتجارة... ببيع المراهم.. بالنصائح الصحيّة.. أنت ذو امتياز...

أخذ «اوريليان» فجأة يكره الدكتور، ويفكّر عندئذ في «روز» بدقة قاسية. وكان قد دخل أناسٌ جدُدٌ الحانةَ حيث كان البحّاران برقصان الآن في ركنٍ رقصةَ «الجيك»، وهما مقرفصان، في ظلّ تصفيق بنات الحانة وروّادها.

قال ديكور. وأيضاً فأنت لاتعلم ما«روز»... لكني أتكلم عنها بغباء... من يعلم، لعلك ضاجعتها!

لابدّ أنه آلم نفسه إيلاماً شديداً وهو يقول ذلك. كان في عينه ذعرٌ. لم يكن لما قاله، مع ذلك، كبير احتمال. أخذ ينتظر جواباً. قرأ «اوريليان» في نظرته أن الصمت يُفقده عقله. لاشك أنه كان يفكر في أن رفيقه يحاول أن ينخلص من السؤال غير المباشر. كانَ ينبغي أن يتكلم. قوّس اوريليان كتفيه، وأحسّ بقوّته وخبثه.

قال: لم أفعلْ ذلك بعد. دخلَت سيمون كالإعصار مع مراقصها، ورأسه كرأس تاجر البقر، وعلى واقية الصدر جواهر. قالت في طريقها، وهي مهتاجةٌ، ودون أن تتركه.

ـ هناك صديقات في الصالة، أتعلم؟

قطّب اوريليان حاجبيه: مَنْ هنّ؟

ـ ثلاث سيدات ورجلان...

لقد تعب من شبح «روز»، ولم يعد «ديكور» ظريفاً جداً، في الحقيقة، قال له:

ـ ليتنا نذهب الى الصالة لنرى، دكتور؟... أنت تعلم أن الناس قد يأتون الى هنا وفي نيّتهم أن يلقوني...

وانتقلا الى المرقص.

من اللون الوردي دلفوا الى الأزرق. كانت الاوركسترا تعزف «فالساً» انكليزياً تدندن به نساء حول الطاولات في إنارةٍ شبه ليلية أُعيدت قبل هنيهة، بيما كان الراقصون يدورون مثل العشّاق على البطاقات البريدية (أنت حقّاً جميلةٌ جداً- بحيث أحببتك حتى الجنون...).

كانت حانة «لولي» تبدأ خلف أبوابها الزجاجيّة الصفّاقة ذات الستائر البرتقالية، بنوعٍ من البهو، أو الغرفة الخلفية التي تُفتَحُ عليها الحانةُ يساراً، والمغاسل يميناً، والتي تتّصل اتصالاً عريضاً بالمرقص. وكان هذا البهو سوقاً لكلِّ مايُباع هنا، من قلوبٍ وسجائر، وأشياء أخرى يصعب تحديدُها. وكان فيه، على الدوام، أناسٌ يتحادثون عن كثب، من روّادٍ يعتزلون جانباً للحظة من الزمن، أو بغايا يثرثرن فيما بينهن، أو ينضممْن الى شباب لن يتعرّفوا عليهن بعد قليل وهم يرقصون، وهن شخصيات مضطربة وشاحبة ينطفىء نقاشُها لدى دنوّ زوجين أو دنوّ مدير الخدم. هناك أيضاً، في الزاوية، حجرة الثياب بمديرتها العاطفية، وبجانب المغاسل التي تنبعث منها ضحكاتُ هؤلاء السيّدات، بابُ المطابخ التي يخرج منها الجبنُ المذابُ على الخبز المحمّص، وأفراخ الدجاج بين أسطال الشمبانيا.

- أتريدان طاولةً؟..

كان هذا هو السيد «لولي» بشخصه، وهو ايطالي من أمريكا، عظيم البطن لكنه متينٌ، عضلاته ملاصقة لسترته الرسمية، ومابقي من شعره الأسود متجعّد حول صلعته، وقد أقبل على السيد «ليرتيلوا» أحد روّاد الحانة، وشدّ على يده.

- شكراً... إن لنا أصدقاءنا...

غمر الفالس القاعة. وهي رقصةٌ رقصها اوريليان في ١٩١٩، فى لندن، من حانة ليلية الى حانة ليلية أخرى، مع تلك الصديقة آنذاك التي غرقت في

«التايمز» ذات ليلة... على إثر رهان غبي. موسيقا الفالس... أغمض عينيه. لكنه لم يرَ لندن، وفكّر في «السين» حول الجزيرة...

كان مرقص «لولي» صالة كبيرةً مربّعة حولها شرفة، تحت أعمدتها غرقت أربعة صفوف من الطاولات، مع حلبة الرقص في الوسط. وفي الصدر، غرفةٌ اخرى، شبه دائرية، تكبّرها، وفيها تستقرّ الاوركستر، وطاولات أخرى أيضاً، كالكهف. نادراً مايأتي الناس الى طاولات الشرفة المنزوية، التي كان يتمّ الوصول إليها بدرجين من على جانبي القاعة. وكان كل ذلك مغموراً بالنور الذي يترك ظلالاً فوقها، نحو السقف غير المرئي، بأسلوب مغربي كاذب، أزرق وأحمر وذهبي يُبرِّم الجصّ على أعمدة الشرفة،

والمقصورة الكبرى في الصدر، وكانت الطاولات تحت الشرفة مرفوعة قليلاً بمقدار درجتين، وتغطّي ذلك كله شرائط أرسلها المتعشّون قبل رقصتين أو ثلاث مثل قالب حلوى تزيّنه قشدةٌ من كل الألوان. وكان الخدم ينسلّون بين الطاولات، والأطباقُ في توازن خطرٍ فوق الرؤوس. إذ أن الحانة كانت غاصّة بالناس، فأضيفت مناضد صغيرة عند أرجل الراقصين الذين كانوا يدورون في الوسط. وكان ضوءُ القمر الاصطناعي يساير الموسيقا مسايرة ديكور ابن سراج لبنات مونمارتر.

همس الدكتور هاهم أصدقاؤك.. وكان ينظر الى اليسار، الى الوسط، على حافة الراقصين. فتتبع اوريليان نظرته. وكانت «بيرينيس» أوّل سخص رآه، في فستان «اللوتوس» الذي ارتدته في منزل «ماري». وبقربها «بول ديني» و«بلانشيت»، و«وبارينتان»،

هزّ الدكتور رأسه. ألم تَسْتدعه السيدة «دي بيرسيفال» الى منزل اوريليان المريض؟ سيمون تعرفها أيضاً، تعرف ماري. كذلك فكّر الدكور، وفكّر أيضاً، وهو يسير الى الطاولة أن «ليرتيلوا» المتحفّظ من نواحٍ أخرى، لم يكن يعتبر سيمون داخلة في قواعد هذا التحفّظ.

«آه، دكتور! «ليرتيلوا»!

نهض باربنتان واستقبلهما. أزعج ذلك الراقصين قليلاً لدى مرورهم، وعبرت كرسيّان فوق الرؤوس. واستقرا حول طاولتهم.

صاحت ماري بالدكتور. «أنت عزبٌ، هذا المساء» صيحةً جعلت الكريستال يطنّ في طريقه. وكان الدكتور يقبّل يد بلانشيت، وكلها بالساتان الأسود ماعدا الذراعين العاريتين وستّ الصفوف من اللآلىء التي ورثتها عن أمها...

ابتسمت بيرينيس لـ«ليرتيلوا»: «أكّدت السيدة «دي بيرسيفال» أننا سنجدك هنا...»، واحمرّت. صُبّت في كؤوس الوافدين الجدُد آخر قطرات الشمبانيا. صفّق «باربنتان» بيديه «هات زجاجتين من الصنف نفسه!» فسارع الخدمُ.

توقّفت الموسيقا، وتوقف الراقصون أيضاً مع تلك الخيبة المتوجهة الى الاوركستر والى مراقصاتهم في آنٍ واحد. كرر الموسيقيون الفالس نفسه. أحسّ اوريليان بيدٍ على ذراعه، كانت بلانشيت «ألا تريد أن ترقص هذا الفالس»؟ نظر الى بيرينيس نظرة اعتذار، ولحق بالسيدة باربنتان. ورأى بمؤخرة عينه أن «ماري» نهضت مع «ديكور» فزمَّ شفتيه قليلاً. قال لمراقصته رقصتُ هذه الرقصة أول مرة في لندن... في ١٩١٩...

- آه!

كان رأسُها في مكان آخر. ولاحظ أنها تصطنع في وجهها قسوةً أكثر من المعتاد. كانت شفتها السفلى ترتجف قليلاً.

- «اصغِ... اوريليان... طلبت منكَ هذه الرقصة لأنني أريد أن أكلّمكَ...

- أرجوك، سيدتي العزيزة...

كان يتلهّى برؤية ماري إذ تراقبهما وهي ترقص. نظر الى الطاولة بدا «بول ، ننّي» شديد الاحتفاء ببيرينيس. كان باربنتان يشتري سجائر من صبيّ الحانة.

- اوريليان... أرجوك... مادام في الوقت متّسعٌ... دع بيرينيس وشأنها...

وتحاشيا في آخر لحظة الاصطدام بزوجين أخرقين.

ـ ماذا تقصدين، بلانشيت؟ السيدة موريل...

فاستشاطت

ـ لاتكذبْ... أتظن أنني لاأرى لعبتكَ... ولعبة «ادمون»...

ـ لكنْ، ماهذه المزحة، ياصديقتي العزيزة؟

ـ أنت تلفى لدى كل خطوة... وكأن الأمر مصادفة... ويُرْمَى بكَ إليها... ولاتعرف شيئاً من ذلك...

ـ أؤكد لكِ...

ـ اوريليان، هذا سيءٌ... سيٌّءٌ جداً...

ـ ياصديقتي العزيزة،، السيدة «دي بيرسيفال» تنظر إلينا!

ـ صدّقْني، «اوريليان»، صدّقني... هذا سيء.. سيء جداً...

ـ لكن...

ـ اسكتْ... اصغ إليّ،. اوه، اصغ إليّ... بيرينيس شابة... سعيدة... نَعم، إنها لاتعلم شيئاً من ذلك... لكنها سعيدة... لها زوجٌ يعبدها... طبعاً إن حياتها... مسطّحةٌ قليلاً... في الريف... بالطبع.. لكن زوجها يعبدها...

ـ ممتاز... ولا أدري...

ـ اسكتْ! اوه! إن كان مايزال فيك شيءٌ إنساني فتذكّرْ... تذكّرْ ماجرى بيننا.. والسوء الذي ألحقْتَه بي...

ـ مهلاً، بلانشيت، لم يجر شيء... أولم يجر سوى شيء طفيف جداً...

ـ نعم، طفيف، بالنسبة إليك! لكنه كافٍ لتدمير السكينة...

آه أنت تعلم أنني أحب «ادمون»، أحب ادمون وأكرهه...

ـ أؤكّد لكِ، ياسيدتي العزيزة، أن السيدة «دي بيرسيفال» لاترفع بصرها عنا...

تساءل ماالذي يمكن أن يكون في نفس بلانشيت. أهي تغار؟ الحاصل أنها كانت تحبّ زوجها، ومن أجل بضع قبلاتٍ ذات مساء... نكايةً بطيش باربنتان دون شك أكثر من أي شيء آخر.

قالت أيضاً

ـ اصغ، أنا أعرف بيرينيس... سوف تدمّرها بكل بساطة، إن مضيتَ أبعد من دلك.

ـ لكني أقسمُ لكِ...

ـ أنتم الرجال لاتعرفون ماالأمانة... الحقيقية... العميقة... أحب أحياناً أن أموت بسببك... بسبب تلك الدقائق... بسبب ذلك الشيء التافه...

اصطحبها الى الطاولة. وعاد النورُ الكامل، وصوتُ الضحكات والأحاديث. وحلّت «الفوكس تروت» محل الفالس. واتّفق لأوريليان أن جلس قرب ماري، ماري التي في لآلىء الكريستال، مكشوفة الظهر الى ماوراء رافعة النهدين.

همست إليه. أنت ترقص كالإله ياعزيزي. كنتُ أنظر إليكَ...

ـ كان ذلك واضحاً للعيان...

ضحكت من لهجته المستاءة: «أوه! لاتخشَ شيئاً!».

بين هاتين المرأتين، انتابته ثورةٌ، فالتفت الى بيرينيس ليدعوها... لكنها كانت قد نهضت لتوّها مع «بول ديني». لقد فشل مشروعُه..

قال باربنتان

ـ أعترف لك، ياصاحبي، أننا جئنا الى هنا من أجلك على وجه الخصوص... ذهبنا الى «البالّيه»... ثم عند الخروج من «البوف»... كان كئيباً هذا المساء، ولاندري لماذا... ولذلك فعندما اقترحتْ ماري...

هتفت السيدة باربنتان متعجّبةً:

ـ اوه! ماري، ماري تحتمل المضايقات بلا تأفّف!

ضحكت السيدة «دي بيرسيفال» ضحكتها القصيرة الحادة، وقالت:

ـ على كل حال، أنا أستغل الالتباس... أنتَ لستَ رقيقاً، ياسيد ليرتيلوا، فأنت لاتراقص سوى السيدة باربنتان...

نهض وهو ظاهر التكلّف، تبعته ماري ورقصا. قال كمن يعتذر:

ـ لاأحب «الفوكس تروت».

ـ اوه! لاتُتعب نفسك... فليس هناك ماتخشاه، وأنا أعلم جيداً أن الأمر قد انتهى... ولستُ متشبّثةً...

ظنّ من واجبه أن يضغط على يدها ضغطةً مهذّبة، من النوع المشغوف، فأمعنت في الضحك، كانت تضحك طوال الوقت، هذا المساء.

ـ أبله! لاتتظاهر... أنت ترى جيداً أنني جئتكَ بها...

ـ ماذا تعنين؟

ـ دعكَ! أيها البريء... تستطيع أن تُخفي ذلك عمّن تشاء... لاعنّي... على كل حال، بما أنك تحبّها...

ـ أنا أحبّها؟ لكن، ويحكم...

ـ أتُقسم الآن؟ عزيزي اوريليان، أنا مطلّقة... لقد أوحى إليّ «ادمون» من جهة أخرى...

ـ أؤكد لكِ، ياماري أنه لم يكن بيني وبين بلانشيت شيء...

ـ بلانشيت؟ آه! لا، فذلك شيء بالٍ قليلاً... لقد جئتُك بها، هذا المساء، «موريل» الصغيرة... كانت تشتهي ذلك كثيراً... تستطيع أن تعتمد على تواطئي... بما أن هذا كل ماتريده مني...

«موريل» الصغيرة... لقد ذهل حقاً. فما بالهما كلتاهما... بلانشيت قبل هنيهة... وماري الآن!

لم يغيّر إنكارُه شيئاً من الأمر. وقالت ماري دي بيرسيفال «كنتُ في منزلك، كنتُ في منزلك، ورأيتُ...

بدتْ له هذه الجملةُ هزليّةً وعاد الى التفكير فيها فجأة عندما جلسا، لكن الظروف كانت غير مناسبة للاستيضاح، وعزم ألا يدعو «بيرينيس»، وسمع «بول ديني» يحدثها عن التصوير.

فهز كتفيه، وكان باربنتان يُراقص سيدة من المكان.

ارتدّت بلانشيت الى «ديكور»:

ـ إذن... السيدة «ملرور» في بروكسل، دكتور؟ ألم تصحبها؟

بمَ أجاب الدكتور؟ استأنف طريقته المتذلّلة والساخرة، وقال شيئاً عن تلك الكائنات من النخبة التي لايجوز أن نحبسها... سيد ليرتيلوا!

كانت بيرينيس هي التي تخاطبه:

ـ هل رأيت «الباليه» هذا الموسم، سيد ليرتيلوا؟ افصلْ بيننا... فالسيد «ديني» وأنا، لسنا من رأي واحد...

وإذن فقد دخل في الحديث وبلانشيت تنظر. كان الحديث بالنسبة إليه عير هام، لكن بيرينيس كانت تُضرمُه بحماستها غير العادية، وهي التي كان كلّ مافي باريس يتّخذ، في نظرها، ألواناً جديدة ووهّاجة، وعطرَ الشيء الاستثنائي. وكان «بول ديني» بساعدها في ذلك، لأن كل مايمّس الفنَّ، والمسرح، وديكورات بيكاسو و«ديران»، والموسيقا، كان يهزّه هزاً خارقاً. مثل المقامر اذا تصدّى للعب. انخرط اوريليان في ذلك، ودهش من هذا الجنون، لم يشارك فيه، لكنه أخذ يخضع لتأثيره، على نحو غير محسوس. تذكّر أنه استبشع هذه المرأة الشابة. وتذكّر أيضاً كلمةً من «ادمون» بصددها: الشيطان في جرن الماء المقدّس... كان فيها نارٌ مضطرمة، بالتأكيد. ،كان شيءٌ ما، في هذا المساء، ينفخ في هذه النار، يؤجّجها. ربما كان غرور «بول ديني»... كان هذا الصغير يغازلها، دون مبالاة بالسيدة «ددي بيرسيفال». وفكّر اوريليان أنه ليس من اللطف تجاه «ماري» أن يُشارك في ذلك... وأراد أن يُصلح هذه الخشونة. لكن ماري كانت ترقص الآن مع باربنتان. وذلك يعني أن الوقت قد مرّ سريعاً على هذا الحديث السطحي الذي بدا كأنما افتُعل ليغطّي شيئاً ما، لكن ماذلك الشيء.. هذا ماكان «ليرتيلوا» يتساءل عنه. لقد قالت ماري إن السيدة موريل... تلك أفكار خاطئة، في نهاية الأمر...

قال: أتريدين أن ترقصي؟

نظرت إليه «بيرينيس» وأجابت: بكل سرور... لكن لاالرقصة «الجاويّة»... فأنا لاأعرف...

عضّ شفته. لقد عزم ألا يرقص معها، وهاهو ذا... لقد أفلت ذلك منه.
أكان مغروراً! لقد فكر لحظة أن السيدة «موريل» جاءت الى هذا المكان من أجله.
وكان «بول ديني» يتكلم عن الثلاثة، عن الجميع. لعبت الشمبانيا برأسه، دون شك، وجعلته ثرثاراً. مرّت سيمون قرب الطاولة. رفع اوريليان بصره نحوها، فقذفته بقولها: تهانيّ. قطّب حاجبيه. قالت بيرينيس. أهي صديقة لك؟ فاحتج.
وكانت السيدة موريل ملأى بالتسامح، وكانت ستحكم على ذلك بأنه طبيعي كليّاً.
أخذ «بول ديني» يحس بجارته تُفلت منه. وقد كان يكره، على حدّ قوله، حانة لولي، ومونمارتر، وعلى العموم، جميع بنات المرقص.

قالت السيدة موريل: حسناً، أنا، لا! أصيب اوريليان بشيء من الخيبة.
أأرادت أن تثير غيرته؟ ممّن؟ دعْنا، كل هذا، ماهو إلا من نسج الخيال، من غنج المرأتين الأخريَيْن. ماذا أرادت بلانشيت أن تقول بصدد «ادمون»؟...

علا قرعُ الطبل... وعاد الراقصون، بعضهم الى الطاولات، وبعضهم الى البهو، والبعض الآخر الى المشرب. كان قرع الطبل يطغى على الضوضاء، ويُعلن بدء العَرْض. وكان «لولي»، شأنهُ في كل مساء، واقفاً أمام الاوركستر، يبدو، وعلى نحو هزلي، بذراعيه الممدودتين، ويديه المتحركتين، كأنه يقود الى أقصى حدّ القرعَ المؤذن للعرض، ثم يُعلن بنبرته التي تمتزج فيها شيكاغو وفلورنسا، عن «تومي»، تومي الفذ، أفضل طبّال في العالم.

بينما كان «تومي» وهو زنجي أسود قصير، شاحب وضخم، دو شعر مملوط مائل الى البياض، وعينين مدهوشتين، وواقية صدر تصنع زاوية أثناء تحياته، يستقر بطبله وأدواته في موضع تصالب الكشّافات، استولتْ على الطاولات العتمةُ المؤاتية للأيدي التي تشابكت وللكلمات المهموسة فوق كتف النساء العاري. وتعرّف باربنتان في النهاية على أناس في الجهة الأخرى، وأومأ إليهم، على ضوء شعاع نحيل، بحركة وديّة من يده. فتمتمتْ بلانشيت التي لم تَرَ مَنْ حيّاه، بشيءٍ الى جانب اوريليان: «ماذا تقولين؟».
- لاشيء...

وفجأة انتابه إحساسٌ بأن بيرينيس كانت ملتصقة به، فلم يجرؤ أنْ يُدير رأسه. لقد تضامٌ الحاضرون لكي يروا تومي على نحوٍ أفضل وهو يتلاعب بكل شعوذاته، وعصيّه، ومكانسه المعدنية الصغيرة، وصنوجه وجلاجله.. وعلى وجهه ضحكة عريضة خرساء، مع إيقاعٍ من السرعة المتزايدة التي كانت تَغْمُر الهواء كما تفعل الخمور بعد كميّة معيّنة..

نَفْثةٌ من بيرينيس بحذاء اوريليان، ثم سمع صوتها:

ـ كان ذلك من حسن حظي... لشدّ ماانتظرتُ تلك الرقصة...

أحسّ فجأة بحرارة عظيمة فيه، بنشوةٍ. لعلها من خمرة الطبّال. ألف شيءٍ اتّخذ معناه. لم يفكّر، ووضع يده، دون أن يرى، على الطاولة، وتحت راحة يده وبين أصابعه حَبَسَ يداً صغيرة استشفَ حضورها، يداً أرادت أن تنسحب لكنه استوقفها طويلاً، بينما كانت عينا الزنجيّ البيضاوان وعصيّه تتراقص في الهواء، وصُنوجُه تدوّي أثناء عبورها، مثله مثل ألاعيب طفل يطلق مفرقعاته، وبينما كانت الاوركستر تعزف عزفاً خافتاً شيئاً في موسيقا «الراجتايم» تعرّفها «بول ديني» وهو مسرورٌ من نفسه، فتنهّد صوبَ بيرينيس وقال:

ـ رائعة!

لقد خافت من غير شك، وأحسّ اوريليان أنها خافَتْ، فلم يُرْخِ اليدّ الحبيسة، وسمع صوتاً مضطرباً، خافتاً جداً: لستَ معقولاً...

وأحسّ بحمق سلوكه، وأراد أن يُرخي اليدَ فلم يستطع. وبدا له أنه لو أرخاها لتخلّى عن كل شيء في العالم، عن كل مايمكن أن يكون فيه من أشياء ثمينة، عن كل مايستحق أن نحيا من أجله. كان الطبل المقروع، والصنوج المهزوزة تدوّي في مركز القاعة بإيقاع متسارع، وذراعا تومي وقدماه تطير حول الطبل وتداعب آلاته، بحركات رجّاجةٍ مذعورة إذ أحدثت كلَّ هذه الضجّة، وعنقُه تدور على نفسها في ثنايا الشحم القاتم الجريح من جراء ياقته الناصعة البياض.

أدرك اوريليان في لحظة معينة أن اليد التي يمسك بها أخذت تدعن، لم تُسلم نفسها، لكنها أذعنت. فخجل من سلوكه. بيد أنه تعذّر تبديل شيء منه. ليكنْ، وبما أنه قذف بنفسه في هذه المغامرة، فكيف يتراجع؟ كان عليه أن يغازل جارته. وحاول أن يضع عبارة في ضغط يده على اليد الجاثمة تحتها. أيبدأ الكذب... لشدّ ما انتظرتْ تلك الرقصة... وكانت الضجة العجيبة، المُسكرة، المتعاظمة تلفّهما بعواطف شتّى. هي، بذلك الخوف، خوف المفاجأة الذي لاتفسير له، والخشية من حركة تجعل سكونها غير ممكن، وهو وقد أضحى مستعداً ألا يتحمّل الخيبة، والرفض، والإهانة.

في هذه الأثناء قالت له بلانشيت التي كانت في الجهة الأخرى شيئاً ما. فحنى رأسه واستعاد ماقالته، بذلك التعبير من الألم الذي يبعثه الانتباه الذي انتُزع من موضعه: «محفظتي، من فضلك... هناك، على الطاولة...». لعنها، والتقط المحفظة، وكاد يقلب كأسين، وناولها السيدة باربنتان.

ولم يُرخ يد بيرينيس.

وبواسطة قضيبين في اليد، وبحركة كحركة جناح الفراشة، أو على الأصح حركة الحلاق وهو يدوّر مقصه، مضى «تومي» بالقصف الرومانسي الذي أطلقه الى أقصاه. كان يلعب بكل جسمه، بقدميه، بأذنيه، بجلدة جبينه المتحركة، ويقفز بكرسيّه ويعود من قفزته في نشوة سرتْ الى الجماعة. وعندما صمت اللحنُ، وأدرك الحضورُ أن السقف لن ينهار، وأن تومي الذي كان يحيّي وهو سابحٌ في العرق، نفخ مثل عجل البحر الجالس في سيارة طفل، انفجر التصفيق، وطلبات الإعادة، ووقف الجميع.

ظلاً وراء الآخرين، وحيدين، كوحدة الغابة، جالسين كليهما، ومرتجفين. قال بذلك الصوت العميق، صوتِ الرجال الذين اقتيدوا الى السر الأول لكيانهم: «سنرقص الرقصة الأولى؟ ارتعشت. رأى عينيها السوداوين، عينيها المطاردتين. وأومأت برأسها وبكل جسمها أنْ لا. وأحسّ أنها توشك أن تبكي. فأكد. «سنرقص الرقصة الأولى».

عاد النور فافترقت يداهما.

حلّت اوركستر جديدة، أرجنتينيون. وجابت القاعة حركةٌ غيرُ منتظمة من الذهاب والإياب، كان بعض الناس ينصرفون وبعضهم يَفِدون، يتقدّمهم «لولي» الذي كان يؤكّد لكل واحد أن هذه أفضل طاولة، أفضل طاولة... وأعلن قائد الاوركستر، وهو عازفُ كمان، متحزّم بزنّار أسود، مع بنطال من الحرير الأبيض متّسع من الأسفل، وقميص بنفسجي، بدءَ «التانغو». وكان هذا التانغو مثل جميع التانغوات مبتذلاً، مبتذلاً الى أقصَى حدّ، فاتناً الى أقصى حدّ، بسحره الرخيص، ونغماته العاهرة.

قال ليرتيلوا وهو واقف «لقد وعدتني بهذه الرقصة». لكن بيرينيس المستلقية على كرسيّها هزّت رأسها. لا، لا. ألحّ. تنهّدت وقالت. «راقص بلانشيت». فعاد الى الجلوس. هل عجّل أكثر مما ينبغي؟ أكان يحلم؟ وماشأنه بذلك كله؟ بهذه الحمقاء الصغيرة... هذه الريفية... كان يعلم أنه يكذب على نفسه وأنه يحس بهذه الخيبة إحساساً رهيباً. فحقد على نفسه، حقد على نفسه. لكن الجوّ لم يعد كما كان. لم يكن المكانُ نفسه، ولا المرأة نفسها، ولا الحلم نفسه. فتخلى عن ذلك، على كل حال، بكل بساطة.

وحينئذٍ سمع بيرينيس تقول «لم أؤلمك على الأقل»؟ لم يصدّق أذنيه. هل قالت ذلك حقاً؟ نظر إليها فرأى عينيها السوداوين، المائلتين، المنتفختين، ماأغرب هاتين العينين... وهل هناك أحدٌ وراء هاتين العينين؟ أراد أن يقول. لا، إنها لم تؤلمه، لكنه لم يستطع. لم يقع له مثلَ هذا قط، أن يخجل هذا الخجل أمام امرأة. بل هي لاتكاد تكون امرأة؛ هي طفلة. صمتا طويلاً. وكان الآخرون يرقصون. بعيا، دون أن يَعيا ذلك، وحدهما على الطاولة. ولاحظتْ ذلك فجأةً، فاقترحت وهي متضايقةٌ «لنرقصْ، أتريد؟» ابتسم، بشيء من الحزن، وبدرتْ من كتفيه حركةٌ تنم على الضيق.

رقَصا.

لم يكن هذا هو المتصوَّر، إطلاقاً، إن مواضعات الرقص، إن مواضعات هذه الرقصة التي خافا منها لحظةً كلاهما، مواضعات الرقصة كانت بينهما. إن تلك الألفة الحميمة الزائفة تعيد المسافات. لم يكونا يتكلّمان، خوفاً من أن تفصلهما الكلمات أكثر مما تفصلهما حركات التانغو. ابتسما أثناء ذلك لماري وادمون اللذين كان يرقصان معاً. وقد أخذ ضيقُهما يتزايد. قالت السيدة «دي بيرسيفال»: «أيا عزيزي، ليتك ترقص مثل السيد ليرتيلوا. لم تكن التانغو قط ماتمتاز به أنتَ...» أخذ ادمون، وهو مغتاظ، يقوم بنَقْلاتٍ من قدميه كما تعلّم قبل الحرب عند: «ميتشين». فهتفت ماري «مهلاً، مهلاً. ماهذا التفنّن؟ تريد أن تُهْرمني!... تبدو السيدة موريل وكأنها قضتْ حياتها بين ذراعيه، ألا ترى رأيي؟»

في الحقيقة، لم يكن لبيرينيس التي ترقص من وزنٍ، كانت تنثني لدى أقل ضغط. فكأنها كانت الموسيقا، لفَرط ماتآلفت معها. وكان اوريليان يخشى ألا يُحسن مراقصتها. وصارحها بذلك. فأغمضت عينيها. حينئذٍ انحنى عليها فرآها لأول مرة.. وخيّمت على وجهها ابتسامةُ الرقاد، ابتسامةٌ مبهمة، غير واقعية، متابعةٌ صورةً داخلية. وماكان ناشزاً ومتنافراً فيها ذاب وعاد الى الانسجام. وحين استخفّها النغمُ واستسلمت لمراقصها، صار لها أخيراً وجهُها الحقيقي، وفمها الصبياني، وهيئة، كيف أقول؟ هيئة الألم السعيد. وردّد اوريليان على نفسه أنه لم ير قط هذه المرأة التي ظهرت لتوّها. وأدرك أن ماكان قد حجبها عنه إنما هو عيناها. وعندما أغمضتهما لم يعد يحميها شيءٌ، فتجلّتْ هي نفسُها. ثم انفتحتا أشد سواداً من قبل، وأشدّ حيوانيّةً مما يتذكر «اوريليان».

عندما قال لها: «أشكركِ» بعد هذه الرقصة، وانحنى أمامها، وكأنه في حفلة راقصة عائلية، حملتْ بيرينيس يدها الى قلبها. كانت شديدة الشحوب. جلستْ على عجلٍ، واستغرقت أمام مرآة صغيرة لتُصلح وجهها. ورأى بوضوح أن ذلك كان لتخفي اضطرابها. أراد أن يكلّمها. قالت له بصوت خافتٍ وبسرعه «دعْني، اوه! دعني، أرجوك...» لم تكن مرتاحة. وذلك مفهومٌ، لقد ارتفع صدرُها

بسرعة فائقة. أخفت وجهها. سألها اوريليان «مابك» فدفعته بمرفقها «هم يروننا»...

عند ذلك جاء باربنتان بالرجل الذي أومأ إليه قبل قليل، من وراء الراقصين. كان «زامورا»، الرسّام «زامورا»، كما تعلم... كان «بول ديني» يعرف «زامورا» فهما من رأي واحد، بالرغم من اختلاف السن، بلغ «زامورا» الخمسين، وكان قصيراً، غارقاً في بطنه، ذا وجه لطيف، أسمر سمرة الاسباني، وهو كذلك، وقد وخطت الفضّةُ صدغيه، وكان حليقاً، وحركاً كما لو كان رهيفاً، أما قدماه فكانتا صغيرتين صغراً لايُصدّق. وكان يظن نفسه منافس «بيكاسو»، ورمى به ذلك في الدادائية بغيةَ تجاوزه. كان شريراً وظريفاً. كان يستفظع كلَّ شيء، وكان يمكنه أن يوافق أبعد الناس عن الثقافة ليلقي نكتته؛ وكان يصنع لوحات ميتافيزيكية بأسلاك المشدّات، ولم يكن يحب في أعماقه سوى النساء الجميلات، ولوحات «الغاندارا» والترف، والكلاب الصغيرة. كان في الجهة الأخرى من الصالة مع أميرتين وأمريكية. لمَ لايذهبون جميعاً الى مكان آخر؟ كان يعرف حانةً ليلية.

شرع اوريليان يفكّر فيما قالته له بلانشيت: سوف تدمّرها بكل بساطة... لم يكن يعلم في الحقيقة شيئاً عن «بيرينيس». ماذلك الزوج في الريف؟ وأين هذا الريف، من جهة أخرى؟ صيدلانيّ، على ماأعتقد. وهي صيدلانيّة! حاول أن يتمثلها بين القماقم، تقوم بالحسابات، كالسيدة «لولي» في الحانة. الى أية مضاعفات سيندفع، والى أي مجهول؟ وتلك الخفقانات التي تنتابها من أجل لاشيء. ياللعجب! كان يستشف على نحو غامض شَرَكاً منصوباً. المرأة للرجل مرآة أولاً، ثم إنها شركٌ... عالمٌ من المضاعفات. عالم. كلا. وألف كلا. عليه أن يستدرك الخطأ قبل الوقوع في الدوّامة. ثم أية تفاهة، تلك المرأة! كانت تسأل «بول ديني» عن «زامورا»... وكان بول مغتاظاً، أو خائفاً من أن يسمعا «زامورا»، يتكلّف الوقار... وزاد الطين بلّة أن ماري همست في أذن اوريليان «انتبهْ، ياعزيزي، فذلك يُرى!». وكان هذا كافياً.

عندما طلبوا ثيابهم ليقضوا بقية الليل مع «زامورا»، اعتذر اوريليان. سوف أبقى. إني أنتظر شخصاً. فتحتْ بيرينيس فمها كأنها تريد أن تقول شيئاً، ثم توقّفت. لا، لا، ياعزيزي الدكتور، اذهبوا، اذهبوا، فلستُ بحاجةٍ إليكم. تحياتي، سيدتي العزيزة... لم يطلب إليها حتى أن يلقاها. انصرفت بيرينيس محمولةً في حركة الآخرين، كما لو كانت وسط حلم مخيف.

عندما اختفوا بين الأبواب ذات الستائر البرتقالية، خامرتْ «ليرنيلوا» رغبةٌ مباغتة في أن يرمي بنفسه في إثرهم. ياللغبي! ياللغبي! كيف تركها تمضي هكذا... بل إن ذلك غير إنساني... فذلك فظّ، قبل كل شيء... طيّب. يقول المرءُ ذلك لنفسه لكي يتيح لها الحماقات. وماالذي كان يخشاه، في نهاية المطاف؟ ماذا كان عليه أن يخشاه؟

في المشرب، لقي سيمون.. «قولي لي، ياصغيرتي، سألتنيٍ قبل قليل متى أرافقك الى منزلكِ... أتريدين هذا المساء؟ وطبطب مرفقها. ضحكتْ: «طلبك في غير وقته! فعندي واحدٌ».. وبعد أن ألقت نظرةً دائرية، قالت بصوت خفيضٍ، سرّي: أحد البحاريْن الأمريكيين، أنت تعلم... لكن يجب ألا تقول ذلك.



- ١٣ -

هذه الريح! هذه الريح! لايمكن لك، ياسـيدي، أن تكوّن فكرةً عنهـا! كم مرة عبرتُ السين؟ مئة، ماذا أقول، ثلاث مئة، ألف مرة! لم أرقط مثل هذه الريح. الجسر... كانت بحيث ينبغي أن يعود المرءُ أدراجه. لا، لايمكن لك ياسيدي أن تكوّن فكرة عنها... آه! لو لم تكن أنت، ياسيدي... يمكن أن تضحك ياسـيدي، فكيف سيكون حالك دوني؟ كانت رحلةً حقيقية... تيارات الهواء التي يجب عبورها... هذا مفهوم... السين... لم أشتغل قط إلا في الضفة اليسرى... لابد أن يكون ذلك من أجلك، ياسـيدي... ثم لو سكنتَ، ياسـيدي، الضفة اليمنى، لاأدري اذا... لا، لاأعتقد. لن أتبعكَ، ياسيدي، الى الضفة اليمنى! لأقطع جسراً آخر، و«سين» آخر! لا، ياسيدي، لا. لو ذهبت، ياسيدي لتسكن أمريكا، فهل سأذهب إليك كلَّ صباح، من شارع الكاردينال «ليموان»، هكذا سيراً على قدميّ، ومنديلي البائس على رأسي، لأقدّم لك فطورك، في السرير؟ ومع أني لاأعلم ماالذي ستفعله دوني، ياسيدي... انظرْ الى هذه الفوضى... كيف ترمي بنطالك، ياسـيـدي... سـأكـويه هذه المرة... لأن أخْذه في كل وقت الى الكيّ بالبخار... آه! هؤلاء يحسنون الربح! إنهم ينهبوننا دون مقاومة. ثم إنهم زادوا... لم يكن قديماً كيٌّ على البخار... كان كل شيء يُكوى في البيت... أين دسست جوربيك، ياسيدي؟ جئتُ بالثياب المرفوءة... لاتستطيع، ياسيدي، أن تكوّن فكرة عن هذه الريح!

رفعتْ يدها الى وجنتها، ورجّحت رأسها، وعيناها في السقف، كانت «دوفيني» خادمة «اوريليان» في الأربعين، وهي السن القانونية التي تسمح لها بخدمة رجل في سريره، دون أن تتناولها الألسن بالثرثرة. كانت قصيرة، سمراء، مع خيوط فضيّة، وطائفة من الأمشاط في جميع الاتجاهات لتمسك الشعر المرفوع من حولها، وكانت حبال عنقها بارزة، ولعلها كانت متضخمةً قليلاً، وكانت عيناها جاحظتين، تعبران تعبيراً يمرّ من الإسرار الى الرصانة

القصوى، الى الدراميّة دون أية ظلال. وكان ذقنُها منفصلاً عن وجهها، ولاندري لماذا ولا كيف، وإحدى وجنتيها، اليسرى، أكبر كثيراً من الأخرى. وكانت تقول «لكن هذا موجود في الأسرة. فأختي، وأبي المسكين...»

ماكان يجبُ أن تُترك لتمضي في هذه الطريق، لأن لها عمّاتٍ، وبنات عم، ومن موضوعٍ الى آخر، من الوجنة أولاً، ثم انتفاخ رئة العم، ومصاعب الجدّة، وزوج «جيرمين» الذي هرب بالصندوق، كل الأسرة سيمرّ ذكرُها، والمرحوم السيد «دوفيني» الذي حدثت له قصةٌ غريبة...

ـ ياسيدة «دوفيني»، ألم يكن في أسرتكِ صيدلانيٌّ قط؟

ـ صيدلانيّ؟ يالها من فكرة! كلا، ياسيدي. كلا. كان في الأسرة شيءٌ من كل شيء مساعدٌ في الفرقة المستعمرة، بقّالون، ابنة عم، لاينبغي أن أتحدّث عنها، الحاصل... شيءٌ من كل شيء... أما الصيدلانيّ فلم يكن في الأسره قط. يمكنني أن أُقسم لكَ على ذلك!

سحبتْ من الخزانة حاملة ربطات العنق ورتّبتْ مجموعةَ «اوريليان» المتعدّدة الألوان. وقاطعتْ نفسها.

ـ لكنك لم تتناول فطورَك، ياسيدي! وهل يجوز أن أعبر النهر، وأن أتعرّض لهذه الريح، ثم لاتتناول فطورك ساخناً... البيض «برشت»... كما تحبّه، ياسيدي...

كانت الصينيّة على الطاولة المنخفضة قرب الأريكة، بخبزها المحمّص، والقهوة، والحليب، والبيض، وإحداها مفتوحة، تنتظر بالفعل أن يخرج اوريليان من حلم يقظته الذي استسلم له. جلس «ليرتيلوا» بين الوسائد، وسحب الغطاءَ، ونظر حوله. صحيحٌ أن في الغرفة فوضى غير معقولة... كم تكون الساعه؟ الحادية عشرة. لقد تسكع، هذه الليلة، وهو عائد، وقرأ قليلاً، وبحث عن ألف سبب لكيلا ينام، ثم أتاه النعاسُ فجأة، فترك كلَّ شيء على حاله، وانتزع ملابسه انتزاعاً، ورماها حوله، على الأرض، على البساط المسمّر والذي بلون التبغ... وفوق ذلك فهو لم يفتح النافذة... تناول الصينيّة.

هتفتْ السيدة «دوميني»

ـ آه! مادا قلتُ! لاأدري أين كان رأسي، اغفرْ لي ياسيدي...

ـ مابكِ، سيدة «دوفيني»؟

ـ لكن الصيدلاني، ياسيدي، الصيدلاني! كيف لم أفكر فيه؟

ـ أي صيدلاني، سيدة «دوفيني»؟

ـ لكن الصيدلاني الذي سألتني عنه! أنت تعلم جيداً، ياسيدي... أأنت لاتعلم، ياسيدي؟ مازال نائماً دون شك، ياسيدي! سألتني، ياسيدي، إن كان في أسرتي صيدلاني... وأنا الغبيّة القديمة، قلت لكَ إنه لم يكن في الأسرة صيدلاني... فأين كان رأسي؟

ـ أكان في أسرتك صيدلاني، سيدة دوفيني؟

ـ نعم... الحاصل... يَعْني... لم يكن صيدلانياً تماماً... ابن العم «كاميل»... وهو ليس صيدلانياً الآن... لكن منذ نحو عشر سنوات... لذلك نسيتُه... ويجب أن أقول لك إن ابن العم كاميل لم يكن ابن عمي... كان زوج ابنة عمي... نعم... كانت تشبهني كثيراً ابنةُ عمي «لوسي»... حتى ان ابن العم «كاميل»... لكنه كان شخصاً سيئاً.. الحاصل... نعم، لوسي، كنا نتشابه... ظلّتْ بلا زوجٍ حتى الأربعين... تصوّرْ... شوَّش لها هذا فكرها... وذات يوم كنتُ عندهم... فقالوا لها «لوسي» لم يَبْقَ عندنا زيتٌ، انزلي وأحضري زيتاً... ونهضت لوسي... ثم هل تعتقد أنها ذهبت لتُحضر الزيتَ؟ أبداً لا! أخذت المرشّ الذي كانت تسْقي به زريعاتها على الشرفة، ووضعت فيه صمغ البطم وصبّته على السلطة، ثم أحرقتْ ذلك كله بحجة أن ذلك من الهندباء... ولاتسأل عن الحوف الذي استولى علينا... فحبسوها... وكان الطبيب يقول «يجب أن تُزوَّج، هذا وحده هو الذي يَشفيها... ويضاعف دماءها...»

هنا بدرت منها حركة قوية، شرسة من قبضتها وكأنها تُغلق باباً..

«الرهيب هو أن نعثر على زوج... ضعْ نفسك مكانها، ياسيدي... هناك الخطر الذي قد تتعرض له... واذا لم تتضاعف الدماء؟ وإذن فينبغي ألا نُظهر

التصعّب... ثم إن لوسي بلغت الأربعين... الجدّة هي التي عثرت على ابن العم «كاميل»... ألزاسي... واسمه «شور»... شيء طريف، فهو يُلفظ «شوفير»،[1] لكنه يُكتب... يُكتب على نحو مختلف... ورضي «كاميل».

- و«لوسي»، هل تضاعفتْ دماؤها؟

- نعم، ياسيدي، لاشك في ذلك! تضاعفت دماؤها بكل معنى الكلمة. لم تعد مجنونةً على الإطلاق. ولو رأيتَ كيف كانت تدير منزلها... كنتَ ستأكل على الأرض... الأواني! لم أر مثلها قط حتى في المخازن الكبرى! كان الدكتور محقّاً... هكذا أصبح ابن العم «كاميل» ابنَ عمّي...

- وكان صيدلانياً...

- صيدلانياً؟ تريد أن تضحك، ياسيدي! «كاميل»، صيدلاني؟ آه! ياللعجب!

- لكنك أنتِ نفسك قلتِ، ياسيدة «دوفيني»!

- ماذا قلتُ؟ آه! نعم، أنت محقّ، ياسيدي. لكن «كاميل» لم يكن صيدلانياً اذا شئنا الدقّة... لا. كان في الصيدلية، هذا كل شيء...

- إذن كان صيدلانياً...

- كان في الصيدلية، ولم يكن صيدلانياً... كان يسلّم البضاعة في صيدلية كبيرة في جادة سيباستوبول... ومعه دراجة ثلاثية... اوه، ماكان يمكن الظهور بمظهر التصعّب... كان شيئاً جميلاً أنهَ رضي بالزواج من «لوسي»... التي تُشعل السلطة... ومعه دراجة ثلاثية... وفي هذه الدار عندهم طلباتٌ لكل باريس... وكان «كاميل» يجري طوال النهار... وكان هذا يتيح للوسي أن تُعنى بابنتها... أما أن يكون صيدلانياً حقيقياً، فلا، ياسيدي، ليس في الأسرة شيء كهذا!

كانت تزيل الغبار عن الأثاث، وهي تتكلّم، وتَنْقل الأشياء الى المدفأة، وبُرتّب الستائر. وتوقفت، حالمةً «ولا أقلّ صيدلاني!

---

(١) ملفوفة خضراء

تساءل اوريليان كيف كانت الأشياء تنتظم في رأس السيدة «دوفيني». أكانت ترى أن وجود صيدلاني في الأسرة أمرٌ مخجلٌ، أم ماذا؟ وكأنما كانت تتابعه في هذه النقطة، أوضحت

ـ نحن ناسٌ بسطاء، من عامة الناس، كما يُقال... فكيف يتزوج صيدلاني لوسي؟ الصيدلاني سيّدٌ له شأنه...

آه! الأمرُ كذلك الصيدلانيُّ سيّدٌ له شأنه.

أتريد أن تستحمّ ياسيّدي؟ أشعلتُ سخّانة الماء. لابد أن الماء سخن...

قالت السيدة «دوفيني» ذلك من الغرفة المجاورة وكان عليها شغلٌ شديدٌ فيها. انتقل اوريليان الى الحمّام.. أف، ماأحسن الماء الساخن! وفي ستائر جهاز المرش كان الجسد الطويل العاري المتوثب يتحرّك والصابون في عينيه.أصبحتْ السيدة «دوفيني» في مطاوي النسيان. هي وقصصها. وعاد الى اوريليان وسواسُ الليل. أول فكرة في الصباح. بيرينيس. لم يكن يعلم شيئاً عن بيرينيس، عن حياتها. في مكان ما من الريف. زوج صيدلاني. قال عنها ادمون: الشيطان في الجرن المقدس. هذه الجملة، لم يستطع الانفكاك منها. كانت مناقضة على نحو عجيب لما رآه أول الأمر في السيدة موريل. قال في نفسه. انه لم يتغيّر: التفصيل السخيف يحمله على التخبّط. علامات الاستفهام في رسالة «ماري دي بيرسيفال» مثلاً. وكانت جملة «ادمون» هذه تلعب الدور نفسه مع بيرينيس... رأى ثانية وجه بيرينيس، وعينيها المغمضتين. زوجة صيدلاني... كان ذلك، في الحقيقة، شيئاً غريباً بالنسبة إليه كما كان بالنسبة الى السيدة «دوفيني». لم يكن في أسرتها صيدلاني. لقد احمر جسده من كفّ الفرك الخشن.

قال، عندما عاد الى غرفته ملتفاً بمئزر الحمّام الذي بلون الرمل

ـ وإذن، سيّدة «دوفيني» ماذا جرى على اثر ذلك لابنة عمك لوسي؟

ضمّت السيدة «دوفيني» يديها، فأفلتت المكنسة منهما، والتقطتها على عجل، ووضعتها جانباً بعناية، واستأنفت حركتها، فضمّتْ يديها، ورفعتْ مرفقيها أفقياً على مستوى صدرها، وأرسلت الى السماء نظرة شفقةٍ

ـ لوسي؟ آه، ماأشقانا! لوسي! ياسيدي! لوسي عادت مجنونةً، مجنونة استدعى جنونها أن تُوثق هذه المرة!

ـ كيف؟ ألم يتضاعف...

ـ بلى، تضاعفت دماؤها... بالتأكيد... لكن كانت المصيبة هنا! انفصمت دماؤها، زوجها، تصوّرْ، الصيدلاني «كاميل» لفَرْط مادار بدرّاجته الثلاثية في باريس، في تلك البيوت التي كان فيها دائماً نساءٌ.. زبونات... خادمات فتيات... أسوأهن الخادمات... يجب أن أقول لك إن هذه الصيدلية صيدليةٌ مستحضرات خاصة... الحاصل... الأمراض السيئة... جادة سيباستوبول، بالضرورة... وإذن، أخذ «كاميل» يهمل منزله شيئاً فشيئاً... وعبثاً كانت لوسي تفرك الآنية ومشمّع الأرضية... لم ينفع شيء... حينئذٍ تركها الى حثالة الناس... كان مؤلماً منظر لوسي... انفصمت الدماءُ... ظنت نفسها كلباً صغيراً... يركض وراء الناس... ويعوي... نعم ياسيدي، يعوي! منظرٌ كئيب! أُلبستْ قميصَ المجانين! آه، ياالهي القدير على كل شيء!...

كان سبب هذه الصيحة الأخيرة أن «اوريليان» فتح النافذة فأعلقته هبّه هواء على أصابعه بصوت شديد. كان «ليرتيلوا» واقفاً، يهزّ يده، ويقفز من رِجْل الى رجل، مثل صبي آذى نفسه. فلابدّ أن قرصة النافدة كانت قاسية، بل إن الدم سال من أصابعه. أمسكت السيدة «دوفيني» باليد المصابة، مسكين أنت، ياسيدي! مسكين! هذه التخشيبة القذرة! ينبغي لك أن تسكن بيتاً حديداً، ياسيدي!... هذا لايقع إلا في المنازل القديمة... لحسن الحظ أنها تنزف... فهذا يقلّل من الألم... لن تلبث أن تهدأ... اليد اليسرى ليست كاليمنى... يحب دهنها بالارنيكا... بصبغة اليود على الأقل.

ولم يكن عنده لاارنيكا ولا صبغة اليود. أنحتْ السيدة دوفيني باللائمه على سيّدها. تلك أفكار الشباب الخاطئة، أن يخلو المنزل من الآرنيكا ومن صبغة اليود...

قال اوريليان واصبعه في منديل: «طيّب. سأذهب الى الصيدلاني لأحضر صبغة اليود.

ـ ١٤ ـ

مَنْ ذا الذي لم يشعر بهذا الشعور الغريب بأن يجد نفسه، في لقائه المرأة المحبوبة بشغفٍ، إزاء مجهولة كان مشغولاً بها كلياً، لكنه لم يكن يعرفها إلا لماماً؟ وكان يكفي التغيّر الطفيف في زينة الشعر، أو الفستان المختلف، أو تغير الجو في مكان عام ليجعل من تلك التي كنا نظنها قد ثبتتْ في الذاكرة الى الأبد امرأةً يصعب التعرّف عليها. الذي لم يُعانِ هذه الخيبة لايعرف شيئاً من الحب الحقيقي.

شعر اوريليان بذلك لمجرّد تصوّره «بيرينيس»دون حاجة الى رؤيتها. لكنْ بما انه لم يحب قط، فإنه لم يكن يعرف أن هذا الهياج أمام الصورة المُستذكرة، وعدم الرضا الذي تحمله إليه، كان شيئاً مختلفاً عن الملاحظة الشاردة. لم يكنُ يحلم أن هذا يمكن أن يكون الحب.

كان يؤنّب نفسه لأنه لايُحسن أبداً استعادة هيئة الشخص، أيّاً كانت هيئته.. كانت عقيدة ثابتةً مفاجئة أن هذا عيبٌ فيه. وفكّر: هذه هي الحقيقةِ، لست قادراً على تذكر هيئات الناس. والواقع أنه كان يذكر عدّة صور خاطفة لبيرينيس، لكنها كانت من التنوّع بحيث عجز عن التوفيق بينها. وكان يبدو له أنها ليست المرأة نفسها. كانت تلك الومضات التي يحملها عنها متنافرة، مثل قسماتها نفسها، في الحقيقة. لكن هذا ماكان يقبله حين يراها، لأن النظر لا يُناقَش؛ وأنه كان يرمي به في ذكرياته، لأن الذاكرة مشهورة بعدم أمانتها، وأن الجميع يعلمون أنها تجمِّل أو أنها عاجزة عن نَقْل مايصنع سحر وجهٍ من الوجوه. هذا الشيء الطفيفُ الهارب...

حينئذ شرع في إعادة تركيب تلك القسمات التي اهتم بها اهتماماً لاتفسير له، من خلال التفاصيل. كان يعثر على الذقن والوجنتين، والجبين، وهالة الشعر، والشفة، والبسمة، وإحدى الحركات، لايكاد ينقصه شيء منها، حتى إذا عثر على العينين، دمّرت العينانُ كلَّ شيء. كانتا تستيقظان في هذا الوجه،

وتنيرانه بضياء أسود، وقد صارتا أكبر من طبيعتهما، وكأنهما فحمتان صقيلتان، بل أكثر لمعاناً من ذلك. هذا النور كان يُبيد ماسواه، ويغدو هو الجوهري، إنه يُغيِّب الجوهر...

كان يقول في نفسه إنه لم يرها حقّاً إلا في تلك الدقيقة وهو يراقصها، عندما كانت مغمضة العينين. كانت المرأة المفتوحة العينين تأتي في كل لحظة لتعترض بينه وبين المرأة المغمضة العنينين التي كانت تبدو له صورتُها، لسببٍ غامض، ممتدّةً الى ماضيه الخاص، في الأحلام، في نزوات قلبه وحواسّه. كان يحاول أن يحدّد موقعها في ذلك الماضي فلا يفلح. مَنْ تُشبه؟ ومن أيّة صديقةٍ من صديقاته تقترب؟ وبأية رغباتٍ قديمة امتزجت؟ وأية لذّة تحمل هي انعكاسها أو أثرها؟ لاأحد مع ذلك، لاأحد... لاخيال ولاظلّ... والإحساس بشيء يتراءى في أعماق المرآة... ضباب..

ولو أن رجلاً آخر كان أكثر انحيازاً وأقلّ ثقةً بنفسه لطرد على الفور، ذلك الوسواس، خوفاً من أن يرزح تحته. لكن اوريليان لم يكن يفكّر حتى في ذلك. كان يجهل أن يكون ثمّة خطرٌ في سراب امرأة. ولو قيل له ذلك لطلّ على عناده...

في اللحظة الحاضرة لم يكن ذلك أشدّ خطراً من نَغَمٍ يُلاحقك، نغم نحاول طرده بشتّى الحيل، فيبدو أنه الأقوى. وإذن فبما أنه لاجدوى من التغنّي بنغم آخر (سينحلّ فيه) أو رواية قصة (ستتوقّف فجأة) نقرّر نهائياً أن نستسلم لهذه الصورة المحاصرة، وندعها تحتلّ رأسنا. وإذا بنا نكفّ عن طردها من رأسنا، والأسوأ من ذلك، أننا لانجد منها سوى جملة وأننا نضع سحايانا بالمقلوب، مكرّرين أبداً تلك الجملة، لنرى كيف يستمرّ ذلك.

«قد يلقاها في الشارع فلا يعرفها».

هذه الفكرة هجمتْ على «اوريليان»، وحيّرتْه، وأقلقته، ثم طمْأنته. لقد شرع يطمئن. لم يكن يعلن ماالخطورة في بلوغه هذا الحد. لكن هاهو ذا منذ ساعات، وسط حركاته الطبيعية، في يوم فارغ كسائر الأيام، لايفكّر بغير

«بيرينيس» لن يعرفها. هل هذا مؤكد؟ هل هذا ممكن؟ لن يعرفها. ألن يعرفها حقاً.

لو لقيتها في الشارع... الواقع أنه لم يرها قط في الشارع. أو في طقمٍ في طقم. في الشارع. ألن يعرفها؟

إذ ينبغي عليه، وهي في الشارع، وفي طقمها، أن يتصوّر لاوجهها فحسب، وهو وجهٌ شوّشتْه هاتان العينان الطويلتان، المائلتان، المحدّبتان، بل وأيضاً هيئتها، هيئتها العامة، أي الجسم الذي لايعرفه، وما الذي يعرفه من هذا الجسم؟ جسم الراقصة الشديد الخفّة، الذي لاوزن له، ولاحقيقة، وهو مختلفٌ جداً بكل تأكيد عندما يسير في الشارع... لا الجسم فقط، بل الجسم وهو في حركة، الهيئة، ذلك الشيء الذي لايوزَن، الهيئة في الشارع، في الطقم...

. ومرة أخرى، رأى اوريليان الوجهَ، والشفة السفلى التي يبدو عليها أنها تتألم وتبتسم، وانزلاق النور على الوجنتين، والشعر على الجبين، والعينين المغمضتين... لكن العينين تنفتحان فيضطرب كلٌّ شيء... في الشارع... ينظر الى النساء اللواتي لهن قامتها تقريباً... يمكن أن تكون هذه أو تلك... كلا، ليست بينهن، ليست بينهن واحدة تطرد تماماً شبحها... حتى الجميلات منهن. أيمكن أن نقول عن «بيرينيس» إنها جميلة؟ وجدها بشعةً في البدء. لم يُحسن النظر إليها إذ ذاك. ليست المسألة في أن تكون جميلة. إنها شيءٌ آخر. إنها شيءٌ آخر. إن لها سحرها... هذه هي المسألة... إنه يَعْثُر على قسماتها، لكنه لايعثر على سرّ سحر تلك القسمات... مثل كلمة نسيناها... نعرف ممّ تتكوّن هذه الكلمة... تقريباً... إن كان فيها حرف الراء... وكم مقطعاً فيها... ونحن نجد ما يجانسها أو مايعادلها... لكن الكلمة الحقيقية، الكلمة التي تغنّي...

هذه هي المسألة: إنه لايَعْثر على مايغنّي فيها.

وهو على يقين، مع ذلك، من أن فيها شيئاً يغنّي. ماهو؟ آه، أجل! فيها شيء يغني كاسمها، بيرينيس. تذكّر أنه حلم بكل براءةٍ حول هذا الاسم. أساء النظر إليها آنذاك. كان يحلم حول اسمها دون أن يفكّر فيها حقّاً. واسمها، من

جهة أخرى، يدفع الى الحلم. لكنها وراء اسمها. اسمها يدفع الى الحلم بها. لقد مَحَتْ جميع «البيرينيسات» الممكنات، لم تبقَ سوى بيرينيس واحدة ممكنة، سوى بيرينيس، بيرينيس واحدة، هي... ولم يعثر على مايغنّي فيها، قلب أغنيتها.

بحث، بقلقٍ متزايد، أين يكون قلبُ الأغنية. حاول أن يتذكّر. ماالذي ينبغي أن يتذكّره منها، قبل كل شيء، على وجه الخصوص؟ أهي تلك العابرة الخيالية، في طقمها؟ أو تلك الراقصة التي أخذها بين ذراعيه، تلك الراقصة الخفيفة، وذراعاه تتذكران وتتعذّبان، في الوقت نفسه، من أنهما لاتتذكّران... ولأول مرة أحسّ بغيابها. أحسّ بغيابها بين ذراعيه.

لكن أهذه هي حقّاً أغنيةُ بيرينيس؟ وهل ينبغي، لكي يشعر بها، أن يأخذها بين ذراعيه، كأية امرأةٍ، أوليس سحرها في أشياء أخرى، في مرحها، في صمتها، في عينيها المغمضتين، في عينيها المفتوحتين؟ وفجأة أحسّ اوريليان بانفعال تلك اليد في يده، تلك اليد الحبيسة، مثل عصفور يرتعش، وليس العصفور هو الذي وقع في الشرك، بل الصيّاد.

فركَ راحةَ يده. حرقٌ. حضور. غيابٌ. كلاهما في آن واحد.

أغنية.



ـ ١٥ ـ

كـلا، كلا، كـلاً ثم كـلا.. لستُ عـاشـقـاً. كلّ هذه حكايات. لاأكـتـرث لهـا. وبالطبع، اذا مـااستسلم المرءُ... لفَرْط... لكني لاأكترث لذلك. ولم أعد أفكّر فيه. ذلك مثـل الخـوف... فإذا مـاأخذنا نقول. نحن خـائفون... إن تنزّهي في الهواء الطلق ينفـعني أعظم نَفْعٍ... كـان الهـواء أقل برودة من الصـبـاح، لأن المطر قـد انهمر، وكان مـعطف ليرتيلوا دافـئاً من الصـوف الكثيف. غيّر زاوية قبّعته التي كانت تُثقل جبينه قليلاً، ودسّ يديه في جيبي معطفه. كان قد تناول غداءه لدى آل «هونفـري»، الذين يسكنون في «البـاليـه رويال» شـقـةً مطلّة على الحـديقـة. تزوج «هونفري» منذ سـتة أشـهر، فقطع ذلك الزواج عـلاقـاتهـما القديمة منذ المدرسة التانوية. لم يكونا ينتميان الى عالم واحد. ودخلَ شارل معمل الحرير الذي لأبيه، «هونفري- ليفي- كـازانـاف» وشـركـاءهـم. وكـرّس الزواج ذلك الانقطاع. فـغـدا الكلام على ذلك أمام السـيـدة «هونفري» الشـابة مسـتـحـيلاً؛ فقد كان يتضـمّن فظاظة الأشـيـاء البي تُسْتَتَرْجَع والتي كانت هي غريبةً كلّ الغرابة عنهـا، أتذكر اليـوم الذي...؟ ومـاذا حل بذلك الصـخم، كيف، تعلم جيـداً! كـان يقـول دائمـاً ارفـعوا هذه، لقد ضوجعتُ!»... وعندما يتحوّل الحديث الى اعتبارات أقرب الى الحالة الراهنة، فإن اوريليان حينئذٍ هو الذي يشعر أنه غريب في بيتها.

لم يسـتـقل سـيّارته. من جـزيرة «سـان لويس» الى البـاليـه رويال! ثم إن المشي من حين الى حين نافعٌ. مـاأشـدّ كـآبة اللون الذي تتلوّن به أيام الشـتـاء! فمنذ الساعـة الثالثـة، بعد الظهر، نحس بالليل، بالغَبش[1]. كان هناك غـبشٌ في أفكار اوريليـان. وقـد ألقى به فـجـاةً المطرُ اللاسـع حـينئـذٍ الى مـاتحت أقـواس «الريفولي» حيث أخذ ينظر الى النساء فوجد أن وسواس بيرينيس أخذ يضعف. وحـاول أن يتـسلّى عنه مع بائعي الزينات الرخـيـصـة، والطرائف، والجـواهر الزائفة. الطرائف الصـغيرة التي تمثل كلاباً مدرّبة أو مركيزات، وضـبـاطاً من

---

(١) الغبش احتلاط الصوء بالعتمة.

ضباط نابليون، ورعاة أركاديا. واستعرض مجموعات ملاعق الفضة المذهبة والمرسومة بالميناء رسوماً تجمع بين هنري الرابع والسيدة «ريكاميه»، وبين واشنطن وجان دارك، وفكّر: من ذا الذي يستطيع أن يشتري ذلك كله؟ أو على الأقل كان يُكره نفسه على التفكير. ذلك أنه كان، في الحقيقة، مسكوناً بهاجسٍ وما كان ينبغي أن يقوله للملاعق، إذا شاء أن يكون أميناً هو «هل سأرى «بيرينيس» ثانية؟» أو «مَنْ لي برؤية بيرينيس»؟

لم يقل ذلك لنفسه، لأنه لم يكن يكترث به، لأن ذلك كله لم يكن سوى حماقات، وأن ليس عليه إلا أن يفكّر في شيء آخر، الى آخره... وبغتةً أحسّ بيده اليسرى تذكّره بنفسها. آه نعم، تلك البلاهة مع النافذة، ليتني أشتري صبغة اليود لأسرّ السيدة «دوفيني». أصبح المطر معقولاً أكثر من ذي قبل. انعطف «ليرتيلوا» عند أول شارع صادفه ودلف الى شارع «سانت اونوري» الغاص بالسيارات، بالدراجات الثلاثية، بشاحنات، وتسليم البضائع، التي كانت تثير ضوضاء مشوّشة، وكان المشاة يبحثون عبثاً عن سيارات أجرة. وكلُّها غير حرة.

دخل اوريليان أول صيدلية اعترضته وهي حانوت مظلمُ، صامتُ، بعد جلبة الشارع. وفي وسط نجارتها الداكنة مع رفوفها المثقلة بالأوعية المحترمة من الخزف المزخرف بأسماء لاتينية، لم يتبيّنْ في البدء أحداً. ثم شاهد خلف البَسْطةِ ذات الأعمدة الصغيرة والتي تعلوها مصابيح برونزية ذات كرات كامدة، عليها نجومٌ منقوشةٌ، بين الواجهات الملأى بالمستحضرات الطبيّة، رجلاً قصيراً في بلوزته البيضاء، وطاقيته السوداء، ونظارته ذات السلسلة، ولحية لم تصبح بيضاء بعدُ، بل وخطها الشيب، وفيها من كل الألوان. وعندما سأله الصيدليّ عمّا يريد، أحس اوريليان فجأةً أنه قد ضلّ سبيله. نسيَ ماجاء يفعله هنا، وكان متأكّداً أنه لم يدخل إلا بسبب بيرينيس. طلب كراتٍ من الصمغ. ونظر الى أعماق هذا المسرح الصغير والى خزائنه، باحثاً عن امرأة غائبة. خاطبه الصيدليّ بقسوة. أي نوع من كرات الصمغ؟ ثم ماالكمية؟ ثم خرج من

الصيدلية بسفط صغير في جيبه، وطبيعيٌّ أن زوجة الصيدلي لم تكن في الحانوت. هذا بديهي. لكنه شاهد على الباب زرَّ الجرس مكتوباً عليه: جرس الليل. آه! ياللعجب! هذا هو الرابط. لابدّ أن الصيدلي وزوجته يسكنان هنا، فوق. وقرأ الاسم بأحرف مذهبة مبسوطة على الزجاج. «كوتر» صيدلي، وتحتها «ديفامبين» فرعٌ. لابد أن يكون السيّد المسن هو «ديفامبين». تضاعف المطر. لجأ اوريليان الى باب البناية. وفجأة، اندفع اندفاعةً غريبةً دفع باب الحارسة الزجاجي، ومرّ مائلاً بقبّعته الى حجرة الحارسة: «ألا يوجد أحدٌ؟» أجابه صوت: مَنْ هذا؟ كاد يتراجع إذ وجد نفسه مُسرفَ الحمق، عندما ظهرت امرأة لاشيء يدلّ على سنّها، أنفُها أحمر، عليها وشاحٌ أسود ووزرة رماديّة: «عمَ تسأل، ياسيدي؟». تمتم: «السيدة ديفامبيز...». أجابه الأنفُ الأحمر بجفاف السيد ديفامبيز في الصيدلية، هذه الساعة...

ـ نعم، أعلمُ... لكن السيدة ديفامبيز...؟

فجأةً حدث شيءٌ خارق للعادة. اضطرب الأنفُ الأحمر، ودار الوشاحُ في جميع الاتجاهات، وارتفعت يدان كما يجري في المأساة القديمة، وانطلق صوتٌ حاد يقول: كيف؟ ألا تعلم؟ لكن مالكَ يامسكين!»

أراد اوريليان فقط أن يتأكد من أن زوجة الصيدلي تسكن هذا المنزل. هذا كل شيء. وانزعج من الوجهة التي اتخذتها الأشياء.

ـ «وهكذا فأنتَ لاتعلم؟ آه! لاأحبّ أن أُخبر بهذه الأشياء! لستَ قريباً على الأقل؟ لا؟ إذن فالأمر ليس واحداً... هاقد مضى ستةُ أشهر على موت السيدة «ديفامبيز»... بعد مرض طويل جداً. كم تألّمت! كنتُ أضع لها المحاجم. لم يعد السيد «ديفامبيز» كما كان. وأنا أسمُعه يمشي أحياناً في الليل.».

انسحب اوريليان بسرعة. لم يكن هذا مايبحث عنه. وعندما مر في الشارع، من عند باب الصيدليّة، رأى بغموضٍ في الداخل شخص «ديفامبيز»، واذا ببيتٍ للامارتين يعود الى ذاكرة «ليرتيلوا». «كائن واحدٌ تشتاقه وكل ماسواه قفرٌ».

كان «هونفري» هو الذي يستشهد بهذا البيت في كل مناسبة. غريب. لقد فكّر من جديد في بيرينيس. لم يكفّ عن التفكير في بيرينيس. وتصوّرَ قدرَها على هذا النحو. عندما يُرثى لحال زوجها الأرمل من قبل الحارسة. فهزّ كتفيه.

لم يُفلح «ليرتيلوا» في بذل الجهد الضروري الذي يضعه في مستوى واحد مع رفيقه القديم «هونفري» وزوجته، لأن حياتهما وتجارة الحرير بالجملة، غريبتان عليه، وكان يريد أن يتصوّر حياةَ بيرينيس، لافي شارع «سانت اونوريه» لا. بل في الريف، في مدينةٍ لايعرفها، وأن يتصوّر الناسَ الذين يراهم، وهذا الزوج الذي ليس له لحية السيد «ديفامبيز» ولانظارته ولاعمره. أخذ المطر الآن يهطل بانتظام وعناد. التقت أصابعُ «اوريليان» علبةً في جيبه. حبّات الصمغ، ففكّت طيّات الكيس، وتناولت حبّة، حبتين. فكّر «اوريليان» لكني لست مصاباً بزكام! ،لم يمنعه هذا من مصّهما. فانتفخ خدُّه، كالسيدة «دوفيني».

آه، ياالله! كان يريد أن يشتري صبغة اليود! تذكّر ذلك الآن. فليكنْ. وبعد بضع خطوات فكّر: لماذا فليكنْ؟ كأننا لانستطيع شراء صبغة اليود إلا من عند السيد «ديفامبيز»! وفي شارع جانبيّ، تطلّع على أملٍ، أملٍ يعتورُه الغموض، أن يشاهد صيدليّة. ولقد كانت هناك صيدلية. ليست بنفس أسلوب الصيدلية السابقة. كانت مدهونة بلون رمادي. دخلها. كانت ملأى بالناس، وبالرغم من الصيادلة الثلاثة الذين كانوا يقومون بالخدمة، وأمين الصندوق الذي كان واضحاً أنه لاطائل من إزعاجه، اضطرّ «اوريليان» الى انتظار دوره. ومع أن الوقت كان مايزال نهاراً، إلا أنهم أشعلوا الضوء، وأخذ ليرتيلوا ينظر الى المصابيح الكاسرة للأشعة التي تضيء من الخلف القماقم الحمراء والخضراء في الواجهة، وكأنما كان يكتشف سراً من أسرار العلم. كانت الصيدلية واسعة، عريضةً، بخزائنها المفتوحة؛ ويشغل زاوية منها معروضاتُ العطور والمساحيق والمعجونات، وبرنيق الأظافر من كل صنف ولون. وكان ثمّة إعلاناتُ تشرح عن مستحضرات للحنجرة، وللعادات الشهرية، ولآلام الرجلين. وفي الداخل كان الناسُ من عامّة الحي، مع حقيبة المؤن، وقد جاؤوا أثناء تبضّعهم، وطفلة وأمّها،

سيّدة جافّة وساهية. وعامل مرصّص قريب، وسيّد من نمط المتقاعدين، بعضهم وقوف وبعضهم الآخر جلوس، ينتظرون اللحظة التي يطلبون فيها بصوت منخفضٍ مستحضراً يردّد الصيادلة اسمه المُخجل بأعلى أصواتهم. لا امرأة في هذه الصيدلية كما لم يكن في تلك. تعلّقتْ عينا اوريليان بأحد الباعة. كان شاباً رقيقاً، وربما كان سيبدو طويلاً لغير اوريليان الذي كان يجد جميع الناس قصاراً. كان فتىً يمكنه أن يكون حلاّقاً أيضاً، لولا مافي وجهه من لامبالاةٍ، ولولا عيناه الزائغتان. لاشك أنه طالب. كان أشقر، متموج الشعر، هزيل الوجه، لكنه في ريعان الشباب. كان ينقصه شيء طفيف ليغدو جميلاً. وهو في مجموعه، لابدّ أن يعجب النساء، مع أن فيه نقصاً في البدانة وهو نقصٌ يحول بينه وبين أن يكون رجلاً في نظر «اوريليان». لم يكن ينظر الى الزبن[1]، وكانت له حركةٌ طفيفةٌ في فمه، كان يعضّ شفته العليا. ماأشد ضجره، هذا المسكين! ودخلت فتاةٌ، لم تكن جميلةً لكنها كانت فتاةً، ويمكن النظر إليها من أجل ذلك. استدار الصيدلي بوقاحة شديدة نظراً للشخص المسن الذي كان يخدمه، وقدّم كرسيّاً للفتاة وهو يبتسم. هذه الابتسامة فتحتْ عالماً، في عيني «اوريليان». وفكّر أن في صيدليّة «موريل» صيدلياً شاباً مثل هذا يُعنى بشعره ويحتقر الزبونات، لكنه يتألّق عندما تدخل بيرينيس الصيدلية لتقول كلمة لزوجها. ولعله يغازلها... وماذا لو كانت عشيقته؟ لأنها هي لابد أن تضجر في دورها المنخفض فوق الأرضي. أقدّر أنه دورٌ منخفض. ورأى عيني بيرينيس المغمضتين أثناء الرقص. لعل ذلك كله من أجل صبيّ مثل هذا. ومَنْ يدري إن كانت تفكّر فيه حينئذ، في الحانة، بين ذراعيه؟ كريهٌ ذلك. فليس هذا غيرةً، بل هو غرورٌ مغتاظٌ. لن أكترث لهذه المرأة بتاتاً.

- «أعطني قمقماً من صبغة اليود.».

لم يغلط هذه المرة.

---

(١) جمع زبون زُبُن.

ـ ١٦ ـ

انقطع المطر. وانعكست أولى أنوار المعروضات في الشارع المبلّل. وكان الناس يسيرون مسرعين بسبب البرد. وجد «اوريليان» نفسه في الشارع ومعه حبّات الصمغ في جيب وصبغة اليود في جيب آخر. واتجه الى البيت، دون أن يفكّر، وكأنه حين يحمّل نفسه حبوبَ الصمغ وصبغة اليود فلا يبقى عليه إلا أن يعود الى منزله. وماإن وصل الى ساحة «المسرح الفرنسي» حتى تبيّن مامي سلوكه من غباء وآليّةٍ.. وفاجأ نفسه وهو يضع بين أسنانه حبّة صمغ، فاغتاظ. أحس بفراغه أكثر من المعناد وخشي من ردّة هجوميّة لبيرينيس. قال في نفسه. هيّا! بلهجة القرارات الكبرى.

هذه الـ«هيّا» علامة يُلقيها على نفسه دائماً عندما يقرّر أن يلعب اللعبة الي تؤنس وحدته. جميع الناس يعرفون هده اللعبة ينبع الواحدُ أول امرأة معقولة صادفها مقبلةً عليه، حتى تنعطف منلاً الى اليسار. وحينئذ يترك المرأة الأولى الى أول امرأة آتيةٍ من الجهة المعاكسة، دون أي تدبير معاكس، ويتبع الجديدة عائداً أدراجه. ويمكن لذلك أن يجري الى اليمين والى اليسار على حد سواء، وأن يتعقّد بطائفة من القواعد يخلقها الرجل لنفسه، ويحافظ عليها شهرين أو ثلاثة أشهر، ثم يتركها الى قواعد جديدة. وكان اوريليان الذي ظلّ مي دلك كله كالطالب الثانوي بالنسبة الى أعوامه الثلاثين، قادراً أن يدور هكذا ساعاتٍ وساعات في باريس. كان في هذه اللحظة يلاحق فناةً مشوّهة القامة سيئة الملبس، بادية العظام، نزقة على نحو جميلٍ مي حركاتها، ويريد أن يبرهن لنفسه أنه لايفكّر في بيرينيس.

لانستطيع أبداً أن نُلمَّ بتفاصيل امرأةٍ، كما نُلمُّ بها ونحن نلاحقُ مجهولةً.

فما نكاد نرى وجهها حتى نحاول تصوّره عندما تدير رأسها دوراناً طفيفاً، ثم إن القليل الذى نراه من الوجنة حينئذٍ لايُفسده شيءٌ. وجميلٌ بسهولةٍ لدى المرأة مفصلُ العنق والأذن. وعندما نرى المرأة المجهولة من ظهرها فنحن

نملكها حقاً، إذ لايَحْميها تعبيرُ وجهها، ولا يبقى منها سوى الحيوان، الحيوان المعد للانحناء؛ وهي تَخْضع للانتباه يتركّز على القذال، وأصول الشعر. والمشيةُ تنمُّ على المرأة، على خصوصيتها الحميمة. ثم هناك الردف والساقان. وكان يلذّ لاوريليان الى أبعد الحدود أن يُعرّي النساءَ في رأسه، أن يتصوّر بواطنهن، دون أن يجمّل شيئاً، وبشيءٍ من القسوة، هناك نساء مثلاً، نعلم على الفور أن ملابسهن الداخليه مثبّتة بدبوس انكليزي.

هوبْ! كانت هذه الـ«هوبْ» تعني أنه انتقل الى المرأة التالية بين أولئك النساء، الخ... كانت التالية شقراء قصيرة، سقيمة، لكنها فتيّةٌ، وعلى وجهها ابتسامة مدهوشةٌ نهائية. وكانت ترتدي ببساطة فستاناً أطول قليلاً من الدُرْجة، ولعله من السنة السابقة. كانت تحمل أسفاطاً، وتوشك أن تفقد مظلتها كلّ عشر خطوات. ولم تكن، من ظهرها، متناسقةً جداً، إذ أن الكتف اليسرى كانت أكثر نموّاً.

لم تكن هذه اللعبة هي لعبة «اوريليان» الوحيدة في الشارع. كان ينسلّى أيضاً بتصنيف النساء اللواتي يصادفهن، وعدِّهنّ، أي غير النساء اللواتي هنّ غير معقولات البتّة. لكنه كان يقول في نفسه: «منْ هنا الى «الكونكورد» مثلاً... كم امرأةً سألقى، على أن تكون النساء نساءً حقّاً!» وكان هناك عدة فئات يستوقفْنه كنساء. وفي نظام تصاعدي، هناك أولاً المُثيرات، ثم المحبوبات، وأخيراً المدلِّهات. وهذه المفردات الصغيرة السرّية لم تتجاوز قط شفتي اوريليان، وقد كوّنها لنفسه وهو في نحو الخامسة عشرة. «المثيرات»، واضحٌ قصدُه فيها. إنهن أقل من المحبوبات اللواتي انساق الى تسميتهن بصفةٍ أكثر مباشرة، وينبغي فهم «محبوبات» بالمعنى الكامل. أما المدلّهات فهو يقصد بذلك النساء اللواتي نُقدم على الجنون من أجلهن، وهي فئةٌ نادرةٌ جداً. وكان شائقاً أن يعدّ النساء ليرى نسبة المثيرات ونسبة المحبوبات، لم تكن النسبة واحدة دائماً، وكانت تنقلب أحياناً. وكانت أياماً جميلة تلك التي تتغلّب فيها النساء المحبوبات.

ولقد كانت هناك، في الحياة أصباحٌ[1] غير عادية صادف فيها، مدلّهات، في أحياء ماكان يتوقّع ذلك منها، الى حدّ لايُصدَّق. ربما كان بهديرهُ سقصه الموضوعيةُ. في حدودٍ كان اوريليان، واثقاً، على الأقل، من مراقبتها.

وكان يحبّ أن يقسم لقاءاته الى زمرتين كبيرتين النساء اللواتى يعرّيهن، واللواتي يَحْسُنُ به ألاّ يعريهن. وكان هذا معياراً ممتازاً يفتح المجال للخيال. إن الشاب لاينتابه الضجرُ في مدينةٍ كبيرة مع مثل هذه التسليات. هوب!

كانت امرأة نَصَفاً، قد أسرفت في رش البودرة، سمراء، في طقم حريري بالٍ قليلاً، وعلى عينها ضفيرة صغيره، مبرومة قليلاً، تنظرُ من فوق كتفها إن كان هذا الشخصُ الطويلُ الذي دار نصف دورة حين التقاها مايزال يقتفي أثرها. قال اوريليان في نفسه أعرف زمرة هذه إنها تنزع تنورتها، وتطويها على مسند الكرسي، وتقول. إياك وجوربي...

وفجأة أصابه التعبُ من هذا العلم الحيواني النسائي، من رتابة تعيّر النساء اللانهائي، من تنوعهن الزائف، من إمكان ردّهن دائماً الى زمرة مختصرة لنساءٍ لقيهنّ. وشعر أن ذلك يدور حول صورة مركزية هاربةٍ وحاضرةٍ في آن واحد، وأراد أن يدنّس هذه الصورة لكي يُبْطل ذلك السحرَ عنه. أهي مثيرة؟ محبوبة؟ بل لقد بلغ به الأمر أنْ تساءل ألا تكون بيرينيس أكثر إمتاعاً وهي لابسة. لقد أسرف. وخجل من نفسه. وتذكّر كيف أمسك يدها. إن يده التي علقتْ بالنافذة بدتْ له وكأنها عقابٌ له. المؤكَّدُ أن من العبث تعقّب السيّدات، فلم تكن عجلتُه تتعقّب غير بيرينيس. كيف يغيّر أفكاره. هوب!

كانت فتاةً جميلة، هذه المرة. مغناجاً للغاية. أنيقةً، تتعثّر بالكعبين العاليين. وعليها فروٌ من النوع الثمين. كانت تقفُ عند عروض الواجهات. وكأن رجلها علقت بحديد التشبيك. حينئذ كان ينظر الى جانب وجهها وهو يتظاهر بأنه مستغرقٌ في تأمل الحقائب اليدوية، والقمصان والدنتيلا. ولعله كان سيصنفها، في غير هذا اليوم، مع المدلّهات... ولابد أن يكون هناك من يرونها

---

(١) جمع صباح.

مدلّهة... جعلتْه يمرّ بمخازن «اللوفر»، وكان ذلك شيئاً رائعاً طريقتها في لمس القماش، وقفزها من شيء الى آخر، وعودتها أدراجَها للاشيء، ووثْبها نحو أيّ شيءٍ وكأنه الأرض الموعودة، لتتطلع، الى شيء آخر، ولتدفع الناسَ بعفوية عظمى! وعند خروجها من جهة الأميرال «كوليني»، استقلّتْ سيّارة أجرة في اللحظة التي لم يكن يتوقّعها البتّة. قال اوريليان في نفسه. كفى، وسار نحو منزله وهو يمص حبّات الصمغ. وماكان مؤكّداً هو أنه لم يخطّط أدنى تخطيط، أدنى ظلٍّ لأدنى تخطيط كي يلقى بيرينيس. ودليل ذلك أنه لايكترث لها. ومع ذلك تذكّر أن ادمون قال له: «اتصل بي وتعال الى الغداء متى شئتَ»، بديهي، لكن لم يكن هو، اوريليان، هو الذي حثّ على ذلك. حتى إنه نسيه تماماً. وهكذا، فهل يهتف غداً؟ لا. أيّ هَدْرٍ للكرامة! إن أردتَ إمرأة فعليك أن تثير رغبتها فيك. نعم، إن أردتَها. وإذا كانت لاتثير مشاعرك؟ وبعد ذلك صَهْ!

بلغ ساحة «الاوتيل دي فيل»، وقد خيّم الظلام. جسَّ صبغة اليود في جيبه. أيعود الى البيت؟ ولماذا يعود؟ كان الباص ماراً بالساحة. خطرت له فكرة قديمةٌ. أن يسبح! فلحق بالباص وقفز الى الموقف وهو سائر.. لاشيء يعادل السباحة لطرد شبح «بيرينيس». هذا ناجعٌ جداً. وقد مضى عليه زمنٌ طويل لم يذهب فيه الى مسبح «اوبركامف». وكان قد فكّر كثيراً في زيارة العم «بلين» الذي لم يره منذ عهد بعيد. كلاّ ليذهبْ الى السباحة. ولابأس بـ«اوبركامف».

اشترى صحيفة مسائية من بائع صحف في الباص. وأقبل على قراءة الأخبار الرياضيّة. كان الباص يصعد نحو الجادات الخارجيّة. ومامن بيرينيس في ذلك كله.

مامن بيرينيس أبداً.

* * *

- ١٧ -

«أبوك وزير! شيء مضحك! وقانا الله!»

دفعت السيدة فيليب باربنتان، زوجة عضو مجلس الشيوخ، صحنَها برفقٍ، وقد جعلتْ يدُها الهزيلة سكّينَ الحلوى يَصْدِم كأسها من ماء فيسي، وأدارت وجهها المعذَّب عن ابنها «ادمون» نحو المدعوّ الذي كان قبالتها، وعبّرت بصمتٍ عن الصعوبة في متابعة مثل هذا الحديث أمام غريبٍ، ثم إنها تابعت فكرتها، بعد أن فعلت ذلك، بعدم الاتساق وبالانفعال اللذين أكسبتها إياهما ثلاثون سنة من الحياة المنزلية ومن البغضاء، مخاطبةً هذه المرة ابنتها على يمينها.

- الحمدُ لله، فليس للشيخ[1] أدنى نصيب في دخول الحكومة! ماكان يَنقص سوى هذا! لشدّ ما أساء في أسرته حتى يعفي البلادَ من الإساءة!

قال ادمون، مع غمزةٍ بعينه موجّهة الى «ليرتيلوا».

- أنتِ تبالغين، ياأمي، فأولاً إن أبي خفّف من غلوائه منذ الحرب، واقترب من «بوانكاريه»...

- نعم... وعندما نفكّر في ذلك! في بداية العام صرفه «بريان» بخشونة... والآن هو يعتمد على «بوانكاريه».. لكن تلك الأفكار أفكاره وحده. فليسوا بحاجة إليه في الوزارة! يجب أن يكون هناك انقلاب ليكون له نصيب، اذا جاز لي أن أسمي ذلك نصيباً. ومع المجلسين الكريمين اللذين عندنا يمكنه أن يضع أي اسم شاء!

كان «اوريليان» ينظر الى أم ادمون بضجر. فلم يتسلَّ بنبرتها الجنوبية سوى لحظة. لم يبق شيءٌ من جمال «ايستير باربنتان»، كانت القرابةُ بين الأم والابن واضحة، لكنها، منذ تلك العملية التي عملتها، جفّت جفافاً شديداً، وكانت تبدو في الستّين، مع أنها لم تكد تتجاوز الخمسين. خَوْخةٌ تتجعّد. مع أنها كانت

---

(١) عضو مجلس الشيوخ

امرأة طويلةً عنيفة ذات سعر مايزال جدّ أسود، لكن الجيبين تحت العينين، والمحمرين المنقورين اللذين تختبىء في أعماقهما العينان الزرقاوان اللتان أورثتهما ابنها، وطائفة من التجاعيد، وبخاصة عاب المسحوق وأحمر الشفاه، وهذا اللباس الريفي، الحداد الدائم الذي كان يغمّها بسبب كثرة الأقرباء الذين يموتون، كلّ ذلك كان يجعل منها امرأة طاعنةً في السن. حتى الصليب الذهبي الصغير في عنقها.

كان «ليرتبلوا» يُرغي ويُزبد في نفسه. ولم يكن مركز عضو مجلس الشيوخ «باربنتان» ليثير اهتمامه. لكن اوريليان قبل اقتراح «ادمون» دون تدقيق ودعا نفسه الى الغداء في آخر ساعة. ثم إن السيدة «موريل» التي خرجت هذا الصباح للتنزّه مع «بول ديني» الصغير، اتّصلت هاتفياً لتقول إنها لن تعود، وأن يبدؤوا عداءهم دونها. لطيف! ماذا جاء يفعل هذا الشاب في هذه القضية؟ وأين ذهبا يتنزّهان؟ ولماذا أطالا هذه النزهة. رائع! ماأشدّ سذاجتي! وفي هذه الأثناء، أراني ملزماً بالردّ على هذه العجوز المتزمّتة، وعلى ادمون وبلانشيت.

همستْ بلانشيت وهي تناوله الزيتون «لاحظْ لك، ياصديقي المسكين...» قالت ذلك وزمّتْ شفتيها قليلاً. ماذا قصدتْ بذلك؟ خامرته الشكوك. فعزمَ أن ينسى هذا الحديثَ.

تابعت السيدة باربنتان كلامها حيث لادين فهناك الجحيم، الجحيم، لاأكثر ولا أقلّ! لقد كان فيليب سبباً في تعاسة ذويه بطريقته في تربية ابنه، حين كان يسخر دائماً أمامهم من المقدّسات... هزّت بلانشيت رأسها:

- تعلمين، ياأمي، أن أحداً لايستطيع شيئاً في وجه الحقيقة...

قالت الحماة ياللِ من «هوغونتية»[1].

وتناولت كمية أخرى من السلطة.

كان حلم الدكتور فيليب باربنتان طوال حياته أن يتخلّص من هذا الظلّ الملازم، من هذا اللوم الحيّ. وقد تخيّل دائماً أن اليوم الذي يُرسله فيه الناخبون

---

(١) بروتستانية. المترجم

الى باريس، فإن «ايستير» زوجته ستظلّ في بيتهم في «البروفانس»، منصرفةً الى تُقاها، بينما سيَعْرف هو الحريّة في العاصمة. لكن الحياة تتلاعب بالأحلام. إذ سرعان ما أحسّ، بعد أن أصبح عضواً في مجلس الشيوخ، بضرورة أن تكون له شقةٌ جميلة يستقبل فيها، إذا شاء أن يصبح على الأقل وكيل وزارة. ولابدّ من سيّدة ترعى المنزل في مقرّه في شارع «الابسرفاتوار». ثم أليست «ايستير» من آل رينالدي، وابنُ عمها «شارل» الذي غدا رئيساً للجنة المالية في مجلس النواب، مناصرٌ كلّياً للأكثرية. وعند اللزوم، إذا قرَّ الرأيُ على ائتلاف من هذه الائتلافات الوزارية الخليطة التي تُنقذُ الجمهورية دورياً فإن القرابة بين باربنتان و«شارل رينالدي» يمكن أن تكون إشارة الى رئيس مجلس الوزراء الذي لديه حقيبة وزارية فائضة... وأخيراً أذعن عضوُ مجلس الشيوخ «لايستير»، واستقدمها إليه. فأخذت تحرق الشموع في كنيسة «سيدة الحقول» لإطالة عمر الوزارات، هذا كلٌّ مافي الأمر.

كان «اوريليان» يكظم غيظه. فهذه الطلعات مع «بول ديني»، أول عابر سبيل... أكان يجب... هذه المرة، شفي شفاءً تاماً. ريفيةٌ صغيرة اشتهت أن ترى باريس... هذا كلّ شيء... في الحقيقة، كاد يختلّ رأسه بسببها. ماجرى فقد جرى. الغريبُ أن ذلك لم يقع لي قط. وفكّر فجأة ان ذلك محضُ غيظٍ من جانبه، وأنه، في الحقيقة، يغار. أغارُ، أنا؟ هذه هي الطامّة... حاول أن يكون رقيق الحاشية مع بلانشيت. ثم تذكر أنه لاينبغي أن يُسرف في الرقة معها. ولم يخطرْ له إلا الانصراف، في الحقيقة. بيد أنه لايجوز أن ينصرف عند تناول *الحلوى*.

تناولوا القهوة في المكتبة، بحجة تدخين السيجار، فمضى ادمون بليرتيلوا الى المصطبة. تطلّعا الى السطوح، وبرج «ايفل»، و«الانفاليد». كان الجو بارداً جداً. السماء رمادية لافرجة فيها.

سألتْ «ايستير» «بلانشيت» ماهؤلاء الـ«ليرتيلوا»؟... قطعة واحدة من السكّر، تعلمين... أصحاب الهندباء؟

ـ لا. أولئك أبناء عمومته. أغنى كثيراً. هؤلاء «ليرتيلوا ديبريه».. وهم في النسيج.

ـ آه! حسنٌ... ظننتُهم أولئك... النسيي، الهندباء، هما من صناعتهم دائماً في الشمال... سأقول لكِ شيئاً، ياصغيرتي بلانشيت... أنتِ تكثرين من النظر الى السيد ليرتيلوا... صه، صه، لاتحتجّي... أقولُ لكِ ماأقوله... لاأكثر...

ـ أؤكد لكِ، ياأمي، أن هذه الفكرة غريبة.

ـ لكني لاأقول لكِ، يابنتي العزيزة، سيئاً أكثر من ذلك... قد يقع لنا، دون أن نُبطن الشرّ... وأنا على يقين من أن هذه هي حالتكِ... أن نطيل النظر الى رجلٍ.. أقول لكِ ذلك لكي تراقبي نفسكِ.

ـ وأخيراً، ياأمي!

ـ ماكنت لأقول لكِ شيئاً لو كان لكِ مُعرِّفٌ. لكن مصيبتك أنك من الديانة المُصلحة...

ـ أوه! المصيبة، ياأمي المصيبة!

ـ نعم، المصيبة، يابلانشيت... المعرِّف سندٌ لنا، نحن النساء المستقيمات... رجلٌ نكلّمه... وفي قلبه نتخلّص من الأفكار التي ليست خطرةً إلا لأننا نحتفظ بها لأنفسنا... إنه مَنْ يقودنا، من يساعدنا على النظر بوضوحٍ الى بواطننا... أوه، ابتسمي ياصغيرتي، ابتسمي، لكن أتعلمين كم امرأة مَدينة لذلك بعمل واجبها.

ـ «ليس هذا واجباً عليّ».

ودهشت بلانشيت نفسها لما في جملتها من قلّة إقناع، وأضافت

ـ لأنني أنا أحب ادمون.

ـ اذا كان للمرأة أولادٌ فليس ضرورياً أن تحبّ زوجها. ومع ذلك فلابدّ أنها سعادةٌ كبرى... وبمحبة الله من هذه الجهة وتلك بالطبع... فأنا ألوم نفسي في الغالب لأنني أعطيتكم ابناً لانؤمن بشيء... لستُ أُقيم وزناً كبيراً لقسسكم، لكن ينبغي لكِ، أنتِ نفسكِ، أن تكثري من الذهاب الى الكنيسة...

ـ تعلمين جيداً، ياأمي، أن ديني لأنه غيرُ برهاني... فلكل واحد طريقتُه في فهم هذه الأشياء... فبعضهم يحب أن يُبرزها الى الخارج... بالنسبة إليّ، بعضُ العواطف أفضلُ لها أن تظلّ داخلية حميمةً...

ـ هذه وجهات نظر بروتستانتية. لكن أيجدر بنا أن نقرأ التوراة طوال الوقت، كما تفعلون أنتم، ثم لانعلم أن الربّ لايُمجَّد حقّاً إلا في الأماكن المقدّسة!

وضعت السيدة بارينتان فنجانها، وتفحّصتْ أثر كلماتها في زوجة ابنها. فرأت بلانشيت تنظر الى المصطبة، وتحرّك حاجبيها. مع أن ادمون، على كل حال، كان على المصطبة.

كان ادمون يقول لاوريليان بالضبط:

ـ لاحظّ لك، ياصاحبي.

دهش «اوريليان»

مالكم جميعاً تقولون لي الشيءَ نفسه؟

ـ جميعاً؟

ـ نعم، أي امرأتك، لاأدري عمّ تتحدثان.

ـ آه؟ بلانشيت... لاتتكلّف البراءة. فنحن نعلم أنك جئتَ من أجل «بيرينيس»، وأنت ترى، بلانشيت...

ـ هذا سخيف! جئت الى هنا من أجلكم، من أجلكَ... ماذا... جئتُ في مرات سالفة عندما لم أكن قد عرفت ابنة عمك...

ـ لاتدافعْ عن نفسك... لستُ أرى في ذلك ضَيْراً. أفضّل أن تأتي من أجلها على أن تأتي من أجل بلانشيت، مثلاً! (ومَزَح) مع أن بلانشيت حرّةٌ على كل حال.

ـ أنتَ غبيّ. دَعْ امرأتك وشأنها. وابنةَ عمّك أيضاً.

ـ تضعهما على صعيد واحد. إن هذا لايُطمئنني إلا نصف طُمأنينة.

ـ ادمون، ماذا أصابك اليوم؟

ـ لأنك تعلم جيداً أن بلانشيت تميل إليكَ...

ـ أنت مجنون! إنها لاترى سواك في الدنيا. ثمّ، لنتكلّمْ عن أشياء أخرى، اذا شئتَ!

ـ كلا، ياصاحبي، كلا! تبدو كأنك تدافع عن نفسك. أنت مخطىء. أنا مطمئنٌ تماماً. وأعلم أن بلانشيت لاتحبّ غيري، لكنها تميل ميلاً قليلاً نحوك... ولمَ لا؟ ليس في هذا خبثٌ. لكن هذا لايمنع من أنك لم تجيء الى هنا لامن أجلها ولا من أجلي... اليوم... لكن من أجل بيرينيس... ثم إن بيرينيس ليست هنا! فلا حظّ لك، ماذا نصنع؟

ـ أنت توقف لي شعر رأسي!

ـ اعترفْ بأنها تعجبك...

ـ امرأتكَ؟ كثيراً...

ـ كلا، ياغبي، بيرينيس...

ـ أعتذر، ياعزيزي، عن ذهابي هكذا، دون أن أنهي سيجاري... فهناك مَنْ ينتظرني... وسألوم نفسي على تأخري.

ـ حسناً، حسناً... يادون جوان... اذهب! هي، بيرينيس، التي ستكون حزينة...

ـ لاتكن سخيفاً... السيدة موريل تكون قد قضت صبيحةً ممتازة مع «بول ديني».

ـ وتغار؟ «بول ديني»... آه! ياصغيري، إن لم يكن هناك غير «بول ديني» ليكدّرك...!

ودخلا المكتبة.

جيء بالأولاد الى جدّتهم، وتجمّدت الصغيرتان اللتان كانتا تضحكان وتثرثران لدى مرأى «اوريليان».

ـ سلّما على السيّد...

استأذن «ليرتيلوا» على الفور.

فهتفت بلانشيت متعجّبة: «منذ الآن؟، لكنها توقفت فجأة عندما التقت عيني حماتها.

قال ادمون:

ـ أنا نازل في نفس الوقت، ينبغي أن أمرّ على المكتب...

وعلى الدرج، وبلهجة مختلفة كل الاختلاف تابع حديثه الذي قَطَعه

ـ اسمعْ، وبلا مزاح... بما أنها تعجبك... بيرينيس... فتستطيع... عند الاقتضاء... الاعتماد على تواطئي...

التفت اوريليان الذي كان يتقدّمه، وقال.

ـ أنت عجيب! في النهاية، لماذا تُصرّ على أن ترمي بابنة عمك بين ذراعيّ؟

ـ لستُ حريصاً على ذلك أساساً... لكن بما أنها تُعجبكَ... لا تتكلّفْ التحفظ والوقاحة، فهمت! أنا أعرفكَ، ياصاحبي، كذلك كنتَ في الخنادق... حسناً، إذا شئتَ... ذلك أني أحب بيرينيس ولا أحب زوجها... سوف أحدّثك عن ذاك... وأن لها الحق في قليل من المسرّة... وأن الأمر معك ليس بَالخطير...

ـ هذا مايبدو لكَ.

ـ كيف؟ آه! أجل؟ لقد غظتُكَ؟ إني أعرف جيداً كيف تتصرّف مع النساء... وأنا أقدّر كثيراً ذلك عندك...

صَمَتا أيضاً، ودارت الأشياء في رأس ادمون، فأضاف.

ـ مالم أكن مخطئاً في كل شيء...

افترقا وهما يفكّران كلاهما، ادمون أمام مقود سيارته الفخمة، واوريليان في سيارة الأحصنة الخمسة!.

* * *

- ١٨ -

جاءت الآنسة سوزان بحمّالة الآلة الكاتبة، ورفعت عينيها وتنهّدت. لن تفلح أبداً في جذب انتباه السيد «آرنو». وكانت الآلات الأخرى تطقطق خلف المكتب... وكان السيد سيمونو في بزته الرمادية الفاتحة، وأنفه البوربوني، ولحيته المقرّنة وبطنه ورأسه الأصلع، قد حمل قبل قليلٍ أوراقاً لضربها على الآلة الكاتبة للسيد بودوان. وفي القاعة كان ثلاثة أشخاص أو أربعة ينتظرون في الصالة. وكان لابد من إشعال الضوء، في ساعة مبكّرة، في هذا النور الثلجي. فشارع «بيبي ويل» ضيّق.

اتّجه «ادريان ارنو» بالسؤال الى سيمونو «هل المعلّمُ هنا؟» ماكان ليسأل إحدى ضاربات الآلة الكاتبة هذا السؤال. ألم يكن سيمونو أمين سر المعلم، وشيئاً آخر غير أمين السر، كان موضع ثقته الذي يوقّع عنه... منذ خمسة وثلاثين عاماً في الدار. وعندما كانت شركة المغرب العقارية ماتزال قائمة، كان أيضاً أمين سر العجوز «كيسنيل». إنه إرثٌ.

نظر سيمونو الى السيد آرنو بكل مايحتمل ذلك من جدّ. لو قال نعم، دون أن يعلم إن كان السيد باربنتان يريد أو لايريد أن يستقبل السيد آرنو لكلّفه ذلك. ربما لم يكلّفه، مركزه، لكن له، في آخر المطاف، ثلاث بنات وامرأة. ثلاث بنات على الخصوص. ومع أن السيد آرنو ليس أحد رجال الدار فقط، بل هو صديق المعلّم، إلا أن سيمونو قال «سوف أرى». فهزّ «ادريان» رأسه بشيء من نفاد الصبر، بينما كان السيد العجوز الرسمي يختفي خلف باب الإدارة.

لقد جلس هنا، أيضاً، أدريان، خلف المكتب عند بداياته، لقد عمل كلَّ شيء في ثلاث سنوات، في شركة العقار والتاكسي. واستخدمه ادمون في جميع الأعمال. وماذا كان بوسعه أن يفعل بعد إفلاس مخازن ذويه، وبعد تسريحه على الرغم من غناه برتبة ملازم الاحتياط، بصفة مؤقتة، وبأوسمته الثلاثة؟

ويجب الاعتراف أن ادمون أراد أن يعرف مكان العمل من فوق الى

تحت، لامكان العمل فقط، لأنه عمل على التاكسي، وكان مراقب مرآب، وعمل في مشغل التصليحات. ثم في الشركة العقارية... الى أن خطرت له تلك الفكرة.

أشار إليه «سيمونو» بالدخول. نظرت الآنسة سوزان الى «ارنو» وهو يختفي. آه! إنه لوسيم! كان ربعةً، ممشوقاً، قوامه قوام ضابط، بشعره الأسمر الجعد القصير على الجانبين. كان شكله متميّزاً بذلك الأنف الطويل، وبهاتين العينين المتقاربتين، الصغيرتين والسوداوين. ولم يكن يبشّعه ذلك القليل من تورد الوجنتين. وكان الناس يهزؤون من طريقته في هزّ عطفيه وهو يمشي. اوه! إنه ليس طويلاً جداً. مصارع. كانت الآنسة سوزان متحيّزةً. فهذا ماكانت تحبّه بالذات فيه. كان السيد سيمونو يمر بين الآلات الكاتبة «سيّد سيمونو؟ مابكِ، آنسة سوزان؟ أما يزال السيد آرنو في عقارات الدائرة السابعة عشرة؟.. «كلا، كلا، آنسة سوزان... إنه مشغول بقضية الوفود، تلك التي تعرفينها...» آه! كانت الآنسة سوزان تفكّر في شاربه الضيق الدقيق الطرف الذي يجعلها تنظر دائماً الى شفة السيد آرنو العليا. لاشك أنه يُحسن التقبيل. «طيّب. أنا مخطئة» وأخذت أوراق كربون أخرى.

لم يغيّر ادمون شيئاً من مكتب حَميه. نفس الأكاجو بالنحاس، الخزانة بالتشبيك. جوخ الطاولة الأخضر، والمصابيح بنسورها. وقد حافظ أساساً على ذلك كله كدليل على اتصال الأعمال واتصال فعاليته الخاصة مع «سيمونو» الذي يفعل كلَّ شيء وإن لم يَبْدُ عليه إلا أنه ينتمي الى الأثاث. كان ذلك جزءاً من الأسطورة التي تقول إن «كيسنيل» وضع صهره هنا لمزاياه في الأعمال. واستطاعت شركة المغرب العقارية أن تتحول الى شركة العقارات وسيارات الأجرة، بينما كانت تبرعم الفروعُ، مع كل صفقةٍ تفتح أحياء باريس لاجتذاب هؤلاء السادة، وتُزيل شيئاً من أرباح شركة السيارات القديمة، وتُشركهم في إسهامات جديدة، وتُصالب بين منافع شتى المشروعات حيث يعود الى الظهور جهازٌ من الموظفين مرتبط على نحو أو آخر مع «كيسنيل»، «ويسنر»، «باربنتان»، «شبيلزر». وفي هذا التشابك المالي الضخم الذي كان له امتداد في سيارات

النقل في «اللانغيدوك» وفي البروفنس، وآخر في بترول رومانيا، والأراضي قرب «الانفاليد» وباب «كلينيانكور»، وفي «التروكاديرو» و«فنسين»، ويتّصل بكاوتشوك «مالاقا» وإطارات المطاط الهولندية، كان «ادريان ارنو» يحاول أن يجد عشّاً فيها، أن يحصّل مركزاً للمستقبل، مركزاً كان المعلم، وهو صديق طفولته القديم، يتيح له أن يحرزه، تماماً كما كان الأمر قديماً في «سيريان لي فيو»، عندما كان يبيح له أن يثأر، في لعبة الكرات، إذا أُطلقت كرةُ الهدف...

كان المعلم يبدو، في الوقت الراهن، ناجحاً في أعماله، بوجهه المحروق، والمشدود حيث العينان الزرقاوان، الغائرتان تشعّان بضياءٍ يوهم بالفكر. حسد «ادريانُ» «باربنتان» على سترته. وفكر بسرور جمّ: لقد أخذ، مع ذلك، يفقد شعره. ذلك أن شعر ادمون السبط ترك حزوزاً عاريةً كانت تُشاهَدُ منها جلدةُ الرأس واضحةً. ذلك لايعني أنه كان أصلع.

كان بريدُ النهار يتكدّس على الطاولة. وكان واضحاً أن باربنتان لم يمدّ يده إليه. وماذا كان يفهم في ذلك؟ آه، لو لم يكن عنده «سيمونو»!

شدّ على يد «ادريان». سيجارة؟ شكراً. أما هو فأخذ يدخن. تصدّى «ادريان» لموضوعه بلا مداورة. وكان ذهنه شارداً. إنه لشيء كريه أن ترى الناس لايُصغون إليك.

ـ اصغ إليّ، ادمون، فالأمر خطير...

بدا ادمون كمن يطارد السحبَ.

ـ ماذا قلت... المعذرة... لم أتابعْكَ جيداً..

ـ قد خفتُ... اذا لم تكلّف نفسك أن تفهمني، فسوف يذهب عملُنا هباءً... أنت تعلم أن «ويسنر» لن يمشي اذا لم تصرّ... واتحاد الشركات مستمر في أفكاره الصغيرة... وهناك جماعة «بالميد»...

ـ اوه! وماذا يستطيع «بالميد»؟

ـ نعم... أعمى كالآخرين. أنت تعلم أنه مكّن لصهره في كل مكان... في

«الشـركـة العـقـارية» في الدائرة التـامنه عـشـرة، في «شـركـة النقليّات الـبروفـانسـيـة».. ثم إن المسـألة ليست هنا... اذا لم يقـبل اتحـاد الشـركـات اقتراحي، فستكون سنة عمل فاشلة... مالاً مرمياً. هذا مثير للشفقة.

- أنت جديرٌ بالإعجاب... فالمال ليس مالك.

- المالُ مالكَ... والمقصود، على كل حال، هو المستقبل. لقد قُمنا بما هو ضروري لشركة السيارات. ووُضعتْ المضخّاتُ، واشتُريَ البنزين. لكن اذا لم تقبل الشركاتُ الأخرى بالمبدأ... يجب أن نحصل منها على أن تُلزم السائقين، مرة أخرى، أن يشتروا البنزين في مرأبهم، كما نفعل نحن... ودون هذا فلا سبيل الى حسن سير الأمور عندنا... ولاحظْ، وليتنا فكّرنا في ذلك فقط، ان مـصلحـتـهم جليّة. كل هذا البنزين الذي يحـتـرق في باريس، كلَّ يوم، في سـيـاراتنا... لماذا يُشـتـرى من عند أي أحـدٍ، لامن عندنا؟ هذا ربح يمرّ تحت أنوفهم، وأنوفنا... واذا وافق اتحادُ الشركات قدّمنا له البنزين... أتفهم؟ سنربح من كل الجوانب... الحقيقة أن هذا هو نفس النظام الذي لشركتنا مع «ويسنر»، حول تلف السيّارات... فحين نعود الى شراء سيارات الأجرة من عنده نربح على المشتريات التي نشتريها لأننا مساهمون في السيارات... وإذن فبالنسبة الى البنزين...

- دوّختَني... وماعلاقة «بالميد» بذلك كله؟

- هذا ما أقتل نفسي لأخبرك به. لقد علمتُ من رجلٍ ثقةٍ، من سمسارٍ مخلص لي، أن «بالميد» يشـتـري قـرب أبواب باريس مـراكـز بنزين... شـارع «مالاكوف»، شارع «اوريليان»، في الأسبوع الماضي... أنت ترى ذلك من هنا؟ واذا، فهناك مانخشاه...

لم يعد ادمون يُصغي إليه. كان يحلم. هذا العناء من ادريان. أية موهبة غريبة كانت لدى هذا الشاب. كان صبياً عندما نظم لصانع الشوكولاته «باريل» جمعية الرياضة لعماله. وقد اندفع في مشاريع فريدة لالشيء إلا لميله الى أن

يأمر غيره... ولو أن والد «ارنو» لم يُعرّض نفسه للسرقة وهو يغش الأسعار في بازاره في «سيريان لي فيو»، أثناء الحرب، لورث ادريان مخازن ولاستتبّت أمورُه. لكن بما أنه أفلس بسبب أبيه، وخرج من الحرب ومن الحياة العادية التي خُلق لها، فقد بلغ الثلاثين وهو مايزال جائعاً... ماأعظم الفرقَ بينه وبين ادمون! كان ادمون يحسّ بذلك، وهو الذي أحرز المالَ والقوّة بالطريق الطبيعي لديه، بالنساء، وهو أسرع طريق. حتى إذا تملّك الثروةَ، لم يبق لديه سوى أمنية واحدة، أن تدوم هذه الثروة مادام هو. لا لأن حاجاته كانت لامتناهية الواقع أن آل باربنتان كانوا يعيشون المسافة بين قصر حديقة «مونسو» حيث يعيش «كيسنيل» عيشة الملوك، وهذه القطعة من البناية في «باسي» حيث كانوا يسكنون! وأخيراً، لم يكن لديه خدمٌ بالكسوة الرسمية... ستة خدّام فقط. بالطبع، كان لديهم الملكيّتان... فالجناح قرب «لييس» لم يكن سوى جناح، لكنه مع الأراضي، والصيد... لايُحسب له حُساب... الملكيّات كانت البيت في «بيارتيز» والبيت الذي أمر ببنائه على قطعة من ملكيّته في رأس «الانتيب»، وهو اليوم ملك «كارلوتا» وقد كلّف أكثر مما يساوي... لِيَدُمْ هذا، وكفى... إن كان عليه أن يعمل أيضاً ليزيد ثروته! آه تباً! لم يكن المال سوى وسيلة لكي لايكون عليه أن يفكّر بالمال. وعندما نبلغ درجةً من العلوّ، نجد أنفسنا في هواءٍ أنْقى.. ولافائدة من الغوص مرة أخرى في الأعماق التي يُحْرَز فيها المال، بعمل الآخرين الحقير، أولئك الذين لم يستطيعوا أن يرتفعوا. وفي هذه الأعالي، حصل ادمون أخيراً على حقه في العواطف الإنسانيّة، في تعقّد العواطف الإنسانية، وهي أشد تشوّشاً وغرابة من قضايا المال. كان يضيع ويتخبّط ويثمل فيها. وبأية فظاعةٍ كان يفكّر في الماضي، في ماضيه وهو طالب، عندما كان يتساءل كيف يصل نظيفاً الى بيت الآخرين، حيث تنتظره امرأة، امرأةٌ بلآلئها... ولا فلس معه للتاكسي. وهاهو الآن المالك لجميع السيّارات. وهو، على كل حال، لم

يكن يستقلّ سيارة. فلا وقت لدى صغار الناس ليعرفوا عواطفهم. حتى ولا رغبة لديهم. هم حبيسو حساباتهم الصغيرة، ووساوسهم الشحيحة. أما زال ادريان في هذه المرحلة؟ كان يكسب كسباً حسناً، بل لابد أنه جمع اليسير من المال... لا، ادريان ارنو سيظل دائماً هكذا، حتى لو وصل... ففيه طبعُ أبيه... يود أن يملك دائماً أكثر، دائماً أكثر... سوف يعيد اختراع المال بدلاً من أن يرميه من النافذة... جَشِعٌ غريبُ الجشع... لابأس بشخصه... كان بوسعه أن يعقد زواجاً رائعاً...

- لماذا لاتتزوّج، ادريان؟

بدا الآخر في ذروة غيظه لكنه كبح جماحَ نفسه.

- اصغِ، ادمون، اصغِ... أنا أكلّمك عن «بالميد» وأنتَ...

ضحك ادمون برفق:

- إذن، ماذا عن «بالميد»؟

- سأشرح لك، للمرة الثالثة...

وبدأ بالتفاصيل. قال ادمون في نفسه، الحقيقة أن أشخاصاً مثله هم الذين يقومون بالأعمال الكبيرة. وكنتُ محقّاً حين ألحقتُه بي. المهم ألا يشتغل لنفسه فقط، بل لي أيضاً.. الخيرات تتبدّد بين أيدي البعض، وتتكوّن بين أيدي آخرين... أنا من الذين يحوّلون كلّ شيء الى سحبٍ. كان ادمون يحبّ أن يفكّر هذا التفكير. كان يجد فيه تبريراً لنفسه. إن وقاحة سنوات شبابه قد لانت في الثروة. كان بودّه أن يهتمّ بقصة مراكز البنزين هذه. لكن ذهنه كان في شيء آخر. كان يتذكّر العجوز «كيسنيل» عندما عرفه. كم بدا له غريباً، فمع أنه كان مشغولاً بثنائية أعماله وحياته الخاصة، إلا أنه كان يبدو أحياناً مستغرقاً في عالم ثالث. عالم الغنى الحقيقي. الغنى الروحي الخالص. وكان ادمون يتذكّر دائماً برعبٍ هذه الحكاية التي هي في مكانٍ ما من كتاب «شارل لويس فيليب»

فيما أعتقد: حكاية صبي من عائلة فقيرة أُخذ الي السوق وكان يتحرق لركوب الحصان الخشبي، وكان الفلسان اللذان أعطاهما إياه أبوه لهذا الغرض في يده، لكنه كان فقيراً في داخله بحيث لم يستطع أن يفعل ذلك... حكاية فظيعة. وكذلك الغنى: يمكننا أن نملك ماشئنا من المال، المهم أن نكون أغنياء في الداخل. وكان ادمون غنيّاً في الداخل. ويمكنه أن يترك نفسه على سجيتها، وأن يخلق لنفسه من جديد مصائب أخرى. لقد تغلّب على اللعنة الالهية: «ستأكل خبزك بعرق جبينك»، ومَنْ لم يستشعر هذه الكبرياء، الانتصار على الإله، حتى إن لم يؤمن با لله، فليس برجل كامل الرجولة.

- موافق، ادريان، اكتبْ لي مذكّرةٍ قصيرة حول هذه القضيبة، وأعطها سيمونو... وسأخبرك مايلزم اتحاد الشركات... ولاتدع «بالمهد» يحول بيك وبين النوم!.



بعد انصراف ادريان، حاول ادمون ان يتصفح البريدَ. كان كلُّ شيء يختلط بعضه ببعض. فقد تناول ثلاث مرات رسالة التأمينات الاجتماعية التي كانت الشركةُ العقارية تناقش معها قضية أرض في وسط باريس. كانت حياته الخاصة تتراقص أمام عينيه. ولعل مرور رفيق طفولته بمكتبه، وكذلك الأفكار التي راودته أثناء الغداء، لعل ذلك كله كان يدفعه الى ضربٍ من الحنين لايتّفق مع الأعمال. ومن المحتمل أن بلوغه كلَّ ماكان يتوق إليه، كلَّ ماعرف أن نفسه يمكن أن تتوق إليه كان شيئاً مخيّباً للأمل، شيئاً غير طبيعي بالنسبة الى شاب ممتلك لجسده وقوته أحسن امتلاك. كان يتذكّر ذلك الشعار فيه، قديماً، أمام غنى الآخرين، والترفِ، والنساءِ والحليّ. أخذ يأسف على ذلك السُعار. إذ ذاك كان عنفُ عواطفه يُدهشه أحياناً. كان هذا العنفُ يستخفّه على نحو مفاجىءٍ جداً. أخذ يتذكّر. تذكّر تلك المرأة في غرفته وهو طالب، ذات مساء، في الفندق، التي تهوّرت وجاءت بلآلئها معها، ومن الدافع الذي أحسّ به، منَ المرارة التي صعدتْ إليه، من رغبته في خنق تلك المرأة. إلام يعود أننا نسقط في الجريمة؟

دقّ الجرسَ، فظهر «سيمونو» عند الباب، بعثنونه الأبيض، وأنفه البربوني، ورأسه الأصلع، وبطن أمين السر

- قلْ لي، سيمونو، ماهذه القصة؟ ما الموضوع؟

حاول باربنتان، لحظة، أن يتابع تفسيرات سيمونو. لكن الأشياء اتخذت صفةً أعمّ. فالعراقيل التي كانت توضع لهم بصدد الترخيص بالبناء، وحقوق الارتفاق التي احتجّت بها «المدينة»، ومرافعة كاملة عن سوابق تخفي رشوات، ومعركة الجماعات، والمنافسة، كل ذلك ارتسم في حلم يقظة «ادمون» مثل الخيوط الخفيّة للكذب الذي هو في أعماق كل يقين. تظنّ نفسك أنك الغالب والمالك، والجميع من حولك مقتنعون أنك صاحب الأمر والنهي، ثم اذا بك تحسّ بعمق أنْ لاغلبة ولاملك. إن العدوّ، الخصم، الذي ليس فقط تلك الشخصية

المحدّدة، تلك الجمعية التي تملك مقراً في شارع، بل هو قوةٌ فلسفية، يلجأ الى قلب هزيمته نفسه. إنه يُعيد تكوين نفسه فيما نظنّ أننا نُسيطر عليه، نملكه... ياللوهم! إن الخيرات تذوب بين أيدي من يحوزونها. ذلك سرّ الذهب، والأراضي، والنساء. فعندما نظن أننا نملك كلّ ذلك تماماً، عندئذ يُفلت كلُّ ذلك منا...

ـ حسناً، سيمونو، هيّء الجواب كما كنتَ تقول... يبدو لي جوابك بارعاً جداً وصحيحاً جداً... الحقيقة أنك كان يجب أن تكون رجل أعمال... أذن لكنت غنياً اليوم... وسأوقّع...

دفع الرسائل. وظل سيمونو منحنياً قليلاً، متغاضياً عن الثناء، منتظراً الأوامر. وساد صمتٌ. كان ادمون يفكّر ببلانشيت في شيء من الغيظ. فمع مرور السنين أخذ يحسّ بنمو العدوّ فيها. مَنْ ذا الذي لايضحك من هذه الفكرة؟ هذه المرأة العاشقة بوضوح لزوجها، والتي تغلّبت على كل شيء لتكون له وله وحده... بلا شك. لكن العدوَّ كان يكبر فيها. كان هناك الأولاد، وكانت هناك الحياة، بل والفضيلة. يمكننا أن نخطىء في هذه النقطة. خاصيّةُ الأزواج أنهم لايرون شيئاً... أنا لست في ذلك زوجاً إلا في الأقلّ. سيمونو...

ـ سيّدي؟

ـ أتقبلُ أن تؤدي لي هذه الخدمة؟ اسألْ لي في الهاتف... نعم، أرجوك... لاتقل إني أنا... اسألْ إن كانت السيدة باربنتان في بيتها...

ـ لكن، إن سُئلتُ، ياسيدي...

ـ أجبْ أنني خرجتُ منذ نصف ساعة وأنك تبحث عني...

لم يحاول سيمونو أن يفهم. فذلك لايعنيه. ثم إن السيدة باربنتان لم تكن في بيتها. لقد خرجت على الفور بعد السيّد... فصرف سيمونو.

عـلام يدلّ ذلك؟ لم يكن يحـاول، على كل حـال، أن يُدلِّل على كل شيء. وفكّر في نساءٍ أُخرٍ، في جميع النساء الأخريات. إن ساعات بعد الظهر ثقيلةٌ. لو كان الفصلُ ربيعاً لتنزّه في الشوارع. وتصوّر بغموضٍ بيوتاً عرفها، وجوّ الممرات الدافىء، والنساء اللواتي كنّ فيها.

وترك فكره يعـوم قليـلاً، يتـردد من «تيـرن» الى «مـونمارتر»، ومن حيّ اللوريت الى الباليه رويال». والى جانب «المادلين» كان يعلم أنه مايزال محبوباً لذاته. والبرهان على ذلك أعظم يقيناً هنا منه في أي مكانٍ آخر، وصاغ القضية لنفسه. «وأكثر أناقة»، حتى عندما لايدخل الحبُّ في اللعبة فهو يولد وكأنما هي مفاجـأة.. إن التكريم الرحيـد المؤكّد الذي يمكن أن يتلقّاه رجلٌ يأتي من بغيٍّ ترفض المال. ذلك واضح.

عندما بلغ سيارته، بعد تلك المناورة الصعبة ليخرج من شارع «بيليه ويت» الكريه، المزحوم أبداً، حار في أية جهة يسلك. كان الجو بارداً ومكفهرّاً، وأخذت المصابيح تشتعل.

اتّجه الى الاوبيرا من شارع «لافاييت» كما لو كان يجري على منحدر، كان يتبع منحدرات أفكاره التي تعلّقت أثناء مروره بواجهة لوحاتٍ حديثة نقلته الى «بول ديني». ماحاجتها، بيرينيس الحمقاء تلك، الى أن تتسكع مع هذا الفتى؟ هذا يوافقُه، بلا شك. لكن هذه البوهيمية... إنهم يحبّون الفضيحة. وإذا استطاعوا أن يتشوّهوا سمعة امرأة عدّوا ذلك غنيمةً. وطبعاً، إن لوسيان لايعرف شيئاً من ذلك، كان بعيداً جداً، لكن قد تحدث مصادفةٌ من تلك المصادفات... ومع هذا أن يخطر لأمثال «بول ديني» الاعتقاد بأنهم إزاء حبٍّ عظيم... الأغبياء.

لقد قادتْه الزحمةُ على الخصوص كان يتفاداها، وهو حائر في المكان الذي يقصده. ووجد نفسه في شارع «البيل فوي». أوقف سيّارته أمام منزل «ماري دي بيرسيفال» وهو مدهوش من لاشعوره، وتَمْتم بتهكم: «أنا بحاجة الى أن أعرض نفسي على التحليل النفسي»! تأكد من عدم الخطأ، وأن ذلك لم يكن عودةً لعواطفه القديمة. «حسناً، سأقول لها أن تنتبه الى شاعرها. إنها محبة خالصةٌ من قبلي. لقد أسنّت، ماري الطيّبة».



- ٢٠ -

كان في منزل السيدة «دي برسيفال» ناسٌ. سمع ادمون منذ المدخل صوت البيان. كان «بول ديني» يعزف قطعة موسيقيّة «لمانويل فالا» مُنوّعاً فيها، وألحان «في- في». أُضيئتْ المصابيح، لكن شيئاً في الجو كان يقول إن الناس كانوا هنا في وضح النهار، وأنهم لم يقبلوا بالضوء الاصطناعي إلا في وقت متأخر. لقد دخّن الحاضرون كثيراً. وكان على المائدة كؤوس، وضربٌ من الجو الحميمي، أحسَّ معه بارنبتان بشدّة، وعلى الفور، أنه متطفّل. لم يكن أحدٌ ينتظره. نزل عليهم وهم في أحاديث يريدون أن يتابعوها، في قصص بُدىء بها، ثم تُركت الى استطراد، الى قصة أخرى، وسيعودون إليها بسبب عدة ساعات من المشاركة، وإذا بغريب يشوّش عليهم فجأةً كل ذلك...

لم يكن ثمّة كثيرٌ من الناس ثلاثة أشخاص ماعدا عازف البيان، ماري وبيرينيس والرسام زامورا، التفتوا جميعاً الى ادمون عندما دخل، توقّف زامورا في وسط جملة، وتابع «بول ديني» عزفه وهو ينهض ليرى مَنْ الآتي، ونهضت بيرينيس واثبة لتعانق ابن عمها

- آه! ادمون، ادمون، ماأروع هذا اليوم الذي قضيتهُ! تصوّرْ... هذا الصباح مع السيد «ديني» الذي اصطحبني الى منزل «بيكاسو»... أجل، منزل بيكاسو... رأيتُ لوحاته، ومسكنه الغريب... ياله من رجل رائع! ثم عاد بي بول الى الغداء عند السيدة «دي بيرسيفال»..

قالت ماري:

- هلاّ قلتِ «ماري» .

- عند ماري العزيزة (هذا مع إيمائية رائعة من بيرينيس ويدها على كتف ابن عمها، وكانت تدور نصف دورة لتشير الى الأشخاص الذين تتحدث عنهم وكأنها تعرّف بهم)... وعند ماري التي قبلت بي، كان السيد «زامورا» الذي يروي قصصاً، ويرويها بروعة! لم أسمع أحداً قط يروي مثله قصصاً!

قال ادمون وهو يقبّل يدَ ربّة المنزل

ـ حسناً، وأنا أرى أننا راضون بذلك. (وخاطب زامورا) كيف وجدتَ ابنة عمي؟

ـ السيدة موريل وأنا صرنا صديقين، صرنا زوجي أصدقاء بثلاثه...

هذه الملاطفة كانت موجّهةً الى السيدة دي بيرسيفال، ورافقتها لألأةٌ اسبانية شديدة في العينين السوداوين لهذا الرجل المُكرش. كانت حركات يديه من قرنٍ آخر، وكانت له ضحكاتٌ قصيرة تهزأ منه نفسه، وممّا قاله، ومن محدّثه، ضحكات تُلقي الشكَّ على كل شيء.

صاح «بول ديني» من المنضدة الجالس عليها·

ـ بأربعة![1]

قالت ماري

ـ عجباً، أما تزال هنا، أنت؟ ظننتكَ في علاماتك[2]...

ـ والغيرة، ماري، ماذا تفعلين بها؟

هتف زامورا.

ـ أهو يَغار، وممّنْ؟

وأسرّت بيرينيس الى ابن عمها:

ـ أتعلم أن زامورا سيرسم صورتي.

ـ صورتك؟ لابسة بالمفحّم؟ لو كنتُ مكانَكِ لما اطمأننتُ...

احتجّت ماري

ـ ادمون، أنت غبيّ. ربما لم تر رؤوس النساء التي يصوّرها زامورا...

ـ بلى، بلى. لكن البريتونيات[3] فقط، على ماأعتقد.

---

(١) أي زامورا وماري وبيرينيس وهو نفسه.

(٢) علاماتك الموسيقية.

(٣) من مقاطعة بريتانية الفرنسية. المترجم

قال زامورا

ـ لاتعتقد أنك أحسنت التعبير، ياسيدي العزيز، بين الجد والهزل. السيدة موريل لرأسها تركيب فريد. وهي بريتونية عندي الى حدٍّ كاف. ثم إن عهدي البريتوني أخذ يطول... لي معرضٌ في هذه الأيام. آمل أن تحضر افتتاحه...

فُتنتْ «بيرينيس» بأن يرسم لها صورتها. وبالانتباه الذي منحها إياه الرسّامُ. ولم يكن بوسعها أن تعلم أنه أراد أن يرسم صورةً لامرأة كانت في هذا الصباح بالذات عند بيكاسو. ولم تكن تعلم أيضاً أنه لم يكن بارعاً في حديثه الى هذا الحد إلا لكي يُنسيها بيكاسو. ولم ينجحْ ذلك تماماً

ـ اوه! ليتك ترى، ليتك ترى مالديه، بيكاسو!

قال زامورا:

نعم إنه «دوانييه روسو»[1] جميلٌ جداً...

تابعت «بيرينيس» دون أن تُدرك سَهْمَ الغدر هذا.

ـ لوحات في كل زاوية... والزائر يقلّب نظره في مهرّج، وقيثارٍ... كلها رائعة، ولايعلم أيها أروع... وهؤلاء النسوة البدينات... وهناك صورةٌ لم تتمّ، امرأته فيما أعتقد...

أوضح «زامورا»، بالنسبة الى الصورة أنه يجد السيدة موريل مثيرة للاهتمام لأن لها عينين مسروقتين، عينين تخصّان وجهاً آخر، ومن ثمَّ فعندما يرسمها سيكون لديه نموذجان، النموذج الذي يُرى والنموذج الذي لايُرى؛ وأنه سيرسمها بالعينين المفتوحتين وبالعينين المغمضتين في آن واحد لكي يُرى الكائنان اللذان يتصارعان على وجهها، مثل رفيف الأجفان.

همس ادمون بصوت لا هو بالعالي ولا هو بالخافت:

ـ حسناً سيكون ذلك لطيفاً.

كان زامورا يسلّيه لكنه لم يكن يحب تصويره.

---

(١) رسام فرنسي مات سنة ١٩١٠. المترجم

تعب «بول ديني» من عـزف «عطيل» «لفـردي»، ليـبـرهـن أنه الغَيْرةُ متجسّدة، وأيضاً ليتوجه به الى زامورا الذي كان يعرفه معرفة حسنة.

«حدّثهم، ياصديقي العزيز، عن لقائكَ «كوكتو». وتبادلا نظرةً عجلى متواطئةً. كان زامورا على علاقة ممتازة مع كوكتو، لامثل «بول ديني»... لكن لم يكن أحدٌ يُحسن تمزيقه مثله، تقليده... وكانت بيرينيس تضحك من كل قلبها. فالأطفال يحبّون مسرحَ العرائس.

- هل تتناول شيئاً، سيّد ادمون.

سحبته السيدة دي بيرسيفال نحو غرفة الطعام. تظاهر ادمون بأنه يسلّم على الزنجي الخشبي الذي يحرس بابها، وبعد أن صبّت له كأساً من الويسكي، قال وهو يشير الى مجموعة واقيات الصدر التي زُيِّن بها الجدار: كنت أريد أن أسألك دائماً، ياماري العزيزة... كيف تفعلين؟ عندما تتّسخُ قمصانك، فهل تنظفينها بلبِّ الخبز؟

- غبي! إنها تتنظف بكل بساطة، فأنا أُرسلها الى الغسّالة... عندي مجموعتان. غرفة الطعام تغير قمصانها مثلك...

وأخذ ثلجاً.

- اسمعي، ماري... يجب أن تنتبهي... بول ديني وابنة عمي بيرينيس...

- ماذا؟ أنت تفقد رشدك.

- شابان مثلهما... يمضيان النهار معاً...

عند بيكاسو، ياعزيزي... وما أسرع ماجاءني بها.. كانت تتحرّق شوقاً لمعرفة «زامورا» بعد أن حدّثها الصغيرُ عنه...

- هذا مع نسائه البريتونيات... ولماذا البريتونيات... اذا كان اسبانيّاً فوق ذلك!

- ألا تتساءل لماذا رسم «غوغان» نساء من «تاهيتي»؟ وبريتونيات فضلا عن ذلك.

- غوغان، غوغان... لو كنتُ مكانكِ لما اطمأننتُ.

- «بولديني»، ياعزيزي، جدّ مسرور هكذا. وهو ليس عاشقاً لي، لكني أمدحه. ثم هناك المنزل، فهو يأتي للغداء كل يومٍ تقريباً، وأنا آخذه الى المسرح... بشرط ألاّ أعاكسه عندما يقول إن «جان فريدريك سيكر» يملك عبقرية... وليس مزاجُه شيطانياً... مثلك... (تحية مختصرة من ادمون). في الواقع، ما الذي دعاك الى تشريفي بزيارتك؟

- ماري، أردتُ أن أكلّمك... لكن عندك تلك التداعيات في الأفكار!

- أنا أعرفك، ياذا القناع الجميل! أما من شيء جدّي؟

- الحاصل... لاشيء، ثمّ...

- أنتَ غريبٌ، في هذه الأيام... وأنا أقول لك أنني لا أفهم جيداً ما الذي دهاك مع ابنة عمك (إنها فاتنة حقاً)... أنت تبحث لها عن عشّاق ثم تراقبها... ذلك أن مجيئك المباغت... وملاحظاتك على «بول ديني»...

- ما أقول لكِ عنها، إنما أقوله من أجلك، ثم هل كنتُ أعلم ان بيرينيس عندك؟

- تتْ، تتْ... رعايتُك مؤثّرةٌ فيّ، ياعزيزي، لكني لاأصدّقها... ومايضايقني معك، ادمون، هو أني أتساءل أين ينصرف ذهنُك، هذه الأيام... صَهْ، لاتقاطعْني. أنا أعرفك، أنا أعرفك! هناك امرأةٌ خلف الأكمة، تنزلق مثل سمكة منْ بين يديك... ثم إننا نلقاك... وتختفي.. الحاصل ان لك علاقة، أنت شبيهٌ برجلٍ له علاقة... وعندما تكذب، فلأن هناك مايستحقّ الكذب... بينما أنت منذ بعض الوقت؟..

- ماذا، منذ بعض الوقت؟

- أنت تكذب لأسباب غير مفهومة، بلى بلى، كما تتنفّس. وليس ذلك لإنقاذ شرف سيّدة أو إخفاء طريقة استخدامك لوقتك... لانراك حيث لاينبغي أن تكون... تبدو فجأة كأنك متزوّج... أقول لك بصدق، ياعزيزي، إنك تُقلقني...

- اضحكي كما تشائين، ياقارصة اللسان. أنا بالطبع رجل متزوّج.

- ولا يخدع امرأته؟

ـ ولا يخدع امرأته.

ـ أعليّ جئتَ تقصّ ذلك؟ منذ متى أنت أمينٌ لها؟ منذ ثمانية أيام... خمسة عشر يوماً... أكثر؟ غير ممكن! لكن ماذا دهاك؟ أأنت عاشقٌ لامرأتك؟ ياللأناقة!

ـ لا، ماري، لستُ عاشقاً لامرأتي... أنا أغار عليها... وذلك أسوأ كثيراً...

الصاعقةُ ماكانت لتترك أثراً أشدّ بين واقيات الصدر في غرفة الطعام. نظرت السيدة دي بيرسيفال الى باربنتان بذهول:

ـ اصغ، ياصديقي، أنتَ مختلّ العقل! تغار على بلانشيت! هذه القدّيسة! هذه القديسة التي تموت بهدوءٍ حباً بكَ؟ أنت فاقدٌ صوابك. اسكتْ. أعرفُ ماأقول. لستُ أضمنك ولا أضمن نفسي. أما بلانشيت! احذرْ!

ـ نعم، وأنا أيضاً أقول في نفسي إن هذا غير معقول. لكن الأمر كذلك، أحسّ بها ثُقلت مني. لاأدري ماالذي يجري فيها. تفهمين. فكأنني أُهاجَم في قلب هدوئي. إن حياتنا قائمة على أشياء لايمكن أن تُوضع موضعَ التساؤل. فعلاقاتي مع بلانشيت...

نظرت إليه ماري بانذهال، ووضعت يدها على جبينه كأنها تريد أن ترى، عن هَزْلٍ، إن كان محموماً:

ـ ادمون، إن كنتَ في عقلكَ، فأنت تحاول أن تُخفي عني شيئاً من هذه القصة المخترعة... طيّب، مادَخْل السيدة موريل في هذه القصة؟ أنت توظّف نفسك لمصلحة السيد «ليرتيلوا»... أصبحت شديد التعقيد بالنسبة إليّ.

ـ بصدد السيد «ليرتيلوا»، أنت تلعبين معي لعبة مزدوجة، ياماري... أطلب إليك أن تساعديني، فماذا تفعلين؟ ترتمين على رأس «اورليان»... لستُ سيّء النظر، أنا أيضاً...

ـ واذا كان يُعجبني صاحبكَ اوريليان؟ اطمئن، على كل حال. انتهت الأمورُ من جانبه...

ـ ماذا تَجدْنَ، جميعكن، في نهاية الأمر، في هذا الشاب؟

قال ذلك بكثير من الفظاظة، وبكثير من الهياج بحيث اتّضحت الأمورُ فجأةً للسيدة «دي بيرسيفال» فقالت:

ـ آه! فهمتُ. إنما تغار من اوريليان.

هزّ كتفيه.

ـ ما الذي دفعكِ الى قول مثل هذه الحماقة؟ تعرفين جيداً مابِنا نحن الرجال، نحن لانستطيع أن نفهم ما الذي يصنع نجاحَ الآخر...

بدا «بول ديني» عند عتبة الباب مقطّب الحاجبين.

ـ مالكما كليكما، لقد أصبحت أحاديثكما الخافتة شائنة! أتنسى أن لك ابنةَ عمٍ، ياسيد «باربنتان»... وهي تود لو توصلها الى مسْكنها...



أخذ الثلجُ الذائب يتساقط على الرصيف الدهني والوسخ. أوقف «اوريليان» سيارته في أعلى شارع «اوبركامف»، في الجادات الخارجيّة تقريباً. هذا الجزء من باريس بتجارته الصغيرة التالفة، بتفاهة المعروضات، ببيوته المبقّعة التي شوّهتها إعلانات بالغة القدم حتى إنها لم تعد تُرى، هذا الجزء انقباضُ صدرٍ للذين ألفوا الأحياء الغربية، قلبَ العاصمة الأنيق. ليس فيه رومانسية «الماريه»، ولاذكريات حيّ «سانت اونوري» التاريخيّة، ولاغنائيّة ساحة «الفكتوار». ليس فيه مايُنقذ حلمَ اليقظة. لاشيء هنا صرحٌ لشيءٍ ما ومع ذلك، فلابد أن أحداثاً جرتْ هنا، في انتفاضاتِ المدينة والتاريخ. لكن بما أن الناس لايتذكّرون إلا مايقع للأسر الكبيرة، فإن هذه الشوارع الشعبية لم تحتفظ بشيء للاسطورة. أو إن كانت تَحمل سراً، فهو سرٌّ دفين، ضائعٌ جداً. والخلاصة أن هذا الجزء إنما يَدفع قلوب أناسٍ آخرين الى الخفقان.

كان المسبح البلدي ينفتح في صدر ممر ضيّق أسود ماتزال تغفو فيه صناديق القمامة. وكان في باريس إذ ذاك القليلُ من المسابح. ولم تكن «التوريل» قد افتُتحت بعدُ. وفيما عدا شارع «شازيل» و«الكلاريدج» لم يكن هناك سوى بعض المسابح في الأحياء الآهلة بالسكان. وكان اوريليان يفضّلها، وإن كانت فسحتها ضيّقة، على أحواض الناس الأنيقين التي كانت دائماً مشبوهةً في نظره من حيث النظافة. كان هناك لائحة: «اغتسلْ بالرشاشة قبل دخول الماء» وهي تنص على قانون لافكاك منه، قانون لايمكن أن يُفرض على ذلك الجمهور الذي يُفتَرض أنه يملك حمامات. وكانت الشرفةُ الضيّقة التي تحيط بها حجرات خشبية مدهونة بلون الصدأ تعج بالناس الذين إن جاؤوا الى هنا فإنما يفعلون ذلك حباً بالسباحة والاستحمام، لا من أجل قضايا تُتابَع في المشرب، بالمئزر، مع نساءٍ متبرّجات، ورجال مشبوهين، وعقود من اللؤلؤ ولباس سباحة أمريكي. الجمهور هنا، باستثناء رجلين ضخمين استأجرا من الصندوق لباس سباحة مقلّمين، كان يستحم بالسروال الداخلي الأبيض القصير أو بمجرّد ساترٍ للعورة يُعطى عند الدخول.

كان ممراً مائياً أخضر، جيّد النظافة، حسن الإضاءة، يشكل في جانب منه زاويةً مع فرع جانبيّ للمسبح الصغير الذي يذهب إليه الصغار والناس الذين لايعرفون السباحة. وكان الماءُ مدفّأ قليلاً مما يُحدث بخاراً في الجو. وكان معلّم السباحة الحليق الشعر، وهو شخص أصهب، عريض المنكبين، ذو عضلات طويلة بارزة، وشعر على الصدر، ووجه مفلطح، يجرّ صندله الخشبي، ويراقب الغطّاسين، الذين يملؤون الفضاء برشاش الماء. كان ثمة حوالي عشرة سبّاحين، ماعدا الذين يستريحون أمام الحجرات، بعضهم وقوف وبعضهم جلوس وركبُهم بين أيديهم. كانت شبيبة الحيّ خارجةً من المشاغل والمعامل، فتيانٌ أشداء، صخّابون، مزّاحون، قصارٌ وضخامٌ وطوال، شعورهم مبتلّة تنسدل على عيونهم، وآخرون قد وضعوا مطّاطاً يثبتون تلك الشعور بها. والغطّاسون بالقلنسوة البيضاء، سمرٌ وشقرٌ، قد جعلهم الماء متشابهين بعضهم وبعض، ولا يبدأ تنوّعُهم بالظهور إلا اذا صعدوا السلّم الحديدي. وجوه العافية، وجوه عامية على نحو سارٍّ، لم تطبعه الحياةُ بطابعها بعد. أسنانهم مع ذلك فاسدةٌ على الأغلب، وفي الأذرع ندوبٌ، وفي الأيدي، أصابع ناقصة أو فاقدة إحدى سُلاميّاتها. كانت التفاصيل تلامس الشقاء أما النظرة الخاطفة الى المجموع فلا تُري سوى القوّة والخفّة.

كان اوريليان، في الحجرة الضيقة، بذراعيه الكبيرتين، وساقيه الطويلتين يخلع ثيابه بخُرْقٍ كعادته دائماً، لايعرف أين يعلّقها، وقد تضايق من فكرة المحفظة بسبب التنبيه: المحلّ غيرُ مسؤول إلا عن الأغراض المودعة في الصندق... وكأن عليه إثارة ملاحظة الناس بما يَحْمل... ثم إن هؤلاء الناس شرفاء... دائماً أكثر منْ... الغباء أن يكون في ربطة العنق لؤلؤة عندما يأتي الى هنا. غرزها «اوريليان» في قفا سترته، وحشا جوربه في حذائه، كل جورب في فردته من الحذاء، لكي تكون جميعها بين يديه حين يرتدي ثيابه، دون أن يبحث عنها في كل مكان. وأحسّ اوريليان، في السروال القصير المنزلق الذي يتجعّد

عند البطن، أنه أكثر عرياً منه في عُريه. وعندما دفع الباب وسحب من حجرته جسده المعروق الذي كانت العضلات تشكّل فيه حبالاً، ونظر بعينٍ مستنكرة الى شعر ساقيه، وفحص بنظرةٍ قدميه اللتين أثّر فيهما الحذاء قليلاً، وشاهد في الجهة الأخرى من المسبح، إزاءه، أن الزبن، على العموم لايستحيون بمقدار استحيائه، فيتعرّون والباب مفتوح، ويثرثرون وهم بالقميص، ويجفّفون أقدامهم وأردافهم في الهواء... وأحسّ بالخجل من الأخلاق المنافقة التي حملها معه من دنيا أخرى، ومن نقص العفوية فيه. وقارن نفسه بالآخرين، في شيء من الحياء. ،فيما عدا رجلين بدينين وأصلعين، كانا من أكبر الآخرين سناً. لم تكن هذه أول مرة يرتاد فيها هذا المكان. فقد جاءه أول من أمس أيضاً، لكنه كان يجد فيه دائماً هذه الغربةَ الخفيّة، هذه الغفليّة الاجتماعية التي كانت تسرّه، والتي كانت تؤجّج فيه بعضَ المشاعر الغافية، المرتبطة بالحرب. لقد أحسّ، إذ ذاك أيضاً، في بعض الأحيان، بهذا السرور، بهذا الانشراح الذي استشعره في هذه الساعة: أن يدخل حيث لاحقَّ له في الدخول، ألاّ يتميّز عن هؤلاء الناس البعيدين، عادة، الغامضين ، الممنوعين، دون أن يفطن أحدٌ الى ذلك... العريُ يُعيد معجزة وحدة الشكل. وكان يحس مانتصوّره عكس ذلك عما يستشعره ابنُ الشعب في مجتمع مختارٍ، أنيق، غنيّ، باهر... والعجيب أنه فكّر في ذلك وهو في «فردان»! كان الأمر يتعلق بوحدة الشكل: هناك كانت الأرض وهنا الماء.

الماء. مرّ تحت رشّاش الماء. قدماه على شبكة الحديد حيث تعوم قطعة من صابون. لايعرف المرء كيف ينظّم هذه الأشياء من أول مرة، فإما أن يحرقه الماء وإما أن يجمّده. كان معلم السباحة يسترق النظرَ إليه بطرف عينه. فرك اوريليان نفسه بدقة. الماء... كان يُصغي الى أغنية الماء تحت الماء المنسكب الذي غدت حرارته متساوية. كان يصغي الى أغنية الماء. لماذا كان لكل مايتّصل بالماء هذا السحر الأخاذ بالنسبة إليه، هذا الشعر؟ الماء...

غطَسَ. كان يحبّ أن يفتح عينيه تحت الماء، فاذا طفا بعد غَطْسته أن يَشكّ[1] في الماء كالدلفين. لايُصدَّق هذا، في قلب باريس. مداعبة الماء وغَمْرهُ له. الماء. دخل في أذنيه. فرماه. معجزة الوحدة هاهنا، في مستنقع الضفادع هذا، ومع صرخات صبيّين يلاحق كل منهما الآخر ويقبض عليه من قدميه ورأسه، كان يحسّ حقاً، بأنه وحيدٌ كلياً، أكثر منه في تلك الشقة عند رأس الجريرة، عندما يفتح نافذته على الأشجار والنهر، ووسواس الغرقى الذين يمرّون في السين.

سَبَح على ظهره طويلاً، تقودُه حركةُ ساقيه وحدها، ليرتدّ حين يبلغ نهاية هذه الحديقة الخضراء من الوحدة. وكان يمنحٍ نفسه، وهو يُغمض عينيه نصفَ إغماضة، ذلك الإحساسَ الوهمي بالرحابة.

في المرّة الماضية جاء الى هذا الماء الفاتر ليهرب فيه من صورة بيرينيس، لكنه عثر عليها في هذا الماء، جذّابةً، لاسبيل الى فقدانها. فاستسلم لها وهو مغلوبٌ على أمره. بيرينيس الممتزجة بمداعبة الماء، بمرونة العَوْم، بهذه الحميميّة الوحيدة مع جسمه العاري، بذلك الكسل المضموم الى الجهد، بأعجوبة حلم اليقظة والحركة. وهو يعود هذه المرة بفكرةٍ هي أن يلقاها، أن يلقى بيرينيس أكثر واقعيةً من تلك التي كانت تتنزّه مع «بول ديني»، بيرينيس التي له معها موعدٌ في هذا المكان. وسرعان ماأحسّ بحضوره، بحضوره الكامل في الحلم. فانقلب سابحاً، كما يفعل المرءُ وهو ينام مع امرأة، وفي هذا التعاشق بين جسد الرجل والصورة، تبعتْه، كما تفعل المرأة غير الواعية وهي تلتف مع انحناءة النائم. إن تخيّلَ بيرينيس، لاوجهها وحده، وجهها بعينيه المغمضتين اللتين يحبّهما حبّاً جمّا، وجهها الذي هو أكثر واقعية من الوجه الآخر، بيرينيس كاملةً، يُثمله في قوته، ويُحبّب إليه استهلاك طاقته العضلية، فسبح بعنف ورأسُه في الماء، دون تحفّظ، وتحاشى بجهدٍ رفاقه في السباحة. وأي ضَيْرٍ في أن يتخيّل

(١) شك بمعنى انقض ولم ترد في المعجم بهذا المعنى.

شابٌّ يفكّر في شابّةٍ تلك الشابة كاملةً وعاريةً كما أنه هو نفسه عارٍ؟ لاضيرَ، دون شك. ومع ذلك فإن اوريليان كان يلذعُه ذلك التخيّل، وسرعةُ السباحة وحدها كانت تتيح له ألا يلوم نفسه على ذلك.

ولكي يزيد سرعته، حاول أن يسبح على بطنه، كما أَروْهُ في سالونيك...

ثم فترت همّته، في تعبٍ سعيد، واسترخى، وتشبّث، وهو مثل حُطامٍ عائم، بمطلع السلم الحديدي. وقد نفذ الماءُ الى عينيه والى أنفه. فتنفّض.

قال صوتٌ من فوقه «ماهذه السباحة، ياصاحبي؟»

كان شخصاً في الثالثة والعشرين أو الأربعة والعشرين، واقفاً على السلّم، ويداه على خاصرتيه، جسوراً، ليس بالطويل لكنه متين القوى. ساقاه كثيرتا الشعر وصدرُه أمرد، وذراعاه وكتفاه كأنما هي لرجل رأسه زائدٌ عن اللزوم. يداه مِخْبطان. ووجهُه قريبٌ من القلب، ضحوك، يعلوه شعرٌ أشقر مدهونٌ بملمّع الشعر، وأنفٌ قصيرٌ أفطس، وفم منحرف قليلاً، وفك كفك البهلوان مع عضلات بارزة ومخطّطة في الوجنتين. وفي اليد اليسرى، وشم أزرق ووردي امّحى كثيراً، وردة الرياح...

استأنف كلامه:

- رأيتك تسبح... هذا شيء غير عادي. كم أسرعت في حركة قدميك؟ لم أفهم جيداً...

نفخَ «اوريليان» قليلاً، وأوضح:

- هذه سباحة يونانية... تعلّمتها في سالونيك أثناء الحرب...

- آه... كنتَ في جيش الشرق؟ أنا من قرعة ١٨... وصلنا على نسقٍ... ثم السلام عليكم... انتهت المشاكل بعد ثلاثة أيام... وانسحبنا! أتريد أن تريني هذه السباحة؟

- بكل سرور.

قام بعَرْضه. ولم يكن يعلم كثيراً هو نفسُه ماالذي يخترعه بقدميه. وحاول تحليل الحركة الى أجزاء. وفجأة أحسّ أن الآخر كان على جوانبه، وأنه انضمّ إليــه في الماء «هكذا..؟... لا؟... تمرّر الذراع فــوق الرأس؟ ثم مــاذا؟... آه! فهمتُ... لنسرعْ... وهاهما يرتبطان، ويسبحان معاً. قال اوريليان انتبهْ، لنَفَسكِ ـ ماله نَفَسي؟ ـ تضع نَفَسك في غير موضعه... ـ لاينشغلْ بالك على «ريكيه»!... نَفَسي... احكمْ علي بعد مئة متر... وتسابقا. «ريكيه»... اسمه هنري... ـوأنتَ... أجاب اوريليان الذي يعلم ان اسمه يثير تساؤلات... «روجيه»... و«روجيه» اسمه الثاني في الأحوال المدنيّة، ولابأس به...

وإذن فإن «ريكيه» متدرِّبٌ، بالتأكيد، أكثر من روجيه.. لكن لم يكن له مدرّب حقيقي. ليس له أسلوبه. خسارة. يمكنه أن يصبح سبّاحاً حقيقياً. قال اوريليان: لستُ كذلك... لقد أهملت السباحةَ كثيراً. وأنا لاأسبح إلا قليلاً...

قال الآخر مازحاً دون خُبث: ثم إنك بدأت تكبُر.

ريكيه خرّاط ومركِّب في معمل قرب «بوت شومون»

ـ وأنتَ؟ أنتَ في الحي؟

أجاب «روجيه» جواباً مراوغاً. وهو لايستطيع أن يقول إنه لايفعل شيئاً، وأن سيارته بالباب، وإلاّ نزلتْ اللعنةُ به. أقرَّ فقط «لا، وأنا أسكن قرب «الاوتيل دي فيل»...

ومع ذلك فإن «ريكيه» لايحسن وضعَ نَفَسه في موضعه.

ـ اسمعْ، عليك أن تفعل كما أقول لك... هيّا، انظرْ... ـ عجباً! لم ننتظرك لتعلّمنا السباحة...

وتوضيحاً لذلك بالمثل، قفز خارج الماء مثل عجل البحر: القفزة الخطيرة على القفا:

ـ أتستطيع أن تفعل ذلك، بنَفَسك، روجيه؟

قامت بينهما تلك الرفقةُ التي يُنشئها الجهدُ المُتقاسَم، التباري. جلسا لحظة على حافة الشرفة، وأرجلهما متدلّية. أخذ «ريكيه» يروي حياته. فهو من «الهافر». بدأ عمله في الثانية عشرة، في المرفأ. وهكذا بدأ يسبح. إنه يعبد هذا.

في باريس، الأمر ليس مريحاً. ومع هذا، فنحن نخرج منهكين من المعمل. ومع ذلك... فقد شارك في مباريات... اوه! لستُ بطلاً، الأبطال يلزمهم من يدفعُهم... لكن لاحاجة للناس جميعاً أن يكونوا أبطالاً، أليس صحيحاً؟ في مباريات الكؤوس، ثمة الكثير من الأبطال الذين يشكلون جمهور... المتبارين. لابد من ذلك، أليس صحيحاً؟ هذا هو ذوقي... أعرف جيداً أني سأصل آخراً، مع معظم المتبارين... لكن، لاأهمية لذلك، ونحن نتدبّر أمرنا... ثم لو لم نكن هنا... فستفتر همّةُ الأبطال، أليس صحيحاً؟

عندما يمزح يقطّب أنفه، هذا الأنف المفرط القصر، وتغدو الوجنتان صلبتين مثل كرتين... وقال:

- في الربيع، عندنا «السين»... «بور آلانغليه»... ألم تذهب قط الى «بور آلانغليه»... وهو يقع قبل باريس، ويقال عنه إنه أنظف... تأخذ القطار...

وفي النهاية حمل «ريكيه» رفيقه، وقد شغُل بالُه، على سباحة مئة متر... «المسبح طوله اثنا عشر متراً».. إذن سبع مرات... ثماني مرات... هذه تساوي ستة وتسعين متراً، دون غلط... أي كالمئة... أربع مرات ذهاباً وجيئةً. فهمتَ؟

غُلبَ اوريليان بالرغم من أسلوبه. سعد «ريكه» بذلك «ليس هذا كل شيء... امرأتي تنتظرني...» هذا الصبي له امرأة. «لسنا متزوجين... أتفهم... لكنها امرأتي... هيا، ارتد ثيابك، سأقدم لك كأساً في الحانة المقابلة... «لاشوب دي كلير دي لون»...

عقد اوريليان ربطة عنقه، في حجرته. وهو يعلم جيداً أن كل شيء مظهرٌ خادع. حياته. المسبح. «ريكيه». الحربُ. الحانة... ذلك الاسم الغريب... كل ذلك

عللٌ يَتعلّل بها، عوائق يخترعها لنفسه.. كلما ازداد انصرافاً عن بيرينيس ازداد رجوعاً إليها، حيّة، مظفّرةً...

عندما رأى «ريكيه» صديقه الجديد في ثيابه، وهو في بنطاله العتيق المخطط، التالف وسترته الزرقاء وقبعته، أطلق صفيراً ينمّ على الخيبة «أنا الذي كنتُ أعرضُ عليك... كنت أعرض عليك كأساً!» ذهل من غلطته. سيخاطبه الآن بضمير الجميع، ولن يرجع عن ذلك. ثمّة شيءٌ تحطّم. ثم بما أنه لم يعرف كيف يتخلّص من هذا المأزق، فقد جرّ نفسه الى تلك الحانة التي تسمّى بدقة مشرب جعة «الشوب دي كلير دي لون». وكان ضرباً من مقهى يكاد يكون مقفراً، كان عالياً فبدا فارغاً. في المشرب كركرة الماء.

كان «ريكيه» يختلس النظر الى ثياب رفيقه «أنتَ إذن رأسمالي؟... قيلت هذه الجملةُ هكذا فبدت أقلّ خطورةً. نعم. أليس كذلك؟ بلى كذلك؟... «وفيم تشتغل؟» هذا مايصعب شرحُه. لو قال له إنه لايفعل شيئاً... إنه يشمئزّ من الكذب «أنا أعيش من دخلي...» سيكون لذلك أثرٌ غير متوقّع إطلاقاً. أثرٌ من الإضحاك العصبي الذي لايتوقف. ستسيل دموعُه من الضحك، «ريكيه». صاحبُ دخلٍ! السيدُ صاحب دخلٍ، ثم يتذكّر أن صاحب الدخل هذا سيدفع هو ثمن كأسه، فيعتذر، ويغدو التهذيبَ بعينه. فيشرب كأسه شربَ من يقدّره تكريماً له.. ويعود الى الكلام على السباحة. على تلك السباحة التركية... لااليونانية التي أراني إياها السيّد... آه! «ريكيه»، إن دعوتني سيّداً لأني متأنق... لم تعد تخاطبني بضمير المفرد...»

متأنق هي الكلمة الصالحة بوضوح لتكون في متناوله، «ريكيه». ويحسّ ريكيه بذلك. ويقول إنه لايدعو «روجيه» سيّداً لأنه حسن الثياب ويشدّد على «حسن الثياب»... ويقع اسم «روجيه» وكأنه إمعان في اللطف... بينما يحمرّ «اوريليان» من ذلك قليلاً... لكنه إن قال لروجيه «ياسيد» فلأنه سيّد، هذا كلّ

مافي الأمر. لاحيلة لنا في ذلك. فإما أن يكون المرءُ سيّداً أو لايكون... بيد أنه عاد الى اهتمامه فخاطبه بضمير المفرد قائلاً إذن اشرحْ قليلاً... أنت لاتفعل شيئاً، لاتفعل شيئاً طوال النهار؟... حقّاً؟ وفيم تقضي وقتكَ إذن؟ أنا لن أستطيع ذلك. كنتُ عاطلاً عن العمل... لابدّ من الصحة ليظل المرءُ عاطلاً عن العمل طوال الحياة...»

عندما استقلّ اوريليان سيّارته بعد مصافحة «ريكيه»، أحسّ بضيق شديد، بالرغم من لذة الاستحمام واللذة التي تتلو الاستحمام والسباحة. انصرف في الليل ولم يلاحظ أنه لم يعد يفكّر في بيرينيس. فيم كان يفكر، في الحقيقة؟ في حرجة من الذكريات والهواجس. لم يكن يفكّر في شيء على نحو دقيق، لكن كل شيء، يخترقُه مايُشبه الضياء الجارح، مايشبه الندم. وبينما هو ينحدر نحو السين، أخذت الأحلام تتفوّق شيئاً فشيئاً، لتُغرق العالمَ، و«ريكيه»، وقصصَ الطفولة العتيقة، ويسمع صوت بيرينيس يقول: «عندما كنتُ صغيرةً، كنت أسكن داراً فسيحة مليئة بالأشباح...».



ـ ٢٢ ـ

آه! هاأنت ذا! أخيراً! انتظرتُك ساعتين. عدتُ ثلاث مرات. وقد أشفقت عليّ الحارسةُ وأصعدتني.

عندما عاد «اوريليان» الى منزله، وجده مُضاءً وأخته جالسة تقرأ في مجلة «فوغ» كما تفعل لدى طبيب الأسنان. وكانت «ارماندين ديبريه» متهيّئةً لتوبيخ أخيها، وكأنه مايزال صبياً يتأخر عن عشائه.

قال بلهجةٍ جافة، وهو يرمي على السرير قبّعته وقفّازه الأشقر «اعذريني»، وعاد الى الغرفة الأولى ليعانق أخته وهو ساهٍ «لم تخبريني بمجيئك»..

ـ طبعاً. أنا في باريس منذ الصباح، وهاتفك لايجيب. جئتُ ولم تكن هنا، وعدتُ...

ـ قلتِ هذا قبل قليل. وفتحتْ لك الحارسةُ.

ـ في المرة الثانية لا، بل في الثالثة. وتساءلتُ ماذا أمكنك أن تفعل.

ـ كنتُ أسبح...

ـ في هذا البرد؟ أنت تستهزىء بي؟

ـ أقسم لكِ بكل مقدّسٍ أنني لاأقدم على هذا الجنون! كنت أسبحُ فقط.

ـ كنتَ دائماً تمزح مزحاً لايفهمه أحدٌ. أتظن أن هذا يجعلك مثيراً للاهتمام.

ـ جئتِ ثلاث مرات تلاحقينني عمداً لتؤنّبيني؟

ـ ياالهي، اوريليان، ماهذه اللغة! لاأدري إن كنتَ قد جئتَ بهذه الأساليب من جيش الشرق.

دهش بصدقٍ، وفجأة خطر على باله «جيش الشرق»، فقال: وماذا قلتُ؟. وأضاف:

ـ لايستطيع الناس جميعاً أن يكونوا في مكاتب وزارة «البلوكوس»...

كانت تلك غمزةً لزوج أخته القابع في المؤخّرة.. هزّت «ارماندين» كتفيها، كتفيها الفلاماندييں الجميلين. الواقع أنها ضخمت قليلاً، وهي حقاً غير أنيقة الملبس.

«كان لابدّ من ناس في الوزارات، ربما...»

لم يتمّم هذه القصة.. وكان حريّاً به أن يقول. «وكان لابدّ من آخرين لجيش الشرق». لكنه تناول حطباً من الصندوق، وجريدة قديمة، وشيئاً من نثارة الحشب ليوقد ناراً. لاحظت ارماندين ذلك أتوقد ناراً؟ مع أن في المنزل تدفئة مركزية. .» أجاب دون أن يضطرب، وهو يشعل الثقاب. أحب الدفءَ حتى الموت... ولاسيما نار الحطب، فهي مُبهجة...

قالت «أنت لاتعفّ عن شيء».

كان ينبغي أن يردّ عليها أنْ لا، وليس صحيحاً أنه لايعفّ عن شيء. لكن الى أين سيوصله ذلك؟ كان يحتقر أخته احتقاراً شديداً يمنعه من لعب هذه اللعبة. كان أفضل ردٍّ نتنيش دِقاق الحطب في النّار.

زمّت ارماندين شفتيها، شفتين بلا حمرة، وعبّرت بعينيها تعبيراً ينمّ على الإذعان. كان في وجهها المدوّر والممتلىء بطءٌ يمنح أخاها عند المقارنة بينهما مظهراً من الحيويّة المذهلة.

قالت: ماكنتُ أريد أن أخلع ثيابي، لكن بما أنك أشعلت ناراً... فربما بردتُ بعد هذا عند خروجي..

ساعدها على خلع معطفها وهو معطف من الجوخ الأسود، قبّتُه من الفرو، وله ردنان، وضبّة عند الجيبين بالثنية نفسها، وظلت في طقم رمادي في غاية الدقة، مع قميص نسائي كأحسن قميص.

«ثمّ، لابأس... سأرفع قبّعتي!» تناول «اوريليان» هذه الجرسيّة[1] من اللباد الأسود التي كانت كالمِطفأة على ذلك الشعر الأملس الأشقر الكاشف عن القذال، والذي لُفَّ في مؤخر الرأس في كُعُيكة لفاً سيئاً وبسيطاً جداً، وقد أفلتتْ

---

(١) قبعة بشكل جرس المترجم

منها خصلةٌ أو خصلتان، وبينما كان يحمل معطفها وقبّعتها الى غرفته، رفعتْ صوتَها، ولعل تكدّرها من الانتظار المستنفر قد تبدّد.

ـ ومع ذلك فالجوّ لطيفٌ عندك... التهبت النارُ جيداً... يجب أن تضيف حطبةً في الحال... حطبة غير ضخمة...

كان يعرف تقلّبات مزاجها، هذه الهدآت التي تصعب متابعتُها. كان لابدّ له من ردّين أو ثلاثة زيادة عنها لكي تتخلّى عن لهجة الحدّة التي أدخلتْها أول الأمر

ـ لم تقولي لي ماالذي شرّفني بزيارتك؟

ـ كنتُ في باريس... وإذن انتهزت فرصة ذهاب «جاك» الى «بروكسل» لأعماله...

ـ في الواقع، كيف حالُ «جاك»؟

ـ ممتازة. أشكرك. مرهقٌ قليلاً. عطلة نويل ستكون حلوةً... ماذا كنتُ أقول؟ نعم... أودّ أن أرى صانعة قبّعاتي، فلا سبيل الى العثور على قبّعات في «ليل»، أترى... ومع اقتراب عيد الميلاد ورأس السنة بالذات، علي أن أقوم ببعض المشتريات.. والهدايا... للأطفال...

ـ والأطفال بحالة جيدة، فيما أظن؟

ـ «بيير» و«ريمون» شيطانان حقيقيان، لكن «بيبيه» أصيب بزكام خفيف...

ـ ولا شيء خطير؟

ـ أكنتُ سآتي الى هنا؟ درتُ على المخازن، فهلكتُ. صعبة للغاية، الألعابُ. فقد عُملتْ ألعاب جديدة كل الجدّة، لم نرها نحنُ من قبل، ولاأدري إن كان ذلك يفرحهم. وفوق ذلك، فإن جودة الألعاب أخذت تغيب؛ كلّها من الكرتون، وألوانها شنيعة، وكأنها صُنعتْ للكبار... الحاصل أن الشكوك خامرتني فتجولّت في معارض «تروا كارتييه»، في اللوفر، في «بون مارشيه»... في «النان بلو» في شارع «ريفولي»... وينبغي أن أعود غداً الى «تروا كارتييه»...

ـ وسوف تبقين عدة أيام في باريس؟

أوه! لا، سأعود غداً بعد الظهر... لكني سأمرّ صباحاً على المقبرة... وعسى أن أمرّ بالعم «بليز» مروراً عابراً... أخشى ألا يتسنى لي ذلك. كيف حاله؟

ـ حسنة، فيما أظن...

ـ فيما أظن؟ ألم تعد تراه؟

ـ بلى... وتعلمين أنني أحبّه... لكن قد مضى نحو خمسة عشر يوماً... ثلاثة أسابيع...

ـ أوه! ليس حبّ العائلة الذي يقتلك! لمرة واحدة، مع ذلك، إذ ليست العائلة حقاً هي...

قالت ذلك بعدوانيّة حقيقية. فهزّ كتفيه.

نظرت حولها، فتوقّف نظرُها عند لوحة ملتبسة، على الجدار.

ـ عجباً. علّقتَ هذه اللوحة؟ أفضّل العمَّ على تصويره. تبدو بقعة من اللون... هذا شيء سارٌّ عندك، في نهاية المطاف. مع أنه ينقصها، ينقصها شيءٌ ما حيٌّ... أما تزال راضياً عن الفرّاشة، خادمتكَ؟

ـ أنا سعيد بها...

ـ لابأس... لكن الفرّاشة لاتنوب عن الزوجة!

ـ أراهن أنك جئتِ لتُعلميني بإحدى مرشّحاتك...

ـ ماهذه اللغة... اوريليان! ألن تقرّر أبداً؟ لا، ليس في جعبتي مَنْ أرشّحها الآن، على سبيل المصادفة. لكني على ثقةٍ من أنه يكفي أن اقترح عليك فتاةً حتى يكون أنفُها طويلاً، وقدماها ملتويتين، ومظهرها غبياً.

ـ ولماذا تسيئين اختيارهن، أيضاً؟

ـ لا، ياصديقي المسكين، تعوّدتُ هذه الفكرة. أنت نفسك ستختار زوجتَك. وذلك حسنٌ جداً على كل حال. يقول «جاك» دائماً «اوريليان فيه روح المعارضة، أعطه سكّراً فسيضع ملحاً في قهوته!».

ـ كم يعـرفـي «جـاك»! وأين تعلّم، ياترى، دروس علم النفس هذه؟ في مكاتب الوزارة.

ـ دعْ جاك وشأنه! تضايقني دائماً بجاك.

ـ أنت، مثلاً...

ـ كنتُ أتحدّث عن زواجكَ...

ـ أوه! منذ الآن؟

ـ لكنك أكملت الثلاثين..

ـ لم أكد أكملها...

ـ لاتناقشْ. أنت ستختار زوجتكَ بنفسك، لكن يجب ألا تنتظر طويلاً.. إذ يصبح المرء كهلاً عَزْباً، له عاداته المهووس بها والتي لن يستطيع الخلاص منها.

ـ لعل الأوان قد فات...

ـ أنت مضحكٌ، ياعزيزي، أنت مضحكْ. لماذا لاتريد أن تتزوج؟

ـ لستُ رجل امرأة واحدةٍ...

ـ وماذا في ذلك؟ أتظن أن المتزوّجين لايبيحون لأنفسهم نزوةً عابرة، بين الحين ،الحين.

ـ آه! غير ممكن! إذن «جاك»...

ـ دعْ جاك وشأنه. جاك شيءٌ آخر. لكن الزواج ليس واحداً عند الرجل وعند المرأة. وهناك تسوياتٌ والمرأة الذكية تغمض عينيها... وليس لذلك من عواقب..

ـ لعل صانعة القبّعات في ليل سيئة، ياأختي الكبيرة، لكن الأخلاق! تهانيّ. للأسف، لاأحبّ أن أخدع، ماحيلتي، أفضل أن أكون حرّاً...

ـ حرّاً، حرّاً! مامعنى ذلك؟ أعن فضيلةٍ تأبى أن تتزوج.

ـ ربّما...

جلسا قرب النار. وبالرغم من لهجة «اوريليان» الساخرة، ألم يَدْعُها أخته الكبرى، كما كان يدعوها قديماً؟

أمسكت بكلتا يديه:

- أنت تخبّىء عنا شيئاً ما، ياأخيَّ... لاتقلْ لا... أمن الطبيعي أن رجلاً مثلك، تسنّى له أن يلهو وأن يجرّب، يظلُّ وحده هكذا؟ وأنا أراهن أنك ماتزال تأكل في ذلك المطعم الصغير الوسخ...

- في «المارينييه»؟ ليس الطعام سيّئاً على الإطلاق فيه.

- هذا غير البيت... واعترفْ أن من المفارقة أن أكون أنا هنا هي التي تدفعك الى أن تبدّل نمط حياتك...

- تعبيرٌ جميل، كما لو قلتِ...

- يجب ألا نتعلّق بالألفاظ. وعليك أن تقول لي شكراً لأني لاأسعى الى بقائكَ عَزَباً...

ولم ذلك مثلاً؟

- كيف، ومصالحي؟ لديّ أولادٌ... وسيأتي حتماً يوم، نتعوّد فيه، جاك وأنا، على اعتبارك أنك لن تتزوج... حتماً، مع الزمن... وحينئذٍ إن خطر لك أن تتزوّج آنسة، فسوف ننظر الى ذلك نظرة استياء، يافتاي! لم أصل الى هنا بعد، لكن الغلطة ستكون غلطتكَ... لاتدفعْنا الى ذلك... فلديّ أولاد...

ضحك اوريليان برفقٍ.

- ليس في ذلك مايضحك، يافتاي، ليس فيه مايضحك. هكذا تدخل النزاعاتُ الأُسرَ. ونحن آخر اثنين في أسرة «ليرتيلوا». أنت الذي يحمل اسمَ أبينا...

- حول هذا الموضوع...

- لاتقاطعني! لاحظْ، نحن نعلم جيداً، جاك وأنا، أنك تخلّيتَ عن المحاماة، مكتب المعلم «بيرجيت»... ولم نلمك قط على ذلك، ونحن ندعك سيّداً لحياتك... مع أن ذلك يشغل البال في نهاية الأمر، فالمال لايحتفظ دائماً بقيمته... وهناك الأمراض... والحروب... لاعمّا قريب.. لكن مَنْ يعلم؟

- وإذن؟

- وإذن فمن الطبيعي أن نتمنّى أن ينجح نوونا... سلِّمْ لي بذلك... كان يمكنك أن تبني لنفسك مركزاً، أن تزيد ثروتك... حتى لو لم تتزوج... مراعاة لأبناء أختك... لكننا لنسا، كما قلتُ لك، من هذه الأسر المعنيّة مباشرة. ماالذي تريده، منْ غير الطبيعي أن تعيش كما تعيش، إن رجلاً صلباً مثلك، تام الصحة... وحيداً... لايفعل شيئاً سوى أن يتسكع... جميع الناس يعملون... لو كان صهرُكَ مثلكَ! جاك يقول إنه لايفهمك... وأنا أيضاً، ثم، فيم تقضي أيامك؟ يجب حتماً أن تعمل...

إن اوريليان الذي عزم أن يدع أخته تتكلم نظر فجأة إليها بدهشة، وتمتم:

- غريب... أنت تقولين الشيء نفسه الذي قاله «ريكيه».

- «ريكيه»؟

- نعم، صديق...

- أرأيت، أرأيت. الناس يقولون لك ذلك! هم يفكّرون مثلنا. جميع الناس يفكرون مثلنا. السيد «ريكيه» على حق، الصديق الحقيقي يجب أن يقول هذه الأشياء...

طرد اوريليان بيده جميعَ أنواع الذباب الخيالية. كان كلّ شيء يتطلّب كثيراً من الإيضاحات. إلا أنه قال:

- أن أعملَ... لعلكِ على حقٍّ، وكذلك السيد «ريكيه»، كما تقولين، على حق من غير شك... لكن بماذا؟ لو كان عليّ أن أكسب عيشي، لو كنتُ لاأملك شيئاً، على الإطلاق، لنظرتُ الى المشكلة نظرةً مختلفة... ولكان هناك أنواعٌ شتّى من الأعمال التي أفكّر فيها، دون فرحٍ ربّما... لكن كواجبٍ، في النهاية... واجب رجلٍ... وكنت سأُربّى من أجل ذلك... من أجل أعمال جديرةٍ باسمها... كنتُ سأفعل شيئاً، شيئاً لايُقْدم عليه رجلٌ من عالمنا، من ثروتنا، لأنه ليس ممتعاً، إلا بسرور... ومن جهة أخرى، إني أرى من هنا سحنتكما كليكما... لكن ماالذي كان ينفتح أمامي؟ الحقوق، القضاء... لنكن جدّيين، لم يكن ذلك سوى واجهة، مظهر من يفعل شيئاً...

ـ كان يمكنك أن تبني لنفسك مركزاً... وبفضل علاقاتنا... سيكون لديك ماتثبّت به نفسك...

ـ عجباً، بكلمتين، تمت لك الأمور. علاقاتنا، سيكون لديك ما... أنت لاتفهمينني. لنتكلّمْ عن شيء آخر.

ـ إن كان القضاء لايَعْنيك، فقد كان بوسعك أن تلج ميدان الأعمال، مع جاك... في المعمل... أو شيئاً ما بجانب ذلك...

ـ الغريب أنك تسمّين هذا عملاً! إني أفضّل أن أقطع يدي اليمنى...

ـ أنت تُغضبني، في النهاية. لستَ من طينةٍ غير طينة الآخرين. ماهو صالحٌ بالنسبة الى جاك...

ـ لندعْ جاك، أترضيْن... لقد خدمتُ ثماني سنوات في الجيش، كما تعلمين... وعشتُ في عالمٍ ليس لديكما لاأنت ولا جاك أدنى فكرة عنه... الحرب...

ـ دعنا، طيّب، ستتّهم أيضاً زوجي بأنه عمل على البقاء في المؤخّرة! سئمتُ هذا الكلام!

ـ أنا لاأتّهمه. لكن، انظري، ياأرماندين، عندما أفكّر في جميع أولئك الشباب، رفاقي، الذين عانيتُ الأهوال معهم، في الوحل، في القذارة... لا، ماذا تريدين... هناك أشياء ممكنة بالنسبة الى جاك ولا أستطيع عملها... لاأقول هذا للهجوم على جاك. فلعلّي مخطىءٌ...

ـ آه! أترى! إن هذا لايمنعك على كل حال من أن تتزوّج...

وفجاةً غضب. طفح الكيل من إلحاح نقطة الماء. وأراد أن يتخلّص من ذلك. وعجّ رأسُه بالصور وبالأفكار التي أخذت ترتسم في فكره. فيضٌ من الأشياء التي كان يريد أن يقولها، دون أن يستطيع بل ان يريد صياغتَها.

كان ينبغي له أن يفتح الحياةَ مثلما يُفتح صدرُ الدمية. وماذا ستفهم «ارماندين» من ذلك، كل تلك السنوات الأخيرة كانت تتوافد عليه دفعة واحدة، بشخوصها، بجُملها، بذكرى مداعباتها الزائفة، بمتاعبها، ببعض لحظات

السعادة السلبية. وبحث عن الكلمات التي لارجعة عنها والتي تنهي الى الأبد تلك المناقشات التي تُستأنَف دورياً، فرمى بنفسه في الماء. قال

- لن أتزوج لأني عاشقٌ.

قال ذلك وأصغى الى سقوط الحجر في البئر، وهو يمضي مباشرة، بعيداً جداً. وماذا يهمّه الآن من ارماندين ومن كلمتها التي أفلتت منها: «هكذا إذن!»؟ كان وحيداً، وحيداً في الغرفة، وفي العالم، لم يكن يُصغي إلاّ الى تلك الهاوية فيه، لم يكن يُصغي إلا الى نفسه، الى الكلمة التي أفلتت منه، الكلمة المترامية الأرجاء، وفجأة... لقد اختار طريقه بغتةً. وكان ذلك نهائياً. لقد صمّم عليه. الحبّ.سيكون الحبّ طريقه. سيكون الحب. انقلاب كلّي، اضطراب داخلي. الحب. كانت الجدّة القريبة لهذه الكلمة تعتصر قلبه. أدار رأسه ونظر الى النار. النار، اللهب. التفاصيل الطفيفة في الجمرة التي تحيط بجانبها المحروق حاشيةٌ من الرماد الأبيض، أثارت اهتمامه على نحوٍ غير معقول. وبتؤدة بالغة عثر على الاسم، ثم على الوجه... «بيرينيس»..

في أثناء ذلك كانت ارماندين تتكلم بغزارة. وكانت قد استعرضت الوضع، وبحثت الإمكانات. والإمكان الأول أن يتزوّج «اوريليان» من المرأة التي أحبّها. ولكن لما بدا أنه لايتصوّر ذلك، فقد كان جلياً أن تلك المرأة ممّنْ لايصحّ الزواج بهنّ. هل كان اوريليان واثقاً من ذلك الآن؟ كان جاك وارماندين واسعي الفكر، وسوف يتفهّمان كثيراً من الأشياء، ويقبلان بها، ويتغاضيان عن كثير منها، إن كان في ذلك سعادةُ «اوريليان»: «لكنْ فكّر جيّداً، ياصغيري... ألا تقول شيئاً؟ وإذن فالأمرُ أسوأ ممّا تصورتُ! ياللبليّة! مهلاً، مهلاً، يجب أن تفكّر!»

نهضتْ، وأمسكتْ صدغيها بيديها. وكانت تذهب وتجيء. وكان «اوريليان» يحرّك الجمر. وفجأة، تذكرت «ارماندين» شيئاً لاحظته أثناء انتظارها الطويل. شيئاً طلع على الجدار منذ زيارتها الأخيرة. رفعت وجهها ونظرتْ مرةً أخرى الى قناع اا ذه المرأة... لايمكن أن تكون غيرها... «إنها هذه، أليس

كذاك»؟

لم يجبْ. كرّرتْ: «هذه المرأة... هي نفسـهـا»؟ لم يفـهم عمَّ تتكلّم. أدار رأسه، وتابع نظرتها، ورأى القناع، وقال

ـ آه! حلوةٌ دعابتك!

ثم فكّر في قطع كل هذا الحديث باعتراف مضحك:

ـ إنها هي... اذا شئتِ!

تمتمتْ الأختُ بكرهٍ وغيرَة عميقين:

ـ هذا ماخطر ببالي... وإذن فهذه هي؟

وفكّرتْ: «حتى إنها ليست جميلة»

تلاشتْ في اوريليـان دعـابةُ اللحظة الأولى. وتطلّع الى القناع الأبيض ليطلب منه صفحَ بيرينيس، وهو ممتلىء بتلك الأغنية السرّية التي كان يراقبها في أعماقه، لاينتظر سوى سفر هذه الأخت، هذه الغريبة، لكي يستسلم الى جدّة هذه العــواطف، الى هذا الكشف المنتــزع، الى هذا الهــوى الذي لايطيق اصطباراً، ليطلب صفح بيرينيس عن هذا الاعتراف الخاطىء المُجدِّف في مثل هذه اللحظة. نظر الى القناع، وكـأنه يراه لأول مـرة، لأول مـرة على الإطلاق، بقلقٍ، بقلق متزايد. وشكّ فيما يفكّر فيه. هذا الوجه... كانت تتملّكه صورةُ بيرينيس الى حدّ كان يراها معه في كل مكان. كان الأمرُ بسيطاً. هاتان العينان المغمضتان... أجل، الأمر جليٌّ. جاء الالتباس من هنا، من تسلّط وجه بيرينيس المغمض العينين عليه، في ذلك المساء، في حانة «لولي». لكن هناك شيئاً آخر أيضاً: بنية الجبين، الوجنتان...

ألا تريد أن تتعشّى معي؟ تأخّر الوقت...

انتزعه صوتُ «ارماندين» من هذه المماثلة المذهلة، التي لم تُلحظ قط، والتي لعلها غير واقعيّة. كان ينبغي أن يتعشّى معها. كانت وحيدةً، في باريس، ومُتعبةً. ولم يستطع أن يوضّ نفسه على هذا الواجب، وفي قلبه مافيه. فقال «لا، اعذريني... فأنا على موعد...»

لم يشقّ عليها تصديقُه، بعدما علمتْه. فارتدت ملابسها «إذن، سأمضي، فقد تجاوزت الساعةُ الثامنة... سأمرّ على «بولين»... ليتني أتصل بالهاتف؟

كانت بولين هناك. بالتأكيد، بالتأكيد. سيُضاف مدعوٌّ الى المائدة.

قالت «ارماندين» وهي على عتبة الباب وقد مدّت خدّها الشاحب لأخيها

ـ حسنٌ أن تكون لنا صديقتنا!

لم يعلّق على هذه الجملة. وما ان انصرفت، حتى قرّب كرسيّاً من الجدار، وصعد عليها، وفكّ القناع، وأمسكه بكلتا يديه، وجلس قرب النار، في ظلال اللهب المتراقصة، ونظر طويلاً الى هذا الوجه الجصّي بابتسامته المحفوفة بالأسرار من وراء العذوبة... وقال:

«بيرينيس»... ومن جديد أقبل على طريق «قيصريّة».



- ٢٣ -

انتشله من حلم يقظته جرسُ الهاتف. كان باربنسان. طلب من اوريليان أن يصحب هؤلاء النسوة الى كازينو باريس. حجزَ المقصورةَ، ثم كان عليه في آخر دقيقة أن يذهب الى مكان آخر. واذا لم يكن «ليرتيلوا» حرّاً، فإن بيرينيس وبلانشيت لن تذهبا، لأن امرأتين وحدهما...

لكن اوريليان كان حرّاً. بلى، بلى، ويُسعدني ذلك. كم الساعة؟ أنا قادمٌ، ريثما ألبس.

قال ادمون أشكركَ، ياصاحبي... كان سيُزعجني أن أُفسد عليهم سهرتهم... آه! لا تأخذ برغوثك[1].. سأترك لك سيارة «ويسنر» الكبيره والسائق. عجّلْ فلن يلبث العرضُ أن يبدأ.

ردّ اوريليان السمّاعة، في سرعة محمومة، واندفع الى الخزانة، وسحب منها ثيابه. هل حلق ذقنه؟ أجل... لىس لديه الوقت الكافي ليفعل أفضل من ذلك. ولا وقت لديه للعشاء أيضاً. ليكنْ، ليكنْ! وبينما كان يضع غلَّ السهرة، -مزعجةٌ تلك الياقات!- ظل ينظر الى القناع الأبيض المبطوح على الأريكة، على غطائها الأسمر. كان يتكلم همساً مخاطباً ذاته. كان يَستْعجل نفسه، ويهذي قليلاً.

في هذه الأثناء، وقعت مشادَةٌ حادّةٌ بين ادمون وبلانشيب. قالت «كيف، ماذا أسمع؟ أتُسيّئُنا؟

- ليست هذه هي الكلمة المناسبة... سيكون معك فارس...

- اوريليان، أليس كذلك؟ عند الظهر، كنا متّفقينْ. وقد تغدّى «اوريليان» هنا... فلم نقل له شيئاً... لاأسألك الى أين تذهب... لكن في النهايه!

- سألتِني مع ذلك، هذا السؤال، أليس كذلك؟ كنتُ أظنّ أن بيننا اتفاقاً؟ أنا حرٌّ، وأنت حرّة... بالكلام، طبعاً بالفعل...

- لستُ أسألك عن شيء، ولاأرغب في الذهاب الى المسرح دونك.

---

(١) أي سيارتك الصغيرة. **المترجم**

- مهلاً... حتى أشعر أنني جلّاد! ألا تخجلين؟ أتنسين بيرينيس التي لن تبقى في باريس إلا بعض الوقت، والتي ابتهجت بالذهاب الى الكازينو...

- رأسي يوْجعني، ولا أحسّ أسي بحالة حسنة. فلتَذْهبْ دوني!

- دَعكِ، أنت تعلمين علم اليقين أنها لن تذهب... لاأحب كثيراً أن نُصاب بالتوعك على الطلب...

- أنتَ لاترحم...

- لاعلاقة للرحمة بذلك... إن كان ذلك يمكنه أن يُهدّىء صداعك، فعليّ أن أعمل مع «ادريان»... في قضية البنزين، ومراكز التوزيع، وأن نُعدّ ذلك قبل اجتماع اتحاد الشركات...

- لاأصدّقُك...

- لاأطلب إليك أن تصدّقيني... واذا سرّكِ أن تجعلي رأسكِ بالمقلوب ففكّري أنني ذاهب لألقى عشيقتي المولّهة وكفّي عن الكلام على ذلك... لكن فيما يتّصل ببرينيس، أنت تحرمينها من لذّة...

- اوه! بيرينيس، دائماً بيرينيس...

- ليس هذا مسيحيّاً جداً من جانبكِ، ياعزيزتي... لكنك اذا أصررتِ، مع أن ذلك غير لائق، فسوف أقنعها بأن تذهب وحدها مع اوريليان...

هتفت بلانشيت

- لا، لا، سأذهب، سأذهب... بما أنك تطلب ذلك!

نظر إليها باستغراب، وقال ببطءٍ مُلِحٍّ

- إني أتساءل أيّنا نحن الاثنين يكذب الكذب الأسوأ...

- ماذا تقصد؟

- لاشيء...

دخلت بيرينيس، ورأت أنهما تخاصما. كانت ترتدي فستان السهرة الذي أبتْ بلانشيت أن تدعها تلبسه لتذهب الى منزل السيدة «دي بيرسيفال»! غلالة سوداء على الفستان الحريري الضيق البيج، والذراعان عاريتان، لكنه لبس

مقووراً البتّة. كان مظهرُه ريفياً، لفتاة ريفية، وقد جهدت بيرينيس في اصلاحه بإضافة وردةٍ ذهبيّة كبيرة على الكتف، وردة بشعة جداً، لكنها كانت تناسبه كثيراً، كانت ناجحةً نجاح ماليس معقولاً نجاحُه. لم تجدها بلانشيت في مصلحتها، وخافت أن تبتهج بذلك فقالت ها إن «ادمون» يخلّ بالتزامه معنا...

- اوه! والمسرح؟

خرج ذلك من قلبها، وضمّتْ يديها. فأخذ ادمون يضحك.

قالت بلانشيت:

- سيحضر السيد ليرتيلو وسينوب عنه...

- السيد ليرتيلو؟

مسكينة بيرينيس فما أقل ماتستطيع أن تكتم! لقد استنارتْ، وفجأة أزهر فيها شيءٌ ما، وكان ذلك باهراً جداً حتى إن بلانشيت فكّرتْ «بعد كل شيء، ليس هذا الفستان بشعاً الى ذلك الحد»... نظر ادمون الى المرأتين محاولاً استشفاف مايجري في نفسيهما، في هذه الدقيقة بالذات، وأوضح

سأعود متأخراً... اذا طاب لكما فسيأخذكما «اوريليان» الى مكانٍ ما عند الخروج من المسرح... فهذا يروق له... إن من يسير في النوم مثله... لاينشغلْ بالكما علي...

شاهدت بيرينيس فجأةً انفعال بلانشيت. أخذت يدها بلطف خلسةً وقبّلتْها. كان فيها طفولةٌ، سحرُ الطفولة الذي يُغري. لكن بلانشيت سحبتْ يدها بجفاف شديد وخاطبت زوجها

- بما أنك تتصرّف بنا هكذا، أنت الذي تحبّ حريتك كثيراً. فسوف نحاول أن نتسلّى... لكني لاأظنّ أنني أستطيع أن أصمد زمناً أطول من زمن العَرْض المسرحي وبي هذا التوعّك...

أبدت بيرينيس قلقها!

- ألستِ بخيرٍ ياسة عمي؟

قال ادمون.

ـ لبس هذا شيئاً ذا بال. سوف يزول ذلك. وأنا أركككما...

رافقته «بلانشيت» وقالت له، وهو يأخذ قبّعته ومعطفه

ـ أريد، مع ذلك، أن أعلم، لماذا اخترتَ، ياصاحبي، اوريليان ليصحبنا...

ـ حقاً؟ تودّين حقاً أن تعلمي ذلك؟

ـ لم نره قط من قبل بمثل هذه الكثرة... تأخذنا الى «لولي» لنراه، وبعد يوم يتغدّى عندنا، وفي المساء نفسه...

ـ تعلمين جيداً أن بيريبيس تعجبه...

ـ بيرينيس لاتثير فيه شعوراً.

ـ لكن هو، ألا يثير في بيرينيس شعوراً؟ أين عيناكِ؟

ـ أنت الذي تخلق المناسبات التي ترمي بكل منهما نحو الآخر...

ـ بلانشيت، ماهذا الانفعال! لاأدري كيف أفهمه... أتكرهين ذلك إذن الى هذا الحد؟ لأي سبب؟

ـ آه! أنت وحش!

ـ أنت حرّة، على كل حال. لا، لاتجيبي... لاتكذبي... الى اللقاء.

كان في القبلة التي طبعها على جبينها من السخرية ماليس في الكلمات، ماذا أراد أن يقول؟ أحسّت بلانشيت بالضيق الشديد. ونظرت الى صورتها في المرآة فرأت نفسها تبعث على الخوف. فتنهّدت «ياالهي! كيف أبدو؟»

دُقَّ الجرسُ. لابدّ أنه اوريليان. فانسلت بينما اتّجه الحاجب الى الباب. كان لديها مايكفي من الوقت لتغيّر فستانها...

* * *

ـ ٢٤ ـ

لم يُفلح «اوريليان»، وهو في أعماق المقصورة، خلف المرآتين، أن يُتابع جدّياً العرض على خشبة المسرح. فالموسيقا والأغاني والبزّات والريش الملوّن، والراقصات، والديكورات المتغيرة، كل ذلك كان يترابط ترابطاً سيئاً بسبب نقص الانتباه الضروري للمفاصل الاصطناعية في اللوحات، حتى إن «ليرتيلوا» كان كمن يعتقد باستمرار أنه يقلب صفحةً من روايةٍ قرأها. كانت الفوضى فيه على أشدّها. فالستار، وأنوار المسرح، والرعشات، وضحك الصالة غير المفهوم، كل ماكان مسرحاً لم يكن يشكل بالنسبة إليه سوى منظر لمشهد مسرحي فيه امرأةٌ هي أعذب لكونها لم تحسن التأنّق في ملبسها، بذراعيها العاريتين والفاتنتين، وكتفها الي عضّتها الزهرةُ الذهبية وكأن حشرةً عضّتها، والقذال الذيُ كان الشعر المقصوص يزيد من إحساسه بأن يفعل شيئاً ممنوعاً، والوجه الذي عشّته لذةُ العَرْض، والذي كانت بعضُ الحركات المفاجئة تكشفه له قليلاً. وكان ظلٌّ بلانشيت الأسود. بشعرها الأشقر الذي علقَ به بعكس النور شيءٌ من نورٍ بعيد، لايكاد يُعَدُّ حضوراً. وكان اوريليان المُبلبل بمجاورة بيرينيس، المبلبل للغاية، والخجِل مثل تلميذ مدرسة، يقول في نفسه «هذه هي...» وهذه «الهذه هي» كانت تعني ألف شيء لايُصدّق، وأنها هي التي كان يفكّر فيها قبل قليلٍ وهو يتأمل القناع، وأنها أيضاً هي التي طالما انتظرها، دون أن يعلم ذلك، والتي نحوها نشكّلت وتقدّمت وتوجّهت جميعُ أفكاره قبل عشر سنوات أو اثنتي عشرة سنة. هي التي سيقول لها لأول مرة في حياته أحبك. هي التي أحبّها. كان يردّد هذه الكلمات التي تعني وتغطّي وتلخّص كلَّ شيء. هي التي أحبّها. كان يرتجف. وتساءل عمّا أصابه. رجلٌ مثله... شاب مثله. أحسّ بما كان يحب أن يفعله ليقف على هذا المنحدر، لينتهي من ذلك قبل أن يبدأ... الأمرُ بسيطٌ جداً... سهلٌ... كان يعلم أنه مايزال يستطيع أن يحوّل مجرى أفكاره... مايزال سيّد نفسه... وعمّا قريبٌ لن يظل سيّد نفسه... كان يتابع النورَ على ذراعي بيرينيس. تغيّرت الإضاءة. غدت سيّالةً مثل نور القمر. وكانت نورَ القمر. كان بوسع

«اوريليان» أن يغيّر الإضاءة، كان ذلك بوسعه... ولم يرد ذلك. كان كل شيء يتسارع. وماأطول الدرب الذي قطعه منذ تلك اللحظة، قبل هنيهة، عندما باحت شفتاه، وهو يحدّث «آرماندين» بذلك الاعتراف دون أن يَزِنَه! هذه المرأة الساكنة، العريبه، القريبةُ جداً والبعيدة جداً، هذا الخيال الذي لم يألفْه بعد، هذا الكائن الذي لايكاد يكون حيّاً بالنسبة إليه، هذه المرأة لم يتعرّفها، لم يتعرفها البتّة. ليس به نحوها انجذابٌ كبير. كان الدوارُ في مكانٍ آخر. واذا كان يشتهي مع ذلك أن يطوّقها بذراعيه، أن يضمّها إليه، أن يُطْبق بذراعيه عليها، فإن ذلك لم يكن كما هي الحال مع النساء الأخريات، الحاجة الى الأخذ، تلك الوحشية التي تدفع الى أن يعضّ، أن يخنق. لا. بل كان كالجوع، الجوع السلبيّ، كان نقصاً شرساً، كان يأساً. ولو أخذها بين ذراعيه -هكذا كان يفكّر، على الأقل- فلربّما هدأت تلك النيران، ولربما انتهت هذه اللاواقعية، هذا الضيق. وردّد على نفسه أنه مايزال في الوقت متّسعٌ ليتمالك نفسه. وعلم في اللحظة نفسها أن الأمر غير ذلك، فخاف. وأحسّ بنفسه يسقط، وتلاقت في رأسه أفكارٌ أوّلية حاول أن يميّز فيها المبادىء الفيزيائية لسقوط الأجسام، ومعدّل تسارع سقوط الأجسام، كما يتلاقى الطحلب حول عيني الغريق. وقال في نفسه «العرقى أيضاً، لاأستطيع التخلص من الغرقى الآن». وامتزجت بهواجسه الموسيقا العاطفية لأغنية السين، القناع الأبيض، ظلال المياه الخضراء على وجهه في غطسته وصوت القوارب الماضية على النهر، وأحسّ أنه قرّب كرسيّه من كرسي بيرينيس على نحو غير محسوس لاشعوري. وانحنى بين المرأتين ليرى العرضَ الذي لم يكن ينظر اليه. كان العرض يقدّم الآن مجموعةً، فيها نساء عاريات أو شبه عاريات، وهز هزة السيقان الطويلة الجميلة على هالات بيضاء من الريش، وثياب سوداء تنزلق... كانت ذراع اوريليان تحطّ على مسند كرسي بيرينيس، واليد تستند الى حاجز المقصورة واشتمّ عطراً خفيفاً من الكلأ المقطوع آتياً من الشعر المجاور. كان هذا! الظلّ الذي يدعوه حبّه على نحو غير محسوس يتحرّك، كان له تنفّسُه وقلبُه ونَفَسُه، وقد انحبس نَفَسُ اوريليان، وخفقَ قلبُه، واضطرب تنفّسُه... وفجأة شعر أنه لم ينصرف وحده عن متابعة العرض. وأدار رأسه فرأى بلانشيت ينظر إليه.

ـ ٢٥ ـ

كانت بلانشيت تلاحظ اوريليان منذ لحظة ليست بالقصيرة. لقد علمت منذ كلمة «ادمون» الأولى أي عذاب كانت تذهب اليه وهي تقبل سهرة الثلاثة هذه، وعبثاً تظاهرت بأنها لم تصدّقه. كانت تتقاسمها عواطف متناقضة، ولم تحكّم عقلها للتملّص منها. وكانت شكوك زوجها قمينةً بأن تفقدها رشدها. قالت في نفسها، بلمح البرق، ان كل رفض يحدّدها بوضوح. ففي كل مرة يكون الموضوع قضاء سهرة مع اوريليان، أو لقاءه، كانت مخاوفها التي لاتفسير لها واضحةً بالنسبة لأدمون. وهي الآن تعترف بعلة هذا الخوف، على أنها ذنبٌ، الخوف الذي يغطّي رغبتها غير المعلنة في قضاء بضع ساعات مع ليرتيلوا ولو تألّمت من ذلك، ولو مَنَح انتباهه كله لغيرها، ولو تجاهل حضورها. واذا كانت قد ظلت تتردد فإن تصوّرها أن اوريليان قد يبقى هو وبيرينيس منفردين قد حملها فجأة على الذهاب. وكانت تعلم جيداً أن اللياقة لادخل لها في ذلك. وكم حُمَّتْ لتتجمّل، وقد تمزّقت لعلمها أنها كانت في المكتبة دونها! وارتدت فستانها الأسود، دون حليّ تقريباً. وهكذا كانت واثقةً من أن الناس الذين سيتطلّعون إليهم سيحسبون بيرينيس وصيفةً برفقتهما، ونزعت الحلقّ المدوّر من على أذنيها، وأبرزت قذالها، ولفّت ضفائرها حول رأسها التي كانت ترتّبها أحياناً فتجتذب النظرات لأن هذه الزينة كانت تتعذّر على معظم النساء. ولم ترها بيرينيس قط هكذا، وعندما دخلت بلانشيت المكتبة كانت بيرينيس لا اوريليان هي التي هتفت متعجّبة «اوه! لقد غيّرت زينة رأسها»! بالفرح الطفولي الذي ينفجر أمام فستان جديد، ومطعم لم يكن معروفاً، والأثاث الذي غُيِّر مكانه في الغرفة.

وأنّى لها أن تَغْتذي، في المسرح، بتبدل الأنوار وحركات الأجسام وعزف الموسيقا الطائشة، وهي تُفاقم من وحدتها ليس غير؟ وفي نور المقصورة الضعيف استردّت بيرينيس المزيّة التي كان قد سلبها إياها فستانها السيء

الصنع. اوريليان.... ومن المستحيل ألاّ تكون قد رأت أنه كان أصمّ أعمّ عن كلّ ماليس بيرينيس. لقد أرادت بلاستيت، حتى هده اللحظة أن تزعم، معارِضةً بدلك قلقَها العميق، أن انجذاب «ليرتيلوا» نحو ابنة العم الصغيرة كان نزوة من نزوات ادمون، وقد توصلت الى هذا الزعم من أجل نفسها ومن أجل ادمون على حد سواء. لكنها كانت تعلم، أنها ستتألم، في هذا المساء. ولم تكن تعلم أنها ستتألم الى هذا الحد. وأخذت تحاول أن تَصْرِف هذا الألم بألم آخر. ادمون، كان ينبغي لها أن تطرد تلك الرؤى الخارقة وأحلام اليقظة التي لاقِوام لها. لم تكن تحب سوى ادمون. لم تحب قط سواه. ياالهي، ياالهي. عندما كان عليّ أن أنتزعه من «كارلوتا»! قدّم لها الماضي ذكريات غيْرتها ويأسها العظيمين جداً حتى أن التجربة التي ستمر بها هذا المساء لاتُعَدّ في الحقيقة شيئاً بجنبهما... والتي ستخرج منها وقد شفيتْ من وهمها... وعادت كلّياً الى ادمون، الى ادمون هذا الشرير الذي يصعب الاحتفاظ به كما يصعب الفوز بقلبه. ادمون. أين كان يقضي سهرته؟ لقد كذب. لم تصدق ولو للحظة واحدة حكاية عمله مع ادريان وكأنها عظمةٌ تقضمها. لقد كذب. لماذا؟ لم تكن تسأله عن شيء. ولقد صرّح لها مراراً بالحقيقة، بالحقيقة الموجعة، دون أن تطلب ذلك منه، وبقسوة فظيعة كان يضيفها إليها، قسوة كانت تكرهها وتعبدها منه... وإذن فلمادا يكذب في هذا المساء بالذات؟ لعل ذلك لكي يعذّبها عذاباً أكبر بالشك... كان ينتقم. ماأعظم فطنته! أدرك ما لايُدرَكُ، مالم تجرؤ هي نفسها على الاعتراف به، وكان ينتقم... أين كان؟ ومادا كان يفعل؟ وهل ثمة شيءٌ عظيم الخطر اضطرّه الى الكذب؟ وهل أفلتَ منها حقّاً؟ وفكّرت في أولادها. ياالهي، ليكنْ ذلك حلماً مزعجاً. فأستيقظُ ولا يبقى شيءٌ من الحلم. مضتْ اللعبةُ بعيداً. تجاوزت المصيبةَ، مصيبتها نفسها التي لعلها ضرورية من أجل سعادة ادمون. فهناك الأولاد، هناك الأولاد. وبينما كانت منصرفة عن «باليه» الأزهار هذا الذي غدت فيه الألوانُ والفرح ودوران الراقصين على أنفسهم، الذي غدا فيه كلُّ ذلك غيرَ مُحتملٍ، رأت التعبير على وجه اوريليان، فذهلت. اوه! هذا أسوأ ممّا عانته قبلا

إنه يحبّها. إنه يحبّها. ذاب الألمّان أحدُهما في الآخر، واستمدّ كلٌّ منهما من الآخر شدّةً لاتُحتمل. تستطيع المرأةَ المزدراة الآن بلا معصية أن تنظر الى «اوريليان» إذ أن ماتبكيه بغير دموع كان ادمون مثلما كان «اوريليان».

عندما فاجأ اوريليان نظرة بلانشيت خشيت أن يقرأ فيها ماقرأه ادمون. ولحسن حظّها كان الظل يُخفي تلهّبَ أفكارها. لم تكن بالنسبة الى هذا الرجل سوى الشبح الأنيق لذلك العالم الراقي. لم تكن سوى شخصٍ ثالث. لم يكن لها قلبٌ ولا جسدٌ. كانت المستوى الأمامي لتلك اللوحة التي كانت بيرينيس صورتها المركزية، ومهادها تلك الموسيقا وأولئك البهلوانيون الهزليون الذين كانت الموسيقا تصاحبهم. لوّتْ «بلانشيت» عينيها العديمتي الجدوى اللتين صعدت إليهما لأول مرة العبراتُ الأولى. وتشوّش كلُّ شيء.

علم «اوريليان» في الحال أنْ لاخوف عليه من هذا الشاهد، وعلم أنها ستتظاهر بمتابعة العرض. وقد قُدِّر لها أن تفهم بغموض ما كانت بيرينيس تجهله حتى الآن. لكن أكانت تجهل ذلك؟ ما من كلمة بينهما، حتى عندما كانا منفردين قبل قليل في المكتبة، لم يلمّح الى تلك الدقائق، في تلك الليلة التي أمسك، فيها يدها في يده... وتأكّد من أن بلانشيت المهزومة لم تعد تنظر إليه، فقرّب يده برفق من ذراع «بيرينيس» العارية. كان كلُّ شيء فيه مستيقظاً. كان يحسّ بكل نقطةٍ من كيانه. سيلمس تلك الذراع. سيتجرّأ على ذلك. هذه الجرأة يمكن أن تدمّر كلَّ شيء، وفكّر في سحب يده، ولم يسحبها، لأنه لايجوز أن يكون جباناً. في هذه المقصورة في باريس حيث كان يجري كل شيء، على نحو مبتذل، بين رجلٍ وامرأة، تعرّف، في نهاية الأمر، ذلك الشعور الذي جعل قلبه يخفق. رأى نفسه هكذا، في الليل، في مركز صغير في «آرغون»، خلف الأشجار المكسّرة... تناولت راحةُ يده ذراعَ «بيرينيس»، وشدت عليها برفق. فأجابته رعشةٌ. الدهشة. وعلم أن ضمّته إن تراختْ فقد ضاع كلُّ شيء، وستتخلّص الذراعُ. وزَلَقَ يَدَه كأنها تقصد المداعبة وحبستْ المرفق. انتظر. هدأت الرعشةُ. وظلت الذراع جامدةً جموداً مُذهلاً. كان شعرُ بيرينيس يمسّ، يلامس وجهَ

اوريليان. آه! في هذه الدقيقة كانت له، مثل عصفور مسحور. كان كل شيء يمكنه أن يُبطل المعجزة. واستمرت المعجزة.

حينئذٍ كان ينبغي أن يقول لها: أُحبكِ. حينئذٍ. لكن «اوريليان» ماكان بوسعه أن يفعل ذلك. كان يخاف الكلمات المهموسة. ولاسيّما تلك الكلمات البالغة الجدّة والصعوبة. كانت خاتمة الجزء الأول باهرة على المسرح، عاد النجومُ الى مابين الراقصات، والراقصون بسترهم القصيرة، والفساتين المبرّقة... وكانت الاوركستر ترسل قبلات رنّانة، وتجرّ على نحو متسارع الممثّلين وهم يضطربون ويتبارون في تكرار حركاتهم المتناظرة، مصالبين بين أذرعهم، صادمين ركبَهم بعضها ببعض على نحو إيقاعي. أوشك النورُ أن يعود. أُحبكِ... لقد فكّر فيها تفكيراً فقط.

حرّكت «بيرينيس» كتفها تلك الحركة التي غالباً ماكانت تبدو بها كأنما تحاول التقاط شالها الذي يريد أن يسقط، وأمسكت يدُها خلسةً بيد اوريليان برفق شديد ورفعتها عن مرفقها، كما لو كانت ترفع ورقةً عالقةً أثناء عبورها غابةً.

كان المشاهدون ينهضون، عند إسدال الستار، ويتّجهون نحو مجمّع المسرح. ومن وسط الاوركستر أخذ ناسٌ يومئون.

قالت بيرينيس من هؤلاء، إنهم يومئون إلينا، على ماأعتقد... كانت بلانشيت تبتسم ،تحيّي، بالفعل. كان ذلك من العقيد والسيدة دافيد. جاءا الى جانب المقصورة، وخفّف حديثُهم من وطأة هذه الاستراحة التي خاف منها «ليرتيلوا». وكان ينظر، وهو يتكلم بشرود، الى الجهة الأخرى، الى تدفّق الناس الذين اجتذبهم «الحاز» في مجمّع المسرح. وفي الردهة، لمح فجأة شخصاً مألوفاً. كاد يهتف. فتمالك نفسه. ولم تشهد رفيقتاه شيئاً. لم يخامره الشكُّ. كان «باربنتان» بعينه، متستّراً على كل حال، وناظراً الى هذه الجهة. مامعنى هذا؟ «باربنتان» الذي كان يجب أن يكون... لو كان قد تخلّص من عمله لوجب أن ينضمّ إليهم، ثمّ إنه كان هنا في الردهة، يترصّدهم، أو يبدو عليه ذلك.

تظاهر «اوريليان» أنه يتابع الحديث. رأى العقيد العرض ممتازاً، لكن السيدة دافيد قالت إننا لانستطيع أن نسمّي ذلك عرضاً. إنه معمولٌ للأجانب، فليس فيه كلام، ولا مقطعٌ مسلٍّ (أتذكرون «ريب» قبل الحرب)... هذا من عالم السحر... ولاشيء غير ذلك.

قال العقيد: وفي عالم السحر مايسرّ!

قالت السيدة «دافيد» مغتاظةً. «أوه! أنت، ياعزيزي»! وأوضحت للسيد «ليرتيلوا» «الكولونيل... ما ان توجد السيقان!».

كان اوريليان يبتسم. كان يفتّش بعينيه، خلسةً، عن باربنتان. لم يعثر عليه. وكانت الردهة شبه خالية. قال «اعذروني، سأشتري تبغاً... لا شكراً، سيدي العقيد، أفضّل «الغولواز»... أنا انتهز أن هؤلاء النسوة لسن وحدهن».

لم يعثر على ادمون في أي مكان، لا في الردهة، ولا في المجمّع، ولا في مدخل المسرح، بعد اجتياز الأبواب الزجاجية، ولابين المدخّنين، ولا في ضوضاء المشاهدين، ولا بين الطاولات حيث كان يتناول المشروبات أمريكيّو الجنوب، وانكليز، وسكندنافيون، ولا بين جمهور الأماكن الرخيصة الذي نزل، ولا بين النساء. وعاد الى المقصورة وهو يقول في نفسه إن باربنتان ربما قصدها. كلا. هل انصرف. محتمل. تردّد، ونظر الى بلانشيت. الأفضل ألا يتكلم عن ذلك. واذا كان مخطئاً؟ عاد العقيد والسيدة الى مكانيهما.

أمرّتْ بلانشيت يدها على جبينها، وتنهّدت، وتحرّكت قليلاً، وكأنها لم تقرر أن تقول شيئاً ما، ثم قالته: اعذرني اوريليان، لستُ معافاةً... لا، لاتَصْحبني!

هتفت بيرينيس: «تريدين أن تعودي، بلانشيت؟

- أرجوكما، ياصديقيّ، بيرينيس، لاأريد أن أفسد عليكِ سهرتكِ... لن يغيّر ذلك من الأمر شيئاً... ماكان يجب أن آتي...

قال اوريليان:

- لكني سأرافقك.

ـ لا، لا. أرجوك! لاتستطيع «بيرينيس» أن تبقى وحدها هنا. ومعي السيارة والسائق. وسأرسلهما لكما... قلت لادمون انني لست معافاةً... لاأستطيع البقاءَ... يجب... لكني أؤكّد لكما...

لم يكن له من حيلة. لقد أرادت أن تنصرف وحدها. وأجبرتهما على البقاء. بقيا اذن. رافقها «اوريليان» بضعَ خطوات.

ـ يُزعجني أن أتركك تذهبين هكذا... كان بوسعنا أن...

ـ كنْ لطيفاً، «اوريليان»، وأكملْ هذه السهرة... بي صداعٌ شديد! خذ بيرينيس الى مكانٍ ما بعد العرض. سيسرّها ذلك... فسوف تنحدر الى ريفها...

هذه الجملة الأخيرة غطّتْ غيرها بالنسبة الى «ليرتيلوا». بيرينيس على وشك الذهاب، العودة الى بيتها، تَرْك باريس...

عندما استلقتْ بلانشيت على مساند سيّارة «الويسنير» أحسّت أنها توشك أن تبكي. فأطفأت النورَ الذي أشعله السائق، وقالت «الى البيت!» حملتها السيارة، وكانت تقدّم للسماءْ التضحية التي قبلت بها. فلقد عاقبت نفسها لأنها لم تترك بيرينيس واوريليان وحدهما. وأجبرت نفسها على ذلك. ياالهي، في مقابل هذا العذاب، هل تعيد إليّ ادمون؟ كانت تساوم الربّ، لكنها لم تعثر لا على سكينة القلب ولا على الأمل. كانت تعرف ادمون أعظم معرفة. وارتجفت وكانت تعرف أيضاً ظلمَ السماء.



كان من أثر غياب «بلانشيت» أنه ولّد بين اوريليان وبيرينيس حرجاً غير منتظر. لقد زاد حضورُها من جرأة اوريليان، وطمأن «بيرينيس» لتحافظ على ذلك السكون الذي كان أشبهَ بالخضوع. لكنْ عندما وجدا نفسيهما وحيدين، وجنباً الى جنب الآن، في الصف الأول من المقصورة، بدا لهما كلُّ شيء خطيراً جداً، ومغرياً، بحيث ظلاّ منفصلين زمناً طويلاً، وكلاهما حَصِرٌ من الآخر، وفي الرأس أحلامٌ غير متناسيةً.

لم تر «بيرينيس» قط «ميستنغيت» والمشاهد الواقعيّة، المزمار، المنديل الأحمر، جافا، السيجارة، سرقة البغيّ، المدية تحت المصباح، وهي مشاهد اكتستْ في نظرها شاعرية قلما يصل اليها من ليس له نضارتها وجهلها العجيب. لم تشأ بأي حال أن ينصرف ذهنُها عنها، وكانت تحسّ، على نحوٍ محموم، عملَ التصميم البطيء الذي كان يترصدها في العتمة، قرب جارها. همَسَ بشيء، فالتفتت واصبعها على فمها قائلةً صَهْ! وتهالكتْ يداها على معصمي اوريليان، قبل أن يتحرّك، وثبتتاهما، مثل رباطين من الأزهار. وأدارت رأسها وهي تمسك بهما. في هذه الأصفاد المرتجفة، حاول السجينُ عبثاً أن يعبّر عن الحنان الذي اجتاحه فجأة، فتباعدتْ عنه، الماكرةُ، وشعر أنها منصرفةٌ بكليتها الى العرض، الى نزهة ذلك النجم على مقدمة المسرح.

قالت بيرينيس.

- إنها خارقةٌ للعادة.

- مَنْ؟

- مستنغيت...

أحسّ بالسخرية في التبديل بين مواضع الكلمات. أراد أن يقول لها. أُحبكِ، وهاهي تحدّثه عن مستنغيت. وكما ثبّتتْ معصميه بيديها الصغيرتين، فكذلك أوقفتْ كلمات اوريليان الطالعة بكلماتٍ لا قوة فيها، لكن فيها سحر

صوتها. فكّر. ومع ذلك، فإن هذا المنع كان قبولاً لفعل، لمشروع بدأ منه إليها، دون كلام، بحركات المنتصر. وحار فيما يقول أو يفعل. فهو لم يشعر قط بأنه أعزل أمام المرأة كشعوره الآن أمام هذه المرأة التي هي الضعف كله... هل حبستْ بين يديها -وذلك شيء أكثر من الإمساك باليدين- يدي رجلٍ آخر؟ وأيّ رجل؟ لم يكن يعرف شيئاً عنها. مجهولةٌ. المجهولة. الى أي حدٍ لم يكن يعرف شيئاً عنها. كانت محفوفة بالأسرار كالبراءة. لكن لعلها انصاعت للآخرين مئة مرة، ولم تخترع هذه المقاومة إلا معه. أو أن ذلك كان المرحلة التقليدية التي تفرضها قبل أن تسمح بما هو أكثر قليلاً... لم يشأ أن يفكّر في ذلك، ولو فكّر في ذلك لانهزم... كان يتألم من ألف غَيْرةٍ. وهو لايستطيع مع ذلك أن يتخبّط هنا، في مقصورته... كان حسّاساً لما يُضحك الى ما لا نهاية.

كان الوقت يمرّ، يُفلت منه. فات الأوان. وعندما يحرّر يديه الآن، ويستأنف هجومه الأخرق... لن يبقى في الوقت متّسع. يوشك العرض أن ينتهي. وعليه أن ينهض على الفور، ويرتدي ملابسه، ويخرج. وإذن فقد ظلّ بلا حراك، تحت رحمتها، في دائرة الأصابع الوانية. كان يرى نهدي بيرينيس يرفعهما التنفّسُ، وحيوية العرض على وجنتيها. كان شبيهاً بعاشق ابن خمس عشرة سنة. لم يحس قط وهو قرب امرأة بنفسه بعيداً عن تصوّرات اللذات كما أحسّ بها الآن. ماكان ليعرفَ كيف يقبّلها، وليتصوّرها ملاصقة له. الوردة على الفستان، الفستان... كلُّ شيء كان يستوقف «اوريليان». حياءً قلما يُصدّق. ودائماً عطرُ الكلأ المحصود، وهو عطرٌ آتٍ من «بيرينيس» وهو يلخّصها، وهو ينفذ اليه من بيرينيس.

وهي، فيم كانت تفكّر، المجهولةُ؟ من كان يوسعه أن يعرف ذلك، أن يحزره؟ كان يمنّي نفسه بأنها اضطربت. لقد أحسّ أنها ارتعشت ارتعاشاً خفيفاً. ارتعشت يدا بيرينيس ارتعاشاً خفيفاً فوق يديه هو. وتركا المقصورة، وهما في فوضى تامة فرضها عليهما الصمتُ، أو الجملُ القصيرة على الأقل، والمفيدة لذلك، لكنها قصيرة دائماً. ومع انصراف الجمهور، عادت إليه قليلاً ثقتُه بنفسه، فسألها. أين تريدين أن تذهبي، في هذه الساعة، الى «لولي»...

قالت.

- اوه! لا. يجب أن أعود... بلانشيت...

- بلانشيت لا تحتاج إليكِ، قالت ذلك هي نفسها.

- نعم، لكن السائق... تصوّرْ... الوقتُ متأخّر...

- هذه مهنته، وهو متعوّد... ثم اذا شئتِ، أستطيع أن أصرفه، وسنأخذ سيّارة أجرة...

- لا، لا... ماذا سيظن؟ سأعود...

- أرجوك... امنحيني بعضَ اللحظات...

- لكني أؤكّد لك أن الأفضل أن...

- أتعلمين أنني لم أتعشَّ، وأن بي جوعاً ضارياً؟ فاصحبيني ولا تتركيني أتعشّى وحدي..

ضعفتْ. لكنها لن تبقى حينئذٍ سوى مدة العشاء بالضبط. ثم ستعود. وأين يذهبان؟ كان «اوريليان» يعرف مكاناً أبعد....

أتفضلين المكانَ الصاخب أو المكان الهادىء؟... الهادىء. الهادىء. من غير شك نعم، وإذن فلنذهبْ الى المكان الذي ذكرتُه...

كانت تنتظرهم في الخارج مفاجأةٌ: كانت الأرضُ بيضاء، والثلج يتساقط. الشوارع الصاعدة الى مونمارتر محصورةٌ، والثلجُ يُسبغ عليها الصمتَ والضياء الكاذب، وفيها يغيب الخارجون من المسرح مثل حلم الجنّيات المخيف. كانت السياراتُ الخاصة والعامة تجري. وأحاط جمهورٌ بالسيارات التي صعدت إليها كالملكة «مستنغيت»[1] التي كانت تضحك بشدّة والتي كان يصحبها شابٌ أسمر.

لقيا شيئاً من العناء للعثور على السائق. أعطاه اوريليان «العنوان». كان المكان قريباً، لكن كان لابدّ من الدوران نحو أعلى شارع «بلانش»، ومن اتّباع تدفّق السيارات للانحدار من ساحة «بيغال»، الى تلك الواحة من النور، نصف

(١) ممثلة فرنسية ماتت سنة ١٩٥٦.

الخالية، والمؤلفة من غرفتين إحداهما تحت الأخرى، فلا هي بالمقهى، ولا هي بالحانة، وإنما هي ضربٌ من ملجأ على هامش المراقص والحانات، يؤمّه المحترفون الذين يأتون ليتناولوا لقمةً في الاستراحة بين مشهدين من عرضٍ في غير هذا المكان، والعشاقُ الذين يتهامسون وأيديهم متشابكة، بينما يعزف عازف بيانٍ انكليزي أنغاماً مترابطة مثل ساعات الليل، وكان فيه مقاعد باليةٌ من الجلد، وأوانٍ هزيلة للأزهار. فكأننا في لندن.

ـ هل تحبين أن تتناولي شيئاً معي؟

نظرت بيرينيس الى قائمة الطعام وهي متردّدة. ورأت أن مابدا لها مذهلا وغير مُعتاد ينبغي أن يكون عادة هذا العالم الذي يُحيط بها. ولم تجرؤ على طلب B.B.B[1] و B.B.B. فالبيض المخفوق على الخبز المحمّص يحتوي على خطرٍ أقل. أما اوريليان فسيتناول شواءَ البقر مع الجعة الثقيلة. ولم تذق قط هي هذا النوع من الجعة. فغطّتْ شفتيها في كأسه، في هذا الحبر الراغي. وبدا لها ذلك غريباً وكريهاً، لكنها طلبتْ شيئاً منه.

كان حقاً جائعاً ذلك الجوع الضاري. فأقبل على الطعام. لم تشأ بيرينيس أن تجلس بجنبه. وكانت تنظر إليه من فوق الطاولة، وعلى وجهها تلك الابتسامة التي لم يرها قط، ابتسامةَ القناع، الشبيهة بنهاية قصة طويلة. طلب شيئاً من «الكاتشاب». إنها لم تسم قط مربّى البندورة بهذا الاسم. كانا يتحاشيان معاً الكلمات المتوقّعة، الكلمات غير المفيدة. وكانا يعلمان كلاهما ماكان يضطرب بينهما دون أن يحتاجا الى التعبير عنه. لم يُقِلْ شيءٌ، وقيلَ كلُّ شيء، قُبلَ الوضعُ وتوطّد.

كان يأكل، وينظر الى شوائه، ويقطّعه. وإليها توجّه بالكلام في نهاية الأمر: «عندما تذهبين فماذا سيحلّ بي؟»

فهمته فهماً تاماً. لكنها أغمضت عينيها، وحينئذٍ، ولأنها شحبتْ، بدا الشَبَهُ في ذروته. ماكان يمكن للصمت أن يدوم. الاضطراب. وانفتحت العينان مثل نافذتين على ليلٍ أعمق، وهمس الصوتُ الأخّاذُ، الدافىءُ والمرتعدُ، وهي تحاول أن تبش: «حسناً... ستذهب بتعقّل لتنام، على ماأظن؟

(١) أول أحرف الطعام بالانكليزية. **المترجم**

قال:

ـ لا، عندما تذهبين حقاً... لا هذه الليلة... عندما تتركين باريس، عمّا قربٍ، فيما يبدو...

أجابت:

ـ لاتكلّمني في ذلك، فسوف يحزنني ذلك... وأنا جدّ سعيدة، هذا المساء!

ـ أهو كذلك حقاً؟

أجابت «نعم» برأسها، وقد اتّسعت عيناها. أراد أن يسألها إنْ كان له يدٌ في هذه السعادة، فلم يستطع. كانت سعادته هشّة للغاية، وكان مستعداً لأن يحميها بهذه الجملة الملتبسة:

ـ لكني مع ذلك... بحاجةٍ الى أن أعلم... هل ستسافرين؟

ـ في مدى ثمانية أيام أو عشرة...

ـ شرب جرعة كبيرةً من الجعة، ومسح شفتيه بالمنشفة الورقيّة.

ـ عشرة أيام... دقيقة... وتصوّري ذلك الوقت الضائع... لمَ أضعْنا كلّ ذلك الوقت؟

ـ تردّدتْ قبل أن تجيب. وأحسّت جيّداً أن قبولها الجوابَ يعني قبولَ كلّ شيء، قبول ما لاسبيلَ الى إصلاحه. رفعتْ إليه ماستيها السوداوين، وقالت: «لم نُضعْه». وحطّتْ يدُها اليمنى على يد اوريليان اليسرى، فوق الطاولة. فارتعش، وصمتا. وتذوّقا هذه اللحظة المبتذلة كالقليل من الأشياء في حياتهما. وأخيراً همس اوريليان أولاً:

ـ ماكنتُ أعلم، يابيرينيس... أنفقتُ كثيراً من الوقت لأعلم...

كان ذلك اعتذاراً. ولم تسأل ما الذي أنفق الوقت ليعلمه. كانت تعلمه. وهاهي قد أعطته الحقّ لأن يدعوها «بيرينيس». واستأنف «لأول مرّة في حياتي»...

كانت هذه الكلمات أقوى من أن تتحمّلها فارتجفت شفتاها وأبانت عن تلك الأخاديد المرهفة. وظنّ أنها ستسحب يدها التي كانت مثل ورقة. وقالت «لا

أصدقُك». ولم يشعر بالحاجة الى أن يقول. «صدّقيني، أرجوكِ» لأنه يعلم أن ذلك كان يَعْني «أصدّقكَ». أدار معصمَها، ودسّ يده الكبيرة تحت اليد الواهية وجوّف راحتها لتتلقّاها كنقطة الماء. وتجاوزت أصابعهُ الطويلة اليد، وصعدت الى تلك الحبال الناعمة التي ترفع من رهافة الأوردة. فشدّ عليها. وأحسّ بالدم يخفق. وفكّر في أنه يلامس موضع الانتحارات المقدّس، أزرق كالسماء، كالحرية. وقال أيضاً:

ـ لم أشأ أن أصدّق ذلك، فقد كان شيئاً جديداً... لابدّ أن يكون شيئاً رهيباً بالنسبة الى الأعمى أن يرى النورَ لأول مرة...

قال النادلُ:

ـ وماذا تريد، مع هذا؟

ـ شستر، وماء الحياة الفاخر. وأنت، بيرينيس؟

ـ أنا؟ اوه! لاشيء!

ـ أرجوكِ... أتحبين التستر؟ نعم، إذن...

ـ لكن دون خمر!

ـ تشربين قليلاً من عندي.

ابتعد النادلُ.

ـ بيرينيس، يجب أن تعديني...

كان يُسرف في استخدام هذا الحقّ الجديد، فيلفظ هذا الاسم العذب كلما استطاع. وكرّر:

ـ بيرينيس، يجب أن تعديني بأن تمنحيني وقتَكِ كله أثناء هذه الأيام العشرة القليلة والعجيبة.

قالت

ـ يجب ألا ننظر الى أبعد من ذلك.

ـ أتعدينني بذلك؟

تردّدت، وفكرت. «هذا غير معقول...» وقالت:

- «أعدكَ بذلك، اوريليان...»،

لم يجد اسمه قط بهذه العذوبة، والنقاء، والعتمة. وصحّحت غلطها وهي تتذكّر: «لكني وعدتُ «زامورا» بأن أدعه يرسم صورتي... وعلي أن أذهب غداً»...

- منذ الآن! تستدركين... تنازعينني على هذه الدقائق، على حياتي...

- أوه! حياتكَ..

- حياتي!

- أرجوكَ، وعدتُه، يسرّني أن يرسم صورتي... وستأتي لإحضاري.

- إحضارك؟ أتسمحين لي بذلك؟

- أطلبُ إليك ذلك. خذْ، معي عنوانه، في محفظتي. أعطني محفظتي.

فتّشتْ وأخرجت مفكّرة صغيرة. هاهو: شارع سيزار فرانك...

- تذهبين الى منزله...

أضحكتها لهجةُ اللوم هذه.

- أنتَ غبيّ. رسّام...

- الرسّام رجلٌ. أتأتين الى منزلي؟

- أنت لستَ رسّاماً... اختلف الأمر... ثمّ لمَ لا؟

- تأتين!

وفجأةً شحبتْ من الانفعال، وكأنها تذكّرت شيئاً نسيته كلّياً منذ لحظة ليست وجيزة...

- لا، اوه، لا!

- لمَ لا؟

- لأنكَ أنتَ... سأذهب الى منزل أي أحدٍ. لا الى منزلك...

شرب مرارةَ نصره. هناك بقيّةُ العالم، وهناك هو لها. قال.

- ستأتين الى منزلي.

- ربما... نعم... ذات يوم...

ـ هذا المساء...

قالت «لا» برأسها. ورأى بوضوح أنه كاد يخرّب كلَّ شيء. فشدّ على اليد الصغيرة، وطلب صفحها.

وتابعت بيرينيس.

ـ أولاً ليس منزل «زامورا» الذي في شارع «سيزار فرانك».. بل منزل صديقته...

ـ السيدة «غودمان»؟ أعرفها. امرأةٌ جميلة جداً...

ـ ستأتي لإحضاري في الساعة الخامسة...

ـ في الساعة الخامسة فقط؟

ـ طيّب، يمكنك أن تبكّر قليلاً قبل الخامسة! إنه يريد أن يحاول ضمّ صورتي الى معرضه الذي أُعلن عن افتتاحه... أتعلم... إنه افتتاح غير عادي... في منتصف الليل...

ـ إنني أكره هذا الرجل... ولا أحبُّ تصويره... سوف يشوّهكِ... بأيّ حقٍّ..

ـ لا تبدأ بفعل مايفعله الناسُ جميعاً!

«مايفعله الناس جميعاً»؟ هذه الكلمة تكفي لأن تُفحمه. ونظر بعمق الى هذه المرأة القصيرة أمامه، وبعينين مختلفتين. كيف «مايفعله الناسُ جميعاً»؟ على كل حال، لم تقل له إن هذه هي أول مرة في حياتها... لم تقل له شيئاً على الإطلاق... وهو نفسه، وقد عرف كثيراً من النساء، عالماً أيضاً. وإذن «مايفعله الناس جميعاً»... لقد بنى لنفسه، دون أن يعلم، بيرينيس، لاتتطابق مع هذه الكلمات الأربع الصغيرة التي نفذت إليه. وانتابته رشْقةٌ من الغيرة. قال

ـ أريدُ أن أقتل ماضيك.

ـ لِمَ ذاك؟ لن يكون لديَّ شيءٌ أقصّه عليك... أضحّي به لكَ...

أوه! كم كان سيدفع من أجل هذه الكلمات، كم كان سيتألم؟ أرخى يدَ بيرينيس، ورفع يديه الى وجهه، قبالة عينيه اللتين ضغط عليهما بأدنى راحتيه. مستحيلٌ تحمّل هذه الجملة والنور في آن واحد. سمع بيرينيس تقول:

- ستأتي، ستأتي لأخذي من شارع سيزار فرانك؟

أكانت تشك في ذلك؟ ضحك. فدهشت من ضحكه. سأل: «أردتُ أن أسألك... قلتِ قبل قليل... أنكِ كنتِ سعيدةً هذا المساء؟ فهل... هل يجوز لي أن أفكّر أن لي يداً في هذه السعادة... عفواً... هل تسمحين لي بالتفكير في ذلك؟».

وهنا جاء دورُها في الضحك. وحينئذٍ رفع عينيه، وبحثَ عن عينيها، وقال «أحبّكِ».

تلقّت صدمةً مزدوجةً من الكلمات والنظرة. استندت الى كرسيّها، وبدرتْ منها تلك الحركة الراعشة في الكتفين، وهي حركة لاحظها مراراً. عبثت، دون أن تقول شيئاً بحقيبتها المطرّزة الزرقاء والذهبية، ذات الورود الكبيرة الوردية. انضمّت يداها على الطاولة، ومزّقت الحركةُ التي أتتا بها قلبَ «اوريليان» رأى أنها تدوّر في اصبعها خاتم الزواج... فقدّر أين ذهبت أفكارُها... لم يعد يثق إلا بتلك الكلمات الثلاث التي لم يلفظها من قبل، والتي تجاوزت شفتيه، وإلا بهذا الاسم المصنوع من الأسرار والذي أحبه أول ماأحبّ فيها. فكرّر:

- أحبّكِ، يابيرينيس...

تركتْ هذا الصدى يمتدّ. وأخفت يدُها اليمنى يدّها اليسرى. ونظر اوريليان الى الحركة المتسارعة لهذا الصدر الفاتن، الصغير، المثير، وقطع الصمت صوتٌ متغيّرٌ كلّياً.

- يجب أن أذهب الآن... تأخرّ الوقتُ... يجب...

- بيرينيس!

- كنْ عاقلاً، اوريليان... الأفضل أن أذهب، صدّقْني... الأفضل...

- لاتذهبي هكذا!

- ولمَ لا؟ وماذا سنقول الآن، ياصديقي، ماذا سنقول بعد ماقلتَه قبل هنيهة؟ كل شيء سيكون ضعيفاً... أرجوك... أعْفني...

- أنتِ لاتصدّقينني؟ لم أقلْ ذلك لأحد.

- دعْني أذهب... دعْني... أنا بحاجة الى أن أكون وحدي... أن أفكّر في

ذلك... أنا بحاجة الى أن أفكر في ذلك طويلاً... دعني أحمل ثروتي...

- بيرينيس!

- لا، لاتُضف شيئاً...

- لم تجيبيني...

- لا مجال للجواب...

- أتحبّينني؟

نهضتْ وقالت «سآخذ السيارة. لا، لا ترافقني. لا يمكننا أن نكون معاً في السيارة... الآن... كنْ عاقلاً... يجب ألا نُفسد سهرتنا... لن أنساها أبداً، أبداً... سامحني اذا أجبرتكَ أن تأخذ سيارة أجرة، في هذا الثلج... سامحني...

لم تشأ أن تنتظر لكي يدفع الحساب. خرج خلفها حاسر الرأس. نظر إليهم الناسُ وهم يجتازون الغرفة نحو الباب، وعندما أغلق الباب بعدهما، واستقبلا الثلج، وبينهما خادمٌ بمظلّة حمراء والصمتُ والحبُّ، علما لأول مرة أن هذا المشهد قد جرى على مِهاد من الموسيقا، مثل نشوةٍ خفيفة، تتبدّد وتغدو حينئذ، واعيّةً، على الغناء الكئيب لبيان يُلقي أغنيات كانا يجهلان كلماتها الأجنبية، وكانت تُتابع مع ذلك ايقاعَ قلبيهما.

صعدت الى السيارة التي نام فيها السائق. وفي آخر لحظة مالتْ على «اوريليان» وهمست إليه «شكراً...».

* * *

- ٢٧ -

الثلج والليل. الثلج والليل. صعد اوريليان شارع «بيغال» بصورة طبيعية، واسع الخُطا، بطيئاً، وقد رُفعتْ قبّةُ معطفه، وحناه التفكير قليلاً، وغرقتْ يداه في جيبيه، يسير في شارع بيغال وكأنه يريد أن يرى طلاءاته اللّماعة السوداء غارقةً في الثلج. كان الشارع خالياً ومظلماً. ولاتعود إليه الحياة إلا في جزئه الأعلى حيث تجرح العتمة لافتاتُه المضيئة.

لن يعود الى النوم إطلاقاً. لقد أدار ظهره لجزيرة «سان لويس»، واتّجه نحو عادات الأمس، نحو آخر جمرات المدينة، حيث سيدفيء سرَّه كما كان يدفيء قديماً وحدته. إنه لايتصوّر شيئاً عن المستقبل. ماعدا ذلك الموعد في الساعة الخامسة، في شارع «سيزار فرانك». هذه الأمسية تمحو دفعةً واحدة الماضي بأسره. وماذا أحلّت محلَّ ذلك الماضي؟ لاشيء حتى الآن. وكثيرٌ منها أنها كانت. الذين لم يأسرهم الحبُّ لن يفهموا اوريليان، بدايته الجديدة. ولعله، ليس في الدنيا شعورٌ أشدّ حدّةً -كالريح في الوجه- من ذلك الانبعاث الآتي من قولنا لامرأة: أحبّكِ. وفي الوقت نفسه، عاد الى اوريليان احترامُه لنفسه. لقد برّر حياته وهو شيء أكثر من عذر هذه الحياة، ووجد تسكّعه وتردّده تفسيراً لهما. كان ينتظر هذه الدقيقة. كان يلزمه علّة لوجوده. ولابد أنه علم في أعماقه أن بيرينيس ستأتي ذات يوم... وجاءت. لم يكن بوسعه حتى الآن أن يوجّه حياته دون مخاطر؛ كان سيرهن حياته دون بيرينيس.

إن عصر اوريليان، في الحقيقة، يمكن أن يُلخَّص بكلمتين. هناك الحرب، وهناك بيرينيس. وماقيمة هذه السنوات الانتقالية الثلاث! أما الآن فقد غدا رجلاً، له هدفه، أعلى هدف، الحب... آه! ما أغرب رنينَ هذه الكلمة الجديدة على الثلج! وقال بصوت عال: الحب...

ومن غرائب القدر أن اليوم نفسه صاغ أمام اوريليان التهمةَ التي حملتْ إليه دفاعه المظفّر. كان بوسعه الآن أن يرد على وساوس نفسه وشكوكه، وعلى

التعبير عن المصادفة التي نسبه إليها «ريكيه» أو «آرماندين». الحب! وهل يُعْطاه كلُّ إنسان؟ أليس معظم الناس كما كان «اوريليان» حتى هذا المساء؟ ومَنْ يأته الحبُّ، الحبُّ العظيمُ، الذي يمتلك ويدمّر، فعليه أن يُخلي المكان من كل ماليس هذا الإعصار، هذا الاستبداد. لقد صنتُ نفسي من أجل بيرينيس، صنتُ نفسي، على نحوٍ غامضٍ، من أجلها. في هذه الليلة يؤيّد اوريليان ذاته. كلُّ شيء غدا عنده منطقياً، علامةً على حبّه. حتى هذا الثلج الذي يعلق بأهدابه.

تردّد في ترك الثلج، في التخلي عن بياضه. ومع ذلك، نفّض نفسه عند حانة «لولي». سوف يستعيد هنا الليالي الضائعة... يجب أن يُعيد اختراع الأمكنة، أن يتعلّم من جديد... ألم يتراجع عن النوم، لأنه كان يخشى الآليات القديمة لأحلامه، لأنه لايعرف بعد كيف يوفّق بين الأحلام والحب؟ الجمهورُ هنا والنور والدخان وحرارة الرقص السميكة والخمر، كل شيء يُهاجمه كأنه الخيانة. لكنْ أليس هذا المكان هو الذي أمسك فيه لأول مرة بيد «بيرينيس»... وتستولي «بيرينيس» على حانة «لولي»، وتملؤها وتحوّل شكلها، ليس هاهنا غيرها، وهي التي يلقاها في هذا الفرن، في هذا الجحيم...

من المرقص وافتْ عاصفةٌ من الجنون. المزامير والشرائط الملوّنة، والأبواق الصغيرة، والاوركستر المنطلقة من عقالها في الـ«فوكس تروتْ» المتحرّرة، والناس الذين يصفّقون تصفيقاً ايقاعياً حول رجل ضخم وامرأة قصيرة يقومان بحركاتٍ غريبة وسط الراقصين، بخطوات مخترعة، وأشكالٍ من الرقص مضحكة. و«لولي» بذاته، وهو يصرخ «أولّي» أكثر من عادته، مرافقاً الإيقاع، منحنياً على نفسه، دافعاً خفيةً مديري الخدم. كل ذلك تخدّده الكشّافات وسط تنفّس الرواد الحار، وضحك السيدات في ثياب السهرة، والروحات والجيئات الى الحمامات، وبائعي الأزهار، والشمبانيا المطلوبة بصوت عالٍ، ورائحة الشواء الخارجة من المطابخ وسط اصطفاق الأبواب.

قالت سيّدةُ حجرة الثياب المسرفة الهزال وهي تأخذ معطف «اوريليان»: «لاأدري ماذا أصابهم، هم كذلك منذ الساعة الحادية عشرة... لايسمع أحدٌ

أحدا... ليس لدي دقيقة واحدة للقراءة! وعادت الى روايتها بعد أن تبسّمت لليرتيلوا... ذلك أن هذا الرجل الذي يتردّد على الحانة يُعجبها. فهو، على الأقل، متميّز...

لم يكن في الحانة مكانٌ حتى للارتفاق. فهذا الممرُّ الضيق ممتلىءٌ بالواقفين، وبالضحكات والصيحات. والكلّ يتكلمون الانكليزية. الجوّ حارٌ وهو يشبه قليلاً جوّ «المترو»، مع صخبٍ أشدّ. «متأسف». قالها بالانكليزية أمريكي متين البنية، من أقصى الغرب الأمريكي، يداه محملتان بالخواتم والكؤوس، معتذراً لأنه صدم بمرفقه بطنَ اوريليان. وتسقط الخمرُ على فتاة الحانة فتصيح. ويدعوها الآخر فيتمّ التصالحُ...

«روجيه»! ويلتفت «اوريليان» فإذا بها «سيمون»، وهو يدعى عندها كمُا يُدعى عند «ريكيه» روجيه. «مازيت» فستانُها جديد. لونُه هو البِدْعةُ الشائعة... الأزرق، ولآلئها زائفة. لعلها من عند بحّار ذلك المساء. واستطاعت أن تجثم على منضدة. وحملتْ جارها، وهو رجل أصلع على أذنيه شعرٌ، (فكّر اوريليان، الشعر سيّء التوزيع) أن يغيّر مكانه لتسمح لصديقها - على حدّ قولها - أن يأتي ليحدّثها...

- ماذا تتناول؟ هذه المرة، أنا التي تقدّم لك، هذه المرة.

- أنتِ غنيّة، إذن؟ ماهذا الفستان، ياعزيزتي!

قال هذا وقد صَفَّر من الإعجاب. سُرّتْ كثيراً لأنه لاحظ الفستان.

- فاخرٌ؟ من أزياء البيوتات الكبيرة... لست أدري... وهو من شارع كليشي، في ذلك الدكان الذي يحتوي أزياء على شواخصَ... واذن، فبما أن قامتي مناسبة... مارأيك باللآلىء معه! هذا الفصل، فصل الأناقة فصلُ الأناقة العظيمة... حتى النساء اللواتي عندهن لآلىء خفيفة استبدلن بها... لآلىء زائفة... أجل! قلْ لي «فريدي» هذا للغد؟ (قالت هذا للنادل) إذن ماذا تتناول؟ سيد كار، كالعادة؟ سيد كار، وكأس شمبانيا، أنا سأدفع...

مأسهل مايدخل اوريليان في هذا الرداء العتيق المهجور! هو وحده يعلم

أنه ليس الرجل ذاته. هو وحده الذي ينتشي من عدم التناسب بين هذا الجو وسرّه هو. وسيدع نفسَه تهدهدها وتحملها، الى وقت متأخرّ من الليل، تلك الخمرةُ السوقيّة، ذلك الدوار البالي الآلي... فرحُ الببغاء، فرحُ سيمون التي تروي ليلتها السابقة، الشخص لطيفٌ، لطيف للغايةُ، وليس متطلّباً... إنها تتحدّث وهو يحب أن تتحدّث، إنها الوحدة الحقيقية التي تتصاعد فيها الأغنية العاطفية العميقةُ، التي لم تُسمَع قط، أغنية بيرينيس... وبجانبه سيداتٌ من «ماساشوزيت» بنظاراتهن الأنفية، وفساتينهن المقوّرة حتى السرّة، وهن يأكلن واقفات شواءً من لحم الخروف مع البطاطا المقلية... وكما أن تمثال كونديياك الذي لم يكن يملك بعد سوى حاسة الشم كان كله رائحة الزهر، فكذلك هو الذي لايشم رائحة البطاطا المقليّة، كانت رائحته من الكلأ المقطوع ولا شيء غير ذلك.. لم يُصَبْ قط بهلوسةٍ من هذا النوع... وفكّر في سراب الصحاري... هنا، في الجمهور عطرٌ كماء الوهم البارد... هاجسُ عطرٍ يجعل بيرينيس مهيمنةً.

- «أترافقني هذا المساء؟»

نظر الى سيمون بدهشة. فشرحت حالها:

- «في ذلك المساء كان معي «بوب»، البحار الأمريكي، كما تعلم. ولم أكن مسرورةً لأنني رفضتُ طلبك... نحن، في النهاية، صديقان قديمان... ولا يغتاظ أحدُنا من الآخر... لكني حرّة في هذا المساء، فبعد الحظ الذي كان بالأمس... يحق لي أن أعيش مرة على هواي... مع رفيق... أليس صحيحاً؟ وستدفع عني ثمن صدر دجاجة... اوه! في غير هذا المكان! المكان غالٍ هنا، وليس أفضل من غيره... «فريدي» لم يسمعني، آمل ذلك؟... لا، قريباً من هنا، في دكان المعجّنات، كما تعلم... إذن، نعم؟...

تمطّى «اوريليان» قليلاً، ونظر الى سيمون. كان منزعجاً لأن يبدو غيرَ رقيق.

- «موافق على الدجاجة... لكن اعذريني... سأذهب لأنام»

- تنام وحدك؟ اوه! هذا غير لطيف!

قبّل يدها: «هذا لايصحّ... سأقول لك...

ـ أعندك أحد؟

ـ لا... أنا عاشق...

استدارت نحوه وفتحت عينيها مثل صحنين:

ـ عجيب! أنتَ تُدهشني! عاشقٌ، أنتَ! متى؟

ـ لا أدري... الساعة الثامنة مساءً.

ـ آه، حسنٌ، آه، حسنٌ! تلك أخبارٌ غريبة!

أصابها الذهول، واستثارها النبأ·

ـ العشق حديثٌ إذن... لكن هل أنت واثقٌ، على الأقل؟ نقول لأنفسنا أحياناً... ثم في اليوم التالي...

أومأ بيده·أنْ «لا».

ـ وإذن فالأمر جدّي...؟ وستتزوج؟ لا؟ الأمر ليس كذلك؟ هي لا تريد؟ من هذه؟... طيّب، طيّب، لست مُجبراً على الجواب... «روجيه» عاشق! ماكنتُ لأصدّق ذلك أبداً... لاحظْ، أنت على حقٍ... آه! ليتني أعشق أيضاً... أنا، انتهيتُ... كان ذلك من سنتين... من سنتين، لا من ثلاثة أيام... انتهيتُ الآن...

فكّر في بيرينيس. في أيّ شيء يُقحمها؟ إنه لا يُقحمها. إنه لايستطيع أن يتصرّف على نحو آخر. وهو من جهة أخرى لايكنّ أيّ احتقار لهذه المرأة بجانبه. فهي كائن بشري، ولعلها تعرف حقاً ما الحبّ... هزّت رأسها

ـ عاشق «روجيه» عاشق... وعند ذلك ينام وحده... أنت تعلم أنْ ليس، في الحقيقة، من علاقة... أنا، عندما كنتُ عاشقةً... كنتُ أضاجع رفيقاً لي لأتحدّث عن ذاك... هل يُحسَبُ هذا؟ لكن... الرجال... ربما كانوا مختلفين... أنتَ سعيد أم بائس؟

أرسل حركةً مبهمة. قالت.

ـ صحيح. لايمكننا أبداً أن نجيب عن ذلك... هيّا انظرْ خلفك...

استدار. كان «بارينتان» هنا، وعلى فمه ابتسامة.

ـ عفواً... عفواً، سيدتي... ماذا فعلتَ بالمرأتين، ياصاحبي؟ ظننتُ أني سألقاهما هنا، معك...

ـ زوجتُك أحسّت أنها ليست على مايرام، فعادت الى البيت...

ـ آه! حـقـاً! إن كنتَ ترغب فـانضـمَّ إلينا... أنا مع «ديكور» و«روز»... تفـرّغتُ أبكر مما كنتُ أظنّ.. فكّرتُ في اصطحابهما عند الخروج من اوبرا الشانزليزيه حيث كانت روز تمثل من أجل احتفال خيري... نحن نحتفل بشركتنا... سأشرح لكِ ذلك! سيدتي...

ـ طيّب، سآتي بعد لحظة...

عندما ذهب ادمون، بدتْ سيمون كمن تفكر. ثم قالت:

ـ آه، حسن... هذا هو الزوج؟ إذن، الأفضل أن تذهب... يمكنه أن يتوهّم....

لافائدة من ثَنْيها عن عزمها. وإذن انضمّ اوريليان الى باربنتان وضيفيه.

هتفت «روز» وهي تمدّ يدها ليقبّلها، برأسها المردودٌ الى الخلف كعادتها، وبالنظرة البعيدة من عينيها القصيرتي النظر، وذقنها الممدودة، وبأسنانها المكشوفة جميعاً

ـ أوه! ياعزيزي! أنت مواظبٌ على موقعك؟ لكن من المؤسف أن السيدة باربنتان قد تركتكما! كنت سأُسَرّ برؤيتها... بأن أقول لها كم استلطفْنا ذلك، وكم رأيناه أنيقاً... للسيد باربنتان.. لأدمون... أعني أنه لما كانت طاعتكَ واجبةً، ياصديقي...

استرعى الدكتورُ انتباهها

ـ روز، «ليرتيلوا» غير مطّلع على الأمر!

قال ادمون

ـ سوف نُطلعه. لكنْ ليشربْ أولاً!

صُبَّتْ «الايالا». سأل بارنبتان وهو ملتفت الى السيدة «ملروز»:

ـ وكيف كانت «بروكسل»؟

ـ آه! صحيح، لم نرك منذ ذلك اليوم؟ قال لي «جيكي» كم كنتَ لطيفاً في وحدته. أحب هذا... وعندما أتركه ينتابني النّدمُ...

تناول «جيكي» أي الدكتور، من كأس امرأته الأداةَ التي تُرغي الشمبانيا وحركه بعصَبيّة.

قال ادمون:

- نعم، إنه عشاءُ عمل... روز ملروز وشركاؤها...

ضحكت ضحكاً عالياً، لكن بتميّز بشع. كان اوريليان ينظر إليها ويقول في نفسه: لقد أمكنه أن يراها، في ذلك المساء عند «ماري»، جميلةً، مُشتهاةً، جذّابةً... من ناحية الجمال، هي جميلة... لكنْ تصوّرْ أنه كان من الممكن أن يعشقها هي لا... في الحقيقة، لم يكن ذلك ليُستَغْرَب، كانت أقرب كثيراً الى شخص الحبيبة المنشود منها إليه... كان يتحاشى أن يفكر في الاسم المحبوب...

تنهّدت وقالت:

- اوه! «بلوز»[1]...

سأل ادمون:

-أتريدين أن ترقصي؟

مرّرت يدها، وهي تنهض، في شعر زوجها. فضحك ضحكةً باهتة، ونظر إليهما وهما يبتعدان، وهو يمشط بمشط الجيب شعره.

سأل «ليرتيلوا»:

- ماقصة الشركة هذه؟

- فكرةٌ من عند باربنتان... مستحضرات التجميل، المراهم، المساحيق، المعاجين المانعة للتجاعيد... أنت تدرك، ياعزيزي، أننا بوسائلنا المحدودة... كان عملاً يصنعه صانعٌ منزلي... كنتُ أتعامل مع أميرة روسية وكيميائيٍّ أرمني... كل ذلك كان يُصنع في صالون الأميرة... بين أواني القيصر الفضيّة وسجّاد الجدران الحقيقي والتقليدي... مع هاون البارود، وأدوات الاختبار على المدفأة، وأيقونة في الزاوية...

---

(١) موسيقا الجاز البطيئة. المترجم

ـ ثم ماذا؟

ـ اقترح بارينتان على روز أن تباشر المشروع... وهو يقدم الرساميل... سيكون لدينا مخبزٌ... وعلب عليها صورة «روزملروز»، وإعلانات عليها صورة «روز ملروز»... هذا يغيّر كلَّ شيء، أليس كذلك؟ سننتقل الى مستوىً آخر...

أية رشاقة وأي جلال تملكهما السيدة «ملروز». عرفها بعض الناس وصفّقوا لها برصانة. كان مراقصها يطوّقها، وقد أرخت ذراعاً على فستانها الرمادي الطويل... ما من امرأة يلائمها اللونُ الرمادي مثلها، ووجدها الناسُ كما كانت في ذلك الفيلم الاسباني... حيث كانت تقوم بدور أمريكيةٍ.. كما تعلم... زوجان جميلان،، من جهة أخرى، مَنْ هذا، الراقص، بسحنته المحروقة، وعينيه الجميلتين الصافيتين، ومظهر البطل الرياضي؟ لعله أصغر منها قليلاً، لكن مع ماتملك من موهبةٍ وسحر...

«لم أشكركَ بما يكفي،ادمون... لا، لا تعترضْ! كان ذلك لطيفاً حقاً، وفيه أناقة، هكذا، فجأة! حتى إنك لم تنتظر عيد الميلاد!

ـ إن كنتُ سررتُكِ فقد كافأتني ألف مرة عن ذلك، روز!

ـ طبعاً، سررتَني! ولاسيما من أجل «جيكي»... ومن أجل «جيكي» إنما أنا سعيدة... إنه شديدُ الجفُول، تصوّرْ أنه لايقبل شيئاً... ثم إنه يتعذّب نفسه... بفكرته وهي أنه لايستطيع أن يُعطيني كلَّ شيء... وفكرة الدونيّة أيضاً... بجنبي... جنونٌ في الحقيقة...

ـ من ذا الذي لايُحسُّ بجنبكِ...

ـ لاتتفوّهْ بحماقات! لكنك ترقص كالآلهة! فهذه اللطافة من قِبَلكَ في أن تكون قد فهمت الوضع هكذا، دفعة واحدة...

ـ ستكون له واجهتُه الاجتماعية... وهو يستحقّها من جهة أخرى... المستحضراتُ ممتازة... اوه! استعلمتُ عن ذلك! لي صديقات بين النساء...

ـ هذا واضح، أيها الوحش الجميل!

ـ إن ما أصنعه إنما هو تجارةٌ رابحة، أؤكّد لك ذلك... لا حاجة الى

شكري... آها! بكّرتِ في الشكر! أنا حذوتُ حذوَكِ...

- ينبغي أن أقول... الحمدُ لله! أنت إلهُ لحماً ودماً... وأنت تضمّني بشيء من الشدّة... والناسُ يُلاحظوننا...

عاد الى الطاولة. «انظر إليها، ياعزيزي. أليس في هذا مايُهلك؟» خرج «ليرتيلوا» عند دعوة «ديكور» هذه من حلم يقظته، وانفصل عن بيرينيس للحظة. وراعه ابتسامُ «ادمون». وتذكّر ظهور «باربنتان» قبل قليل في ردهة «الكازينو»... ما أشدّ تعقّد الناس!

مالت «روز» عند عودتها على زوجها وقالت «ياسيّدي المدير، أرأيتَ كيف يرقص شريكُكَ؟ لقد تلقّى دروساً عند ميتشين، كل شيء يسهل تفسيره... فردَّ باربنتان: «إذا لم نتكلّمْ عن الدرس الذي تلقيّتُه قبل قليل...

كان لابدّ من أن يراقص السيدة «ملروز». لم يكن لها وزنٌ. لم يكن لها وزنٌ، الى حدّ الإدهاش، بالنسبة الى امرأة كبيرة مثلها. كما كان يُدهش فهمُها للجسد، وهو فهمٌ يَسْتبقُ الراقص ويوهمه بسلطته عليها. ومع ذلك فهي التي كانت تقود عندما كانت تبدو منقادةً له. لابد أن شؤونها في الحياة كانت كذلك. كانت تملك ذلك النبوغ، تلك الموهبة في أن تظل بعيدةً عن الرجل وقريبةً من الراقص، وشبيهة من هذه الناحية بشرّاقة الهواء المُشعلة للنار. حياءُ الفتاة وحشمتها، وأسوأ إثارة، تلك التي لا نصدّقها، والتي نتصوّر، أنها من اختراعنا، والملامسة الخفيفة التي سرعان ماتُكذِّب والتي تجعل الرجلَ يخاف أبداً أن يكون قد تجاوز جرأته الواعية. وفجأة التقى اوريليان، وهو يدور بين الطاولات، عيني سيمون عليهما، فاحمرّ. لقد نسي بيرينيس للحظة.

- «لا أعرف راقصاً أكثر صمتاً منكَ»

- سامحيني...

- لماذا؟ إن لم تكن محدّثاً... فلا شيء أبشع من الرجال الذين يجبرون أنفسهم...

لم تستطع أن تعود الى الجلوس، فأمسك بها ادمون على الطائر، ورقصا ثانيةً. وقال:

ـ فاتنٌ ليرتيلو؟

ـ لابأس...

ـ اوه! أكثر مما قلتِ! حميع النساء يتدلّهن به...

ـ لستُ منهن... لاأدري عن أي نساءٍ تتحدث... أنا أجد قسماته مسرفة الكبر، مسرفة... سوقيّة قليلاً. في نهاية الأمر...

ـ أنت صعبة...

ـ أنا صعبة... أنا أفضّل الرجال، كيف أقول لك؟ أكثر اكتنازاً... أنت تعلم أننا لا نستطيع أن نَقْرِصَ أي موضع مادام قاسياً، عضلاً.

ـ هو متين، اوريليان... وأنيق...

ـ أجل، إنه يحسن ارتداء ملابسه... لكن مايعجبني هو أن يكون الرجل جميلاً بلا شيء... في الحقيقة أنا امرأة للقوّادين...

ـ يالمصيبة الآخرين!

أحسّ فجأة إحساساً حاداً بحضورها. لقد فقدت «روز» بما لها من موهبة الممثّلة، وهي موهبة كانت تجبرها في كل لحظة على لعب دور، على تجسيد شخصية، فقدت تميّزها على نحوٍ لا إرادي. عادت بنتاً... همست.

ـ «أتحسب نفسك مثلاً ممن يدفع للبنات لقاء وصلهن؟»..



- ٢٨ -

تذمّرت السيدة «دوفيني»: «آه! لو لم يكن ذلك للسيد ليرتيلو! كان الطقسُ كريهاً: ذاب الجليدُ، ففي باريس لايصمد الثلجُ. كانت تَخْبط في ذلك الوحل المُنتن، وهي تُلقي نظرةً عجلى متطيّرة على معرض الجثث الذي كان مايزال موجوداً إذ ذاك في مقدمة «المدينة»، وتفكر أن من الغريب أن تشعر بالبرد دائماً عندما يذوب الجليد أكثر مما تشعر به وهو يتشكّل. هذه الرطوبة الكريهة! أحكمت شالها الصوفيّ الأسود وأوسعت الخُطا. لقد تأخّرت قليلاً في المنزل الآخر الذي كانت تُعنى به في الضفة اليسرى، قبل أن تتّجه الى منزل السيد ليرتيلو، في جزيرة «سان لويس». إن من أعظم مفاتن باريس تلك الأحياء التي آلت الى الانحطاط، وهي كثيرة العدد وقد سقطتْ من النبالة إلى التجارة، الى مساكن لعامة الشعب، محتفظةً بزخارف مداخلها، وأبوابها وأفنيتها وسلالمها المنبئة بعظمتها الحزينة. لكنّ كل أثر من آثار تلك الروعة التي ابتذلت يستمد منْ اللافتة أو التشويه أو الإذلال معنىً وقيمة يعجز الجمال وحده أو العمر أن يسبغاهما عليها. وفيْ الجزيرة التي لم يُبنَ فيها إلا القليل من البيوت منذ أيام أبّهتها، فإن عزلة النهر قد حَمتْ الى حدّ كبير هذا المركبَ الحجريَّ من الانحطاط. فلم تُصبه تجارة المدينة الكبرى، وقد انحصرتْ قريةُ الجزيرة، إن صحّ القولُ، والحوانيت الضرورية لحياتها، في شارعها المركزي، شارع «سان لوي آنليل»، وهو شارع ضيّق مخفيّ، مظهرُه المخجل كمعيّ يجتاز جسداً نبيلاً. وهنا يَقْطن أصحابُ الحوانيت، وأهل الحرف، والشعب. ومن الجهتين، تكاد الشوارعُ القصيرة التي تُفضي الى الأرصفة، والأرصفة نفسها، تتكوّن كلّياً من دور قديمة ماتزال تسكنها أسرٌ سقطت لكنها كريمة، وبرجوازيةٌ لها سرابُ الارستقراطية الخفيّ، وفنانون، ورجال القانون، وأمريكيون ساقهم إليها سعرُ الدولار؛ ووسط هذه العمارات الموزعة بين مستأجرين مختلفي المشارب، وهي فرح المزخرف والفقر الذي ينتظر إرثاً، طلعتْ في القرن التاسع

عشر، أو أُعِدّت بعض مباني الإيجار مثل المبنى الذي كان يسكنه اوريليان، والأمير... والشاعرة «ماري دي بروي»، والوزير القديم «تيئبودي لاكور»، وأشخاص عشرةٌ آخرن معروفون.

تجولت السيدة «دوفيني» قبل أن تدخل المنزل، في شارع «سان لويس». كان اليومُ يومَ الأحد. وكانت الحوانيت ملأى بالناس. اشترت بيضاً من عند اللبّان وانتهزت هذه الفرصة لتدفع ثمن الحليب. كان الجميعُ يتحدثون هنا عن قصة لم تُثر اهتمامها إلا مرةً عند بائع المنوّعات التي عرّجت عليه لكي تشتري أداة تنظيف لأوانيها، إذ ان القديمة لم تعد صالحةً. والقصة ان بحّارةً انتشلوا من الماء امرأة مسكينة في فستان الحفلة الراقصة، تصوّروا، ولعلها لم تكن في السين منذ زمن طويل، وهنا تفاصيلُ تقنيّة تشوّهت من فمٍ لفم، وقد قُطعتْ إصبعها لنزع خاتم محتملٍ منها. وإذن فهذه جريمة؟ ومع الأسف، لم يكن لدى السيدة دوفيني من الوقت لسماع ماهو أكثر من ذلك. كان الحارس يغسل تحت القبّة: «صباح الخير ميشو»!.. كان ابن خمسين وبضع سنوات، مايزال نضراً، كثير الشعر جداً، متوسط القامة، أنفُه مشقّق، وشاربه رمادي مُسبل، وعلى وجنته اليمنى وحمة بنفسجية ضخمة مثل قطعة نقدية من عشرين فلساً. ومنذ أن ترك الحافلة الكهربائية حيث كان جابياً، أخذ يساعد السيدة «ميشو». كان بوده أن يعمل للسيد ليرتيلوا، لكن مستأجره كانت له فرّاشةٌ. ولذلك كان السيد «ميشو» يكره السيدة «دوفيني». دمدم وهو يلمس قبّعته، وتلك طريقته في التحبب الى تلك المرأة! ولم يمنعه هذا من أن يقول:

غريقة أخرى منتشلة من السين، ياسيدة دوفيني!

ـ علمت ذلك عند بائع المنوّعات...

كان للسيدة «دوفيني» كرامتها. صاح السيد «ميشو»:

ـ أطّلعتُ الصحف! لم يكن من بريد!

حرص أن يقول: انه يقوم بخدمته.

كان مطبخ منزل العَزَب يطل على مطلع الدرج نفسه الذي يُطلّ عليه المدخل. لم يكن للمطبخ سلّمٌ في هذا الطابق. وكانت السيدة دوفيني تصعد سلم الخدمة حتى مطلع الدرج السابق، حيث تَدْلف بباب نصف طابقي، الي السلم الصغير الذي يصعد عليه المستأجرون.

حملت الصحفَ عل المقبض النحاسي للتوازن مع الخبز والحليب الى جانب ممسحة الأرجل. ودخلت المطبخ مقطّبةً حاجبيها على عادتها دائماً. لأنها كانت تتساءل في هذه الدقيقة عمّا ينتظرها على الطاولة.

كان تقليداً متّفقاً عليه أن يضع اوريليان قُصاصةَ ورق مكتوبة على الطاولة، عندما يرغب في شيء، ولاسيّما ألاّ يُزعجه أحدٌ ـ إمّا لأنه يريد أن ينام وإما لأن عنده شخصاً ما. كان أحياناً يكتب: سيدة «دوفيني»: «أعدّي غداءً لشخصين في الغرفة» والغرفة تعني اختصاراً ماليس غرفة النوم. كانت السيدة «دوفيني»، في الأحوال العادية، تدخل المنزل، وتفتح الستائر، وتحمل إليه فطوره الى السرير. وكانت تخشى دائماً أن يكون عنده «أحدٌ». لا لأن ذلك يَصْدِمُها: فعندما تَخْدم عند شاب تعرف ما تتعرّض له، ولاسيّما في مثل سنّه. لكنها في هذه الأصباح أخذت تحسّ أنها مُهملة، إذ لم يعد يحدّثها... انزعجت مع ذلك وربما كان بها شيءٌ من الغيرة. نظرت إذن الى الطاولة وهي داخلة. لم تجد شيئاً. تنهّدتْ ونزعت شالها، وأشعلت فرنَ الغاز، ووضعت ماء للتسخين، وقطّعت الخبز الى شرائح رقيقة لتحمّصه، وتناولت مطحنةَ القهوة... أنا محظوظة، ففيها من القهوة مايكفي لهذا النهار... كيف نسيت أن أشتري! أين كان رأسي، تبّاً لي...

عندما فُتحت الستائر، كان اوريليان مايزال نائماً؛ تململ في فراشه، وأغرق أنفه في الوسادة، ثم أخرج يديه الطويلتين، ونظر الى النور الشاحب بدهشة. كانت الساعة الجلدية الصغيرة الحمراء تشير الى الحادية عشرة. «كم تأخّر الوقتُ! صباح الخير، سيدة دوفيني!» وأمرَّ أصابعه في شعره ليَمْشطه.

- «صباح الخير، سيدي... كنتَ مستغرقاً في نومك، وأنا حاقدةٌ على نفسي لأنني أيقظتك...

- لابدّ من النهوض، سيدة «دوفيني»...

- بالتأكيد، حين يكون عندنا مانفعله... لكن ماالذي يجبرك، ياسيدي؟ وفي يوم الأحد أيضاً!»

وضعتْ الصينيّة على الطاولة. بيضة «نمبرشت»، القهوة، الحليب... كان اوريليان ينظر الى جميع الأشياء المألوفة بنوع من البلادة. لقد أُخرج من نومه قسراً، فوجد حياته مثل درج أُسيءَ ترتيبُه، وينبغي أن يُرتَّب قبل كل شيء، لمعرفة ماالذي يمكن أن يتّسع له. السيدة «دوفيني»، البيض... وفجأة تذكّر اليوم السابق الذي غمره كالنور. أصغر تفاصيل ذلك اليوم، الشعور المبهم أيضاً بأهمية ذلك اليوم، بشيء ما أصاب حياته كلها، وأخذ يغيّرها. سمع نفسه يقول لأخته أنا عاشق. عاشق... قالها، أذلك مؤكد؟ أيُصدَّق ذلك؟ وإذن فلم يبق شيءٌ في مكانه، لم يبق شيءٌ كما كان من قبل. إنه سجينٌ لما قاله، ولما فكّر فيه. عاشقٌ... إن صورة بيرينيس احتاجت الى شيءٍ من الوقت لتصعد الى أفكاره، وتتشكّل فيها، وتُبْعد عنها العُلّيقَ، وتشعبّات الأحلام والليل، بيد أنها لم تكن غائبةً عن الذكريات المبهمة والتي لاارباط بينها، ذكريات اليوم السابقِ التي كانت أول ما واجهتْه. لكن التشديد لم يكن عليها. إن اسم بيرينيس وصورتها لايلتقيان تماماً. كان هناك شيءٌ مؤلمٌ في هذا الضياء المتعاظم، في هذا البياض... بيرينيس... أأنا أحبُّها حقاً؟ ماهذا الجنون؟ مازال في الوقت متّسعٌ لإيقاف ذلك كله. وفجأة أحسّ بحياته تستمرّ كما كانت في الماضي، دون بيرينيس، خليّ القلب، مضيَّع الوقت. وتذكّر كلمة السيدة «دوفيني»: «حين يكون عندنا ما نفعله» وكأنها لومٌ له. وبدا له عدمُ حياته، وتساءل لماذا ينهض كل يوم. خفض بصره، ورأى من باب الغرفة القناعَ على الجدار. كيف أمكن أن يجد أدنى شبهٍ بينه وبين «بيرينيس»؟ لم يعد يرى كل ذلك، لكن كل شيء، حتى عدم المشابهة، كان يردّه الى بيرينيس. كان يتشبّث بهذا الحب، كان يتشبّث بالحب مثل رجلٍ يغرق. ماذا كانت تقول السيدة «دوفيني» إذن؟

في فستان الرقص، تصوّرْ ياسيدي... فستانٍ مقوّر... لكم أصابها البرد! سيدة... لا كما تظنّ... سيدة... عليها حليّ... وهذا ماجعل إصبعها يُقطع».

لم يسمع البداية. لم يطرح أسئلة حول هذه القصة الوحشية. وفجأة تذكّر موعده في شارع «سيزار فرانك» اليوم، الساعة الخامسة.

غيّر ذلك كلَّ شيء. جلس على السرير. وطلب الصينيّة.

ـ سيدة «دوفيني» انزلي اليوم واشتري لي لحماً مبرّداً... أما يزال عندنا مربّى؟ سوف أتغدّى هنا...

ـ هذا كل ماتطلبه، ياسيدي؟ أستطيع أن أصنع لك هريسةَ البطاطا... سلطة؟

ـ إذا شئت، سيدة «دوفيني»... «المارينييه» اليوم الأحد مغلقة، ولا أريد أن أتسوّق في مثل هذا الوقت... وسأخرج فقط بعد الظهر...

ـ آه! أنت على حق، ياسيدي! وهذا الوحل في الأرض! أتحبّ، ياسيّدي، أن أبقى لخدمتك؟

لا، إنه يفضل أن تترك السيدة «دوفيني» كلَّ شيء في المطبخ، وهو ينوي أن يستكمل زينته، وأن يأكل على هواه، في زاوية من الطاولة، في أية ساعة شاء، والوقت قد تأخر... لا، لا، دعي ذلك: سترتبين المنزل كله غداً... وسأرتّب سريري... نعم، شكراً. لن تذهب؟ سمعها تنقّب في الغرفة، وتنظّم، وتجمّع صحفاً قديمة، وتُهيِّء النار (لم يبق سوى إشعال عود الثقاب)...

«إذن، سأنزل، ياسيدي... وسأضع كلَّ شيء في المطبخ...

ـ أجل، لاتشغلي بالي بصعودك ثانيةً... لا حاجة بي الى ذلك..

زمّتْ السيدة «دوفيني» شفتيها «ليس لك أن تخشى شيئاً. هيّا، لقد أخذت تغتاظ الآن! وأخيراً عاد الصمتُ والوحدةُ. فيثب اوريليان من سريره، ويكاد يرمي بالصينية وباقي القهوة، وينظر الى نفسه في المرآة الكبيرة؛ كان طويلاً، في منامته المقلّمة بخطوط رمادية لؤلؤيّة ورمادية حديدية، المدعوكة، سمين الوجه من النوم، غير حليف، مشعّث الشعر؛ وتطلع باستنكارٍ الى أظافره التي لاتوحي بالنظافة. الماءَ، الماءَ!

لم يكن نظامُ المغطس حديثاً جداً. وقد وجده اوريليان قائماً، وهذا بالذات ماضايقه دائماً. كان الحمام يحتاج الى وقت كبير ليسيل، وكان الماء الساخن مع جهاز الغاز بطفراته المقلقة لايسمح للماء البارد بالسيلان دون مراقبة. وكان يجب أن يظل المرء قريباً منه. بينما كان الماء يسيل كان اوريليان، تبعاً لعادةٍ قديمة يغسل أسنانه بشدّة بادئاً بأسنانه التي فوق. ثم يسوي معجون الأسنان فوق الفرشاة، ويمضي ليلقي نظرة سريعة على المغطس.

عثر على سرّ جنونه. لم يعد يرتاب في أنه يحب. وأنه يحبّ بيرينيس. بيرينيس هذه التي لايعرف عنها شيئاً البتّة. أخرج ثيابه الداخلية ونظر إليها بعناية المدقّق. هذا القميص لا، لعل هذا أصلح... هيّا، سيسخن الحمامُ فوق المطلوب. ترك سراويله القصيرة على كرسيّ، وخلع منامته. لا أجد صابوناً. هذه السيدة «دوفيني» لاتفكّر في شيء... اضطر الى الجري عارياً في الغرفة، ليُحضر من الخزانة صابونة من ذلك الصابون الضخم المدوّر الأسود الذي كان يحبّه، والذي كان يأتيه من لندن. ووقف أيضاً أمام المرآة ونظر طويلاً، والصابونة في يده، وكأنه ينظر الى غريب. هزّ رأسه وعاد، وهو يحلم، الى المغطس. مَنْ يدري؟ النساء ينظرن إلينا نظرةً مختلفة. وبدأ ينظف جسمه الذي لم يَخْتَرهُ، بعنفٍ مدقّق.

كان يستطيع حقاً أن يقضي ساعات في هذا التمرين، ولم يكن مسروراً من نفسه. كان العالم يَضيق مثل المجال البصري. كلُّ شيء كان منوطاً بنظافة كل مربّع من مربّعات الجسم. ولم يكن كفّ الحمام كافياً إلا لتسهيل عملية التمسيد بالصابون وإعدادها -وهو تمسيد لم يكن يجد مسوّغاً لتوقفه-، الحجر الجلف على الجلود الميتة، الفرشاة التي تدخل المسام، تلك العناية المشغوفة التي يحيط بها نفسه مثل أرض الغرفة أو الحذاء، أحد تلك الأشياء التي يُلمّعها المهووسون بزَهْوٍ صبياني. ولم يكن ينتهي من جانب حتى يتساءل إن كان قد نظف تنظيفاً كافياً هذا الجانب أو ذاك مما مرّ عليه من قبل، وكان هذا العمل من موضعٍ الى موضع مع تعديلاته يمتدّ فوق المعقول، جاعلاً الجلد أحمر.

«سيّدي!»

كانت هذه السيدة دوفيني تدق على الباب، مع أنه قال لها ألاّ تزعجه.

- مابك؟

- هيّأتُ كلَّ شيء في المطبخ. مــاعليك إلا أن تُصَــفّي البطـاطا... وهـي تُطهى على النار... وأن تضع قطعةً من الزبدة... كما عُملت السلطةُ... وماعليك إلا أن تقلّبها...

- طيّب. فهمت. شكراً.

غطس رأسَه في الماء، واصبعاه في أذنيه، ثم خرج من الماء وهو ينفخ. مأشد إلحاحها، هذه السيدة «دوفيني»! كان بودّه لو استبدل بها رجلاً. فذلك مريح لجملة أشياء، ثم إن الرجل أفضلُ إدارةً للأمور. وأيضاً فهي لم تحسن مؤخراً ترتيب طيّة البنطال وهي تكويه! لكن أنى لك بالرجل إذا لم تُؤْوه. هناك الحارس الذي عَرضَ نفسه، لكن اوريليان لم يكن يحب وجهه، وهذه البقعة على وجنته كقطعة نقدية من عشرين فلساً، ولم يكن نظيفاً جداً وهو لاشك من الشرطة... الحاصل كل شيء لكي...

«إن لبستُ هذا القميص فيجب أن أرتدي البذلة الزرقاء الرمادية، وآخر ربطة عنق من عند «بيل»... لا، ليس لديّ حذاء يتناسب معها... إذن لو ارتديتُ الداكنة من عند «هلدديش اندكي»... على كل حــال، من أجل مَنْ ســأرتدي ثيابي؟ من أجل نفسي أو من أجلها؟ ما الذي تحبّه بيرينيس؟ لاأدري شيئاً من ذلك. ولا أعلم شيئاً عنها. الجوربان الإيكوسيان سيبدوان لها غريبين... المخاطر أقل مع الألوان الخامدة، ربطة العنق الداكنة...

عندما خرج من الحمام نشّف جسمه. وقال في نفسه: إنه لم يفكّر إلا في نفسه. وكانت بيرينيس مجرّد ذريعة تقوده دائماً الى مرآة الخيال التي لايرى فيها سوى اوريليان. اوريليان ودائماً اوريليان. كان يكرّر في نفسه، ويقول بتهكم جملةَ السيدة «دوفيني»: «حين يكون عندنا مانفعله، دون شك»!

آه! اليوم عنده مايفعله. كان مشغولاً حتى أعماق قلبه. كان كلُّ شيءٍ يتّخذ أهميةً هائلةً، ويدور حول موعد الساعة الخامسة. ولم يكن ثمّة وقتٌ كبير بين هذه الساعة وتلك، لم يكن ثمّة وقتٌ يضيّعه. كان مشغولاً الى حدٍّ رهيب.

أخذ يقصّ أظافر أصابع رجليه، وهو جالس على منشفةٍ، ولسانُه بين أسنانه، وانتباهُه على أشدّه. كان في الجو بخارٌ خفيف. حتى إذا ماانتهى من عمله هذا عاودته الشكوك بصدد القمصان، ونسي أنه غسل أسنانه، وعاد الى غسلها، وفطن الى ذلك وهو يغسلها، فهزىءَ من نفسه. ويُمرّر المسحةَ على المرآة التي عتّمها البخارُ... ويباشر الحلاقة الآن...

بيرينيس... إنه يدور حولها، حول الذكرى التي يَحْملها عنها، بتلك الأناقة والحذر في مقاربتها، كأناقة الرجال وحذرهم مع المرأة. بل إنه كان يتحاشى تلك الذكرى خوفاً من أن يُفسد شيئاً ما. وكان يرسم حولها دائرةً كبيرةً من الأفكار التي تبدو أنها لاتتعلّق بها في شيء، والتي كانت تردّه إليها، وتُهيّئه لها. ماأغرب حبَّ الرجل. فهو شديد الشَبَه، شديد الشَبَه الى حدّ صبياني بحب العصافير والدببة، والحشرات والذئاب. حتى عندما يكونُ الموضوع شيئاً آخر، فإنهم لايستطيعون أن يتصوّروه إلا كالإعداد للفعل نفسه، وأفكارهم ربيع الغابة، إنهم يختارون ألوان ريشهم، وستخدمون حناجرهم في موسيقا لاتستمد نغمها إلا من الغريزة، ويهيّئون العش، أو السرير، أو الوجار الذي يجذبون إليه تلك التي يقسمون الإيمان المغلّظة أنهم لم يدر في خلدهم أن يمسّوها بأطراف أصابعهم. التناقض والرياء هما العنصران المكوّنان للحب الحقيقي، ولا يمكننا انتزاعهما وإلا قتلْناه.

فتّش «اوريليان» وهو نصف لابسٍ، عن الحذاء الذي عزم على احتذائه. أين دسّته هذه الـ«دوفيني» ياترى؟ جميع الأحذية الأخرى هنا، وكأن ذلك جرى عن عَمْدٍ... إنها تغيّر مواضع الأشياء، ذات يوم، بعد سنتين، وكأنها تنبّأت بأنني سأحتاج إليه في هذا اليوم بالذات. آه، حسناً، وضعته في أسفل الخزانة. لِمَ ذاك؟ طبعاً لتخفي أنها لم تلمّعهما! وعليّ الآن أن أرهق نفسي بفَرْك هذا الحذاء، وتوسيخ نفسي... اوه، لا، يجب أن أجد رجلاً مكانها في النهاية...

مـر بالمطبخ، فـرأى الغـداءَ مـحـضّراً، فـرقّ للسـيـدة دوفـيـني. وضـعت الصـحـون، وأزهاراً في إناء صـغـيـر من الخـزف. وبجـانب ذلك السلطة والملح والفلفل وملح الكرفس، والفـوطة مطوية على شكل هرمي. أخـذ يضـحـك. ياللأم «دوفينى» الطيّبة! وأخذ يلمّع حذاءه بحرارة.

بينما هو ينتهي من ارتداء ملابسـه، في الغرفة، التقتْ عيناه القناعَ مرةً أخرى. كان القناعُ هذه المرة «بيرينيس». حقاً... لحظةً من بيرينيس عندما يختفي الدمُ من وجهها، بتأثير الانفعال. ماأروع جلدها! جلدٌ شفّاف، حيٌّ، بالغ الحياة حتى إنه يدفع الى التفكير في الموت...

ماقصة تلك الغريقة التي روتها السيّدةُ «دوفيني»؟ فستان حفلة راقصة، خاتم وإصبع مقطوعة. وأعاد بناء هذا الحادث الذي لم يأت تاماً الى شعوره ووقف قرب النافذة.

تأمّل «السين» طويلاً وهو يجري، أصفر، عكراً، بارداً، مُلتبساً. فستان الحفلة الراقصة... لماذا؟ أية مأساة من الظلمة واللألأة في تيار الماء، أي سرٍّ عاميٍّ وعميق؟ ما حاجة الغرقى الى الفساتين؟ ألسنا عراةً ماإن يغمرنا النهرُ، ألسنا في الموت كما في الحب؟ الأغطية باردةٌ أيضاً حيث يدخل اثنان! وإذا به يغضب على نفسه كيف صَرفَ السيدة «دوفيني» قبل أن يُرتّب المنزل؟ وإذا حدث ما لا يمكن... اوه! ليس لهذا أدنى حظ، لكن، إذا حدث مع ذلك...

وضع أغطيةً نظيفة على السرير وكنس. انصرف بعينيه عن القناع فوق، الناصع البياض، البالغ النقاء، الشديد البعد.



- ٢٩ -

كانت شقة السيدة «غودمان»، في شارع «سيزار فرانك» أبعد ما تكون، في ذهن السيدة «بيرينيس موريل» عن مشغل الرسام أو حتى عن الطراز الفني، كانت كالذي نجده في جميع البيوت الجديدة آنذاك، وكان يُفهم من «جديدة» تلك التي بُنيت منذ سنة ١٩٠٠، الشقة ذات الغرف الثلاث، مع قاعة الاستقبال وقاعة الطعام: غرف صغيرة، فاتحة اللون مع زخارف من طراز لويس السادس عشر، ومرايا على المدافىء. وما كان يُسمّى قاعة الاستقبال والتي كان يعمل فيها «زامورا» كانت غرفةً ضيّقة جداً، مربكةً بحمّالة عليها لوحة غير متناسبة مع المكان، من النوع الدادائي للفنان، لوحة بدت مبرنقةً، تظهرُ آلةً معقّدة ذات دواليب عاجزة عن الدوران، بلون الفولاذ مع أجزاء سوداء. كانت هذه الشاشة الكامدة تقسم الغرفة أفضل من الحاجز، وأظهرت المقاعد المجدولة بالخيزران من طراز «تريانون» والكراسي الواسعة المغطاة بالحرير المخطط خطوطاً خضراء وبيضاء، والمنضدة المزخرفة من طراز العصر، وطاولة الرخام، أظهرت ذلك كله غريباً، صغيراً، مُسرف القِدم.

ينبغي القول أن «زامورا» بلوحاته المكدّسة في زاوية على الأرض، وحامْلته، وريشه، وكرتونه، وأقلامه، وأوعية التلوين، قد جاء ليستقرّ في داخل هذه الغرفة دون أن يغيّر شيئاً من الحياة الجارية. وكانت السيدة الجميلة «غودمان، بيتي» وهي شقراء طويلة، وجهها كوجه العذراء الذي ينتمي بكل مافيه الى الفترة السابقة «لرافائيل»، وجه ممتنع كل الامتناع على الألم، أجفانُه منتفخة للغاية، وكأنها امتدادٌ للجبهة لفرط ما ان الحاجبان شاحبان، قد قبلت بهذه الإقامة ككل أشياء الحياة وبدت كأنما تجد طبيعياً جداً لوحات «زامورا» و«زامورا» وتحوّل قاعة الاستقبال الى مشغل. وفي هذه القاعة كان يلعب عادةً طفلا السيدة «غودمان»، صبيٌ وبنتٌ عمرهما خمس سنوات وسبع، وهما ملاكان صغيران أشقران لايُقاومان، وتجلس أيضاً زنجيةٌ بدينةٌ على رأسها منديلٌ

مربوط أخضر له نقاط حمراء لتخيطَ، ولتصلح بياض البيت وبياض سيّدتها، كما كان يُفترَضُ أن تحرس الطفلين. وفي القاعة كان يمرّ مروراً لا انتهاء له أصدقاءُ «زامورا»، ومعارفه المختلفو المشارب، من فرسانٍ محترفين مشهورين، ودوقات، ومهتمّين بالأدب، ورجال أغنياء فارغين من العمل، ونساء جميلات من كل صنف، ولاعبي شطرنج، وأصدقاء أثناء السفر، على عابرات الأطلسي، وفي الفنادق، وكذلك أصدقاء أسرة زامورا التي كانت أسرة مستقرة في تجارة الحبوب الدولية، مع أبناء عمومة في كنيسة اسبانيا العليا.

عندما وصلت بيرينيس التي ذهب «بول ديني» لإحضارها من شارع «رينوار»، الى «كفر ناحوم» هذه التي كان يكمّلها رأس طفل «لهودون» على المدفأة، عندما وصلت مع الشاعر الصغير، وجدت هناك، بغضّ النظر عن الزنجية والطفلين، والسيدة غودمان وزامورا، الخياطَ «روسيل» شارل روسيل، وهو رجلٌ ابنُ ستّين، ذو لحية كالعقد، وشعر أبيض أملس، طويلٌ، ولم ينس أنه كان وسيم الطلعة، معنيّا بنفسه، متأنقاً في ملبسه، يلامس رداءة الذوق لفرط التميّز.

جاء وظاهرُه لايوحي بالثقة، ليرى لوحات زامورا في وقت القهوة، بناء على رأي كاتب شاب نصحه بذلك من أجل مشترياته، وكان صديقاً لبول ديني. ولم يكن «شارل روسيل» يحمل مجدَ محلّه في شارع «لابيه» فقط، بل وأيضاً مجد مجموعاته التي وَعَد بها متحف اللوفر، من الرسومات الحديثة والتماثيل الصينية القديمة.

كان يُبدي انذهاله أمام زمرة من الرسوم المائية التجريدية، أو التجريدية على نحوٍ من الأنحاء، يمتزج فيها الرسمُ الهندسي والتصوير الملوّن الذي أُبرزَ فيه لونٌ أو لونان، بالنقوش الكتابية التي تتعلق بالشعر المثير في ذلك الزمن. وكان في ثنائه شيء من لعبة التخبئة النقدية. كان يريد ألا يظهر بمظهر مَنْ لايفهم ولا بمظهر المغفَّل. وقد اصطنع، مع «زامورا» اللهجة المتحرّرة لرجل من العالم الراقي الذي يفهم جميع الأخلاق، وإن لم يمارسها؛ وكان يمزج تعليقاته

بملاطفة السيدة «غودمان» التي كان يجدها غير أنيقة الملبس وإن تكن فاتنة. كان يقول.

ـ غريب جداً... غريب جداً... في هذا سحرٌ... بساطةٌ... هذا يذكّرني بأشياء رأيتُها في ايطاليا، تصورّْ... ولا سيّما هذا مع تلك الحمرة... أنت تعلم، زامورا، أن في ايطاليا جدراناً لم يبق عليها شيءٌ تقريباً... لون، منحنى... وذلك يستأثر بك. فيتساءل المرءُ...

كان «زامورا» يمطّ فمه ويدوّره فيُحسّ الناظرُ إليه أنه يمزح وأنه يقبل الثناءَ المعجّل في الوقت نفسه.

«تشْ، تشْ، تش! هو! هو! هو!»

لَفَتَ الصوتُ النحيفُ للصبيّ اللابس بلوزة زرقاء، والذي كان يدور على الأرض بين أرجل الناس جميعاً، ومعه عربةٌ لونها بلون علبة السردين، لفتَ نظرَ بيرينيس الى هذا الصبي السمين، الأشقر، المدوّر الوجه الذي له أهداب أمه، وكأنه لاأنفَ له. أما الأختُ المتشيطنة التي بدتْ كالأم الصغيرة بصدارتها الوردية، وهي تتلوى، فكانت نحيفةً لكن عذبة الوجه، وقد انقضّت على أخيها وحاولت أن تنتزع منه العربة وقالت بالانكليزية.

«اوه! واشنطن! واشنطن! لاتكن أحمق، واشنطن!».

نظرت السيدة «غودمان» فرأت عيني بيرينيس الواسعتين: «لاتريد الصغيرةُ أن تُسمّي أخاها إلا هكذا... هذا هو اسمه على كل حال... أنا أقول له جورجي... جورجي، جورجي، إياك!

كان السيد «روسيل» يقلب الصفحات الكبيرة في كرتون للرسم. قال:

ـ «هذا يذكّرني برحلتي سنة ١٨٩٠... أكان ذلك سنة ١٨٩٠؟ فصادفتُ أنا تول فرانس... بدا متضايقاً... كان ينظر معي الى لوحات دجيوتو... كان الناس يدعونه: سيد فرانس! سيد فرانس! واذا بي أرى فجأة امرأة قبيحة، زريّة! امرأة شرسةً من... نظرتُ الى أناتول. ونظر إليّ، وهزّ رأسه، وقال لي: ياصديقي العزيز، الأمرُ كذلك، ماحيلتي؟ كانت المرأة تحرّك مظلّتها. كانت أم «كايافيه»...

قال زامورا بأدب وكان لايبالي بذلك كله

ـ جميل جداً!

ضحكت السيدة «غودمان» ضحكتها المدهوشة التي كانت تنفعها أعظم النفع مع رسّامها.

كان الصبيُّ يُصدر من فمه على الحذاء الجلدي لهاوي الفن

«تش! تشْ، تف تش تفْ!»

وسقط عليه سفطٌ ورديٌّ. «واشنطن!» وغطّست الزنجية منديلها الأخضر والأحمر لتنقذ الطفلين.

رفع السيد روسيل رجلاً بعد أخرى وكأنه مشى على لوحات زامورا «طفلان رائعان... نضارةٌ... ياعزيزي زامورا، أمام رسومك المائية، ربما أدهشتُكَ...

ـ كلا، كلا!

ـ ... لكني سأذكر اسمين... اسمين... دجيوتو، تشيمابو...

همس «بول ديني» لبيرينيس. «يَقْصد جيوتو، سيمابو...

كانت السيدة غودمان تعتذر للسيدة موريل بصوت لا هو بالعالي ولا هو بالخافت. كان واضحاً أنه لم يبق من الموارد مايكفي لزمنٍ طويل. وكانت واثقةً أن السيدة موريل تفهمها.

كانت السيدة موريل تفهمها أحسن فهمٍ. فقد شرح لها «بول ديني» الوضعَ في الطريق. كان زوج السيدة «غودمان» دبلوماسياً ظهر قليلاً في «كان»، و«بياريتز» ومسدّسه بيده، ثم استُدعي الى الولايات المتحدة من قِبل حكومته. وهو، في النهاية، جدّ مسرور بحريته. لقد ترك الطفلين للأم لكنه انقطع عن إرسال المال، وهو أمرٌ لم يكن مريحاً. وكان زامورا يملك المال، في الحقيقة، لكنه كان يصرف منه أكثر... ذلك أن التصوير مُكلفٌ.

في هذا الوقت، كان «شارل روسيل» يبحث عن الوسيلة التي يستأذن بها للذهاب من هنا دون أن يشتري شيئاً. وكان زامورا الذي كان يرى الصفقة،

يقوده الى اللوحة، اللوحة الكبرى على الحمّالة، ولوحات أخرى مكدّسة إزاء الجدار. قطع لايمكن دفع فلسين لها بسبب حجمها.

قال صاحب المجموعات:

ـ أعتذر، وأستأذن بالذهاب... فعندي موعدٌ... وتلك قصة طويلة، تصوّروا!...

رأت بيرينيس عيني السيدة «غودمان» الحزينتين، ولم تستمر الى القصة لأنها كانت تتصفح بدورها الرسومَ المائية...

وعند عتبة الباب، قال الخيّاطُ، مع ذلك، وكان يحسّ بالحاجة الى أن يكون أحد أبناء المجتمع الراقي:

ـ «إذنْ، أرسلْ لي هذا الشيء الصغير... هي دراجة، أليس كذلك؟... مع الحمراء...

ـ تقصد «الحساب التقريبي».

أهو يُسمّى كذلك؟... الحاصل... الدراجة... وضُمَّ اليها شيئين آخرين على ذوقك... أو على الأصح ذوق السيدة «غودمان» (وحيّاها بحركة من يده نحوها...) فالنساء يملكن دائماً حسّاً... يعرفْن ما الذي يمكن أن يضعه المرءُ في بيته دون أن يثير قصصاً...

ألقى نظرةً أخيرة على الآلة الضخمة التي تسدّ قاعة الاستقبال. فرافقه زامورا مودّعاً.

تنهّدت السيدة غودمان

ـ أف! ليحفظني الله... سيكون المجموع خمسمئة فرنك إن أخذ الثلاث... سأضع له «القوّادة الخنثى» لأسلّي السيدة روسيل!

« القوادة الخنثى» كانت عفيفةً جداً عند النظر، فهي تشبه الساعة شبهاً يوقع في الالتباس، ولها عقارب سوداء تشير الى الثانية عشرة وعشر دقائق بينما كانت غيرها، من الخضراوات تشير الى التاسعة إلا خمس وعشرين دقيقة.

عاد «زامورا» وكتفاه السمينتان تهزهما ضحكاتٌ صغيرة، وهو يؤشّر بيديه: «تشيمابو»... دوجيوتو... تشيمابو...!

أمسك بيرينيس بمعصميها ونظر إليها، وقال

- «هيّا، ليس هذا كلّ شيء... الى العمل! اجلسيْ هناك...»

والتفت الى السيدة غودمان: وجه مثير للاهتمام، أليس كذلك؟

مشّتْ السيدةُ غودمان مظلّة عينيها.

- رائعة... تبدو كالسمكة الضخمة...

همهم زامورا والتفت الى «بيرينيس»:

- «انظري... إنها هكذا، تبدين مثل سمكة ضخمة لها.

ضحكت بيرينيس وقد دهشت قليلاً. وأراد «بول ديني» أن يُصلح الأمور، فقال:

- من السمك ماهو جميل جداً. المرجان...

قالت السيدة غودمان على نحو باتٍّ:

- لا، هي السمك - الهر..

أردف «بول ديني»:

- لايعرفُ الانسان كيف يبدو للآخرين. مِن الناس مَنْ...

- قد يصلح ذلك لأن يكون لعبة من اللعب الجماعية الصغيرة: كيف أبدو لكم؟ ماذا تُشبه «بيتي» بالنسبة الى «بول»؟ أما هو فأنا أجده من جنس الدراجة الثلاثية التي لم تدرْ...

انفجر ضاحكاً، وقطب «بول ديني» حاجبيه تقطيباً خفيفاً. واستقرّ «زامورا» في مكانه ومعه دفترٌ كبير من وَرق «واتمان، وأقلام، والحبر الصيني، وفناجين، وقليلٌ من الماء»... قال:

- «تستطيع أن تسخر من بابا «روسيل». فهو غير معقول، بالطبع... لكن ماذا سنفعل لولاه؟ أردت أن أقول: بيكاسو، ديران، أنا...

كان يضع نفسه في مستوى الشهرة، ولم يسلّم قط بأن يظل هكذا، على الهامش قليلاً. كان يحسب نفسه أعظم ذكاءً من الرسّامين الآخرين، ولقد قرّر، مَن مرّةٍ، أن الموهبة قضيّة ذكاء. قال وهو يأخذ النِسب

ـ «أيّ عينين لها! سيقال لي أيضاً إن رسمهما سيءٌ اذا صورتهما كما هما... أو قد يُظَنُّ أن ذلك تشويهٌ... هذه هي كلمتهم الضخمة الآن... هم يرون كلَّ شيء مشوّهاً... اجترّوا «مانيه»، أنت تفهم... وهو المعتزّ بالاولمبيا[1]... اذا وضعتُ لساني في داخل وجنتي هكذا، أليس هذا تشويهاً مع ذلك، إنها حركة... لكنك تعلم أننا عندما نرسم صورة إنسان فليس له الحق في أن يعطس... ذلك لايجوز...

وقف «بول ديني» خلف الرسّام، وقال

ـ ألا يُضايقك هذا؟

ـ إطلاقاً. ليس بي حياءٌ. يبدو أن الفنّانين الحقيقيين يكرهون أن يراهم الناس يرسمون... لابدّ أنهم مرحون في الحب؟

أتمّتْ السيدة «غودمان» فكرتَها. «أرسلْ إليه «القوادة الخنثى»، ياصديقي، وتلك اللوحةَ الأخرى التي لاأُحبّها... كيف سمّيتها؟ تسع وستون... (قالت ذلك بالانكليزية).

ـ لا، ستمئة وستة! (وهمهم، ففكّرت بيرينيس: «كان يبدو حقاً مثل دجاجة») وأردف: ماكنتُ أتمنّاه هو أن يخلّصنا من شيء كبير... من لوحةٍ... مع أني لم أعد أرسم على لوحة قماشيّة، فذلك مزعج... طبعاً، من البلاهة أن نتكلم عن جيوتو... بالنسبة الى هذه الرسوم المائية الصغيرة... أما بالنسبة الى الأشياء العظيمة... كانوا يرسمون آنذاك موضوعات دينيّة لأن ذلك كان جديداً... كما نرسم اليوم منارةً، سيّارة... الناس لايفهمون لماذا أرسم آلاتٍ جميلةٍ حديثة... إنهم يقبلون بالآلات... لكنْ الآلات التي تعمل... بلهبها ودخانها... من النمط الجبّار. أما أن تكون نظيفة، مطلية بالنيكل، فهم يستهزئون بها.

---

(١) «اولمبيا» لمانيه. **المترجم**

قال «بول ديني» وهو يشير الى اللوحة الكبيرة

ـ بأي شيء ترسم هذه؟ إنها تبدو مطليّةً بالبرنيق...

ـ هذه؟ ببرنيق العربات. مشكلة التصوير كلها في المالط... فعندما وُجد الزيت كفّ الرسـامـون عن الرسم على الجدران. كـان الرسـامـون يطحنون أصباغهم، وكان سرّهم يكمن في ذلك. ثم إنهم أخذوا يحتقرون في أيامنا عمل الألوان. وكان بيكاسو يفتخر بأنه يرسم بألوان «فيليكس بوتان»... لكن سوف ترى... هذا لايثبت... بينما بهذه يثبت طوال الحياة... بل القرون! نحن نلوّن منذ اليوم لوحاتنا وسياراتنا ونساءنا بالطريقة نفسها!

كانت بيرينيس تنظر الى رسم على الجدار، الى رأس من تلك الرؤوس البريتونية المشهورة التي بها أظهر أسلوبه الأخير. من المستحيل تصوّر شيء أكثر تعقّلاً، صنعة رسّامي «المصوَّر» تقريباً. مجرّد رسم بالحبر الصيني، السديد السماكة وكأنه منقولٌ بالكزّ. الخط متّصل، واللون كله للقبّعة، من طراز «بيغوديني»، وطبقة من اللون الوردي الشفّاف في الوجنتين، والشفتان حمراوان جداً، مع نسقين لونيين للظل، وطبقة لونية شفّافة لتخطيط الثياب تحت الرقبة. وتساءلت بيرينيس إن كان سيصوّرها هكذا، أو مثل «الخنثى»، فضحكت قليلاً. توقّف «زامورا» ونظر إليها. سألت وهي مرتعبة

ـ ماكان يجب أن أضحك؟

ـ بلى... على العكس... لم أفكر في ذلك... أخذت الصورةُ فجأة تضحك، أنتِ ترين ذلك من هنا...

أكان يمزح؟ أكان غاضباً؟ واستأنف حديثه متوجّهاً الى بول وإليها على حدّ سواء

ـ «لايعرف الناسُ ماذا يريدون... لقد أعلنوا أنّ المهمّ ليس مايُصوَّر بل المهم طريقة التصوير... وكان هذا قميناً بأن يقودهم بعيداً، لكنه لم يقدهم إلا الى تصوير التفاح بلا انقطاع... وإذن فعندما أصور الآلات يقولون لي: افعلْ مثل «سيزان»...

«جورجي ـ واشنطن غودمان» استرعى الانتباهَ العام بصوته النحيف الحاد عندما كرر الجملة الأخيرة مشوّهة، فهتفت الأم.

ـ هو، هو! هذا الصغير.

أوضح زامورا وهو ينقّ أكثر من ذي قبل.

ـ يريد أن يُعطى تُفاحاً.

تعلق واشنطن، في حماسته، بفستان بيرينيس وهو يكرر الجملة المشوّهة! فلما هدّدته أختُه التي تصنّعت الاحتشام، ضمّته بيرينيس إليها وابتسمت له، وقالت: «سيُصبح رسّاماً»، والتفتت الى الصغيرة. «وأنت، مادا تريدين أن تكوني؟».

التفت وجهُ العذراءِ الطفلةِ نحو السيدة ولا يُتَصوَّر ماهو أكثر صفاء من هذا الوجه. وقالت بلهجة الانتشاء الذي يتلو التفكير الطويل

ـ عندما أكبُر، أنا، سأصبح بغيّاً...

غطّى ضحكُ «بول ديني» الصاخبُ ضحكَ «زامورا»، وصرخات الأم الجافلة زيفاً، بينما كانت الزنجية الهادئة تنقّل في الجميع ابتسامةً لطيفة تنمّ على عدم الفهم.

قالت السيدة «غودمان»:

ـ ينبغي أن نعذرها، فهي تكرّر ماتّسمع!

ضحك «بول ديني» حتى سالت دموعُه.

ـ حقاً، ياسيدتي العزيزة؟

نبّه الرسّام: «بيتي، أنت تزيدين من خطورة حالتك...

احمرّت السيدة «غودمان» قليلاً والتفتت الى السيدة موريل التي كانت تمرِّر أصابعها في شعر الصبي.

ـ أتحبّين الأطفال، ياسيدتي؟

ـ اوه، نعم! (وأحسّت أنها فتحت قلبها أكثر مما ينبغي، فاستدركت): لا كل الأولاد... هذا منوطٌ بالأولاد... فإذا كانوا لطفاء...

هتَف «بول ديني» بقسوة شديدة

ـ تحبّين الأطفال؟

وكان واضحاً أن بيرينيس قالت قبل هنيهة، برأيه، شيئاً غير صحيح. رفعت عينيها إليه، وقالت ببطء.

ـ آه! أرى، ياصغيري، أنْ ليس من العادة في وسطكم أن تحبّوا الأطفال!

زمّ «بول» شفتيه، وأشرقت السيدة «غودمان»، بتعاطف مفاجىء نحو السيدة موريل. حزرتِ... ذلك غير مقبول... يجب أن يتوارى...

ردّ بول بجدّية محيّرة:

ـ الناسُ أحرارٌ في أن يُحبّوا الأطفال، والقمامات المنزلية، وما أشبه...

أخذ الأمرُ يسوء فأوقفهم «زامورا» قائلاً.

ـ أنا أحب الأطفال عندما يكونون لي... وقبل كل شيء أحبّ أن أصنع الأولاد...

هدّبته السيدة غودمان بالانكليزية:

ـ حسّنْ ألفاظك!...

كانت بيرينيس تحلم من خلال أحاديث «بول ديني»، لقد تنبّأت قليلاً بعالم الفنانين الشباب والكتاب الشباب الذين يحبّون الإفراط، حيث يعيش هو. كانت تسود هذا العالم أفكارٌ جاهزة، ليست كالأفكار في عالم آخر، لكنها جاهزةٌ مع ذلك ومستبدّة. ذلك مؤسف بالنسبة الى «بول ديني»، فهو طيّب، وله بعض الموهبة الشعرية، لكن الخوف من رأي ثلاثة أشخاص ومُدعٍ بليد! هذا ماجفّفه، ماجعل شعره يلمع ولايؤثّر في النفس، ولا يبلغ القلب. كانت ترثي له، كما كانت ترثي لهذين الصبيين الكلبين العالمين اللذين يُحدّثان عن سيزان قبل أن يتعلما كيف يمتخطان. وأخرجت منديلها وحفّفت أنف واشنطن.

كان نور الشتاء يضعف على الحديث. ثم إن الأمور بين «بول ديني» و«زامورا» لم تكن على مايُرام. وُضعت السينما على كرسي الاتهام. قال الرسام: «ألم تروا آخر فيلم لهارولد لويد؟ اذهبي وتفرّجي عليه، ياسيدتي، إنه

أفضل كثيراً من «شارلو....» كان ذلك بدايةً لنزاع، لأن بول لايرى شيئاً فوق «شارلو»، في السينما وغيرها. أما «زامورا» فكان يغيظه كلُّ مجدٍ موطَّد، وكان لابدّ له دائماً من أن يعارضه بآخر، وكان في جعبته، في الموسيقا والشعر والملاكمة والطبّ، أبطالٌ بُدلاء لايعرفهم أحدٌ غيره، وإذا أُلقي اسمُهم بنجاح قطعَ النقاشَ، وخلق أساطير. وكان هؤلاء الأبطالُ علي العموم أصدقاء له غامضون في نيويورك أو اشبيلية أو مكسيكو أو الهافانا لايخالجهم شكٌّ في السمعة القوية التي يُحدثها لهم في باريس هذا الرجل الذي قد يدوسها بسهولة.

لكنْ، لا يمكن مع «زامورا»، الابتعاد طويلاً عن التصوير. فكانت اللوحة التي على الحمّالة موضوعَ الحديث. كان «زامورا» قد مزّق ورقة أو ورقتين من دفتر «وانمان»، وهو الآن ينقلُ بالكزّ رسماً أولياً معمولاً على ورقة ثالثة، لينقله الى رابعة، وقد رأت بيرينيس أن فيه شيئاً ما... كان «بول ديني» يُرسِل اوه، اوه، وهو يهزّ رأسه. وساءلته بيرينيس بعينيها، فأجاب بحركات متهرّبة من الجواب، وبابتسامات وهو يقرض قليلاً أظافره. كان زامورا مايزال في اللوحة التي لم يشترها منه «شارل روسيل»!

«عندما أفكّر في لوحة «ماتيس» التي يملكها! أكبر من هذه بمرتين... وعاءٌ زجاجي فيه أسماكٌ حمراء، صدّقْ! أسماك حمراء من خمسين سنتيمتراً. لامعنى لهذا! لكن هذا يبدو غير صادمٍ، بينما الآلة... هذه، أتعلم بم يعترضون عليها؟

- لا

- بأن عجلاتها المسننة واقفةٌ ولا تستطيع أن تدور! وكأن العجلات المصورة اذا أُطلقت دارت! شيءٌ مضحك... وكأنهم لايشترون لوحةً إلا لينسخوها ويصنعوا منها محرّكاً، ومفحّماً... وأنت ترى من ذلك أن هاوياً اشترى لوحةً لـ«رينوار» وأراد أن يدعو المستحمّة الى... أو لـ«بوسان» كي ينقلها على حديقته...

وزاد «بول» عليه:

- وكأن الذي يصنع جمالَ الآلة شيءٌ غير عدم فائدتها...

- بالتأكيد... هذا هو الترف...

- الناس لايستحقّون الترفَ الذي يعيشون فيه!

وهنا خرجت الأمور عن مسارها بين المتحادثين. فالترف عند «بول ديني» فكرةٌ متشابهةٌ لما دعاه «اندريه جيد». «الفعل المجّاني»، الفعل لذاته، بلا ربح ولا لذّة، هو إنجازٌ لأخلاقيّة غريبة لاقت نجاحاً عظيماً بين الشبيبة. لكن «زامورا» كان عاجزاً عن الإحساس باندريه جيد، يريد أن يُعفى من هذه «الأفعال المجّانية»، وقال:

- في الحقيقة، أنا جدّ مسرور أن روسيل لم يشتر مني هذه اللوحة... فهو يفيدني في معرفة الأغبياء... وما أن يدخُل غبيٌّ هذا المكان... وينظر الى هذه اللوحة حتى يقول: «لكن العجلات لايمكن أن تدور... هذا محتّم».

انسلّت بيرينيس برفق الى النقاش، وقالت

- لا حاجة الى الأفعال المجّانية لتفسير ماتقولون... وهي فكرة قد عُبِّر عنها في مكان آخر. «اللذة الجديدة والعذبة أبداً لشغلٍ غير نافعٍ»...

نظر الجميع إليها وكأنها أقدمت على قلّة لباقة، وفمها مفتوحٌ. ففي نظام هذا العالم، ليس على النساء أن يعرفن شيئاً ذا قيمة، وأقلّ من ذلك أن يقلنها. وفوق هذا كانت الاستشهادات، على العموم، غير مقبولةٍ، سعلت بيرينيس قليلاً واعتذرت:

- «القائل هو «هنري دي رينييه»».

ضحك بول ديني:

- رينييه؟ اتحفظينه عن ظهر قلب؟

- اوه! قليلاً وعن طريق المصادفة، بسبب الموسيقا...

- ... الموسيقا؟

- استشهد بها «موريس رافيل» في العبارة التوجيهية «لرقصات الفالس النبيلة والعاطفية»...

ـ آه حسنٌ..

تابع زامورا. فقد بدا له، من جهة، أن ممّا لايسرّ أن يكون لأفكاره صدى لدى «هنري دي رينييه»، ومن جهة أخرى، احتفظ من كل ماقيل باسم «رافيل». كان دائماً يفكّر هكذا، بالمناوشة.

ـ «رافيل»؟ أتعلمون ماذا قال عنه «اريك ساتي»؟

قال «ديني».

ـ لا.

ـ رفض رافيل وسام جوقة الشرف، لكن موسيقاه كلها قبلتْه...

قالت السيدة غودمان بابتسامة مدهوشة

ـ اوه! اوه!

وأضاف «بول ديني» مقدّراً تلك الكلمة

ـ جميلة جداً، وحقيقية...

بدا «زامورا» كأنه واضعُ هذه الكلمة. وخاطب «ديني» بيرينيس.

ـ ألا تجدينها ظريفةً؟

قالت.

ـ بلى، لكني سأبدو لكم عبيّةً. مَنْ المحقُّ، رافيل أم موسيقاه؟

ـ عجباً!

قالت أيضاً.

ـ ماكنا نعرفُه لولاها.

فقال زامورا.

ـ كل شيء منوطٌ برأيبا في وسام جوقة الشرف.

وهنا تبادل هو و«ديني» طرفةَ عين. وهذه أيضاً فكرُ منقولة. ونحّى زامورا جانباً ليحكم على أثَر رسمه. دُقَّ حرسُ الباب، فسارع الوالدان. أضاءت السيدة غودمان الكهرباء. بدا كل شيء في الغرفة كأنما دبّت فيه الحياة.

كان القادم السيد «ليرتيلوا» الذي اعتذر عن مجيئه المباغت، لكن السيدة موريل قد أذنتْ له بذلك... ضوضاء:

كان «بول ديني» والسيدة «عودمان» و«بيرينيس» يتكلّمون في وقت واحد. وكان الرسامُ يبذل أناقته كلها إرضاء للقادم الجديد.

نظر هذا القادمُ الى اللوحة التي على الحمّالة، وهزّ رأسه، وتمتم بجملةٍ مهذّبة. ثم قال فجأة:

- لكنْ عفواً... هذه العجلات لايمكن أن تدور...»



- ٣٠ -

- كيف وجدتَ صورتي؟

كانا جالسين في حانة السلام، في ساحة الاوبرا، وكانت حينئذٍ أهدأ مكان في باريس، ولا سيما الأحد مساءً، نحو السادسة. كانت غرفة مزدوجةً مبطّنة، من العوارض الصفراء مع أفاريز من طراز لويس السادس عشر، ببُسطها، وعذوبة ماقبل الحرب، وبالطابع التقليدي في الحبّ الباريسي. والنُدُل كالظلال. ثلاثة أزواج أو أربعةٌ متفرّقون يتكلمون بصوت خافت. وسيّد عجوز يمسك بيدي فتاة . وطيار وحيد، على منضدة من مناضد الحانة، ينظر الى ساعته.

لم تشأ بيرينيس أن تذهب الى جزيْرة «سان لويس». لا، غير هذا المساء. لندعْ شيئاً للأيام التالية... أنتَ لاتعرفني بعد، اوريليان.

ابتسم عند سماع اسمه. وبما أنهما لايستطيعان أن يتجوّلا طويلاً تحت غطاء سيارة خمسة الأحصنة في هذا المطر المنهمر، فقد جاء بها الى هذه الحانة.

- ياالهي! أيّ صورِك؟ لأن لك ثلاث صور... كلٌّ منها لابأس بها... لكن بما أنه نضّدها جميعاً على الورق نفسه فقد نتج عن ذلك رُكامٌ من الخطوط.

- لستَ مُنصفاً، ياصاحبي... أراد «زامورا» أن يعبّر عن حركة العينين والفم . قبل تلك الصور المحرّكة، كما تُعلم... غريب... أتساءل إن كانت الصوْرة مُشابهة...

كان اوريليان يقرش «الشبس»، فقال بجدّ

- أراد «زامورا» أن يسرق منكِ سرَّك... السرّ الذي يجعلك جد مختلفة عندما تكون عيناك مفتوحتين وعندما تكونان مغمضتين... لكن اعلمي أن ذلك السرّ ليس له...

- ولمن هو؟

ـ هذا ما أود معرفته.

لم تجب وأغمضت عينيها . كان ينظر إليها وهمس.

ـ «هوذا، هوذا... السرُّ يتمّ يابيرينيس... جميع الناس في العالم يمكنهم أن يروكِ هكذا، ماعداك أنتِ، ماعداك أنتِ. أنتِ حينئذٍ بلا دفاع. تعترفين بشيء تبقينه مخفياً. هذه هي بيرينيس الخفيّة... لا، لا تفتحي عينيك الجميلتين السوداوين... ابقي هكذا، مبذولةً... قلتِ لي ونحن قادمان إنني لا أعرفكِ... أنا لا أعرف الأخرى... التي عيناها مفتوحتان... أما هذه، بيرينيس ذات العينين المغمضتين، فكم أعرفها! ومنذ زمن بعيد... لاتبتسمي... بيرينيس الأخرى هي التي تبتسم هكذا... لا «بيرينيس»... لأن ابتسامتها هي... أنت لا تصدقينني؟ ستأتين الى منزلي وسأريك ابتسامتها.

قالت وقد فتحت عينيها وهي تعي أنها تفتحهما :

ـ أنت تَهْذي قليلاً. كم امرأةٍ حدّثتَها بمثل هذا الحديث؟

حيّرته هذه الجملة البسيطة جداً، والمتوقّعة جداً مع ذلك، اذْ ان عتبة الصلة الحميمة لايمكن تجاوزها مع أية امرأة في العالم، دون سماع هذه الجملة، دون القسَم...

وهذا مانبّهته عليه وهي ترى اضطرابه، معتذرة أيضاً من تلك الملاحظة المبتذلة. أما هو فلم يكن يرى في ذلك شيئاً من الابتذال. إذ لم يقل قط لامرأة الأشياء التي قالها. ولم يعشق امرأة قط بمثل هذا العشق. لم يكن هذا قريباً من الاحتمال. وهنا تكمن المصيبة.

ـ لا أستبشعُ أن تكرر كلمات استُخدمت من قبل اذا كانت تلك الكلماتُ جميلةً، اوريليان...

كانت تكثّر الفرصَ التي تقول فيها: «اوريليان»، مثله وهو يقول «بيرينيس».

ـ لكني لاأحب أن تكذب عليّ في هذا القليل من الوقت المتاح لنا... إن الكذب يحتلّ مكاناً رهيباً بين شخصين... وبعد ذلك لانجد غيره...

فهتفَ

ـ ولمَ أكذب عليكِ؟

هزّت رأسها، وقالت:

ـ لمَ بالفعل؟ لمَ؟ لكنْ ماكدت تقول لي مساء أمس... ماكدتَ تقول لي... ذلك الشيءَ...

عند هذه الذكرى، بدت كأنها تستشعر اضطراباً عظيماً. أخذ يدها، فخلّصتها منه برفق. وردّد بصوت هامسٍ، لكي تعلم أنه فهمَ: أحبّكِ، بيرينيس...

أومأت «نعم» برأسها وتابعت مع حركة من كتفيها المرتعشتين:

ـ ماكِدت تقول لي ذلك... وكان عندي... لا يمكنك أن تعلم... حتى ذهبتَ لتلقى صديقتك في حانة «لولي»...

ـ صديقتي؟ لاصديقة لي!

ـ لاتكذبْ! اوه، إن كنت ستكذب! ادمون قال لي... وهي تدعى سيمون...

ـ لكن ادمون مجنون، بيرينيس!... آه، حسن... شكراً له! سيمون بكل بساطة بنتٌ من بنات الحانة أتحدّث معها... رفيقةُ حانة قديمةٌ..

ـ لستُ ألومُك على شيء، اوريليان... ولو كانت صديقتكَ! أنتَ لاتعرفني... لم أطلب منك شيئاً... ولم تعدني بشيء...

ـ وعدتُ بكل شيء!

ـ صه... صه... دعني أتكلم. أمس مساء فقط، كانت بيننا تلك الكلماتُ الثلاث الصغار التي كانت الأنوار بعدها باهرةً لي... وددتُ كثيراً أن أصدّقك، ثم إذا بأدمون...

ـ فيم يحشر نفسه؟ ماكنت أستطيع العودة الى منزلي، والنوم، هذا كل مافي الأمر... كنت بحاجة الى الضوضاء، الى الجمهور والأضواء والموسيقا... فأين أذهب في تلك الساعة؟ وقد تعوّدتُ الذهابَ الى تلك الحانة. كنتُ خائفاً من النوم، من فقدانكِ وأنا نائم... في الأحلام غريبات رهيبات...

خيّم صمتٌ عظيمٌ بينهما، تم قال اوريليان بكل ماأُوتي شبابُه من عمق «بيرينيس... لم أقل لامرأة قط في حياتي انني أحبّها...»

نفدت إليها الكلماتُ قويّةً، حارّةً، مغرّدة، فتنهّدت، وقالت «كيف يمكن هذا؟ وصدّقته على الفور، وأردفت: «وأنا أيضاً لاأعرف شيئاً عنك... سوى أنك فتى طويل أسود الشعر، شعرتُ نحوه... لاينبغي أن تُقال هذه الأشياء.. شعرتُ نحوه بانجذابٍ، من اليوم الأول... ولا سيّما في ذلك المساء عند السيدة دي بيرسيفال...»

كان يعلم أنها تقول الحقّ. وتذكّر تلك الحركة التي مالت بها نحوه، قبل أن تلقي روز أشعار «رامبو» بالذات... كانا قريبين أحدهما من الآخر، وحاول أن يمسك بيدها.

- «اهدأ، اوريليان... لاتلمسْني عندما أعترفُ لكَ بضعفي... ليس هذا من الشهامة في شيء... اهدأ، وتعقّلْ... لاأريد أن أحمل نفسي على حمايتها منك. ألا يمكن أن أكون رفيقتك.. مثل سيمون؟

قال:

- لا، بشرفٍ لا.

غطّت عينيها بيديها وهمست «ياللمصيبة»!

- ألم تفهميني؟ قلتُ لكِ إنني لم أقل لامرأة قط...

- آه! كرّرْ ذلك.

- أحبّكِ...

نحّتْ يديها وأمسكت بصدغيها. تزايد انحناء عينيها بهذه الحركة، وعزلت بخنصريها المضمومتين شعرها الأشقر عن وجهها كما لو كان ثمّة عصابة. كانت هذه «بيرينيس» قيصرية... في الشرق القفر...

- «أنت تتغيرين، بيرينيس، مثل مشهد تهبّ عليه الريح... لستِ امرأة واحدة... أنتِ جمهور.. كل النساء...

أخاف أن تضيع في ذلك المشهد!...

ـ لاتسخري! قلتُ لكِ انني لم أقل قط...

ـ لم تقل قط؟

كانت تصدّقه. كانت تصدّقه. كانت تصدّقه. وقالت مع ذلك

ـ ذلك لايكاد يُصدَّق... كيف فعلتَ في هذه الحياة؟ حتى عن طريق الخطأ... مرة واحدة...

ـ لم يحصلْ ذلك..

ـ آه! هذا مفرط العذوبة، هذا يُثملني... قلْ ذلك أيضاً...

ـ أحبّكِ...

ـ الهي، الهي، إني أتساءل إن كان ذلك خطيراً بالنسبة إليك كما هو خطير بالنسبة إلي.

أراد أن يقول شيئاً فأوقفته

ـ لعلكَ لم تقل ذلك... لكن ألم يكن هناك امرأةٌ لها حسابُها في حياتك، طوال هذه السنين؟

هزّ رأسه وضحك

ـ لم تكن سوى مُعاشرةٍ واحدة رهيبة وطويلة...

ـ معاشرة؟

صدمتْها هذه الكلمة. فشرح:

ـ الحرب...

تبسّمت، ابتسامةَ القناع هذه المرة، فقال.

ـ هوذا ... اوه، لقد تلاشت!

ـ عمّ تتكلّم؟

ـ لاشيء... سرٌّ من أسراري! نعم، لم يكن في حياتي سوى الطفولة والحرب، ثم بضع نساء لا امرأة واحدة...

ـ إني أخاف من «بضع» هذه، ياصديقي، فلعلي سأُذكر بينهن ذات يوم...

بادرها اوريليان بحركة نزقة، وأحسّت بفم الرجل على يدها، فمٍ متّضعٍ، مشغوفٍ، شاب، تركت يدها وعلمت في هذه اللحظة أنه لها. قالت

- «الحرب... يُرعدني التفكيرُ في أنك كنتَ في غمارها، رجلاً بين الرجال، مع مخاطرها وفصولها وأمطارها... ستحدّثني عن تلك الحرب، أليس كذلك، وإلا لبقي الكثيرُ منك مجهولاً عندي...

- قلّما أحبّ أن أحكي عنها... فهي تتذرّع بكل وسيلة لتعود... يجب ألا أُعطيها فرصةً لتلاحقني، تلك العشيقة القديمة. إنها تُرعبني... أنا نفسي أحياناً... عندما أنظر الى يديّ وأفكّر فيما صنعتا... هاتان اليدان...

وأراها يديه مثل شاهدين مأساويين. داعبتهما المرأة فارتعش

- وأنتِ، بيرينيس...؟

رأت نظرته، فسحبت يديها، وقالت:

- هذا، لن نتكلم عنه بيننا...

- ومع ذلك...

- أرجوك.

فخفض رأسه.

نظرت إليه وهو كذلك. وعلمت أنه يمكن أن يكون بائساً، مقرّبه ذلك منها. رأته ثانية وهو يصل الى منزل السيدة غودمان، ليقع، وهو أعزل، في الفخ الذي اخترعه زامورا، تحت وطأة ذلك الرأي العام المتعسّف، الظالم. آه! نعم، كيف يرانا الآخرون؟ ياللفظاعة... لكنها قد انحازت الى اوريليان. وهي تعلم أنها تستطيع الدفاع عنه. وأخذت تكره الرسّام و«ديني» الصغير، وأهل الفن هؤلاء، حبيبي أنواقهم وأساليبهم... ماأعظمه بجنبهم! كان عظيماً وضعيفاً... واستيقظ كل مافيها من أمومي. ووُلدت فيها فكرةُ الأمومة نفسها، وارتفعت، وعجنتْها. أغمضتْ عينيها، وصارعت الألم، وتبسّمت...

- «بيرينيس! هذه المرة...

جفلتْ، ورأته، نصف منتصب إزاءها.

ـ هذه المرة، فيمَ كنتِ تفكّرين؟ بسرعة...

تردّدت ثم قالت

ـ ربما كان هذا سرّي...

غضب. إنها تفعل مثلما تفعل سائرُ النساء. كانت تتملص وتحتفظ بمناطق مظلمة. بسرٍّ لاقيمة له. ومالبث أن لام نفسه لأنه فكّر في ذلك. وأخذ يتابع على وجهها النور الأصفر المائل الى لون الشاي والآتي من ازهار زجاجُها متخشّن.

وفي غضون ذلك، كانت تنزلق من بين أصابعه مثل سلّورٍ. كانت الدقائق تمرّ دون أن يعلم شيئاً عنها. هل أحسّت بهذا الاهتياج فيه؟ أكانت تعتقد أنها تُحكِمُ بذلك سيطرتها عليه؟ عند النساء ميلٌ غير معقول للتحكّم في الرجل... لو شاءت أن تظل شبحاً بالنسبة إليه لما فعلت غير ذلك. بيد أنها كانت إنسانية الى حد بعيد... وفكّر في نفسه. يجب أن نجابه الصعوبات.

ـ بيرينيس...

ـ ياصديقي؟

ـ قال لي ابنُ عمكِ... لماذا جئتِ الى باريس ولماذا لاتبقين مدةً أطول؟.

ـ لأن...

واحمرّت حمرةً شديدة وتوقّفت.

ـ كدتُ أكذب... لاتحاول أن تحملني على قول مايبعدني عنك، دون شك.

ـ أنا، أبتعد عنك!

ـ نعم الحقيقة ستُبعدكَ عني، ولاأريد، لاأريد أن أُضيعك... الآن!

هذه «الآن» جعلتْ قلبَ «اوريليان» يخفق. خاف أن يكون قد انخدع بلهجتها. وطمع في اليقين البارد.

ـ ماذا عنيتِ بقولكِ. «الآن»؟

هزّ هذا السؤال بيرينيس. شربتْ شيئاً من عصير البرتقال، من كأسه. ومرّرت أصابعَها على شفتيها. وارتجفت وجنتُها.

ـ عَنيتُ... عنيتُ... لاتكثرْ من السؤال! انظرّ، لقد كدتُ أكذب عليك، وأنا «مهـزوزةٌ»... لا أود أن أُضطرّ الى الكذب عليك كمـا لا أود أن تكذب عليّ.. آه، اوريليان! ليكن في الحياة، على الأقل، شيءٌ عظيم، ونقيٌّ ونظيف...! أنا أثق بك، اوريليان...

غيّرت وجهة المسألة. لكنه خاف من التعبير الذي اتخذتّه. فقال في نفسه «إنها تتلاعب بي!» ولم يكن بوسعه أن يحمل نفسه على القبول بذلك لعله قد لامس بسؤاله مأساةً أو جرحاً؟ كانت تفعل كل شيء لكي يفكّر في ذلك، دون أن تقوله. هل تعلم أين يبدأ الكذبُ؟

ـ يجب أن تُعيدني الى شارع «رينوار»...

ـ كيف؟ منذ الآن؟ ألا نتعشّى معاً؟

ـ في بيت أقربائي مدعوّون... لا، لا أستطيع... كفى ذلك في يوم واحد... لاأستطيع أن أتحمّل أكثر من ذلك... لقد أهديتني أعظم هدية... نعم، بقولكَ لي... يجب أن أكون وحدي لأفكّر فيه... لا تغضبْ، ياصديقي! ولا تطلب مني شيئاً! فكّرْ في أنني صرتُ أقبل كلَّ ما تُعطيني إياه... لعله لاينبغي لي... لكن ما العمل؟ وكيف أرفض؟ ثمّ إنني ربما كنتُ مخطئةً، اوريليان... لقد كنتُ حلمت أن رجلاً سيضحي بكل شيء ذات يوم، وسيُعطيني كلَّ مافي قلبه... هكذا، دون أن نعلم لماذا... دون أن أطلب شيئاً... دون أي شيء... أنت ترى أنني مجنونة، وأن الموضوع غير ذلك!

ـ بيرينيس!

ـ أحلامنا، أحلامنا! لابدّ أن تضحك مني. هذه الريفية الصغيرة، كما تقول في نفسك...

ـ بيرينيس!

ـ كما في الكتب، أليس كذلك؟ لا! إن ذلك هو بالذات مالايوجد البتّة في الكتب... حلمتُ فيما مضى، ورأيتُكَ... وقلتَ الكلمات التي لم أكن أنتظرها... الكلمات الرهيبة...

ـ بيرينيس، أحبّكِ...

قال ذلك بضمير المفرد، تلقّتْ هذا الخطابَ بضمير المفرد في صميم قلبها. وثبّتت الصمتَ الطويل يدُها المرفوعةُ.

وفي الحانة، كان الطيار الذي أخلفَ الموعدُ معه يدفع ثمن شرابه، وسوف يستقبل ضجرَ أمسيةٍ فارغة.

ـ أعدْني الى شارع «رينوار».

ـ غير ممكن!

ـ كنْ معقولاً. غداً سأمنحك اليوم كلّه. خذْني في الساعة العاشرة. سوف نتناول الغداءَ معاً...

ـ وماذا سأفعل هذا المساء؟

كان ينظر الى الطيار وهو خارجٌ. وجاءت من الدفّاف هبّةٌ رطبة سوداء.

ـ فكّرْ فينا، اوريليان... اذهب الى «لولي إن شئتَ، وأنا أسمح لك أن تقضي لحظةً مع سيمون... أنت ترى لي ثقةٌ بكَ.

لاحظ حينئذٍ فقط أنها كانت ترتدي الفستان الذي كان عليها في أول لقاء. هذا الفستان الذي وجده بشعاً. كيف كانت عيناه حينئذٍ؟

بدا لهما الطريقُ من «الاوبرا» الى «باسي» مع وسواس سوق السيارة، والجليد، والسيارات، طويلاً جداً وقصيراً جداً. كان «اوريليان» يحس كما كان يحسّ عندما كان طفلاً عند العودة من المسرح. قلقٌ، وخوف من تبديد كلّ شيء. وفي مكانٍ ما من جادة «التروكاديرو»، كان الجو مظلماً جداً، فارتمى عليها. دفعتْه عنها:

ـ لا، لا، لاأريد! لاأريد!

كانت تضربه بقبضتيها الواهنتين.

ـ كُفَّ، وإلا فلن أراك غداً!

خجل من نفسه، وتلعثم، وعاد الى المقود، وجرى بسيارته.

ـ أتسامحينني؟

وفي العتمة، أسندتْ بصمتٍ خدّها الى كتف الرجل.

ومع ذلك فقد كذبت بيرينيس على «اوريليان». اوه! في قضيّةٍ ثانوية إذ لم يكن أحدٌ على العشاء في شارع «رينوار»، في مساء الأحد. والخدم مصروفون. تناولت المرأتان وحدهما وجبةً باردة. لابد أن هناك مأساةً، كانت عينا بلانشيت حمراوين، وقالت لن يعود ادمون... وكان واضحاً، أنها، مع حزنها، أخذت تنظر الى بيرينيس خفيةً وتفترض الافتراضات.

كانت بيرينيس المستسلمة لنشيدها الداخلي، تتظاهر بأنها تعبد المشاركة في عمل هذا العشاء الخفيف، مع أغلاط مفاجئة. وتلف كأس وصحن. فقالت بغفلة «أين كان رأسي!» فأجابت بلانشيت بجفاف «إني أتساءل عن ذلك». ورأت بيرينيس بضيقٍ أنها كانت تتساءل عن ذلك حقاً.

- «قبّلتُ الصغيرتين قبل قليل... ماكانتا نائمتين بعد... أبتا أن تدعاني أنصرف..

قالت الأم وشفتاها مزمومتان:

- إنهما تعبدانك، الأمرُ بسيط جداً. تقول لي المربية إن «فكتوار» تطلب «نيسها»[1] أولاً، ثم فطورها، ثم أمها...

- لن تغاري مني؟

- أغار منك؟ آه! عجباً!

لم يكن لضحك بلانشيت الزائف من تفسير. فأحست بذلك واضطربت، وقالت آخر مايجب أن يُقال

- آه!... عنيت «فكتوار».

- ومَنْ ظننت إذن...

صمتتا كلتاهما، وقطعتا الخبز، وتبادلتا «البورتو» وشرائح اللحم المبرّدة. هتفتْ بيرينيس بعد وقت

(١) أي بيرينيس **المترجم**

ـ ولم أعن أدمون مع ذلك.

هزّت الأخرى كتفيها

ـ نحن نقول حماقات..

وجاء دورُ بيرينيس لتضحك ضحكتها الزائفة. ما الذي يمكن أن يكون بين بلانشيت و...؟ ولم تلفظ الاسمَ أمام نفسها.

كانت قاعة الطعام فارغة، بطاولتها الكبيرة، وشموعها الكهربائية ذات الشمع الاصطناعي في زاوية، وأبّهة الطبقيّة[1] والصحنين، والمرآتين، ونصف زجاجة «بيرييه»... القاعة ذاهبةٌ طولاً، حمراء ومذهبة، مع أزهار بلا سوق في كؤوسها، وكراسيّ مبرنقة صينيّةٌ من عند «مارتن»، وصنجةٌ صغيرة قرب بلانشيت، لن تدقّها، إذ لا أحد في غرفة الخدمة.

ظنّت «بيرينيس» أنه يَحْسُنُ بها أن تعتذر:

ـ أتعلمين أني أحب ولديك كثيراً، وهما تحسّان بذلك...

ظنّت بلانشيت أن في كلامها لوماً غير مباشر لحالها مع بنتيها. فقالت:

ـ هذا جدّ طبيعي... بعدما وقع لكِ...

ورأت برضاً أن جملتها قرصتْ قلبَ قريبتها. ومالبثت أن حنقت على نفسها من هذا الرضا.

ـ اعذريني... ماكان ينبغي أن أقول هذا...

ـ اوه! لا عليكِ... الحقّ معك... في ميلي للصغيرتين الكثير من خيبتي... أما بالنسبة إليكِ فذلك بسيطٌ جداً، عادي جداً... وأما أنا...

أرادت بلانشيت أن تعاقب نفسها عمّا فكّرت فيه. فعادت الى ماكان يؤلمها..

ـ لاينبغي أن تحزني لذلك... فأنت شابةٌ، وأنت تُعجِبين...

ـ أتظنين؟

---

(١) منضدة توضع عليها أدوات الطعام. **المترجم**

قالت بيرينيس ذلك بسرعة فائقة. ابتسمت بلانشيت، وكان في ابتسامتها شبحٌ يطفو بينهما، ويتردد في أن يستقرّ على شفتيْ هذه أو تلك. ماكان أشدّ طول الغرفة، وفراغها، وما أحسن مافيها من سلامة الذوق، وما أبهى مساء الأحد هذا!. انطلق اللهبُ من على لسان بلانشيت

- إذن... رأيتِه اليوم... اوريليان؟

خفق قلبُ بيرينيس خفقاناً شديداً. كان ثمة شيء بين اوريليان وبلانشيت، وقد لقيت كثيراً من المشقّة لتجد في حنجرتها اليسرَ والتجرّد المطلوب

- اوريليان... لاأذكر أنني قلتُ لكِ ذلك، هذا الصباح، نعم... رأيتُه... كيف عرفتِ؟

لم يكن الأمر يستحق التصنّع، إذ لم يكن معهما أحد. كانت سكاكينُ الحلوى الصغيرةُ تلمع على طرف المائدة. وقفت بلانشيت واتّجهت الى الطبقيّة

- أترغبين في الإجّاص، نيس؟

سمّتها بالاسم الذي اختارته بنتاها لصديقتهما الكبيرة. لم تكن غَيْري بل حزينةً. استدارت دون أن تنتظر جواباً

- ليتنا نفتح زجاجةَ شمبانيا؟ مارأيك؟ هذه الغرفة كئيبة... ويمكن لكلتينا أن ترتكب حماقة...

لم تعرف بيرينيس كيف ترفض. فلا هذه ولا تلك كانتا تشتهيان الشمبانيا التي لم تكن باردة. صعدتا الى المكتبة ومعهما كأسا الشمبانيا والزجاجة. كانتا شبيهتين بصغيرتين تعصيان الأوامر. وتلهّتا كثيراً بهذه المهزلة وهما تضحكان ضحكاً خالياً من الصخب، وكأنهما تخشيان أن تُثيرا انتباه أهلهما النائمين أو الذين يلعبون البريدج في غرفة أخرى. وكانت كلتاهما تتساءل إن كانت الأخرى مخدوعةً.

سألتْ بلانشيت.

- أترغبين في الذهاب الى السينما؟

- اوه لا، الطقس رديء، وقد كنتُ أخرج كلَّ مساء.
- لأنك إن شئتِ أن تذهبي الى السينما...
- أيسرّك هذا، أنت؟
- أنا، لا... قلتُ هذا من أجلكِ... لأنكِ إن شئتِ أن تذهبي الى السينما...
- بما أنك لاتحرصين على الذهاب... يبدو أن هناك فيلماً ممتازاً لهارولد لويد...
- أرأيت، أنتِ ترغبين...
- أنا؟ إطلاقاً... لكن إذا كنتِ أنتِ.. قلتُ لكِ هذا لأنه قد قيل لي قبل قليل...
- قيل لكِ... إن كان اوريليان فهو لايفهم شيئاً في السينما.
- لماذا اوريليان؟ لا، ليس اوريليان... لكن سيّان عندي.
- لأنكِ إن شئتِ أن تذهبي الى السينما...

كانت المكتبة متجهّمةً شأنها شأنُ قاعة الطعام. فمع نظرة كل هذه الكتب الى المرأتين، والسلم الطويل، سلّم السنديان الطبيعي، حيث ترك بعد البحث عن كتابٍ، فوق، قرب مؤلّفات «موباسان»... ردّد صوت بلانشيت مثل ساعة معطّلة:

- لأنكِ إن شئتِ أن تذهبي الى السينما...

كان فظيعاً ذلك الأثرُ الذي تركته بضع قطرات من الشمبانيا. ظهر على بيرينيس شيءٌ من فقدان الصبر:

- كلاّ، ليست لي أيةُ رغبة... فرأسي يَوْجعني أولاً.. وأنا استميحك العفوَ؛ وسأذهب لأتمدّد لحظة في غرفتي...

نظرت إليها بلانشيت وهي منصرفة، وهزّت رأسها. وملأتْ كأسها من جديد. وقالت بصوتٍ عالٍ، وهي وحدها الآن بين الكتب. «لأنكِ إذا شئتِ أن تذهبي الى السينما، فبإمكانكِ أن تذهبي إليها وحدكِ، ياصغيرتي، فأنا أكره السينما!

تشوّشت الأشياءُ قليلاً. أهي الشمبانيا أم الدموع؟ كلاهما، لاشك. وهكذا فقد رأت بيرينيس اوريليان. لقد افترقا بعد منتصف الليل، ليلتقيا في النهار. العالم يجري على هذا المنوال. نفترق في الليل لنلتقي في النهار. مااللذةُ التي كانا يجدانها معاً؟ إذ لم يحصلْ شيءٌ بعدُ بينهما... أمؤكّدٌ هذا؟ وإذا كان قد حصل بينهما شيءٌ؟ كُفّي. لاشيء حتى الآن.

إذن ادمون له عشيقتُه. هذا أوضح مافي القصة. والأمر جدّيٌ هذه المرة، لأنه غدا خبيثاً، شيطانياً. ماالذي تصوّره؟ إنه يعلم مايفعل. إنه يعرف امرأته جيداً. فهي امرأته. ولا حَوْل لها. فهي امرأته. وهو يعرفها جيداً... شيطاني. يعرفها جيداً.

أطفأت الأنوار، ماعدا مصباحاً صغيراً من البرونز. وجلست على الأريكة، والشمبانيا بجنبها. إنها تتسرب قليلاً وتفكّر. وهي حزينةٌ، والشمبانيا لاتفعل شيئاً. كم يعرفها، هذا الشيطان، ادمون. وهو يعرف كيف يقودها. ويسبقها دائماً عندما يجب تسجيل السبق. وهي بلا حماية أمامه. وهو يقرأ في قلبها. كيف اكتشف اوريليان في قلبها. وهو الآن يعذّبها. وله عليها هذه المزيّة. إنها تقول في نفسها. «أنا غبية لأنني انقاد». لكنها تنقاد. من هذه الجهة، إنها تنقاد.

وبينهما مابين الأولاد حين يلعبون. فمن يسبق الآخرين هو الأول وهو الأول دائماً. أين هو هذا المساء؟ مع تلك المرأة. مَنْ تلك المرأة، هذه المرة؟ إنها ستألم لأنها لاتعلم، وكانت تظن في المرات السابقة، أنها تتألم لأنها تعلم. لقد اخترع هذا، ألا يقول لها. ففي نهاية المطاف... وبعد أن قال لها دائماً مالم تكن تسأل عنه، بعد أن عذّبها بأن يقول لها كلَّ شيء. هذه المرة... ماذا يعني ألاّ يقول شيئاً؟ هكذا... ما الفرق بين هذه المرّة والمرّات الأخرى؟ أيّ خبث منه!

كأنه يعاقبها عن اوريليان...

لكن اوريليان في النهاية... أولاً إن ادمون هو الذي دفعها نحو اوريليان... ثم لم يكن بينهما شيءٌ... ومرّت بيديها على شفتيها كأنها تريد أن تهرسهما.

لا شيء؟ تسمين هذا، لاشيء، يابنت؟ وسمعت نفسها تضحك ضحكاً أبله. لقد قبّلها ذات مساء... وبعد ذلك؟ كانت تغمض عينيها، آه، وكان مايزال يقبّلها...

تذكّرت وجودَ بيرينيس. وبكتْ، طويلاً، طويلاً، على الأريكة، وحدها، ومعها كأسُ الشمبانيا، وصمتُ البيت الذي كان يدقُ فيه قلبُ الساعة الجدارية الذهبي تيك، تاك، تيك، تاك.... وكأن ادمون يملك الحقّ في تعذيبها بسبب هذه القبلة الوحيدة ذات مساء... وأن يبرر خيانته بخيانتها المتخيّلة، بتلك النيّة الكاذبة... بذلك الكذب الذي كان يصفعها به في وجهها... آه، كم كان يعرفها، الوحش وتشككه، مرض التشكك، ذلك الحب الفظيع بالخطيئة!...

قادتها فكرةُ الخطيئة فجأة الى الله. وفكّرتْ في الله برهبة. كانت امرأة ساقطة. فتناولت قليلاً من الشمبانيا.



- ٣٢ -

بيرينيس تتمزّقُ في غرفتها. كان ذلك الفرح مُفرطاً في شدته، وذلك الرجل مفرطاً في عظمته. ذلك غيرُ ممكن. وهل تقع مثلُ هذه الأشياء؟ وهل يمكننا أن نَصْمد طويلاً لمثل هذه العذوبة؟ نترك الكائن الذي نحبّه، ولو للحظة، ونعود الى العالم، الى هذا الطقس، الى البرد، الى تنوّع الناس الذي لاتفسير له، وتنوّع الأشياء وهذا المنزل الموحش، هذه الصورة عن مآل الحب، بلانشيت... كانت ثملةً، هذه المرأة.

تعلم بيرينيس جيداً أنها إن فكّرت في تلك المرأة التي في ابنة عمها بهذا العنف وهذه المرارة فليس ذلك لأنها ثملتْ. فوراءها ذلك الشبحُ. أحقٌّ ذلك؟ خامرها الشكُّ الآن. كانت، قبل قليل، على يقينٍ من ذلك: كل شيء في موقف بلانشيت، أمس في المسرح، انصرافها الفُجائي... اوريليان لم يحبّها؟ ماالفرق إذن؟ كانت له في حياته نساءٌ، طبعاً. لكنها لاتعرفهن. بينما بلانشيت... إنها في وجه بلانشيت، وبلانشيت ماتزال تحبّه... وأنا التي حكمت على ادمون... لايمكن أن نحكم على أحدٍ، بائسةٌ، بلانشيت...

وأيضاً فإن بيرينيس كذبتْ على اوريليان. كذبةٌ لا أهمية لها، لكنها كذبة. ما أفظع هذه الـ«لاأهمية»! وإذا كذبت هي، أفلا يمكنه أن يكذب هو، ألم يكن يكذب؟ لايمكننا التصديقُ كما لايمكننا الحكمُ. ننساق للسعادة، وأية حماقة هذه... لن تراه غدا. يجب أن توقف ذلك، قبل أن تعجز عن تدارك الأمر. لن تراه غداً. لكنه سيأتي ليأخذها من هنا... كيف العمل؟ أتكلّمه في الهاتف صباحاً. إن سمعتْ تلك صوتَها فقد هلكت.. وهي تعلم ذلك. أتكلّف مَنْ يُعلمه بالهاتف... يالها من قسوة!... يجب أن تراه أيضاً، مرةً واحدة، لتُعلمه فقط، لكي يعيد الأمور الى نصابها... سيكونُ من نقص الشجاعة أن تهرب منه لاأكثر، دون بضع كلماتٍ له الحقُّ فيها. لأنه في نهاية الأمر، لم يُسىءْ في شيء. فيمَ أساء؟ وهي لا تريد أن تُسيءَ إليه.

سوف تنصرف. يجب أن تعرف كيف تنصرف. أن تعرف كيف تنصرف بنظافة. مهما يكن الأمر فيجب أن تنصرف، وسوف تنصرف. لكن هناك انصرافاً وانصرافاً. الانصراف الحقيقي، أي أن تحرق وراءها كلّ مابقي منها، والأمر أسهل عندما يتعلّق برسائل قديمة، وبالتذكارات. فأين الفضلُ اذا كان الأمرُ سهلاً؟

«لاأريد أن أكون فاضلةً، أريد أن أكون سعيدة...

قالت ذلك بصوت عالٍ في وحدة الغرفة، فأدهشها صوتُها. كان صوتاً غريباً. لم تتعرّفْ صوتَها، لم تتعرّفْ نفسها. لم تعد تعثر على الطريق التي شقّتها أفكارُها. استولت عليها صورةٌ، وجهُه، وهيئته وجسده. وأينما أدارت عينيها نحو الظلمة، وجدته هو يحيط بها ويلاحقها. حسنٌ أن أقول: أنا منصرفةٌ، لكنْ اذا انصرفتُ لآخذ معي ماانصرفتُ بسببه؟... اوريليان، اوريليان. آه ذلك لايُحتمل! كيف أنقطع عن رؤيته؟ كيف أتخلّى؟.

لقد ذاقت تلك الخمْرة العميقة المظلمة، وهي تحتفظ بالسُكْر منها، ولا يمكنها، ولم تكن تقدر أن توطّن نفسها على فكرة التخلّي عن ذلك الدوار، حتى لو لم يكن سوى دوارٍ. كانت متمدّدةً على سريرها. ولم يكن من نور سوى نور المصباح المنخفض قرب السرير. كانت العتمةُ كلها ملأى بأوريليان. كانت العتمةُ تضيّق النطاقَ عليها. اوريليان... اوريليان... كان الذنبُ ذنبَ العتمة، وكان ينبغي طرد العتمة لكي يُطرَدَ اوريليان. تردّدت. أتطردُه؟ آه، كانت حقّاً خاليةً من الكرامة والشجاعة! نهضتْ، ومشتْ نحو الزر النحاسي. كانت الأزرارُ ثلاثةً. واحد، اثنان، ثلاثة. صف أنوار السقف في الإفريز، المصابيح الجدارية قرب المرآة، حجرةُ الزينة التي كان بابُها مفتوحاً ينبعث منه بياضٌ جارح. مشت نحو طاولة الكتابة، وأشعلتْ أيضاً المصباح الذي سقطتْ أشعّتُه على المصنّف المفتوح الذي كانت فيه رسالةٌ للوسيان بُدئتْ ولم تكمّلْ.

النورُ كلُّه... غاب الشبحُ ولم يبق سوى اوريليان. رأت بيرينيس على كرسيّ الفستان الذي خلعته قبل حين ولم ترتّبه، وقبّعتها، وقفّازها على الطاولة. لم تمرّ المرأة الفرّاشة من هنا، منذ الصباح، أو على الأقل منذ الغداء. وثمّة

مقاعد في غير مواضعها، وقميص غير مطويّ، وجورب ذهبت منه سردةٌ، وخفٌ كستنائي...

رتّبتْ ذلك كله. إن حركات الترتيب الآلية تشبه حركات السفر، والمتاع المعدّ للسفر. ذهبت الى الخزانة الكبيرة الكبرى، ولمست إحدى حقائبها، وفكّرت في أنها يجب أن تشتري عطراً قبل أن تسافر. مايزال عندها قدرٌ من العطر لكن بما أنها ستغادر باريس... من المُضجر أن تسافر بمعطفها الجديد، فلو حملته على ذراعها؟ هذا لايمنع من أن يُلقي بينهما السفرُ ما لا سبيل الى إصلاحه... سيكتب إليها. كانت تعلم أنه سيكتب إليها. إن شاء أن يأتي... لا، هناك أشياء مستحيلة. ستهجر باريس... ومع باريس ذلك الانتشاء، ذلك الدفء... لا مكان هناك لل....

ستترك باريس، وأمام فكرة مغادرة اوريليان لم تجد في نفسها سوى الهياج في أن تُؤذي نفسها، أن تنتزع قلبها. لكنها ستترك باريس، وأحسّت بالدموع في عينيها.. ورأت مرة أخرى تلك الشوارع والأرصفة والحدائق... باريس... والضجر الرهيب في الريف، والناس الذين ستلقاهم ثانية. والأيام، الأيام التي لا نهاية لها. وما قاله هذا وما ستقوله تلك. نساء الأطباء، أصدقاء لوسيان وأمها. وعادت إليها «مونروج» و«باسي» و«البانتيون»، والحي اللاتيني... انتهى. والتويليري مثل وجنة تُداعَبُ... وشيئاً فشيئاً، في أعماق باريس المالقة، انبعثتْ صورةُ اوريليان. والتقت اوريليان في الأماكن التي كانت فيه وحدها، التي لم تره فيها، التي لم تكن تنتظر أن تكتشفه فيها. أمسكت بها باريس على نحو غادرٍ فاختلطت اختلاطاً هادئاً بمَنْ تهرب منه، مسحت دموعها، ورأت نفسها في المرآة، رأت شعرها المشعث، فتناولت المشط وامتشطت.

الى أي حدّ كان حبُّ اوريليان فيها خالصاً من كل شائبة؟ أكان حقاً ذلك الشيء العنيف، المطلق، الذي لاعلاج له، كما اعتقدت؟ اتّهمت نفسها بأنها لا تحبّه وحده، وأنها لا تُحبّ فيه سوى نفسها. ألم تكن باريس وأوهامها وأضواؤها وحياتها المتغيّرة، وهذه الكثرة الكثيرة من المغمورين والمشهورين، الرجال العظام وأبناءُ السبيل، الزينات والمعروضات والحفلات الموسيقية والمسرح

والأحياء الخالية التي لانصادف فيها سوى الريح؟ ألم يكن كل ذلك يسعى الى التعلّق بشكل إنساني ما، الى الربط بين حنينها وبين نظرةٍ وصوتٍ وضغطٍ حيّ على يد؟ أليس الأسفُ على ذلك كله هو الذي أقنعها بأنها تحبّ اوريليان؟ أهي تحب اوريليان؟ ارتعبت إذ فكّرتْ أنها تتساءل عن ذلك لأول مرة.

ومع ذلك، إذا كان ممكناً أنه لم يُحبّها كما اعتقدت، كما دفعتها سذاجتُها الى الاعتقاد، فإن ذلك كان يهزّها هزّاً، كان غير محتمل، غير محتمل.. ماكان بإمكانها تصوّر الحياة غداً، وبعد غدٍ اذا كفّتْ عن الاعتقاد بذلك، إن كانت قد خُدِعتْ، إن كان قد خدعها.. إني عشتُ حتى الآن بدون ذلك، فما الذي تغيّر؟ تقول ذلك لنفسها بلهجةٍ هادئة زائفة، تقول ذلك لنفسها لأنها تخاف. بيرينيس كانت تخاف نفسها أكثر ممّا تخاف اوريليان. خوف من جرح الخيبة الرهيب. كانت تعرف ما بئرُ الخيبة. كانت تعلم مامعنى الخروج منها، وكانت على معرفة كافية لتتكهن كيف أن من الممكن ألا تخرج منها.

كانت ماتزال أمام المرآة، تمتشط ولا ينتهي امتشاطها. ومن الممكن أن تكون الساعة قد بلغت الحادية عشرة. كانت الريح تهبّ في الخارج. اوريليان، اوريليان. كانت الريحُ تقول اوريليان! كانت تمتشط أمام المرآة، بحركة غير واعية ومتقنة. وغيّرت تصفيف شعرها، ثم فقدت صبرها، فحلّت ماكانت قد ضفرته، وأعادت شعرها الى تجعيدته المعتادة، وامتشطت، وامتشطت. وتأتي لحظةٌ لايعلق فيها المشطُ في الشعر لفَرْط مامُشِطَ... اوريليان...

غير أنه اذا لم يكن ذلك كله سوى وهم من أوهام الفراغ، فراغهما كليهما، وفراغ باريس المتسطة جداً، النظيفة جداً، حيث لايعلق فراغ قلبيهما بشيء، فراغ قلبيهما الهائل؟ وإذا لم يكن كل ذلك سوى وهم ينضاف الى غيره من الأوهام في هذه الحياة التي تتتابع، وتمتدّ، والتي بادتْ فيها الطفولةُ، والتي يحترق فيها الشباب ببطءٍ، والتي لن تترك فيما بعد سوى آثار المرارة، وهي آثار تصنع تجاعيدَ القلب والوجه، التجاعيد التي تخيّلت أنها تولد ببطء في أعماق المرآة؟

اوريليان...

- ٢٣ -

«هل أحببتِ هذا الأحد؟»،

لم تُجب «روز»، كانت تنظر الى يومها ذاك،

كانت عائدةً، عند الظهر، الى «ريتز» من شارع «كامبون»، وفي الحانة كان ادمون ينتظرها، مرّاً بالقاعات والمطعم، إنه لمن الممتع أن نتعشى في الحديقة... في هذا الفصل... كان ادمون بالغ التأنق في ملبسه، وكانت النساء ينظرن إليه بقدر ماينظرن الى «روز»، على الأقل،

«أهذه «روز ملروز»، ومن هذا الفتى الجميل معها؟»

كانت تبتسم، لم تجد طاولةً ترضى عنها، انحنى ادمون عليها

- «اذا كنتِ لاتخشين سوء الطقس، فقد تركتُ سيّارتي في ساحة الفندوم... وأنا أعرف مطعماً ممتازاً...

خرجا من ساحة الفندوم، وكانت سيارة ادمون الطويلة، العالية الخضراء المبطّنة باللون الأحمر تكْسف جميع الذين يصعدون إليها، وثبتْ السيارةُ واتخذت مسارها بسرعة مذهلة وناعمة حتى لا يُظَنّ أنهما يمران بالمدينة، تجمعت روز تحت غطاء «الزيبلين»،

- الى أين تقودُني، «موندينيه»؟ جوادُك يبصق ناراً! بلا مزح، ها؟

سارا عبر «الغابة»، أغمضت عينيها،

- «أنت تسوق كما ترقص، وحش «روزه»! وترقص كما...

أغلقت فمها بقبلة، كان له في حياته يُسرُ الحيوانات المتوحشة، واذا كان وراء مقود سيارته لم يعلم جارُه أهو بجانب قُطب من أقطاب السيارات أم بجانب لصّ في عرض الطريق، كان يأخذها الى فرساي، مرةً أخرى...

كان الفندق يطل على الحديقة، ويكاد يكون في الحديقة، ملوك اليوم يأتون أيضاً ليقضوا عطلة الأسبوع عند الملك- الشمس، فهاهنا كلُّ الراحة والترف والتكتّم، الزائر معروف دون أن يكون معروفاً أكثر مما ينبغي، ثم أية خدمة! شبّتْ السيارة في الفناء، وأوقفها أدمون بحركة من يده أمام مطلع الدرج،

- «هل شقّتي جاهزة»؟

الحاجب، البوّاب، الخدم، الشقة رقم ١٥! الوصيف يحمل غطاء الفرو. السيد والسيدة يعبران البهو، المصعد...

همست روز

- أنت اتّصلت بالهاتف. وتظاهرتَ بأنك...

فكّرتْ انه كان يُهيّءُ مفاجأة. فُتح لهما صفٌّ من ثلاث غرف. شاهدت من أول نظرة فيضَ الورود البيضاء والشاحبة. أي أنه كان بـ... حسبتْ الثمن. خياليٌّ. كل شيء يختفي تحت الورود. وعشية عيد الميلاد.

التفتت وقالت بأجمل صوتها المسرحي

- ياصديقي، أنتَ حقاً غريب الأطوار!

انحنى رئيس الخدم الذي رافقهما «الوجبةُ جاهزةٌ في قاعة الطعام:.. كما طلبتها ياسيدي... واذا رغبت سيّدتي...

- شكراً، مارسيل، سأستدعيك...

ماألطف هذه الحرارة، وما أحسن تساويها، وهذا العطر! أخذت «روز» وروداً ونثرت أوراقها..

- ياالهي، ادمون، أنت غير معقول! هذه ثروةٌ في حين يموت ناسٌ من الجوع والبرد! هذه ثروة من الورود!

- جميع الورود لوردتي...

ساعدها في خلع معطفها. ماأعظم شبابه وقوته وجماله. آه! الوحش، وما أغناه..

- ما أُحبُّه في مغامرتنا... أنها تنمُّ على رداءة الذوق تماماً!

ادمون يستمتع برفقة روز لأنها امرأةٌ حقيقية لاتتوانى عن شيء، تحبّ هذا وتعلم ماهو، ومنذ كارلوتا لم يجد قط عشيقة مثلها يرتاح إليها. وإذا كانت معجزةُ شبابه معجزةً بكل وضوح فإن ذلك أيضاً سبب يدعوه الى التعلّق بهذه المرأة التي أكثرت من الأسفار والتي فيها نقاط تشابه بالنسبة الى الرجل. فهو يعبد صنوف المديح التي تكيلها له. قالت:

- لم أر قط أحداً له ثيابٌ داخلية مثلك. لابد أنك تقضي حياتك في اختيار سراويلك، ياباتس...

- وفي أي شيء تريدين أن أقضيها؟

- وأنّى لك الوقتُ، مع جميع أعمالك وخططك!

كان من الثابت بينهما أنه مُرهقٌ بمشاغله، مع سياراته وبيوته، والبورصة والكاوتشوك والبترول، وكل شيء. وقد لاحظت «روز» أنه لايكره أن تعدّه هي نفسها شخصيةً مهمّة، رجل أعمال هائل، هذه هي الكلمة. وهي تذكّره بذلك بين الحين والحين. لكن الواقع أنه يملك أجمل سراويل في العالمين، بغض النظر عن القمصان والجوارب. والى هذا فهو أنيق مثل فتاة قوي العضلات مثل سائق عجلة.

- «أنا أتساءل في أية ساعةٍ نهضتَ، «موندينيه»... فمع هذا العمل الذي على جسمك... وهذه الطريقة في إعداد نفسك لكي يُنظر إليك في كل دقائقك... أنتَ مثل ربلة عدّاء الدرّاجة من البداية الى النهاية... الصبيحة لاتكفي.... آه! آلمتني، أيها الوحش!

لا خلاف في أن من السائغ أن يكون القوادُ مليونيراً. ولاسيما إن كان شخصاً ذكياً مثل «موندينيه». فلا حاجة معه لأن تظهر المرأة أصغر مما هي. هذا مايحبّه. وهي من النباهة بحيث تحسّ بذلك، وتتحدث عن عمرها، وتغضّ من نفسها، في شيء من الحزن، أليس كذلك؟ وهي لا تُشعر هذا الرجل الليّن الجانب أبداً أنها تستمسك به، أنه لها، اذا أنها تتظاهر، في كل مرة، بالاعتقاد أن هذه آخر نزوة، آخر نزوة غير مفهومة، بالنسبة إليها، وأنها لن تستبقيه على كل حال، وهذا ماتفهمه أعظم فهم.

تمتمت:

- «أيا متوحّشي، أيا مجرمي! لأنتَ تُضاجع أمّك، مالك! إنه لايعرف مايفعل، وهو جميل الى أبعد الحدود... ألا تتعب من أن تكون جميلاً هكذا طوال الوقت!»

لا يبدو عليه التعبُ.

التهما كبداً دسمة وخرّبا الورود. «روز» تعبد الكبد الدسمة. وهي تنظر من السرير الكبير ذي الأغطية الناعمة الى ادمون الذي يروح ويجيء، وهو عارٍ كلياً من الغرفة الى صالة الحمّام. الماء يغرّد؛ وهو يلهو باستكمال زينته أمامها... «يالك من استعرائي رائع، ياعزيزي! تعال الى هنا، لتكون لي قليلاً... ساقاك، ياسيدي، ما سُوِّيتا إلا للنظر...»

إنه ينتصر. مع النساء الأخريات كانت له شكوكه. شكوك الرجل الذي يعلم حقّ العلم ما المالُ الذي يُكسَبُ على السرير. أما مع هذه فهو يشعر أنه الرجل الذي كانت ستَدْفع له لو كان في متناولها الثمن. وهي «روز ملروز»، «روز» العظيمة... سيجعلها تصرخ أيضاً.

ـ «لايُصَدَّقُ هذا.. أنت دائماً مسفوعٌ بشمس آب... في هذا الفصل من السنة! كيف تفعل؟ تبدو كأنك قد سُوِّيتَ لدى هرمس... وهذا الشعر الناعم... إن ذلك لخالٍ من الحشمة.. لم أر قط رجالاً بشعرٍ كهذا الشعر! أنا أبدو مثل اللِفْت بجنبك...»

هي تعلم جيداً أنها بيضاء رائعة البياض، وتعلم جيداً أن ليس هناك من حيث الجمال أجمل من نهديها اللذين يبدوان صغيرين وهما ليس كذلك، واللذين لاينفرجان بذلك المقدار إلا لتسهّلا مرور الرجل...

همستْ

ـ «عندما أفكّر أن لك امرأة رائعة، شابة... وأنك هنا بين ذراعيّ... آه! كذّاب! كيف تريد أن أصدّقك؟

ـ تعرفين جيداً أني لم أحبّها قط...

ـ ومع ذلك تزوّجتها...

ـ أحب النساء الأنيقات، ولم أكن أستطيع الاكتفاء بها!

إنها مشغوفةٌ بوقاحته: «يانذْلي!» وهي تحلم بضربةٍ لبلانشيت هذه التي تَسْخو عليها بالألفاظ، لكن وجهها طويلٌ قليلاً، ويداها غير جميلتين جداً...

ـ قلي لي، أيها القاسي... وامرأتك...

ـ مالها امرأتي، روزيت؟

ـ كنتَ في البَدْء تتستَّر عنها... لم تكن تريد حتى أن تعرف عزيزتنا «ماري»... بسببها... ثم تغيّرتَ...

ـ الوضعُ هو الذي تغيّر...

ـ كيف؟

جلس في السرير، مَطْويَّ الركبتين، وذراعاه حول ساقيه، وكتفاه متقوستان تقوّساً مخيفاً بدا منهما رأسه الصغير، بشعره المتفرّق، وعينيه العميقتين كأنما يَرْصُدُ فريستَه. والأسنان النهّاشة. قال

ـ «إليك ماجرى».

كانت تُصغي إليه دون أن تصغي. كانت تتابع ماكان يقوله في خطوطه الكبرى لأنه اصطنع تلك اللهجة التي كانت تعرفها جيداً عندما يلجأ الى علم النفس. كان يُحبّ علم النفس، كان عيباً صغيراً يمكن أن نغتفره لرجل في تكوينه. أما «روز» فكان علم النفس يُضجرها. وحينئذ كانت تتكلّف مظهراً من الانتباه العميق، وهو مظهر حصّلته بعد عناء وهي تمثّل «راسين»، إذ كان عليها أن تُصغي الى مئة بيتٍ من الشعر دفعةً واحدة دون أن تدع الجمهور ينساها. وقد فهمت بغموض موضوعَ كلامه. وعلى سبيل الإجمال. ففي السنوات الأولى من زواجهما بلغَ خضوعَ بلانشيت لأدمون حدّاً لم يكن معه الزوجُ يهتمّ البتّة بعواقب أفعاله. وكانت بلانشيت التي كان عليها أن تُخلّص من كارلوتا تلك الفريسة الحيّة جدّ سعيدة ولا سيّما أن زوجها لم يعد الى تلك المرأة التي كانت مصدر رعبها الأكبر حتى بعد أن تزوّجها الأب «كيسنيل». كان ثمّة شبهٌ كبير بين «كيسنيل» وابنته: ذلك أن «كيسنيل» حين علم أنه لايستطيع الاحتفاظ بكارلوتا له وحدها، قبل ذلك الكهلُ قديماً اقتسام عشيقته مع ذاك الذي سيُصبح صهره. وقبلتْ بلانشيت بالمذلّة نفسها ألا يكون زوجُها لها وحدها وكأن ذلك قدرٌ محتوم. وقد رسّختْ الحرب مع ذلك الفراق المفروض، هذا الوضعَ بوضوح أكبر،

وهو وضع كانت صراحةُ «ادمون» تزيد في بروزه: كان صريحاً بِحذقٍ وبهوايةٍ، مفَرض عشيقاته على امرأته لأنه كان يحبّ أن يُعذّبها، ولأنها لم تكن تستطيع أن تلومه على ما لا يخبّئُه عنها.

لكنه، بعد مرور السنين، أخذ يحسّ فيها مقاومة صمّاء لم تعبّر عنها. كانت تَقْبل دائماً أن يحتفظ ادمون بحريته. وظلّت تتألم من ذلك ألمها المتّصل. بيد أن بلانشيت كانت، في هذه العزلة المتطاولة، التي يلقاها فيها، تتغيّر. اوه ببطء شديد! أخذت تتعوّد أن تكون لها أفكارها الخاصة بها.

استشف ادمون فجأة أنها ستُفلتُ منه، قبل أن تعرف هي ذلك. فقد ظلّت هي عاشقةً له. وكان فرطُ تديّنها يمنعها من خداعه. إن مغامرةً صغيرة منها كانت كفيلة أن تخفّف السوءَ. وقد فكّر في ذلك من أجلها. كان يكفيه أن تنظر الى عاشق باعتبار ذلك هو السبيل الوحيد الباقي. ماكان يريدُه هو ألاّ تتركه، ألا تدعه بلا مأوى. وأين يجد مثل هذه الثروة! كان هناك الأولاد، وهم الضمانة، هذا مؤكّد فهو الأب إذ ذاك. لكن السنين والسنين تمرّ... وذلك يغيّر الرجل والمرأة...

لم تعرفيني، «روزيت»، حين كنتُ ابنَ عشرين عاماً... كنت إذ ذاك لاأخشى أحداً... نعم، احتفظي بمجاملاتك. ابن الثلاثين إن أهمل نفسه... إني شديد العناية بنفسي، دون شك: كرة الملاكمة صباحاً، قاعة المبارزة مرتين في الأسبوع...

- هذا صحيح و أحسنتَ فعلاً ' يجب ألا تَسْمن...

- شكراً... على الفور! لم أصل الى هذا الحدّ بعد، لكن كل يوم يمر يجعلني أقلّ ثقة بقدرتي على القيام بهذا الدور دائماً... بأن أكون دائماً حسنَ المظهر... ستأتي لحظةٌ يكون فيها الخوف من الشيخوخة عند بلانشيت دون أن تكون محبوبةً أقوى من سلطاني عليها...

كانت «روز» تتابع حركة شفتي عشيقها وعيناها، عينا القصيرة النظر، الجميلتان، مغمضتان نصفَ إغماضة. كان يشكو من امارات السقوط. ثم إن الحرب، كما أكد أتلفتْ له بطنه... أيّ مغناج هو!

ـ «إن كنتِ تظنّين أن الخنادق والأنقاب وغير ذلك نافعٌ للجمال... شتان في الماء والوحل!

ـ ومن الناس مَنْ يدفع غالياً ثمنَ حمّامات الوحل بالنسبة الى أمراضهم العصبيّة...

ـ أنا سبّبَ لي مرضاً عصبيّاً... انظري، هذا يُرى في عرقوبي...

ـ لحسن الحظ أنْ كانت الحربُ، ولولا ذلك لكنتَ جهنّمياً!

قالت ذلك وتنهّدت.

ماأقدره على الكلام على نفسه، هذا الشخص.

قال:

ـ «عمر بلانشيت ثمانيةٌ وعشرون عاماً... وهو يحرّض فيها لاشعورياً الشعورَ بعمر آخر... لم تعد الصبيّة التي كنتُ أسيطر عليها... ولكي أسيّرها أمامي لابدّ أن أهتمّ بذلك... وفي رأسي شيءٌ آخر، أليس كذلك، ياسيدتي؟ التضحية بحريتي والسهر على ثروتي، قليلٌ جداً بالنسبة إلي... قلتُ لك إنني فكرتُ أن لمغامرةً صغيرة...»

هكذا ألقى بها بين ذراعي اوريليان. كان يعرف اوريليان. ليس هذا الرجل بالخطير. ولن يسعى أيضاً الى انتزاع امرأته. ليس هذا من طبعه، ثم إن بينهما ذكريات الجبهة...

ـ «هل ضاجعتْ امرأتك ليرتيلوا؟»

أخذت «روز» تهتم به، هذه المرة.

ـ «تريدين أن تضحكي. لقد تلاعبا قليلاً... اوه! اوه! أنا أعرف أين أقف! عملتُ كلَّ شيء من أجل ذلك. لم تعرف بلانشيت، ماذا تريدين؟ إنها ماتزال مولعةً بي، ثم انها أمٌّ الى ذلك! بصرف النظر عن البروتستانتية التي لها يدٌ في ذلك..».

كفّت «روز» عن الاهتمام. فهؤلاء النسوة اللواتي لايُضاجعْنَ... ذلك شيءٌ قذر. من طبيعة قاصرةٍ، ربما.

نعم، لكن ادمون لم يكن مغمض العينين. كان يعلم شيئاً آخر ذلك أن امرأته التي لا تُضاجع اوريليان لم تعد تفكّر إلا فيه، وأنها أُولعت بهذا الرجل أكثر ممّا لو كان عشيقها. كانت تحبّه. كانت تتألم من أنها تحبه، وتحقد على نفسها لأنها تحبّه. هاهنا كان الخطرُ».

قالت روز.

- اوه، بما أنها لاتضاجع! أنتم معقّدون أكثر مما ينبغي في جيلك، ياطفلي الجميل!.

وأخرجتْ نهديها من الغطاء بشيء من المسايرة.

تابع ادمون

- «سيأتي يومٌ تتركه فيه بلانشيت، بكل بساطة. ربما في عشر سنوات، لكن... سأكون ظريفاً بعد مرور أربعين عاماً... في تلك اللحظة، ولكي لاأفقد عاداتي، وتكون عندي ربطات عنقي، وسيّارتي، ينبغي لي البحث عن بلانشيت أخرى، وفي سنّ الأربعين سأُضطرّ الى اتخاذ سيدة عجوز...

قاطعته «روز» وابهاماها على حلمتي نهديها:

- امرأة من جنسي، ياحبيبي.

- عندما أقول «عجوز» فأنا أعني العجوز... وفي هذه الأثناء لاينبغي أن تتخذ قضيّة اوريليان وجهةً سيئة...

كان ذهن «روز» شارداً. انصرفتْ الى المداعبة وجمّعتْ نفسها علىّ اوريليان. فقال.

- كُفّي، أنتِ نهمةٌ فوق الحدّ... حينئذ خطرت لي فكرةُ توجيه اوريليان الى ابنة عمي...

- بيرينيس الصغيرة. إنها بشعة، لكنها تعجبني.

- قلتُ لكِ دعيني... حينئذ هُزّتْ بلانشيت هزاً بحيث أنها لم تستطع أن تتسترّ عليّ... وحدثت بيننا في هذا الصباح مشاحنةٌ... لقد اعترفتْ... وخرجتْ عن طورها... انتابها شعورٌ مخيف بالذنب... أما أنا فتكلّفتُ الشهامة... ولم يبق بيننا شيءٌ أذ أن الأمور هكذا... أنا ضدّ القسمة...

ـ نذلٌ!

ـ لن تغتصبيني بالقوة، أنا مُنْهكٌ... ثم إن لي الحقَّ، في هذه الظروف، أن يكون لي أحدٌ، أليس كذلك؟ بلانشيت تعرفني. فمزاجٌ مثل مزاجي.

ـ متبجّح! تتحدّث عن المزاج...

ـ سأوسعك ضرباً إذا لم تهدئي.

ـ لا تتكلّمْ إذن عن المزاج!

ـ عندي شيء أبشّرك به... إذا قبلتِ أن تصغي الى ماأقول...

ـ أنا مُصغيةٌ...

ـ حسناً، يابنتي، لن أُخفي نفسي على الإطلاق... بمقدار مايلائمك ذلك... مع «جاك»، طبعاً...

ـ ألا تخشى أن بلانشيت...

ـ كلا، لأن ذلك عاقبة خطئِها...

ـ آه! أنت تبالغ! خطؤها...

ـ قلتُ: خطؤها، وإذا كنتُ أنفق عليكِ منذ اليوم...

ـ تنفق عليّ؟

أخذت تنظر إليه، جادةً، هذه المرة:

ـ ألستَ تبالغ؟

ـ لا. أنت تظنين أنني سأبدّد أموالي...

ـ آه! هو كذلك. مستحضرات ملروز..

ـ ليس هذا سوى بداية: سيكون لكِ مسرحكِ...

قفزت عليه تُعضعضه وتقبّله على الوسائد.

ـ كفى، أيتها الجبانة الكبيرة! دعكِتني! هذا ثمينٌ، لاتَنْسيْ... وسوف حتاجين إليه!.

تنفّسا قليلاً. قال:

ـ اسمعي، يجب أن أفكّر في المستقبل... بالنسبة الى للأشياء المنظورة نوعاً ما... والى الإسهام في مشروع المستحضرات مثلاً.. والمسرح... يجب ألا نترك آثاراً يمكن أن تُستَخدم ذات يوم للطلاق...

ـ ما العمل؟

ـ حسناً، العثور قدر الإمكان على مشاركين يسهمون برأس مالهم... لكي تتّخذ الأمور مظهراً تجارياً... ومسخّرون[1] عند الضرورة... أطلب إليك جدّياً أن تفكّري في ذلك...

ـ مشاركون؟ لكن المشاركين، ياصغيري «موندينيه» لا يوجدون إلا في السرير...

ـ لاتتحامقي، سيدتي، فنحن من طبيعةٍ غيورٍ!

ضربت جبهتها.

ـ جاءتني فكرة!

ـ لا؟ هاتي لنرى..

ـ ماري! هذه فكرة مبتكرة! ماري! السيدة دي بيرسيفال في مجلس الإدارة! ثم إنها مدينةٌ لي بذلك، بسبب العجوز... أتظن أنها ترفضَ مساعدتنا؟

ـ ماري، أبداً... إن أنا... إن أنتِ طلبتِ منها ذلك!

ـ آه! لا تتحامقْ أنت أيضاً، ياصديقي! لأنني أنا أيضاً أغار!

كشفت عن مخالبها، فقبض عليها من عنقها. وحشرجت تحته.

ـ آه... آه... لقد قلتُ لكَ إنكَ ستصل الى ذلك... »

عندما سأل الدكتورُ «ديكور» امرأته وهو ينظر إليها بعينيه الحزينتين:

ـ هل أحببتِ هذا الأحد؟

لم تجب وإنما أخذت تنظر إليه ثانيةً. ومن حولهما مسكنهما المتواضع والبوهيمي في الدور المنخفض، الذي تختلط فيه أغراض الطبيب، وفوضى

---

(١) المسخّر الذي يضطلع بعمل بدلاً من صاحبه الحقيقي. **المترجم**

مقصورة مسرحية، في الضوء الخافت، وفي صمت الساعة الثانية صباحاً.
أخذت تنظر الى أحدها. كانت تسمع بوضوح قلب «جاك» الخفّاق، المسكين، البالغ اللطف، كان يبذل وسعه. لم يكن يُربكها. وقد اضطُرَّ أن يظل طوال السهرة خلف النافذة، مصغياً الى كل سيارة، الى دوران كل سيارة. ماحيلته؟ هي كما هي.

التفتت إليه وقالت:

- جيكي... أتحبّ أن يكون لي مسرحي؟



ـ ٣٤ ـ

نهض اوريليان في الساعة الثامنة صباحاً. الفجر.

لم تصدق السيدة «دوفيني» عينيها عندما وجدت المنزل خالياً، وعلى الطاولة توصياتٌ لانهاية لها. كان يجب أن يُرتِّب المنزل، بأسرع من هذا الوقت، ولم تلحْ السيدة دوفيني في الأفق منذ الحادية عشرة، ومع ذلك ففي صوان السفرة طعامٌ معدٌّ يؤخذ عند الحاجة. هزّت رأسها، أزعج السيّدُ نفسه، احتاج الى حلويات، ثم لم يلمسها.

قالت بيرينيس ما أجملَ الطقس!

لقد جعلته ينتظر ربعَ ساعة في المكتبة: هذا المجنون الذي يصل الى منزل أقربائها قبل التاسعة! كانت ترتدي طقماً كحليّاً، وعلى رأسها، على شعرها الأشقر قبّعةٌ من فرو الخلد مرفوعة من الجانب، وكأنها قبّعةُ رجل. فكّر اوريليان أنها سيئة الملبس الى حدّ غريب. ولعلها لم تنم إلا قليلاً، فتَحْتَ عينيها دائرتان خفيفتان سمراوان داكنتان.

ـ نعم... أليس كذلك؟ في هذه الليلة، الثلجُ... وهذا الصباح...

نظرا كلاهما الى السماء من النافذة، الشمس، زرقة باريس الشاحبة. وضحكتْ:

ـ كدتُ أظنّ أن ذلك من أجلنا... ثم تذكّرتُ... ذلك من أجل العذراء...

ـ العذراء؟

ـ أنت تعلم أن هذه هي أيام الالسيون[١]... عندما يستطيع طائر الالسيون، مادام البحر هادئاً، أن يبنى عشّه في تجاويف الأمواج... في الأيام التي تسبق عيد الميلاد... لأن الربّ لم يشأ أن تتألم والدته حينئذ في الشتاء...

هزّ رأسه وقال: «هذه أيامنا الالسيونيّة.. لأن الحبّ...

ـ اسكتْ... هنا!

---

(١) الالسيون طائر بحري اسطوري. **المترجم**

وضعت أصابعها على فمه... استبقاها وقبّلها طويلاً. فُتح الباب ودخلت بلاشيت. هل فاجأتهما؟

قالت بيرينيس

ـ اعذريني، فلن أعود الى الغداء...

ـ أنتِ حرّةٌ...

مدّت يدها الى اوريليان. كان فستانها المنزلي من طراز قديم، بتخريمات... كانت رائعة الجمال... مرّا بصالتي الاستقبال، بغرفة الانتظار حيث نظر اوريليان الى بيكاسو في فترته الزرقاء، «بهلوان بالكرة»، و«مهرّج» وقد جاءت اللوحتان من عند «كيسنيل» العجوز.

سألت بيرينيس بنوع من القلق «أتحبُّ هذا؟» كانت تودّ أن يكون حسن الذوق. أجاب. «نعم... كثيراً... أكثر من تكعيبيّته... اوه لا، لا تلبسي معطف الفرو... فالجوُّ لطيفٌ، وتعلمين...

ومع ذلك، آثرتْ أن تأخذ معطفها... ولا سيما في السيارة... كانت معه سيّارته؟ كانت سيارةُ الأحصنة الخمسة تنتظر على الرصيف. لم يكن اوريليان يعلم مايريد. سوف يأخذها الى بيته، بالتأكيد. لكنه كان يخشى أن يُظهر عجلةً مُستثقلةً أن أخذها هكذا، على الفور. ثم إنه فوجىء بهذا الربيع في عيد الميلاد. فهل يذهب الى الريف؟ ذلك يُشبه شبهاً عظيماً مااقترحه على «ماري دي بيرسيفال»... كانت بيرينيس تودّ لو تذهب الى اللوفر لترى لوحات «انغر» و«مانيه».. لكن المتاحف مغلقة، نهار الاثنين... ليكن. لقد اقترحا كثيراً من المشاريع حول هذه الصبيحة، منفصلين ومجتمعين، ولم يعلما كيف يقضيانها. أحسّا أنهما ضالاّن، متضايقان، ضائعان على ضفاف سعادتهما. كان اوريليان، في الحقيقة، سيرتاح الى البقاء هنا، في السيارة، بحذاء الرصيف... ممسكاً بهذه اليد الصغيرة.

كانت بيرينيس تنظر إليه. ياﻟﻬذا الجسم العظيم... ماأغربه! كانت تجد فيه أناقةً غير معهودة دفعتها الى الاضطراب. وفكّرت: الرجال عادةً، خُرْقٌ...

ماكانت لتجرؤَ على عدم التعميم... لكي لاتشقَّ على لوسيان... لكي لا تفكّر في لوسيان...

قال اوريليان

- يجب أن نقرّر... تعاليْ الى بيتي.

لم يكد يلفظ هذه الكلمات حتى احمرّ. في أية ساعةٍ أمكن للسيدة دوفيني أن تصل، وهي غير منتظمة؟ وإذا كان المنزل غيرَ مرتّب... رأت الحمرة ففسّرتها تفسيراً مختلفاً:

- لا... وأنت تشعرُ أنْ: لا... لاينبغي أن تكون الأمورُ كذلك...

لم يكن هذا ماأرادت أن تقوله، وجاء دورُها في أن تخجل. واستدركتْ:

- لنذهبْ الى أي مكان... في باريس... الى حيث لا يمكن أن نصـادف أحداً... الى مقهى عادي جداً... أحبّ المقاهي...

اقترح «الغابة»، آرمونوفيل. ستلقى العالم كله! لا. الجادات[1]. لاخطر عند الصباح... وصلُ السيارة كان بحاجة الى زيت. عاما في باريس الخفيفة، في هذه الاستراحة من فصل الشتاء. في الجادات الكبرى. تردّد اوريليان. كان كل مقهى مرتبطاً بمواعيد، بلقاءات... كان يرغب في مقهى جديد لاتطالعه فيه أيةُ ذكرى. لامقهى «بوسيه»، ولا مقهى ايطاليا، ولا مقهى انكلترا... وكانت ترغب في مقهى أكثر عاميّة، تكون فيه المواعيد غير محتملةٍ حقّاً... جنحا الى مقهى يطل على ممر. وكان بين المرايا والأبواب الزجاجيّة الكثير من البريق حتى ليظن المرءُ نفسه في مسرح. كان هذا أيضاً مقهى من النمط القديم، الألوانُ الذهبية فيه في كل مكان، وفيه أعمدةٌ صغيرة سمراء تيجانها معقّدة، ومقاعد حمراء، ومشاجب للمعاطف من طراز عصر النهضة. وقد انتثرت على الطاولات مرافق حروفُها فضية، ومجلّدات غير متجانسة من الحوليات التجارية.. وخلف المشرب الذي كان من خشب الأكاجو مع بعض التطبيقات النحاسية مصفاةٌ، وأمينة الصندوق في تجعيدة شعرها وبودرة الرز. وثمة درجٌ يصعد الى الطابق الأول

(١) الجادات جمع جادة BOULEVARDS. **المترجم**

نحو صالة البليار، وعند مطلع الدرج تمثال بشمعدان. وكان للرخام عروق مثل أيدي الشيوخ. وعلى الأرض الشيءُ الوحيد الحديث. مركّبٌ من جميع الألوان في قصاصات ورقية غريبة. كل ذلك كان خالياً من الناس إلا من شاب تقريباً، في زاوية من الحانة يكتب رسائل ويمزّقها. وبعد بعض الوقت جاءت امرأتان ضخمتان سمراوان تجاوزتا سنَّ الشباب وجلستا في الطرف الآخر من الصالة طلبتا نبيذاً فاخراً ونظرتا في صور فوتوغرافية تبادلتاها.

كم كان سخيفاً أن يكونا هنا! في هذا الجو غير المتناسب مع العواطف... أوقفتْه بيرينيس

- أنا، أحبّ هذا... هذا المقهى... إعلانات المشروبات الفاتحة للشهيّة... المصّات الزرقاء... كل مالم تعد تراه... أنا مرتاحة هنا... أُصغي إليك بانتباه أكبر... وهذا الديكور كغيره...

قال:

- هذا مايضايقني... الديكور... لسنا على خشبة مسرح.

ودّتْ لو يقاسمها سرورها. الديكور. الديكور، كان، على العكس، يفتنها، ومن وراء الزجاج، الجادّة والمارة، وعلى الجانب معرض المخازن، وهذا الحويض السمكي الشاحب، وشمس كانون الأول... استغرب اوريليان قليلاً هذا التعبير المتأنق عندها. لقد أحسّ مرتين أو ثلاثاً وعلى نحو غامض هذا الحرجَ معها. ضربٌ من التكلف، ربما لم يكن سوى شيء من الحياء... ربّما... شيء من الإعجاب بما كان يشغل الأوساط الطليعيّة... تذكّر طلعاتها مع «بول ديني»، وحزن حزناً شديداً. أحبّ أن يحمل الى هذه المرأة بعض التصحيحات. بأيّ حقّ؟ فهو لم يَخْترها وإنما فُرضتْ عليه، لم يكن يدري كيف، مع كل مالها من خصوصيات يجهلها... آه، يكفي أن يأخذها بين ذراعيه، ويضمّها... حتى تضمحلّ...

نزعتْ قبّعتها وحطّتها على الرخام، وحرّكتْ شعرها الأشقر حيث ألقى النورُ الباهت ظلالاً خضراء في الخصل اليابسة.

وضع النادل كأسي القهوة أمامهما. أخذت تعبث بقطع السكر، ولم تلمس قهوتها. ودّ لو تشربها. ودّ بشدّة لو تشربها. لكنه ماكان ليقول لها هذا على الإطلاق. لم يعد واثقاً من أنه يحبّها. لم يعد واثقاً من شيء، وإذا كان ثمة سوء فهم؟ كان التفكير في ذلك قاسياً. كان يحبها، كان يحبها. بيد أنه لم يتعوّد بعد هذه الفكرة. لا، لم يكن يحبّها. أكاذيب رواها لنفسه. وعليه الآن أن يتخلّص منها. كيف. أحس أنه وقع في الفخ الذي عمله. لم يعد يتعرّفها. وظنها أكثر هزالاً وأقل أنوثة. تحرك قليلاً على المقعد. كانا جالسين جنباً الى جنب. وفجأة صدم ساق بيرينيس تحت الطاولة. فانسحب كلاهما قليلاً. واضطربتْ أفكارُ اوريليان. كيف... لأنه صدمَ ساقها... هذا الاضطراب السوقيّ! أيّ شيء خارق للعادة هذا الحضور! كيف ساقاها؟ لم يرهما قط بوضوح. نحيفتان، تبدوان لي جدّ نحيفتين... وربما كانتا مسرفتي النحافة...

كان يتكلّم، كان يتكلم طوال الوقت لكي لاترتاب فيما خامره، في خيبته، في حركاته الخفيّة، في هذه الحرارة المفاجئة. عمّ كان يتكلم؟ لم يكد يعلم ذلك. كان يلعب لعبة التخبئة مع ما كان يفكر فيه. كان خائفاً من أن يحبّها. كان خائفاً من ألاّ يحبها. كانا هنا، في المقهى، على نحو غير معقول. وكان لديهما القليل، القليل من الوقت لهما. علم فجأةً أنه سيفقدها. لم يعد يشكّ في أنه يحبها، وكان قلبُه يخفق، وهو يصغي الى الكلمات البلهاء من فمه هو. عمّ يجبَ أن يتكلم إذن؟ عن شيء آخر، عن شيء آخر. ماأجدر كلّ شيءٍ بالسخرية... إنها لاتعرفه... ولو عرفتْه فهل كانت تحبّه؟ لانعرف ماذا يجب أن نفعل لكي نُحبّ بأنفسنا ألاّ نظهر كما نحن أم أن نكذب. نحن نتردّد بين الأمرين. ونفعل الاثنين من جهة أخرى، كما قد يتّفق لنا. نقدّم أنفسنا كما نحب أن نكون، كما نظن أننا يجب أن نظهر ثم نقول لأنفسنا: «هذا ليس أنا...» ونسعى الى الظهور... بأسوأ مافينا... الى الإزعاج... مَنْ يدري إن لم يكن هذا هو السبيل الى الإرضاء؟ كان يشعر بحَصْرٍ مخيف. لم يكن الوقت يمرّ، وكان يفرّ مع ذلك. ماذا كان يقول؟ «لقد اندفع في الكلام على طفولته. وكانت تسأله أحياناً...

أرادت أن تعرف كيف كانت أمه... قال إن أمه كانت جميلةً جداً... حلمتْ بيرينيس... جميلة جداً... آه، أن تكون المرأة جميلة جداً... لم يعلّق على هذا الكلام... لم يكن بوسعه أن يقول لها إنها كانت جميلة جداً... مثل أمه... كانت أمه جميلة جداً... بيرينيس... كانت شيئاً آخر... شيئاً آخر أشدّ خفاء وقوّةً...

قالت: إني أتساءل: كيف تراني...

حدّثها عنها. كان يكذب. كانت الكلمات التي فكّر فيها غير محتملة. كان يحدّثها عن نفسها كما لو كان يحدث امرأة أخرى عنها. بكلمات ضخمة، فارغة. ولو قد قال لها الأشياء الفظّة، الحقيقية التي جالتْ في فكره عن شعرها، عن ذراعيها، عن يديها، عن زاوية ذقنها، عن بعض التعابير الشاردة عندها، عن بعض طرائقها الغريبة من الحركات التشنجية المضحكة، فلربما بكت. بينما كان يكذب، ويقول أشياء مبتذلة، أشياء صالحة لكل شيء، كان يغتاظ من نفسه، ومنها، ومن تلك الاستحالة في أن يقول ماهو كائن، في أن يوصل الى الآخر تذوقّنا لنقص، لسمةٍ لم تكتمل، لشيء ثقيل. كان يكذب ولم يكن يكذب: كان يُترجم. كان يُترجم الى لغة الإطراءِ الرخيصة العنفَ الذي كان مسكوناً به، وفجاجةَ اللذة التي كان يجدها في النظر إليها، هذه القوة الناقدة التي لاترحم والتي كانت شيئاً من الامتلاك العاشق. أجل، كان يُحبّها، كان يحب هذه المرأة الحيّة، لا التمثالَ ولا الصورة، بل هذا الجسد الحَرِك، هذا الجسم، هذا الوجهَ القادرَ على التكشير وعلى الابتسام، هذه القسمات المصنوعة للألم و... تصوّرها في اللذة مع الخبث والدقّة الشديدين فكفَّ عن الكلام وارتعش. قالت:

- حسناً، ها أنت تملُّ مرةً أخرى...

تمتم:

- المعذرة... ماذا كنتُ أقول؟... جاءتني فكرةٌ فجأةً...

أخذت تضحك. ليست هذه أول مرة يقع لها هذا:

- أنت رجل غريب الأطوار... أنت تتكلم وتتكلم... وأتابعكَ... وأظن أنك تحرص على ماتقول... ثم إذا بك تغيب ولا أجدك! وإذا بك تفكّر في شيء آخر... من الناس مَنْ يُزعجهم ذلك...

كان يعلم أنها تقول الحقيقة. وتخبَّطَ تخبّطاً شديداً. لكن ما كان يخترعه كان يهرب كالرمل. كان عليه أن يقول شيئاً مقنعاً. وجد مشاكلة الحقيقة في الكذب. قال

ـ ذلك أنني أشتهيكِ...

خَفتَ صوتُه ليقول ذلك قولاً معبّراً، ردّت بيرينيس رأسها قليلاً. كانت مقتنعةً. لكن الكذب كفَّ عن أن يكون كذباً. كان اوريليان ينظر إليها وكان مشغولاً بها بقوة، مأخوذاً بها بعمق، محمولاً على موجةٍ لم يسمعها وهي آتية، حتى لقد أخذ يرتجف بكل جسده. فأغمضت عينيها. ثم فتحتهما وقالت: «أنت ترتجف، أنت ترتجف ارتجافاً شديداً».

كان يرتجف.



- ٣٥ -

قالت. «لا... لا أريد مطعماً كبيراً... أريد أن أتغدّى كما تفعل أنت في كل يوم... يبدو لي أني سأزداد معرفةً بك». ولذلك أخذها الى «المارينييه». وفي الوقت نفسه من «المارينييه» الى بيته. كان الانتقال طبيعيّاً، سهلاً. ولذلك ترك سيارته في المرآب ثم عادا الى الجزيرة سيراً على الأقدام.

لم يكن الطقس جميلاً ولا معتدلاً كالصباح. كانت السماء رمادية وكان ثمّة ريحٌ. وكان الرصيف الشمالي من الجزيرة بارداً، وخالياً أيضاً، يضيق بالضيف أشدَّ الضيق.

نظرت بيرينيس الى الأشجار العارية الطافية فوق الحواجز والتي بدت من الحافة الغارقة كأنها الشهود المأساويون على الكارثة. وخطرت ببالها مدينةُ «اس». كانت الجزيرةُ بأسرها تبدو كأنها آخر درجة من الطوفان. شدّت وصالبت معطف الفرو. فرو السنجاب. جُنون لوسيان. كان لابدّ من صنعه مرة ثانية، لأن تفصيله كان سيئاً.

بأي فضولٍ دخلت بيرينيس هذا المطعم الذي يبدو مثل حانوت، كان طبقةٌ أرضية مدهونة قديماً باللون الأبيض، في الجدران السميكة من البيت القديم، والطاولات والصندوق، والباب في الصدر. لاشيء غير عادي فيه سوى تنافر ألوان الجمهور المكوّن من أناسٍ يعملون في هذه الجهة، من رجالٍ بقبعاتهم، من انكليز فنّانين، من طراز اكسفورد، من أزواجٍ مفرطي الأناقة بالنسبة الى المجموع، وعُزّاب مرتاحين، ومستخدمين. كان الجوّ دافئاً ولطيفاً. استُقبل اوريليان كأحد روّاد المكان. كانت له فوطتُه، لكن اليوم كان الاثنين، فأعطي فوطةً نظيفةً. في هذا الوقت بالذات تركت سيدةٌ طاولتها قرب النافذة. أرتْ الخادمةُ اوريليان الطاولة. انتقلا. قال: «هناك، ماذا ستعطيننا اليوم؟» وساعد بيرينيس على نزع كمّيْ معطفها. «لا، شكراً، سأحتفظ به». أدارت عينيها نحوه «ضعه على كتفيَّ...» بدأت الخلطةُ الحميمةُ بينهما.

بينما كانا ينتظران المقبلات أخذت تتحدّث عن نفسها أخيراً. جاء ذلك ببطء، كالثقة، بطرقٍ مجهولة. كان لابد لهما من هذه الصبيحة بأسرها. ماالذي تابعاه؟ كانت تتحدّث عن نفسها، وكان ذلك رداً على ماروا ه لها قبل حين ومالم يكن سوى فاتحةٍ، سوى سؤال

ـ أُحبّ، ياأوريليان، أن تعرف البيت الكبير... ففيه قضيتُ طفولتي... ولايمكن أن تعرفني تماماً دون أن تعرف ذلك البيت الكبير... كنتُ وحيدة مع أبي، والخدم... والريح... بيتٌ كبير أصفر وكئيب ناءٍ في الهضاب... مع الشمس والريح...

أمسك بيدها. حاول بكل قواه أن يرى هذا البيت البروفانسي، والابنةَ الوحيدة، والأبَ المهجور... لأن أم بيرينيس سافرت ذات يومٍ ولم تعد...

وقالت أيضاً

ـ ولقد وعدتُ نفسي دائماً أن أعود إليه ذات يوم مع أحدهم... مع أحدهم...

ضغط على الأصابع السجينة حتى كاد يحطمها. أكانت تحبّه إذن؟ لم يكن يقول في نفسه أنه سيقبّلها، لا، بل إنه سيحملها الى هناك، الى بيت أبيها. وكان هناك أيضاً ألف شيء لم يقله قط لأحد. وكان بوده أن يتناول أيضاً شيئاً من سمك المقبلات لكن السمك المقليّ حُمل إليهما. ودخل ناسٌ، رجلان. قطّب أنفه، وقطع كلام بيرينيس: «أي إزعاج!»

ـ ماذا جرى؟

ـ اوه!... ناسٌ أعرفهم... هناك، رأياني...

من الجهة الأخرى من الغرفة أظهر أحدُ القادمين الجديدين وهو يجلس دهشةً فرحةً، ورفع يده في الهواء، وحيّا بكتفيه. كان رجلاً قصيراً أصهب، قصير العارضين، قبّتُه مرفوعةٌ أكثر مما ينبغي، وعقدتُه فراشيّةٌ، وسترته مبالغ فيها، وظهر الأكمام مفرط العرض. كان بوهيمياً وموسراً. أما الآخر فكان ضخماً جداً، وأطول، وقد جلس قبله؛ وكان سوقيّاً، قصير الشعر، له شارب

صغير خشن، وذقن ضخمةٌ بارزة الى الأمام، وأنف مرتفع، وقد حيّا بشكل متكلّف، متحفّظ. كانت بيرينيس تلاحظ، وهي تتسلّى، اوريليان يرد التحيّة، دون أن يُرخي شوكته، وعلى وجهه ابتسامةٌ شاحبة، وأسنانُه كازّة.

أوضح:

- رفيقان من الفوج... القصير «فوشز»، كان يحرّر جريدة في الخنادق، وقد استمرّ فيها في الحياة المدنية... «الملجأ»، تعلمين...

- لوسيان يشتريها...

أحسّت بالضيق إذ قالت ذلك ونظرت الى فوشز الذي كان مايزال يحرّك حاجبيه نحو «اوريليان»، مشيراً بإبهامه الى جاره، وقائلاً «نعم» برأسه. كان اوريليان يتعذّب. قالت:

- يُريد أن يكلّمك، فيما أظن.

والواقع أنه نهض وجاء إليهما.

- نهارُك سعيد، ليرتيلوا، اعذرْني... سيّدتي... هل ستأتي الى عشائنا، الخميس؟ إني أتصرف كما يتصرّف الوغدُ... برّم كتفه، من جهة بيرينيس. قام اوريليان بالتعريف، على مضض: «صديقي بوشز»... الذي كنّا معه أنا وادمون في الفوج... السيدة موريل...

انحنى فوشز ثلاث مرات ولمعّ عارضه: «ادمون؟ أتعرف السيدةُ الطبيب الصغير؟»

كان مسلّياً أن تسمعه يدعو ابن عمها بهذه التسمية. لقد نسيتْ أنه خاض الحرب باعتباره طبيباً. وابتسمت، وقالت:

- هو ابن عمي.

اوه! وحينئذٍ عدّ هذه القرابةَ دعوةً الى الجلوس، وجلس أمامهما وهو يعتذر بمثل النباح.

- تصوّرْ أني وجدت مطعماً صغيراً، وكان حقّاً من تلك المطاعم الصغيرة! سوف تمدحني عليه... في «لافييت»... وحانة القبو! الكورتون[1] في دوارق...

---

(١) نوع من النبيذ.

تصوّرْ... ليس هذا هو المكان الذي سنلتقي فيه يوم الخميس... بالنسبة الى الخميس، وُجِّهتْ الدعوات متأخّرةً جداً لتدفع الجماعة الى هذه الحانة... الحفلات والمآدب على مقربة من «الساكريه كور» دائماً.. لاأدعو السيدة كي تكون بين مدعوّينا... فكلّهم رجال... هناك أصدقاء يضايقُهم هذا... لكننا سننظّم شيئاً في «لافييت»... وإذا مارغبتِ في ذلك... اوه! سنحافظ على اللياقة!... أعتذرُ مرةً أخرى. فقد قطعتكما عن حديثكما، وجلستُ... ذلك أن ليرتيلوا، ياسيدتي، عرفتُه، ماكان يتكبّر... كان الرصاص يَصْفر عند آذاننا، وكنا نحن متخندقين، قد سددنا الطريق على الرصاص، أتتذكر أخدود «بكتانس»؟ كان العشاءُ يُكَبُّ فيه كل يوم... ومنذ ذلك الوقت أصبحنا نوّاقين للطعام... هذا المطعم أنا أضمنه لك... وليس فيه قدور! آه، آه! أو أن هناك نوعاً آخر من القدور!»

كان اوريليان يغلي. فهدّأته بيرينيس بيدها وبرفقٍ. لم تشأ أن يُثير فضيحةً. ففهمها. وتبادلا نظرات بليغة.

دارت بخلَد اوريليان فكرةُ غيرُ مألوفةٍ وأسكنتْ فورته. لقد كانا كلاهما مثل اللذين بينهما معرفةٌ حسنة واللذين يعيشان معاً منذ زمن طويل... ممّا يسمح بتحمّل الدخلاء.

قال «فوشز»:

- أتعرفُ مَنْ الذي معي؟ هل تعرّفته؟ «ليموتار! المساعد، نعم، ياسيدتي، إنه يُسمّى كذلك، ذلك الرجل الضخم! وقد لقيته بطريقة غريبة... بسبب «غونفالون... أتتذكر... غونفالون... الملازم... نمط الفارس الذي شارباه أبداً في منخريه؟ نعم، بعد تلك الأفراح ساءت حاله... عاهرة تبتزّ.. تذكّرتُ «ليموتار» وذهبنا معاً للبحث عنه في «بريفيكتانس»...

طرف بعينه، والتفت الى رفيقه الذي أدرك أنهم يتحدّثون عنه، وحيّا من مكانه، ثم قال بصورة سريّة: «ليموتار، ياسيدتي، ولا أحب أن أُخفي عنكِ شيئاً، في الشرطة الأخلاقية... إن لم يكن ذلك مضحكاً! مع مثل هذا الاسم! وهو على

كل حال، عظيم الوداعة، هذا الوحش الضخم، بالنسبة الى مهنته؛ لو سمعته يقول: «ماذا تريدون، النساء لاأستطيع أن أحقد عليهن... أنا طيب القلب جداً... وأنا أصفح عنهن...» الخنزير!

كان يمزح، ويخاطب بيرينيس بكثير من طَرْف العين:

«وهو متديّن، فوق هذا! أثناء الحرب لزِقَ بالمُرشد... كان يعترفُ ولا يني يعترف، ويجري الى الكنائس، ويتناول ماوسعه التناول... لكنه كان يحب النساء حبّاً جماً حال بينه وبين النجاح في مهنته... كان يستسلم لهنّ، ماذا تريد منه... إذ ذاك ترك الشرطة الأخلاقية بعد الهدنة... وعندما ذهبنا الى «بريفيكتانس»، لم نجد أثراً لهذا الصبيّ! آه! وقصدنا حينئذ «الجيبسي» لنسكر... وكان غونفالون ثملاً بشكل قذر... حسناً، ومن الذي جلس بجنبنا مع عاهرة من العاهرات، عاهرة حقاً! ليموتار، ليموتار، المتقاعد، الذي يبيع الآن الشمبانيا... أأدعوه الى أن يأتي الى هنا؟ إنه يتحرّق ليشدّ على يدك... ألا يضايق ذلك السيّدة؟ على كل حال، لقد ترك الشرطة الأخلاقية...

كان قد وقف وصار في الجهة الأخرى.

همس اوريليان:

- اعذريني، سأتخلّص منهما.

قالت.

- لا، لاتفعل شيئاً من ذلك... إنه يسلّيني، ثم إني أعتقد أن المصادفة تخدمني، اكتشفت أشياء عنكَ، من الآخرين. لاتغشّ، اوريليان! لاتُخفِ عني هؤلاء الناس...

ندّت عنه حركةُ عجز. وجاءه الرجلان.

قال فوشن.

- حسناً، هاهوذا ليموتار، سيّدتي، أقدّم لكِ ليموتار... السيدة هي قريبة الطبيب المساعد «بارينتان»...

انحنى المساعدُ السابق، وحار بيديه الحمراوين الضخمتين أين يضعهما. ربما كان عمرُه أربعين عاماً، تشوّه جسمُه بالأكل والشراب، وكان متيناً، بشعاً، قصير الرقبة، وقد تركت القبة في شعره الحليق أثراً أحمر. وكان جبينُه منخفضاً، وأنفُه مرتبكاً كالمصابين بورم في الغشاء المخاطي، ممّا جعل صوته غريباً، وجمله على أن يتوقف كثيراً ليستردّ أنفاسه، في غير وقتها، على العموم.

ـ السيدة... آه! السيدة قريبة...؟ آه... سيدي الملازم... سأكون سعيداً جداً لو التقيتُ سيدي الملازم!...

كان بطنُه يمنعه من الانحناء للتحية

مزَحَ «فوشن» الذي بدأ أولاً

ـ اجلسْ، يامفوّض الحيّ! مادلين! هاتي صحوننا!

كانت حركةُ اوريليان كحركة حصان سيشبّ.

اكتفت بيرينيس بأن وضعت يدَها على أصابعه. فردّ وجهه الى صحنه.

قال فوشن:

ـ ماهذا الطبقُ المقلي؟ أهي فروخ السمك؟ ستطلبونها مرةً أخرى؟ أعتقد أن من الأفضل اقتصارنا على الشريحة والمحار... نبيذ أحمر، طبعاً «ليموتار»؟

كانت بيرينيس تتسلّى بهيئة اوريليان المغتاظة. كانت تحسّ نحوه بكثير من الحنان لتعرف حدودَ صبره.

قالت:

ـ وهكذا، كنتَ أنتَ أيضاً في الحرب مع ابن عمّي باربنتان؟... والسيد ليرتيلوا طبعاً؟

تلوّى على بطنه، وبدا مثل حشرة ضخمة من مُغْمدات الأجنحة التي ننتظرها طوال الوقت لنراها تحلّ طيّات غمدها. وكان وجهه الوديع رخواً، وعلى جسمٍ قاتلٍ. وكان يفتح فمه دائماً قبل أن يتكلم بقليل، فيندفع فكُّه الأسفلَ الى أمام أيضاً

ـ مع الملازم، نعم، ياسيّدتي... والنقيب... الطبيب المساعد باربتان... نعم، ياسيدتي...

قال فوشز الذي نسوه.

ـ لو رأيتم «ليرتيلوا» في «ايبارج»!

رفع ليرتيلوا سبابةً مغتاظة. كان يكره هذا النوع من التملّق الكاذب، ذكريات الحرب التي يمدح بها الإنسان جاره، بشرط المعاملة بالمثل.

ـ طيّب، طيّب، تكلّفْ التواضع! هذا لايمنع من...

من حسن الحظ أن «ليموتار» انطلق في قصته. ونسي «فوشز» الذي امّحى مثل مفرقعة بسيطة. كان ليموتار يتمايل على كرسيه، فاتحاً فمه، مملّساً شاربه بعكس ميل الشعر، وعيناه زائغتان في نوعٍ من الحلم.

سأتذكّر دائماً... كان ذلك في «شيمان دي دام»... لم أكن أعرف الدكتور، وكان قد وصل الى الكتيبة قبل قليل... كنتُ عريفاً إذ ذاك... وكانت لي فصيلةٌ... الى الغرب قليلاً من سانسي... كنا نحافظ على خط السكة الحديدية... وقد تقدّمنا بعد قصف، أيّ قصفٍ! كل شيء أمامنا كان مقلوباً. لم يبق من خنادق، ثقوب القنابل، الحفر... تقدمنا كما تيسّر لنا... على السفح، وحيثما وجدنا مايشبه الأكمة... وتراجعنا هنا وهناك... وتُهنا فلم نعد نعرف أين نحْن... هل أضجرتكم؟

قالت بيرينيس.

ـ كلا، على العكس...

ـ كان الألمان أمامنا، وعلى جانبنا، وخلفنا... وكانت المدفعية تقصف قصفاً كثيفاً.. وكان يُرى فيما بقي من الأسلاك الشائكة شخصٌ لم يستطع أن يخلّص رجليه... لم يفكّر أحدٌ في إنقاذه، أقسم لكم... بل إن الكلبة كانت عاجزةً عن التعرّف على صغارها... المكان حيث كانت فصيلتي احتفظ بالشكل الإنساني... لأننا احتللنا أخدوداً جرى القتال فيه... وُضعت له حواجز من أكياس الرمل... بيد أنه كان هناك ألمانيا جريحان يتقدّمان ونحن نكوّم

الاكـاس... حينئذ سقطا على وجهيهما، أرجلهما في أخدودهما والرأس عندنا. النفّا في الأكياس... شطائر حقيقية... ولاسبيل الى إنقاذهما، أتفهمون كنا خائفين من هذا الجانب ومن ذاك على حدّ سواء... ثم هل نبدأ القتال من أجل رجلين... لكن المساء أقبل وأبيا أن يموتا... كانا مايزالان يصرخان... لابد أن بهما جراحاً مؤلمة... الساق... ولم يكفّا عن الصراخ... في القطاع الذي لم يكن يتحرّك فيه أحدٌ... كان كلُّ إصبعهُ على الزناد، متخفياً تحت الأرض... وحينئذ، وعندما يستأنفان صراخهما، كان رماةُ الرشاشات يُرسلون رشقةً كما يتّفق لهم... تاك تاك تاك تاك... فيزلج الرمي... تاك، تاك... فلا ندري أي نستقرّ... فيجيب الآخرون... لا الألمان ولا نحن كنا نعلم على مَنْ نرمي... ومع الليل أصبح الأمر لايُحتمل... وفي هذه الأثناء، إذا بالملازم يصل... أتذكر ياسيدي الملازم؟

أرسل «اوريليان» حركةً مبهمةً.

- بلى، بلى، سيدي الملازم... مع الطبيب الجديد... قريبك سيّدتي... لم أكن أعرفه... وصل وكنّا على نسقٍ، وتعلمين أننا قلما نرى الأطباء في العادة، كان مايزال بكامل أناقته... كنا في الصيف... ولم يكن ثمّة وحلٌ... وكنت مُنهكاً... ساخطاً... ثلاث ليالٍ دون نوم... وهجوم الصباح... هذا اليوم... الخلاصة، اتجهتُ الى ملازمي وقلتُ له. «أتعرفني، سيدي الملازم! أنت تعلم أنك لن تجد أكثر وداعةً مني... هل رأيتني أؤذي نملةً؟...

قال فوشن: آه! يالهذه القصة!»

تضايق ليموتار، ونفخ كتفيه، واستدار نحو جاره ليعتذر. «لم تسمع السيدة بعد هذه القصة... نعم رويتُها أمس للسيد «فوشن» إذن... لأن الطبيب المساعد لم يكن يعرفني... فقد يظن أنني كذلك... قلتُ له: «وصل الدكتور في الوقت المناسب، ولا أستطيع أن أفعل غير ذلك، لو كنتُ أستطيع أن أفعل غير ذلك لفعلت... لكن ليس هناك شيء آخر أفعله...» وأخيراً خرجتُ عن طوري. قال لي الملازم. «مابك، أيها العريف؟ قلتُ له: «بلا أمرٍ عليكما، تعالا إليّ أنتما

كلاكما، يلزمني شهودٌ لما سأفعله...» وسوف تشهدان، أليس صحيحاً؟ تعلمان أنني وديعُ، بل مسرف الوداعة، سيدي الملازم، ولولا أنهما سيذبّحان الفصيلة...» قال لي الملازم

«اهدأ، ياعريف، أجل، أنا أعرفكَ، أجل، أنت وديعٌ جداً،...» أتذكر، سيدي الملازم؟

الظاهرُ أن اوريليان تذكّر. ولم يكن يحبّ هذه الذكرى.

ـ «وحينئذ جئتُ بالاثنين الى الأخدود، حشرنا أنفسنا، وكان يجب ألا يبرز الرأسُ. تاك، تاك، تاك، تاك تاك..» كانا يصرخان في الأكياس وأحدهما يهذي. أنا سللتُ سكّيني وقلت لهما. سيدي الملازم، دكتور، انتظراني هنا، لاأجد شيئاً أفعله غير هذا... سيقتلاننا، هذا مؤكّد... وعندما وصلتُ حينئذٍ قريباً منهما، فيما بقي من النهار، لكي يراني الأصدقاء... آه! ياويلي! قد أعيش مئةَ عام فلا أنسى هذا... الذي فوق فهم في الحال.. لابدّ أن ذلك كان يُرى على وجهي... أنا تقدّمتُ... أخذ يصرخ بلغته...لم أكن أفهمه، لكن لم تكن هناك من حاجة للفهم كي أفهمه... كان يقول: «لاتقتلْني»... وكلمات أخرى تعرّفتُها لأنه كان معي ألزاسيون، كان ينادي أمه... أناوديع مثل خروف لكني لو تركته يفعل لهلكنا جميعاً.. كان يصرخ... يالذلك الوجه! أراه كما لو كنتُ هناك... لم يكن يقدر على الحراك، كانت ذراعاه عالقتين... وحينئذٍ، قطعتُ له بسكيني، وماكنت أظنّني قادراً... قطعتُ له من الجهتين... كيف تُسمّي هذا الشريان...

قال فوشن:

ـ السباتي

ـ ليس لدينا فكرة كم تنزف هذه القذارات... وتطايرت عليّ... والصرخات... الصرخات... ماتزال في أذنيّ. الخنزير الذي نذبحه ليس سوى خنزير... لكن الإنسان، الإنسان! الأسوأ كان التالي. لم يفهم في البداية، لكن عندما تناثر دمُ الآخر على وجهه... كان يهذي، لكنه عرف ماينتظره... كان هذا يعرف شيئاً من الفرنسية... كان يزعق: الرحمة، الرحمة! لاتقتلني أنا! حينئذ

استبدَّ بي الهياجُ ضدّ كلّ شيء، ضد نفسي، ضدّه، ضدّ كلّ هذه القذارة، فركعتُ وطعنتُ، طعنتُ، حتى أُنهكتُ؛ خفتُ أن أتركه دون أن يموت... أليس كذلك، سيدي الملازم؟ وعندما عدتُ من هناك، كانت سحنتي غريبة... رجل وديعٌ مثلي...

قال فوشن.

- خُذْ كلَّ محاراتك. سبع، ثمان، تسع، عشر، إحدى عشرة، لي الحق في واحدة أيضاً.

- لم يعد اوريليان يصك أسنانه. كان يحلم، وهو متجهّم. كانت بيرينيس تنظر إلى الرجال الثلاثة. أيُّ رابط خفيّ كان يُقيمه ذلك الماضي بين كائناتٍ متباينة هذا التباين! لكن هل كان من رابطٍ حقاً بين اوريليان ليرتيلوا وشرطيّ الأخلاق «ليموتار»؟ كان هذا يضع الصلصةَ بالكرّاث على المحار، ويشكو من قسوة الزمان. الشمبانيا... يظن الناس أن الأمور ناجحة... وكم ينبغي أن يُباع منها للحصول على قليلٍ من النبيذ الأحمر!

قال:

- آه! كنّا أبطالاً منذ ثلاث سنوات! حصةُ المقاتل... لهم حقوقُهم علينا...

روى فوشن قصصاً عن متقدّميهم، عن خادم النقيب «واتليه» مثلاً... أميل، نعم... لقد مات في «سان ديني» بالسل... قال اوريليان:

«كيف بالسل؟» ذلك الوغد الذي كان يلاحق البنات حيثما وصلنا... تماماً، السلّ. «مال دي بوت»، «منغل»، «شابلان»، «دوبوي»، «سيكان»، «بالانت»... انخرط اوريليان الآن في الحديث، وهو فريسة لتلك الأشباح... لقد كان قدرُهم المشؤوم والمبتذل يُدركه، فأحسّ أنه أشدّ فقراً وغربةً من كل ماطراً عليهم من بؤس وترح.. هذا امرأته... وذاك ابنه... كانت بيرينيس تتابع بدهشة نموَّ هذا الانفعال على وجهه.. فيزداد حبُّها له. كانت تحسّ مايخبّئه حياؤه في الغالب، فتعاظم تصديقُها لحبّه، لكونه بدا كمن نسيها، هي، وأنه وقع هكذا في

فخّ الذكريات، في هذا الحديث مع هذين الجالسين المتطفّلين على طاولتهما.
كانت تنظر الى أعماق حياته، حياة اوريليان.

ـ وهذا العريف... ماسمه؟ هذا الشخص الطويل، الشجاع... هل تتذكّره «فوشز»، «فاكوا»؟

ـ مَنْ؟ بلانشار؟ لاأدري.

قال ليموتار:

ـ ساءت أموره. وقد لقيتُه في «اسنيير». تورّط في قضيّة «باربوس»... أتعلم...

هزّ «ليرتيلوا» كتفيه. لم يكن هذا يثير اهتمامه.



- ٣٦ -

كانت في منزله كما دبَّر لذلك، وقد حدث ذلك بانزلاق غير محسوس. كانا مايزالان مدووخين من هَرَج فوشز ورفيقه. وكان هناك ذلك النسيم الذي قلّما يجعل الشوارع والأرصفة مُغريةً. كان اوريليان ينتظر مقاومة، وقد هيّأ كلمات، وغصباً، وتحدّياً. لا لزوم لذلك. قالت بيرينيس: «آه! هنا؟» وعَبَرت البابَ. لم يخش أن يلتقيها أحدٌ، ولم تكن تعرف الأمير... وذلك الدرج الذي لاينتهي وخفقان القلب... وفجأة غدت تلك الريفية القصيرة، وقبّعتها في يدها، ورأسها المتحرك، وخصلاتها الشقراء، ومعطفها على ذراعها، وطقمها السيء التفصيل، عدت عزيزةً عليه الى حدٍّ عظيم، إذ رآها هكذا في بيته. في بيته. بلا تكلّف. دون تلك الجمل المتوقّعة. كان يخشى ألا تحبّ غرفتيه، وكأن جسمه هو المقصود بذلك. وإذا لم يكن كلُّ شيء مرتّباً... وهل نعلم مع السيّدة «دوفيني»؟..

إن ذلك... أي إن ذلك الإحساس الغريب، ذلك الشعور الذي لا اسم له... بدأ منذ أن فُتح البابُ وانسلّت بيرينيس الى المدخل الغريب، ولمست أثناء مرورها معطفه الفاتح المعلّق بالمشجب، وبلغتْ عتبة الغرفة. كانت في بيته. وقف اوريليان خلفها وحاول أن ينظر مثلها الى هذا المجال العائلي نظرةً جديدة.

هل رأيتم قط هرّاً يدخل شقّةً لأول مرة؟ هل لاحظتم ذلك التردّد، ثم تلك الاندفاعة السنّورية، وذلك المدّ لقائمته التي تتملّك الأثاث والسجّاد والهواء في الستائر، وكأنه يتملّك غابة أو دغلاً؟

هل رأيتم عينيه الذهبيتين تحاولان ألا تبدوا سوى بريقٍ للنور، وفروُه يختلط على الفور بما يشبهه، وهناك دائماً مايشبهه؟ لم تتقدّم بيرينيس نحو وسط الغرفة، ومع ذلك صارت في الجهة الأخرى منها، ورمت قبّعتها، ومحفظتها ومعطفها على ثلاثة مقاعد. كانت تلهو مع الضياء الآتي من جميع الجهات. كانت

الغرفة صغيرة، لكن النور كان يأتي من جميع الجهات، من النوافذ الثلاث على ذراعي «السين» ومقدّمة الجزيرة، وأيضاً من باب الغرفة المفتوح. وإنما بدتْ كالهرة تماماً عندما لمست الستائر الكبيرة الشفافة عند النافذة المطلّة على الضفة اليسرى. بل بدت كسنور أعظم نبلاً وقدرةً. ولقد اكتشف اوريليان في هذه المرأة، من حركة كتفها وظهرها قوة لم تخطر بباله بعد.

شدّ حبال الستائر وفتح النافذة، وأفضيا الى الشرفة. همست.

«هذا جميل». كانت باريس تزرقّ. كانت مستندة إليه، بصورة جد طبيعية، ولم تتهرّب. أحاطها بذراعيه وكأنه خاف أن تُصاب بالدوار. كان هو المصاب بالدوار... ودامت الدقائق معدومةً، فارغة، صامتةً، وكان «السين» أصفر، معكّراً، مُثقلاً بالثلوج والأوحال من مكان آخر، تحت السماء المشعّثة بخصلها البيضاء، مع هذه الزرقة الشاحبة، البالية، في الشتاء الباريسي، عبر التمزّقات. كان ثقل بيرينيس عليه، وثقل السماء عليهما: خاف كما خاف قديماً... خاف من أن يَحْرك، من أن يُدمّر سحرَ هذه اللحظة... قديماً كان الموضوعُ شيئاً آخر، لكن لاشيء يشبه الموتَ كالحب. هذه الفكرة جعلته يرتعش، فهي غير متناسية، وهي مفخّمة.

قالت بيرينيس. «فيم كنت تفكّر؟ قلْ... فوراً... دون تفكير...

أجاب: أفضّل أن أقتل نفسي على أن أجيبكِ...

وهذا أيضاً جعله يرتعش لأنه خلا من التناسب ومن الحياء... كان يحس بنفسه فريسةً لسعادة مذهلة بحيث كان يخشى أن يضع حدّاً لها. ياالهي، أكان حسناً في أن أمسك بيرينيس هكذا؟ ألم يكن هذا هو سعادة الحضور البسيطة... هنا... كثيرٌ من النساء نظرن معه الى منحدرات البانتيون، والمرتفعات البعيدة والقريبة لهذا المشهد من قبل... لكن هذه السعادة... كان يخاف أن تفهمها بيرينيس، وخاف في الوقت نفسه ألا تشاركه الشعور بها. لم

يحد ما يقوله، كان يخاف الكلمات، وكأنها انحطاط لما كان يتملّكه من مُعجب رائع لايوصف. الشَعْر المُهْملُ على كتف سترته، وهذه الحركة الخرقاء التي طوّق بها قامتها، ويدُ بيرينيس على يديه، وكانت قد حطّتْ عليهما لتفكهما بلا شك، ثم بقيتْ عليهما ناسيةً ماأرادت أن تفعله... وعذوبةُ السماء... ذلك الخمودُ، الخدر الذي استولى عليهما... كان فيه من الحب مايشبه ذلك الشعور الساكن في الأحلام. تخيّل تفسيرات أسطورية لهذا المشهد. وهي أنه تمثالٌ من حجر استندت إليه بلا مبالاة امرأةٌ...

كان يأمل ويتخوّف حركةً منها، ملامسةً مفاجئة، انحرافاً. دفعت يدها الأخرى ووضعتها على شعرها، بحركة طبيعية ورقيقة... رأى قذالها القريب، الشديد القرب، المضطرب، والمخملّ الأشقر الحيًّ... فبالغَ في سكونه. آه! لاحاجة الى الكثير من ذلك كما يُعتقد، حتى يُثمل التماثيل.

قالت: لندخلْ، بردتُ قليلاً.

لم يلحق بها على الفور. لم يكن يعلم ما الذي يمكن أن تنمّ عليه عيناها، كان مضطرباً. وقال في نفسه: مع أني لم أعد ابنَ أربعة عشر عاماً.. وسأل نفسه إن لم يكن قد بالغ في ضمّها إليه لأنها أدركت ذلك وأرادت من غير شك، أن تكون بعيدة، بعيدة عن ذلك كله... فخجل قليلاً. وفي الوقت نفسه كانت المفاجأة قويّة جداً. وانقلب راجعاً برفقٍ، وانسحبتْ باريس والسماء، وغاص في الغرفة حيث كانت بيرينيس تتلهّى باكتشاف أصغر الأشياء، علبة فارسيّة، منفضة سجائر للدعاية سُرقت في «بيارتيز»، عصفور من الزجاج الأزرق علي المدفأة وهو ذكرى من لندن... وفكّر في أنها قد اجتاحت منزله على نحو مايفعل العطرُ. حاول أن يُترجم لنفسه مايجري بطريقةٍ أبسط، وأشد فظاظةً. فلم يستطع. كان بحاجة الى تنكير الأشياء، الى تزيينها بالكلمات، والتشبيهات. كانت تلك طريقته في احترام بيرينيس. احترامها؟ هزّ كتفيه. إنها له، شاءت أم أبتْ.

الآن؟ لا، غير الآن. لكن أليس الأمرُ واحداً؟

دخل غرفته وتركها وحدها للحظة بصورة جد طبيعيّة... ومن غرفة الزينة سمعها تضحك. كان يسبّل شعره بالمشط المعدني. ضحكت إلامَ كانت تنظر؟

لم يعتذر حين عاد.

«ما الذي كان يضحككِ؟»

أشارت بإصبعها، وهي مرتبكة جداً، الى لوحةٍ على الجدار. أحسّ بشيء من المضايقة. كان يخشى تأويلات بيرينيس. ففي بيوتنا أشياء ربما لايصح الدفاعُ عنها دائماً. لكننا نتمسّك بها. هذه الصورة... على كل حال لم تكن رديئةً، فدافع عنها:

ـ «لم تُحسني النظر إليها... ليست رديئةً الى هذا الحدّ... أوه! ليست من عمل «رامبرانت» لكنها جد متقنة، جد مُرضية»..

ـ لم أقل إنها رديئة. لِمنْ هي؟

ـ لرجل أُحبّه كثيراً. «امبيريو»... العم «امبيريو» كما كنا نقول، أنا، وأختي، مع أنه ليس من الأسرة...

ـ آه!... لستُ أراها بوضوح... أتسمح؟

ليس له مثيلٌ في إنزال اللوحات المعلّقة. فعرضها للنور، وهو يسندها الى ركبتيه، ويديرها لكي لايبرق طلاؤها تحت النور. وأحسّ إحساساً كريهاً بأن حركته حركةُ تاجر.

لم تنتبه «بيرينيس الى ذلك». كان تفكّ رموز اللوحة بفضول.

لا، لأن اللوحة كانت سرّاً خفيّاً على نمط مانجد لدى التكعيبيين، لا. كانت صورة تقليدية. مع صنعة لم تكن تبعد كثيراً عن كل مانراه في «الفنانين الفرنسيين»، وربما مع دقّة أكبر، دقّة أكبر، وحرصٍ على التفصيل من عصرٍ آخر. مطابقة. الغريب كان التركيب، طائفة الأشياء التي تدخل في هذه اللوحة ذات الكبر المتوسط. لوحة طبيعية. كانت نافذةٌ مفتوحة، لكن لا على طريقة

«ماتيس» أو «بيكاسو»، بل على الطريقة الهولندية؟ ومن الغرفة التي صوّر منها الرسّام لانكاد نرى سوى طبيعة ميّتة على متّكأ النافذة، وقماقم، ومقصّات صغيرة، وأدوات تجميل متناثرة، وعلبة بودرة مفتوحة، كل ماينم على امرأة غير مرئية، وقماش أزرق. الشيء الجوهري كان في شيء آخر. كان ذلك المشهد المديني[1] المبتذل المغمور بضياء الصباح، ربما من الطابق الثالث.، وعلى الرصيف يُرى رجلان يلتقيان، وطفلة صغيرة تحمل رغيفاً طويلاً، ومتسوّل أعمى، وبائع صحف على منصة وحوله صبيةٌ، وكشك جرائد وبائعته؛ وفي قارعة الطريق، ورصيف المارة الذي ينتظر فيه الترام و«الباس» أناسٌ ماضون الى عملهم، وعمّالٌ أكياسهم على ظهورهم، ونساء حاسرات، وموسيقيٌ يحمل صندوقة القيثار. والى اليمين كانت الأرصفةُ مقلوبةً بسبب الأشغال، وكان يُرى العمال المصلحون يعالجون مطرقة. والى اليسار مأساةٌ: عربة التوزيع تقلب صبياً، والجياد تثبُّ، ولم ير بعدُ أحدٌ شيئاً. سوى آخر الجماعة التي تنتظر الترام والذين التفتوا وكأنهم يصرخون، وأحدهم يشد جاره من كمّه. كان على ذلك ضياءُ العصر الوسيط، ولا نعلم لماذا.

قالت بيرينيس

ـ ماأغرب هذا! لا أستطيع القولَ إن هذا يُعجبني... فهذا مختلفٌ جداً عن التصوير...

ـ هذا يُعادل دائماً «زاموراك»...

ـ اوه! زاموراي! قلتَ «امبيريو»؟ غريبٌ أنه غير معروف أكثر... ماأعظم عنايته بلوحته!

علق اوريليان اللوحة من جديد، وكرّر:

ـ هذا رجل أحبّه كثيراً... هو وامرأته، وهما صديقاي الوحيدان... بالرغم من اختلاف السنّ... فهو في حوالي السبعين...

---

(١) نسبة الى المدينة على غير القياس. المترجم

قالت بيرينيس وكأنها تحدّث نفسها فقط أودّ لو أتعرّف به.

ـ إذا شئتِ... وسيُريكِ لوحاته... فهو لم يُفسدْهُ الزوّارُ، تعلمين...

كان اوريليان سعيداً. كان سيكره أن يراها تُعدم بكلمةٍ تصويرَ العمّ. ولقد أخذ يبتهج منذ الآن لأنه سيقودها الى منزل العجوز «بليز». كان ينبغي ألا تنتظر من تلك الزيارة ذلك النوع من السرور الذي وفّرته لها زيارتُها لبيكاسو، مع «بول ديني»، بيد أنه سيثأر لنفسه من «بول ديني».

استأنفت بيرينيس تنقيبها.

أشارت الى المنفضة: «عندي واحدة أكبر منها! زرقاء وذهبية... عبد الله... أتحبّ هذه الأنواع؟ يبدو أنني ماكان ينبغي لي... أن أظهر كالمرأة المستهترة...

مشى إليها فاتحاً ذراعيه. فقالت:

ـ اوه! مهلاً، لاتجبرْني على قول هذه الأشياء... جئتُ الى هنا من غير أن أحلّفك بأن تبقى عاقلاً، مع ذلك... إذن!

كانت تضحك ولا تضحك. أما هو فأرخى ذراعيه الطويلين. كان ينظر إليها، وكانت تتنقّل في المجال المتغيّر لنظرته. كان ينظر إليها وهي تهرب وتعود، وتنصرف عنه لتلمس قماشاً، وتمثالاً صغيراً تافهاً في ركنٍ من المدفأة، سخافةً بقيت هنا عن طريق الإهمال، وكان يودّ دائماً أن يرميها في السلّة... تمثالاً من البرونز الأسود، تصوّروا... لايصلح إلا ثقّالةً للورق... ماذا ستقول عنه بيرينيس، بذوقها الحديث؟ ليس له إلا أن يُعطيه السيدةَ «دوفيني»... كان ينظر الى بيرينيس بمكرٍ وهي تعود وتعبث بالنار، واثقةً من نفسها ومنه...

وحينئذٍ مدَّ ذراعه الى الجدار وأنزل القناع.

* * *

- ٣٧ -

ثمّة هوى مفترسٌ جداً لايمكن وصفه. إنه يلتهم من يتأمّله. وجميع الذين تصدّوا له علقوا به. لايمكن أن نجرّبه وأن نتدارك خطأنا. ونحن نرتعد حين نسمّيه إنه: الكلفُ بالمُطلق. قد يُقال: إن هذا الهوى نادرٌ، وحتى الهواة المهووسون بالعظمة الانسانية يضيفون. لسوء الحظ. يجب أن نُقلع عن هذا الخطأ، فذلك الهوى أكثر انتشاراً من النزلة الوافدة، وإذا كنا نتعرّفه تعرّفاً أفضل عندما يُصيب القلوبَ الكريمة، فإن له أشكالاً كريهةً تفتك بالناس العاديين والعقول الجافة والأمزجة الفقيرة. افتحوا الباب يَدخلْ ويَستقرّ. وقلّما يَهتم بالمكان الذي يَأوي إليه، ببساطته. إنه غيابُ التسليم. إذا شئنا فَلنغتبطْ بما أمكن أن يُسديه للناس، بما أمكن أن يولّد عدمُ الرضا من رفعةٍ. لكنا لانكون قد رأينا منه سوى الاستثناء، الزهرة الفظيعة، وحتى حينئذٍ انظروا في أعماق الذين يحملهم هذا الهوى الى ربوع العبقرية تروْا هذا الذبول الحميم، وآثار الدمار وهي كل مايدلّ على مرور ذلك الهوى بأفرادٍ لم تؤتهم السماء ماآتت غيرهم.

مَنْ كلِفَ بالمطلق أعْرضَ من جراء ذلك عن كل سعادة. أيّةُ سعادة تُقاوم هذا الدوارَ، هذه الحاجة المتجدّدة أبداً؟ إن هذه الآلة الناقدة للعواطف، هذا اللولب الحافر للشك، يُغير على كل مايجعل الوجودَ مقبولاً، كل مايصنع مناخ القلب. يجب أن نضرب الأمثلة لإيضاح ذلك، واختيار تلك الأمثلة من أشكال هذا الهوى المتدنّية، السوقيّة بالذات لكي نتمكن بطريق القياس أن نرتفع الى معرفة المصائب البطولية التي يُحدثها.

من المعلوم أن الهزال المزمن لدى ذوي الذكاء يتحرّك بسرعة نحو المراكز العصبيّة العليا بينما هو يتطور لدى الحيوان والنبات ببطءٍ أكبر، ويُؤْثر أن يهاجم المراكز المحرّكة. هذا الهزال المعنوي الذي أتحدّث عنه يتخصّص هو

أيضاً: إنه يتّجه الى المهارة، الى الهوس، الى الكبرياء، لدى البائس الذي يُرهقه. إنه يحطم صوتَ المغني، ويرمي بفارس السباق الى المشفى من الهُزال، ويُحرق رئتي العدّاء أو ينهك قلبه. ويقود بطريق غريبة ربّة المنزل الى مصح المجانين، لفرط النظافة، والإصرار على التلميع والتنظيف اللذين تبذلهما من أجل زجاج النافذة في مطبخها، دون أن تبلغ ماتريد، بينما يسيل الحليب، ويحترق المنزل، ويغرق أبناؤها. وهذا الهزال هو أيضاً آفةُ الذين لايحبّون شيئاً -وإن لم نتعرّفه- والذين يعارضون كلَّ جمالٍ وكلَّ جنونٍ بـ«لا» لاإنسانية تأتي هي أيضاً من الكلف بالمُطلق. كلُّ شيء منوطٌ بالموضع الذي نضع فيه ذلك المطلق. قد نضعه في الحبّ، في اللباس، في القوة، وحينئذ ستجد دون جوان، بيرون، نابليون. لكنك ستجد أيضاً ذلك الرجل المغمض العينين الذي تصادفه في الشارع والذي لايكلّم أحداً. وأيضاً تلك المتسوّلة الغريبة التي نُشاهدها مساء على مقعد قرب «المرصد» ترتّب خِرقاً غريبة. وأيضاً ذلك المتشيّع البسيط الذي يسمّم حياته بالجفاف. وذاك الذي يموتُ من الرقّة وذاك والذي يجعل الحياة غير ممكنة من الفظاظة. فهؤلاء هم الذين لاشيء عندهم يملك قيمةً.

الكلفُ بالمطلق... الأشكال السريرية لهذه الآفة لاتُحصى، أو هي من الكثرة بحيث نزهد في إحصائها. ونودّ أن نقتصر على وصف حالةٍ واحدة، دون أن تغيب عن نظرنا قرابتُها مع ألف حالة، مع آفات هي متنوعةٌ في الظاهر الى حدٍّ نظن معه أن لاعلاقة لها بالحالة الموصوفة، لأنه ليس هناك مجهر لفحص الجرثومة، ولأننا لانستطيع أن نَعْزل هذا «الفيروس» الذي نسمّيه الكَلَفَ بالمطلق، لأننا لانجد تسميةً أفضل.

ومع ذلك، فمهما تكن متنوّعةً تنكّرات هذه الآفة، إلا أنها يمكن اكتشافها بعَرَضٍ مشتركٍ بين جميع الأشكال، حتى بين أكثرها مناوبةً، وتلك الأعراض هي العجزُ الكلّي لدى الشخص عن أن يكون سعيداً. مَنْ كلِفَ بالمطلق يمكن، علمَ ذلك أم جهله، أن يحمله كلفُه الى قيادة الشعوب، الى جبهات القتال، أو أن

يُشَلَّ في الحياة العاديّة ويؤول الى سلبيّة حارته، مَنْ كلِفَ بالمطلق يمكنه أن يكون بريئاً، مجنوناً، طموحاً، متحذلقاً، لكنه لايمكن أن يكون سعيداً. وهو يطلب دائماً المزيدَ ممّا يخلق سعادته. وهو يدمّر بهياجٍ يرتدّ على ذاته مايمكن أن يكون سروره. وهو محرومٌ من أدنى استعدادٍ للسعادة. وأضيف الى ذلك أنه يُسَرٌّ بما يُضنيه، وأنه يخلط بين زوال النعمة وبين فكرةٍ غريبة عن الكرامة والعظمة والأخلاق، بحسب نمط عقله، وتربيته، وعادات وسطه، وبكلمة واحدة، إن الكلف بالمطلق يتماشى مع دُوار المطلق، وأنه يترافق مع ضربٍ من التحمّس الذي نعرفه به أولاً، والذي يفعل فعله دائماً في النقطة الحساسة، في مركز التدمير، ويوشك أن يوهم العينين غير المتنبّهتين بأن الكلَف بالمطلق كلفٌ بالتعاسة. وهما يتلاقيان. لكن الكلف بالتعاسة ليس سوى نتيجةٍ، ليس سوى كلفٍ بنوعٍ من التعاسة، بينما المطلق يحتفظ، حتى في الأشياء الصغيرة، بطابعه، طابع المطلق.

يستطيع الأطباء أن يقولوا عن جميع أمراض الجسد تقريباً كيف تبدأ، ومن أين يأتي مايُدخلها العضويّة، وكم يوماً تكمن، وكلّ العمل الخفيّ الذي يسبق تفتّحها. لكننا مانزال عند كيمياء العواطف، ذلك الجنون الذي لايُعترف به، والذي يحمله الرجلُ العادي في ذاته. إن بذور الطبع البطيئة، كثيراً مايعرض الروائيون تاريخها، دون أن يفسّروها، فيعودون الى الطفولة، الى المحيط، ويحتجّون بالوراثة، بالمجتمع، وبمئة مبدأ متنوّعة. لابد من القول أنها قلّما تكون مقنعة، أو أنها لاتبلغ الإقناع إلا بفرضيّات موفّقة، لاقيمة لها إلا بكونها موفّقة. نستطيع فقط أن نلاحظ أن هناك نساء غَيْرى، وقتَلَةً، وبخلاء، وخجولين. ويجب أن نعدّهم مكوّنين عندما تقدّم لنا الغيرةُ والهياج القاتل، والخجلُ والبخلُ صوراً بينها فروقٌ، صوراً أخّاذة.

من أين جاء بيرينيس ذلك الكلفُ بالمطلق. لست أدري. كانت بيرينيس كلِفةً بالمطلق.

هذا، دون شك، ماأحسّ به «ادمون باربنتان» بغموض عندما قال عن ابنة عمه إن الجحيم في بيته. ماذا كان يعرف عنها؟ لاشيءَ، حقاً. لكن قد يقع أن الرجال يحزرون النساءَ، بغريزة حيوانية، بتجربة الذكَر التي تَعْدل ذلك الاكتناه الأنثوي الذي يردّدونه على مسامعنا. إن اوريليان الذي أيقظه أولاً ذلك التعبير المُذهل الذي لايتلاءم مع المرأة التي شاهدها أولاً، قد نسي ذلك التعبير عندما توطّدت بينه وبين بيرينيس علاقةٌ أهم من أحكام الآخرين. وهكذا اقترب من الهوّة بعد أن استهوته الهوّة، غير عالم بأنها هوّة. وقد سيطر على قصتهما، قصة اوريليان وبيرينيس، ذلك التناقض الذي حمل علامته أولُ لقاء بينهما: التباين بينَ بيرينيس التي كان يراها وبيرينيس التي قد يراها الآخرون. التعارض بين تلك الطفولة العفوية، المرحة، البريئة، والجحيم الذي تحمله في نفسها، التنافر بين بيرينيس وظلها. ربما كان هنا مايفسّر وجهيها، ذلك الليل وذلك النهار، اللذين كانا يبدوان امرأتين مختلفتين. تلك البنت الصغيرة التي تتسلى بالشيُء التافه، وتلك المرأة التي لاترضى عن شيء.

ذلك أن بيرينيس كانت كلفةً بالمطلق.

كانت في لحظةٍ من حياتها حيث ينبغي لها بكل قوة أن تتابع البحث عن ذلك المطلق في كائن من لحم ودم. وكانت خيبات شبابها المريرة التي ربما لم يكن لها من أصل سوى إرادة ذلك المطلق التي لاسبيل الى تحقيقها، تتطلّبُ ثأراً مباشراً. وإذا كانت بيرينيس المستعدة دائماً لليأس والتي تشبه القناع تشكّ في اوريليان الذي وصل في الوقت المطلوب، فإن البنت الصغيرة التي لاتملك لعبةً، كانت تريد أن تعثر، مهما كلّف الأمر، على تجسيدٍ لأحلامها، البرهان الحي على عظمة اللانهائي ونبله. اللانهائي في النهائي. كان يلزمها شيءٌ كاملٌ. إن جاذبية هذا الرجل عليها كانت تختلط بالضرورات التي كانت تضعها هكذا للعالم. وسوف يُساءُ فهمي إذا استُنتجَ مما قيل عن الكلف بالمطلق أنه يحتلط بالارتيابيّة. إنه يصطنع أحياناً لغة الارتيابية كما يصطنع لغةَ اليأس،

لكن ذلك لأنه يفترض على العكس إيماناً عميقاً، كلّياً بالجمال، والطيبة،والعبقرية مثلاً. ولابدّ من الكثير من الارتيابية للرضا عمّا هو كائن. إن عُشّاق المطلق لايطرحون ماهو كائن إلا بناءً على عقيدة ولهى بما لعله ليس كائناً.

وإذا كانت بيرينيس، بالنسبة الى اوريليان، الفخ الذي لابد أن يَعْلق به اوريليان حتماً، فقد كان هو، بالنسبة الى بيرينيس، الهاويةَ المفتوحةَ، وكانت تعلم ذلك وتحبّ تلك الهاوية حبّاً جديراً بأن يحملها على أن تُكبّ على تلك الهاوية. وعندما أكّد لها، بتلك اللهجة التي لاتخدع أبداً، أنه لم يقل قط في حياته لامرأة أنا أحبكِ، أكان يعلم مايفعل؟ أكان يمكن أن يتصوَّر أي غذاء للضياع، أية نارٍ قد أعطاها لتحترق طوال حياتها؟ واذا كان قد امتنع عن الكذب، فما كانت تريد، بكل ماأوتيت من قوة، وبكل مافيها من ظلمات، أن يكذب، أولم يكن ذلك، في النهاية، هو المطلق الذي يقدّم نفسه، نصيبها الوحيد من المطلق الذي لقيته؟ كان يجب عليه أن يحبها، وكان ذلك ضرورياً أكثر من الهواء، ولازماً أكثر من الحياة. وأخيراً. ففي هذا الرجل الغامض والبسيط، في هذا العابر من باريس، ستتجاوز نفسها، وتبلغ فيما وراء ذاتها ذلك الوجود الذي نسبتهُ الى الوجود كنسبة الشمس الى النور. كان يجب عليه أن يحبّها. ألم يكن حبُّ اوريليان مبرّر «بيرينيس»؟ ولايمكن أن يُطلب إليها أن تتخلّى عن ذلك إلا اذا طلبنا أن تتخلّى عن التفكير والتنفّس والحياة. بل إن من الأسهل عليها دون شك أن تموت بمشيئتها في الحياة من أن تموت في الحب.

لم تكن تتساءل إلام سيقودها حبُّه لها. لم تتساءل إن كان هذا الحب الذي لم تستطع أن تتركه يمرّ... ولعلها، بكلمةٍ، بتحفّظٍ، كانت ستجد اللحظة التي تستطيع أن تُبعد عنها ذلك الحبَّ.. إن كان هذا الحب، تملك الحقَّ في تشجيعه، والحقّ في قبوله، وأن تمنحه تلك الحياةَ الرهيبةَ. لأن الحب، كالإنسان، يموت بالبؤس، يموت في الضيق والتنهّدات والعرق والتشنّجات، ومن ترك له القدرة على أن يتألم أسوأ من القاتل.

لم تكن تتساءل إلام سيقودُها حبُّه لها، لأنها كانت كلفةً بالمطلق، وأن حبّ اوريليان حمل، خطأً أم صواباً، سماتِ المطلق المظلمة والعجيبة في نظرها، ولأنه كان المطلقَ، حمل في ذاته غذاءَه، وإذنْ فليس عليها أن تهتمّ بتهدئته أكثر من إخماده، ولا بإرضائه أكثر من تهدئته. لم يكن من المهم كثيراً أن يولد الألمُ العظيم من الحبّ المُعلن والمعترف به. أليست غايةُ الحب في الحب؟ إن العقبات التي تقف في وجه الحب، تلك التي لاسبيل الى التغلّب عليها، ألا تكوّن عظمة الحب؟ لم تكن بيرينيس بعيدةً عن التفكير في أن الحب يضيع ويموت، عندما يكون سعيداً. ويُرى بوضوح هنا الكلفُ بالمطلق وتعارضه مع السعادة يَبْرزان مرة أخرى. على الأقل، لاالسعادة ولا البؤس كانا مقياسيْ أفعال بيرينيس. كانت حقّاً أسوأ من القاتل.

كان في مصير اوريليان اتصالٌ فريدٌ بهذه الاستعدادات اللاإنسانية. يجب أن نستعيد كلَّ مانعرفه عنه لكي نفهمه. ولم تكن بيرينيس بحاجة الى ذلك، لأنها لم تكن لاإنسانيّةً فحسب. بل كانت امرأة أيضاً، وعندما كانت تنظر الى اوريليان من خلال عينيها نصف المفتوحتين كانت تخاف من شهوته.

كان لبرينيس وجهان. هذا الليل وهذا النهار.



قالت:

ـ كذبتَ علي، تلك المرآة..

كان يضحك:

ـ هذه المرآة... ظننتِ أنني عاشقٌ لتلك المرأة؟ بيرينيس، أنتِ لم تخطئي!

نهضتُ كالمجنونة، على وشك النحيب. قبضها من معصمها وأوجعها، فتهالكت وقد صرخت صرخةً قصيرة، وطوّقت بيدها الأخرى يدها الموجعة.

ـ لم تخطئي، بيرينيس... أنا أحبّها... أختي، وهي شخصٌ فضوليٌّ، أختي تكهّنت بذلك أيضاً... وهكذا عرفتُ...

ذهلت ذهولاً شديداً حتى إنها لم تبك، وحملتْ يديها الى وجنتيها، وأكبّتْ برأسها، وأغمضت عينيها.

صاح.

ـ هكذا، وعند ذلك فتحتْ عينيها. هكذا، لقد كنتِ قبل هنيهة. أنتِ نفسك، بيرينيس، لم تريْ نفسك قط. وعيناكِ مغمضتان، طبعاً... وإلا لصرختِ... وأنتِ ترينْ هذه المرآة... انظري الى نفسكِ، بيرينيس، انظري الى نفسك، هذا أنت، ألا ترين أن هذا هو أنتِ؟

هزّت رأسها. وهذه أيضاً قصة من قصص الرجل. كان يُمسك القناع بيديه. ووضعه أمامها:

ـ هذا أنت، مالكِ... مالكِ... أنت التي أحبّها...

ـ لمَ تكذب، اوريليان؟ هذا وجه امرأة أخرى. ونحن نتشابه. وماذا في ذلك؟ أنا، وهي نموذجك المفضّل، يجب أن نعتقد...

صاح:

ـ مجنونة! هذا القناع نجده في كل مكان، لدى صانعي القوالب، بين «الولد ذو الشوكة» وبيتهوفن الميت... وهووجه امرأة غرقت... وقد أُخذ قالب وجهها في «معرض الموتى»... هي «مجهولة السين» كما تُدعى... أُقسم لك...

كلُّ ذلك أثّر فيها ببطء. وعادت الألوانُ الغائرة، وأخذت تدور على نفسها، وتنظر الى وجه الجبس، غيرَ مصدّقة. نظرت الى اوريليان. لقد بلَّ شعره وامتشط... لماذا؟ مجهولة السين... ربما... إن لم يكن امرأة عرفها، فهو قناع أعجبه، أولاً... ثم رأى أنها، بيرينيس تشبه هذا الجبس المجسّم في قالب... نهشتْها غيرةٌ جنونيةٌ. لقد غارت من ميتةٍ، من غريقةٍ لم يرها قط. أمسكت به، انتزعت القناعَ من يدي اوريليان. أحسّت في أصابعها الى أي حدّ هو معرّضٌ للفناء. وسيطرت عليها رغبةٌ عاتيةٌ في تدميره. وماجدوى ذلك؟ يستطيع أن يخرج ويشتري نسخةً أخرى. نظرت طويلاً الى هذه الصورة الشاحبة لنفسها التي لم تُرها إياها مرآةٌ قط. وأخذ يتكلم:

ـ كان في البداية... مجرّد... وجه فيه سرٌّ. رأيته في حانوت، وقد روى لي قصته الإيطالي الذي يصنع قوالبَ الجبس، في شارع راسين، كما تعرفين، بينما كنتُ أنظر إليه... ليستْ قصة... إذ لم يُعرفْ شيء عنها... مجهولة... رمت بنفسها في السين، امرأة شابة... أغمضت عينيها على سرّها... لم فعلتْ ذلك؟ أهو الجوع، أم الحب... يمكننا أن نحلم بما نشاء... وما الذي دفَعَ طالبَ الطبّ المناوب هناك الى جانب «معرض الجثث» أن يأخذ قالبَ هذه الغريقة، لا غيرها... لعله وجدها جميلةً جداً... وبدا له غير ممكنٍ أن يتركها تذهب هكذا، على مدرّجات كلية الطب، حيث سيشرّحها شبابٌ عِميٌ ليتعلّموا التشريح... لقد أراد... وحينئذٍ...

قالتْ، اعترفتْ.

ـ أنا غَيْرى الى حدّ فظيع...

ارتعش. غيرى؟ هي تحبّه، هي تحبّه إذن!:

ـ بيرينيس!

أمسكها بين ذراعيه. وحمله صوتُ الجبس الذي تحطم على أن يُرخي ضمّته. نظرا كلاهما بذعرٍ الى قطع البياض على الأرض، والبودرة على

السجّادة، والشظايا المنفصلة، وأسوأ من كل شيء أجزاء الأنف والفم... لقد ارتكبا مايشبه جريمة القتل... قالت

- يمكنك أن تجد قالباً آخر في شارع راسين...

هزّ رأسه. قالت

- اوه! بلى! يجب أن أشتري قالباً آخر... وسأقدّمه لك... بلى، بلى... سيكون الأمر سيئاً هكذا... هذه المرأة... قوّتُها في أنها ميتة...

ارتعشت. تذكّر أنها قالت: غيْرى الى حدٍّ فظيع.

فأخذ يديها، وهمس

- أنتِ حيّةٌ، وقوتُكِ في أنك حيّة...

نظرتْ إليه. أكان يُمثِّل؟ لم تعوّد نفسها الشكَّ فيه

- ماذا تَقْصدُ، اوريليان؟ قوتّي في أني حيّة. جميع النساء حيّاتٌ... لا قوة لهن إزاء ميتةٍ... وإذا متّ من فوري... فحينئذ ستكون لأية امرأة، بالنسبة إليك تلك الميزةُ، تلك القوّة؟

لمَّ حطامَ الوجه المغمض العينين،خلسةً نوعاً ما، ونظر الى الآخر، الى الوجه المفتوح العينين. وفكّر كما فكّرت قبل حين: أهي تُمثِّل؟ لكن باهتياج أكبر، ويأس أقل. تناول من قرب المدفأة مكنسةَ الرماد الصغيرة التي كانت يدها سوداء وعليها حرائر زرقاء.

لاينبغي أن يترك ذلك كله دون أن يكنسه فالمشيُ عليه سيترك بقعةً بضاء على السجادة، وسيلتصق الجبسُ بها. وفكّر. إنها لم تحبّ هذه الصورةَ. قال بشيء يسير من اللوم:

- أنتِ لم تحبّي هذه الصورة...

فدافعتْ بيرينيس عن نفسها:

- «لا، لا، لم أفعلْ ذلك متعمّدةً! لايذهبْ بك الظنُّ أني فعلتُ ذلك متعمّدةً! مصيبة... لا أعلم كم كنتُ سأعطي لكي لايتحطم هذا القناع... لا أعلم... أنا غاضبة جداً... أستحقدُ عليّ؟

هزّ رأسه. وُضع الحطام في جريدة قديمة. ووُضع الكلُّ في سلّة الأوراق.

حاول أن يمزح:

- سأحقدُ عليكِ كثيراً...

توقّف. كان في عينيها ضبابٌ:

- اوه! ياعزيزتي!

هذه الكلمةُ التي أحرقت المراحل أذهلتهما. وفي الصمت، مدّت نحوه راحةً متوسّلةً، وأومأت أن «لا»، دون كلام. لأي شيء قالت «لا»، ياترى؟

كانت هذه الميتةُ، هذا الشبحُ، بينهما. نزل الغبشُ الى الغرفة. أحسّ اوريليان بالبرودة في كتفيه. لم تُغلق النافذةُ جيّداً. ولكي يغيّر كلَّ شيء أشعل الكهرباءَ، وأسدل الستائر. فلم يبق شيءٌ كما كان. لم يعرف أحدُهما الآخر. ماذا كانا يفعلان في هذا الديكور؟ حَرَجٌ لانهاية له. قال:

- سأشعل النار. وركعَ قرب المدفأة.

- إن كان من أجلي، فلا حاجة الى ذلك... سأنصرف.. اوه! أنا حمقاء... إن كنت تحسّ بالبرد... وبعد انصرافي...

- لاتنصرفي، بيرينيس، مالك... وعدتِني بيومكِ..

- أعلمُ... لكنّ الأفضل... لا أعلم...

- أتعلمين أم لاتعلمين؟ من أجلكِ أيضاً أُشعل النار!

احترق الورقُ تحت الحطب. أغلق اوريليان باب المدفأة. قالت.

- أتظن أنها ستشتعل؟

قالت بيرينيس ذلك بصوت البنت الصغيرة.

في الحقيقة، إنها لم تستطع قط أن تترك أحداً يشعل النار أمامها. وهاهي ذي على الأرض قرب اوريليان. لم يقولا شيئاً سوى أشياء تافهة، كالنار، عجيبة كالنار. كان سرُّ النار يقرّب بينهما. وكان دخانٌ، وكان لابدّ من فتح النافذة أيضاً لجذب الهواء المساعد على الاشتعال، ثم من إغلاقها، ثم إضافة حطبة مع شيء من نُثار الحطب... جلسا على الأرض، على وسائد، والرأس على

حافة المقعد، وهبّت النار فتطلّعا الى لهبها. وفي سحر اللهب الذي يمكن النظرُ إليه الى ما لانهاية، اللهب الذي يتلاشى ليهبّ من جديد، ويتراقص، ويَنْحفر ويزرقّ ويِنفصل عن الحطب ويسقط عليه ويلعقه على نحو ألسنة النار في عيد العنصرة، في سحر اللهب، اهتديا الى الدروب العميقة لأفكارهما المنفصلة، الى المفترقات المحرقة لهذه الدروب. تهالك رأسُ بيرينيس على كتف الرجل.

«في البيت الكبير...»

كانت تحلم. واستأنفت حلمها. جميع أنواع الكلمات والحركات والحوادث تلاشتْ في ضوء النار. تابعت بيرينيس هذا الحديث الذي قطعه وصولُ «فوشن» و«ليموتار» الى المارينييه. وكل ماتبع ذلك كان لاغياً وكأنه لم يكن. ماعدا موت المجهولة الذي لم يتكلم عنه لا هو ولا هي.

ـ كان عمري ثمانية أعوام... وكان ثمة صراخٌ طوال الوقت في البيت الكبير... والدي... لم أكن أُحبّ والدي... كان يصرخ على أمي... كان لي كلبٌ وثلاث لُعبٍ... ولم أكن ألعب قط مع الأطفال الآخرين...

توقفت وكأن شيئاً عضّها:

ـ اوريليان؟

ـ بيرينيس؟

ـ اوريليان، أقسمْ لي أنك تحبّني أنا فيها!

وأشارت بإصبعها الى تلك التي لا اسمَ لها، والتفتَ رأسُها نحو الجدار الذي انتُزع منه القناعُ، ونحو الأرض التي بقيت عليها بعضُ الآثار، وسلة الأوراق.

قال بأقصى مايمكن من الجدّ:

ـ أقسم لكِ.

لم تكن تلك قضية تافهة بالنسبة الى بيرينيس.

همستْ:

ـ «أود أن أصدّقكَ... واذا كنتَ أنت ستُفلتُ مني...»

ثم خجلت في أن تكون قد بسطت نفسها هكذا، فارتدّت الى قصّتها

ـ وعندما وجدتني أمي في هذا اليوم، في أطراف الحديقة حيث توجد ناعورةً، ألعب بالوحل... كنت مشغوفاً باللعب بالوحل... بالماء والقضيب... قالت لي: «نيسيت»... كانت أمي تدعوني «نيسيت»... وكانت رصينةً كعادتها... أتعلم كيف كانت هيئة أمي؟ كان لها وجهي، لكن بعينين مختلفتين... جد زرقاوين... إني لأتذكّر ذلك جيّداً، فقد كنتُ صغيرةً جداً... ثمانية أعوام... كانت تشبه...

وأشارت بذقنها الى سلة الأوراق.

ـ «وإذن فكيف يطيب لي أن أحطّم هذا القناع؟»

كانت تعلم جيداً أنها أرادت تحطيمه، كالبرق. خنقها الكذبُ قليلاً. بيد أن الأمر لم يكن كذباً تماماً.

أردفت:

ـ قالت لي: نيسيت، نيسيت... لايمكن لذلك أن يدوم... أنت ترينَ جيداً... أباكِ... وتسمعين في كل يوم صيحاته... كنتُ فتيّة جداً عندما زوّجوني... لم أكن أعلم... ثم إن الحياة كلها... الحياة كلها... الحياة كلها كذلك... ماذا تشيرين علي أن أفعل، نيسيت؟... أنا لم أكن أفهم... خبّأتُ يدي الوسختين... اوريليان، أمك كانت جميلةً، أليس كذلك؟ أكانت سعيدةً؟

ارتعش. مأساةُ حياته كلها نفِذت إليه، وقصة أمه وذلك الرجل الذي كان يشبهه دون شك.

ـ حينئذٍ قالت لي أمي: إنها تنوي الذهاب... على الفور... ولا يمكنها أن تأخذني معها... لكن فيما بعد سيفوت الأوان... كانت ماتزال شابة... كان هناك رجلٌ تحبّه، ولا يصرخ، ولم تكن له عينا أبي الخبيثتان...

والتفتت نحو اوريليان:

ـ هاتان العينان اللتان تراهما!

وأومأت إيماءة متوحّشة كأنها تريد أن تقلعهما.

تناول الأصابع المنفرجة كالمذراة وانحنى ليقبّلها. لقد أغمضت عينيها لتُشبه أمّها.

- ولو قد قلتُ لها: لا تنصرفي، لبقيتْ، أنا واثقةٌ أنها كانت ستبقى... لكني لم أشأ أن تكون بائسةً، أمي، في ذلك البيت الكبير، مع الصرخات وأعيننا السود من حولها... قلتُ لها: انصرفي، ماما، انصرفي... كان عمري ثمانية أعوام وكنت ألعبُ بالطين قرب الناعورة... كاد أبي يموت... وبقينا وحدنا مع الخدم...

كان اوريليان يفكّر في أمه التي لم تنصرف، في أمه الجميلة التي كانت تبدو سعيدة، التي لم تكلّمه قط، هو صغيرها، ولم تطلب قط... ثم تخيّل القناع، القناع الذي يشبه الهاربة. فمرّت به فكرةٌ خياليّة.

- وأمُّكِ، بيرينيس، أمّك... هل هي ميتة؟ في أي تاريخ صُنع هذا القالب؟ يمكننا معرفة ذلك... السين تحتنا بكل أسراره...

- يالها من فكرة! أمي ماتزال شابة، وهي حيّة. لكني لم أرها منذ ذلك الزمان.

- أممكنٌ ذلك؟

- زوجُها الجديد أخذها معه، بعيداً جداً... الى افريقيا... كتبا في البداية... لم يُرني أبي الرسائل قط... ثم مرّت السنون...

الحياة أكثر خيّالية من الخيال. إن مايُبسّط كل شيء تبسيطاً شديداً، وتبسيطاً لاجدوى منه، هو أن تكون غريقةُ السين، المجهولةُ... وتوسّل إليها:

- أغمضي عينيكِ!

أطاعتْهُ، وفي هذه الظلمة التي أجابت طلبه فيها، سألتْ:

- مَنْ تُفضّل، اوريليان؟ أنا... أم أمي؟

لم يكن أمامه جوابان ممكنان. لكنها تخبّطتْ تخبّطاً غير منتظر، مثل هر وحشي، وتدحرجا أرضاً كلاهما، وكان هو مأخوذاً بهاجس شفتيها اللتين لم يكد

يمسّهما، ومجنوناً من الهياج لأنها كانت تُفلت منه دائماً. وأفلتتْ منه. كانت عند قدميه، وكان هو على الأرض أيضاً. قالت:

- أنت ترى أن من الأفضل أن أنصرف...

- أأنتِ غاضبة؟

- لا، لا... الغلطُ مني... لكنّي سأنصرف...

- أتوسّل إليك...

- أفضلُ كثيراً أن أنصرف... لستُ غاضبةً، أؤكّد لك... اعطني معطفي... شكراً..

وضعتْ قبّعتها أمام المرآة. وفتّشت في محفظتها. أحمر الشفاه.

كان يقول مايخطر له ليعتذر. لكي يستبقيَها. ورأى جيداً أن لافائدة من ذلك. تلك القبّعة البشعة الكريهة التي لها، من المؤكّد... واحمر فمُها من جديد. وابتسمت برفق شديد.

- اسمعْ، غداً صباحاً أنا على موعد... بلى، وعدتُ «زامورا» بساعة لوَضْع الصورة... لكن بعد ذلك...

- ومرة أخرى، زامورا!

- لاتغضبْ. هذا كل مايلزمه. كان سيشتغل دوني. إنه يتحقّق، وهذا كلّ شيء... أتعلم، ليت علاقتي كانت مع رسّام صور!

- أنتِ نفسك تقرّين بذلك!

- وليست لوحة زامورا سوى لوحةٍ مائيةٍ حولي...

هزّ اوريليان كتفيه. لم يكن يعلم أيهما أكره عليه: زامورا أم تصويره.

- لا، لاتأتِ لإحضاري... لكنني سأكون، إذا شئتَ، في الساعة الواحدة، تحت، في «المارينييه»... كما كنّا قبل قليل، ولعل لكَ أصدقاء آخرين...

كانت تضحك.

- لا، ليس هناك «فوشن» في كل يوم. شكراً. حسناً، اتفقنا، في «المارينييه».

ربما نوى أنه لن يدعها تتصرف هكذا. تلك أشياء تُقال في النفس. لقد تركها تتصرف هكذا. وعندما أغلق الباب، عاد الى الغرفة، ورمى بحطبٍ في النار، وصدم بالرغم منه سلةَ الأوراق بقدمه. فارتعش وكأنه لامس نعشاً. كان بحاجةٍ الى الهواء، فتح النافذة: كان الليل مظلماً، والريح تهبّ. مشى على الشرفة، ونظر الى أنوار باريس القريبة جداً والبعيدة جداً. ثم ارتدت عيناه، دائرياً، الى تلك الحفرة السوداء العظيمة تحته، «السينَ» الذي يجرف الأوحال الجليدية والغرقى.



وفجأة استضاءت غرفةٌ من البيت الكبير. واكتسى أهميّةً الرسمُ على القماش، والورقُ الجداري. وانسلت الخادمات في ضوء الغرف الخافت. وكنّ يغسلن في مغسل الثياب، أو كنّ في الحديقة المحفوفة بالأسرار، ونباتات القبس والغار الوردي. وفي وسط ذلك كله بنتٌ صغيرة تروي لنفسها قصصاً، وتَحْمل وزر قصةٍ لم تفهمها بكاملها، وهي ترويها لنفسها للمرة الألف: «كنتُ فتيّةً جداً عندما زوّجوني...» وظلّ الرجل ذي العينين السوداوين، الرجل المهجور. كان يصرخ. كان ضد كل ماكانت تحبّه الصغيرةُ. كان ما ينبغي أن يُترك لتتحقق السعادة. لكنه كان بائساً.

لن يعلم اوريليان أبداً كيف مرّت هذه الأيام، بهذه السرعة وهي طويلة جداً. طويلةٌ جداً وقصيرة جداً. ولسوف يخلط بين ذكرياته وبريق هذه الدقائق، وفضلات الساعات. سوف يُفسد كل شيء، وسيضيع في ذاكرته، بسبب عيني الطفلة السوداوين، بسبب الوجه المنفتح والمنغلق، بسبب تلك الخطوط الصغيرة العمودية على شفة بيرينيس السفلى، تلك الأثلام المؤثّرة، الموجِعة، التي تجعل شفتي الرجل ترتجفان. لن يعلم جيدا مايعود الى هذا اليوم وما يعود الى غيره. ومع ذلك فهذه الأيام هي الأيام الجوهرية، الأيام الحاسمة في حياته. وربما من أجل ذلك أيضاً، سيعيد فيما بعد تكوينها بصبرٍ واحداً واحداً، ويقارنها بعضها ببعض ويُصحّحها، ويُنيرها. ولسوف تكتسي أضواء لم تكن لها، ولسوف يتغير شكلها. فكل ماكان آلياً، اتّفاقياً سيحمل معنىً ونيّة. لن يُترك للمصادفة شيءٌ فيها. سيكون ذلك مثل ثنائي الاوبرا، ثنائي عظيم، مدوٍّ، منظّم، جنوني، ومع ذلك، فقد كانا يتسكعان على الأرصفة، ويقومان بنزهة قصيرة بجانب «مو»، «سلي»... ويقضيان صبيحةً في اللوفر كما كانت تطلب بيرينيس، ويختصمان بصدد «كوربيه». كان هناك ساعات تجب العودة فيها، وساعات مواعيد، وثقوب في الدنتيلا، ساعات فارغة، ساعات بلا بيرينيس.

كانت تتكلم عن أبيها. هل كرهته كلَّ هذا الكره؟ كانت تعتقد أن لها بجنبه مهمةً إصلاحية لايُدرى ماكنهُها. كانت تخافه، وكان يصرخ صراخاً قوياً. كان رجلاً عاصفاً. وقد مرّر أحياناً نساءً، في البيت الكبير. ولم تدخل بيرينيس المدرسة إلا في وقتٍ متأخر.

كان طابعُ هذه الأيام ضرباً من الذهول، من اللاشعور. الوقت يمضي وكأننا نَملك الأبدية، وكأن مايصنع قيمته هو أن نُبدّده. ومع ذلك فقد كانت هذه الأيام تحمل الدود في الثمر: اليقين الذي لايغيب عن البال بأن لها نهاية، هاجس قصرها، المعرفة المسبقة بذلك الفراق الذي له مذاق ما لاسبيل الى تعويضه. ومن الغريب أنها تعشّش في قلب الشتاء، فهي أيام تُناقض فصلها كالتي لا نجدها إلا في حمّارة القيظ، عندما يكون الجوّ بارداً، في الظلّ، في الجبال، وننسى أننا هربنا إليها من شمس محرقة.

في كل مرة تركها اوريليان، تساءل: ماالذي جرى له، وكيف كان ممكناً أن يتصرّف بمثل هذه السذاجة. وفي كل مرة كان يُهان في كبريائه، كبرياء الرجل الحمقاء، لأنه لم يجعل من هذه المرأة تابعةً له. كانت تهرب من بين أصابعه وتحيّره. ولم تُفدهُ تجاربُهُ السابقةُ شيئاً، ولا الطلاقةُ التي تعلّمها، ولا الأفكار العامة التي تُتيح الانتقال من الحديث الى الأفعال العنيفة، من التصنع الى المعركة. هناك لحظات كان يظنها بين ذراعيه، ويحسّ أنها قد غُلبت على أمرها، وهناك أوقات لايشك في أنها تحبّه، وأن كل شيء يتجاوز الكلمات، وهو أسوأ من القبلات. ومع ذلك، فالذي كان، فيما بعد، هو أن هذه اللحظات تلاشت، بل إنه لم يعانق شبحاً، وأنهما كلاهما حاضران، على شفا هوّةٍ، أخرقان، حائران، وأن أشد الكلام ابتذالاً يخبّىء خيبة أملٍ، وهياجاً، وخوفاً.

ليس اوريليان من هؤلاء الرجال الذين يؤمنون باللاواقع في الحب. إن رأسه، وهو يُصغي الى بيرينيس، وبينما هي تتحدث عن طفولتها، مليء بالأفكار

المحدّدة، والصور التي تدور حول شباك الصيّاد. وكل مايقوله، وكل مايفعله كالسحر من أجل جذب المرأة الى فخّ اللذة التي هي غايته هو، الرجل. وهي بلا مقاومةٍ على نحوٍ عجيب. فكيف جرى أنها تُفلت دائماً، تلك الفريسة بعينيها السوداوين، هذه الـ«بيرينيس» الراعشة التي تحبّه، تحبّه، وهو يقسم على ذلك. كم مرّة أحسّ أنها تحت رحمته، واكتشف في عينيها الخوف من تخاذل قواها؟ إن هذا الرجل الذي أحبّته النساء لايجرؤ، لايجرؤ في كل مرة أن يستغلّ هذا الضعف. ماالذي يُوقفهُ، ياتُرى؟ الخوف من أن يُدمّر كل شيء دفعةً واحدة. كلاّ. لقد تاه في تخميناته، واختلط عليه الأمرُ فسبّ نفسه وهزىءَ منها.

بدأ يعلم أن مايوقفه كامنٌ فيها. إنها تحبّه، لكنها لاتريد أن تكون له. أصبح ذلك يقيناً، دون أن تقول شيئاً عن ذلك. على كل حال، إن ماتقوله امرأة لايُحسَبُ حسابه إلا قليلاً في مثل هذا الموضوع. الكلماتُ صالحة لتقنيع العواطف، لاللتعبير عنها. إنها لاتريد أن تكون له. وهو يعلم أنْ لامحيد عنه. لماذا؟ إنه يعلمه، ولا يعلم لماذا. فهي لاتحدّثه عن ذلك، وإنما تحدّثه عن البيت الكبير، عن الحشرات التي تقفز مساءً الى غرفتها السوداء من النافذة المفتوحة، وعن فلاح هو أميرها الساحر عندما كانت في العاشرة، وعن قطاف الزيتون. وهو يصغي الى رجاءٍ لاآخر له، خلف الكلمات، ويسمع، ويرصد قرار الاتفاق بين قلبيهما، لكنه يعلم مثلها أنه لو ارتفع صوت حبّهما لحطّم الكريستال الذي يرنّ بوفاقهما. مرة أو مرتين، وبقبولهما كليهما تقريباً. أفلتا من قدرهما بالهرب. وهو لايدرك كيف جرى ذلك، كيف سمح بأن يجري ذلك كله. أليس مملوكاً بها، بالشهوة المحدّده تجاهها؟ الحب، الحب... أهذا هو الحب، هذا الرفض المتجدّد؟ إن كان يحبّها فما خوفُه من حبّه؟ أهو الحب إن كان لابد له أن يتلاشى لأنه يتجسّد؟ ووراء كلّ شيء هذا الهاجس وهو أن بيرينيس ستسافر، ستتركه، ستلتحق بحياة لانصيبَ له فيها، حياة هي حياتها الخاصة بها، كما يبدو، حياتها الخاصة بها... ماذا يعلم عن هذه الحياة؟ لاشيء، ألف مرة، لاشيء.

زوج صيدلي. ذلك مضحك إن لم يكن قاسياً. مدينة صغيرة من مدن الريف. ثم ماذا، ماذا؟ فكرة الواجب، والدين؟ لا، وإذن؟ لاتريد أن تؤلم هذا الزوج، أو الخوف من القيل والقال؟ كل شيء مسكين الى أبعد الحدود بجانب هاتين العينين السوداوين، هذا الوجه البارز التقاطيع، هذا الشعر القشّي، وهذا التعبير، تعبير العذاب، وذلك العطش الذي لايُفْصَح عنه، ذلك الجنون... أوه! لو كان حقاً لا يحبها، لو كذب عليها، على بيرينيس، فماذا كان سيحل بها؟ إنه يعلم أنها تتمسك بحبه كما يتمسك مَنْ يغرق بخشبة هزيلة، وهو يعلم علم اليقين أنها قد تموت إن لم تكن محبوبةً...

كيف علم ذلك؟ وهي لم تقل له شيئاً. وإذا كان قد كذب، وإذا كان لايخبها... وقد تعالى لحظة على هذا الحب، وقاومه، وتحداه. ثم بدأ ذلك يصرخ فيه، هذا لايحتمل، واستولى عليه اليأس. لاحاجة الى التصنع. لاحاجة الى الإنكار. حتى رأسه تحت العاصفة، وترك المطر ينفذ حتى العظام. لقد عضف به قدره.

إنها تتحدث عن أبيها. هذا الأب الغريب الذي لم يجد قط سبيلاً الى قلبها، هذا الأب المكروه بسبب تلك التي ذهبت، هذا الأب المخيف مثل مصيبة بيتية. إنها تتحدّث عن أبيها الذي علّمها، وهي صغيرة جداً، مامعنى أن يكون المرء بائساً، والذي كرهته من أجل ذلك. ولعلها أحبت من أجل ذلك، على طريقتها المتوحشة، دون أن يعلم شيئاً من دلك. ولو قد علم ماذا كان سيفعل؟ سيزداد غضباً، وسيزداد صراخاً. لم يخلق ليحب. ولم يكن محبوباً.

ذكرت اسم «لوسيان» ذات مرة. كيف ورد الاسم على شفتيها؟ لاينبغي أن يقال: إن ذلك قليل الأهمية، بل على العكس، إنه كثير الأهمية. لكنه ورد بطريقة من تلك الطرق الملتوية التي لانعثر عليها أبداً بعد ذلك. ورد اسم لوسيان على شفتيها، هذه هي الواقعة، كمن يُنتظر لشيء آخر، لاكالشيء ذاته. ومع ذلك فقد ارتعش اوريليان. آذاه هذا الاسم. ود لو لم تلفظه، وود أيضاً أن نلفظه لتطرد من بينهما هذا الشبح، هذا التهديد. ولاحقه هذا الاسم عندما توقفت عن الكلام، وعندما ظل وحده. وحاصره في اللحظات الخالية، كما حاصره في

عرض الأحاديث، وكما حاصره في أعماق أحلامه. استيقظ «اوريليان» وهو يتصبب عرقاً وهو يلفظه. كان يطفو من كابوس لم يُنسَ سوى نصفه، لكن عشر صور من صور الرجال الذين يعرفهم ساعدته بصورة عابرة لتكون مستنداً لهذا الاسم الذي كان يهرب من وجه الى وجه. لوسيان...

دخل اوريليان مدرسة الغيرة.

هذه الفكرة تشق طريقها فيه. بصدد تفكيره في بيرينيس، وهي أنها كانت مثل من يغرق، ومن يتشبث بحبه. لعلها لاتحبه هو، اوريليان، لكنها تحب الحبَّ الذي يحمله لها. وهو لايكاد يتصور شيئاً من هذا القبيل حتى يغدو كل شيء واضحاً، أي أن كل شيء يصبح مظلماً. سماً ذعافاً. في البداية، يتعلق اوريليان بكل عناصر الاستعارة: فهناك الغريقة، ولوح الخشب، والبحر، والعاصفة... ماذا يعني كل ذلك؟ بهذه الطريق من الملحقات الإضافية، يبحث عن المعنى الخبيء لهذه الصورة، يبحث عن جوهر مأساة تكهّن بها. إنه لايعلم في الحقيقة شيئاً عن حياة بيرينيس. وهذا الاسلوب الذي تستخدمه لترده الى طفولتها، في ذلك البيت الكبير، ولاشك أنها إن كانت تتكلم بهذا القدر عن الماضي، فلكي تتحاشى الكلام على الحاضر. مامن شك في أنها تتحاشى الكلام على «لوسيان» الذي ذكرت اسمه سهواً، أو كالسهو. من يدري؟ لعلها تريد أن تُعِدَّ اوريليان لتعسه. لكن اليست هي التَعِسه؟ الغريقة، دفة النجاة، البحر. أي عناء خبيء تحمله في أعماق هاتين العينين المليئتين بالظلال. أمن «لوسيان» جاءت الخيبة التي من شأنها أن يلزمه أن يكون اليوم محبوباً، محبوباً بصورة موئسة، لكي يظل يؤمن بشيء ما، بالحياة، بالطقس الجميل؟ مالي ولذلك، انني أفقد عقلي. وعلى العكس، كلما تحدثت، على نحو غير مباشر، عن هذا الزوج، أو عن الصيدلية والمدينة، فأي هدوء مفاجىء تُظهر. ذلك الريف، وفيه لوسيان، أُدْخَلُ في باب الضجر والرتابة منه في المأساة. وإذا كان ثمة مأساة، من قِبل لوسيان، فيجب عليها اذن أن تحبه. الغريقة، دفة النجاة، البحر. لقد راعه فقط استمرار قصص الغرق من حوله، وارتعد من القناع المحطم، تلك الابتسامة على الأرض، وكأنه إزاء استشعار مسبق.

وحتى عندما يعتقد حقاً أنها تحبه فإنها لم تكن تحب سوى حبها؟ وحينئذ يسهل تفسير كل شيء. الرفض. الظل القائم بينهما. إخراج مضنٍ، وكسب الوقت، لتتركه هكذا عالقاً في هواه المتعطش. طبعاً، طبعاً. كلما فكرت في ذلك. إنها تريد أن تحتفظ بهذا الحب، وهي تخشى عليه من نار اللذة، من الإشباع. وهي لاتريد أن تعطي شيئاً، وتريد أن تأخذ كل شيء. أن يكون لها من بعيد، ذلك الضياء الذي ترجع اليه بكبرياء عند كل حقارة من حقارات هذه الحياة، مثل شمس في أعماق ضجر الريف. وعندما يفكر اوريليان في ذلك يجد نفسه وقد استولى عليه هياج عاتٍ. ويخطط لضروب الانتقام والمكر والخبث الذي لايرحم. ويحاكم الأمور بقسوة الرجل الذي لايفكر في غير استغلال النساء، وبصفاء ذهنه. ويهزأ من حبه ذاك. من الذي قال إنه لو لم يتحدث الناس كل هذا الحديث عن الحب لما اخترعه أحد؟ أجلْ، ولكننا نرى أنه كان لابد من اختراعه قبل كل هذا الكلام عليه... وجميع القرارات تذوب كما يذوب الثلج في الشمس عندما تتأخر بيرينيس قليلاً، وعندما تصل بفستان جديد، رديء كالذي سبقه، وبذلك الصوت العميق المتهدج قليلاً «لقد تأخرت عليك ..»

يود لو يطرح عليها أسئلة، فلا يجرؤ. يخاف أن يبطل السحر. آه! يالدون جوان الجميل الذي لاقيمة له! وفي البدء يضحك من نفسه، ثم يتذكر بصرامة ما انساق الى التفكير فيه وبيرينيس غائبة، فيخجل من نفسه. لو علمت بيرينيس... أنى لها أن تعلم؟ لم يُحدِّث أحداً... وهاهنا يالذات مايُضني ومالا يُعترف به. إن سعادتنا، إن بلغنا السعادة، تفقد مٌيزتها سلفاً من جراء ذلك. من الذي سيُعلِم بيرينيس؟ اوريليان نفسه... «بيرينيس»؟ فترفع نحوه الاستفهام الصريح من عينيها الليليتين. فلا يقول لها شيئاً من ذلك. هذا مستحيل. قالت:

– كان عمري خمسة عشر عاماً عندما أدركت كم أحبّ أبي زوجته... ماما... وكم تألم... وعندما أدركت سبب هذا المزاج السوداوي الذي كان يظهره... سبب جزعه... وغضبه... عندما أدركت كم كنا ظالمين له... ماما وأنا... الآن لم يكن اوريليان يصغي إليها إلا نصف إصغاء، وهي تخوض في

قصص البيت الكبير. كان ذلك مثل مصاحبة موسيقية لأفكاره، سرو الحديقة، الناعورة، الزيتون. كان يتابع هذه الفكرة الرئيسية مع آلاف التنويعات الإيقاعية التي تتملكه. إنه يبحث عن التفسير لديه نفسه أكثر مما هو لدى بيرينيس. لم يقبل بقواعد لعبة لايريد أن يلعبها؟ ولم لايثور في نهاية الأمر؟ لقد قال الشيء الرئيسيّ: هل استطيع الآن أن أعيش دونها؟ هذا مروع، ولايجوز التفكير فيه! «بيرينس»...

ومن جديد رفعت اليه الاستفهام المزدوج الأسود.

«بيرينيس لن استطيع العيش دونك»...

هزت رأسها ببطء، وأخذت يديه. أراد أن يخلصهما. رأى أن في عينيها دمعة كبيرة. حار فكره. فلم يدر مايفعل ومايقول. وهو الآن يعزيها. ولن تمضي دقيقتان حتى يلعن نفسه. أساذج، غبي، أنا؟ خدعتني أولاً وخدعتني ثانياً. نسبَ اليها أشد الأفكار دناءة، وأشد العواطف سوقية. إنه ينتقم هكذا من رضوخه، ومن سلطان بيرينيس عليه. وهو لايعلم أننا لاننسب ابداً الى اللامبالين مثل هذه الدناءة، مثل هذه الحقارة. وهو لايعلم اننا، عندما نحب فقط، ولأننا نحب، ننسب الى حبنا كل مايشوّه أيَّ انسان، ومامن شأنه منا أن يعذبك أنت نفسك. آه! كلما ازداد حبنا ازداد تجديفنا. أدرك اوريليان ذلك ببطء.

كان في البيت الكبير هرٌّ... يدعى «بيتوليه»...



ـ ٤٠ ـ

كانت امرأةً طويلة، مسترجلة قليلاً، تحمل بقوة عبء أعوامها الستين. ولايبدو أن الغلطة غلطتها إذ لم تُزل الصفرة تماماً عن شعرها. فهي تشده بخبث، وتكومه في الهواء، وتشبكه بالدبابيس بعد أن تكبسه بحيث لايظهر ذلك إلا قليلاً. إن قسماتها الكبرى التي ثخنت مع العمر، لاتُلطفها أية تطرية، لا الخضاب ولا المساحيق، لتخفي الدمار على هذا الجلد الأشقر. اللون كله ظل في العينين الزرقاوين الواسعتين تحت الأهداب البالية. ولاتتساهل السيدة «امبيريو» في وجهها إلا بشيء واحد وهو أن تشطب فمها بجرة خرقاء لقلم الحمرة الذي يدع شيئاً من الشفة تتجاوزها. وهي، بقميصها المسرود الكستنائي الذي يتدلى من جميع الجهات والذي يكشف عن جورب من الخيوط رمادي اللون، وعن حذاء كاهن كما يقول زوجها، كيف تبدو حقاً؟ وفي اذنيها لؤلؤتان حقيقيتان.

– لن تصدقي أبداً، ياصغيرتي، انني راقصة قديمة!»

طرفت بعينها نحو بيرينيس. كان كبرياؤها المزدوج ألا يخامر أحداً شك بأنها راقصة قديمة، وأن يقول: إنها راقصة قديمة. لكن أي صوت مبحوح صوتها!».

احتج اوريليان

– مهلاً، مهلاً، لاتمدحي نفسك، عمة مارت! فمنذ أن أخفت الناس بشبابك العاصف!»

كان صالون العمة مارت، الصغير الذي كان «امبيريو» يدعوه «كفر ناحوم» عامراً، مسكوناً بأشياء مغربية حملتها برحلة زوجية في افريقيا الشمالية. مع سجاجيد اشتريت من الحانوت المقابل في ساحة «كليشي» وستائر من الصوف الأحمر والأزرق، تبدو كأنها من «ديلاكروا» إذا صدقنا المعلم الذي باعها. وفي الداخل، على الأثاث الملبس بالصدف، مع أعمدة صغيرة وجرارات ورفوف معقدة، طائفةٌ من الأشياء الصينية كالوفد الزائر: مجزعات، تماثيل

صغيرة من الجياد، بوذا من البورسلين، تنين، وعاجيات. كان هذا هو إرث الحماة التي لم تعرفها العمة «مارت» والتي لم تقبل بها، لكنها عندما ماتت بعثت اليها باعتذارات هذا العالم الآسيوي الصغير، بالآفها المستنكرين. وقد أضافت العمة مارت الى ذلك كله لتجعل منه مملكتها، وسائد من الحرير الأزرق السماوي الذي صورت عليه الطيور والأزهار، وعلى المدفأة مراوح بفراشات في آنية فضية مغربية، وأمام آلة خياطة تمشي بالرجل. وفي زاوية طاولة من خشب الأكاجو المنقوش، وعلى المدفأة أيضاً بعض الصور، في أطر مدهونة، جندي زواوي، «بليز» في العشرين من عمره، ومجموعة مصغرة تعود الى «المعرض». وعلى الجدار لوحة وحيدة، ليست من عمل «بليز»: صورة بالألوان المائية لـ «ديغا» من زمرة التدريبات على العارضة.

استأنفت العمة «مارت»

– نعم ياصغيرتي! أنا التي ترينها هنا... صورة إجمالية أعطاني إياها... تماماً... رسم «ديغا» صورتي بتنانير الراقصة، والساق ممدودة على العارضة... أجل... ودُفع باللوحة عند بيعها ثلاثون ألفاً... يُقال إن مايُدفَع بي اليوم مئة ألف فرنك وكأنها لاشيء وكأنها فلس واحد!

قال العم امبيريو

– يُدفع بك!... ياظنبوب ساقي!

قالت العمة بصوتها المرتعش

– هذا الرجل رقيق كالزبدة. تصور أنني عرفته ولم يكن يستطيع التعبير عن مشاعره! وعملتُ عملاً رائعاً!.

هز «امبيريو» كتفيه. كان البياض يجلله، وكان شاربه كثيفاً ومهدلاً، وقد صار أصهب من التبغ. وكان الرجل هزيلاً وأحمر، عالي الكتفين جداً، مقوس الظهر، طويلاً، يهزه ضغط شرايينه، وأوردته البارزة عقدها عند الصدغين، وطائفة من التجاعيد، والأنف مسرف القصر، لايشي بالجدية. النظرة جدّ باهتة في حاجبين كثيفي الشعر. ولايُدرى إن كان ذلك ضعفاً أم طيبة.

سأل اوريليان:

- منذ متى تتخاصمان كلاكما. منذ أربعين عاماً؟

هتفت العمة بلهجة الظفر

- وأكثر، ياصاحبي! منذ خمسة وسبعين عاماً... خمسة وسبعين وخمسة وعشرين... وواحد وعشرين...

قال الرسام:

- لنقل ستة وأربعين ولنتركْ الكلام على ذلك! إن كنتِ تعتقدين أن ذلك يهم السيدة موريل.

- طبعاً، لايداخلني وهم... فلم تأتي لتريني.. بل لترى الرسام «دامبريو»... مابكِ؟ تعترضين؟ من تظنينني، ياصغيرتي! ولذلك فإذا كان قد لاطفني مرة في ستة وأربعين عاماً، فرسم صورتي...

قاطعها الزوج

- لن تُباع بمئة ألف فرنك!

- في البداية لايُدرى شيء منْ ذلك... لأن «ديغا» - بيننا - لو لم يصور الراقصات...

- «مارت»، أنت حمقاء!

- «بليز»: أنا أدري مأقول. حسناً، تعالي وتفرجي على لوحاته الكبيرة وعلى... إن كنت تظنين أنني أرغب أن يأتي الناس الى هنا من أجلي، فأنت تخطئين! أنا فخورة به، برسامي، حتى وإن لم يدرّ ذلك علينا مالاً... وانظري كيف تدور الدوائر. فعندما كان في العشرين من عمره كان يترامى عليّ... وكنت أذيقه العذاب! أما الآن فهو الذي يخدعني الى حد التلذذ بذلك!

- مارت!

- أليس معي حق، اوريليان؟ لم تقل لا؟ أترى أيها المتصابي، لم يقل الفتى لا... سيدة موريل، من هنا... لن أرافقك... فعندما ينظر الناس الى لوحاته ينتابني مغص.. .

وعندما بدا على اوريليان أنه يتبع بيرينيس، هتفت السيدة العجوز:

- ياالشباب اليوم هؤلاء! إذن، فلن يهتم بي أحد، أنا؟ لن أتخلى عنك، اوريليان. اجلس هنا، وساعدني على حل الصوف...

إن النظرة الآسفة التي القاها اوريليان على بيرينيس وهي خارجة أضحكت «امبيريو» الذي لكز الشاب. وغضّنت العمة مارت، التي ظلت وحدها معه، أنفها، وهزت كتفيها، ونهضت، وطبطبت بإصبعها على وجنة اوريليان، وتناولت نظارتها التي كانت ملقاة بعلبتها على المدفأة، وفتشت الطاولة المصنوعة من خشب الأكاجو والتي لها درج بشكل مفرغة الجيوب، وأخرجت ربطة خيوط صوفية خضراء، قالت:

- هيا، لن تموت من تركها مع «بليز»... أعطني يديك. أيها الأحمق الكبير... مالوجهك تبدل! لست حلواً هكذا.

- أؤكد لك، عمة «مارت»...

- تا، تا، تا... أنتَ لاتعرف الكذب... هات يديك... هيا، اجلس على الوسادة... هذا الحب العظيم مستمر منذ ثمانية أيام؟

- لكن، عمة مارت...

- تجرّأ وقل إنك لاتحبها؟ أترى، أنت لاتجرؤ... ياإلهي، اتبع حركتي، الخيط يعلق طوال الوقت... إنها لطيفة وإذا كانت تعجبك...

- أتعجبك أنت، عمة مارت؟

- عيناها غريبتان... لابأس بهما... هل الأمر جدي؟

أومأ «نعم» برأسه، بقناعة عظيمة كاد يُفلت الصوف معها.

- من بلاني بهذا الأخرق! اترك يديك منفرجتين.. وإذن، فالأمر جدي حقاً؟... أنت مغرم؟ مغرم حقاً؟ أحب أن يُغرم المرء...

- أنا أحبها، عمة مارت.

- الكلمات الفخمة مباشرة.... قل لي، يافتاي، دعني انظر اليك... أقلت هذا حقاً... هذا يذكرني بأشياء... وإذن فالأمر جدي تماماً...

حلمت قليلاً، وكببت الصوف على نحو أدق، ثم استأنفت:

- ومع ذلك... فالمرة الأخيرة التي جئت فيها الى هنا... ثم أصبحت زياراتك نادرة... الحاصل أنه منذ خمسة عشر يوماً، ثلاثة أسابيع؟...

- تقريباً..

- أعن هذه الصغيرة أرهقت أسماعنا...

- لاأذكر..

- اوه! أنا أذكر! ذاكرتي قوية...

- ومع ذلك فلا أحد...

- أقلت هذا؟ الحاصل أن ذلك حديث العهد جداً، بينكما...

- أنا أحبها، ياعمتي... لكن الأمر لايقتصر علينا نحن الاثنين...

- لا؟... ليكن. على كل حال لاأطلب منك أن تُفضي إليّ بأسرارك. كنت أقول ذلك... أنا، عندما كنت في عمرها، وعندما كان يعجبني رجل...

تنهد. يمكن «لذلك» أن تعني كل شيء. أنه غير واثق من أنه يعجبها، وأن هناك أشياء أخرى، وأنها متزوجة.

- الحاصل أننا لانفهم أبداً قضايا الآخرين... فشخص مثلك شاب، متين... لايخصني ذلك، بعد كل شيء... لكني أحب أن أكلمك عن شيء آخر..

- وماهو، ياعمتي؟

- عن زيارتكَ الأخيرة بالذات... عما قلته لنا، أتذكر... لا، أنت لاتتذكر...

توقف عمل الصوف. حطت السيدة «امبيريو» الكُبة على رِكبتيها، ونزعت نظارتها، ونظرت الى اوريليان، ويداها في الهواء. تغير صوتها وغدا عذباً.

- ياصغيري، من المروّع أحياناً مانقوله ونخلط فيه الخطأ بالصواب... دون دراية... اوه! لستُ أُنحي عليكَ باللوم! لم يكن بوسعك أن...

- وماذا قلتُ...؟

- اصغِ... أتذكر... كنت مُفعماً بموضوعكَ في ذلك اليوم... كنتَ في سهرة لدى أناسٍ... وكان هناك امرأة ألقت أشعاراً...

– آه! كان ذلك في ذلك اليوم؟ وكانت بيرينيس في تلك السهرة..

– بيرينيس! لم أتكلم عن بيرينيس. وأنتَ لم تقل شيئاً عن بيرينيسك في ذلك اليوم... لاشيء... لا... وطوال ساعة أضجرتنا، أضجرتنا حقاً... لاتَغتظ... أضجرتنا حقاً... بتلك السيدة، وفستانها، وعينيها، وأشعارها...

– روز ملروز... نعم لقد أثرت في... ولكن كمن يلتقي ببطل كرة المضرب.

– لاتدافع عن نفسك، فهي من جيل أمك...

– أنتِ تبالغين...

– على كل حال، لست وحدك في هذا الموضوع...

وبدت كمن تفكر وتناولت الكبة مرة أخرى. كانت تلف الصوف كالمحمومة. وعندما فرغت يدا اوريليان أمسكت بهما:

– اصغ، ياصغيري... سوف تَعدُني بهذا الشيء...

– بكل تاكيد، عمة مارت، كل ماتشائين!..

– سوف تعدني أنك لن تذكر أبداً هذه السيدة ملروز أمام عمك... أبداً... أتسمعني جيداً، أبداً... أقسم على ذلك؟

– أقسم، ياعمتي، لكن...

– لاحاجة الى «لكن»... اوه، ثم لاتتخذ هذه الهيئة. يمكنني أن أشرح لك.

– لاأطلب منك شيئاً، إذا...

– إنها قصة قديمة، ياصغيري. عمك الأحمق... مايزال يحبها، الغبي!

– عمّي! السيدة ملروز؟

– نعم، تصور! هذا يرجع الى زمن لاأعرفه... عشرين عاماً... هذا لايصغّرها هي... كان عمر بليز أكثر من خمسة وأربعين عاماً... تخيل... وحتى تلك اللحظة كان هو، والنساء... كنت أكفيه، الحاصل... صحيح أنني كبرت...

– عمتي!

– أنت لم تَغَرْ بعد؟ لا؟ لم يحن موعد الغيرة بعد. حسناً، الغيرة، ذلك كمثل أن نخز إصبعنا بإبرة حتى يسيل الدم... لكن دون توقف.. أوه! مرّ بي ذلك!

- آسف، ياعمتي، لو علمت ..

- قلت لك أن دلك مرّ بي. . وهو الأحمق .. فعندما تمثّل في مكان ما... يقول إنه ذاهب ليلعب لعبة شطرنج.. وأنا أتظاهر بأنني... لحسن الحظ أنها قلما تُعطى، هذه الصبية، أدواراً هامة. ويالهيئته العجيبة في اليوم التالي!

- لو خامرني قليل من الشك حقاً...

- لاتعتذر، أخطأت، ثم أخطأت، ماذا! آثرت أن أقول لك ذلك... لكي لاتعود اليه... وأظن مع دلك أنه قد عشقني في العشرين، بليز... لكن في غضون ذلك... لم يكن يتوقى.. أتفهم، كنت سأتغاضى لو كانت فتاة طيبة معتبرة... لكن هذه الخبيثة كانت صغيرة جداً بالنسبة إليه... ثم كان واضحاً... الرجال... كانت تسحب شيئاً من كل واحد، ثم... إن بليز صحح لها لهجتها...

- لهجتها؟

آه! نعم، الآن بهذا الصوت المصنوع، وذلك الإلقاء كالآلة الكاتبة!. ثم إن لهجتها كانت منحطة، لهجة الضواحي... كانت تُدعى «أملي روزييه» فسماها الأبله «ميلي»... ومن هنا «روز ملروز»...

- عجباً..

- بلا مزح، لم أقل لك شيئاً؟ آه، لايذهب بك التصور أنني غيرى الآن... لكي نغار، يجب أن يكون هناك مانغار منه... قيل انها ذكية.. قيل هذا عني أيضاً عندما لم أكن مصابة بالدوالي...

خاب ظن بيرينيس في تصوير «امبيريو». حسبت أنها ستكتشف رساماً متفرداً، فإذا به رسام كسائر الرسامين. جد أكاديمي. كل ماأراها إياه كان أقرب الى دراسات للوحة، أو اثنتين، أو ثلاث لوحات منه الى اللوحات. عناصر مرسومة رسماً حسناً، شخصيات، وأشياء. ثم هي نفسها مجمعة تجميعاً مختلفاً ومن البديهي أن المشكلة التي تعلق بها «امبيريو» كانت، بعد عشر محاولات، أن يُدخل، في إطار اللوحة المحدود، عشرة مشاهد، وثلاثة ديكورات، وتقريباً غريباً بين حوادث تافهة، وثماراً وأثاثاً وشوارع. كان رسام مدن. لكن

الغرابة لاتبدأ إلا مع التكوين. كان للعناصر حكمة المدرسة. والمقاصد الممحوة تعود الى الظهور في شرح العم «بليز (أترون هذا الرجل؟ لقد خاف وهو يتصنع خلاف شعوره)، وكانت هذه الأحاديث أحاديث نحات أكثر منها أحاديث رسام، طموح الرسم الى أن يوحي بحركةٍ اكتملت، أو ستبدأ. قال

– خذي هذه المحارة.... هل عرفتِها؟

لم تتعرفها ونظرت الى «امبيريو» بدهشة.

– في اللوحة... التي عند اوريليان... هذه دراسة للمحارة التي على متكأ النافذة.

لم تتذكر إن كان هناك محارة.

– بلى، قرب علبة البودرة... ألم يقل لك اوريليان؟ ومع ذلك فلا يمكن فهم شيء من هذه اللوحة، إن لم ندرك أهمية المحارة.

قالت:

– معذرة، فاوريليان..

– أنا غبي كبير... من المؤكد أن اوريليان يحدثك عن شيء آخر...لكني أعطيته اللوحة بسبب هذه المحارة... كانت لأمه... كانت أمُّه جميلة جداً.

– قال لي ذلك...

– وكانت لها هذه المحارة السمراء والوردية على طاولة زينتها... ملقاة بين مساحيق التجميل... وجدتُ ذلك فريداً دائماً... كانت تحب أن تسمع صوت البحر أمام مرآتها....

ليت الرسامين يصورون دائماً كما يتكلمون... نظرت بيرينيس الى «بليز» بفضول، فشرح:

– أترين هذه اللوحة.... التي أدعوها لوحة اوريليان: «نافذة بييريت»... لأضلل المشاهد، فهمتِ... لكن بييريت، أو مهما يكن اسمها، هي المرأة التي لاتُرى لكنها حاضرة... وما أردت تصويره هو هذه العلاقة بينها وبين العالم الذي تعيش فيه... داخل المنزل البرجوازي... المدينة الآهلة بالسكان... أحداث

المصادفة في مجالها البصري... ثم هذا الحنين الى البحر، المحارة... لعلها كانت امرأة سطحية قليلاً لكن بفجوات في الذاكرة... بعجزٍ مفاجيء... كانت تنسى شخصيتها... وتحلم... وتأخذ المحارة.

توقف عما كان سيقوله، وأراها دراسات عارية...

– إني أعد عملاً فنياً ذا أبعاد كبيرة. ورشة بناء... مع جميع العمال، والصقالات، وغير ذلك... والصبية الذين ينظرون... والناس الذين ينظرون الى الشيء نفسه على أنه مشهد، عمل... هذه الفسحة الهندسية التي ستصبح بيتاً، خصوصية ناسٍ آخرين... أتحبين «دافيد»؟ هذا كان رساماً...

لم تكن بيرينيس تعلم لماذا، لكن بدا لها أن الكلمات الأخيرة كانت ارتجالاً مفاجئاً. وأخذ الرسام الآن يقول على نحو حالم:

– لم يستطع أحد قط أن يرسم شخصاً لايفعل، في الحقيقة، شيئاً...

وفخّم تفخيماً شديداً قوله «في الحقيقة. كانت بيرينيس تبحث عن كلمات محببة. إنه لموقف مربك جداً أن ننظر الى لوحات الرسام بحضوره، عندما نجد تلك اللوحات لاغناء فيها. بيد أن بيرينيس تذكرت كيف قال اوريليان عن العم «بليز». «هو صديقي الوحيد تقريباً...» برغم السن، كانت تفهم ذلك. كانت ترى، دون أن تتمكن من صياغة ذلك، مايُقرب بين هذين الرجلين، ولم تتمالك نفسها من الشعور بالود الخالص لهذا الرجل المنحني الظهر، بوجهه المنهوك الذي كانت تتكهن بألف هوس فيه، وبطيبته الخجلة. وخُيل اليها أنها ستنفذ من خلاله الى سرّ اوريليان. كانت تمزج أحاديثها بأفكارها الحميمة، بحركة القلق، بتشكك أفكارها، بنهم قلبها. أمسكت بيد الفنان في عرض كلامه، بوحي من غريزتها، وهمست: «سامحني». توقف ونظر اليها. ونفخ قليلاً في شاربه:

– أتريدين أن تقولي لي شيئاً ما؟

أجابت نعم وهي تهز شعرها الأشقر. فقال:

– أنا هنا كالأبله مع رسومي.. ماكنت أرى.. (وتوقف عن تتمة إنكاراته..) كنتِ تريدين أن تحدثيني عن اوريليان؟

- نعم... لكن...

هز كتفيه العجوزين. ماأبلدنا! نحن لانرى أن الناس هنا، الى جانبنا يتفجرون من حاجتهم الى الكلام... كانت غارقة في قصتها، هذه الصغيرة... أبلغ بهما العشق حداً عظيماً؟ أجلسها على منضدة صغيرة. لم يكن للغرفة من الشغل سوى هذا النور النازل من السقف. بل إنها أشبه بغرفة كبيرة للمهملات، خيل الى بيرينيس أن الرسام أجلسها لكي يسقط عليها الضياء بطريقة تصويرية. قالت: لا، وليس في هذا المكان... ولا في هذه اللحظة... ألا أستطيع أن أراك... دون... دون؟

تابع نظرتها نحو باب الصالون الصغير حيث «مارت». فتبسم. لمَ لا؟ «أممكنٌ غداً؟»

تواعدا في «الباليه رويال». كان هناك مقهى كبير مزجج وكان الناس يلعبون الشطرنج فيه.



هذا الافتتاح في منتصف الليل، حدث كبير، وابتكار لم يُسمع بمثله. يجب أن يكون المرء «زامورا» ليتصور مثل هذه الأشياء. ولم يحدث هذا قط، تصوّرْ إمكان عرض اللوحات على الضوء، في منتصف الليل، بعد الخروج من المسرح. لكن الرسامين بلداء جداً بضوئهم عينه. فاللوحة يمكن أن تُرى بأية طريقة، على الوجه وعلى القفا، في الريح، في الصباح وفي المساء... ويجب رسم لوحات متألقة لليل المدلهم. الحاصل أن زامورا يملك الجواب عن كل شيء.

إنه يعلم مايفعل، وأن الناس لايشتهون النوم بعد المسرح، وأن «مونمارتر» تبدأ متأخرة، وأن الناس لايذهبون في كل مساء الى «البوف»، ثم ان الافتتاح تسلية مجانية أي كل مايلزم لاحتذاب الزُبُن الأغنياء. هذا العالم الراقي الذي يهزأ من تلك الافتتاحات العادية. ويُقال إن شاه الفرس الذي وصل حديثاً الى باريس سيحضر وسيبدو ذلك أناقة وفضيحة في الوقت نفسه. ويُقال أيضاً إن الدادائيين، هؤلاء المجانين الشباب، هائجون لأن الويسكي والشامبانيا سيقدمان، وأنهم سيأتون ومعهم مُداهم ليمزقوا فساتين السيدات وهذا يشيع شيئاً من الهلع، فهم قادرون على كل شيء، هؤلاء السوقيون. لكنك، ياعزيزي، لعلك لن تجبن أمامهم.

وصل اوريليان مبكراً جداً ولم يستطع أن يستقر في مكانه كانت بيرينيس من جهتها، ستصحب قريبيها. وكانت صالات معرض «ماركو بولو» الأربع، واحدة مدورة، وغرفتان في صف واحد، والى اليمين صالة مربعة أقيم فيها المقصف، كانت هذه الصالات ماتزال فارغة، وتبدو واسعة، مع أنها في الحقيقة جد صغيرة، وأن ثمة تساؤلاً كيف سيتسع ذلك لكل أولئك الناس بعد قليل، لأن جمهوراً غفيراً سيأتي بكل تأكيد. وقد جعل مفوّضُ الشرطة الشارع باتجاه واحد لهذه الأمسية، وسوف تقف السيارات في الشارع الجانبي باتجاه واحد لهذه الأمسية.

في كل ذلك نور ساطع، وقد غير «زامورا» جميع المصابيح، ليكون النور صارخاً. وهذه أولى محاولات الإضاءة غير المباشرة. إذ لم يتعودها الناس بعد. في نيويورك، على مايبدو... على كل حال، ليس من لون باق على حاله، كل الألوان تفككت، الحمراء انقلبت الى برتقالية، البنفسجية الى لون الشوكولا. وزامورا لايبالي بذلك: الألوان، خرافة. وهو هنا مع السيدة «غودمان» وأصدقاء لهما، وشخص من النوع المُجدّ بأنف لايحسن التنفس، وسترة قصيرة طريفة، وامرأته جد مونبارناسية، عليها عصابة من الحرير الفيروزي، وفستان كبوشي ومعها كلب صغير لايوصف، أصفر، بين ذراعيها الهزيلتين. ندم اوريليان لأنه ارتدى سترته الرسمية. كان زامورا بسترة بيضاء دقيقة الخيوط، يبدو من «بونيسارس» كما يقول. وكان المسؤول عن المعرض بادي الانهماك، أسمر سميناً تضغط عليه بذلته، وهو تاجر برتغالي يُدعى «ماركوبولو» مثلك ومثلي، بيديه خواتم، وله شارب عريض قريب جداً من المنخرين، وكان يدور في وسط ذلك كله لأن الشطائر تأخرت. وفي الصالات يطوف زوجان أو ثلاثة أزواج، وهم يتحدثون بصوت خافت، كأنما أُدخلوا الى منزل أناسٍ لا يعرفونهم.

ما إن حيّا اوريليان السيدة «عودمان» الزرقاء الشاحبة، الكاشفة عن ظهرها الغني عن الوصف، حتى توجّب عليه أن يتظاهر بالنظر الى الرسومات، مع أنه لم يبق ماينظر اليه مهو يعرف من قبل كل ذلك، هذه اللوحات – البيانات التي كانت لدى «المستقلين»، اللوحة الكبيرة التي تبدو مثل مقاطع معلقة بعلم الأنسجة والتي رُفضت بسبب الكلمة التي في وسطها. هذه الابتكارات المحنَّقة، والمحنِقة الممزوجة برسوم صغيرة بالغة الادعاء، بخطوط عريضة مطموسة يمكن أن يعملها أي رسام. هذا على الأقل في صالة المقصف والرواق. الغرفتان المتصلتان عامرتان بصور الأشخاص وبرؤوس بريتونية فقط. وهو أدخل في صور المجلات الإجمالية، في مخططات المشاغل، في رسوم المعلم. رسوم مائية أو رسوم أُبرزت بالحبر وبالألوان. في البريتونيات شيء من السحر، وهن يمارسن البغاء بإفراط، وعيونهن غير متساوية وفيها شيء من الحول، والأفواه

معدة لكثير من التمرينات. ولقد سرق زامورا من مرجعٍ ما هذه الطريقة برسم الدنتيلا أو بالتلميح اليها. وفي ذلك رشاقة مثيرة لزمن غير طويل. تصور أن زامورا يضحك بملء شدقيه عندما يُحدث عن رسوم رودان! وهو في الحقيقة يتشبه قليلاً لاعب الورقات الثلاث عندما يُذكَرُ له مُحترف لعبة التبعيدة.

إن ماكان اوريليان يبحث عنه، مع رغبته في ألا يرى ذلك أحدٌ، إذ أن الناس بدؤوا يصلون، موجودٌ في الصالة الأخيرة حيث النور يبهر الأبصار. رآها من بعيد وهو يحمل نفسه على عدم الذهاب اليها مباشرة. إنه يصرف بأسنانه قليلاً، وهو يعلم أنه سيكره ذلك. وهو في الوقت نفسه يحمل فضولاً سيء النية لمعرفة حقيقتها. ولقد كون عنها فكرة مامن قبل من خلال المخطط الإجمالي الذي رآه عند الرسام. ويبدو انها لم تعير كثيراً اقترب من صورة بيرينيس...

– «آه! عزيزي ليرتيلو! أنت هنا! قل لي، نحن في «شارسون»؟ اوه، واذن!».

كان هذا العقيد «دافيد» والسيدة، بطبيعة الحال. كان لابد من التحدث ببعض العموميات. كيف لايعرف العقيد وزوجته زامورا؟ لاشك أن السيدة «دي بيرسيفال» هي التي دعتهما... خفض اوريليان صوته بصورة غريزية. فصياح الزوجين يضايقه. لم يشأ أن تسمع السيدة «عودمان»... وكان ينظر بمؤخر عينه أيضاً نحو بيرينيس، ونحو البريتونيات... عرض عليه العقيد سيجارة. في الحقيقة، يجب ألا يدخن أحدٌ. فالجو شديد السخونة، والناس مايزالون يتوافدون. كيف سيكونون بعد قليل؟ والحقيقة أن اوريليان لم يلاحظ ذلك فقد التفت ورأى المعرض يمتلىء دفعة واحدة. وربما كانت بيرينيس هنا... سألت السيدة دافيد «وهل رأيتِ الفهرس؟ وهنا لن تعفيه من ذكر تفصيلٍ. فثمة أشياء فحشتُها... إنها ترى جيداً أنه لايُصغي إليها إلا نصف إصغاءة، لكن هذا لايوقفها. لقد تعودت ذلك. الناس كلهم هكذا معها، إنهم يفكرون في أشياء أخرى وهي تحدثهم. وتنهدت.

كان ليرتيلوا موزّع النفس بين الرغبة في أن يرى إن كانت بيرينيس قد وصلت، وأن يذهب ليرى صورة بيرينيس. ولولا الزوجان «دافيد» لما تحمل هذه الشروح. ولحسن الحظ أن شخصاً خلصه منهما، هو السيدة «شلزر» امرأة «جاك» لا، جاك لم يحضر بعد، سيأتي... ألا تعرف «فالموندوا»؟ غي... كان اوريليان يعلم على نحو غامض، أن لزوجة جاك علاقة بدوق. ولابد أن يكون هذا هو الدوق. وهو رجل سمين جداً، غير طويل، مع كثير من الأردان، ووجه شارد، أشقر... وصل اوريليان، في الزحام، الى أمام صورة بيرينيس.

استولى عليه غضب عارم. صح توقعه. كان زامورا يحمل في رأسه هذه الفكرة، وكان لابد من أن ينفذها رسمان يتراكبان، صورتان كما قال، العينان المفتوحتان، والعينان المغمضتان، الفم الذي يضحك والفم الذي يبكي، في الصورة كثير من الشبه، وهي تبيح هذا التشبه، دون أن يكون الشبه تاماً. وهي تُثير أيضاً، إذا حددنا النظر إليها، احساساً بالتشنج في الفكين. ويغيب عن نظرنا مايخص هذا الرسم ومايخص ذاك، ونكفّ عن قراءة هذين الوجهين قراءة يتميز فيها أحدهما عن الآخر، فينشأ مسخٌ، مسخان، ثلاثة، حسبما نجمع بين هاتين العينين وهاتين الشفتين غير المتجانسة، هذا الجبين وهذا الأنف، هذه المساحات المفرطة، هذا الذقن الذي يغدو مَرَضياً... تصاعد الغضب في اوريليان: بيد أن بيرينيس لاتخص زامورا، من أعطاه الحق؟ وفجأة تأثر بالنظرة، بشبه عميق. أيكون موهوباً، من قبيل المصادفة، هذا النصّاب على التصوير؟ ومع ذلك فهذه بيرينيس، بيرينيس الى حد كبير، ويخاف اوريليان ويشتاقُ أن يسمع ماسيقوله الناسُ عنها. وبكلمة واحدة، إنه يغار.

قال صوتٌ من ورائه.

- «أنت تنظر الى صورة السيدة «موريل»، طريفة، أليس كذلك؟»

إنها تشبهها...

التفت فإذا بها «ماري دي بيرسيفال»، ماري من الساتان الوردي المغطى بالسحلبيات، وبرفقتها «بول دينى»، والدكتور «ديكور»، وسيدة لايعرفها اوريليان، لها عينان جميلتان جداً مملوءتان بالضباب. قال بغتةً:

– هذه السيدة موريل؟ لم أعرفها...

ثم أحس بقلة لباقته وقبّل يد ماري، التي قالت:

– أنت تعرف طبعاً «ايفون جورج؟ لا؟

وهكذا فإن هذه المرأة الكبيرة العينين هي تلك المغنية العائدة من امريكا بنوع من الأسطورة الخصوصية. وفكر إنها جميلة جداً ومأساوية... تماماً كما أرادت أن تكون رسومُ «زامورا»، فلم تكنْه. وتعلو الضوضاء ويزدحم الناس ويتراصون كما في علب السردين. وتناقصت قدرة الناس على النظر الى اللوحات. بيد أن الناس لم يحضروا من أجل ذلك. عجباً، بول ديني لم يضع ربطة عنق. ويبدو أن هذا هو شعار الدادائيين، هذا المساء، بلا ربطة عنق. ذلك الضخم القصير، هناك، بعينيه الجاحظتين. ويُرى نحوُ ستة أشخاص يتجولون، ويتكلمون بصوت قوي، ويمكن تمييزهم بتلك العلامة الفارقة. شباب لم يتأنقوا في ملبسهم، ومعهم نساء مختلفات. ويبدو أن الجنرال «مانجان» هنا. ليتنا نتناول كأساً في المقصف... ويضيع المرءُ في الهجمة المعاكسة. فثمة ضوضاء صاخبة وضحكات وأصوات حادة. همس زامورا، وهو بالأبيض، برأسه الأسود، أثناء مروره، في أذن ماري:

– هل تسليتِ؟

أمسكت بذراع اوريليان:

– لم نعد نراك... أهو الهوى؟... طيب، تكتّمْ، مخيفٌ، كم عتقتَ، ياعزيزي!.

وأرخت يده لترتمي بين ذراعي «زوي اغاتوبولوس»، وهي أشد هزالاً من المعقول، وينبغي طيها كما يُطوى المتر لكي لايصطدم بها الناسُ وهي مع شخص عليه سترة رجالية[1]، وكل مافيها كلاسيكي وشعرها مثل شعر النادل، وتنورتها ضيقة تبدو مثل ساق انبنطال، والمضحك هو صدرها الواسع. كشرت «زوي» صوب اوريليان... من غير أن تنبس بكلمة. كانت بشعة في هذا النور،

(١) الكلمة عامية الصياغة. المترجم

وكانت تتولدن، وتتمايل بين رفيقتها والشاب، وكأنها تحاول اختطاف مربّى أمها. وفكّر العجيب أنني لم أستطع قط أن أتفرسها، ووثب هارباً منها بحجة اضطراب دوّامة الحضور.

– ألم تر «روز ملروز»

الدكتور «ديكور» هو الذي سأله هذا السؤال بصوت خافت، وبنوع من الشراسة في القلق الموجع. روز؟ آه، هذه... إنه يفكر من جديد بالأسرار التي باحت بها إليه العمة «مارت» ويلتفت الى الزوج المسكين. لا، لم يَلْقَها هنا. لعلها هنا، في الغرفة المجاورة... مع هؤلاء الناس جميعاً.... ويجفف الدكتور جبينه. الحق أن الحو حار جداً. هكذا يحمل كل واحد في هذه الزحمة مأساته، وحبه. جرّ معه «ديكور». وبحجة البحث عن «روز» قد يجد بيرينيس.

قال الزوج

ـ أتعلم أن «روز» سيكون لها مسرحها... نعم، أما العطور فإنها اتخذت وجهة جديدة... لقد قبلت السيدة «دي بيرسيفال»...

قاطعه اوريليان

– أنا أفكر في ذلك، هل شاهدت وأنت داخل باربنتان وزوجته؟

– لم تسألني عن ذلك؟

– لأن...

لم يشأ أن يقول اسم السيدة موريل، فأنهى كلامه بغباوة

– يعني هكذا... للاشيء...

بلغا الصالة الكبرى، المستديرة، حيث الباب المطل على الشارع. ثمة خليط من الأحاديث المتنافرة، وأذرع في الهواء تنقل صحوناً، وشطائر، وكؤوساً ترش الفساتين من هنا ومن هناك. قال شخص بجنبهما: «ماأكثر السيارات!» وقد وقعت حوادث عند الباب... ويُهرع ربُّ البيت بخواتمه، بخاصرتيه المغبونتين، وحذاقته البرتغالية. هوذا «بواريه»، هذا الملتحي الذي يدخل، لقد ضخُمَ. وهو ببذلة من «التويد» الفاتح، كأنه ذاهبٌ «للغولف»، مع منديل من الصوف الوردي

الفاتح في العنق، وبجنبه فتاة بها سمنةٌ، وعيناها الكبيرتان صبغتا بخط ثلاثي أزرق وأسود، وعليها قبعة غريبة من القش عشية عيد الميلاد، وساقاها عاريتان. لم يستطع «ديكور» أن يتمالك نفسه فقال «إنني أتساءل ما الذي يمكن أن تفعله روز» . ثم تبين الى أي حد كان هذا الحديث في غير مكانه، فابتسم لاوريليان ابتسامة شاحبة «أترى هذه الحال، أنا معها مثل أم الفراخ، فأتصور دائماً أن شيئاً ما حدث لها، وكأنها ليست امرأة كبيرة...».

في وسط ذلك كله، على منصة، في صدر الرواق، بيانٌ أُصعِد، وصندوق ضخم، ومشاهد تقدم. وفي هذه اللحظة، ومن أجل المصلحة العامة، كانت سيدة مرتجفة، روسية من غير شك، تغني شيئاً لايُسمع. وبها ضربٌ من الأسى الذي يُضحك أو يبكي إذا انتبهنا اليه. وهي تبرز من فستانها المفضض مثل زهرة مزدراة. وهي تلوي ذراعيها الجميلتين البضتين، وتنتفخ أوداجها، وفي هدأة من الجمهور، يكتشف بانذهال أن ماتغنيه هو «الأغنية الحزينة لـ «دوبارك» التي تغنيها وفي حنجرتها كل دوستويفسكي.

تجاوز «ديكور» و «اوريليان» الآخرين ماعدا «بول ديني» الذي كان يُدفَعُ من جماعة الى جماعة ليعود اليهم. وهو مهيّج، يمزح. وفرحه مملوء بالشطائر، وهو يفيض قصصاً وحكايات خبيثة رويت له قبل حين. وهو على كل حال ينساها لأنه يخلط كل شيء، ويحدث من الضوضاء مايحدثه عشرة، وهو يضيع في حكاية مشوشة، كعادته، يُهاجم فيها «كوكتو» الذي هو هناك، أتراه؟ بشعره الأشعث، بصدد أحد الموسيقيين، وأميرة، واستقبال لن يتم.

قال الدكتور بلهجته المرة والمرائية: أنا معجب بك، ياصغيري «ديني» أنا معجب بمالك من يسر في ذلك كله... آه، أنتم سعداء هذا العالم! أية طلاقة وأية قابلية!.

كان الضيق، للمرور الى المقصف، رهيباً. إنه لشيء مروع مايُرى من تهالك الجمهور على المشروبات والمأكولات المجانية، من النساء والرجال. وكلهم يفوحون عطراً ويتصببون عرقاً. ذلك الشخص الطويل، الأنيق، بشعره الأبيض

على وجهه الداكن، والذي يحتفي به السيد «ماركوبولو»، هو «وسنر»، «وسنر» السيارات. وذاك هو زامورا، المداري أكثر من ذي قبل، القادر على الحضور الكلي، الذي جذبه الى هذا المكان وصول رجل قصير ذي شعر أسود، ووجه نضيئه عبقرية جلية، مع خصلة شعر ساقطة على عينيه، وهو يبدو كمن يعلو مَدرجة كرات من الزئبق. إنه بيكاسو الذي يحدثه رجلٌ في ثيابه الرسمية، جِدُ سمين، غارق في ربطة عنقه البيضاء، رجل الباليه الروسي «سيرج دي دياغيليه». هنا يفقد «بول ديني» ثقته بنفسه، فلا يستقر به مكان، وعليه أن يعلم مايُقال، وهو يدهس الناس، ويعتذر وهو في أحضان امرأة قصيرة خضراء، لكنه ينضم الى تلك الجماعة التي هي بالنسبة اليه النجمة القطبية. الرجل القصير الضخم ذو العينين بسويقتين، هو الذي نبهه على ذلك بكثير من السخرية. هز «بول» كتفيه.

قال الدكتور وهما بحذاء المقصف:

– أفٍ، لابأس بكأس. كأس ويسكي، ليرتيلوا؟

– لا، عصير البرتقال. تذكر ماقلته لي عن الكبد...

– باه، باه! سيدوم كبدك مادمت أنت، على كل حال...

في هذه اللحظة، وبينما يوشك اوريليان أن يتناول الكأس الممدودة، شاهد «ديان». لقد انقضت ستة أشهر كاملة لم يلق فيها السيدة «نيتنكَور». إنها هنا، أجمل من ذي قبل. وهي تبتسم له بملء فمها. وعليها أجمل فستان في السهرة، كما هو شأنها دائماً. فلا يُرى سواها. وهي في الخامسة والثلاثين أكثر امتلاء ونضجاً منها نفسها وهي امرأة في العشرين، إنها تبزها. وهي ترتدي ثوباً أبيض بحُلى حمراء كالدم النازف في معصميها، وعنقها، وقلبها. وفي ذراعيها حزمة كبيرة من الورود. ففي كل لحظة من لحظات هذا العالم، تُقدم لها الورود. إنها أغلى وأوقح مافي باريس. حتى «ويسنر» نفسه أسف قبل قليل في الصحافة، على هذه المرأة التي كانت امرأته قبل ثلاث سنوات، سنة ١٩١٠، وعندما تمر هي يبطل التدافع. ولقد سارت نحو اوريليان وكأنهما وحدهما في

ممر في «غاب بولونيي»، تذكرت هذا الممر قرب مرج «كاتالان»،... وهو نفسه، في الدقيقة نفسها... ياالهي، إذا وصلت بيرينيس الآن... وماذا في ذلك... يحق له أن يقول مساء الخير لصديقته القديمة السيدة «دي نيتنكور»....

قالت. مساء الخير، اوريليان. لكنها مدت يدها الى «ديكور» كي يقبّلها، الدكتور يعرف الجميع.

– أليست «روز» هنا، دكتور؟

لم تصغ الى ماقاله. وقد انحنت على كأس اوريليان، دون طلب، وشربت منها. يالهذا العنق العجيب! ذلك نادر، امرأة كاملة. آه، ياالهي! ذلك الأخرق. كبّ الكأس على الفستان الأبيض، وأصاب الورود رشاش منها. وخِف الناس. الأخرق هو «بول ديني»، على عادته. وهو يعتذر فتضحك «ديان». ويكاد يطير فرحاً، كان يتحرق شوقاً للتعرف اليها... ويحس اوريليان بتلك المرأة تتكىء عليه بلا تحفظ... مع من هي في هذا المساء؟ وهي لم تأتِ وحدها على كل حال... وفجأة ظهرت ابتسامة «جاك شيلزر» خلفها، تحت نظارة هذا الشاب الطويل الأشقر، ظهرت لأوريليان كأنها «الكشف». آه، معه جاءت إذن؟ ماأغرب باريس...

– «مرحباً، جاك».

كان الحديث صعباً شيئاً مابحذاء المقصف. لكن بول ديني يلزق بها، فكونه وسّخ فستانها يعطيه الحق البين على على السيدة «دي نيتنكور».

تلهّتْ «ديان» بذلك:

– أين نسيت ربطة عنقك، ياسيدي العزيز؟

هي لاتعلم! فينتفخ ويشرح. دادا... كونت «ديان» عن الدادائية فكرة جد نسبية. لكنها تتسلى بأن تكسب هذا الفتى الصغير:

«خُذ...» وأعطته منديلاً حريرياً أحمر كانت تحمله ممرراً في سوارها. ليتدبره الآن وليصنع منه ربطة عنق! فيخرج «بول» عن طوره. وهو حائر بين الخوف مما سيقوله الآخرون بما أنهم قرروا ألا يضعوا ربطة عنق في هذه

السهرة، وبين زهوه بإبراز آية الحب التي وهبتها امرأة جميلة، مرر المنديل على طاقين من فوق زر القبة... وعندها، لم يعد أحد من الغرفة يرى سوى هذه الخرقة الخليقة بإثارة الثيران. ويمكنه أن يكون واثقاً من تعنيف ماري له. أوه، ثم أن تلك أخذت تضايقه.

بادىء بدء، استحق «بول» انتباه «روسيل» الخياط، بينما التفتت «ديان» نحو «جاك شلزر» من إحدى الغرف مع ورودها. وكان «روسيل» قد قال إنه لن يحضر الافتتاح، لكن بما أن له مع ذلك، رسمين يخصانه وأعارهما «زامورا» من أجل معرضه... وأنت رأيتهما، ياديني الصغير، رسمان لـ... كُتبَ عليهما: يخصان السيد «ش... ر...» الرسمُ شفاف، ألا ترى ذلك؟ شفاف فقط.

الحق أنه رأى المشهد مع السيدة «دي نيتنكور» وأنه يتحرق فضولاً: «خذ حذرك، ياديني الصغير، إنها شخص جميل... لكن يقال إن لها عيناً شريرة... فمنذ... منذ وقت... لنكنْ رقيقين... كان يغازلها ضابط شاب... ومات في بيتها بطريقة... الحاصل أنني نبهتُكَ...

. في هذه الأثناء استوقفه هذا الرجلُ العجوز بينما كانت «ديان» تبتعد. ولولا أمله بأنه سيبيعه مخطوطةً لأقصاه عن نفسه، وبطريقة زريّة! ،بدلاً من ذلك همهمَ بشيء واستدار ماراً بين سيّد يشتمل بملحفة إغريقية، وعلى شعره الرمادي عصابةٌ مشدودة، وقد حسبه في البداية سيدةً عجوزاً ولم يكن سوى «ريمون دانكان» وصديقه «تريستان تزارا» وهو رجلٌ قصير غريب الأطوار، كثير المرح، على عينيه «مونوكل» مثبت بشريط عريض أسود، وقد جعلته ربطةُ «ديني» الحمراء يضحك قهقهةً. قال «حمراء! لمَ حمراء؟ وهو يتشدّد على «الراء» ويضحك بملء شدقيه. ينبغي أن يكون لذلك كله عنده معنىً خافٍ. وضحكه مُعْدٍ شديد العدوى.. لكن «بول ديني» يمرّ في الرواق، ويوشك أن يصدم «جان كوكتو» وهو بالنسبة إليه حدثٌ غير مستحبّ وكبير الأهمية، فيتحاشاه، وفي ضوضاء الجاز الصاخب المصغّر على المنصة، يُدرك «ديان دي نيتنكور» تكلّم اوريليان..

«فارسك الخادم، سيدتي، جعلتني فارسك الخادم،...»

وفجأة، وقعتْ عينا اوريليان على باربنتان داخلاً. كان ادمون بثياب كاملة، ومعه «روز ملروز» باللباس الأسود في دثارٍ من الفرو. وهي من الفخامة بحيث اتجهت إليها جميع الأبصار، وهي تبتسم وتتقدّم يحيط بها عشرون شخصاً. ادمون مع روز؟ اوريليان لايرى لا بلانشيت ولا بيرينيس... مامعنى هذا؟ وبينما هو يُدير رأسه، التقط تعبير وجه «ديكور». كان شيئاً مرعباً الى أبعد الحدود، مزيجاً من العبادة والغضب والخوف، ضرباً من تشنّج التقاطيع. لايمكن للإنسان أن يعيش إن كان يحبّ هكذا... قالت «ديان دي نيتنكور» بكرم عظيم: «وفي هذا المساء أيضاً، ستكون «روز» أجمل النساء!» لم يتحرّك «ديكور»، إنه ينتظر. ستأتي إليه. هو يعلم أنها ستأتي إليه. هذا كل ما لاتزال تفعله له، وهي تفعله دائماً، بحيث يقول الناس: «أترون، هذا هو زوجها...» إنه ينتظر. لايمكنها ألا تكون قد رأته. ويداه ترتجفان.

لا، لن تفعل، في هذا المساء، تلك الحركة المكرّسة، ولن تُدير نحوه ذقنها المرتفعة... وهي لاتلتفت إلا الى رفيقها، فتضحك، وتتكيء عليه. اوه، كم يعرف هذه الضحكة، هذه الضحكة بالذات، هذه الضحكة! إنه لايتحرّك. ويدعُ اوريليان يتقدم.

«أولئك النساء لايرافقْنك؟»

لم يكد يقول: مساء الخير، اوريليان. لكل قلقُه، لكلّ حبُّه. هزّ ادمون كتفيه. لا. لكن كيف يكون ذلك ممكناً؟ بيرينيس... نعم، أعلم. لكن في آخر دقيقة... اوه، تعلم، النساء لهنّ أعصابهن.

ليس هذا تفسيراً. فيُلحّ اوريليان. قالت «روز»:

- قلْ لي، جئنا لنرى التصوير، أليس كذلك ادمون؟

كان ذلك ادّعاءً غير مشاكلٍ للواقع. ويتفوّه ادمون بشيء لم يُسمَعْ بسبب الجاز. ويُقبل وافدون جدد فيصدّونهم نحو صدر القاعة وحينئذٍ تلمح «روز» زوجها. فتومىء إليه بإيماءةٍ تحيّيه فيها.

شرب تلك الإيماءة، وليس هناك من كلمة أخرى. لم تكن هذه الإيماءة هي الإشارة التي ينتظرها، لكن لابدّ من فَهْم روز: «مع هذا الجمهور وذلك التدافع. الأمرُ كذلك دائماً. هو يحاول ألاّ يرى الناس حولها، يحاول أن يبلغها. سوف تشعر بالحرارة المفرطة مع هذا الفرو، ألا تريدين أن تخلعي معطفك؟» سيحمله لها. ويكرِّر عليها السؤالُ. فلم تسمع. الفرو؟ لا، جيكي، أفضّل أن أحتفظ به. ويُصرّ. لكنْ مابكَ، ياعزيزي؟ ادمون، اذهب وائتني بشيءٍ أشربه!

تبعَ اوريليان ادمون:

- أوضحْ لي أخيراً إيضاحاً أفضل...

- أوه! أنت تعلم، بلانشيت، في هذه الأيام! أستطيع أن أخبرك بذلك. ثارت ثائرتُها عندما قلتُ إني سأمر لآخذ روز، وأنا، ليس من مزاجي أن أساق الى حيث لاأريدُ... وحينئذ حدث صراخٌ وسالت دموعٌ... ولم تعد صالحةً للظهور أمام الناس... ولم تشأ بيرينيس أن تتركها وحدها...

- ولم تقلْ لكَ شيئاً عني؟

- لا... لاأعتقد... لا، بالتأكيد لا...

أوشك قلبُ اوريليان أن يتوقّف. لم يعد يشعر بالحرّ. وأظلم كلُّ شيء، واتخذت هذه السهرة، هذا الاحتفال، طابعاً مشؤوماً. ماذا يعزفون؟ عزفهم يُزعج الآذان. غدا اوريليان حسّاساً لما هو مضحكٌ في الناس، لهذا «الكرنفال» الذي يحيط به. ومامن كلمة إليه. مع أن ذلك كان سهلاً...

- اسمعْ ادمون، ليس ذلك ممكناً... لابد أنها قالت لك...

- بما أني قلتُ لكَ أن لا!

أخفى اوريليان خيبته بحجة اجتماعية فريدة «إن في هذا فظاظة تجاه «زامورا»... بعد قصّة تلك الصورة!»

أضحك ذلك ادمون. ولم يفهم اوريليان لماذا. فأصرّ على تكرار: إن ذلك فظّ. وفجأةً أمسكه ادمون بذراعه وهمس:

«انظرْ... مَنْ هناك...»

نظر اوريليان، وبالرغم ممّا كان يشغله في هذه اللحظة، إلا أن مارآه ترك فيه أثراً هائلاً. لقد سمع بذلك قبل حينٍ... لكنه لم يصدّق كما لم يصدق مجيء شاه فارس الذي أُعلن عنه... لم يكن القادم هو الشاه، كان أكثر إدهاشاً من الشاه، مع أن هؤلاء الطائشين من حوله لم يبدُ عليهم أنهم فطنوا له. هذا الرجل ذو الوفرة السوداء المنقطة بالرمادي، والكتفين المرتفعتين، والقوام الغريب المائل، والجلد المصفر، والشارب الذي لم يحسن قصّه والشعر النازل الجامد، والذقن الذي يَشي بالتسلّط... لاشك أن هذا هو «مانجان» وإن كان باللباس المدني... كان الى جانب امرأةٍ تعبث بمناديل قاتمة، امرأة رُكِّبتْ، على نحو غريب، من المادة التي رُكّب منها، قُدّت من الأديم الذي قُدّ منه. وعرف فيها اوريليان «الكونتيس دي نواي». كان الجنرال يحاول أن يفتح لها ممراً. كان التعبُ بادياً عليها، وسمعه اوريليان يقول: «اوه! هذا الجاز!». فنظر اوريليان الى «ادمون». كان في رأسيهما الفكرةُ نفسها. هو، هنا... ياللغرابة! كانا معاً في جيش «مانجان» لم يكن ذلك مركزاً مريحاً..

قال ادمون بصوتٍ منخفض: «عندما تركتَنا.. في النهاية تماماً... رأيتُه ذات يوم... على طريق موبيج، في المساء الذي احتُلَّتْ فيه «لون»... في عربته... كان يصرخ على رجال الهندسة الذين لم يكونوا يردمون الحفر بسرعة كافية... كانت له هذه الهيئة نفسها.... صلباً مثل وتدٍ... وقد ألقى رجالٌ غاضبون الحجارةَ على عربته... فلم يتحرّك...

هزّ اوريليان رأسه. المكانُ غيرُ ملائم لمثل هذه الذكريات. قال: مانجان... كانوا يكرهونه، لكنهم كانوا يقدّرونه، مانجان، في الحقيقة، هو نصرُنا، أكثر من أي واحد غيره...»

ضحك ادمون: «نصرنا! آه! ياصديقي المسكين!»

خرج الجنرالُ والشاعرةُ.

لم يكن اوريليان ينتظر أحداً. لم يبق من مسوّغ لوجوده هنا. لن تأتي. كم كان الناس شنيعين! تنوّعُهم ذاته. الجنونُ المشؤوم بهذه اللوحات، جلجل هذه

الرؤوس التي تدور في القاعة، المواضعةُ في هذه الأمسية البلهاء، العادات الاجتماعية التي هي دون عمق لهذه الدمى المتحركّة. «آه، هذا رائع!» هكذا صاحت بلهاء قصيرةٌ جعدةُ الشعر، تحاول أن تَجْذب انتباه «زامورا» الذي استغرقته الرغبةُ في إعجاب الأمير «ر...» جار اوريليان في جزيرة «سان لويس»، وهو بعينه الذي كانت ماري تخشى أن تلقاه على الدرج. كان الجاز في المقصف، لكن لم يكن التخلص ممكناً بيُسرٍ. وكان «جان فريديريك سيكر» القصير، الكبير البطن، الضخم العينين، يعزف أعماله على البيان.

شقّ اوريليان دربه نحو المخرج. حياه «ماركو بولو» عند الباب وكأنه من العائلة... كان قد صفّ سيارته في الشارع الصغير، وترك فيها معطفه. كان الجو بارداً، والثلج يتساقط ذائباً. تردّد في الشارع الذي يسلكه؛ أيصعد نحو جادّة «سان جرمان»، أم ينزل نحو الرصيف؟ رفع قبّته ويمّم شطرَ «السين»، لأنه رأى غير بعيد وميضَ حانة ماتزال مضيئة، ودخلها مسرعاً كالريح.

كان على الزجاج بخارٌ. وفي الإضاءة الباهتة، كان بعض الرواد يُنهون لعبة «بيلوت»، وزوجان في زاوية رأساهما متلاصقان. طلبَ الهاتف. دقّ الهاتفُ المطلوبُ طويلاً. لابدّ أن الناس نيام في شارع «رينوار». أراد أن يضع سمّاعة الهاتف. أهذه الساعة ساعة الاتصال الهاتفي؟ وظل يصغي الى الرنين. لن يأتي أحد، ومع ذلك انتظر. وأخيراً رُفعتْ السماعةُ في الجهة الأخرى. الصوت... غير صوت بيرينيس، وراودته الرغبةُ في وضع السمّاعة.

قال الصوت: «آلو، مَنْ؟ ماذا؟» كانت بلانشيت. قال: «بلانشيت؟». كانت قد استيقظت في هذه اللحظة بالذات. فأخطأت وقالت: «هذا أنت، ادمون!...» كان في هذا الصوت من الفرح ومن الأمل حتى إن اوريليان لم يكن له قلبٌ في متابعة الحديث... فوضع السمّاعة دون أن يعلم جيداً ماذا يفعل.

ظلّ هنا أمام الهاتف صامتاً، قائلاً في نفسه:

«فيم تفكّر الآن؟ بيرينيس، كانت نائمةً... حينئذ...»

دفع ثمن المكالمة، ومضى تحت المطر بحثاً عن سيارته.

- ٤٢ -

تسكّع في مونمارتر حتى لم يعد يقوى على الوقوف. كانت تطفو في ذاكرته أشباحٌ غير معقولة، مع جو «اللولي» الخانق، وحانة «الغارون» المضاءة بقوة حيث لقي سيمون مع أرجنتيني، وزنوجاً في مكتب التبغ عند ملتقى الطرق «بيغال فونتين»، ومع الفجر الشطيرة بالدجاج في دكان الحلوى وبها بناتٌ واقفات، وبائعة الورود التي كانت تنام على الطاولة، وفاتح بوابات القصر القوقازي الذي كان يسرق، سهواً، آخر البنفسجات الى سلته...

ومع ذلك، فعندما استيقظ مذعوراً، مع ذلك العرق البارد، والأغطية المدعوكة، والشعور بالقلق وبالقوة، لم تتجاوز الساعةُ الثامنةَ والنصف. وكان سيقسم، بسبب كل هذه الأحلام، أنه قد اجتاز ليلةً لانهاية لها. لم يكن يستطيع أن يتّصل هاتفياً بشارع «رينوار» قبل بضع ساعات. فتح الستائر، ونظر الى الفوضى، الى الأحذية الملقاة، والأشياء المنزلية المحمّلة بمعانٍ جديدة، قناع الجبس الذي لمسته بيرينيس، لوحة العم «بليز»، ومنفضة «عبد الله». واندفع الى رشّاشة الحمام. اوه، يالهذا المطر الساخن والبارد حسب المُراد، هذا الربيع في ستائر الكاوتشوك... يالهذه الراحة بعد النوم! لقد عثر أخيراً على مافي جسده من يسرٍ وشباب. ومدَّ هذه اللذةَ. وكان يعلم أن أسئلةً مُحنقةً ستُطرح في نهاية المطاف.

تحت الباب رسالةٌ دُسَّتْ. رسالةٌ من ارماندين. مجلّدٌ... ماذا تُريد منه، ياترى؟ لقد رأته منذ زمن غير بعيد. والرسالة تبدأ: «عزيزي ريليو...» وهو الاسم الذي كانت تدعوه به أمّه عندما كان صغيراً. ثمة شيءٌ مشبوهٌ في ذلك. وبعد ذلك ضروبٌ من الاعتبارات حول الهموم التي تساور ارماندين إزاء أخيها بعد حديثهما الأخير، وأنها لاتستطيع أن تصدّق، وأنه حرٌ إن كان في ذلك سعادته، فلا هي ولا زوجها... ومن يستطيع الافتخار بأنه يعرف أين الخير وأين الشر؟ لكن هل فكّر اوريليان جيّداً؟ امرأة متزوجة... كل ماقد يَسْتَتبعُه ذلك... هناك

طبعاً الطلاق... لكن المسؤولية الرهيبة... الخ.. وأخيراً بدت ارماندين داخلةً في لبّ الموضوع. «أأصارحكَ، ياأخيَّ، أننا جاك وأنا، نداعب منذ زمن طويلٍ حلماً، وهماً...»

هزّ اوريليان كتفيه. فهو يعرف جيداً هذه السمة في أسلوب أخته، في رسائلها، وهي أن تكدّس الأسماءَ لتقول شيئاً واحداً، عندما تكون متحرّجةً: «ألا ينبغي أن تفكّر في مستقبل الأولاد؟ أن تترك لهم فيما بعد موضعاً لهم، ملجأً عائلياً، يصون الروابطَ...»

قفز عدة أسطر. وكان يعلم كيف أننا نستطيع في نثر الأخت لأخيها أن نقفز براحةٍ من فوق فقرة لنعثر على ماتقصده: «الصعبُ، ياأُخيَّ...»

آه! اقتربَ قصدُها بما أنها استعادت تصغير التودّد ذاك. «هو أن نُخرج من العمل المالَ الضروريّ للحصول على ملكيّةٍ. يقول جاك مع ذلك إنه سيَعْزم على ذلك، حتى لو كان ذلك في الساعة الراهنة. ومع إعمار المناطق المخرَّبة، يجب على العكس، استخدام الرساميلَ، وتطوير المشروع، وتشغيل المعمل بكل طاقته...»

بالاختصار، لقد فكّر الزوجان «ديبريه» في إرث اوريليان في «سان جينيه» التي يقبض مزارعتها، دون أن يصنع بها شيئاً، ودون أن يذهب إليها البتّة. هناك جناحٌ يمكن إصلاحه وتوسيعه، ولاسيّما أنه تضرّر أثناء الحرب، وأنه إذا وجد من يسنده، فإن الإصلاحات... الحاصل أن الزوجينْ «ديبريه» كانا سيبنيان في «سان جينيه» لو كانت لهما. وماذا يضير اوريليان لو تخلى عنها لهما؟ سيدفع صهرُه المبلغ نفسه الذي يدفعه المزارع، وحتى -وسوف يرى- دون تعهّد، أليس كذلك؟ وأكثر قليلاً... ستكون له هذه المزيّة وهي ألا يفكّر في المُزارع، وفي سوء المواسم، وأخيراً في جميع احتمالاتِ الملكية الزراعية، وهكذا يحصل آل «ديبريه»، دون أن يدفعا رأس المال، على الأرض التي كانا سيشتريانها من مكان آخر، بطريقة أخرى... ماكانا يريان في هذه الطريقة سوى المزايا... ولاسيما أن اوريليان بلا مبالاته، ومستقبله الغامض، يمكنه -من يدري؟- أن يُجرَّ الى رَهْن «سان جينيه»، مرةً واثنتين وثلاثاً، واذا بها تغدو هذه التي انتقلت إليهما من أمهما، بين أيدٍ غريبة..

ثم تركت «ارماندين» هذا الموضوع وتحدثت عن أطفالها بإسهاب غير عادي. أرادت أن تُثير اهتمام الخال بأولاد أخته. بكلماتهم، بذكائهم، بقلبهم. في الحقيقة، كل شيء سيجري وكأن اوريليان قد نُحّي، ظلماً ربّما، عن العمل على يد الأب، وسيعود إليهم، دون أن يغيّر شيئاً من حياته، لأن جاك حاضرٌ هنا للعمل... سيصبح على الإجمال، أحد المساهمين... نوعاً ما... وستخرج العائلة من ذلك كله أكثر اتحّاداً...

رمى اوريليان الرسالة على السرير بإعياءٍ... وقد وصلت السيدة «دوفيني» قبل قليل، وسمعها تتحرّك في المطبخ. الفطور... نظر الى الساعة الجدارية، مايزال الوقت مبكّراً جداً للاتصال الهاتفي.

امتدت ثرثرة السيدة دوفيني على طول الصبيحة. ولم يشأ اوريليان على الخصوص، أن يَطرح على نفسه أسئلةً: لمَ لم تأتِ بيرينيس... لم لاتتّصل هاتفياً قبله... لا، لن يتساءل عن ذلك، بيد أنه كان يريد أن يترك لها هذه المبادرة، أن تتصل هاتفياً قبله، عشر مرات تراجع وهو ذاهبٌ الي الهاتف، حتى وهو يرفع السماعة. كان يعذّب نفسه، لكي لايُقال... وأقسم على نفسه أن ينتظر الساعة الثانية عشرة بالضبط. لم يشأ أن ينظر الى الساعة الجدارية. وحينئذٍ، أخذ يعدُّ حتى الألف، حتى الألفين لكي يحسب الزمن الذي يمرّ... وكان ذلك يمثّل الثواني، على سبيل الاصطلاح... وعند الثانية عشرة إلا الربع، لم يعد يستطيع المقاومة.

مشغول، مشغول، مشغول. الهاتف اختراعٌ شيطاني. هذا الجرس فظيع. مشغول... آه! هذه المرة أجاب.

في الطرف الآخر من الخطّ خادمٌ. صوتٌ متردّدٌ. طلب إليه أن يكرّر اسمه. السيدة موريل؟ لاأدري إن كانت السيدة موريل... لكن ليتك تنتظر لحظة، ياسيدي. فأحسّ إحساساً غريباً بالهلع، بالفوضى. كان في هذا الصوت فجوات. وأخيراً سمع صوتَ بيرينيس.

كم كانت تبدو غير واثقة من نفسها هي أيضاً؟ ماالذي كان يجري إذن؟

أجابت على نحوٍ متهرّبٍ، فاعتذرت بصدد الافتتاح، لم تستطع، لم تستطع على الإطلاق... أرادت أن تتصل هاتفياً هذا الصباح، لكنها ستشرح له. وهنا انصرفتْ عن الهاتف وخُيّل إليه أنه ميَّز صوتها وهي تتحدّث الى شخصٍ وأنها تقول شيئاً مثل: أما منْ خطرٍ، دكتور؟

- آلو، آلو... بيرينيس..

- نعم... ساكون معك على الفور... عليّ أن أقول كلمتين لشخصٍ..

صمتٌ، ثم صوت بيرينيس: «كان عليّ أن أقول كلمتين لذاك الشخص...

- يُخيّل إلي أني سمعتُ... ماذا جرى؟ ألستِ مريضة؟

- لا، اوه، لا... ليس الأمرُ خطيراً.. يَعْني أن...

- آلو! إني لاأسمعك جيداً... قلتِ: دكتور؟

- نعم، يَعْني... بلانشيت. فهمتَ.. لاأستطيع أن أشرح لك ذلك على الهاتف.

- ماذا، بلانشيت...

- سوف تنجو.. الدكتور قال لي ذلك قبل هنيهة...

- ياالهي، بيرينيس! بلانشيت؟ أتريدين أن آتي؟

- لا، لا، إياك!

- إذن، متى ستأتين؟

- لاأدري... هذا صعب... لاأستطيع تركها إلا بصعوبة... غداً...

- إذن، سآتي الى شارع «رينوار»... لاأستطيع البقاء..

- أرجوك، اوريليان، لاتأتِ.. حسناً، اتفقنا... سأفلتُ... لاينبغي لي... لكني أعدكَ... سأحاول... بعد ظهر اليوم...

- هذا مؤكّد، على الأقل؟

- نعم... في بيتك.. نحو الساعة الخامسة... معذرة... هم ينادونني...

في البدء، أجهد نفسه في محاولة تصوّر ماكان يجري. بلانشيت... ستنجو... تذكر هذا الصوتَ الباهتَ، على الهاتف، في جوف الليل... لكنه تحوّل

شيئاً فشيئاً، وحلّتْ صورةُ محل أخرى... بيرينيس... كم كانت باردةَ... جافيةَ، قبل قليل! ولم تأتِ عشيّة أمس... وعندما كان يفكّر بكل هذا الزمن الضائع، ولعله الوحيد في حياتهما لأنها، ألن تسافر؟ واذا ماتركها تُفلت هكذا، دون... دون... آه، ألا يكون قد ضيّع فرصتهما، ضيّع بيرينيس نهائياً؟ لاينبغي أن تمرّ الأمور هكذا.

نزل الى «المارينييه» ليتناول فطوره.

الزمن الذي يمتدّ من الظهر الى الساعة الخامسة طويلٌ مثل ليلة في القطار. ينبغي أن يشغله، أن يلهو عنه. استسلم اوريليان، عن وعي كامل، الى فكرة ثابتة: لن يدع بيرينيس تسافر هكذا.. يجب أن تكون له. لا على العموم، في هذا اليوم أو ذاك، بل اليوم بالذات. بعد قليل. عندما تأتي. في الساعة الخامسة. مضى حتى «سان ميشيل»، واشترى من عند بائع ورودٍ وروداً من ورد كانون الأول لكنه لم يَرضَ عنها عندما أُفردتْ في أُصيص من الصلصال الرملي المتموّج البقع الذي لم يكن يحبّه، فبدت هزيلة. وعاد الى بيته وأخذ يهيّئه لبيرينيس. كان يتعلّق بجزئيات سخيفة، ويغير مواضعَ الأشياء. ثم يقف بحذاء زجاج النُوافذ، وجبهته على الزجاج. كان يسعى الى التفكير في بيرينيس على نحوٍ آخر، بدقةٍ جديدة،بعمقْ الشهوة. عيناها... كان يتخيّلهما مفتوحتين، ويهمس: «لاتغمضي عينيك...»

بلغت الساعةُ الخامسةَ والربع عندما دقت الجرس. ماكان أشقَّ ربع الساعة ذاك! لم يشعل الأنوار إلا عند رنين الجرس، فوجد اوريليان كلَّ شيء غارقاً في الفوضى، ورأى نفسه في المرآة مشعّثاً، الى حد أنه تردّد في فتح الباب. وأخيراً حضرتْ. وهاهي ذي في طقم اليوم الأول الذي لم يحبّ قماشه، ولونه البيج، وقبّعة الفرو الأبدية... ومنذ أن صارت عند الباب، قالت:

- لن أطيل المكوث، وأنا خارجةٌ على التوّ.

- اوه، مالك!

- لاأستطيع بسبب «بلانشيت»...

نسي «بلانشيت». ماالقصةُ إذن؟ وجرّ الزائرة، فنزع عنها قبّعتها، وتهالكتْ فجلست على وسادة، بين قدمي اوريليان. حينذاك فقط رأى هيئتها المتعبة المنهمكة...

- ماذا جرى، بيرينيس؟

نظرت إليه كمن فقد عقله. صحيحٌ، إنه لايعلم...

- لم أكن أستطيع أن أخبرك بالهاتف... كان هناك الدكتور... ثم الخدم الدين كانوا يدخلون طوال الوقت..

الحاصل أن بلانشيت أرادت أن تنتحر. في الليل بالفيرونال. في بادىء الأمر، صباحاً، لم نفهم. لكن كان عليها قياس... فلما جاءت الخيّاطة... لإصلاحٍ طفيف... حينئذٍ حاولوا إيقاظها فشاهدوا الأنابيب الفارغة والكلمة التي تركتها.. قال الطبيب إنها قد أخذت كمّية زائدة عن الحدّ لحسن الحظ. الأمر، فى الغالب، هكذا مع «الفيرونال». ستمرض مرضاً شديداً، وهذا كلُّ شيء. الأمرُ الرهيب هو أنها يجب أن تظل مستيقظة، أن تُمنَع من النوم... وقد تقيّأت... لحسن الحظ... هتف اوريليان وكلّ ذلك بسبب «روز»! نعم... قال لي ذلك ادمون مساء أمس

هزّت بيرينيس رأسها روز! ياإلهي، لا... لكن كان ينبغي أن يظلّ «ادمون» على اعتقاده... لقد أقسمتُ لبلانشيت... وتستطيع أن تعتمد على كتمان اوريليان، أليس كذلك؟

لم يكن ذاك بسبب السيدةُ «ملروز»؟ وإذن؟ يَعْني... عندما تفكّر في الأولاد... بلانشيت الكثيرة التدين مع هذا!

الحقيقة أن مساحنة بلانشيت لزوجها بذريعةٍ هي أول ماخطرت ببال ادمون، لم يكن هدفها سوى إخفاء مبرّرات عدم ذهابها الى الافتتاح. وقبل عودة ادمون، كان بينها وبين بيرينيس استفسارٌ عنيف، ماتزال بيرينيس ترتعد منه، جيشان الغيرة...

- غَيْرى منكِ؟ بلانشيت...

أظهرت بيرينيس شيئاً من نفاذ الصبر. لم يكن اوربليان، يستطيع أن يتجاهل أن بلانشيت تحبّه، هو، اوريليان... وإذن فإن لقاءاتهما المتكرّرة..

ـ أنا؟ بلانشيت؟ لكن ذلك غير معقول!

تجاهلت بيرينيس مقاطعته لها. إن المشادة التي جرت بينها وبين ابنة عمها كانت رهيبة. لقد اعتبرت بلانشيت هذا الافتتاح كأنه افتتاح لصوره بيرينيس، كأنه انتصار بيرينيس، ولن تذهب إليه، مهما كلّف الأمر. وانفجرت باللوم الظالم، والأحاديث الطائشة، وبكتْ... كانت بيرينيس مُصمّمةً... لم تكن تتصور أن الأمور ستصل الى هذا الحد... أن تذهب مع ادمون الى تلك الأمسية دون بلانشيت، لكن ادمون حوّل نظر امرأته بحجة «روز ملروز» وحينئذ تغيّر كلُّ شيء. ولم يكن بوسع بيرينيس، احتشاماً منها، أن تصحب ادمون ومعه عشيقته، وأن تترك بلانشيت وحدها في المنزل. ولم يكن بوسعها أيضاً أن توضّح موقفها أمام ابن عمّها، دون أن تخون بلانشيت، أن تُفشي سرّها...

لكن هذه القصة سخيفة!

سخيفة أم لا، لقد بقيتا معاً وحدهما، ساعاتٍ، وقد بلغ جنونُ بلانشيت وألمها أبعاداً لاتُصدَّق، حتى أن بيرينيس أشفقت عليها. كان هدف بلانشيت التفريق بينها وبين اوريليان. تذلّلت، وتمزّقت، وهدّدت. لم يبق شيءٌ من الهجان لم تستسلم له في هذه الساعات. وجاءت لحظةُ ارتمت فيها على قدمي بيرينيس لتطلب إليها أن تهتم بالأولاد إن حدث لها شيء. ولم تحسّ بيرينيس التي لم تفهمها إلا بالاشمئزاز أمام ذلك، في مبتدأ الأمر. كانت تلوم نفسها على كلمات ربّما قالتها... لم تكن تتذكّر جيداً... حينئذٍ توسّلت «بلانشيت» الى بيرينيس أن تحافظ على سرّ حبها لاوريليان... ألاّ تجعل «ريمون» يستشفّ شيئاً، وأن تثبّت «ريمون» على غلطه إذ يعتقد أنها تغار من «روز»...

قالت بيرينيس.

ـ اوه، أعتقد أنها كانت تكذب عليّ بهذا الصدد!... وأنها لم تكن لامباليةً بذلك... لكن ائتلف فيها شيئان ائتلافاً غريباً يتعلّق بك وبأدمون... وقد اتّضح

ذلك فيما بعد، على كل حال... أخذت تنتظره فلم يعد... ثم جرت مكالمةٌ هاتفية في الليل تركتْ فيها أثراً رهيباً... ظنّت أنها من «ادمون» ثم بدا أنها خطأ، فوضعت السمّاعه... وحينئذٍ غدت محنونةً تماماً... لم أجرؤ على تركها... لم أعد حاقدةً عليها كانت بائسةً، ثم تمدّدت على سريرها، وظننتُها نائمة، فانسحبتُ. وإذا «الفيرونال»... في هذا الصباح!...

بدا «ادمون» منزعجاً جداً، لكنه كان غاضباً جداً. ما إن وثق، علم أنها لن تموت... لكن يجب أن أشرف عليها، أن أظلّ قربها، أن أحركّها... «لا، لا، لاأستطيع البقاء... ينبغي أن أعود الى قرب بلانشيت... اعذرْني، اوريليان...

لم يستطع استبقاءها. واتّخذ كلُّ شيء وجهةً محيّرةً، وألحّ عليها. «متى نلتقي؟»

- غداً... غداً... سأتّصل بك هاتفياً..

حاول أن يضمّها بين ذراعيه، فتملّصت. شعر يتغيّر فيها. كم كانت متباعدةً!

قالت أيضاً على عتبة الباب

- سأتّصل بك...



- ٤٣ -

كان مطعماً صغيراً قرب «الهال»، في شارع مزدحم، ضيّقٍ، بيوته مشوّهةٌ، وجدرانه مائلة. يصل الداخلُ عبر ركام الدراجات الثلاثية والعربات اليدوية، الى هذه الحدائد المدهونة مع أسفل البيت بريتٍ أحمر بنفسجي، حيث يتفتح البابُ بين منْصبتين عليهما سلّتا محار في خضرة الصنوبر، وكوّةٍ بيضوية هجرتها العذراء القديمة؛ وهناك نَقعُ على ممرّ ضيّق يبدأ بمشرب حوله بائعو «الهال» بلباس أزرق، يتناولون شراب الفاكهة المسكر؛ ويفضي الممرُّ الى الصالة في الأسفل، الملأى دائماً عند الظهر، المحميّة قليلاً من بائع الخمر بحاجز خشبي قابل للطيّ، مدهون، ممّا أخذ يظهر حديثاً في الصناعة.

لم تشأ روز أن تبقى فيه. كان هاهنا طائفةٌ من الصحفيين، الناس الذين نعرفهم على نحوٍ ما. إن امرأة مثلها ليست بمأمنٍ من الفضول، بينما ستكون أقل تعرضاً للنظر في الطابق الأول الذي يقود إليه سلّمٌ حلزوني له واقية من القطيفة الصدئة المكشكشة في الحديد المطرّق، وكان الطابقُ عبارةً عن ثلاث غرف صغيرة مستقلة، بعد المَغْسل وحجرة الشاب، مع قليل من الطاولات الفارغة نصفياً في الصباح. وكانت تشغل الصغرى جماعةٌ في مأدبةٍ صاخبة ومرآةٍ، وكان في الكبرى زوجان رزينان، وعجوزان في الطرف الآخر، وأيضاً رجلٌ أشبه بالسفّاح، وربما كان جزائرياً، مدلّهٍ بتفحص مفرط الأناقة حول كومةٍ من المحار. بعد أن ألقت «روز» نظرة خاطفةً تقديرية، اختارت الطاولة قرب النافذة التي لاأحد حولها. وجلس «بلير» قبالتها، وبه قلقُ طالب المعهد.

كم خفَقَ قلبه عندما دعتْه هذا الصباح بالهاتف! مضى أكثر من سنة لم تبدر منها مثلُ هذه البادرة. أرادت أن تتناول الغداء معه. وقد لفّق ذريعةً ليشرح «لمارت» خروجه المفاجئ. ياالهي، ماأعظم الشباب الذي يتبقّى في القلب العجوز!

«ماذا نختارُ إذن؟»

كانت روز تقرأ القائمة باهتمامٍ فائق. لم يكن المكانُ حانةً رديئة. كانت ترتدي طقماً رمادياً جميلاً وقبّعة غريبة. وقفّازاً يعلو الكمين ولم تبسطه إلا الى المعصمين. معجزةُ الشباب في هذا الوجه المعجون على نحو رائع بالمساحيق والأدهنة. وهذا العطر الذي يؤكد اتصال «روز» عبر السنين. وبالهيئتها النهمة! بالاهتمام الطفل بالطعام! كانت عيناها تتغضّنان في تردّد الاختيار...

«المقبّلات هنا لابأس بها... لكن هل رأيتِ المحار؟ أظن أنني لن أستطيع صبراً عن عصيدة اليحمور بالكستناء...»

انحنى صاحبُ المطعم انحناءةً عظيمة، وهو رجلٌ أسمر، متين البنية، له تجعيدة حمراء في القذال. إنه آسف لأن اليحمور قد نفد. وإذا سمحت السيّدةُ الآن فهو ينصح...

- «أشتهي لحمَ طريدة، ماذا أفعل؟ شهوة وحشية...»

- عندي تدرج لم يُسجّل في قائمة الطعام، إن كان ذلك يُسرّ سيدتي...

- فليكنْ إذن التدرج! لابأس بالتدرج.

قالت روز

- اسمع، سأجرّب بيتك هذا الصباح... فقبلَ التدرج، سأتناول شيئاً من الكبد الدسمة...

كانت الكبد رائعة، متوردّة. بجنبها ورقة خسّ، طرية جداً. نظر الرسامُ الى اليد النظيفة التي أمسكت بها. وكان هو يَقْرِشُ فجلةً. تنهّدت

- آه! يسرّني أن أكون هكذا معك... كما كنا في الزمن القديم... نبدو مثل زوجين قديمين...

نظر إليها. ألم تكن تلك التي لاتُنال، والتي تتحدّى الإنسانَ والرسّام معاً؟ «روز ملرور»، «روز» العظيمة. تذكّر ذلك اليوم الذي مثّلت فيه «فيدر» في «الاوديون». هذا الفهم العميق للهوى... للأهواء. امرأة. هل النساء الأخريات نساءُ مثلها؟ كانت السعادة، ذلك الشي الذي يمكن أن يملأنا دون أن نمتلكه. قال

ـ لاأدري، «ميلين»، لم أر أحداً يأكل بنَهَمٍ مثلك... في كل مرة، يصيبني التعجّب ذاتُه... وعندما أفكّر كيف تَقْضم الطعام أولئك المتصنّعات!

ضحكت ضحكاً شديداً، مع حركة من الذقن المرتفعة التي كشفت عن ذلك العنق البديع. قالت.

ـ إنهن يحرصْن على رشاقتهن، ماذا تريد، «بيبيه»؟ أما أنا فالشيء الغريب أن مايزيد في سني هو قلةُ الأكل...

سمّته باسمه المضحك، كما كانت تفعل قديماً، وهو في زعمها تصغير لـ«امبيريو». أمسك بيدها

ـ أنت، ستظلّين أبداً شابّةً ورائعة... كُلي جيداً، هيا... ماأعظم نعومة وجهك وأسالته، ميلي...

ـ أوه! بالتأكيد، وفي ذلك شيءٌ من التدليك والعناية... لكن ليس بالقدر الذي نتصوّر! ان النساء اللواتي يردن أن يحافظن على أنفسهن يتصوّرن... أنا أحبّ أن أدلك... لكن هذا يضايق أحياناً...

ـ من أجل هذا يُختار المدلّكون من بين العُمْي...

– ماذا تقول، أتعلم، أن الأعمى إذا لامس نهديّ فيمكنه أن يستغني عن العينين! وبعد التفكير، إن المضاجعة خيرٌ من جميع التدليكات... معظم النساء يَشخْن لأنهن لايضاجعن الرجال بما يكفي... كان يمكنه أن يُصغي إليها دون غَيْرةٍ. كان يحبّ عافيّة هذا الجسد، وتدفّق الدم القليل إلى الوجنتين. الدم الذي لايأتي من أعماق السحْنة. وانسلّت انسلالاً غير محسوس نحو هدفها، نحو ماحملها على دعوة «بليز» في هذا الصباح.

– نعم.. ولكي أتفادى القصص مع مُدلكيّ... لانك تفهم، ضحكْت مرتين أو ثلاثًا من هذه الوسيلة، ثم أصبح ذلك مُضجراً.. كان هناك مدلّك مُغرمٌ بي... ماذا كنتُ أقول؟ نعم.. حينئذ جئتُ بمدّلك لايحب النساء.. نعم، بل إنه يكرهنا، وذاك طريّف جداً.. «سيركاسيٌّ» جميل جداً.. إنه يدلكني بقدميه.. بوحشية.. وهو يعلو صدري.. ويسبّب لي ألماً عظيماً... ويصك أسنانه من الاحتقار.. إنه يدوسني بقدميه، إذا شئتَ الدّقة!

انفجرت ضاحكةً. وحُمل التدرجُ. فحوّلَ الحديث. كان بليز يمتاز باختيار الخمور... يجب أن ننصفه في هذا المجال.

-ماذا كنتُ أقول لكَ «بيبي» عندما جيءَ بالتدرج؟

ـ كنتِ تتحدثين عن ذلك المدلّك «السيركاسي»..

ـ نعم... السيركاسي، فهمتَ، قرّرت أن أستخْدمه.. لأن النساء الراقيات كلهُّن مثلي... العمْي.. نعم على العموم عُمْي الحرب في هذه الأيام.. وهذا ملائم لكنه ليس ظريفاً... بينما راقص الخناجر ذاك الذي يَقْبض على قذالكَ بأصابع قدميه! كان في لندن ولم يُعْرف في باريس... وسأعمل مفاجأةً معه...

ـ مفاجأة؟ أنت تتكلمين كلاماً غير مفهوم، ميلي!

ـ الحقّ أني لم أشرحْ لك شيئاً! لكنه لايعلم شيئاً! أين عقلي؟

ـ في التُدرج، أراهن.

ـ أنت ظريف! اصغ جيداً..

ـ فتحتُ أذني!

أخذت «روز» وهي متحمسة تشرح «لبيليز» تدبير مستحضرات «ملروز». كل شيء للجمال. مخترعات الدكتور وأيضاً جميع الأسرار الصغيرة. لقد خطر لها أن تكمّل المختبر بخدماتٍ بيتية، مع صبغ «روز ملروز» للأظافر، ومطرّي «روز ملروز» الصيني، وبالطبع مع ا لمدلّك السيركاسي. ولايُستَعمل في ذلك كله سوى مستحضرات ملروز... بل قد عُرِضْت مسألة بيتٍ للعطور.. نعم... العطور!

بالنسبة الى العطور، ماقولكَ بالتسمية التي أختَّرتها: «بستان السعادة؟ بسبب الورود، فهمتَ... ثم إننا فكرّنا، أي إن أدمون فكرّ، لأنك تفهم أن كل شيءً يتوقّف عليه، أننا نستطيع أن نضمّ إلينا مصلحةً للعطور الرخيصة، على الوزن، أنت تعلم كيف... وطبعاً ستتغيّر التسمية، فكرّت في «ماري روز»، لُنشرك «ماري دي بيرسيفال» التي تقبل أن ُتسهم بمالها في المشروع لكنها تسعى قليلا إلى أن تتشاغل، أن تهتم.. لقَد كررتْ، فهمتَ..

لم يصدّق «بليز» ماسمع. ماهذا الدورُ الجديد؟ «ميلي» الآن امرأة الأعمال! لم تنس سوى شيء واحد تقوله له. مَنْ «ادمون» هذا..

- آه! أنا مجنونة لكن تعرف جيداً صديقي الجديد، باربنتان سيّارات الأجرة.... ادمون باربنتان...

سمع بليز به. كان له صديقٌ شاب يعرفه استأنفت «روز» كلامها:

- الهمّ الوحيد امرأته... فهمتَ، لأن الثروة ثروتُها..... ثم إنها تغارُ... البارحة بالذات تظاهرت بالانتحار! لوحةً! كان الأمرُ سيكون حَرِجاً.. واضطرب «ادمون» المسكين... ممثلة، إذن! وليست رائعة! الفيرونال، فهمتَ لقد حدثت هذه اللعبةُ مرتين أو ثلاثاً!

استشاط ادمون بسبب هذه القصة فخفَّ الى منزل «روز» في اليوم نفسه ليقول لها أن تعجّل بالاستعدادات وبتكوين الشركة، وبالانشاءات... إذ لايُعلَمُ ما المكرُ الذي قد تمكره زوجتُه، بعد ذلك! وقد أقنع تقريباً أباها، عضو مجلس الشيوخ بأن يقبل رئاسة مجلس الإدارة، لأن ذلك يفسّر حينئذٍ اهتمام ادمون بهذه القضية. ولدٌ صالحٌ مثله! ثم هناك رباطُ جوقة الشرق «بيبيه». وليس هذا بسهل المنال!

سأل «بليز» بأقصى جديّةٍ بعد أن مصّت روز خوختين أو ثلاثاً

- ومادخْلي في ذلك كله؟

قال ذلك لأنه كان يعلم جيداً انها لم تستدعه إلا لغاية في نفسها، وأنها لايُعوزها مَنْ يدعوها للغداء، وأنها إن تكلمت عن كريمها وعطرها، بهذا الإطناب فمعنى ذاك أن ههنا السرّ كله. قالت روز:

- اسمعْ بيبي.. سأطلب منكَ تضحية ضخمة.. عِدْني...

- تعلمين جيداً..

- لاتقلْ لا... أما زلتَ تحبّني ؟ طالما قلتَ لي، إنك تفهم الحب على أنه تضحية..

- أرجوكِ «ميلي»..

نظرت إليه بإمعان. خاف أن تطلب منه ا لمستحيل، هذا كل شيء. ابتسمت وغضّتْ من أهدابها.

- اوه! ليس ما أطلبه تضحية ضخمة الى هذا الحدّ..

أود.. أود... أن تضع شيئاً من المال في مشروعي..

- تعلمين جيداً أنني لستُ غنياً...

- لم تفهم... يكفي ان تضع في مستحضرات «ملروز» شيئاً تافهاً ثلاث مرات... لتحصل على اسمك بالذات فيها... ثم عندما نؤسّس، في المرحلة الثانية «بستان السعادة» حينذاك تبدو مرة اخرى، اذ يصبح اسمُكَ مألوفاً، وتحمل كنزك ا لمدفون لزيادة رأس المال...

- لكن كيف تريدين؟

- أنت غبيٌّ، مالكَ! أنت تُعير اسمكَ فقط... يجب أن يستطيع ادمون... بأناس هو واثق منهم... وأنا أيضاً... فهمت؟ إذن بالنسبة لما لديك من وَفْرٍ طفيف في البداية، فهي تجارة رابحة! قلْ لي، أيمكنها أن تكون بين أيدٍ أجمل من هاتين؟

قبّلهما طويلاً. فداعبت شاربه. قال: «وزوجُكِ»؟

هزت كتفيها:

- إنه رجلٌ طيّب، كما تعلم، وهو يتألم... اطلب الحسابَ، يجب أن أذهب إلى منزل ماري مبكّرةً... أنا أقوم بزياراتي، فهمتَ... يجب أن يكون كلُّ شيء جاهزاً في رأس السنة. ولاسيما أني سأمثّل «جيوكوندا» في «جنيف»...آه! يجب أن تتعرف على «ادريان آرنو»! هذا موضع ثقة «ادمون»... فستكون علاقتك به عند اللزوم.. ساعْدني على ارتداء معطفي... كيف حال «مارت»؟ كدتُ ألا أسألك عنها... آه! ياصاحبي المسكين، الزواج شيء، والحبُّ شيءٌ آخر!

نهض «بليز» كان يفكرُ منذ لحظة بشيءٍ ما. وسأل من خلف روز بحيث لاترى وجهه:

- وادمون... هل تحبيّنه؟

لم تجب على الفور، ولبسْت قفازها. تم التفتت وقالت بصوتها ا لُمْنغ، صوتها في «فيدر».

- نعم... هذه المرة... أعتقد حقاً... هذه المرة..

التقط «بليز امبيريو» لثامه الذي كان ساقطاً على النثارة فوق أرض المطعم.

عندما أنزل «روز» في شارع «بيل فوي» نزل هو نفسه مشياً على« قدميه الى باب «دوفين». كان الجو رمادياً، مشبعاً، نسيمه لاسعٌ، لم يبال بليز بذلك. وتابع ببطء سيره في جادة «غوفيون سان سير» بحذاء السكة الحديدية المحيطية. استولت عليه «زوز». كان أكثر تعساً بقليل من ذي قبل، لكنه كان سعيداً في نفسه وفكرّ. يالي من هيكل متهافت!» كان يتسكع لكي لايركب «المترو» ويعود رأساً الى «مونمارتر». أحس بتثاقله بعد هذا الغداء. كان الهواء يُنعشه. تسكع حتى أخذ الظلام يخيّم. وقد أدركه في حديقة «مونسو» في هذا الإطار اليوناني الزائف الذي انتظر فيه «روز» قديماً خلال ساعات...

عندما دخل المنزل، كان مع «مارت» في الصالون الصغير امرأةٌ، نهضت المرأتان. كانت الثانية بيرينيس. مدهش:

- سيدّة موريل؟ ياللمناسبة السعيدة!

تقدمت نحوه برصانة:

- يجب أن أخبرك... أن ابنة عمي باربنتان أرادت أن تنتحر...

أحب أن يقول: أعرفُ. لكنه كفّ عن ذلك، وقال:

- ياالهي!... لكن... اجلسي...

جلسوا ثلاثتهم. كانت مارت تنظر إليه.

* * *

- ٤٤ -

- قلتُ إنه لاينبغي أن يُزعجني أحدٌ مهما يكن العذر... ما الأمر؟

تردد «سيمونو» عند الباب، وألقى نظرةً على «ادريان ارنو» الغارق في مقعد جلدّي بلون التبغ. ثم أدار رأسه الأصلع. ولحيته الجميلة المشذّبه كالاستقامة نفسها، فاعتذر من رئيسه.

- لكن هاهنا، ياسيدي، جماعة المطّاط، ينتظرون منذ زمن طويل... ارتد ادمون الى الخلف وضرب بباطن أصابعه المكتب.

- حسنًا، فلينتظروا! قلتُ لكَ إني مشغول!

التقط ادريان رَجْعَ نظرة سيمون الخارج وهو في طريقه، وهمهم برفق.

- أنت تثير حفيظته.. فهو لايحسب الحديث مع رجل من نوعي شغلاً... بجانب جماعة المطاط تلك.

هزّ ادمون كتفيه، ومحا بحركة مبهمة من يده سيمونو والكاوتشوك وماسوى ذلك. وقال:

- أخيراً، أتقبل، نعم أم لا، أن تؤدي لي هذه الخدمة؟

عبثَ «ادريان» بشاربه

- بالتأكيد... بالتأكيد... أنا مدينٌ لك بالكثير أولا... لكن المسألة ليست هنا..

- وأين... المسألة؟

- لا أدري إن كنتُ قادراً... إن كنتُ حقّاً الرجلَ... فأنا لم أدرس الحقوق، وكلُّ ذلك يثير مسائل جدّ شائكة... الهبات بين الأحياء... لا أدري... أنا أكرر كلمات قيلتْ، وعلقتْ مصادفةً...

- رجال القانون لم يُوجدَوا للكلاب. استشرْه..

- نزيد المطلّعين على الأمر شخصاً..

- هذا لا، ماعليكَ إلا أن تطرح الأسئلة بطريقة مجرّدة... على العموم... دون إعطاء إيضاحات... يمكن أن تفعل ذلك لنفسك مثلاً..

وماعلي إلا أن أكف عن الظهور....

ـ بديهي، بديهي...

رن جرسُ الهاتف. رفع السماعة.

ـ آلو... نعم.. هو ذاته.. آه! هذا أنتِ بيرينيس.. حسناً؟... كيف حالها؟

أحسن... كنت واثقاً من ذلك. قلتُ لكِ ان ماجرى لن يكون شيئاً ذا بال... طبعاً تعبّىء رأسها ثم... لطيفٌ منك أنك اتّصلت بالهاتف.. سيعود الدكتورُ غداً صباحاً؟ سأحاول أن أكون هناك... مفهوم... نعم... لا لن أتعشى في المنزل.. إذن هذا المساء... أو غداً صباحاً... نامي مبكّرة، فلا بد أنك تعبتِ... أو غداً صباحاً، نعم...

كان سيقطع ا لمخابرة، فساورته فكرةٌ: «آلو، آلو...» فات الأوان . لقد أغلقت الخط في الجانب الآخر. ودلت حركته على اللامبالاة.

سأله ادريان:

ـ هل تحسّنتْ زوجتُك؟ ماذا أصابها بالضبط؟

لم يجب ادمون فيْ الحال. ورأى عينيْ ادريان الصغيرتين السوداوين، المتقاربتين تحطّان عليه. لقد وثق به ثقة عظيمة حين أفضى إليه بأسرار مستحضرات «ملروز» وهذا كافٍ. فلا حاجة به إلى أن يبوح أيضاً بالعناصر البسيكولوجيّة للقضية. قال:

ـ أولا! لم يصبها شيءٌ له خطره. مشكلة من مشاكل النساء... بطنُها...

ـ وتابع بسرعة

ـ ماذا كنت تقول عن الهبات بين الأحياء؟

ـ قلت لك أن معارفي ناقصة... لكن الأشياء بلغت، على مايبدو لي، أن هناك من أخذ يدسّ أنفه في أعمالك..

ـ مَنْ؟ امرأتي؟

ـ امرأتك أوْ محاميها... يجب أن نحتاط... فمن السهل إثبات... من المعلوم مثلا أنني لا أملك مالاً... ذلك أن أبي أفلس...

ـ أولاً، في كل إفلاس اخفاءات.. وبما أن المبلغ المعنيٌّ ليس كبيراً فسوف

يجد الجميعُ طبيعياً جداً أن...

ـ طيّب، ربما صحّ ذلك بالنسبة إلي... لكنْ أبوك؟ أرى أنك كنت متهوراً بأن أدخلته..

ـ كلا، كلا، الأمر عكس ذلك، فبسببه اهتممتُ بالقضيّة...

ـ تقول هذا لي أنا... أقنع المتطفّلين بذلك..

ـ ماذا تطلب.. عضواً في مجلس الشيوخ.. حاصلاً على رباط جوقة الشرف....

ـ أعلمُ لكنه أبوك...

ـ مهلاً، المبلغ الذي قد أضعه في المشروع على رؤوس الأشهاد لايمكن أن يثير أية مسألة...

ـ لا، طبعاً..

ـ وعند الاقتضاء، أستطيع دون أن أعرقل المشروع، أن أردّ إلى زوجتي أسهمي الاسميّة... فما الفرق؟ حسنُ نيتي يبهر الأبصار.

ـ أدمون... هل فهمُك للأعمال التجارية سيدفعكَ؟ لكنك تعلم جيداً أن لا أحد يهتم بما سيكون على اسمك... الآخرون هم... لسنا نجد ثلاثة ملايين عند أيّ كان...

ـ إنسانٌ في وضعي...

ـ مهلاً، بما أنني أنا لا أنتَ، أنا «أرديان آرنو»، ما لم تكفلني عند مقدمي المال... وحينئذٍ

هز باربنتان كتفيه. بدا «آرنو» كمن يجد لذة خبيثة في إثارة المصاعب. سوف تستقيم الأمور جيداً. فالعملية سليمةٌ تماماً. هناك أولاً السيدة دي بيرسيفال التي لن يناقش أحدٌ في مساهمتها. وكان واثقاً منها كانت سعيدةً سعادة مفرطة بأن تكيد لبلانشيت، وبها هذا الميل القديم نحوه. ثم إن السيدة «ملروز» جاءت بعاشق قديم لها، شخص مريح للغاية، لايمكن أن يُشكَّ في أن له علاقة بادمون.

سأل «ادريان» ببطء: «ألك ثقةٌ في «روز»؟

كان ينتظر إيماءة الإنكار من صديق طفولته، كان يعرفه جيداً، وكان يعلم أنه سيلقى منه هذه الضحكة القصيرة الباهتة..

وأردف:

- لا أقول اليوم، لكن في ظرف عشر سنوات، خمس سنوات، عندما تملّها ببساطة..

- في ظرف عشر سنوات، ياصغيري، ستُصبح «روز» عجوزاً... وإذا لم أعدْ، حينئذٍ شاباً بالنسبة إلى بلانشيت، فعلى الأقل، بالنسبة إليها...

وانطلق في شروحات بسيكولوجيّة كانت تطمئنه هو نفسه. وبالاختصار إن كان سيطلّق ذات يوم فهو لاينوي أن يكون تحت رحمة كرم زوجته، قائلاً.

وفّرِ المال ثم انتظر مايحدث.

لم يجد ولاّعته، فمد إليه ادريان سيجارته.

- لاحظْ أن بلانشيت إذا أصرّت أن تعلم من أين تأتي الأموال، فيجب عليها أن تعلن عن الأشياء التي... لأن فحص ميزانية الشركة العقارية في النهاية! إذا لم نجد الحلَّ لإنشاء الفرع... فقد كان ينبغي ان تنقل الحصصُ حصةً بعد حصة.. ومن شأن ذلك أن يكون لبلانشيت، قبل غيرها، مصلحة...

إن مستحضرات ملروز والعطور وماسوى ذلك تنصهر على الإجمال، بالطريقة نفسها التي انصهرت بها شتى الفروع العقارية «النقليات البروفنسية»...

احتج ادريان:

- مع ذلك، فإن العطور لايمكن أن تعتبر فرعاً من الشركة العقارية! ولستُ أرى في قانون الجمعية مايؤهلها لهذا النوع من العمليات!

قاطعه صفير قصير:

- ستُحسن صنعاً لو أعدت قراءة القانون، ادريان سترى فيه جملةً

صغيرةٌ بارعةٌ جداً، ومبهمةٌ جداً، جملةٌ تصلح لكل شيء...

الحاصل أن أدريان كان يُخطِّيء ادمون لأنه وضع أباه على رأس المجلس، وأن يكون هو نفسه فيه: الأمر مكشوفاً وهلْ هناك أحدٌ من جانب الزوجة، لتثبت حسن نيّتك، لا؟ وإذن! كان هذا صحيحاً. أخذ أدمون يفكرّ. كان يُصغي الى محدّثه بشرود. كلُّ شيء يتوقّف على الظروف التي سينفصل فيها عن بلانشيت، لو قُدرّ لذلك أن يحدث. ليت ذلك يتم كلّياً بالتراضي.. آه عجباً! وهلْ يُصْنع شيءٌ بالتراضي إن كان الأمر يدور على الملايين؟ من البديهي أن بلانشيت ستعطيه دائماً مايعيشُ به، مايتعيّش به... لكنْ واحد وواحد اثنان... يجب ألا يَسْمح للطلاق بأن يتمّ ضدّه، مع بلانشيت جريحة في قلبها بصفتها أمّاً وزوجةً، لا! ومن الطبيعي إذا تكلّمنا قانونياً، أن يتحمل الأخطاء، دائماً... المسألة مسألة لباقة... لكنه يستطيع مثلاً ان يقبل بطلاق بلانشيت لها عشيقها... كلّ المزايا. وحينئذ لن تدقّق كثيراً في الأمور.

قال ادريان:

- لست أدري، هلا وضعتَ في المشروع رجلاً مثل «جاك شلزر» الذي يمتّ في الوقت نفسه، بصلة القرابة الى آل «كيسنيل» و...

- شلزر؟ شكراً. لكي يتدخّل فيما لايعْنيه!

وهنا فكرّ ادمون بعشيق امرأته فرقّ قلبهُ. طيّب، طيّب، وهذا؟ إن كان هذا سيُصبح مغامراً، صاحبَ مصلحة، خبيراً بالشؤون التجارية! فسوف نقع في ورطة. في الحقيقة إن رجلاً مثل «ليرتيلوا» قد لايصلح لذلك... غريبةٌ تلك الغيرُة التي يحسّها إزاءه

- قلْ لي، عندي فكرة... مارأيك لو كان عشيق امرأتي في المجلس؟ نظر إليه أدريان» بذهول.

- عشيق امرأتك؟ بمَ تهذر؟

ضحك الآخر ضحكته القصيرة الباهتة.

- العشيق... أي سيكون لها عشيق، في ذات يوم، آملُ ذلك! قصدت،

افرضْ أن شخصاً طيباً، غير مُحرجٍ، منتقى انتقاءً جيداً، قد دخل مجلس ادارة مستحضرات ملروز... وأن المصادفة تصنع العجائب... فمن الآن الى ـ لست أدري – خمس سنوات أو ست... هو وامرأتي... أترى منذ الآن... وأشاهد ذلك فلا أكثر اللغطَ لكني أنسحب... وأعطي بلانشيت حريتها... وستُصان مصالحُ أولادي طبعاً... أما أنا فلستُ أطلب شيئاً... وأتدبر أمري ممّا... أتفهم؟

ظل ادريان يعبث بشاربه. أصبح ذلك عنده عادة مستأصلة. فيمن فكّر ادمون؟ شخص طيّب؟ لم يكن هو المقصود بذلك... كان قادراً على ذلك، باربنتان، بعد قصة «كارلوتا»! أحس أدريان بحمرة الخجل، فكّر في بلانشيت. كان يعني ذلك التصرف به على نحوٍ فريد. كان ينبغي له أيضاً أن يوافق على ذلك. ثروة. هائلة. طبعاً لكن ذلك حينئذ.. سيغيّر الأشياء... قال ادمون:

ـ اصغِ...أيمكنك أن تكون هنا غداً صباحاً؟ نعم؟... لأني سأجمعك بشخصٍ...

وطلب رقماً في الهاتف. لم يجد أحداً، ولم يجبه أحد. أردف ادمون:

ـ اصغ... سأتصل به بعد قليل.. سأرسل إليه رسالة.. سأجمعك به غدا صباحاً.. وأنت تعرفه.. تغدّيت عندنا معه.. ليرتيلو! هذا فتى مستقيمٌ جداً... ثم ماذا؟ كنا في الجبهة معاً؟

لم يجب ادريان. تساءل إن كان قد خاب أملهُ بهذا الشكل أو ذاك. سيتدبر أمره.

عاد سيمونو الى الظهور عند الباب. كانت له مع رئيسه تلك الأساليب التي لم تكن محمولة من آخر غيره، والتي تعود الى ذلك الزمن الذي لم يكن فيه هاتف للاستئذان.قطب ادمون حاجبيه:

ـ وماذا أيضاً، سيمونو؟

ـ ياسيدي، جماعة المطّاط هؤلاء يستعجلون.. وهنا أيضاً السيد ليرتيلو الذي يسأل إذا..

ـ ليرتيلو! وصل في أوانه.

التفت باربنتان الى ادريان .

ـ أتريد أن تتنحّى جانباً، هذا هو بالذات الرجل الذي كنتُ أتحدث عنه، لاتنصرف، سأستدعيك...

ياسيدي، جماعة المطّاط هذه..

--اوه ايكفي، سيمونو! أدخل السيد ليرتيلوا وقل لهؤلاء السادة... لا، لاتقل لهم . انظر أنت نفسك إلى ما يريدونه... قد أؤخّرهم كثيراً، إذن ارجُهم.. الحاصل قُلْ أنت مايلزم!

– انحنى سيمونو مستنكراً

ـ انتقلْ الى المكتب الصغير، لن يطول ذلك... وهكذا فلن آخذ منك صبيحة الغد! خذْ، إذا شئت كتاباً لقضاء الوقت... هذا آخر ماصدر «بروست»..

تناول ادريان الكتاب الضخم، وكأنه يتناول دليلَ الهاتف. لم يبد عليه ان بروست يثير اعجابه. عند الحلاق يعطى الزبون «الحياة السياسية»..

ما ان خرج حتى أدخل سيمونو «اوريليان» وكان مشدود التقاطيع. عند مَنْ يفصّل ثيابه؟ كان يرتدي كعادته قماشاً جميلاً. وكان أجمل له لو وضع ربطات عنق أكثر بهجة. يجب أن أقول لبيرينيس.. ضحك ادمون في نفسه للفكرة التي مرّت بباله... أحسن أنه هو الكذّاب في اللعبة... القوة... بدأ ليريتلوا كلامه

ـ كنت أمرّ من هنا، فقلتُ في نفسي إني أستطيع ان اصعد... – لكن يالهذا الالهام السعيد! اجلسْ هناك.. لا، في المقعد.. أتريد سيجارة؟... لا أدري أين أمكنني أن أضع ولاعتي... أتصدقني أم لاتصدقني، لقد حاولت أن اتصل بك هاتفياً... ثم إذا بك تظهر... فكاننا في مسرح!

صالب اوريليان بين ساقيه الطويلتين، ثم فكّ تصالبهما، ثم صالبهما من الجهة الأخرى. وفكرّ في أن بارينتان يبدو حسن المزاج جداً لأن بلانشيت نجت من الموت. لا لأنه مغشوش بعواطف ادمون نحو امرأته، لكنه كان رجلاً حريصاً على اللياقة. قال

ـ أرجو ان تكون بلانشيت قد تحسنت. لم أستطع أن أتصل بالسيدة موريل على الهاتف، وبدا على الخدم أنهم لايريدون ان يقولوا شيئاً... أهي

بمأمن من الخطر؟

- أوه، لم يكن الأمر شيئاً ذا بال... ولم يكن ثمة خطرٌ حقيقيّ... أنت تعلم، النساء، بسهولة كبيرة... ببطونهن...

رأى الدهشة في عيني اوريليان، مع هذا الرجل لا حاجة الى التظاهر. استأنف.

- آه ؟ أطلعتْك بيرينيس؟ أنت تفهم النساء لايصطبرن على السرّ طويلاً..

- قالت لي السيدة موريل كلمة.... بسرعة شديدة... لم أكن أسألك إلا عن أخبارها...

ضحكة ادمون القصيرة في صورتها المتضايقة. اللهجة التي تصطنع الألفةَ والإسرارَ والعفوية: «الأمر معك مختلف... بعد كل ماقضيناه معاً!» حركة اليد التي تستذكر فجاءةً الجبهة والخنادق والقنابل والملاجىء، وأشياء أخرى! ساد صمتٌ لم يقطعه اوريليان. وتابع ادمون

- نعم الأمر كذلك،...، أحب أن يكون معي من أحدّثه.. رفيقٌ وفيّ لأفكر بصوتٍ عالٍ... بقصة ليست مسلّية، في نهاية المطاف! نحن نعيش كلٌ بجنب الآخر، ويرى كلٌّ منا الآخر كلَّ يوم، ولايعلم أحدنا عن الآخر شيئاً.. وذات مساء... تصوّرْ مايجري. كنت تقول في نفسك إنها سعيدة، ماذا ينقصها؟ امرأة ليست ميّالة للبوح، عظيمة الطاقة... ثم هاهي ذي... أمّ الأولاد! إن تفخيم الكلمات الأخيرة قطعته حركةٌ دائرية من اليد التي كانت تبحث عن المنفضة لتلقي فيها بعقب السيجارة. سحق ادمون سيجارته بعناية. ثم انقلب الى الوراء قليلا، محركاً يديه المتقابلتين: «وأنت تتساءل أمام ذلك ان كنت قد قمت، بعد كل شيء، بكل مايجب عليك ان تقوم به نحوها... ولاندري أين تقف «كل مايجب».. وحينئذٍ نعنّي أنفسنا بالهموم، ونحمل رأسنا بالمقلوب..»

فكرّ اوريليان في أن ادمون أحسن هيئة من انسانٍ يحمل رأسه بالمقلوب. لقد جاء الى هنا وهو يرجو أن يتكلم عن بيرينيس، لأنها لم تتصل هاتفياً منذ يومين، وردت مرة واحدة من خمس، بكلمات متهرّبة، ولم تكن حرّه

قط بحجة بلاشيت. وهو الذي قال في نفسه بأنانية العاشقين إن هذا الانتحار الفاشل سيَجْبر بيرينيس على البقاء زمناً أطول في باريس، على عدم الذهاب من أجل عيد الميلاد... ثم بالنسبة الى ماكان ينتفع به من ذلك! لقد فكر في أنه هيّأ ذريعة لزيارتها وأنه لم يكن يستخدمها ..

- أردت أيضاً أن أسألك.. لكنك اتصلت بي من أجل ماذا؟

- سأخبرك... قلْ لي أولا ما الذي تريد ان تسألني عنه.. ألك صديق أم لا..

- مجرد استعلام..

سحب اوريليان من جيبه رسالةً ومدّها الى ادمون. «خذْ، اقرأ هذا... من ارماندين... أنت تعرف أختي قليلاً، وتعرف ماعلاقتنا. لقد مرت عليّ منذ.. كم؟ ثمانية أيام. . ولا كلمة ممّا تكتب... ثم... احكم على ذلك بنفسك... بدا لي ذلك مدهشاً، دون أن أستطيع التحديد... لاحظْ، لستُ رجلَ أعمال، أنتَ تعرفني، لست خبيراً بذلك.. حينئذٍ فكرّتُ في أن أسألك... لأن لديّ إحساساً مبهماً... لكني ؟أتركك تقرأ...

تصفّح ادمون الرسالة وهو بادي الاهتمام. شيءٌ ظريف أن يُعَدَّ رجلَ أعمال! لكن لكل واحدٍ، في النهاية، اسطورته.. وينبغي ان يحاول عدم تكذيبها... كان ينظر الى اوريليان خلسةً. ماذا وجدت النساءُ فيه ياترى؟ هذه التقاطيع الكبيرة الغبيّة قليلا... لننظرْ الى هذه الرسالة... قصص الأسرة... الأمرُ يبدو واضحاً... مكّارةٌ لاتَخْفي مقاصدها، ارماندين هذه.. مع قيافتها المضحكة! وضحك.

سأله ليرتيلوا:

- ماقولكَ؟

- قولي... إن الرسالة تشبه أختك... هذه الأساليب الرسمية للدوران حولَ الموضوع.. لكنْ على العموم يُري صهرُك «ديبريه» الطيب يدسُّ أنفه.. أتعلم أني تعاقدتُ معه على الأنسجة المطّاطية.. اوه بصدد جماعة المطّاط الذين ينتظروني.. فلينتظروا.. إذا لم نستطع أن نتحدث مع أصدقائنا..

- إن كنتُ أزعجك..

- تزعجني؟ أنتَ مجنون. . دعني إنظر فقط في قصة الملكيّة.. أذا كان «ديبريه» يريد أن يشتريها منك، فمن المحتمل أن تكون ملكيةً..

توقف. هكذا إذن! لم يفكرّ في ذلك على الفور، لكن كل شيء يسيتمّ على أحسن حال. رائع!

- قل لي، أتريد أن تبيع هذه الملكية؟

- أنا؟ لا. ماحلمتُ بذلك..

- لكن... قد كان ذلك موضعاً للبحث بينكما..

كلاّ، لم يجرِ ذلك قط. تحددّت الأشياءُ منذ موت أمي. وأنا أتسلّم المزارعة. والمزارعون طيبون. ولاتعقيدات.

- أولم يَبْدُ لك ذلك مشبوهاً؟ لا أقصد أن أختك... لا! لكن «ديبريه» ليس غِراً... ألا تلاحظُ شيئاً؟

- قلت لك بدا لي بغموضٍ أن..

- بغموض؟ ماذا تقول؟ بغموض؟ لكنهما يريدان أن ينهباك، الأمرُ بسيط، أن ينهباك! ستتنازل لهما عن الأرض، وهما عمّ سيتنازلان لك؟ لاشيء. سيقدّمان لك المزارعة.. لا أكثر... وهما لايَعْرضان عليك حصةً في المعمل... لا، بل ريعاً، وهذا كل شيء... أما أنت فستعطيهما رأسمالكَ، فهمتَ، سيبنيان، وسيكون البناءُ ملكَ الأولاد، بينهما... ولن تستطيع بعدَ ذلك استرجاعه.. ولن يدفعا فلساً واحداً. وإذا متّ قبلهما فلا حاجة إلى دفع حقوق الإرث، الحيازةُ سندُ التمليك... وفي المعمل لن يكون لك سوى الأسهم التي إوصى بها أبوك وأمكَ... آه، من الأسر! من الأسر! هل رددت الجواب؟

- لا، أردت أن أعرف أولاً... أتظنّ أنهما يريدان أن يخدعاني؟

- أأظن! وما زلت تسأل!

لم تكن دهشةُ اوريليان قليلة. لكن دريعته تحققّت بوضوح، فأراد أن

يسأل إن كانت بيرينيس.. قال: «أشكرك، لم أكن واثقاً ثقةً كبيرة... لكن لنتكلّمْ عن شيءٍ آخر.. هل ستبقى السيدة موريل أياماً أخرى هنا أيضاً، مع مرض بلانشيت؟

لم يكن يلائم ادمون أن يتكلّم عن شيء آخر. فقال بسرعة: ستمددُ بيرينيس إقامتها في باريس ولاسيما أن زوجها وصل العاصمة منذ فترة قريبة. نعم زوجها... لكن هذه الأرض... ما اسمها؟ سان جينيه... ماثمنها؟

استصغر اوريليان شأن «سان جينيه» إزاء ما أخبره به «ادمون». «موريل» في باريس... صَمْتُ بيرينيس... هربُها...

ـ سألتك ماثمنُ «سان جينيه»؟

ـ الأمر يتعلق بما إذا كنا سنحسب حساباً للتقديرات الضريبيّة الرسمية، أو إذا كنا سنحسب قيمة الأرض وفقاً للمزارعة. ومن البديهي أن قيمتها اليوم تصل الى...

هللّ ادمون

ـ هذا رائع، ياصاحبي! رائع! طبعاً هناك جانبٌ من العملية، فيما تكتبه «ارماندين»، وهو جانبٌ جديرٌ بالاعتبار، لأن لك أسهماً في معملهما... وهو ماتقوله لكَ عن حاجات عملية «ديبريه» إن كان يلزمهما رساميلٍ إضافية.. إذ يمكن أن يكون ذلك دافعاً لك إلى مساعدتهما... لكن ليس عليهما، في النهاية، إلا أن يمتنعا عن شراء الملكية في الوقت نفسه! أو... بل لا! لا يجب أن نعقد صفقات مع نوينا، فسوف يغشانك دائماً... تنهّد كمَنْ يقول إني أعرف شيئاً من ذلك...

ـ اسمعْ... صحيح أنك قد تجد صعوبات فيّ هذا اليوم أو ذاك مع مزارعك... قد تصادف سنةً رديئة المحصول، أزمة زراعية... الفلاحين... كل مايهمك هو الريع، أليس كذلك؟ وآرماندين، و«ديبريه»، ما يبْغيانه هو هذه الملكية أو تلك؟ وألا يُنقصا من موارد عملها ليشتريا تلك الملكية.. طيّب... سأقترح عليكَ اقتراحاً. .

ـ كان اوريليان يُصغي بكثيرٍ من الشرود. كان مدهوشاً بهذا القدوم غير المنتظر للصيدلي إلى باريس. من البديهي أن بيرينيس لم تستطع أن تعود من أجل عيد الميلاد، ولذلك فإن زوجها...

– فهمتَ؟ أنا أضع في عملية «ديبريه»... لنقلْ ضعف ماتساويه «سان جينيه»... وحينئذٍ لن يستطيعا أن يقولا... أنت، تحكي لهما أنني قدمتُ لك ثمناً غير منتظر لن يدفعاه أبداً... والمبلغ الذي أعطيك إياه توظّفه في أحد أعمالي ليدّر عليك ريعاً يختلف عن المزارعة. فهمتَ، هذا هو مَربحي في هذه القضية... عمل من أعمالي، وماقولكَ؟ لن تستطيع أن تحصل على ضمان أفضل... قصدت عملاً أهتمّ به... آل «ديبريه» سيلزمون الصمت... وأنا كنتُ أبحث عن ملكية صغيرة بالضبط... سوف أصبح المتملّك لـ «سان جينيه»... سأدفع لك ثمناً عالياً، ماتريده... وتظل مالك رأسمالك... بتشغيله عندي... أدركت الفرقَ؟ أما أبناء أختك وصهرك وارماندين... فسوف يربحون بما أن معملهم بحاجة إلى المال..

لا، لم يفهم اوريليان جيداً لماذا يتحدث اوريليان عن ذلك كله بهذه الحماسة. إنها لفكرة غريبة أن يُعقّد الأشياء... أليس أرْبحَ لإدمون أن يوظف ماله الخاص في ذلك العمل بدلاً من أن يضعه عند آل «ديبريه»، أن يخرج منه ليعطيه اوريليان، الخ...؟

ـ أتنسى أنني بحاجة الى قطعة أرض..

ـ هذا صحيح. إلا أن...

ـ إلا أن ماذا؟ إن كان يسرّني أن أجبرك على أن تكون في بحبوحة؟ أنحن صديقان أم لا؟

ـ اسمع، لا أود، لا أطلب أن...

ـ اعلم ذلك، يا الهي! لكنك قبلت.. هذا يسليّني.. لاتتظاهر بالغباء، وافهمْ أن ذلك بالنسبة إليّ قضيّة تافهة... وسط قضايا أخرى كثيرة..

ـ أنا محتار... قلت لي إن السيد موريل في باريس؟

ـ نعم.... وصل «لوسيان»... على كل حال، كل ذلك مترابط...

ـ كيف ذلك؟

ـ القضية موضوع البحث! المقصود بها مستحضرات جمالية، عطور... الخ.. مستحضرات «ملروز»..

ـ آه فهمتُ!

ـ أنت لم تفهم شيئاً على الإطلاق. أنا أملك قبل كل شيء، الإحساس بالواقع. روز، طبعاً، روز، ليست سوى علامة، سوى إعلان. الجوهري أن العملية سليمةٌ، وعيني عليها، لا من أجل «روز» بمقدار ماهو من أجل أبي.

ـ أبوك؟

أنه على رأس مجلس الإدارة... وحينئذٍ أعرف تركيب ذلك كله، أرأيت... وأنا أتدبر أمريَ لكي ينتفع أصدقائي بهذا الترويج، بتلك الدعاية التي ستُقام.. أما لوسيان زوج بيرينيس، قريبي، فأنت تعلم أنه صيدلي، وتعلم مقدار قيمة الصيدلي... مع عنوان في الريف.. أثرتُ اهتمامه بالقضيّة... أي إني وضعتُه علىٰ صلةٍ.. أنا واثقٌ من أنهم سيتدبرون الأمر.. لستُ مستاء من أن أدبر شؤون بيرينيس المادّية... وأن تعيش عيشةً أفضل...

رأى اوريليان يَطْرف بعينه، فأعاد الكرّة

ـ لأنها لم تُخلق لهذه الحياة الرديئة، ابنةُ عمي الصغيرة... بيننا، هي تعجبكَ، بيرينيس.. طيّب، طيب، هذا شأنُك... ألا تجدُ أن من اللباقة أن ترتبط مصالحكما، أن تضع فلوسكَ في هذا العمل الذي يتيح لها أن تشتري فساتينها، وأن تأتي بين الحين والحين الى باريس؟

لم يوافقه اوريليان تماماً. فهذا النمط الأبوي، وهذه الطريقة الفجّة للاستعانة ببيرينيس... ومع ذلك فما الفائدة التي سيجنيها ادمون؟.... تاه فكرهُ في ذلك. ليس له الحقّ في صَرفه عن وضع المال في أعمال «ديبريه»... إذ يمكن لهذا أن يُعطي دفعاً. عبثاً يحاول جاك وارماندين أن يخدعاه... أما ماسوى

ذلك... على أية حال، إن ادمون كان رفيقاً قديماً... انه يراه ثانية يحاول إلا يلطّخ سترة القماش الانكليزي المضلّع في وحل «الشمبانيا».. وموريل الذي جاءنا على حين غرّة... أجاء حقاً من أجل مستحضرات ملروز؟

قال ادمون:

ـ بما أنك هنا، فسوف أصلك بالرجل الذي يهتمّ بمستحضرات ملروز... ثم تنظرُ فيما ستفعله.. أما أنا فليس هذا شغلي إذا شئنا الدقّة.. مايخصّني هو مشروع «ديبيريه» وملكيتك... أنت تعرفه على كل حال، هو ذلك الرجل الذي تناولت الغداء معه عندي... شابٌ مقدامٌ... كنا نلعب بالكرات معاً قبل الحرب في «سريان».. أشتهي أن أقدم له مساعدةً... كبس الجرسَ ظهر عند الباب الوجهُ العاطفي لضاربة الآلة الكاتبة الآنسة «سوزان».

ـ آه... آنسه ، هلاّ تفضلتِ وقلتِ لسيدْ «ارنو» إننيْ أنتظرهْ في مكتبي..

وعندما خرجت، قال:

ـ سترى، إنه رجل طيّب جداً، صريحٌ في أعماله... هو عقلُ تلك القضية... وهو مع روز طفلٌ مطيع.

قال ادريان ارنو:

ـ هل دعوتني؟

التفت اوريليان ونظر الى القادم الجديد. كان له شارب صغير غريب، وعينان صغيرتان لم تعجباه كثيراً، لكن إن كان ينبغي الحكمُ على ا لناس من خلال ذلك... فكيف يبدو «لوسيان موريل»؟ إن فكرة بيرينيس اخترقتْ قلبه.



— ٤٥ —

مرّتْ الأيام دون أن يُعرَفَ كيف. إن عيد الميلاد، هذا العيد البعيد كماهو الشأن في المدن.. هذا العيد الذي تسلّط على قلب اوريليان لافيما هو تقليدٌ مسيحي، بل فيما يهددّ من فراق يستتبعه، هذا العيد لن يكون الفجر، الفجر الممزّق ربما، الذي حلم به، الفجر الذي يكون فيه راصدو العصر الوسيط، المتواطئون، هم أنفسهم موضع سرّ العاشق الذي يرحل. لقد أقبل عيد الميلاد كغيره من الأيام.

رسالة صغيرة من بيرينيس: «أنت تعلم أنني لستُ وحدي...» رسالة آلمه مافيها من حذرٍ فظيع أكثر ممّا فيها من جفاف، وهي ترجوه ألا يتصل هاتفياً بشارع «رينوار». «... مداراة لابنة عمي أكثر منها لأيّ شيء آخر...» هذا الجزء من الجملة قد ساقه الى ذَرْف الدموع أكثر من أيّ شيء آخر في حياته. وأكدّت بيرينيس أنها ستتصل بالهاتف أو سترسل رسالة لتُعطي اوريليان موعداً قبل سفرها. يا للكرم!

كان يتعذب. ألم يكن كلُّ شيءٍ إذن سوى وهم؟ أو تمثيلية، تمثيلية قاسية؟ بيد أنها لم تثبّطه في شيء وقد حملت «لترسّخ حبّه لها، حملت هوى ونهماً لم يكونا يَشيان إذن بشيء سوى غرورها بأن تكون محبوبةً؟ مستحيل. لم يكن اوريليان يسلّم بهذه الازدواجية، بهذا النفاق. وبظاهرةٍ شبيهةٍ بظاهرة السراب الذي يحدث في أشد مناطق الصحراء صحراويةً، لم تكن بيرينيس مرئيةً قط كما كانت في هذا الغياب. كان يستيقظ ليلا فيحسبها داخلةً غرفته. وفي وضح النهار كان النور لايلمس سواها على وجوه الأثاث الكئيبة. كان يَحملُ في عينيه وميضاً صدفياً يحطّ على كل شيء. أكان ذلك الوميض من بيرينيس أم من عيد الميلاد، الذي ظنه من مدينة بعيدة؟ قيصرية.. ظللتُ زمناً طويلاً..

إن الزمن في بعض أيام حياتنا يكفّ أن يكون نسيجاً متّصلا، عن أن يكون نمط حياتنا اللاشعوري. فهو يأخذ في الظهور، في الشفافية فينا مثل

علامة مائية، ومثل طابع عميق، مثل هاجس مستحوذ بعد قليل. إنه يكفّ عن الهرب عندما يغدو محسوساً.

إن الذي يحاول أن يحوّل فكره عن الألم يجد الألم في ملازمة الزمن منفصلاً عن موضوعه الأوّلي، ويغدو الزمنُ هو المؤلم، الزمن ذاته. إنه يكفّ عن الجريان. ونحن لانفكّر حتى في أن نشغله، إذ يبدو كل شغل سخيفاً. إن اليأس ينتابك إزاء فكرة هذا الامتداد أمامك. لا الحياة التي يتعذر تصورها، بل الزمن المباشر، الساعتان اللتان ستأتيان مثلاً. هذا الألم أشبه بوجع سنّي صاعق لانظنه سينتهي، منه بأي شيء آخر. نحن هنا نتقلّب، ولاندري مانفعل، ولاكيف نتصرّف بالجسد، بالهذيان، بالذاكرة ا لعنيدة، التي نشعر عبثاً أننا فريسة لها جميعاً.

لم يكن بوسع اوريليان ان يطمئن الى التفسيرات البسيطة جداً، المبتذلة جداً ا لتي كان يقدّمها له شاهدٌ ساخر: «إنها لاتحبك... إن ممّا يثير غرورها، ويسرّها أن تكون محبوبةً... أن لها زوجاً وحياةً... فكيف تهجرها؟ بورجوازيةٌ صغيرة استجمت في العطلة والعطلةُ انتهت.. شريفةٌ مع هذا: إنها لم تخدع زوجها! لقد كان يُسكت ذلك الصوت المتشكك، هذا العقل الحزين حتى الموت. كان يخترع قصصاً مُضجرةً، وتفسيرات خيالية يعلم أنها كاذبة، وأنه يتابعها تزجيةً للوقت، الوقت الذي لايرحم. ثم لايلبث أن يوقفها وهو هائج هياجاً قد يدفع الى تكسير كلّ شيء. كان يتمشّى في غرف منزله الصغيرة، مثل دُبٍ في قفص. لأنه كفَّ عن الخروج. كان ينتظر ذلك الهاتف البعيد الاحتمال، لا. لم يكن ينتظره. لكن ماجدوى الخروج وأين يذهب، ولم يخدع نفسه بنشاط جديرٍ بالسخرية؟ ينبغي ألا يرى أحداً. ينبغي ألا يرى أحداً، على وجه الخصوص. وقد استكثر مجيء السيدة «دوفيني» فقال لها: «لا تأتي غداً». نظرت إليه، مأخوذة. وفي صباح اليوم التالي، لم يطاوعه قلبهُ في أن يقول لها... وحينئذٍ ظلت تأتي كلَّ صباح كان ذلك عقاباً يعاقب به نفسه، هذه الحركة المستمرة، هذه الضوضاء ا لمتّصلة من الكلمات، وما أعظم انفراجه عندما تنصرف!

كان يجب تحمّلها مع ذلك. فإذا ماجاءت بيرينيس على غفلةٍ، وإذا كان البابُ مفتوحاً... لابدّ أن يكون كلُّ شيء نظيفاً، مهيّأ، لها. وهي لاتأتي. أكان واثقاً من أنه بحاجة الى السيدة دوفيني؟ كان يُنظفّ، طوال النهار، وعلى نحو مَرَضيّ الغرفتين والمطبخ والحّمام، وعندما يشرع في ذلك، عندما يبدأ المرءُ في النظر بعينيْ المتفرّغْ فإن كل سنتمترٍ مربع من الأرض والجدران والأثاث والقماش بحاجة الى تنظيفٍ دقيق آخذ في الضيق مثل مجال الانتباه، وهو يولي هذا العمل العناية والانتباه اللذين نوليهما جسمنا في بعض الأيام. ويمكنه ان يفرك الى مالانهاية، وأن يُلمِّع ويمسح الى مالانهاية الأرض الخشبية، ومنجور البيت، بالمراهم المنزلية. وقد يلامسُ ذلك الجنون. إذ لا يمكنه أن يؤمن بالنظافة، وهو يعلم بحّدة أن كلُّ نظافةٍ نسبيّةٌ، وهو يَقْسم الى مالانهاية مجالَ هذه العناية التمريضية، وينتابه اليأسُ فجأة، حين يُلاحظ أنه، في هوى التلميع هذا، لم يتصدَّ إلا لجزء طفيف من الغرض المشكوك فيه، من السجادة المنظفة بالفرشاة مثل حيوان مريضٍ، وأن قد بقي ميدانٌ لا يُسْتنفَدُ من الاتسّاخ، أو من غياب النظافة، وذلك أسوأ. لأنه ينتهي بتفضيل الوسخ الذي لاجدال فيه على النظافة النسبية، هذا الوسخ الذي يُعطي بيُسرٍ إحساساً بالانتصار عليه، حين يستخدم خرقةً مبلولةً أو محكا أو.

بيد أن اوريليان، في صباح عيد ا لميلاد، اختطف نفسه فجأة من شقتّه، ومن هوس النظافة ، فخرج دون ان ينتظر السيدة «دوفيني» وتفادى ثرثرتها، لأنه كان يعلم أن هذا الصباح مقدّسٌ عند العائلات، وأن هذه الزوجة الممتازة ، السيدة موريل، ستظلّ بالتاكيد مع زوجها السيد موريل، ولن تتركه متراً واحداً، ولن تتّصل به، هو اوريليان. فلم يحلق ذقنه وارتدى قميصاً وسخاً برضاً ساخطٍ.

كان الجو مكفهراً، لكنه كان جافاً. وكانت الريح شماليةً باردة! فارتعش مثل رجل لم يترك منذ ثلاثة أيام جوّ التدفئة المركزية الدافيء. أحس بالبرد يصعد من عقبيه الى ركبتيه. ضم معطفه عليه، ورفع قبتّهُ وأدخل يديه في جيبيه،

وسار مع ضفة السين نحو منحدره، ناظراً الى تخشيبيات بائعي الكتب وكأنها نعوشٌ. وعلى الرصيف، رنّت حذواتُ جواد أبيض بسخرية في اهتزاز عربة توريع زرقاء ذات حزوزٍ سوداء كتُب عليها «ربيع» وكأنه تحدٍ. وكانت السيارات الصغيرة تمرّ مسرعةً. وبدت المدينة فارغةً مُنفّضة ومع ذلك كان عند رأس «المدينة»، على الجسر وعلى الحافات جمهورٌ أسود، مُنحنٍ ينظر الى النهر في «جلَبَةٍ». ماذا جرى؟.

دنا، ، وعَلِقَ في ذلك الزحام، في ذلك التدافع، وحُمِل الى الدرابزين: كان الناسُ في الأسفل يركضون ويضطربون، وكان هناك رجالٌ عُراةٌ، بعضُهم بقبعة من المطاط على الرأس، وأجسادٌ تتعرّض على نحوٍ غريب لهذا البرد، مع جمهورٍ من رُعاة صحّة الرياضيين، ومن الأصدقاء، وفي الأعلى المفترجّون، والنساءُ والمجانين... وفجأة غطَست هذه الكائنات البيضاء في النهر مثل أسماك ضخمة شاحبة، ومثل عجول البحر المتقعة، وصرخ الجمهور، واضطرب، وبدا مَنْ على الجسر كأنهم يلاحقونهم نحو الضفة اليمنى. كان اوريليان يرى هؤلاء السبّاحين يبتعدون ويتبارون في السرعة بينهم وبين البرد أكثر مما هو فيما بينهم. لعلهم كانوا مئة، وكانوا كأنهم علموا من قبل ماكانوا يفعلونه. كان على الجسر السينما الدائرة. وعلى الضفة المتجلّدة المقابلة، كان ينتظرهم المصورون الفوتوغرافيون. وكان النهر يغمرهم بالجليد الأخضر المزرق، وكانت هذه الأجسام الرياضيّة المنطلقة تبدو تحت رعشة ا لمياه مثل أشلاء في ملحمة، واتّضح جهدُ الأوائل من خلال انبهار أنفاس المتخلفين، وغدت واضحةً روحُ المباراة في النهر، قبل أن يُدرك معنى هذه المباراة. واصطفّ السباحون ،السباقون في المقدّمة، بعض المتابعين الذين اندفع بينهم اثنان أو ثلاثة هم موضع الآمال ثم جمهور المتوسطين، وأخيراً المقصرّون الذين اندفعوا مع الآخرين واغترّوا بأنفسهم اغتراراً غير عادي، دون معرفة بحقيقة قدراتهم، ولم يُصبهم البردُ فحسب وإنما أصابهم الخجل أيضاً.

أسف اوريليان لحظة لأنه لم يكن في الجهة المقابلة، نهاية السباق. لم

يكن يرى من موضعه بوضوح أفضل السبّاحين وأكثرهم إثارة للاهتمام، ولم يكن بوسعه أن يقارن بين أنواع السباحة وأساليبها . تذكّر اوريليان فجأة «ريكيه» ذلك الشاب الذي لقيه في مسبح «اوبركامف». ربما كان بين هؤلاء يرضي ميله الى القوة أكثر ممّا يجرّب حظّه، غير شاعر بالخيبة لأنه لم يكن بين «الأبطال» كما كان يسميّهم، مؤدّياً دوره المغمور في تاريخ الرياضة. كان ذلك بالنسبة الى معظم الناس الذي يجرّبون هنا كأس عيد الميلاد. كما هو الأمرُ في القرى إذ يتسلق الناسُ في العيد صاري الحلوى،[1] حتى الذين يعلمون أنهم عاجزون عن الوصول الى أعلى الصاري، وعندما يُرون عند تغيير البرنامج في «الجريدة المصوّرة» فلن يُعدموا مَنْ يرتعش ويقول:

«هؤلاء شجعان حقاً!

حيّا الهتافُ وصول الفائز الأول، وأخذ اسمُه ينتشر بين جموع الناس التي كانت تخبّ نحو الضفة اليمنى. وكانت ثمّة ضوضاء من المعلّقين. وكان السبّاحون الأقل حظاً مايزالون يُجهدون أنفسهم في «السين» دون أن يهتّم بهم معظمُ الجمهور. تردّد اوريليان فيما ينبغي ان يفعله، ثم انقلب راجعاً ومضى في الشوارع الضيقة التي تكوّن على الضفة اليسرى شبكةً مليئةً بذكريات القرون حيث مايزال يتسكّع شعب من القرون الوسطى من الصنّاع والبنات. انتاب اوريليان شعورٌ بأنه يهرب من الزمن الحاضر إذ يهرب من السين وسبّاحيه، من هذه الحياة، التي يلسعها البرد في وجهها، من المشاهدين المتلّهفين، والرياضيّين المتحمّسين. كان يفكرّ في «ريكيه» كان يسعى الى تذكر هيئة هذا الشاب المتين البنية، وسوقيّته، وطاقته الحيوانية. لم يكن يَفْصل تفكيره عن ريكيه، لسبب ما غامض. وكما أن «ارماندين» برصانتها المضحكة قالت: «السيد ريكيه» هذا مُحقٌّ..» هز كتفيه. جميع أمثال «ريكيه» محقّون ضده، طبعاً. كان يفكرّ في قوّته الشخصية المهدورة، التي لم تُستخدم في الطاقة التي كان يبذلها، هو، لتلميع شقّته كما يُلمّع الحذاءُ. هزّ كتفيه، ونظر الى اسم هذا الزقاق الحزين الذي أمعن

---

(١) صارٍ يُعلق في أعلاه حلوى لاتُنال إلا بتسلق الصاري المترجم .

فيه، متذبذباً بين شوارع عمودية على متوازيات الأرصفة، ورأى على الصفيحة ان اسمه. شارع «كريستين». كم كان وحيداً! لم يعد يفكرّ في بيرينيس. لم يعد يفكرّ في بيرينيس وعاد بتفكيره الى «ريكيه». الى السيد «ريكيه» الرامز. مع صديقته، وعمله في المعمل، وميله الى انفاق جهده، وفَرْط طاقته. فيمَ يَقْضي آحاده ؟ ماشكل الغرفة التي يسكنها؟ لم يكن اوريليان يهتم بريكيه بقدر ما كان يهتمّ بما يَفْصله عنه. كان يمكن ان يكون واحداً مثله. كان يمكن أن يكون مثله قبل قليل في تلك المياه ا لمتجلّدة ساعياً بكل عنف عضلاته، وبكل ذكاء جسده الى أن يُسجّل لنفسه وحدها انجازاً لاسبيل الى فهمه. ماهو؟ أهو الشعور بالواجب؟ أهو الحاجة الى أن يُبرّر مسلكه؟ أهي الرغبةُ في الكرامة؟ هو بالتأكيد شيءٌ يَنقُص اوريليان في هذه الدقيقة نقصاً كريهاً.

بلغ حديقة اللوكمسبرغ لينسى «ريكيه»، وليترك الصبيحة تهرب. نظر الى الأولاد الشاحبين يلعبون بين أقدام ا لمربيّاتٰ والأمهات، وتَجوّل بحذاء الحوض الذي أفرغ من مياهه، وتفرّس في الخرائب الحجرية، وعاد ببطءٍ الى منزله، عبر جادة «سان ميشيل» المقفرة من الطلاب، والمقاهي بزجاجها ا لمضرّب كالدوارق. كان يحرّك أصابيع رجليه في حذائه. كانت السيّدة «دوفيني» ماتزال هنا·

- عدت، ياسيدي؟ آه! يالالأسف... قبل خمس دقائق جاءت السيدة... وبدا عليها أنها تأسف كثيراً... وتركتْ سفطاً... وقالت إنها ستتّصل هاتفياً...

بيرينيس، بيرينيس جاءت الى بيته!

إن الحركات تّسْبق الأفكار أحياناً. فاجأ اوريليان يده مرفوعة على عجل الى وجنتيه، لتجسّ بظهرها الشعر غير المحلوق» حتى أن أول شيء تصوّر في ذهنه كان: «ماكان ينبغي لي أن أخرج هكذا». وقبل أن يقول «ماكان ينبغي ان أخرج» اختلطت لحيتُه بأفكاره المشوّشة، بأسفه، وبآماله المبعثة. وماقيمة ذلك مادامت بيرينيس لم تجده في بيته؟ بلى، بلى، إنه لأمرٌ سيءٌ ألاّ يحلق ذقنه، أي ألاّ ينتظرها، أن ييأس منها، أن يخطىء معها بسبب مخاوفه الحمقاء. لن يترك يوماً بعد الآن يمرّ دون أن يحلق ذقنه، بسببها، سيحلق ذقنه من أجلها، احتراماً

لها. لقد جاءت! ودخل الحمّام، وعلق الجلد، وأخذ يسنّ موسى الحلاقة.

صاحت به السيدة «دوفيني» من بعيد:

ـ ألا تنظر ياسيدي، في السفط؟

صحيحٌ، السفطُ! نسيه وهو مضطرب... سفط بيرينيس! أرخى ا لجلد، ووضع الموس المفتوحة على الرفّ الزجاجي، ووثب نحو الغرفة. وكانت السيدة «دوفيني» تهمّ بالذهاب،لكن فضولها استوقفها، فوضعت السفط بمكان بارز، وكان سفطاً مكعّباً، كبيراً مثل علبة البسكوت، بل أكبر، ملفوفاً بكرتون مموّج، مربوط بخيط أسود. ليس عليه كتابة، لاشيء... لولا كلمتان، مضافتان في آخر لحظة بقلمها ذي الحلقات المذهبة الذي رآه في حقيبة يدها. لأوريليان، بهذا الخط الكبير المتردد، والطفولي قليلاً، مع زخرفات طريفة عند الأحرف ذات الشكل الكبير.التي تعلّم أن يعرفها من تلك الرسالة الخبيثة التي لم تعد تفارقه.

رأى نظرة السيدة «دوفيني» وتوّقف. قال: صحيحٌ أنني نسيته...» وأخذ السفط وحمله الى غرفته. سألت السيدة «دوفيني» وهي خائبة الأمل بعد لهجته الصارخة: «ألم تعد بحاجة اليّ ياسيدي؟ أما من شيء خاص لصباح الغد؟

ـ لا، لا، لم أعد بحاجة إليك، وما من شيء خاص،... الى اللقاء سيدة «دوفيني».

احرق السفطُ يديه. وامتنع عن فتحه حتى يسمع اصطفاق باب المطبخ. لاشك ان السيدة «دوفيني» قد استشاطت غضباً! آه، ثم دَعْكَ! فك الخيط، ثم نزع الغلاف! المثبت بصحف مدعوكة، وفتح العلبة أخيراً، في غمرة هذه الاحتياطات، وكانت تحمل كلمة: هشّ، وأخرج كتلةً مغلّفةً بالورق الحريري، وكانت شيئاً قاسياً... آه، لقد حزر. تعرّفت يداه تلك المساحة: إن «بيرينيس» أرسلت إليه «مجهولة السين» هديّةً لعيد الميلاد. كانت هذه الهدية العلبة ولاشيء غير ذلك. نزع أوراق قالب الوجه، وهو موزّع النفس بين التحنّن البسيط جداً والخيبة، وما الذي كان ينتظره إذن؟ لقد قالت بيرينيس... إنها تغار مع ذلك من هذا الوجه الذي لايُعرف اسمُ صاحبه. وهاهي ذي تحمله اليه.

لم يفهم من أول نظرة. أمسك بالقناع مثل شيء معروف، دون ان يُجلسه، على نحو ما، ثم انه شعر شعوراً غريباً بأن «المجهولة» تحرّكت، أي إنه شعر بمثل الصورة الخاطفة المتحركة من تلك المجهولة. كان هذا هو القالب الذي يعرفه جيداً ولم يكن إياه نفسه. وشعر شعوراً غامضاً بما يعنيه ذلك. قلّب القناع الذي أمسكه بكلتا يديه، ونظر إليه بإمعان.

لا، لم تكن هذه هي المجهولة. لقد سَعَوْا، سعوا سعياً ظاهراً الى التذكير بزينة رأسها، بتفصيل القناع، لكن القسمات كانت مختلفةً، لاسيمّا الفم... بيرينيس، كانت بيرينيس! لم يكن ليشك في ذلك ، مع أن هذه الصورة الجنائزية، هذه الصورة الجبسيّة بدت له مثل «بيرينيس» التي مرّت عبر أسرار التحولّ. انها تشبه بيرينيس شبهاً كبيراً وتختلف عنها اختلافاً كبيراً. رأى الآن كم هي مختلفةٌ عن المجهولة، ولماذا لم يلحظ اولا القرابة بين هذين الوجهين، ولماذا كان لابدّ أن يُريه إياها الآخرون ؟ حينذاك كان يعرف المجهولة معرفةً مفرطة، ولم يكن يعرف بيرينيس معرفة كافية. أما الآخرون فلم يكن لديهم من الوجهين سوى إحساس عابر كافٍ لأن ينخدعوا، إحساسٍ مفرط السطحية لكي يحول بينهم وبين مشاهدة الفروق العميقة مثل هُوى القلب. لايمكن لاوريليان أن يُخدَع.

كان قلبه يخفق. تذكر ذلك المشهد الذي سقط فيه قناعُ المجهولة على الأرض، وتحطمّ. رأى ثانيةً الجبس على السجّادة. وأحسّ بهشاشة هذا الشيء بين يديه. خاف أن يُفلته من يديه في غمرة الانفعال الذي جعله يرتجف. ووضع على السرير وجه بيرينيس، فترك فيه ذلك انطباعاً غريباً. لقد وضعه كما اتّفق له تقريباً، فعاد وأخذه وحمله برفقٍ كالمجرم، الى الوسادة الى الموضع الذي تنتفخ فيه الوسادة على الحرير الداكن. ونظر طويلاً الى بيرينيس، وهو واقف صامتٌ بلا حراك.

بيرينيس المغمضة العينين.

لقد أسلمتْ نفسها الى هذا التمثيل المأساوي من أجله. ذهبتْ الى

صانع القوالب وتمدّدت وهي مغمضة العينين.. وتحملت الجبس على عينيها، على الفم، على المنخرين، عند مطلع الشعر، في الأذنين... الجبس في كل موضع مثل شحوب الموت. وتحت الجبس الرطب الذي كان يَطْبع قالب تقاطيعها، ظلّتْ تتنفّس، بأنفاس مكبوته، وكانت تفكرّ فيه، وتقبل من أجله هذا الإحساس الكريه الذي لابد ان يسبّبه هذا العمل المأتمي... إنها عهدْت الى هذه المرآة الجوفاء الباردة بذلك الشكل الغالي منها هي بيرينيس، بهذه الرسالة، بذلك الاعتراف الى الجبس الذي كان يجفّف شفتيها. وشكلّت شفتاها، لدى ملامسة الجبس، الاعتراف الذي لم تعبرّ عنه القبلة التي لم تمنحها بشفتيها الحيّتين، قالب تلك القبلة. كان اوريليان ينظر باضطرابٍ الى مطّة الشفتين المتوجّعة وفيهما مئة شقٍ صغيرٍ ناعم، الى هذا النموذج المجسم لورقة تويجية الزهرة، الى ذلك التعبير عن اليأس، عن الشفتين اللتين تصرخان بالشهوة التي أهينت، بالظمأ الذي لم يرتَو. اوه كم هي أجمل من «المجهولة»، وأرهب، ومجهولة على نحو أرهب، بيرينيس الحيّة والميتة، الغائبة والحاضرة، الحقيقية في النهاية!

مدّ اوريليان يده بخشيةٍ خرافيّة وتوقف، ثم لمس القناعَ لمساً خفيفاً، خفيفاً، بأنامله.. وجاءَته الكلمات، الكلمات الرقيقة التي تتفلّتُ من أسنانه المنفتحة قليلاً، من لسانه المتحرك كالشبح، كلمات سمعها قبل أن يفكرّ فيها، أنفاسٌ... في ميدان الكلمات، ربما كان الكلام هكذا. ولانجد ذلك في أي مَيدان آخر. كلمات تشبه تلك الموادّ التي تجنيها الريحُ من حبّ الأشجار، ذلك البذار الذي تحمله الى آلاف الكيلومترات نحو أشجار لم تُلقّح. لم يعد اوريليان يعرف نفسه، كان قلبه يَجبُ وجيبا يكاد يقطّعه. كان فريسةً لدُوارٍ لم يُعانه قط. وداعبتْ يدهُ كلُّها جمودَ القناع، فسحبها فجأةً، وهو مرعوبٌ، ونظر على أصابعه الى آثار الجبس البيضاء.كانت تحرّكه عواطف متناقضة. وخاف من أن يفكرّ في أي شيء محدّد وأن يَستْخلص هذا الشيء أو ذاك من هذا الإهداء وتلك الصورة. لكن يقيناً كالمدّ أخذ يتعاظم مع ذلك فيه، ويجتاحه وكأنه يأتي من بطنه ليصل الى جذعه، والى مفصل الذراعين، وليمتدّ الى أعضائه، وليصعد الى حنجرته.

وكان جديراً بأن يحملَه على الصراخ، إذ اختنق به، فاحمرّ بعنف، وبقي اليقيُن يقيناً فحسب، وامّحت التناقضات، وانثنت ركبتاه على حافة السرير. وفيما هو ينحني على بيرينيس، قرأ في عينيها الميتتين أن بيرينيس تحبُّه.

-٤٦-

لم يعد اوريليان يجرؤ على ا لخروج من بيته، لم يستطع أن يغفر لنفسه أنه فوّت على نفسه رؤية بيرينيس، زيارتها. كان ينتظر بيرينيس. كان ينظر إلى الهاتف، إلى الباب، كان مثل كلب الصيد. كانت حياته كلّها في الحقيقة معلّقة. كانت استراحة غير عادية للفكر، للانفعال ذاته، للألم. كان ينتظر، ولا عمل له سوى الانتظار، ولم يكن كثيراً عليه أن ينتظر من ذاته كلها.

لم يتناول غداءً ولا عشاءً ولم يَبْدُ له الزمنُ طويلاً. وأحسّ اوريليان بنفسه أن مزقاً من الجمل تخترقه، وأن لديه بدايات أفكار، لاشيء يتخّذ شكلا، لاشيء يكتمل. بدا له أنه يحبس أنفاسه مثل سبّاح يتدبر طريقه الطويل تحت الماء. بدا له أنْ لا شيء في العالم يُوجَد خارجَ هذا اليقين. بيرينيس تحبّه. وشعر من جراء ذلك بخدرٍ غريب، لا بالفرح الذي ظنّه، وكأنه بهذا اليقين، قد توصل الى امتلاك العالم، الى الاكتشاف الأخير الذي لايوجد وراءه سوى العدم. لابد أن الاسكندر قد فكر كذلك عندما سقى حصانه من المحيط الهندي، لأنه كان يجهل أن وراء هذا الماء الأسطوري أراضي اخرى. ان تكون بيرينيس قد أحبّته، مع علمه بذلك وعدم شكه فيه، لم يكن يفتح باب الأحلام، لم يكن يُلزم اوريليان البتّه في أن يتصوّر تتمّة هذه المغامرة. حبُّه لبيرينيس لم يكن مغامرةً بل حالةً. ومنذ أن حصل اوريليان على هذا اليقين ابتعد أكثر من أي وقتٍ مضى عن تصور تطورات الحب المتبادل. لم يعدْ يتصوّر بيرينيس بين ذراعيه، ولم يعد يتصوّر المعركة من أجل بيرينيس، حب بيرينيس بالمعنى المليء والمحدود الذي يعطيه الجميع، وأولهم اوريليان، كلمةَ حب.

جاع حوالي الساعة العاشرة مساء. فكرّ: جوعُ شابٍ. وكان يستمدّ من

مَغْص معدته الشعور بالبطالة المعترضة، بهذا اليوم الطويل المستَنْفد في لاشيء.
وفي الوقت نفسه الذي كانت تنشأ فيه الخيبة من أن بيرينيس لم تعدْ تتصل هاتفياً، كان يقول في نفسه إن الأمل في ذلك غيرُ معقول. ألم تتخلّص بصعوبة، هذا الصباح. لتأتي إليه؟ مجيئُها غيرُ واردٍ حتى صباح اليوم التالي، حتى تُتاح لها الفرصةُ... لم يكن واثقاً جداً من أنهُ يلفّق لنفسه الذرائع حتى يخرج ويأكل لقمةً. كان جائعاً حقّاً، تأخر الوقتُ بالنسبةٍ الى المطاعم... ويمكنه أن يحصل على شطيرةٍ.. وفكرّ في الليل وارتعش. نظر الى الخارج: كان المطر ينهمر.

عندما دخل هذا المقهى المضاء بشدّة قرب «الشاتليه»، كانت قبّعتُه تتصبّب ماءً، وكان مشمّعه يبدو أسود. هنا يستطيع أن يجد حساء ببريشة، ومقانق، وقد دخَّن طوال النهار مثل مدفأة. بدت له الجعةُ السمراء رائعةً، منسجمة انسجاماً غريباً مع جوّ أفكاره.

أين يمكن ان تكون بيرينيس؟ وماذا كانت تفعل مع هذا الزوج الذي هبطَ من السماء؟ لم يكن هذا الزوجُ كائناً حيّاً، بالنسبة الى اوريليان، لكنه كان ضرباً من شبح، تجسيداً للحتمية التي تفرّق بين المحبّين. وتساءل بكثير من الجدّ إن كان يغار أو إن أمكن أن يغار من الزوج؟ لا، لم يكن يغار منه. لم يكن يتألم وهو يعلم أنها معه، ولم يكن يتصور خصوصيتهما الحميمة. وفي هذه اللحظة على الأقل، ارتعش حين خطر له أن ذلك يمكن ان يتغيرّ. كان مصمّماً بعزمٍ ألا يغدو تعساً. بيرينيس تحبّه، بيرينيس تحبه. عاد متباطئاً ومعه قطعة من جبن وثمرة. توقف المطرُ عن الهطل، وقلّ البردُ. انصرف ماشياً الى «الهال» حيث بدأت التجارة، ودلف الى الجادّات المزدحمة بالدكاكين الصغيرة لرأس السنة، بمصابيح الآسيتيلين،، ونظر الى الألعاب الميكانيكية في علب سردين، ومثبتات الجوارب معقّدة تعقيداً مذهلاً، وتوقف في «دار الحاكي» في زاوية شارع الايطاليين، الخالي تقريباً في هذه الساعة، حيث استمع، كما كان يفعل قديماً مع رفاقه في المدرسة، الى «شاليابين» في موت «بوريس»، والى «سحر الجمعة الحزينة» التي يقودها «نيكيش»، وبغير قصدٍ الى «الآنسة ا لمختارة» و «المتمرّن

الساحر» و« سوق سوروشنسك» و«الديك الذهبي» ، وتريستان...

اشترى فيشاً وشغّل ثلاث مرات متواليات الأسطوانة نفسها. ما من موسيقا في العالم يمكن ان تلائمه أكثر من «تريستان»، مطلع الفصل الثالث...

لم يمكن بوسعه ان يتملص من جاذبية «مونمارتر». كان الوقتُ مبكرًا بالنسبة الى حانة «لولي»، فذهب ليجلس في مقاهي ساحة «بلانش». وهناك اصطدم بـ «فوشز»، الذي أطلق صيحاته، وجاء فجلس على طاولته، وثبّته ساعة. والله أعلم عم كان يتكلّم! لم يُعره اوريليان انتباهاً. بدا له دائماً ان هذا الرجل القصير الماكر يحمل أطناناً من الأسرار التي يُريد أن يَعْهد بها إليك، أسرار تحرّك عالماً مجهولا، باريس كاملة من الناشرين، من متسلمي الرهان في سباق الخيل، من النساء الصغيرات، من الرسامين، من موظفي ا لمستعمرات. وكل ذلك مختلط بقضايا صحيفته «الكوخ» التي تظلّ مُذهلة كشأنها دائماً. ألم يكن له حقاً ما يفعله ، فوشز هذا، بحيث أنه يتشبّث بك هكذا في كل مرة يلقاك فيها تخلّص منه اوريليان في نحوَ الساعة الثانية عشرة والنصف.

استيقظ في اليوم التالي، في الساعة الثامنة، مع أنه نام عند الفجر وعاد الى الانتظار الذي لم يكد يقطعه النومُ. ان حرصه على أن يكون نظيفاً، نقياً لاغبار عليه، وحاجته الى الصقل، لم تَصْرفاه طويلاً عن حُمَيَّاه. لم يكن كعشية أمس متخدّراً: استولت عليه العصبيّة وألقت به من غرفة الى اخرى. كان يتناول الكتابَ فلا يقرؤه، ويبدأ بكتابة رسالة الى ارماندين، وبعد ثلاثة أسطر يمزّقها. أراد أن يكفّ عن التدخين، فقد أسرف فيه عشية أمس، ولم يجد أسنانه كما يريدها أن تكون.. ومع ذلك دخّن، دون أن يُنهي سيجارته، تاركاً أعقابَ السجائر على أطراف الأثاث. وزادت السيدة «دوفيني» في فقدانه صبره، بحضورها أولاً وبثرثرتها. كان ثمّة جريمةٌ في جريدة الصباح. ألم تقرأ ياسيّدي؟ لا، لم تقرأ. كل ماكان يريده أن يجد مايأكله في بيته، لا الكثير من الأشياء التي تتطلب مهارة، بل تلك التي لاتحتاج الى صخبٍ مزعج. أشياء

جاهزة... لا الكبد الدسمة... لا أريدها دائماً! كانت السيدة «دوفيني» تتملكها الرغبة في أن تصنع له طعامه. آه أما هذا فلا! طيّب، طيّب، كما تريد، ياسيدي. وأخيراً انصرفت. ما انصرفت إلا لتعود بالمؤن. علب من الجامبون وخبزٌ فكأنه يريد ان يعبر المحيط على قارب. حتى لقد حملت معها علبة بسكوت. فَقَدَ اوريليان صبره. تستطيع الآن أن تنصرف. فانصرفتْ. أصبح الانتظار غيرَ محمول. ظلتْ المؤن مكدّسةً على طاولة المطبخ. ولم يمسسْها. تعطلتْ شهيّتهُ. هذه *اللحوم الباردة في الصباح الباكر*... دُقّ الجرس، فأسرع. كان موزّعَ المطبوعات ومعه تقويمٌ، وابتسامة آخر العام. جاء قبل الآن لكنه لم يجد أحداً. وبعد الموزع جاء بوّابُ العمارة. على الدرج تهريبُ ماء. ألم يسمع السيد ليرتيلوا ذلك الصوت الخفيف؟ أردتُ أن أعرف إن كان ذلك من عند السيد ليرتيلوا. لا لم يأت ذلك من عند السيد ليرتيلوا.

في النهاية، ابتلع اوريليان شريحة «جامبون» وقطعة خبز. ثم أحسّ بأنه وسخٌ جداً، فغسل أسنانه ويده، دون ان يطرد تلك الفكرة السخيفة، وخلع ثيابه، ووقف تحت رشّاش الحمام. فكرّ فيما قد تقوله «ارماندين». «بعد الغداء، هكذا!» مع ذلك *الخوف من سوء الهضم الذي كان وراثياً في عالمهم*. لم يضحك. وغضب. وفكرّ بانفراج في أنه عندما يُصفّي «سان جينيه» فسوف. يقطع كلَّ مايربطه حقاً بذويه. نعم. أفضلُ ألف مرة أن يوظّف ماله لدى «ادمون» من أن يضعه في تلك العملية العائلية! انتهى، انتهى!

لم يعدْ ينتظر «بيرينيس». كانت كلُّ دقيقة تمرّ تجعل مجيئها او اتصالها هاتفياً أقّل احتمالاً، كان ينظر اليها، كان ينظر الى القناع، الى الوجه الميت، وجه الحب. كان بوسعه ان ينظر الى القناع دون ان يملّ النظر، وأن يرى النور يتراقص عليه. وفتح ستائر النوافذ الى أقصى مداها. لكي ينساب كلُّ النور الممكن على الجبس. لم يعد ينتظر بيرينيس،. قال في نفسه إنه لم يعد ينتظرها. أوشك أن يبكي. كان يسمع الآن حركة الجيئة والذهاب في الممرّ.. كان

المرصِّص الذي كان يُصلح الأنبوب المثقوب. لو وصلت بيرينيس فجأة، لضاع وقعُ خطاها وسط هذه الأصوات المتنوعة. المِلْحام الذي صَدِم، حقيبة الأدوات مرميّة أرضاً، خطوة العامل... لن تأتي: وإذن! سعل أحدُهم وراء الباب. ثم خيمٌ صمتٌ طويلٌ، أخذ النور يتناقص. وتموّجت سماءُ باريس البيضاء بالسواد. وهَيْمنَ الجبسُ المعلّق في الجدار على هذا الانتظار غير المجدي. خُيِّل الى اوريليان أنه ينتظر منذ قرون. لابد انه طاعنٌ في السنّ. أخذ يُغيرّ مواضع الأشياء فكبٌّ المنفضة برمادها، وأعقاب سجائرها، وعيدان الكبريت المسودّة. كان يلمّ كل هذه الأوساخ ويفكرّ في أنه ينبغي أن يفرك السجّادة بالفرشاة، عندما دقّ جرسُ الباب.

لا، مستحيل. لم تكن هي. وأخفى هذه الأوساخ جهد الإمكان، ونظر الى يديه. كان يبنغي ان يغسلهما. دقّةٌ أخرى على الجرس. كان صبرُها ينفد. تجاوز الحدّ. بما أنها ليست هي... فتح الباب، ودخل «بليزا مبيريو».



-٤٧-

«النساء اللواتي نضاجعهن لسْنَ بذي خطر. الصعوبةُ في اللواتي لانضاجعهن...»

بعد هذا القول المأثور الذي طلع به الرسّامُ. عاد الصمتُ فخيّم بثقله.

كان الرجلان هنا بجانب النار، في العتمة الهابطة، منحنيين، وعيونهما في بريق اللهب. كانا يتكلّمان منذ حوالي الساعة. وبدا لهما أن السنة المنتهية تزيد من الإرهاق الذي كانا كلاهما ضحيّة له، حاول «بليز» أولاً أن يتعجرف، أن يراوغ، أن يزعم أنه صعد هكذا،مصادفةً، دون أن يكون لديه مايقوله، بسبب الفراغ. ولم يكن اوريليان الذي أحسّ بشيءٍ خلف هذه الزيارة يتوقعها: لأنه لم يكن يتصوّر أن بيرينيس تلقى الرسام. بمعزل عنه. لماذا، كيف؟ وهكذا فانه قد جاء مع ذلك. من قبلها. لقد رآها أولاً وثانياً، في هذه الأيام نفسها التي كان يتعذر لقاؤها فيها بسب «بلانشيت» .... أو التي كانت تزعم فيها أن ذلك بسب بلانشيت. أرادت أن ترى« «بليز» وأعطته موعداً. وتحدّثت إليه طويلاً. وقالت له هو «بليز» ما أخفتْه عن اوريليان. وعادت الى منزله. واتخذته نجيّاً تبوح له بأسرارها. «بليز»، العم بليز. في حين كان اوريليان يعاني اليأس والملل...

- اسمع، ياصغيري... لا أحب أن تحمل ذلك على محمل السوء... ومن العجب أنْ ليس من عادتي التدخّل في شؤون الآخرين! وهل فعلتُ ذلك قط لكَ؟... لا، إذن. هي التي أرادت. لم أكن أعلم أن ثمّة أموراً خطيرة. لا من جانبها ولا من جانبكَ. وعندما رأيت الى أين يؤدي ذلك، قلتُ لها، أنا أنسحب... آه، نعم!

لم يكن يدري من إين يبدأ حكايته، وشعر بالمرارة. فأخذ يعضّض شاربه. ومن شروحاته المرتبكة، كانت النتيجة أن بيرينيس لا... لا، بل إن بيرينيس قد كلّفت العمَّ أن يقول لاوريليان أنها لاتحبّه.

- ما أقل صبركَ! ليس الأمر هكذا على الأطلاق.. هل يبنغي أن أكرّر عليك... إذا لم نعتبر كيف جاء ذلك فإننا نكوّن فكرةً خاطئةً..

ماجدوي تغليف الأشياء؟

ـ لطيفٌ منك، ياعمّ، أن تزيّن لي الأشياء المرّة... ان تجعل الصدمة أقلّ قسوة علي... لكن، ما الفائدة؟ لقد أصغيتُ إليكَ جيداً.. لم تقل لي شيئاً آخر... والتفاصيل لاتغيرّ شيئاً من الأمر...

ـ كلّ هذا! كل هذا! أولاً أنا لا أصدّقها عندما تقول إنها لا تحبك..

ـ قالت ذلك. ألا يكفي ذلك؟

ـ أنت مخبول، يابنيّ، أنت مخبول... قالت ذلك، علام يدلّ ذلك؟ قالت ذلك لأكرّره عليك، لأنها لاتستطيع أن تَعْزم على قوله بنفسها.. لو كانت لاتحبك فماذا يمنعها من أن تقول لك ذلك؟

ـ أنت لاتصدّق ذلك؟ وتأتي لتقوله لي؟

ـ ياصغيري، ياصغيري... لا تصطنع هذه السحنة! أنت ستحقد علي! «مارت» قالت لي..

ـ آه ! العمة قالت لك!

ـ لا تغضبْ! كنتُ مسموماً، فهمتَ... ليست هذه المهمات ممّا يجوز عمله، لكنها حلّفتني، بيرينيس... وفوق هذا، كنتُ أقول في نفسي إنني إذا لم أطلعْك، مع وجود الزوج في باريس فقد ترتكب بعض الحماقات...

ـ علامَ حلّفتكَ؟

ـ تعلم جيداً... قلتهُ لكَ... أيسرُّك أن تتعذّب بسماعه؟

ـ انها لا تحبنّي، أليس كذلك؟ أهذا ماحلّفتك على قوله؟ وماسوى ذلك فهو هراء، وليس لك أن تحلف عليه... لكنك لاتصدّقها مع ذلك... لاتصدّقها، عم بليز! وجئت لتقول لي الأمرين معاً. وأنا أيضاً لا أصدقها. لا. إنها تحبّني. أقول لك إنها تحبّني. أأنا مجنونٌ أم أنها تحبّني؟

نهض، ومشى قليلاً، تناول حطبةً وألقاها في النار، وعاد الى الجلوس، وكأنه أمام عَرْضٍ، ليرى اللهب يلتهم هذه الفريسة الجديدة. امتدّ الصمتُ قليلاً، ثم قال «بليز»:

- اصغ... أتريدُ أن أقول لك... ما الأثر الذي تركه ذلك فيَّ أنا... حسناً...

عضّض شاربه. فحثّه اوريليان:

- وماهو؟

- هاهو.. المرة الاولى التي تلاقينا فيها.. في المقهى.. كانت تقاوم... كانت تبحث عن دفاع... كانت خائفة من ذاتها... كانت تتصوّر حيلةً تريد أن تستخدمني فيها.. فهمتَ؟

- لم أفهم جيّداً...

- بلى.. تابعني جيّداً.. كانت على يقين عظيم من أنها تحبّك حتى إنها وجدت من اللازم أن تقول لأحدهم إنها لاتحبّك... لا لكَ... لأنها خافت أن تُسيء إليك...

- خافت! وأرسلَتك!

- لم ترسلني في تلك المرة... وجدتْ من اللازم أن تحدّث أحدهم... غيرك... وفي مكان إقامتها، ابنة عمها... مستحيل! حينئذ... في المرة الثانية فقط بعد انتحار السيدة باربنتان...

- لكنها قالت لك في المرة الأولى إنها لاتحبني.

- بديهي... بديهي... لكن كيف أقول لك؟ لم أصدّقْ ماقالته...

- بينما أنت الآن تصدّقه؟

- كلا، كلا! قتلتُ نفسي وأنا أقول لكَ إنني لا أصدّقه!

تشوّش، فلم يساعده اوريليان. كان رأسه مشتعلاً وقدماه باردتين. كان ينبش شعره بأصابعه، ويقضم أظافره.

وشيئاً فشيئاً، برزت بوضوح صورةُ اللقاءين في المرة الأولى في المقهى، كانت بيرينيس تتكلم برزانة، بالرغم من الخوف الذي ألمّ بها، والذي كان الخوف الطبيعي لجميع النساء أمام الحبّ الحقيقي. قالت حقاً إنها لاتحب اوريليان، ولا تعتقد أنها تحبّه. لكن كلّ شيء في موقفها كان يُكذّب ذلك. ولولا ذلك، فمن أيّ شيء تخاف؟ الشيءُ الجوهري أنها كانت تخشى الاستسلام، أن تعجز عن

الإفلات من هذا القدر، وأن شيئاً فيها كان ينادي، شيئاً لم تكن مسيطرةً عليه. لا لأنها كوّنت فكرةً هذيانيّةً عن هِبتها لنفسها. لو كان مافيها نحو اوريليان مجردَ ميْل، أو نزوعاً جسدياً، فلعلّها.. ولمَ لا؟ لكن الأمر كان أكثر خطورةً. هذا ماكان. وكان ينبغي إيقاف تطوّر هذا الحب. لم تكن تستطيع، في آنٍ واحدٍ أن تَعْقد العَزْم على إيذاء اوريليان، ولا أن تَعْقد العزم على امتحان النار التي أخذت تحسّ بلَذْعها. وفي الوقت نفسه كانت ثملةً بحبّه لها. كان ذلك دفئاً لاتستطيع التخلّي عنه. كانت مَتمسّكةً بهذا الحب. كانت تؤمن به. كانت تؤمن به على نحوٍ يائسٍ. وكانت ترتعب من أن حبَّ اوريليان يمكن أن يموت. لفَقْد مايتغذى به مثلاً. كانت تؤمن به، لكنها كانت تؤمن أيضاً أن في مقدورها هي ان تثبّطه وأن تدمّره. وهذا مالم تكن تفكرّ فيه حقاً دون رعبٍ، دون استفظاع.. ذلك الشيء النادر جداً، الثمين جداً، العظيم جداً. كيف يمكنها أن ترفض من القدر هديّة يُهديها مرةً واحدة، ولعله لن يهديها أبداً بعد الآن؟ كانت تتعذب حين يخطر لها أنها ستضيع ذلك الحب الذي أكدّت أنها لاتبادله إياه. وأخيراً فقد جاءت الى «بلين» لأن اوريليان قال لها إنه أفضل صديق له. وكانت تكلمه قليلا لتكتشف اوريليان الآخر الذي تجهله، لتستعرض هذا الخطر، هذا النور.

- فهمتَ، ياصغيري، كانت تغيّر مصباحها!

لم تطلب من العم أن يقول شيئاً، أيّاً كان. على العكس، إنها طلبت منه أن يحفظ سرَّ هذا اللقاء. ولعلها لم تلحَّ كثيراً على كونها لن تكون له إلا لأنها كانت تفكر في الاستسلام له. هل يدري أحدٌ، النساءُ...

صاح اوريليان: والمرّة الثانية؟

هدّأ «امبيريو» الشاب بيده. خَمدَ اللهبُ قليلا. لمّ الرسّام العجوزُ، بالملقط، عناصرَ النار، الجمر تحت الحطب المحطّم.

- في المرة الثانية، كانت مضطربةً من جراء قصّة بلانشيت... أعتقد أنك لم تتبيّن جيداً اثر هذه القصة فيها... لا، لاتقاطعْني طوال الوقت أيها المدّعي! ولستُ أعلم كثير! ماذا يمكن وماذا ينبغي أن أعتقد من ذلك كله، وما الطبخةُ

التي تدبّرها... آه، كفى !قلتُ الطبخة التي تدبّرها... فلا تُقابلني بهذه السحنة من العالم الآخر! هل أعلم أكانت بلانشيت عشيقتك أم لم تكن؟ ثم إني لا أسألكَ عن ذلك. إن نمطَ الرجل الغَزِل الذي هو نمطكَ مثير للغيظ... أرحني منكَ! إذا كنتَ تُريد أن تعرف ماحدث، فلا تُنقِّبْ في كلماتي: قلتُ الطبخة التي تدبّرها...

هزّ اوريليان كتفيه.

ـالحاصل أن السيدة أرادت ان تُنهي نفسها من أجل عينيك... ولاقيمة لغير ذلك! ، وهذا ماهزّ الصغيرةَ، هذا هو الأمرُ.. وبما أنهما قد تحدّثتا قبل... فإنها حَشَتْ رأسها بالأفكار... أحسّت بإنها مسؤولة... اتّهمتْ نفسها بأنها أساءت التصرّف، ووعدت ابنة عمها، وهي على فراش الموت، بأنها لن تلقاك أبداً بعد ذلك، وغير ذلك من الهراء..

ـ مهلا! لقد جاءت الى هنا أمس صباحاً!

ـ ماذا تريد أن أقول لك! لم يكن ذلك مقرَّراً... لقد أكدت أنها لن تحاول رؤيتك ... وأن السيد موريل لسوء الحظ، قد وقع في ذلك كله وقوعَ كلب في لعبة الأوتاد... ولولا ذلك لسافرت... وباعدتْ المسافة مابينك وبينها..

ـ المسافة! هناك طرق حديدية! كنت سأجري وراءها!

ـ آه لا، إنها ترجوك ألا تفعل شيئاً من هذا القبيل... وهذا أيضاً أقسمتُ أن أقوله لك.. وهأنذا أقوله لكن...

ـ لكنها لم تسافر... وأمس جاءت الى هنا... وكنت إذ ذاك خارج البيت.. آه، ياربّي!

ـ اترك ربّك في مكانه.... لقد جاءت دون شك.. ربما لم تثق كثيراً بقدرتي على نقل رسالتها...

ـ لقد جاءت... ولم تجيء فقط، بل أنها حملتْ لي هذا! هذا ! فهمتَ هذا! لا باقة بنفسج تشتريها في طريقها، لا، هذا! قناع طلبتْ صنعه.. لا لزوجها ربما؟ كانت، في هذه الأيام، عند صانع القوالب... وتركت ابنة عمها التي كان

يمكنها ان تبتلع «الغيرونال» أثناء هذا الوقت... أتظن أنها صنعته من أجل زوجها الذي كان سيعود إلى باريس..؟ أتعرف الزوج؟ لا، وأنا أيضاً لا أعرفه، هو صيدلي، في الجنوب. أتظن أنه سيضع قناع زوجته المأتمي في الصالون؟ كفى، كفى! نظر العم «بلين» الى هذا الأحمق بحنان. ليت الأمور تعود الى ماكانت عليه من غير أن يتألم كثيراً، هذا الصغير... لكن من المؤكد أنه ينظر الى الأمور باستياء، وهو، بلين لم يقبل الفصل بينهما إلا أنه يريد ألا يتجاوز ألم اوريليان الحدود. كان يفكرّ في أم هذا الشاب الجسور، كم كانت تعسة دون ان يظهر عليها ذلك! ، وهو ايضاً بليز العجوز، تبأ له، بسببها... لقد قالت له ذات مساءً

«ياصاحبي، بلين، كزّ على أسنانك، واستمع إلي، واحفظ ما ساقوله لك: إني لا أحبك...» لكنها عندما قالت ذلك كانت صادقةً. لم تكن تحبّه كانت تحب الآخر، ذاك الذي يُشبه اوريليان شبهاً كبيراً. كان ذلك قبل «روز»، قبل «ميلي».. هو ايضاً قُدّر له أن يتألم مرّة أخرى.

صاح اوريليان فجأة:

- اهي تزعم أنها تُحبّ زوجها؟

هزّ العجوز رأسه، لا، إنها تحبّه حقاً، لم تشأ أن تحطّم حياته، قلبه، وهل أدري؟ لكن أن نَزْعم انطلاقاً من ذلك أنها تحبّه! لا، لا، تنفّس اوريليان بعمق:

- اذن، هي لاتحب أن تراني... وليس ذلك بسببه؟ وإنما بسبب «بلانشيت»؟ شيءٌ لايُصدَّق!

- الحاصل، بسبب بلانشيت، وأيضاً بسبب زوجها وأكثر من ذلك كثيراً بسببها نفسها...

قهقه اوريليان:

- آه ! نعم...إنها تخاف مفاجأة! وهي تستبق الأمور.. إنها لا تحبّني... ماذا الذي يجعلها واثقةً هذه الثقة بأنها لاتحبني...

ـ قلتُ لَك، أنا، إنها تحبك...

ـ نعم... كلا! لم تكذبُ هي؟ ثم إني لا أصدقها! إنها تحبّني، تحبّني! لقد حملتْ إليّ هذا القناع... ورأيتُ في عيني القناع...

أخذ يبكي بهدوء،

ـ وإذن فهي تمنعني، ياعم من أن أكتب إليها، وأن أتّصل بها هاتفياً، وأن أذهب لرؤيتها؟ وهي تعلم أنني أحبّها، وهي لاتريد حتى أن أكّف عن حبي لها...

ـ هي لاتخاف شيئاً كما تخاف هذا... أن تكفَّ عن حبها...

ـ وإذن، وإذن! ماذا تريد أن يحلّ بي؟ لكن بما أنها جاءت! عجباً، أنا أحمقٌ كبير... لقد قالت للسيدة، «دوفيني» إنها ستعود...

ـ حسناً، ربما عادت..

ـ ربّما؟ كيف تريد أن أتحمّل هذا التشكك؟

كان «بلين» ينظر بفضول وحنان الى اوريليان غير المنسجم، بصوته المرتفع فجأة، الى اوريليان الحاسر الرأس، المختلف جداً عن اوريليان الذي يعرفه. ما أغرب الحبَّ! وكرّر:

ـ ياصغيري، ليس لديّ نصيحة أنصحك بها... لكن اصغ إليّ جيداً... النساء اللواتي نضاجعهن لسن بذي خطر، الخطورة في اللواتي لا نضاجعهن...

* * *

- ٤٨ -

الانتظار رهيبٌ وعدم الانتظار أسوأ. لم يعد اوريليان يعلم إن كان عليه أن ينتظر بيرينيس أو أن ييأس منها. مستحيلٌ إن يعد مهمة العم بليز كأنها لم تكن، ومستحيلٌ ألا يفكر في أن في زيارة بيرينيس، والقناع تناقضان هذه المهمة بجدّية. على كل حال، ما المصير؟ اختنق اوريليان. لم يعد يتحملّ الوحدة، ولم يكن يستطيع أن يحلم برؤية الناس. غير المبالين... الذين يتحدثون عن أشياء أخرى... أناس هبطوا من القمر... أو على العكس... لاشيء أكثر تناقضاً مع اوريليان من أن يبوح بسرّه... هذا الدواء الأخير للحب البائس. ولمن يبوح بسرّه؟ لأصدقائه... وهل له أصدقاء؟ ولايمكن اعتبار ادمون صديقاً، ولاسيما في هذه الظروف، ولا «شارل هونفري»، ولا جاك شلرز»... وأحسّ بنفسه وحيداً جداً حتى إنه فكرّ لحظةً في رئيسه القديم، المحامي «بيرجْيت». بل قد خطر له أن يلاحق «فوشز» ولا شيء لديه غير ذلك. هناك أيضاً النساء... «ديان» أو «ماري».. لم لا؟ الهاتف مغر أعظم إغراء. «ديان» ليست في بيتها. وهي الآن مع جاك... لم يتصل بماري. لم يكن واثقاً من تكتّمها. وهي في الحقيقة تفضّل عليه ادمون بوضوح...

لو كان الوقتُ ربيعاً لذهب الى الريف، أينما كان، ولمشى، وتسلقّ، وضاع. لكن الجو باردٌ ووسخٌ وأسود. فكيف يَقْتلُ الوقت، وكيف يقضي هذه الأيام الآتية التي لاتُحتمل، والتي تأخرتْ في المجيء؟ المؤكد، أنه لم يعد يستطيع أن يتحمّل هاتين الغرفتين، وكآبة منزله، والكتب التي لاتقرأ، والنار المبلّدة، ورتابة الجوّ والاستراحة اليومية للسيدة «دوفيني»، ولاسيمّا، وفوق كل شيء، القناع الأبيض الجنائزي، هذا التذكير المأتمي بالحب... ومع ذلك كان يخشى ان يخرج. فإذا ماحدث المستحيلُ و...؟ ليكنْ، أي شيء، على أن يتخلص! ولأول مرة في حياته، شعر بحدة الشعور التي لانملكها إلا قبل اليقظة بقليل، في آخر مراحل النوم، شعر بفراغ حياته المطلق. ظنّ حتى الآن أنه يفعل شيئاً، أنه

يخدع الموت بدهاء وإن كان عاطلاً عن العمل في نظر الأغبياء، كما كان يفكر لكنه... كان يرى الناس، ويطيبُ له أن يستمع إليهم. أن يحكم على هذا العالم المخالف للصواب، وأن يختلط باضطراب سطحه، وأن يستشفّ مآسيه العميقة، وأن يُشارك في مسرّاته... وكانت له مغامرات شبيهة بالاكتشافات... ومن وقتٍ الى آخر، وكان يُسافر ويستمد من رياح حريته نَفَساً، نشوة هذا الزمن اللاشعوري والثقيل الذي جاءَ بعد الحرب... تلك الحرب الأخرى الخفيّة السلم... كم كانت تبدو له اليوم هذه الهواية جوفاء، لاخير فيها! لم يكن يشتهي شيئاً حتى ولا الشمس ولا الدفء. فما الذي جرى؟ «كائن واحد يُعوزك وكل ماسواه قفرٌ..» إن هذه الذكرى اللامارتينيّه، المرتبطة عنده بشارل هونفري عادت اليه كالغضب.. أوصلَ الى هذا الحدّ حقاً؟ يمكنه دائماً أن يدعو نفسه الى تناول الغداء عند آل هونفري... وفكرّ في السيدة الشابة «هونفري»، في الحديث عن أسعار البورصة.. كان «شارل» يسأله لماذا لا يشتري أسهماً في «النسر المكيسكي» أو في أماكن أخرى لا أعرفها. الواقع أن الشخص الوحيد الذي يمكن ان يحتمله كان الدكتور «ديكور». بائسٌ مثله، في الواقع «جيكي». ثم فكرة تلك الانتحابة التي ستكون بينهما معاً، آه لا، لا ولا! فكرّ في ديكور باشمئزاز مفاجىء، بظلم عنيف، هذا الحبّ الرخو... ان يقبل بكل شيء، أن يتألّم! كان يتخبّط أمام هذا الماء الأسود! ارتعش. أوصل الى هذا الحدّ حقاً؟

قررّ على حين غرّةً أن يرتدي ملابسه، وكأنه سوف يذهب الى سهرة. وأقنع نفسه بأنه ينبغي أن يحلق ذقنه ويُطرّي وجنتيه. رأى عينيه في المرآة الثلاثية الأوجه. ما تلك السحنة التي هي من عالم آخر؟ شعيرات دقيقة حمراء في ملتحمة العين، والرموش البنفسجيّة، والصدغان المتصبّبان عرقاً، فوضع شيئاً من البودرة، وهو مالم يكن يفعله قط.

عندما انتهى من زينته، نظر الى نفسه! وهو في عدّة أبّهته، أيضاً. هيّا، يجب ان أتصرف وكأن... وكأن ماذا؟ وتوصّل الى تفادي ذكرى تلك المرأة (كان يفكرّ تلك المرأة)... مهما تكن قليلةً المدّةُ التي لم ير فيها القناع. أنزل القناعَ

ليودعه الخزانة. ظل برهةً طويلةً، والقناع بين يديه.

وضعه خلف أربطة العنق، بين المناديل... وبعد أن أغلق بابَ الخزانة، رفع عينيه نحو الجدار الفارغ. ألم يرتكب خيانةً بهذه الفعلة؟ غير معقول، غير معقول. عليه أن يتجنب الألم، قبل كل شيء، أن يتجنّب الألم.

تناول عشاءه في «مكسيم»، في القاعة الأولى، بينما كانت الاوركسترا تعزف في صدر المطعم، وكان الناس يرقصون. وحوله، كانت الطاولات مزحومةً، ومَنْ عليها يأكلون جماعات. وفي المقصف نساءٌ، ممّن ألفْن هذا المكان. لمَ جاءَ الى هذا المكان؟ لأنه كان يحبّ الستارة على الطراز القديم، المُغضّنة والمكشكشة، مع مايبدو لها من بطانة، والزخرفة من الاسلوب الحديث بلازمتُه ورقة الكستناء. لأنه كان يشتهي الضجيج، والطابع الاصطلاحي في هذه الطنافس وتلك الأضواء، واحتفاءَ رؤساء الخدم. لأنه كان يشتهي ان يقول في نفسه. إنه ينتمي الى هذا المجتمع على الأقل، الى هذا الشيء الذي يعمل عبر الكوارث والانتصارات، الذي يلامس المسرح، و«نادي الفرسان» والشرطة والمال، والذي هو حياة باريس. كان بحاجة الى أن يحمله هذا النهرُ. ثم إن هناك نساء انيقات، غاليات، سينظرن إليه متسائلات إن كان سيَدْفع أو سيُدفَعُ عنه، نساء لا أهمية لهن، لونهن فاتح، وأكتافهُن برّاقة، وأيديهن قد أحسنّ صيانتها... من يَدري؟ لقد جاء مبكراً أكثر مما ينبغي. كان يتناول قهوته مع مشروبٍ فاخر، عندما دخلتْ ديان مع «جاك شلزر» ورجلين دبّ الشيبُ إليهما، أنيقي اللباس.

ـ اوه، اوريليان!

مدّت له «ديان» يدها ليقبّلها.

صاح شلزر:

ـ لكنْ، مالكَ، أتتناول عشاءك كالدجاج! في المقهى، وفي مثل هذه الساعة. انقلْ مشروبك الى طاولتنا...

اعتذّر. فهناك مَنْ يَنْتظرُه، ولذلك تعشّى في مثل هذا الوقت المبكرٌ..

قالت ديان

ـ آه، لم يتغيّر! وأراهن أن ثمّة عيوناً جميلة!

إن دخول هؤلاء الناس رمى به في الشارع وفجأةً لم يستطع تحمّل فكرة الانضمام الى هذه الجماعة وقد بدت له «ديان» الجميلة كالبلهاء. أما «جاك» فلا حاجة الى الكلام عليه.

مضى الى السينما. سيما صغيرة من سينمات الجادات حيث كانت تنتظر الاوركسترا بآلاتها الثلاث أن تعزف معزوفة بجلاجل لدخول المركب مرفأ شنغهاي.. قصة حب طبعاً. امرأةٌ طويلة سمراء، عليها خمرٌ لاتنفك تنزلق، وهي تصالب ساقيها في كل مناسبة، وشابٌ يدير عينيه... ثم انها ملهاة، مسرحية من تلك المسرحيات الهزلية المأساوية مثل تلك الشقق الصغيرة الكرتونية التي تجري فيها، العمّات العجائز ذوات الإرث، والعشيقات في الخزانة... وغدت الاوركسترا أكثر مرحاً بحيث أخطأت العلامات لتمضي أسرع. ما العمل؟ لم تكن الساعة على الرصيف، قد بلغت العاشرة. تردّد اوريليان. هل يعود؟ إنه يبدو أنيقاً بسترته الرسمية. فارتد الى السينما، في الجهة الأخرى من الجادات.

كانت السينما، هنا منْ نمط أفخم. ولم يكن فيها كثير من الناس. أضاء مصباح المرُشدة القادم. كان الظلامُ مخيماً بحيث صدم الجالسين. لم يكن اوريليان يحب أن يكون مُسرف القرب من الناس. وقد أخذت القصة الامريكية التي بدأت على الشاشة بعضَ الوقت لتتضح في رأسه. تشابهت النسوةُ ولم يكن يُفلح في التمييز بينهن. هذا الرجل الضخمُ زوجُ مَنْ؟ لم قتُلتْ هذه الطفلة؟ لم تكن العناوين الفرعية الحمراء تشرح شيئاً ولا الموسيقا المسرفة القوة. وهي موسيقا عاطفية للغاية. تلاقى الشابان في حديقة المدينة، بين ناطحات السحاب. حديقةٌ حسنة الترتيب، تناثر في أرجائها العاطلون عن العمل والعشّاق، والحضباء والورود..

وصل قادمٌ اضطرّ اوريليان الى النهوض. امرأة تفوح عطراً. جلست بجنبه. وفهم على الفور ما الأمر.

عندما خرج من السينما، وهو مستاءٌ جداً من نفسه، تملّكه اليأسُ. وامتزج بذلك كله شعورٌ مبهم بالذنب. كل ذلك مفرط الغباء، عارٍ عن المعنى. كان يكره الحيوان في أعماقه. جال في حي مونمارتر، وهو شارد شروداً لا جدوى فيه، تدفعه البنات، وعلتْ نداءات الجرائد. لم يكن المطر يهطل. كان دلك حسناً. واشتعلت المقاهي بالأضواء. لامجال للتردّد. دخل هذا النور الكحولي، وجرعَ كؤوساً صغيرة على المشرب، فسكر كما لم يسكر من قبل، وماكان أكثر اشمئزازه مس نفسه، ماكان أكثر اشمئزازه من نفسه!

* * *

بدا المعرض نهاراً، ودون جمهور الافتتاح، متغيّراً كلّياً لايكاد يُصدّق أن يكون هذا المعرض هو معرض الافتتاح نفسه . نزع اوريليان قبعته وأحسَ، ورأسُ مظلته تحت إبطه ، وهو في معطفه المشدود، كما كانت تُصنع المعاطف حينئذٍ، أحس بعربته في هذا الصمت الذي كان يَهمس فيه زوجان من المارة دخلا مصادفةً، والذي كان يُسمَع فيه صرير ريشةِ السيدة ذات الشعر المسدل التي تحرس المخزن. اللوحات، الغريبة التي يبدو أن الناس تعوّدتها، إذْ كانت تبدو لوحات كسائر اللوحات، كانت كثيرة العدد حداً بالنسبة الى المساحة الجدارية، ينقصها الفضاء، هذا كلّ مافي الأمر. في العرفة اليسرى المضاءة، كان النور الاصطناعي يحلّل الألوان، ويعطي بطبقة من الاسبيداج الورق المتروك أبيض من اللوحات المائية، هوامش الرسوم التي تحاول كسر العبقرية لفرْطْ ماتحاكي فيها الغرّة والهوس والتصنّع.

هـهنا كان مايبحث عنه اوريليان. اقترب من ذلك الرسم المشوش، من ذلك التبديل المزدوج لملامح الوجه الذي بدت تقاطيعه هذه المرة سميكة جداً، وخاليةً من الأناقة، اقترب وبه انقباضُ في القلب، وتكدّرٌ عميق. أكان الرسم يُشبهها كلّ هذا الشبه؟ لاحظ أن حذاءه المبلّل يترك آثاراً على البساط الرمادي، لقد جاء الى هذا المكان كما يجيء السارق. ما الذي كان يخشاه بالضبط؟ استدار وألقى نظرة خلفه. لا أحد كان يُعير اوريليان المرتبك انتباهه. وإذن فقد نظر، كان بإمكانه حينئذ أن ينظر، على هواه، الى بيرينيس التي ثبتها «رامورا» مرتين، ثبّتها كما تُثبَّت فراشةُ بالدبوس. كانت مخيبة للامال، ككلّ صورة!... لم تكن فكرتُه هذه عن هذين الرسمين المتراكبين، بل وأيضاً عن ذلك القناع الحقيقي، في بيته، على الجدار. كان حقيقياً وزائفاً مثل صوتها هنا. والغريب ان «زامورا» بدا كمن ينتقد نفسه حين ترك هذين الرسمين يتواجدان معاً، وكلاهما

يـفي الآخر. إنه إقرارٌ بـالعجز. لكنه عجزٌ لاتقع تبعتُه على الرسام وحده. بل وعلى بيرينيس التي تدقُّ عن الوصف...

حقد اوريليان على نفسه لانتباهه فدمدم. الرسم سيءٌ، قبل كل شيء، كان يتيه في تداخل الخطوط فيتلاشى التشابه. وفجأة، عاد التشبهُ من جديد، فكأن الصورة تتنفّس. ولأول مرة قرأ اوريليان في العينين المفتوحتين التعبير عن اليأس. كيف، ماهذا؟ أهو من اختراع «زامورا»، أهو الميل الى إظهار الطابع المأساوي، أم هي الحقيقة؟ هل رأى هذا الرسامُ في عيني بيرينيس مالم يره هو اوريليان؟ سمع ضحكاً في العرفة المجاورة. كانوا شباباً، طلاباً من الفنون الجميلة يلهون،

ابتعد عن بيرينيس، وتظاهر بأنه ينظر الى شيءٍ آخر. في الحقيقة إنه لم ير شيئاً في مساء الافتتاح. لا لأن ذلك كان يثير اهتمامه، من الجماهير..

اجتذبته مرةً اخرى الصورة من بعيد، كالمغناطيس، لقد ضيّع منذ هنيهة. إدراكه لتقاطيعها المتصالبة. فاقترب ليملأ عينيه بثنائية الوجه. هناك، عندما ينظرُ هكذا، يدركُ من فوره مايخصّ العينين المغمضتين، وما يخص.. كان السرُّ مُسرف البساطة، مثلُه مثلُ تلك الألعاب الصغيرة بحبّات الفولاذ تحت الزجاج والتي ينبغي ان توضع في ثقوب على صورةٍ، ويبدو ذلك صعباً جداً، ثم إذا تمرّس اللاعبُ..

هتف وراءه صوتُ صبّي واضحٌ. «انظر الى هذه، من حيث الحوَلُ!» نظر اوريليان الى هذا الشخص بربطة عنقه الرمادية ذات الخطوط الدقيقة الزرقاء، وعثنونه، عثنون طفل الجوقة، ومحفظته الخضراء تحت ذراعه، والغليون الذي لعله رسم به، بين الإبهام والسبابّة، غير ممكنٍ أن غِراً مثل هذا يدخّن الغليون! كانوا أربعة من طينةٍ واحدة، وقد قال أحدهم وهو يشير الى بيرينيس، بصوت أكثر تخدّداً من ربطات أعناقهم، لأنه مايزال يتغيّر قبل البلوغ: «يظّن أنه يرسم مثل «انغر»، وهو سيءٌ مثل «لوك اوليفييه ميرسون»!

هز اوريليان كتفيه .كان بوده أن يجلد هؤلاء الصبية القذرين على قفاهم.

ضبّط معطفه شاداً قبّته، رافعاً مظلّته الى مرفقه المطويّ، وغادر الغرفة القاعة الكبرى. تردّد قليلاً ثم دنا من المرأة ذات الشعر السابل التي ترتدي ثياباً على نمط «بورن جونز»، وليست سمراء ولا شقراء، لاشابة ولاعجوزاً، بأنفها الأفطس كعلامة مميزة وحيدة، وقد رفعت إليه من سجلها وجهاً أصفرّ قليلاً، وشفتين جدّ داكنتين. سألها اوريليان: عفواً ياسيدتي... أودّ أن أعرف ثمن الرقم ٥٧ .

ارتعش الأنفُ الأفطسُ، وانتصب، وابتسمت السيدةُ للزبون، كما تُحيًّا الموتى. ولعلها تّذكرت أنها طالما أضاعتْ دبابيس شعرها، لأنها رفعت الى قذالها يداً باحثة. ثم نهضت نصفيّاً وقالت

- الرقم ٥٧... الرقم ٥٧... انتظرْ... يجب أن أسأل مدير المعرض... السيد ماركو بولو! سيّد ماركو بولو!

خرج السيد ماركوبولو من باب صغير مخفي تحت ستارة من نجدٍ كاذبٍ رُسم عليه مشهدُ صيدٍ مع تشجيراتٍ. كان رجلاً ضخماً، مضمّخاً بالطيب، وله ثنيّةٌ تحت خاصرته، ومفرقٌ فيما بقي له من شعر، ووجه منذهل كوّن فيه الشاربُ الحليق مايشبه الطائرة الصغيرة تحت الأنف. كان عادةً، يبيع، الرسوم المحفورة من القرن الثامن عشر، وأدوات الرشم الملونة من النوع الانكليزي،، والرسوم الحديثة من طراز النساء العاريات ومعهن أفاعٍ. وقد أخرجه معرضُ زامورا عمّا اعتاده، لكن قلما كان النّاس يسألونه عن الأثمان!

- الرقم ٥٧... الرقم ٥٧...؟ لعله «المبايض محلّ القلب»؟ الجميع يريدون أن يشتروا هذه اللوحة! لا؟ آه! ما أغباني! لا، لا، إنها «صورة السيدة م...؟ نعم... صورة السيدة م... لا أدري إن كانت للبيع... هل السيد الذي سيمر ثانية...؟ سيدة «بيلي فونتين»!

انتفضت السيدة من كتابتها: فيم ترغبُ ياسيدي؟

- سيدة «بيلي فونتين»، هل السيد الذي سيمرّ ثانيةً من أجل صورة السيدة م... قد عاد؟

قالت السيدة «بيلي فونتين» بجفاف
- السيد؟ لا أدري ماذا تقصد.
وزمّت شفتيها اللتين بلون العنب الأسود، تنهّد ماركوبولو
- أترى، ياسيدي العزيز، لا أجد من يُعينني... ما أدراني الآن، إن كان ذلك السيد قد جاء... وأني لم أكن هنا... إنه لم يشترها فعلا... لا... لكن..
- لكن، ماثمن الصورة؟
- يجب أن أنظر في دفتري.. أتسمح؟
تردّد كثيراً قبل أن يكشف في دفتره المذكور، وهو مفكرّة طويلة سوداء. الثمن المسجّل رقماً وكتابة، والذي يساوي باللغة الواضحة... مهلاً، لم أخطىء... وقدرّ ماركو بولو معطف اوريليان، والمظلة والبطانة الحريرية للقبّعة التي في يده..
- خمسة آلاف فرنك بالضبط.. خمسة آلاف .. هذا هوْ الثمن!
كان الثمن باهظاً، بالنسبة الى زامورا والى اوريليان. ولقد فكرّ ان اللوحة تساوي نحو ألف وخمسمئة. لا، الواقع أنه لم يفكرّ في شيءٍ على الإطلاق. ذلك مؤسفٌ.. وأحس فجأة بالخجل. ماذا يفعل هنا؟ أيساوم على بيرينيس؟ خجل وقال: أهذا آخر سعرٍ؟
هتف السيد ماركو بولو أن هذا هو آخر سعر إن لم تكن اللوحة قد بيعت من قبل، وإذا... ثمّ ماذا نُحصّل بخمسة آلاف فرنك في أيامنا؟ وبتوقيع زامورا! توقّف فجأةً، مجمداً. لقد أخرج الزبون دفتر شيكاته وقلم الحبر.
- أأكتب الشيك باسم ماركو بولو؟
- بالطبع. ستُحمل اللوحةُ الى منزلك ياسيدي. فور إغلاق المعرض، في مدى خمسة عشر يوماً، بل سبعة عشر...
- أأسطرّ الشيك؟
- إذا شئت.. لا قيمة لذلك.. عنوانك، ياسيدي.. لم يُصدّق السيد ماركو بولو مارأى. اضطرب، والشيك بين أصابعه. وعندما خرج الزبون صاح سيّده

بيلي فونتين! سيدة بيلي فونتين!

انتزعت السيدة بيلي فونتين نفسها من سجلها كما تنزع نفسها من هجعة الصباح.

- سيدة بيلي فونتين، ضعي، على الفور بطاقة «مبيعة» على الرقم ٥٧.. على الفور.. الرقم ٥٧... «مبيعة... سيظهر ذلك بمظهر أكثر جدّية!

* * *

- ٥٠ -

كانت الرسالة تقول «أكتبُ إليك، لأنني لم أعد أستطيع تحمّل هذا الصمت...

وجد اوريليان هذه الرسالة في بريد المساء. رأى، للمرة الثانية، خطَّ بيرينيس، مثل وجه جديد. كان غير منتظم، ويبدو كبيراً، متقيّداً بالسطر، مع فراغات بين الأسطر غير المستعملة من أجل علوّ الأحرف. لا شيء في هذا الخط من خطوط النساء المعتادة، الوحيدة الشكل، اذ انهن يحتفظن من المدرسة ومن الطفولة بضربٍ من الترف، من طابع التربية الأولية، من الفكرة التي نحملها عن خط المرأة اليوم. كان خطاً خالياً من التحسين خلوّاً غريباً، وفي داخله تياراتٌ هوائية مثل خفقات قلب. هذا الخط المجهول كان يرقص في عيني اوريليان، وقد قرأه اولاً دون ان يفهمه لفرط تأثره. كان عليه ان ينظر الى مجمل الرسالة ويتأكد من ان بيرينيس بذاتها هي التي تتكلم هذا الكلام، بذلك الحبر الأزرق، المصطبغ بخضرة المياه. بيرينيس.. أيهما؟ بيرينيس المفتوحة العينين أم بيرينيس المغمضة العينين؟ بيرينيس دائماً.

«ظننتُ في البداية أن الامتناع عن رؤيتك كالنوم، فإذا نمنا جيداً كنا سعداء. لكن اذا بي أنام نوماً رديئاً أقرب الى السهاد. لا شيء يُلهيني عنك،، ولا شيء يَمْلكُ أن يشغلني عنك، ولقد دخلتُ ذلك الصمت وهو يخنقني. وإذا لم أسمعك فكأني لا أسمع شيئاً. لم أكن أحسبُ ذلك ممكناً. كنتُ قد أقسمت ألا ألقاك، لكن عندما تسلمّت هذا القناعَ لم أستطع أن أفعل شيئاً سوى ان أحمله إليك بنفسي. فهو ينكسر ولم اجد من أعهد إليه به . وألف سبب... قلتُ في نفسي إني سأحمله الى حاجب البناية. لكنه كان خارجاً ووجدت تلك اللافتة الصغيرة التي تعلمها..

صعدت فلم أجدك. قالت لي خادمتك إنك خرجت قبل هنيهة. وهكذا وفيت بوعدي مع ذلك. ومنذئذ لم يعد إلي هدوئي. ولاينبغي لي أن أكتب اليك. وأنا أقول في نفسي: إنني سأمزق هذه الرسالة وأنني لن أرسلها. وهذا مايمنحني

الشجاعة الحزينة في أن أبكي أمامك اوريليان، اوريليان، كلُّ ذلك فوق طاقتي!

يصيبني أحياناً دوار لا يُحتمل. وذلك حين أفكر في المهمة التي عهدت بها الى العم «بلين». كان ذلك في الفترة الأولى: كنتُ ماأزال أملك جموح وعدي المجنون واندفاعاته. إن بلانشيت بائسةٌ الى حد مروع! وكنت مقتنعة بأني لا أحمل لك سوى الانجذاب الذي يكفي أن أقاومه. وانتابني أيضاً جنون التضحية. واستطعت أن أقول بكل حسن النية للسيد «امبيريو» إنني لاأحبك. وقد صدّق ذلك، أنا واثقة. ألم يُعلمك؟ والآن أنا خائفة. خائفة من أن تكون صدقته أيضاً. خائفة من أن تتألم بسبب ذلك، خائفة من أن أفقدك. اوه! لا، هذا غير ممكن، ياحبيبي، ياحبيبي!.

يُريحني أن أكتب: «ياحبيبي. نعم، لقد كذبتُ، إني أحبُك. لن أمزّق هذه الرسالة لأنني كتبتُ فيها: أنا أحبك. فإما أن احتفظ بها معي وأما أن أرسلها إليك. أين الخيرُ وأين الشرُّ. يجب أن تعيش بلانشيت، فهناك الأولاد. يظن ابنُ عمي أنها تغار منه. لكنها عندما أرادت أن تُعيد الكرّة وحين استعادت قواها، أحسستُ، بعد الحديث الذي جرى بيننا في تلك الليلة، بأنني قاتلةٌ، فنازعتها، وسيطرتُ عليها، وانتزعتُ أنبوب الحبوب السامة. كانت تقول: «دعيني أمتْ، دعيني أمتْ! واغتصبتُ منها وعداً بأنها لن تعود الى ذلك لكن أعط تُعْط. وبدا لي ذلك، في لحظتها، طبيعياً وممكناً.

كنتُ جبانةً أمام موتها. كنتُ جبانةً أمام حياتنا. لعلك ستكرهني، ياحبيبي. ولعلي فقدتك وأنك تحتقرني، وأن هذا الكذب،،، والعودة عن الكذب، كل ذلك من شأنه أن يحملك على الاشمئزاز مني، على الابتعاد عني. وأنا لا أستطيع أيضاً أن أتحمّل هذه الفكرة. إن مايعنيه لي حبُك، حبُنا، وحتى ولو لم ير أحدُنا الآخر بعد الآن، وحتى لو لم تأخذ يدي في يدك بعد الآن، إن ذلك لايستطيع أحدٌ ان يتخيّله. لم ألقَ ولن ألقى في حياتي شيئاً أتمسك به هذا التمسك. عندما رأيتك أول مرة كنتُ يائسة كنت أتظاهر بأنني أضحك وأنني

أهتمُّ بألف شيءٍ وشيء، وأنني أحيا. صرت ميتةً. كانت حياتي بلا هدفٍ بلا علةٍ لوجودها. ولم أعد أومنُ بشيء. كان فيّ همٌّ يُضنينيي، وهو اليقين بأنني وحيدةٌ الى الأبد. وكنت أتابع في حياتي اليومية الروتين، والالتزامات التي التزمها ليس غير. كنتُ أحيا لأنني قد ولدتُ. هذا كلُّ شيء. وكل ما أمّلتُ وأنا صبيةٌ وفتاة قد فسُد شيئاً شيئاً، وفقد ألوانه. ولم يكن ثمة أملٌ في أن تتغير الحياةُ ومن أين أنتظر ذلك التغيّر؟ وكان لابد لي من الإيمان بتلك التغيّرات الطفيفة في مصير امرأة. ماسعادة النساء؟ أن يملكن فساتين جميلة، أن يَدَعْن العيشَ في الريف أو ماذا؟ لم أكن أومن بشيء من ذلك كما لم أومن بغير ذلك. ظننتُ أنني أحب ثمّ لما اكتشفت أني، أخذت على نفسي أن أتظاهر بالحب. أن أجعل الآخر سعيداً على الأقل، لأن سعادتي غير ممكنة، لأن الحب الذي حلمتُ به لايوجد إلا في الكتب. ابتكار جميل. أنا عاجزة عنه.

إن جننتُ وأرسلت إليك هذه الرسالة فاعلم أن ذلك لأنني أثق أنك ستحرقها. ستتلفها، على الفور. وإذا كنت قادرة على أن أكتب إليك ذلك كله فذلك حمقٌ. ولم اجرؤ حتى الآن على التفكير فيه بوضوح، على الاعتراف به أمام نفسي. ولكن ليست بلانشيت وحدها هي المسؤولة. افهمْ ذلك، اوريليان. بلانشيت أيقظت فقط شعوراً كنتُ أنحّيه. كنت قد فقدته لحظةً. وأنا إنما أقسمت لبلانشيت، وهي التي انتزعت مني ذلك الالتزام الرهيب، لكنها، مع ذلك ليست هي المقصودة، ولاحياتها، ولابنتاها. مع أني عندما أفكر بالصغيرتين أتمزّق. الأطفال جنوني الأقصى. هم لم يطلبوا أن يوجدوا ونحن...

(هنا فقرةٌ كاملة مشطوبة ومسودّة بعناية. ولم يستطع اوريليان ان يبيّن تلك الكلمات، التي ظهر منها هنا وهناك أحرفٌ شتى «خصل السرّ»).

أفضل ألا أتكلّم عن ذلك لكن هناك «لوسيان» وأنت لاتعرفه، ولا تعلم ماذا كان بالنسبة إليّ. الحرية اولا، ثم نشوة الشباب، الوجود، وأن أكون إنسانة بذاتي. هو أول مَنْ كلّمني باعتباري كائناً بشريا، وأول مَنْ أعطاني عن العالم

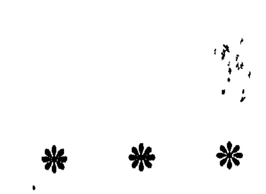
نظرةً مختلفة عن المنظور الذي كان لي من عند أبي. وكان أيضاً بيني وبين لوسيان ذلك الظلُّ، أبي، بؤس أبي. لا أعلم ما الذي حفظته من قصصي الطويلة عن طفولتي وبيتي، وأمي الراحلة، من الصعب جداً ان يكون الإنسانُ منصفاً، فمنذ أن أحببتُك... كيف كتبتُ هذا! شيء غيرعادي، كتبتُ «منذ أن أحببتك» وكأن ذلك الشيء الأكثر طبيعيّة في العالم، وكأنني أقول منذ أن طلع لي سنُّ العقل الأول... منذ أن أحببتك، اوريليان، أخذت أشكُّ في بعض الأشياء، فطوال شبابي، خطّأت ذلك الأب العنيف، السكوت والبائس الذي نغّص عليّ حياتي. تذكرّت أني قلتُ «انصرفي» لأمي، بكل ما لدى البنت الصغيرة المستعدة للحلم من أوهام. كنتُ أحبّ الحبَّ، وأصوِّب الحبّ على الجميع وعلى أبي قبل غيره. ذلك الأب الممقوت.. لكني لم أحبّ، لم أكن أعرف ما الألم. وفيما بعد، الآن، تغيّرت. فهمتُ. فذلك المزاج السوداوي لدى أبي الذي لم يتراجع عنه حتى موته، تلك العاصفة فيه التي ثارت ولم تهدأ، كان ذلك هو الحب، الحبّ حقاً. لقد رحلت أمي باسم الحب، لكن أكانت تحبُ؟ لستُ أدري. كنتُ أعلم أن أبي أحبّها حباً لا رجعة عنه. فهمتُ ذلك عندما لم أعدْ أراك، اوريليان، يا اوريليان العزير.

أمن حقّنا أن نفعل ذلك مع الآخرين؟ أمن حقّي أن أفعل ذلك معك؟ لكن أتحبني ذلك الحبّ... من يستطيع ان يقول ذلك؟ لوسيان يحبني، يحبني على طريقته. وهو لايعلم، ولايمكنه أن يعلم بم تختلف هذه الطريقة عن غيرها، عن حبّ آخر، عن الحب، ولئن رحلتُ وتركته باسم الحب، فأنا أعلم أنْ لاشيء سيمحو ذكراي من حياته. وستنتهي حياتهُ، أنا شبابهُ، أنا اللحظة التي قرّرتْ كلَّ شيء في حياته. ولقد تغير تغيراً هائلاً منذ ذلك الوقت. وعلى نحو مسرحي. لايمكنه أن يستعيد في حياته ماكان من قبل مرةً ثانية. لقد استنفد معي دفعةً واحدةً قدرته على السعادة. فإذا مارحلتُ... ، أنت لاتعرفه، يااوريليان، ولايمكنك أن تفهمني. وإذن فأنا أفكرّ في ذلك الأب الذي كرهتُه بكل قواي الصبيانية، أفكر في ذلك الظلم الجاهل الذي كنتُ أكنه نحوه، ولستُ أريد أن يُصبح

«لوسيان» ذات يوم مثله، وأن أسبب له بدوره ذلك الألم اليومي، ذلك الحزن الذي لاينتهي. ثم إن أبي... لم يكن يحبّني. كان يبدو كأنه لايحبني. كنت عنده ذكرى مروّعة لامرأته التي سافرت مع آخر. لكن الحاصل أنني كنت عنده ليكرهني، وذلك ايضاً حبٌّ وحياة لا أستطيع أن أفكرّ في لوسيان وحيداً، لوسيان المسكين... وليس لي ولدٌ أتركه له.

أأكون إذن أقوى عليك ممّا أنا عليه؟ اوريليان... أن ما يعطيني هذه الطاقة ضدّنا أنا وأنت، هو أنني أجدك أقوى منه بكثير، وأجمل، وأحبّ الى النفس. أنتَ تُحِبُّ، حتى لو لم ترُد ذلك الحبّ. ثم إني أنا أحبك. وسوف تُحَبُّ. ولن تكون وحدك.

هذه الفكرة أسوأ من كل ماسواها. لن أرسل هذه الرسالة فأنا أحبك حبا جما. كان ينبغي لي أن أقول ذلك. ماكان بوسعي ان أتركك على تلك الكذبة... أحبّك، احبك، اوريليان، سأحبّك الى الأبد! وداعاً ياحبيبي، وداعاً، ولاتحاولْ أن تراني. لن أنساك أبداً. سوف أفكرّ فيك طوال الوقت،‹وسط الناس، في الشوارع لن أحبّ غيرك. وداعاً. ربما كان في حبّنا هذا العزاء وهو ان لا شيء سيحطّ منه. اوريليان، لاول مرة ولآخر مرة. أضمّك بين ذراعي. إليّ، ياصغيري، ياصغيري، ياحبيبي!



* * *

— ٥١ —

ماذا كان ينتظر اوريليان من مثل هذه الخطوة؟ في الارتباك الذي ألقته فيه رسالةُ بيرينيس، وعد نفسه مئة مرة بأن يمتنع عن ذلك، وعاد عن قراره مئة مرة. كان لابدّ له من أن يستسلم في نهاية المطاف الى فقدان الصبر، الى الاهتياج، الى الحاجة الى لقاء بيرنيس. هاهو ذا إذن هنا، في شارع رينوار. على عتبة المنزل، أمام خادم بقفّاز قطنيّ أبيض هو الذي فتح له. سأل اوريليان عن ادمون. السيد ادمون ليس هنا ولا السيدة ايضاً... والسيدة موريل؟ السيدة موريل خرجتْ مع السيدة، لكن إذا شاء السيد ليرتيلوا أن يرى السيد موريل.. لا، لا... كان على وشك الانسحاب عندما فُتح البابُ الذي في الصدر على البهو وعندما ظهر رجلٌ أقرب الى القصر، ضخمٌ، مضغوطٌ في سترة رمادية فاتحةٍ جداً بالنسبة الى الفصل، ومدّ يده اليسرى:

ـ سيد ليرتيلوا! هلا دخلتَ... أنا سعيد بمعرفتك.. طالما سمعتُ عنك... أنا زوج السيدة موريل!

كان في هذا الدخول شيءٌ ممّا يُضحك وممّا هو ناشزٌ في آنٍ واحد. ولم يعرف اوريليان كيف يتخلص من هذا المأزق. بدأ بأن غمغم «لا أود....» وخجل مما قال، وأحسّ أنه مثير للسخرية إزاء محدّثه، فانصاع وتبعه الى الصالون. وبما أن موريل تنحىّ عند الباب ليتيح له أن يمرّ، شاهد اوريليان فقط جزيئةً فيزيائيةً في هذه الشخصية التي لم يكد ينظر اليها: كان الكمُّ الأيمن لسترةِ زوج بيرينيس رخواً وفارغاً.

ـ اجلس سيد ليرتيلوا، أرجوك...

ـ جئتُ لأرى ادمون أثناء مروري، لدقيقة واخدة... من أجل الأعمال...

– نعم، أعلمُ، أعلمُ، لقد اطلّعتُ... ابن عمّي ليس هنا... لكني في الحقيقة جدّ سعيد لهذه المصادفة التي...

لم يبق عليه إلا أن يجلس. وبينما كانا يتبادلان كلمات المجاملة، نظر

اوريليان الى لوسيان موريل بقلقٍ في أعماق الدهشة. «طالما سمعتُ عنك»... هذا مايقال دائماً لكنه تصوّر بضيقٍ الأحاديث التي لعل اسمه ذُكر فيها بمحضر من الزوج. أين يبدأ الكذبُ وأين ينتهي؟...

يمكن أن يكون عمر لوسيان موريل ستةً وعشرين عاماً. لكنه كان سيعطى بسهولة ثلاثين عاماً بهذه الجبهة التي تساقط شعرها، وهذا الشعر الكستنائي الداكن المتفرّق والمردود الى الخلف، وهذا الجسم القصير على ساقين، لولا الانطباع الذي يكاد يكون طفولياً من الوجه ذي الشفة السفلى المتقدمة، والعينين الضخمتين البارزتين، والأنف المعقوف، لم يكن بشعاً، لكن كان له مظهرٌ مفرط الطيبة. وكان جلدُه دهنياً جداً، لمّاعاً عند المنخرين والصدغين. والحاجبان أسمران شديدا الكثافة. وكان خدّاه مايزالان يحتفظان بشيء من البودرة الناصعة البياض التي لعلها كانت همَّ موريل. كان رجلا بالغ النظافة. الثياب على كل حال. لكن أغرب مافي الأمر ان بيرينيس لم تفه بكلمة عن هذه *الذراع المقطوعة*...

- اباقٍ أنت بعض الوقت في باريس، ياسيدي العزيز؟

خاف اوريليان من أن تَشي به هذه الجملة المجاملة. ماتلك الفكرة السخيفة التي خطرت له وجاءت به الى شارع رينوار..

- سنسافر مباشرة بعد رأس السنة، وكانت بيرينيس تقول إنها حزينة بالذات لأنها لم ترك...

- كنتُ مشغولاً جداً في هذه الأيام الأخيرة... لكني حسبتُ..

- لاتعتذرْ! الأمر مفهومٌ جداً. بيرينيس تأسفّت فقط... لأنك كنتَ لطيفاً طوال إقامتها... وكانت بحاجة كبيرة الى أن تسرّي عن نفسها..

كان ذلك فوق طاقته. وفوق هذا، لم يستطع أن يُمنع نفسه من النظر الى الكمِّ الفارغ.. على العموم، لم يكن اوريليان يعرف كثيراً مايقوله للناس. وكان لايملك إلا القليل من روح المحادثة. ماذا كان بوسعه أن يقول للوسيان موريل؟ اما لآخر فبدا مرتاحاً. أكان ذلك سذاجةً ام رياءً.. قال

– أنا سعيدٌ جداً لأننا سنصطحب معنا الصغيرتين... بيرينيس تعبد

الأطفال... قال اوريليان على سبيل المشاركة في الحديث:

ـ ستصطحبان الصغيرتين؟

ـ نعم، ادمون وبلانشيت سيذهبان الى رياضة الشتاء.. وسيعهدان إلينا حينئذٍ بالصغيرتين.. يسرّني ذلك من أجل بيرينيس... كانت تتمنّى كثيراً أن يكون لها أولاد..

تنهّد ومرّ بيده على جبينه، ثم نظر الى ليرتيلوا نظرةً تنم على تلك الطيبة العظمية، وهي نظرة مربكةٌ جداً:

ـ وأنا أتساءل أحياناً إن لم يكن علينا أن نتبنّى طفلاً... بيرينيس هكذا، ليست سعيدة. لا، ليست سعيدة! (تنهّد أيضاً): وأنت تتساءل لمَ أقول لك هذا؟ وتقول في نفسك ماذا تريد. طالما حُدِّثتُ عنكِ... أتصوّر أني أعرفك قليلاً، ياسيد ليرتيلوا، بدقة... لكني تحدّثتُ عن شؤوني ولم أخبرك عن ابنة عمي! شفيت بلانشيت تماماً، تماماً.

ـ آه! قدّرتُ ذلك... بما أنها خرجتْ...

ـ اوه! إنها تخرج منذ بضعة أيام.. وهي في حالة حسنة، وإن كانت مشيتها لم تثبت جيداً بعد، وتوازنها لم يستقرّ تماماً.. لم يعد أحدٌ يتحدث عنها... وطبعاً إنها ماتزال حزينة، ماتزال حزينة... وسينفعها الجبلُ والهواءُ النقيُّ والثلج.. أأقول لها إنك جئت تسأل عن أخبارها؟

ـ لكن... بالطبع...

ـ سأقول لها... بل ستقول لها بيرينيس ذلك... إنها ماتزال جدّ انفعالية! النساء أقدرُ.. ستكون بيرينيس مسرورةً من مجيئك... أتعلم أن بيرينيس لاتعرف نفسها.. وكنتُ أظن أنها لاتحبّ بلانشيت كثيراً.. ثم إنها في هذه الظروف..

إن التكتّم الفظيع الذي حمله هذا الرجلُ الى احاديثه كان ينمّ على سوء الفهم. كل ماكان يعلمه موريل عن اوريليان يتعلّق ببلانشيت. وأصابت ازدواجية بيرينيس بشدة اوريليان في قلبه وكأنها النور. لقد تصوّر هذه المرأة الشابة في

حياتها اليومية، في ذلك المنزل المفرط الفخامة، مع هذا الزوج الذي حلّ باريس في اسوأ لحظة، وجنون بلانشيت، وسخرية ادمون، ولعبة الإخفاء المخيفة في كل لحظة. قال بشيء من الصعوبة.

- آسف أني لم أجد ادمون في المنزل... يتعذّر الإمساكُ به في هذه الأوقات...

- أجل، أجل، يتعذّر الإمساك به! فلم اكد أراه بالرغم من كلّ شيء. لكنه حدثني عن مستحضرات «ملروز».. وأعلم أنك داخلٌ في القضية أيضاً..

- يَعْني..

- أي إن رابطاً آخر سيقوم بيننا ياسيدي العزيز، لأنني أعلمكَ بأنني قبلتُ! نعم، قبلتُ!

رفع سبابته بحركة مضحكة، وأضاف

- ها نحن أولاء على مركب واحد، ياسيد ليرتيلو! ستكون الصفقة ممتازةً... ثم مع ابن عمي! كنتَ في الجبهة معه، على ما أعتقد؟

كان لابد له من أن يقول: نعم، فاندفع الصيدلي[1] في ذمّ الحرب، في صيغ سمعها اوريليان في مكانٍ ما. قاطعه بأدب قائلاً. تلك أشياء يستطيع مَنْ كان مثلك ان يقولها..

توقّف موريل وقد أرْتجَ عليه ثم نظر الى كمّه وهتَفَ بمرحٍ

- مَنْ كان مثلي؟ اوه! أنت تعلم أن هذا جرحٌ في الحرب، إن شئنا وفي الواقع كان ذلك من جراء حادثة... ألم تخبرك بيرينيس؟ حسناً، ذلك من جراء قنبلة في باريس، بينما كنتُ أمرُّ هكذا لأشتري الصحف من كشك، أمام محطة الشرق.. قطعتْ يدي مع ذلك.. وإن كان ذلك لايدعو الى كثير من الافتخار!..

ثم زاد اهتمامهُ بذلك على حين غرّة:

- قلْ لي.. ألم تقل لك بيرينيس شيئاً عن ذراعي؟ لا؟ كنتُ سأراهن على ذلك! ظريفة امرأتي! إنها لاتخبر الناسَ بذلك، وعندما يروني بعد ذلك، حينئذٍ تُقرأ في وجوههم دهشتُهم!

---

(١) صيدلاني وصيدلي، كلاهما صحيح.المترجم.

نظر إليه اوريليان بدهشةٍ مرتعبة. دهش هو نفسه من هول ماشعر به إزاء الصيدلي. هناك المئاتُ من هؤلاء الرجال مثله، وهم لايُلحظون، ولهم المرأة والولدُ، ونحن نجلس بجنبهم في الباصات... لكن العلاقة بينه وبين بيرينس، ذلك ماكان يُلقي على هذا الحيوان الشاب، الضيّق ا لنفس، بجلده اللّماع، وأسنانه غير ا لنظيفة تماماً، ونَفَسه، ودهنه، حضوراً فظيعاً بالنسبة الى اوريليان. إن له رجلين وبطناً وفضلات، إنه يأكل، وهو يشعر بالحر، ولابد أنه يضحك بسهولة. ثم إن عيني ليرتيلوا توقفتا أيضاً دون أن يُنمّ فكرةً اشمأز من أن تخطر له. ألحّ الآخر:

ـ ستأسف بيرينيس.. وكذلك ابنا عمي، دون شك، لكن بيرينيس كانت ستتمنّى كثيراً.. وإذا مررت بمدينتنا فلا يفوتنّك..'ليس المنزل كبيراً لكنه يسع الصديق.. بلى. بلى.. اعتبرْنفسك مدعوّاً...' في الدرج، أخلد اوريليان الى ضحكةٍ عصبية.



«نحن نعمل عشرة أعمدة أو أحد عشر عموداً في اليوم.. وهذا عملٌ غير عادي.. ويُقال إننا لا نعمل! في كل مرة لابد من نقل المعدّات... والمرفعة... وكل شيء.. طبعاً هناك فريق يجيء وراءنا لصبّ الإسمنت.. لكن هكذا! عملتُ «سانت ايتين» و «غرينوبل»..

رَفَعَ الندُل صحونَ الحساء. كان النورُ الذهبي يسقط على الطاولات حيث وجد الناسُ تلك الراحة التي يمنحها المقبّل والخمر البوجولي الافتتاحي، ورؤية قائمة الطعام. كانت المائدةُ تشغل صدر المطعم الذي كان كالمصطبة على باريس، والسطوح والليل، لكن لم يكن يُرى شيء خلف الستائر الخضراء ذات الحواشي. كان القسم العام مع الزُبُن الاعتياديين والصندوق، والطاولات الصغيرة نصف فارغة، لكن كان يأتي منها صوتُ الأوامر، والصحون التي تمرّ بها لتصل الى مدعوّي صحيفة «الكوخ». كان في الصدر بيان وطبقيّة. كم كان عددهم؟ خمسة وعشرين، ثلاثين؟ نهض «فوشز» الذي غدا قرمزياً في عارضيه الأصهبين، وقبتّه التي لامست ذقنه، وقال لجاره، متعهّد الأشغال العامة، وهو رجل ضخمٌ في وجنته دُمّل لحمّي، وله حاجبان أسودان كثّان: التهمْ طعامك، «شابلان»، ستثرثر فيما بعد.. يانادل، عجِّلْ «بالجورانسون»، الجورانسون! مع صوتٍ قوي من أصوات وصحون البورسيلين.

قال الأسمرُ القوي الطويل في طرف المائدة الطويلة بشعره اليابس الذي لايثبت، والمفروق: «لم أكن أعرف هذه الخمّارة» وأدار نحو رفيقه الذي على يساره عينيه اللامعتين، غير المتماثلتين، ووجنتيه الملتهبتين، وشاربه الصغير. قال الآخر بصوتٍ وديع يتنافر مع تقاطيع هذا المصارع الأشقر، وهو يحني شعره المجعّد، وعينيه البارزتين، ويلامس الشعر الذهبي الذي يشكل ما يُشبه المروحة فوق شفته: «اعذرني.. لم أسمع اسمك جيداً.. أنا لم أعرفك في الفوج...

قال الآخر:

- دوبوي، ستيفان دوبوي، لم أكن في فوجك... كنتُ في مدفعية الفرقة، لكن
أعرف «فوشز» في الحياة المدنية..

ردّ شعره الذي تهدّل على صدغيه بحركة مألوفة، رافعاً أحد حاجبيا
قدّره الآخر مدفعيّ صلب، رجلٌ مقاتل، بشفتيه المضمومتين على أسنان بيضا
وهذه الضحكة الصغيرة التي ترافقها حركة الكتفين. فأجاب وأنا أيضاً ا
ألحق بالإدارة إلا بعد مصادفة سعيدة. كنت خيّالاً وضعت في السادسة
عشرة... مارسولو، الملازم مارسولو.. الكتيبة الثانية.. أولاً في فصيل «ميلو
أرأيت هناك؟ الذي يرئس..

. النقيب «ميلو».. ثم ضابط استخبارات المقدم «بييرغيز». آه! كا
مختلفاً! لأن «ميلو»، بيننا.. من المؤسف أن المقدّم لم يستطع المجيء، هذا
المساء...خلقت الأحاديث جلبةً فظيعةً. كانوا يضحكون بقوة، ويتنادون. وكان
الكؤوس أمام المدعوين، خمسة لكل شخص– ترنّ. كان بعضهم يومىء ال
بعض من طرف المائدة الى طرفها الآخر. وكانوا يتبادلون الأنخاب الفردية، دو
نظام تقريباً.

كاد يختنق بجانب «شابلان» رجلٌ طويلٌ، هزيل، يُشوّر بيديه، وفوطتُه ف
قبته، وشاربه مهدّل. طبطبوا له على ظهره، وسقوه ما ءً. لاحظ مارسولو الذ
اكتشفه

- عجباً، بلانشار هنا؟ فكرة طريفة..

سأله دوبوي.

- مَنْ هذا

- اوه! ضابط! لاقيمة له...

مسّد شاربه وتكلم عن شيء آخر.

استأنف دوبوي:

- لا، لم أكن أعرف هذه الخمّارة، هكذا، على الدرج، في قلب «الساكر
كور». هذا العاهر «فوشز» يدسّ أنفه في كل مكان!

نخرَ مارسولو:

- هكذا كان في ا لجيش، ويبدو أن جريدته الرديئة تسير بسهولة... ومع ذلك فنحن فخورون بأن يكون قد وُلد بيننا!

- اوه! أنت تعلم أنه رجل أعمال: لانعلم حقاً كيف تُباع» هذه الصحيفة، لكنها تُباع... كثير من المشتركين في المستعمرات... بين الإداريين الذين يموتون من الضجر... فكيف تسلّط عليهم، لا أدري، لا أهمية لذلك، أليس صحيحاً؟ المهم انها تُباع!

صاح من فوق الطاولة «كوسي دي بالانت» الشخصُ الضخمُ الذي يبدو كبائع الخمر.

- أتظنّ ذلك؟ فلماذا لايدفع فوشز إذن أجرة الرسامين؟ إن لي في ذمته آلافاً!

في الطرف الآخر من المائدة، أراد «ليموتار» شرطي الأخلاقية، الذي ثمل قليلاً، آن يطلع بأغنية مهما كلّف الأمرُ، وبما أنه كان يميل الى الحزن واستعادة الماضي عند الشرب فقد بدأ أغنيةً على لحن: «تحت جسور باريس». على جسر مينوكور..

فأسكتوه. دعاه الى حفظ النظام، رجلٌ قصيرٌ، ماكرٌ، أسمر اللون، أصلع على نحو غريب، متورد، بلهجة الجنوب المغرقة، تمتم ليموتار: «سيّدي النقيب...» وعاد الى الجلوس.

سأل الدكتورُ اوريليان: مَنْ هذا؟ كان زوجُ «روز ملروز..هنا، مصادفة، بصفته معاوناً في «الصحيفة. لقد أخذ منه «فوشز» اوراقاً عن طرائف التاريخ الطبية على نمط الدكتور كابانيس، لأن هذا يسمح بجميع أنواع القذارات، لمشتركيه في «الغابون»، و «مدغسقر»..

نظر اوريليان الي الذي دُعيَ نقيباً وابتسم. كيف يشرح للدكتور عن بومبار»؟ كان الوحيد بين جميع هؤلاء الناس الذي يسوءه مرآه. ماكان يريد ان يأتي، وحار في أمره، لكن «فوشز» أصرّ، وياله من ملحاح! ولولا أنه حلف بالإيمان المغلّظة أن ادمون وعد بالحضور... ثم لم يبد أثرٌ لأدمون. وأكدّ فوشز»

أنه سيأتي، على الأقل الى المقهى! أحسّ اوريليان، مع ماهو فيه من بلبلة، ومع انسياقه بتيار هذه الأيام الأخيرة. أحسّ بلا معقولية هذه الوليمة التي تجمعه مع رفاق كتيبته القدامى، وبعض رفاق «فوشز». والعجيب ان فوشز قضى حياته في تنظيم أشياء من هذا النوع! هل له حياتُه الخاصة؟ لابد أنه يقبض نسبةً مئوية من أصحاب المطعم. وهناك أيضاً الإعلانات في الصحيفة... تعلقّ اوريليان بالدكتور لأنه وجد لديه شيئاً من الغريق، من التائه في البحر. هناك قرابةٌ بينهما. كلاهما يستطيع أن يتكلم عن أي شيء وهو يعلم أن الآخر يخبّىء في نفسه شيئاً لن يتطرّق إليه بكلمة.

قال اوريييليان:

ـ النقيب «بومبار».. هو عندي دائماً وقبل كل شيء: الملازم الأول «بومبار». وهو لم يُعط رتبة نقيب إلا في النهاية، في ١٨، وكنت حينئذٍ في الشرق. وهو احتياطي، دون شك. وذلك يعني أنه قد تأخر الآن عن رفاقه. وكم يُحنق! إني أتخيله سكران أبداً مثل أتان، في قبو ما لعله كان قصراً، في «السواسونيه». لم يبق القصرُ وبقي القبوُ.. واحتل الألمان القصر، لكنهم لم يجدوا الملازم «بومبار»... وعندما عُدنا في الهجوم المضاد، في الصباح الباكر، رأيناه يخرج من الأرض ومعه رشيشٌ وقد أتى على كل شيء قبل وصولنا. ثم سقط هامداً. ظننتُه جريحاً فانسللتُ إليه. وانحنيتُ عليه: أيها الملازم! أيها الملازم! كان يشخر بعمق وهدوء...

نظر الى الساعة في معصمه! لا لن يأتي ادمون. كان يمكن أن يسأل الدكتور، لكنه خاف أن يكون غير متحفظ، وأن يخطىء. ماذا كان يعرف الدكتور عن زوجته بالضبط. إن كان يعلم فهو رجل غريب.

– هل السيدة «ملروز» تمثل الآن دكتور ؟

ـ لا.. لكن ماذا قالت لي.. ليرتيلوا؟ هل أصبحت شريكاً مساهماً معنا؟ من المؤكد أن الجميع اعتبروا هذه القضية منتهيةً.

لم يقل اوريليان لا، لأنه فكرّ في لوسيان موريل، بكمّه الفارغ. فساق

الحديث الى ذلك الرجل قبالتهما، والذي ذكرّته كتفاه المحدودبتان، وذراعه التي كذراع القرد. ويداه المشعرتان، بزمن آخر: «انظرْ إليه، «بومبار»، ياعزيزي، بفوطته الغارقة في صدرته، وعينيه الصغيرتين المتغضّنتين، وهذا المظهر الساذج... يبدو كمَنْ لايعلم.. لا أدري ما الذي لايعلمه.. لكنه يبدو كمن لايعلم.. ثم أنه يعلم جيداً، إنه خبيث!

ـ وماذا يفعل في الحياة المدنية؟

ـ اوه اليوم! كان يقول إنه مارس جميع الحرف... اتراه بفوطته، وصدرته؟ نعم... صدرة مقلّمة بالأسود والأصفر.. لم يخلعها طوال الحرب من تحت سترته... وقد لبسها اليوم من أجلنا... ولعله يزعم أنه يلبسها في كل يوم.. كما يقول: «الصدرة التي كنتُ ألبسها عندما كنت فرّاشاً في «نيس»»... فهل كان فرّاشاً؟ ذلك غير أكيد. كان ذلك يُسخط الناس، ويضايق الضباط في مطعمهم. كانوا يتحمّلونه لأنه كان ذا شجاعة مُخيفة. كان يفتخر بالعكس. قبل الحرب، كان يبيع الزيت، وليته كان زيتاً جيداً، كما يقول، لكنه كان زيتاً رديئاً.. كان يسكن مرسيليا... كان الناسُ يحبّونه، وكان مع ذلك خبيثاً كريهاً... كان يُمشّي خادمه بركله في قفاه. وبعد ذلك كانا يسكران معاً..

الكلامُ على ذلك كله كان يغمر أفكار اوريليان برائحة المقليّ، وكان خائفاً من أفكاره، كان يهرب من بيرينيس، يهرب من كلّ ما سهّده طوال الليلة الماضية. كان يخنق زفراته التي لم يكن مسيطراً عليها والتي أحسّ أنها تتصاعد في كل لحظةٍ يترك نفسه فيها على سجيّتها.

صاح به من الجهة المقابلة فتى طويلٌ، مشيقٌ، سوقيّ تبنّي الشعر، متعجرف، ذو عينين غير واضحتين، وذقن مفرطة الضخامة أفسدت كلّ شيء: في صحتك، سيّدي الملازم.

رفع اوريليان كأس «الجورانسون» الأبيض. في صحتك. أيها العريف!

سأله الدكتور: مَنْ هذا؟

ـ «بيكميي»... من ضبّاط الصنف النادرين هنا، هذا المساء، مع

«ليموتار»، و «بلانشار»، و «فوشن» ذاته... باريسي... شاطرٌ قبل كل شيء...
كان يحسن اختيار الملجأ.. لكنه ذو صوت جميل.. وكان يُدعى الى الدعوات
العامة... وأنا أراهن انه سيغنّي الآن «ملك اس»

شارك في الحديث جارُ اوريليان على يساره: «أو «سيريناد لمانون»،
ليرتيلو!، إحداهما على كل حال! يحق له أن يعترف بفضل هذه الأغاني، وهو
مدين لها بدينٍ عظيم. كانوا يتنازعونه من مكتب الى مكتب.. وكان من المستحيل
ان يلحق بفصيلةٍ من الفصائل..

نظر الدكتور من فوق اوريليان الى ذاك الذي كان يتكلم عينا هرّ، وفكُّ
حمارٍ، في ريعان الشباب، لكن مع ذلك الدهن البشع، دهن الشباب القاعد،
الذي لم يُحلق لهذا، والشعر المحلوق. تذكرّ الدكتور أنه لاحظ مشيته. عادة
مهنيّة متأصلة لعلها ساق خشبيّة. قدّم اوريليان كلاً منهما الى الآخر الدكتور
ديكور. هوسون شاراس. كان الدكتور يعرف أقرباءه، في مصرف هوسون،
وكان ذلك مدعاة لمحادثة بينهما استطاع اوريليان ان يتجرّد منها.

قُدّم المشويُ، وظهر النوع الثالث من النبيذ وسط الصرخات. فلا بدّ من
القول ان هذا الشيطان «فوشن» يعرفَ كيف تكون الولائم الفاخرة! خبيرٌ بها!
سادتي.

سكّت الناسُ بعضُهم بعضاً. صه، صه .. كان الذي له صدارةُ المائدة
يرفع صوته، ويحركّ يديه صه، يريد النقيبُ أن يقول شيئاً.
سادتي...

سعل قليلاً، مع مزيج من السذاجة والتعاظم. كان النقيب «ميلو» يوصف
بأنه رحلٌ وسيم، في تولوز، حيث كان مصوّراً قبل الحرب. كان جميل القامة
لكنه ترهّل قليلاً. وفقد شعره الآن تحت الخصلة السوداء المردودة الى الأمام. لم
تعدْ له تلك الأناقة التي كان يُتيحه له راتبه العسكري وبزته العسكرية! وكم أنفق
على «الغاباردين» ، وعلى القماش الانكليزي المضلّع! مرّر بحركة مألوفة اصبعه
بين أنفه وشاربه كفرشاة الأسنان يشطب شفته. لقد غدا رخوا. دون جوان

ألف وتسعمئة وخمس عشرة، وشديد الشحوب. قال:

سادتي!

لن أشرب نخب الفوج، بل نخب الكتيبة الثانية التي كان لي شرف إمرتها بالوكالة، ربما، لكنها إمرةٌ، على كل حال! نحن جميعاً هنا أناس مررْنا تقريباً بتلك الكتيبة التي كانت تُدعى «الكتيبة» دون زيادة، كتيبة الأشداء، حين يوجد الأشداء. «ونحن نأسف لأن المقدّم «بييرغيز»لم يتمكن من الأنضمام إلينا هذا المساء.. لكن الحق يقال، أني لا آسف على ذلك لأن ذلك يتيح لي أن أحدّثكم وأن أقول لكم..

هذه الخطبة المغرورة تمددت في العجينة الرخوة لهذا الوجه الذي قد أعجب النساء. كان فيها ورودٌ للجميع، وذكرى الموتى، والغائبين، والثناء على فوشز منظّم المآدب، وخلط فرنسا بذلك، في جملة بارعة حول الوعود التي قُطعت للمقاتلين والتي لم يُوفَ بها. هزّ الحاضرون أكتافهم، وقال الواحد للآخر: «آه! من هذه الناحية.. الحقُّ معه...

كان جورج هوسون شاراس غير مرتاح بساقه اليسرى تحت الطاولة، فتحركّ ليحمي هذه الساق الاصطناعية من جاره.

تنهّد «بيكمبي»: «آه، مصيبة! وهمسَ «مارسولو» من خلف يديه السمينتين، وأصابعه المفتولة التي كان يباعد بينهما ليُظهر تميّزه، وهو ينحني على «ستايفان دوبوي» ، هازئاً، وصافراً بين أسنانه البيضاء:

«هذا النقيب المسكين! انظرْ إليه... هذا التافه... إن أمثاله حظُّهم الوحيد هو الحرب.. الحربُ طوّلتْ شبابَه... لو رأيته مع البنات! مَسْخرةً! ثم انه يظن نفسه امرأ لايُقاوم.. وهكذا وقعتْ بيني وبينه متاعب.. ولولا المقدّم «بييرغيز» الذي لم يكن يُطيقُه..

أنهتْ الأيدي السمينة هذه القصة، واسترسل «مارسولو» في ذكرى السمان الصغير الذي أثاره للنقيب في الألزاس، ماأسمه ياترى؟

سأل «ستيفن دوبوي» الذي تثاءب من جراء هذه الخطبة التي لاتنتهي:»

أما يزال مصوراً في «تولون»، أجاب «مارسولو» كما يجيب طالبٌ الصف. «كلا... فهو قد ذاق طعمَ الحياة الفخمة... أتظنه يقنع بتولون! لا بد له من العاصمة... هذا الى أن امرأته هجرته! من حظه! واستقرّ في باريس، لا في باريس بالذات، في «فوجيرار».. وواتته الفرصةُ. حانوت جاهز! وهو يصورّ الأطفال في مناولتهم الأولى والأعراس، وأصحاب الحوانيت. ثم إن قلبه لم يعد متيناً. خمس سنوات في مطعم الضباط. تصوّرْ! لابد له من تناول العقاقير والمقوّيات وأشياء أخرى.. انظر إليه: إنه منتفخ، متورّم العينين... أهل «فوجيرار» وحدهم، في المقهى، يدعونه نقيباً... ليتك رأيته في «السار» وهو يقود الكتيبة! كان مفعماً بالكبرياء...

ارتفعت الضوضاءُ مرحّبة بخطبة النقيب. أراد ليموتار، وقد لعبتْ الخمرُ برأسه، أن يتكلّم بدوره. أجلسه «بومبار» بقوله: «اخرسْ، بيبيه»، وأثار بذلك ضحكاً صاخباً عاماً. وأخذ متعهّد الأشغال العامة يمسح عينيه من الضحك. همس «بومبار» الى «هورو»: لماذا لم يحضر المقدّم؟ كانت الخطبة ستكون أنجح.» تحرّك الرأس الأصفر للملازم «هورو» ودارت عيناه خلف زجاجهما، وقال صافراً: «لم نعدْ صالحين لتناول العشاء مع السيد «بيبرغين».

قال «هوسون شاراس»: الجوّ جدّ ساخن هنا، كأننا لسنا في عيد القديس سلفستر. هل سيّارتك بالباب؟ لا؟ كنتُ آمل أن توصلني بسبب ساقي.. لابأس. سيذهب «فوشن» ليحضر سيارة أجرة..

نظر اوريليان الى نهاية المائدة: «هذا، «ستيفان دوبوي» كان في المدفعية، على نحوٍ ما. ويشارك في الصحيفة. وهو متشكّك يحمل أفكاراً اجتماعية، وهو عدوّ لدود للنساء، ولم يتزوج عشيقته التي تخيط بلوزات، وهو يلومها على أنها لم تُرجع إليه المال الذي اقترضته. أبوه رئيس محكمة، وهو يسكن غرفة عزبٍ لدى أهله، في الطابق الأرضي.. وهو أصم في أحدى أذنيه: النار، فهمتَ..

قال هوسون شاراس: أثار معي شغباً، قبل الجلوس الى المائدة، حول

الاشتراكية، وروسيا، وأشياء أخرى. وهو يرى أن المخازن الكبرى لم تعد لازمة، وأن اللافتات المضيئة تؤذي عينيه! هو مصابٌ بعقله قليلا، ألا تعتقد؟

انبرى الدكتورُ الى محادثة اوريليان في الوقت نفسه. كان، في الظاهر، منصرفاً كلّ الأنصراف الى مستحضرات «ملروز» وتظاهر بأنه يُعامل «ليرتيلوا» على أنه شريكٌ مساهم. هل أطلعه باربنتان على مشروع العطور بالوزن؟ ومع السيدة «دي بيرسيفال» ستسمّى الدار «ماري روز»، بسبب ماري و«روز»، فهمت.. سيكون لروز مسرحُها. لم تَحْظَ «روز» بالمكان اللائق بنبوغها، بعبقريتها.

وعندما يُصبح لها مسرحُها مثل «ريجان»، و«ساره» العظيمة... قُدِّمتْ السلطةُ.

سأل اوريليان «هوسون شاراس»: وأمرأتك، اهي فيُ حال حسنة؟

كان «هوسون شاراس» قد تزوج ابنة عمه. وماذا بوسعه أن يفعل غير ذلك الآن؟ كانت تبدو له كالمرّضة لكنه لم يكن يستطيع ان يطرد المرأة بذلك المرح غير المبالي الذي عُرف به، كما كان يفعل قديماً في «بلو» وفي المأوى العسكري. وكلبُ الصيد ذاك الذي عثر عليه كوصيف له! تذكر اوريليان الجنديَّ ميرور، الفلاح، الذي لا نظير له لتهيئة سرير الملازم. كان يصغي الى الجُمل الميتة والحزينة التي يقولها جارهُ على المائدة، وكان يتكلمّ عن امرأته ، وبيته وعن العمل الذي حصل عليه في مصرف «هوسون. عُيِّن في العمل هو وساقُه. لابد أنه يكره امرأته. وقد سمِن. كان يريد، قديماً، أن يكون محامياً. درس سنة حقوق قبل الخدمة.. ثم جاءت الحرب.. كان يحرك ساقه الاصطناعية، طوال الوقت تحت الطاولة، ولم يُفلح في أن يجلس جلسةٍ مريحة. وكان ذلك يذكّر اوريليانَ بلوسيان موريل. وسأل لكن متى أصبتَ بجرحك؟ بـ.. الحاصل..

قال الآخر: ساقي؟ هذا هو نصيبي ! في نهاية الحرب بالذات، تصوّرْ في تشرين ١٨، وعلى طريق «موبيج»، بينما كنا نُسرع في الانسحاب من الـ «مالميزون». أن أكون قد قضيتُ ثلاث سنوات في الجبهة، وكيف! دون أن..

حتى.. واعلم أني لم أكن من أولئك الحمقي الذي يلقون بأنفسهم في ورطة.. يجب أن أقول الواقع، كنتُ خائفاً، وواثقاً من أنني سأقتل، كنتُ أعدّ يديَّ ورجلي... فإذا اشتدّ القتال تصببّتُ عرقاً. وكان يدور بخلدي دائماً أن هذا سيقع... كنتُ إذا اجتزتُ السترة الأمامية، مشت الحالُ. لكن الصعوبة كانت دائماً في تسلّقها. لاأدري، أنتم تبدون وكأنكم لا... أما أنا، ياإلهي! عندما أحسستُ أنني أصبتُ عدتُ الى التحقق من أطرافي. الرأس واليدين والساقين.. كانت ساقاي ماتزالان موجودتين، لكن أحداهما كنت أحسُّ فيها -وكان ذلك غريباً- بالبرد..

لم يستطيعوا صبراً، لم يستطيعوا انتظار الحلوى وقف «بيكمبي» وعلى شفتيه وذقنه آثارُ الزيت، ولونه التبنيُّ أظهر من ذي قبل ، ويدُه على قلبه، وأخذ يغنّي بناءً على الطلب العام.

«ان لم تصلْ «روزين» على الفور

فوا أسفي وأسفي! سوف أموت..»

قال هوسون شاراس: الحقُّ معك! لكننا سنسمع بعد قليل السيريناد، سترى...

قال اوريليان: لا، ماعلينا ألا أن ندفع «بالانت»، فلن يتوقف «بيكمبي»؟

- كوسي دي بالانت».. الرسّام.. الضخمُ هناك... اوه، إنّه فكهٌ إذا لم يتكلم عن الرسم..

هزّ ا لدكتور «ديكور» رأسه».

- غريب، ليرتيلوا أنت تعرف الجميع ههنا.. ماكنتُ أظنّك هكذا.. كنت أعتبرك منعزلاً، ثم إنك تُقيم، في الواقع علاقاتٍ غير متوقّعة، هذا كل شيء!

نظر إليه اوريليان وابتسم. أحسّ بعزلته. لم يكن يستطيع أن يمتنع من الالتفات. كان يدير ظهره لباب المطعم الذي ربما سيدخل منه ادمون، ادمون الذي لم يكن يحب ان يبدو كمن يلاحقه. ادمون الذي سيحدّثه عن بيرينيس. وفجأة غدا حسّاساً لجميع تفاصيل الديكور التي لامعنى لها: المصابيح

لنحاسية بالشموع الكهربائية وكممها المغضّنة الوردية. لوحة تمثل البحر لهائج تقابل لوحة تمثل البحر الهادئ بصخور حمراء، وطبقية الى جانب لطاولة مغطاة بالزجاجات الغريبة، وبسطول الشمبانيا، وبأدوات المائدة النظيفة لتبديل، وقطيفة على البيان مبسوطة لها شرّابات، مع إناء من صنع «سيفر» تنبعث منه وروداً اصطناعية، والى ما في عدم تناسب الغرفة من غرابة، والموائد لصغيرة هناك التي كان ينظر منها أناسٌ بعيون متضايقةٍ وكأنها عيون جماعة فريقية وقعت مصادفة في غمرة احتفال شعبيّ فلا ماندي، والفرح الصاخب، صيحات الاستحسان التي تخلّلت بإيقاعها الأغاني والضحكات والصرخات، الرغبة المحسوسة لدى الكثيرين في أن ينهضوا ويرقصوا، وليموتار الذي ثمل كلّياً وهو يحرّك شوكة، وانتظار المشهد التالي. لكن بينما كانت تُقدمُ المثلجّات، م ينهض «بالانت» بعد بيكمبي»، بل «بومبار» الملازم بومبار، بصدرته المقلمّة باللون الأصفر والأسود. قال اوريليان في نفسه: آه، سيكون الآن.. كما كان في «الايبارج».

نهض «بومبار» وحرّك ذراعيه نزع. سترته وبقي بالقميص وتلك الصدرة الشهيرة شبيهاً بالقرد تماماً. ألفى اوريليان فيه هيئته في الجبهة، خوذته المردودة الى الخلف هي التي كانت تنقصه، وإلاّ.. كان يمشي الآن كما كان يمشي جينذاك، ذقنهُ المرّوسة الى الأمام، حانياً كتفيه المقوستين. حينذاك، كان يُرى هكذا، قبل عشر دقائق من الهجوم في معطفه الوسخ، واقفاً على السترة الأمامية ليدهش الناس وهو ينظر الى الألمان بمنظاره. في هذه الساعة، أخذ يتحدّى رفاقه: «مارسولو»! يامارسولو! أيها الخامل،تعال الى هنا وقمْ بمصارعة الثيران!» والتفت الى آخر. «هورو»، ياصاحبي الصغير، هلا عزفت لنا موسيقاك الشرشورية. أخذوا يمزحون. وذكرّهم ذلك بجملة من الأشياء. تدلّل «هورو» قليلاً، فجروّه الى البيان، جراً. كان يزمجر، كان يزمجر دائماً، هذا الشابُّ بنظارته المقورة الزجاجتين من الأعلى، وشاربه الذي كان يخلو من الشعر في مواضع فيه، وكتفيه العريضتين اللتين حالتا دون لفْت الأنظار إليه. وبينما كان

يجلس عند البيان الذي جعله الغبارُ يصرّ، تواجه بومبار ومارسولو. كان الأمر طبيعياً بالنسبة الى مارسولو.إذ تقوم فوطته مقام الدثار، وقد بدأ يتصنع ويقف على أصابع رجليه. وما إن وقف الخيال القديم حتى بدا رهيباً بهيئته، هيئة الزنجيّ الأشقر، وببقع الحمرة في الجبين، وشعره القصير الجعد الأشعث، وبقوام كقوام أبولون، وخصر مدّور، وذراعين ربلتين مفتولتين. نعم أن النساء لاينسين هذا الرجل. أشاح الذي يتصدّر المائدة بوجهه، وقد اغتاظ قليلاً؛ إن الجمال العاميّ لمرؤوسه القديم كان ثقيلاً عليه، على النقيب «ميلو» إنه يذكّره بقصص قديمة.

هتَفَ «هوسون شاراس: «انظرْ إلى بومبار! لم يطلْ به الوقت حتى يجد مايلزمه!

والواقع أن بومبار قد اختطف الورود الاصطناعية التي حُشي بها الإناء المزخرف باللون الأزرق والذي كان يزيّن الطبقيّة، وربطها حول جبينه مثل قرنين هائلين، وأخذ يثب يميناً وشمالاً بوحشية مضحكة، بينما كان الملازم «هورو» على البيان يمهّد بمقدمة موسيقية من النمط الإسباني. ووقف ليموتار وهو يصفّق بيديه ويصيح . «تورو، تورو!» وسط ابتهاج الآخرين. توقف الندُل الذين يحملون الشمبانيا ليتفرّجوا على المشهد، ونهض زبُنُ المطعم وحاولوا أن يروا.

سارع «فوشن» وأخذ يقوم بدور الحكم، بين الثور بومبار ومصارع الثيران مارسولو، وهو يتحرك بحركات المهرّج. هذا لم يكن جزءاً من تقاليد الاحتفال القديمة في الكتيبة الثانية عندما كان يُلاحَقُ الثور في ملجأ صغير، على خط الجبهة، أو في أي مطعم، أثناء الاستراحة. كان التجديد مسلياً، ولذلك أخذوا يطورونه. وقلّد «بيكمبي» و «بالانت» إيمائياً، وبعد اتفاقهما، الذين يعتنون بصحّة المتصارعيْن، فهذا يمسّد قرنيه وذاك يزيل الغبار عن ذيله. وكان ذلك حافلاً بالابتكار، كلّ مايحتاج إليه «بالانت» الذي كان يكره ألا يكون مركز الانتباه. وكان «فوشن» يختال ويقود المتصارعين كلاً بدوره، ممسكاً بيده ليقدّمه الى الجمهور كما تُقدّم العروس، ويقلدُ إيمائياً، كما كان «ريغادان» يقلد، قديماً

في السينما سيناريو المعركة الآتية. ثم ينسحب وهو يُرسل القبلات. وعَزَف «هورو» كارمن: «أيها المصارع، خذْ حذرك..» فردّد الجميعُ الكلماتِ معاً.

كان الدكتور «ريكور» يحرك رأسه، وينظر الى ليرتيلوا بدهشة وقد بدا عليه التأثّرُ، وتلك ثالثةُ الأثافي! «يبدو عليك التأثرُ، ياعزيزي..» التفت اوريليان: «أجل، في ذلك شيءٌ من الغباء... لكن هذه الحماقة، كما ترى، هي الحرب، حربنا..»

كان مارسلوا يهاجم بفوطته، وكانت صلعةُ بومبار تلمع بين الورود الاصطناعية وهو ينقضّ عليه، ويعود، ويهددّ بالارتماء على الجمهور، ويقف أمام حاجزٍ وهمي، ويخبّ حذاءه. «تورو! تورو!» أكمل اوريليان كلامه:

آخر مرةٍ رأيت فيها هذا، كان بومبار يقوم بدور الثور.. كعادته دائماً. لكن المصارع كان «فوديربيل» الصغير وهو مرّشحٌ صبيٌّ من «ليل»، شديد الشقُرة حتى ليبدو كالفتاة، وفي «الايبارج» قتل المرشحّ في اليوم التالي، أثناء الهجوم... اوه! أعلمُ أن تلك قصةٌ ليست من سلامة الذوق في شيء! كان الجميع يصرخونَ من الفرح. كان «بومبار» مضحكاً. وقد أرهق رئتي «مارسولو» الذي كان أصغر منه بخسمة عشر عاماً. وكان البيان يوقّع لازمته، على نحو متصاعدٍ. وكان ليموتار، في زاوية، خلف المائدة يرقص رقصةٍ اسبانيّة، مصفّقاً بأصابعه مستخدماً فوطته وكأنها شالٌ. ولم يبدُ على أحدٍ أنه لاحظه.

همس الدكتور: غريبةٌ حربكم، ليس لدينا فكرةٌ عنها، نحن الذين في المؤخّرة..

انتهى السباقُ بقتل الثور. تمرّغ بومبار على الأرض. وهلّل الحاضرونَ للمصارع، وأومأت الشفاهُ بالقبلات. على المائدة، صُبّت الشمبانيا من جديد. شرب عازف البيان الذي تعب رأسه وشكا: آه لا، فوشن! غيرُ موفقة هذه الشمبانيا! إنها محُلاّة!» احتجّ «فوشن»: كان البعض يحبّها مزّة... لكن الآخرين... ولم يَدْرِ مَنْ يُرضي. على كل حال، إنه هو لايهتم بالشمبانيا وقد قُدمتْ لأن هذا المساء مساءُ عيد «السان سلفيستر»، ولولا ذلك...

صاح النقيب «ميلو». صحيح! «هورو» الصغير هذا يتذمّر أبداً، يالهذا الطبع السيّء!

ـ لكن الشبمانيا... ياسيّدي النقيب.

ـ ليس النقيبُ مانعاً! إنه يطلب شمبانيا، فَلْيُعْطَ الشمبانيا!..

تجمع أربعة أو خمسة على هورو، فأخذ يتخبّط، لكنه أجبر على شرب الشبمانيا من ا لزجاجة، فسالت عليه تلك الشمبانيا المحّلاة الفظيعة. لم يَثْملْ ليموتار وحده.«بيكمبي» ثمل أيضاً. أراد أن يُغنّي، لكن «بالانت» الذي كان ينتظر لحظته أخذ يمثّل بحرارة. نقَّ ستيفان دوبوي. هيا، جيّد، هوذا بالانت يُمثّل دور ساعي البريد.

هذا هو المشهد الذي يُحسنه. فما ان يضع الكأس في شفته حتى يقوم بدور ساعي البريد. كان يتجوّل ومعه حقيبة البريد، ويحيي المارّة بأدب ويصعد الدرج، ويدخل بيت سيدّة صغيرة فتحت له البابَ وهي عارية، ومنزل كاهنٍ... ومنزل البوّابة، وهو على دراجته الناريّة في الريف... لم يكن كلُّ شيء مفهوماً، لكن كان من اللياقة أن يضحكوا. كان يجري عبر المطعم ويثير اهتمام زُبُن الطاولات الصغيرة بإيمائيته، ويعود، الخ.. وأخيراً غطّى الصوت الجميل الذي أثر فيه الشراب والذي كان يغنّي. مانون» هاهي ذي الشمس.

حدث نوعٌ من الهرج والمرج على المائدة. شكّل الحاضرون جماعات صغيرة، وأخذوا يصرخون بعضهم لبعض بأشياء شتّى. وحُملتْ القهوةُ، والشراب، ودُخِّن السيجار. كانت المائدة جدّ وسخة. ثمة أشياء مكبوبةٌ ورمادٌ في بقايا الثلج الذائب، وقطع من البسكوت الذي هشّمتْه أصابع النقيب العصبيّة.. أخذ الآن «بالانت» الذي اهتاج تماماً يغني لحنه العظيم: فتاة نونكان، وكان الجميع، دوبوي، هورون، هوسون، بلانشار، مارسولو، يردّدون اللازمة معاً: يافتاتي الآنا... الآنا... الآنامية.. قال الدكتور لاوريليان. الواقع، أن حربكم حربُ ضباط، حرُب رتباء... ليس بين هؤلاء أي جندي...

هزّ اوريليان كتفيه: «أنت لاتفهم شيئاً من ذلك ياصاحبي. هناك جمعيات للمحاربين القدماء.. وهذا أحد اجتماعات رفاق السلاح.. كانوا رتباء بالمصادفة

الممكنة إننا لانُعيد تكوين أنفسنا... فبتلك الرتب على أكمامنا كدنا نُقتَلُ، فهمتَ... وها نحن نتلاقى...

صاح هوسون شاراس من كرسيّه، ورجلُه ممّددةٌ:

- وأنت، ليرتيلوا، ألا تغنّي معنا؟

نظر الدكتور الى اوريليان. شرعٍ اوريليان يغنّي. عضّ «ديكور» شفتيه قليلاً. لا لأنه اشتهى ان يضحك. أدرك الهوّة التي في الناس. ما أبعدهم عن الصورة التي كوّناها عنهم او التي كوّنوها عن أنفسهم. فهذا الفتى المتميّز، المتسكعّ الذي يُرى في مونمارتر، أو في منزل «ماري دي بيرسيفال» أو في منزل آل باربنتان... الأنيق في ملبسه، الملازم للصمت: هو نفسه الذي يغني الآن، وللمرّة الأولى، وقد تصبّب وجهُه عرقاً، ولم يبدُ عليه أنه يراقب نفسه... أدرك الدكتور أن ليرتيلوا كان في وسطه الحقيقي. وفكرّ بمرارةٍ عميقة أنه لم يصل الى هذا النوع من الاكتشاف لدى اوريليان وحده. ماذا بوسعه أن يقول عن «روز»، روز العظيمة التي كانت تُلقي «رامبو». آه! أحسّ بمَنْ يمسك ذراعه . كان «ستيفان دوبوي»، وقد احمرّ تماماً، ونزل شعرُه الى عينيه، وهو يعضّض أطراف شاربه من اليمين والشمال، بعصبيّة لاعب كرة ا لقدم.

- قلْ لي، دكتور، لقد قال لي كلمةً عن القصة... فكرةٌ أصيلةٌ، مستحضرات ملروز... ستلاقي نجاحاًباهراً.. يريد «فوشز» أن أجري مقابلةً.

- آه نعم؟ لايمكن أن يتأخرّ «فوشز» هذا إذا اشتمّ رائحة الحلوى. كان ديكور يعرف الصفقة. سيمرّ مديراُلصحيفة بمنزل «باربنتان» كان ذلك سليماً. وعيّنا موعداً للمقابلة. كان دوبوي متهيجاً لفكرة روز فتملّق الزوج، لابد ان يكون رجلاً قوياً ديكور هذا. حاول ستيفان ان يمدح نفسه، فتحدّث عن الكتاب الذي كان يكتبه، وهو رواية: الموضوع خيبةُ آمال مقاتلٍ يجد الحياةً فارغة فراغاً عظيماً، بعد تلك الخمر الخارقة، عادة القتل، الحرب أخيراً، هذا العالم التافه، بلا هواء...

سأله الدكتور بلهجته البريئة، الاجتماعية: «وهل قتلت كثيراً من الناس؟

«ضحك الآخر طويلاً، ضحك المتضايق، وحرّك كتفيه وردّ شعره.
- آه! كنتُ، كما تعلم، مدفعيّاً.. لكني عرفتُ آخرين، هؤلاء...

أشار الى المشاركين في المأدبة الذين كوّنوا جماعات، بعضُهم حول النقيب «ميلو» وآخرون مع «فوشز» و «ليموتار» اللذين كانا يتلاعبان بعيدان الكبريت. وكان «بيكمبي» وحده، يغنّي. «الحلمُ يمرّ». أترى هؤلاء، الفرسان والحرس...

قال ديكور « من الواضح أنك تعرف ماتريد أن تقوله. أما أنا الذي لم يفعل شيئاً في الحرب، سوى الاستعراض...

تغضّنت شفتُه تغضّناً مثيراً حين قال هذا. صُدم «دوبوي»، لكن «ديكور» فرض هيبته عليه. وكان أتفه الأسباب سيدعوه الى التشديد على أنه هو، في الواقع، كمدفعي... لكنه توسع في شرح موضوع كتابه، الجانب الآخر، الجانب الثوري ثورة البطل، واشمئزازه من باريس هذه، باريس التجارة والسياسة والخدع.. ثم هناك الشعرُ طبعاً، والهرب الى الريف، والوحدة، النهاية الخائبة.. «فهمتَ، لا أستطيع أن أدع «بول» يذهب – بول اسم بطلي– الى تاهيتي كسائر الناس.. الى الحبشة... سيذهب في النهاية، الى الساحل البريتوني، فهي منطقة بلا سُياح. مع الجزر والصيد، وصيّادي السمك.. وهو ينتهي كما يبدأ بطل «كنوت هامسون».. أتحبّ «هامسون»؟[1]

طبعاً، كان الدكتور يحبّ هامسون. ما الذي لم يكن يحبه الدكتور؟ قاطعهما «هورو»: «ألا تريان أن هذه المأدبة تنقصُها النساء؟

لا يُصدّق أن ذلك كان يَهمّ هذا النحيف الصفراوي، بذلك الصوت المسرف العلوّ، غير المحتشم، وغير منتظر لدى هذا المستخدم المتوسط القامة، المتوسط الوجه، المتوسط القدمين. قال هوسون شاراس، وقد تدخّل في الحديث بين الدكتور و «دوبوي» بعد ان أهمل إهمالاً شديداً هو وساقه. هو محاسب في

(١) روائي نرويجي تعاون مع النازيين – المترجم.

دارٍ كبيرة لبيع أدوات الموسيقا. أمن أجل ذلك يعزف على البيان أم العكس؟

قال الدكتور. آه! من قانون السببيّة هذا!

ثم إن هذا يعطيه أفكاراً عن الفن وكان يقول. إنه لم يتزوج لكي يذهب الى الحفلة الموسيقية. قال هوسون مستوقفاً اوريليان: «أتذكر ليرتيلوا «هورو» في «مورتوم»؟

- عندما أصيبت زجاجة شراب السعال!

،مزحا. أيّ مهووس «هورو» هذا! حتى في النقب كان هوسُه بالنظام يقارب الفضيحة. على خمسين سنتمتراً مربّعاً كان ينظمّ نفسه تنظيماً عقلانياً. طاسه، قصعته،، سكّينه.

- واللثام، هوسون، لاتنس اللثام!

– الجوهري في احتياطاته ضد الموت، مع الشراب... وسحنته عندما حطمّت الرصاصةُ زجاجة شراب السعال..

- لم تكن رصاصةً كانت شظيّة!

تجادلا في هذه النقطة من القصة «تصوّر أنه هو الذي يُطالب بالنساء، هذا المساء!

قال الدكتور:

- الواقع، أعترف لكم.. ليرتيلوا وأنا، أعرف لماذا جئنا وحدنا... أما الآخرون... فماذا فعلوا بأولئك السيّدات؟ وفي آخر يومٍ في العام. أيضاً!

قال دوبوي:

أوه! معظم هؤلاء سيقضون سهرة عيد الميلاد مع أسرهم! الواقع أننا لسنا مستائين من لحظة الحرّية هذه!

- نعم؟ غريب...

- أشار الدكتور الى مارسولو:

- أليس متزوجاً؟

قال هوسون:

ـ لا، له صديقته... تشتري له ربطات عنقه. وبومبار ترك السيّدة في مرسيليا
وهو عابر سبيل. أتذكر، ليرتيلوا، صور السيدة بومبار؟ كان يُريها طوال الوقت
شعرٌ سابل، وصليب ذهبي بسلسلة، وعينان صغيرتان، بورجوازية طبيعيا
حقاً .. لم يكن هذا يمنعه من الإصرار على مصاحبة بنات الفندق في المأوى..
أتذكر؟ لابد أنه يُعيّش تلك البرجوازية حياةً لا ضابط لها.! ولـ «بيكميي» ثلاثا
اولاد، وقد قُتِل اخوته، وعاد الى إعالة أمه، وامرأته لاتني تصرخ من الصباح
الى المساء. ولم يتعافَ الأولاد! يجب أن تفهمه، فهنا يستعيد شبابه. إنه وكيل
لبيع الألبسة النسيجية، ومايمثّل ذلك من حصر ممسوحة، وحبالٍ مشدودة
وقبعّات في اليد، مع تلك الأفواه التي يجب ان يطعمها! وبلا نشار الذي يبيع
الإطارات المطاطية عند باب «مايو» مع خمس بنات وامرأته التي هربت... هز
الدكتور رأسه بصمت والتفت الى ستيفان.

ـ نعم، ياعزيزي، الحقُّ معك، العالم سيُّء التكوين، ومن المؤسف ألا تظل
الحربُ قائمةً!

دمدم «هوسون» وجسّ فخذه. نظر اوريليان الى ديكور دون ان يفهم
لكن «دوبوي» الذي فهم على الفور قال «نعم... ربما كانت تلك الأيام هي الأيام
السعيدة..



انتهى هذا الاحتفال الصغير نهايةً سيئة جداً. كيف ابتدأ الشجار؟ لا يستطيع أحدٌ ان يقول: كيف. فمن المؤكد أنهم قد أسرفوا في تناول الكؤوس الصغيرة المسكرة، شربوا «الارمانيالك» بعد شراب الفواكه البورغوني المسكر، و«الشنابس» الصاعق الذي طرح من جديد على بساط البحث الكثير من ضروب الحكايات الألزاسية التي لم يتّفقوا عليها. ولعل «ليموتار» الذي سكر قد تحدّى بلانشار الذي لم يكن يحبّه. لكن ما الذي قاله بدقة بلانشار قبل ذلك؟ هذا المهرج الكبير الأسمر والهزيل، بشاربه المتهدّل، وجلده المدبوغ، وحركاته التي تشبه حركات طواحين الهواء. ظلّ هادئاً، أثناء الوليمة كلها، لكن أفكاره كانت معروفة، وكانت دعوتُه مبادرةً كريهة من وحي فوشز، وقد استطاع ان يثير غيظ «ليموتار» بحديث من أحاديثه. كان يصرخ أنه لا يتقبّل دروس الوطنيّة من أحد، وكان من المعلوم انه يحمل وساماً حربياً رفيعاً، لكن ذلك ليس سبباً كافياً لأن يقول بعض الأشياء.

إن هذا العراك الذي لاسبيل الى وصفه، ما ان يضرب أحدٌ أحداً، والذي من المستحيل ان يهتدي المرءُ فيه الى سواء السبيل، قد أخرج أناساً عن طورهم، مثل «مارسولو» الذي لم يكن يُضمر مودّة خاصة للمفتش السابق، والذي رأى ليموتار في حالته تلك يُضربُ ضرباً مبرّحاً. والواقع أن «مارسولو» لم يستطع أن يهاجم هذا الهيكل العظميّ بلانشار، كان ذلك عديم التناسب جداً، ووجد نفسه مقابل «بيكميي» الذي لم يخطر له، وهو المتحفّظ، أن يتعارك مع ملازمه القديم، الذي استشاط غضباً، في هذه الساعة.

حاولوا تفريقهما، وتعالت الصرخات، مهلاً، مهلاً، ولاسيما أن مارسولو كان تفوّقُه ساحقاً، وكان يستخدم لكماته، فلما تفجرّ الدم من أنف خصمه، أثار ذلك الجميع. كان «هورو» لايني يصيح. وأمسك اوريليان مارسولو من ذراعيه. وشدّه الى الوراء. احتجّ الآخر، لكن ذلك اتاح للنقيب «ميلو» الذي تبعه «بومبار» وهما زعيما الجماعة، أن يتدخّلا. تظاهر النقيب بأنه يجهل بداية النزاع، فلام

مارسولو الذي لم يكن يطيقه، والذي كان عليه أن يتذكرّ رتبته قبل ان يضرب عريفاً، وأعاد عبارته المقدّسة. «متّحدون كما كنا في الجبهة...، وأغرق ذلك بخطبة له.

كان هناك كؤوس كسرت، وخمرٌ على غطاء المائدة، وأوساخ في الأرض، والصحون الوسخة وسط ذلك كله...

قال هورو: «ماهذه المسخرة!» وتظاهر دوبوي الذي يصرخ ولا يفعل شيئاً، بأن الوقت لم يتسع له ليتدخّل، وصاح. ماذا جرى؟» وهو يحرّك عضلاته. لابّد أن المدفعي كان دائماً كذلك.

وأخيراً تفرّق القومُ. طلب هوسون شاراس من «فوشز» ان يأتيه بسيارة أجرة. وأخذ الجميع من حجرة الثياب ثيابهم، قال الدكتور لأوريليان. «هل ستسهر سهرة عيد الميلاد في مكان ما؟ هزّ اوريليان رأسه نافياً. سيكمّلان السهرة معاً. وكان «هوسون شاراس» يودّ لو ركب معه سيّارته، لكن المطر كان قد توقف، ولم يكن مُزعجاً أن يمشي قليلاً، ليطرد آخر الأبخرة. وكان أن اوريليان وديكور هبطا درج «الساكريكور» مع «هورو» و «بومبار».

أمسك «بومبار» بذراع اوريليان كمَنْ له دالّة:

ـ «أنا سعيد برؤيتك، ياصغيري... لم أستطع محادثك أثناء الطعام... كيف تدبرّ أمرَ هذه الحياة الكلبة؟ أأنت متزوّج؟ لا؟ الحق معك. لاتتزوّجْ. لاتتزوّج أبداً...

كانت الكنيسة فوقهم، وتحتهم المدينة غارقة في ضباب الأنوار. دفعهم البرد الى شدّ معاطفهم، ورفع قبّاتها. كان «هورو» يدمدم، على عادته.

ـ مارسولو. مارسولو، دون شك... دائماً يتلقّف الشجار... شخصٌ سيّءٌ... عندما كان معاوناً للمقدّم، كان يقضي وقته في الوشاية بهذا وبذاك...

قال بومبار:

ـ مهلاً، مهلاً، من البديهي أن المقدم لوكان هنا لما حدث شيءٌ من ذلك... وميلو تنقصه القدرةُ علي السيطرة..

ـ أنصحك بالدفاع عن مارسولو، أنت بومبار... أنت تعلم أني كنتُ مع

المقدّم قبل مارسولو، ثم ألحقني العقيدُ به... كان يقدّر مزايا النظام فيَّ -وحينئذٍ عرفتُ جملة من الأشياء.... ما الذي حال بينك وبين الترفيع طوال سنتين، بومبار، ماقولك؟

جفلَ الآخر، وتوقّف ويده على الدرابزين، وكانوا في منتصف الدرج. ربّت على كتف هورو.

- ألن تقول لي إنه، أحياناً..؟ مارسولو...؟ لا!

مشوا بصمت، كان يُسمع من تحتُ، في الليل، موسيقا، وتزمير السيارات. قال الدكتور شيئاً عن مونمارتر، في السنة المنتهية. وكان اوريليان يفكرّ في بيرينيس.

انفجر بومبار فجأة:

- أتظنّ ذلك، أنت، ليرتيلوا؟ مارسولو... يَغدُرُ بي! هذا الشخصُ الذي كان يحتاج الى القليل من المال، يأخذه من هنا ومن هناك... دون ان يرجعه على كل حال... كان يتدلّل على حسابنا ثم... هذا المخبول!

قال «هورو» وهو يصرف أسنانه.

- لو أريتكَ بطاقاتي... عندي بطاقة عن «مارسولو».. أتذكر، في الـ «ايبارج»..

- صدقت، يابنيّ! أراد رجالهُ أن يسيئوا معاملته لأنه اختبأ أثناء الهجوم... انا أنقذته من وضعه! وتصوَّرْ أن هذا القذر...

تنهّد الدكتور:

- الواقع أننا لم نكن نتصوّر، نحن الذين في المؤخرة، أن الأمور كانت تجري على هذا المنوال في خطّ القتال..

هدّأ ذلك الموقف. لكن«هورو» كان مندفعاً. ساخطاً تراكمت أحقادُه. كان هناك أشياء يتحرّق الى قولها:

- نعم... متّحدون كما كنا في الجبهة... هل سمعته، هذا الغبي ميلو، كان

لايفارق مارسولو. لكن مارسولو اختطف منه فتاته... فأصبح كلُّ شيء منذئذٍ صالحاً ضد مارسولو.. ولندعْ الخلاف الشخصي... أما كان من حقي الحصول على وسام جوقة الشرف عشرين مرة بدل الواحدة؟ أتعلم من الذي نزعها مني؟ مُرشد الفرقة، بالطبع، هذا البقّ! العقيد يقدّرني، لكن عندما تكلّم اليسوعيون... وعندي قصصٌ فظيعة عنه، الأب «بيليار»! آه! متى يأتي اليوم الذي يمكن أن تُطبع فيه بطاقاتي!

هبطوا شارع «ليبيك». كان الشارع غاصّاً بالناس، مظهر عيد، وجميع الحانات الليلية مضاءة بالرغم من البرد. توقفوا في ساحة «بلانش»، في اشتعال أضواء المقاهي الكبيرة. كان «بومبار» يهمس، بطاقة مارسولو، مع ذلك! والعجب أنني كنت ألعب معه لعبة الثور مع المصارع!» ودخلوا «ويبلر».

تسلّى الدكتور بحنق «هورو» وكان يسأل أسئلة ماكرة، ويشجّعه. وكان بومبار كلُّه دهشه من العدو المكتشف. من أجل ذلك نال ترفيعه الثالث متأخراً جداً حتى إنه لم يُثبَّت. لقد أُخِّر ترفيعه، وهو يجترّ هذه الإهانة منذ نحو ثلاث سنوات. كان يبيع دائماً الزيت الرديء، وكان مراً عنده، فهو لم ينل في الحياة مايستحقّه. كان يودّ أن يكون نقيباً حقّاً. كان اوريليان يشارك في الحديث برخاوة. كان تائهاً هو أيضاً في شعوره بالظلم. كان يود أيضاً أن يُلقي المسؤولية على اليسوعيين والماسونيين، وهو لايستطيع. لقد كانت تحبّه ولم يُجدِ حبُّها شيئاً. كانت تحبه وستهرب منه. لن تكون له أبداً.

سأل ديكور:

ـ ماذا يفعل في الحياة المدنيّة بلانشار هذا؟ تاجر إطارات؟

ضحك هورو:

ـ اوه! تاجر، تاجر! بل هو بائعٌ بالمفرّق.. في مكان ما بحذاء السكة الحديدية المحيطة.. هو مُعْوزٌ.. وهو يُعيل أسرةً وقد هجرته زوجته.. زوجٌ مخدوعٌ مسكين!

قال الدكتور:

- مثلنا جميعاً

ضحك بومبار، وزمّ «هورو» شفتيه واحتّج:

- تكلّم عن نفسك... تكلّم عن نفسك... واعلمْ أن من حقّه أن يفكرّ كما يشاء.. حقوق الإنسان... لكن هذا ليس سبباً كافياً ليأتي ويثير الاضطراب بيننا... المصيبة أن أمثال مارسولو يتدخّلون في هذه المشاكل! أنا أدعو الى السلام كأيّ إنسان، ولم يمنعني ذلك من.... لكن مما يثير الأشمئزاز أن نرفع راية الدعوة الى السلام...

عمَّ كان يدور الحديث؟ بدا على الدكتور أن الأمر واضح بالنسبة إليه. أما اوريليان فكان على مئة فرسخٍ من الحديث. كان يرى وجهاً ينمّ على الألم، مغمض العينين، ووجهاً منغلقاً وصدفيّاً، وشعرا غير ممشوط، أشقر، ونوراً أعمى، وفماً... آه! كان يرى طوال الوقت رسمَ هذا الفم يتغيّر!

أهكذا كان فم بيرينيس؟ ورسمُ الشفتين هو الذي يتشكّل بحسب رغبتنا: كان اوريليان يخلط بين جميع الشفاه التي عرفها في تذكرّه لبيرينيس، فلم تكن بيرينس حبَّ اليوم فحسب، بل كانت حبَّه، الحب الذي خالجه أزاء النساء الأخريات، وهاجسه الذي حمله معه عن النساء في ليل الحرب المظلم، وأحلام يفاعته، وقلقه كرجل. وفجأة إذا به يعثر على نموذج الخدّين المجسّم، ووجنتي بيرينيس، وإذا بالعينين تنفتحان ببطء، العينين المعتمتين، عيني الذكرى المائلتين...

قال بومبار:

- امزح بمفردك، ياصغيري هورو... أتُقسم لي أن مارسولو..؟

صاح المحاسبُ:

- آه، مابك! هل ينبغي أن تكون بليداً.. لا؟ ما أشد غباءه! لو رويتُ لك... لكنك كنتُ موجوداً.. آه لا، صحيح: لقد جُرحتَ قبل بضعة أيام... عندما وصلنا الى قناة «ايليت»، في قرية، هناك... نسيتُ اسم القرية... الحاصل، لاشك أن

«ميغل» هو الذي استولى على الموقع... أتعرفه، ذلك الفلاح المتورّد الوجنتين. ذلك الفتى الطويل الجَعْد الشعر، بشاربه... بلى، عرفتَه... كان ملازماً ثانياً، وكان يُعد نفسه ليكون معلّماً... بعناصر من الفصيلة ا لخامسة... كان ذلك بالضبط بعد ترك «روكيس» التي أخليت، ولم يكن حينئذٍ هناك مَنْ يحميها، ميغل... المقدّمُ كان في الفوج، وكان العقيد قد تركنا آنذاك... كل شيء دُبرٍّ بين ميلو ومارسولو.. كان ميلو يقود الكتيبة.. وأخيراً أحرز مارسولو وساماً وهو لم يُرَ على خطّ القتال.. وقُتل ميغل.. آه! لاحظ له، هذا الفتى ا لمسكين. كان خطيباً لطالبةٍ في منطقته، في «الشارانت»... وفي صباح ا لحادي عشر من تشرين الثاني... تصوّرْ في الحادي عشر من سنة ألف وتسعمئة وثماني عشرة! وقنبلةٌ فرنسية، فوق كل شيء قبل نهاية الحرب بالضبط... كانت الصناديقُ تفرَّغ.. أحد عناصر المدفعية... قُتل «ميغل»، ولم يبق منه شيءٌ ... انا لمحتُ أغراضه وقرأت رسائله... في الحادي عشر، نحو الساعة التاسعة والنصف، في «اللورين»... آه، آه! متّحدون كما كنتم في الجبهة! حلوةٌ هذه ا لمزحة!

كان هورو قد أسرف في الشراب أيضاً. رأى الدكتور في عيني اوريليان تعبيراً عن نفاذ الصبر. وكان «بومبار» يجترّ اكتشافه.. كانت الصحون الصغيرة تتراكم امامه. وكانت الخمر تثير أشجانه. همسَ:

- أني أتساءل لمَ لمْ يأتِ المقدّمُ... هو في باريس مع ذلك. في الوزارة...

قال اوريليان:

- إنه يتناول عشاءه مع أسرته.

ضحك «هورو» وهو يبتلع كأساً دفعة واحدة:

- وتصدّق ذلك! أتراني أتعشى مع أسرتي، أنا؟ والنقيب الصغير؟ أيتعشّى مع أسرته؟ باربنتان؟ هؤلاء الناس لم يعودوا يعرفوننا، هذا كلّ شيء... نحن رقيقو الحال جداً.. لسنا رفيعي المقام... في صدر الصالة، كان الناس يصلون الى المطعم، الى الطاولات المحجوزة لعشاء عيد احتفال عيد الميلاد.

انحنى ديكور على ليرتيلوا: «لنذهبْ ونقضي آخر ليلة في السنة في مكان آخر...» ولم يلحظ الآخران أنه قد دفع الحساب. وتركاهما يذهبان دون ان يفهما. وكان «هورو» يردّد: ليتني أستطيع نَشرْ بطاقاتي! وكانت تنبعث رائحةُ الشواء والجعة وحرارة المطبخ الى حيث بدأت العزف اوركسترا أرجنتينيّة. انقاد اوريليان للدكتور، وفي الساحة، أمام «الطاحونة الحمراء بشرائط أنوارها، تنفّس بعمق، وسأل:

ـ وماذا سنفعل؟

قال ديكور الذي لاحظ طوال المساء خَوَرَ ليرتيلوا، بلهجة أبوية:

ـ ما قولُكَ بـ «لولي» ياعزيزي؟ لكي نعود الى الحياة المدنية.. إن راقَ لك ذلك!... يا الهي!

وإنما قال الكلمة الأخيرة، لأنه لو لم يتلقّفْ اوريليان من ذراعه. لأطاحتْ به عند المنعطف سيارةُ «بوغاتي» صغيرةٌ مجنونةٌ فيها بنتان مكدّستان قرب السائق الشاب.. وسُمعتْ فرقعتُها في الليل.



— ٥٤ —

هاهي، ذي من جديد، الحانة الضيّقة، المدخّنة، بأنوارها الوردية، وهاهو الأكاجو، من جديد، والنحاس، والمناضد العاليةُ، والزجاجات، والخلاّطات، والقش، واللويحات المتنافرة والمضحكة المصفوفة على الجدران مع أعلام «يال» و«هارفارد»: هاهي ذي الموسيقا، من جديد، آتية من المرقص المغربي، وضوضاء الأصوات، والضحكات، وجنون الرجال السكارى والرصينين، والامريكيون والبنات، والسيّدات في فساتين واسعة التقوير، ومعهن مراقصون سمر، وآلفاتُ الحانة، سوزي، جورجيت، ايفون.. ومن جديد ديكور السهاد والكحول، وديمومة الليل التي تُثقلك ثقلاً شديداً بكل الخواطر التي يتحاشاها المرءُ بكل الأفكار الضائعة، ورقص الذين يخافون النوم، ويخافون الا يناموا.. والندُل البيض وهم ينقلون الشراب بين الناس المتعبين، وابتسامتُهم المهنيّة. وكان «لولي» الضخم يجول يبطنه الفينيسي عبر الجماعات، ويضرب يداً بيد صارخاً: «اولي! اولي!» وكان هناك امرأة عجوزٌ ضخمةٌ جداً، بثياب وردية، وشعر مصبوغٍ بلون اليود، وبذراعين عاريتين، وقبّة كبيرة من الحرير تهدّلت مثل ثدييها قرب مكتب المحاسبة، وكانت تكلّم السيدة لولي، عند الصندوق، بطلاقة لاتنضب، وهي تحرك حقيبة لألئها ولحمها المرتجف.

قال ليرتيلو:

- لولا أنك شددتني بذراعي، في هذه الساعة...

- أتظنني أدعُ مساهماً مثلك يُفلت؟

إن عفويّة هذه المزحة أصاب اوريليان في الصمّيم. وكانت قصة الشركة المساهمة كاللازمة التي تلاحقه على نحو غريب. أراد أن يوضّح رأيه من مرّةٍ، فقال: اسمعْ، دكتور...

قاطعه الآخر:

- أعرفُ، أعرفُ... رأيتُ السيد موريل في هذا اليوم بالذات... هو رجل

. لاشك أنه يتضايق وهو يصنع أدويته، بذراعه... وهو ذكي.. يعني من حيث
سيدلي. سيكون مفيداً جداً لنا. وهو خالٍ من المصلحة: فما يفعله لايفعله من
هو نفسه، بل من أجل السيّدة موريل. وماذا الذي لايفعله من أجلها...
يلٌ أن نرى ذلك. فهذه العواطف نادرةٌ، في أيامنا. لقد نسي الناسُ ما
رة الصالحة. الزوج الذي يفكرّ في امرأته. يجب ان نذهب الى الريف لنرى
..

كان صوتهُ دائماً خالياً مَن النبرة الشخصية، مرّاً. لم يكن هذا الدكتور
، شيئاً إلا تراءت فيه «روز»، ظلُّ روز. وحياتهما أهي مأساة أم ملهاة؟ كان
ليان يتساءل أحياناً... أما في هذه اللحظة فقد تملّكه همٌّ واحد:

- هل رأيت أيضاً السيدة موريل؟

- اوه لا! كانت خارجةً، من أجل آخرَ مشترياتها. سوف يتركان باريس
مساءً المرأة بحاجة دائماً الى التنقيب في المخازن قبل ان تذهب لتدفن
ها في الريف..

- غداً مساءً؟

- نعم... بعد قضاء عيد رأس السنة... في الأسرة.

تعلّق اوريليان طويلاً بالأمل في أن ادمون سيحضر الى المأدبة. أثناءها
مدها، لايهمّ، لدى تناول القهوة، أو الشراب... ان يعلم.. فهو يستطيع أن
ل ادمون. لقد خطرتْ له الآن فكرةٌ مجنونةٌ. خطرتْ له في الحقيقة منذ أن
ـح ديكورَ حانة «لولي» مع ادمون المتواطىء او بيرينيس نفسها.. كان من
بيعي ان يكون اوريليان هنا هذه الليلة. وأين يمكن ان يكون؟ سيأتون.
ون هنا، على حين غرّة، في الصالة الكبرى، حيث أمسك بيدها. ستلجأ الى
يلة: ألا تُريد أن تُري «لوسيان» أين قضت تلك الأمسية اللطيفة.. ثم
نمارتر» هل يَعرف الصيدلي مونمارتر؟ مع «ادمون» أو دون «أدمون». لعل
مع «روز»! كان الدكتور يتكلم عن «روز»، عن رقة نفسها، تلك الرقة الفائقة

لدى روز.. الحقوق التي للكائنات العليا في الحياة.. لايجوز أن نحكم عليهم كما نحكم على الآخرين، حسب المعايير نفسها... كانت كلمة «معايير» هي التي تعجب الدكتور.

ـ أتقبل ان نلقي نظرة سريعة على المرقص، دكتور؟

ـ كلا، كلا، على العكس تماماً...

هذا الجو الشديد الكثافة، وجمهور الوافدين، والأبواب الزجّاجة عند المدخل، واحتفاء النذُل، وبائعات الورود، والصالة الكبرى، في نورها الأزرق من أجل رقصة «فالس»، والأضواء العالقة بجلد النساء، الى الشذرات البرّاقة في الفساتين، والرجال السود، وواقيات الصدور، وأغطية الطاولات بلون كشّاف النور... النور يتغيّر مع الأسطوانة الدائرة هناك.. هاهو ذا النور الخبازي.. وعلى مربع أرض الصالة، بين الموائد وزجاجات الشمبانيا، يحرّك جمهور الراقصين أقدامهم وينزلقون، ذابلين، بسحنات... الحمراء[1] بلا نوافر ماء، مع كثير من الراقصات بحيث يثير ذلك شيئاً من الاشمئزاز. على طريقة الحلوى بالقشدة.. نظر اوريليان الى ساعته. الأنوار الدوّارة، والأسطوانة المسرعة، برقشت بكل سرعتها، الصالةَ والشرفات والراقصين. بينما كانت الاوركستر تتسارع في الختام. عادت جلبةُ الصحون والضحكات مع عودة الصمت، وصفقت للاوركستر أيدي الراقصين.. انصاعت الاوركستر واستأنفت «الفالس» وغدا كلُّ شيء أزرق، أزرق، أزرق..

وتسبرُ عينا اوريليان أعماق الأضواء والظلال، توقفهما انحناءةُ ذراع، وتتفاديان كتف امرأة تخفي وجهاً، وتسوقه حركة النذل المستمرة الى تغيير موضعه ليرى.. أن تعبير ذاك الرجل قرب عمود ملوّن، بأنفه المسطح، تكشف عن الرغبات التي تغشّيها الموسيقا. والضحكات المداعبة في ذاك الركن الذي يحترق فيه غطاء المائدة الورقي تترك رنيناً كرنين القطعة الفضيّة. لا.. لا أحد.

(١) قصر الحمراء المترجم.

ساعته في معصمه، الإبرتان تقتربان من منتصف الليل. سيأتون، سيأتون بالتأكيد. ومثل ذبابة سوداء هائلة، ، يشقّ «لولي» الضخم، وهو جاحظ العينين، الجمعَ، ولا يلبث الطريقُ المشـقوقُ ان ينغلق وراءه من تمايل الراقصين ، ويُنادي الاوركستر بشيءٍ لا يُسمَعُ. لقد وصل قبل هنيهة جماعةٌ من الرجال في ثياب السهرة ونساءٌ بفساتين طويلة، فاتحة، هادئة، فخمة، مغسولة على نحو مدهش. فيَخفُّ النُدُلُ، ويُدفَعُ زُبُنٌ في الصدر لكي تُعَدَّ مائدةٌ. ويقف الموسيقيون ويعزفون النشيد الأمريكي.. ويُحيّي السادةُ وهم يمرّون الراقصين المدهوشين الذين جمدوا فجأةً. همست امرأة صهباء وشاحبَة في الضوء الخافت بجنب الدكتور وليرتيلوا: «هذا سفير الولايات المتّحدة !». سارت إبرتا الساعة نحو منتصف الليل. وأخذت تخرج من المطبخ أطباقٌ مدخّنةٌ. استُؤنف الرقصُ، والفالس في الأشعة الملّونة. الإبرتان... لم يكفّ اوريليان عن النظر الى معصمه.. دمُه يخفق. سوف تأتي. وكيف لاتأتي؟ يأبى أن يُصدق... ماذا يقول «ديكور»؟ الشيطان وحده يعلم ما الذي يجترّه! ويتشوّش النظرُ، وتبدو خطوط العتمة، ويُصفّق الناسُ: تلك هي لعبة الحانة الكبرى، المجدَّدة عن متحف «غريفان»، ثلج النور، ندف الثلج الباهتة التي تبدو كأنها تنهمر في صحن الصالة الكاذب بتلاتٍ تتلاشى على الأرض، ساقطة من القناطر، وشعْرُ منتصف الليل إلا دقيقتين، في شارع «بيغال»، بين تهليلات المتعشّين، ووسط «فالس» ايفرينغ برلين».. جاءت امرأة الحانة الضخمة بطوقها الوردي، الى جنبهما لتتفرّج. قال الدكتور الذي لعله كان يفكرّ في غدد هذا الشبح: «انها ضخمة»، وأضاف: مثل نساء بيكاسو في آخر طريقة له»، همس اوريليان بشيءٍ ما. لعل بيرينيس في هذه الدقيقة، في الخارج ، في الشارع المبلّل تنزل من السيّارة... وضربة صنج، وقرع الطبول وصرخات، في الليل. في الليل، شاهد اوريليان الاشعاع الباهت لأرقام ساعته، منتصف الليل.. ثمّة نوعٌ من الفرح الأسود يلفّ الكائنات الضائعة المنفصلة لأنها لم تعد ترى، وتدافعٌ يبحث عن ذاته، وصرخات

وضحكات، والصوتُ الفينيسي، صوت لولي الضخم يقول بالانكليزية: «سنة جديدة سعيدة، سنة جديدة سعيدة!».

وفجأة أحسّ اوريليان بذراعين حوله، ذراعين عاريتين، حول كتفيه، أصابع تبحث عن وجهه، خرقاء. وفي قرع الطبول الذي يُغطّي العتمة، وفي الجلبة التي كانت لهما كالصحراء، عزلة الحبّ، استدار وانحنى، وشدّها إليه. ولأول مرة، ضمها الى جسده، ولمس وجهها، وعثر على فمها الولهان، المختَلج، وقبلّها، وعضّها، وفقد صوابه، وأبى أن يفكرّ في النور الذي سيعود، والزوج الذي ربما كان هنا، بجنبها هي، بيرينيس، بيرينيس، لم يَبْقَ سوى اسمها، سواها هي التي تبدأ بها السنةُ الجديدة، القرن الجديد، بيرينيس..

كان النور مثل بوقٍ، وتجلّى سرُّ هذا الجنون لجميع العيون، وانفصل الناس بعضُهم عن بعض، وأمرّت النساء أيديهن على شفاههنّ، ولمسن شعورهن على نحو آليّ. ويكتشف اوريليان، بين ذراعيه اللتين أرخاهما بأسف، يكتشف سيمون. وبيرينيس، أين هي؟ وما منْ «بيرينيس»»..



— ٥٥ —

«زجاجةٌ أخرى!» كان سطلُ الشمبانيا يطير فوق الرؤوس وكانت لباقة رئيس الخدم البالغة تُبرز سوقيّة الوجوه، وتهالك الأجسام على المقاعد. الساعة الثالثة صباحاً. مرّوا با «لغارون» حيث بلغ الاكتظاظ حداً لايمكن معه تجاوز المشرب. ومنه الى القصر القوقازي حيث اغتاظ اوريليان قليلاً من رقصة الخناجر. ثم أفضوا الى هذه الحانة الجديدة من النمط الفرنسي، وفيها ناسٌ يردّدون ألحان «موريس ايفان». ويحركون لعباً اشتروها من فتاة طويلة زرقاء وشقراء. كانت تتثاءب الآن في ركنٍ من الحانة، وتَنْزع خلسةً فردة حذائها التي تؤلمها. كانت الشمبانيا تنساب مثل مصل اللبن، ولم يُبد الدكتور مقاومة، وبدأت سيمون المحبّةُ الأمومية تمثل برفقٍ. «أنت حزينٌ، ياصاحبي، أرى بوضوح أنك حزين... خذْ اشرب جرعةً... ألا تريد أن نرجع؟» لايريد أن يرجع بعد.. «ماهذا الشراب، أتُسمّي هذه شمبانيا؟ ذوقكم فاسدٌ...» هُرع المديرُ واعتذر، الشمبانيا، أولا ساخنة، هل ينبغي أن أقول لكم مئة مرة كي تضعوها في التبريد... سيعذرني هذان السيّدان... وتراقص السطلُ الفضيّ فوق الرؤوس. همس الدكتور بهدوء. أنت تبذّر مالكَ. ندّت عن اوريليان حركةٌ مبهمة.

قالت سيمون: عندما يُساورني الهمُّ، أنا...

ولم يُعرف ماذا تفعل إذا ساورها الهمُّ. كانت تداعب قذال اوريليان، وتَعْبث بغطاء المائدة، همست: «أحبُّ الملابس الانيقة، أحب الملابس الأنيقة، لامجال للكلام، أحب الملابس الأنيقة..

كيف التقطوا هذا الشخص القصير الهزيلُ بقّبته المسرفة الانخفاض، ورقبته التي لانهاية لها، والتي تصعد وتهبط فيها جوزة عنق غير متناسبة مع الرأس، والذراعين الجديرتين بالرثاء؟ كان من معارف «ديكور. أكان في القصر القوقازي؟ لقد طلع على الكرسي، هنا. ولعل سترته الرسمية كانت مفرطة الصغر، فكان هذا الشاب يسحب ساقي البنطال، ويصالب بين ساقيه، ويحلّ تصالبهما. قال له اوريليان:

«يجب أن تكون أكثر سكراً من ذلك، أيها الشاب» وصبَّ له شراباً. زاد تخرّبُ السترة الرسمية على هذا الشاخص، ومازالت جوزة العنق تصعد وتهبط، وغاب الوجهُ الغبيُّ في الشمبانيا. وظنّ من واجبه أن يكلّم سيمون، وتساءلت سيمون لماذا. كانت تنتظر بصبر أن يقبل ليرتيلوا المجيء معها ليأوي الى سريره. ستأتي به الى بيتها، وسينام. هذا كل شيء. لكن في الصباح، كانت تشتهي أن تضاجعه، ان تلتهمه. وجاءتهم سيدة أخرى من سيدات الحانة لاحاجة بهم إليها، بالأخضر الفستقي. وجلست الى طاولتهم. فمن دعاها، ديكور، الشاب ذو الجوزة، أو جاءت من نفسها؟ كانت تسترسل في الحديث وتطلب الحلوى الألزاسية.

كان ديكور دكّان الألبان قبيحاً: أصفر كنارياً مع يونانيين بثياب وردية ونساؤهم كاشفات صدورهن، أسلوب «في... في».

أصبحت جوزةُ الآخر هاجساً، فهذا العنق الشديد الضخامة، لدى هذا الرجل النحيل. يحتوي على شيء من الفُحش. انحنى اوريليان على المقعد الباذنجاني اللون وصاح بالدكتور، واصبعُه مصوّبه الى غضاريف الزرافة تلك:

- اعرفتَ ما أقصده، دكتور؟

- لا، لم أعرفه بدقة...

ذلك يطول شرحُه . ليته يستطيع أن يحطم أنف هذا المتأنق؟ الذي يغيظ بطريقته في شدّ ثنية البنطال ليرفعه ويُنزله. وبما أن الجوزة..

صاحت ذاتُ اللون الفستقي «لديكور»: أرأيت مَنْ دَخَلَ. بدا عليه كمن رأى. وماذا يهمّه ممّنْ دخل؟ جماعةٌ من الرجال البشعين، وليسوا شباباً، أحاطت بهم النساء على الفور. ذبابٌ حقيقي. ومنتهى الحماقة تلك الكمم البرتقالية على مصابيح الطاولات. أما الخلفية فكانت موسيقا رقصة جاوا بالبيان والاكورديون والناي «قلْ لي، دكتور..» لم يكن يعلم ما الذي يريد من الدكتور ان يقوله له.. أجاب الدكتورُ ذاتَ اللون الفستقي: «عجباً، هذا صحيح...» ما الذي كان صحيحاً؟ حمقاءُ طريقتهم في الكلام.. أراد ان يقول.. بدا على الطبيب وذات اللون الفستقي أنهما متفاهمان. قالت: «فولين..» لعل

هذا هو اسم ذاك الشخص ذي الشارب الأسود، الذي انحنى له الجميع. حلم ليرتيلوا بصوتٍ عالٍ: «ليتني أحطمّ أنفه». أسكته الآخرون، وأدارتْ سيمون رأسه الى جهة أخرى وكان يبدو عليها أنها مطّلعة على الأمر مثلهما... «تحطيم أنف فولين! إنه لايدري مايقول!»

ارتعشت خوفاً ذاتُ اللون الفستقي. ووضعت شيئاً من البودرة: «أعرف واحداً خطف منه صديقة فلمّ يره احدٌ بعد ذلك..».

انحنى الدكتور من فوق الطاولة وشرح للشاب، لا لاوريليان. «أتعرفه؟ فولين! لا؟... إنه شخص مهم.. ذو سلطة ونفوذ.. أكبر تاجر مخدّرات في الصين بطريق سيبيريا، في صناديق دهان الأحذية الأسود... وله اسطبل خيل للسباق...»

عبرت الغرفة، بجنب الموسيقيين امرأة ترتدي سترةً، مقصوصة الشعر كالفتيان، مشدودةٌ في ثيابها، لكنّ لها عينين جميلتين وأنفاً غريباً عالي الأرنبة. نهض فولين لها مثل شاهدة القبر. كانت تضحك وكان يبدو عليها الفزعُ في الوقت نفسه. جلست وصالبتْ ساقيها. ارتفعت تنورّتُها الضيّقة مباشرة الى الفخذين. نظر اوريليان الى الشخص المواجه. كان لايني يسحب بنطاله من تحت. أردفتْ ذاتُ اللون الفستقي شارحةً" «هذه «مانون كروز»... ستسمعها.. غناؤها حسن...» قال الدكتور: «عاهرة؟ هزّت كتفيها. لم تكن تدخل في هذه التفاصيل، وكان عازف الاكورديون يعزف منفرداً من أجل «فولين». وكان وراءه نساءُ، مثل الصرّافين خلف مدير القمار.

صاح اوريليان: «زجاجة أخرى!» تنهدّت سيمون. ستسوء حالتهُ. ودّتْ لو يقدّم لها ورداً. قالت لابعينيها للبائعة. خافت من خيبة الأمل. كان الرجل ذو الجوزة يتحدّث عن الأدب «هل قرأتم الرواية الفائزة بجائزة «غونكور»؟ أن تُعطى جائزة غونكور لزنجي! أنا، لا يُعجبني هذا الـ «باتوالا».. ذلك خطأ.. شائع، ثم إن ذلك جنونٌ، فمَنْ يَحْسبنا الأجنبي؟ اذا لم نستطع أن نضع رواياتنا بأنفسنا..

قال ديكور:

- وما الراوية التي كنت ستخصها بالجائزة؟
- «قصيدة العرس» مثلاً! بعد بروست، بسنتين، ينالها زنجي!

وتحدّث الشاب أيضاً عن روبيردي مونتسكيو الذي مات منذ أمد قريب تمتم اوريليان:«سأحطم أنفه».

نهضت المرأة ذاتُ السترة. بدأ البيان عزفه. فغنّت، بصوت شنيب مبحوح، عميق، وكانت تمسك حنجرتها بيدٍ، فوق القبة القاسية، يدٍ جميا وطويلة، غير متوقّعة. كانت الأغنية «داميا» مقلّدة، أغنية عاطفية فيها انقطاعات غرفة على المرفأ، وحبيب يضحك وهو يُسافر... وفجأة أحسّ ليرتيلوا بأنه يعو الى البكاء. مرّتْ سيمون بأصابعها على وجهه، مروّعة من أن تسحبها وهم مبلّلة. أفرغ كأس شمبانيا دفعة واحدة. كان الناس يصفقون. ولماكانت المغنية ستبدأ الأغنية الثانية، دخل الصالة رجلٌ أقرب الى القصر، ضخم، قدو خد الشيبُ لحيته وقد بدا كمن يتعاظم بحضوره، وتبعته سيّدةٌ من حجرة الثياب وأخذت تنزع عنه معطفه. كان يرتديْ سترة ومنديلاً حريرياً على عنقه، مع وسا جوقة الشرف... التفتت المغنيةُ إليه، وحيّته. نهض رجلٌ من طاولة«فولين» ونادا «سيّدي الشيخ! دار الرجلُ الضخم على نفسه وسارع. شدّ على يدي «فولين» كانت تبدو عليه الملاطفةُ الذليلة.

أسرت ذاتُ الون الفستقي الى الدكتور:

- «هذا صديق «مانون كروز». وهو عضوٌ في مجلس الشيوخ. شيخ مهم.

شرعتْ «مانون كروز» في أغنيتها. من اللون الهندي الأحمر الآن، سرقة البغيّ لزبون، الرقص على ألحان المزمار، وباقة الزهر الرّخيصة... صفّق الشيخُ ورفع كأسه على صحة «فولين». ابتسم الآخر بوجهه الأبيض الذي خدّده شعر أسود ولم يشرب. ضحك الدكتور.

« قلْ لي... قلْ لي...» كان يُضايقه ألاّ ينادي «ليرتيلوا» باسمه اوريليان لأن سيمون كانت تناديه: «روجيه»... «قلّ لي، ليرتيلوا ...» كان اوريليان لايأبه

كثيراً للدكتور. لقد تذكرّ قبل هنيهة ذلك الشيء الذي لايريد أن يغيب. ذلك الشيء الطافي في الجوّ، والذي فقد الإحساسَ به منذ ساعتين... وأكمل الدكتور كلامه:

- ألم تعرفهُ... ضيف «فولين».. صديق «مانون كروز»...أمْعنِ النظر، ياصاحبي... الشيخ... هذا شيخٌ....

- وحتى لو كان باباروما، ماذا في ذلك...

- أنت سكران، هلا تعرّفته، ياصاحبي... الشيخ،... الشيخ باربنتان، مابك.. والد ادمون! رئيسك في مجلس الادارة..

إن اسم باربنتان أصاب ليرتيلوا في صميم جرحه. فتأوّه، وصحّح جلسته، وتطلّع. جلست «مانون كروز» قبل هنيهة، بجانب الوافد الجديد، وسط تصفيق الزُبُن والبنات. لاشك في ذلك. فهذه السحنة سحنتُه. كان باربنتان بعينه، باربنتان المحترم. في الساعة الرابعة صباحاً، شارع «فروشو»! عجباً! وعندما أقول عجباً... رفع اوريليان يده الى قلبه وحيّا الرجل بذراعيه تحية عريضة، عبر الموائد، والنُدُل، والشاربين. كان الشيخ متلفتاً نحوهم، فغمز بعينه، وفتش في ذاكرته، وعرف «ديكور». تحرك في كرسيّه. كانت «مانون كروز» تلامس فخذيه، فردها قليلا وأجاب عن شيء قاله له «فولين» ثم لم يستطع صبراً، وشوهد وهو يتمايل مثل خذروف ضخم، ويتهيّأ للاندفاع، ويقع على قدميه، ويعود خطوة، ويعتذر من فولين، ويطبطب خلسة على خدّ المغنيّة، وينفصل عن الجماعة. وامتدّت لحيتّه إذ ارتسمت فيها ابتسامة، سار نحو الدكتور وأصدقائه. وأظهر الدهشة، الدهشة السعيدة والمفتونة، واللطف، وكان يهيّىء قبل ثلاثة أمتار اللهجة التي تجمع بين الجسارة والإسرار في الجملة الأولى: «دكتور... سيّد ليرتيلوا... سيداتي...» هل سيتمنّى لهم عاماً سعيداً؟ «لكن اجلسْ، سيّدي الشيخ». كان اوريليان هو الذي دعاه الى الجلوس. تناول كرسياً، وابتسم لذات اللون الفستقي، وحيّا سيمون مرة أو مرتين وهو لم يُقَدَّم إليها. لم يكن يعرفها. هذه المرأة الصغيرة. نظر الى ثدييها نظرةً ماكرة. «السيد «دي مالمور»... الشيخ باربذ...» قطع الشيخُ كلامَ الدكتور. لم يكن يتوقّع أن يُقدَّم الى

هذا الشاب ذي الرقبة الهائلة، والى هذا الاسم غير المتناسب معها. «أرجوكم، ياسادتي، أنتم لم تروني هذه الليلة! أتفهموني؟ لم تروني هذه الليلة. أنا لستُ هنا. أنا في اللوكسمبرج!» وكان ممتلئاً بضحكاتٍ قصيرة وبلهجة الجنوب التي أطلقت أنخاب الشمبانيا. ولم يرفض كأس شمبانيا سالت رغوتُها على لحيته. قرص قليلا جارته التي لاشك أنه يعرفها لفرط مجيئه الى هنا من أجل «مانون كروز».

- نعم، ياسادتي، فهمتُم.. لم أتحرك من مجلس الشيوخ هذه الليلة.. كانت ليلة تاريخية لانظير لها! هذه هي المرة الرابعة منذ سنة ألف وثمانمئة وسبعين يُصوَّت فيها على ميزانيّة الجمهورية في الوقت المقرّر من غير الميزانيات الشهرية الموقّتة! هكذا!... فبفَضل حيلةٍ قانونية تسمح بتمديد السنة بضع ساعات... في الحادية عشرة وخمسين دقيقة، أوقف الحاجبُ الساعة الجدارية في قاعة الجلسات، وتركتُ زملائي في الساعات الثلاث والنصف يعيشون السنة الفائتة وهم ينجزون المواد الأخيرة.. لكن الكارثة ان ينتهوا في السادسة، السادسة والنصف... أتتابعونني. المرة الرابعة منذ ألف وثمانية وسبعين! ومن المفضَّل ألا تقولوا شيئاً لابني بسبب السيدة باربنتان... الكلام بين ذوي الشرف!... لكن اعذروني، فهم ينتظرونني..»

وأسرع الى مائدة «فولين». قال ديكور.

- كأننا ، ياعزيزي، في اجتماع مستحضرات «ملروز».. ولا ينقصنا سوى، المقطوع الذراع! آه لا، لا تطلب زجاجة أخرى!

قال اوريليان وهو مغتاظ:

- وإن كان هذا يلائمني. المرة الرابعة منذ السبعين! ياناذل!

تنهدت سيمون:

- يجب أن تأتي لتنام «روجيه».

نظر إليها، كان هنا، معها، وكانت تنتظر أن يَقْبَلَ... ضحك. بسيطةٌ جداً الحياة. والشيخ والشمبانيا وسيمون... طيّب سيذهب لينام معها. ووضع على كتفيها العاريتين يداً، يدَ المالك:

- ياناذل! آه، لكن، بعد أن أحطم أنف هذه الدمية!

وقبض على السيد «دي مالمور» من ربطة عنقه. تساقطت الكؤوس. وكان هناك صوتُ التكسير، وتدافعهما والدكتور بينهما، والشابُ الذي تلعثم، والناس الذين التفتوا... رمى اوريليان على الطاولة بورقة ألف فرنك... كان الشاب يقول: «إنه ليس رابط الجأش!» وسيمون تقول. خذْ مالك، «روجيه»، مهلاً، مالَكَ... والتقطتْها وتركتْ الحلوان.

- انا أسكن ذلك الزقاق الصغير، قرب الطاحونة الحمراء... هلاّ أتيت، عندي غازٌ، وسيدفأ الجوُّ.

وجد نفسه، دون أن يَعرْف كيف، في عربة جياد. كانت ترتجّ. لم يكن معه الدكتورُ، ولا الشخصُ ذو الجوزة، ولا المرأة ذاتُ اللون الفستقي. لم يكن معه سوى سيمون، رقيقةٍ، مداعبةٍ، تقّبله بفمٍ رخو رطبٍ... وجرحته، على نحوٍ ما، أنوار ساحة «بلانش».. « مهلاً مهلاً، استندْ علي، وبالدرج الضيّق الأسود، بلغا الغرفة، الشيء الوحيد الذي كان يُرى هو السرير، وصور في هذا الخليط الوردي بجنب النافذة. وستائر بأهداب.

أحسّ اوريليان أن حذاءَه يُقْلع. كان ينظر دون ان يفهم شيئاً الى وليدٍ عارٍ ممدّد على وسادة صغيْرة في ديكور من المحار، خلف حاجزٍ بزهور، وحوضٍ ومطبخ صغير، وموقد أخضر... كل ذلك كان حلماً مزعجاً وماذا جاء يفعل الشيخ وسط ذلك؟ وهذه العاهرة.

- يا «روجيه» الكبير، لن تصدّقني... لكني مغرمةٌ بك منذ شهور... وأبيتَ أن تأتي معي...

هذه المرأة الراكعة أمامه... وتحت خاصرتيها السرير الذي يغرق. هذا النور الخافت... فماذا يعني ذلك؟ قد كانت الحرب، هورو، بومبار، سالونيك... كل ماكان حلماً ولم يتجسّد... الأعوام التيْ تُفلت.. مَنْ هذه البنت، هناك؟ نزع غطاء رأسها في حركةٍ وحشيّة. نظرتْ إليه بدهشة، وصرخة قصيرة. رماها على السرير. وهو مُلبَّكٌ بثيابه. نصف عارٍ على يدها. تأوّهتْ: «روجيه، روجيه». ومَنْ ذاك؟ سيحطم له أنفه. كانت قبالته مرآةٌ رأى فيها فجأة المشهدَ، الفوضى، وفظاظة حبهما. وحينئذٍ باشره بعنفٍ.

كانت الساعة قد جاوزت العاشرة، عندما لاحظ اوريليان، حين وصل الى بيته، سيّارة ادمون على الرصيف. مامعنى هذا؟ أجاء ليتمنّى عاماً طيّباً وسعيداً؟ أحسّ ليرتيلوا بضيقٍ شديد، وبإحساسٍ من الجفاف في الجلد كله صعد الدرج أربعاً فأربعاً.

على سطح الدرج، كان ينتظره مشهدٌ غريب. كان هناك صيحات وبارينتان في معطف رياضي موشّىً رمادي، وقبعّة مائلة قليلاً، يقف بالضبط كما يقف مفتّشُ الشرطة الذي يسعى الى اقتحام منزل، وقدمه موضوعة بحيث يحول دون صفْق الباب في وجهه. وكانت السيدة «دوفيني» التي لم تُشاهَدْ سوى يدها والقليل من شعرها تجيب بحدّة من الباب المشقوق.

ـ مهلاً، مامعنى هذا؟ سيدّة «دوفيني»، أدخلي السيّد بارنبتان! كانت تدفعه من كتفيه، فتراجعت وهي مضطربةٌ اضطراباً شديداً، زامة شفتيها، لكنها كانت تشير الى معلّمها ردّاً عليه:

ـ أبي هذا السيدُ أن يصدّقني أن السيّد ليرتيلوا ليس في المنزل!

لم يلاحظ اوريليان أن زائره كان شديد ا لحمرة إلا في الغرفة، وقد بدت عليه الحيرةُ. لكن قبل كل شيء:

ـ اعملي لي شاياً، ثقيلاً جداً، سيدة دوفيني»، مع الليمون الحامض..

ـ شايٌ في الصباح! لعلك لم تفكرّ في ذلك، فعندنا قهوة...

ـ قلت لكَ أريد شاياً.. مابكَ، ياترى؟ دعينا وحدنا..

عندما انفردا، انفجر ادمون:

ـ أين بيرينيس؟

ـ بيرينيس؟

ـ لا تتغابَ. هي هنا...

كان ذلك مضحكاً جداً. لكن ادمون لم يبدُ عليه أنه يمزح. فقد أمسك اوريليان من كتفيه.

ـ ألست مجنوناً؟ أنت كالزوج الغيور.. ولا تقلْ لي إنك لاتعرف أين هي؟

تراجع اوريليان الى الوراء:

ـ شرفاً... ولمَ جئت تبحث عنها هنا؟

ـ وأين تريد أن أبحث عنها؟ مادامت الأشياء ضمن بعض الحدود... لكنك بالغتَ، في نهاية الأمر!

ـ لستُ أفهمكَ. على الإطلاق.

امـتـدّ ذلك خـلال بعض الأجوبة. ثم خطرت لاوريليـان فكرةٌ هـي أن بيرينيس قد اختفتْ حقاً، وأن قد أصابها شيءٌ ما...

فقال

ـ اوضحْ لي... بيرينيس.. ماذا أصابها!

ـ هذه هي الكارثة! أأنت تسألني؟

ـ أجب ماذا أصابها؟

ـ ماكنتُ أعرف فيك موهبة الممثّل هذه..

جلس ادمون، وردّ قبعته الى قذاله، فازداد شبهاً بالشرطيّ:

ـ تركتْنا بيرينيس مساء أمس، قبل منتصف الليل بقليل، بعد بضع كلمات حادّة من زوجها... ظنّنا أننا سنعثر عليها في البيت.. كنا في «البوف»... لكنا لم نجد أحداً.. ومرّ الليلُ كله.. وفي الصباح لم نر بيرينيس. وحينئذٍ جئتُ.

كان يبدو عليه أنه يجدُ ذلك طبيعياً. لكن قلق اوريليان لم يكن متصنّعاً. وقد أخرجتْه عن طوره سخريةُ ادمون الذي أضاف:

ـ لستُ، في نهاية الأمر. عشيقَ السيدة «موريل»! ذاك أسوأ..

ـ لا؟

كانت لهجة الهزء قاتلةً:

ـ لو لم تكن في بيتي..

ـ اوه! أنتَ إذن مُضحكٌ!

لولا قليل لتضاربا. لكن إنْ كان ادمون محمراً فإن اوريليان كان شاحباً. لم يكن يستطيع أن يمتنع عن التفكير في السين، تحته، في الغريقات اللواتي يُنتشلْنَ منه، وفي المجهولة، وفي الميتة المقطوعة الإصبع منذ أمدٍ قريب. قال:

ـ ليس هذا، في النهاية من شيمتها... ليست من نوع النساء اللواتي يهربْنَ،

ـ حلوةٌ هذه الكلمة «نوع». تجربتك للنساء، بفئاتهنّ..

ـ أشتهي أن أصفعك....

فُتح بابُ المطبخ. كانت السيدة «دوفيني» تحمل الشاي. حطّته فنجانين: «اتركه ينقع، ياسيدي».

كانت تبدو كمن يُريد أن يقول شيئاً. صرفها اوريليان الذي فقد صد دعينا»، ثم سأل بارنبتان: «أتريد شاياً»؟

ـ لا، شكراً... في الصباح لا... أنا من رأي خادمتك...

لم يكن الشاي ثقيلاً بعد. توقّف اوريليان عن سكبه على شريحة الليم تابع بارنبتان:

ـوهكذا فأنت لم تر بيرينيس منذ مساء امس الساعة الحادية عش والنصف؟

هذا استجواب. لابدّ من الإذعان.

ـ لا كنتُ في حانة «لولي» مع طائفة من الناس. وقد سكرتُ سكراً بشد فبتّ خارج المنزل... مع الصبيّة سيمون، إن شئت ان تعلم.. وليس في ذ مايدعو الى الفخر... أسُررتَ؟

قال ذلك كله دفعةً واحدة، بهياجٍ، والطريقة التي احاط بها غلايّة الشد وعبث بشريحة الليمون، بطرف الملعقة، كانت تدّل بوضوح أنه ربما كان سكر في هذه الليلة. هزّ ادمون رأسه:

ـ غريب، كنتُ سأقسمُ... إذن كيف أقدمتْ على ذلك هذه البغيّ الصغير وفوق هذا فأنا احمل على كتفي هذا الغبيّ «لوسيان». أنه ينتحب. هذا كل استطاع ان يفعله. إنه ينتحب...

ـ وماذا تريد ان يفعل غير ذلك؟

ـ أن يأتي ويحطم أنفكَ؟

ـ شكراً، لكنْ بما أن...

ـ اوه، ربّما لم تكن هنا، لكن سيّان...

ـ قلتُ لك إنني لستُ عشيق السيدة موريل. مفهوم؟ نهائياً. مفهوم؟

كزّ أسنانه، واستشاط غضباً. وأضاف ادمون:

ـ ثمّ يجب ان تعثر عليها الآن... فربما أصابتها مصيبةٌ.. منْ يدري؟

ـ أتريد أن أقوم بجولة على مستودع الموتى؟

ـ أنت غير معقول. سيّان عندك، مادامت ليست هنا. سيّان عندك.. أنت... أما أنا..

ـ أنت ماكنتُ أظن أنك عشيق السيدة موريل...

ـ أنا، أنا أحبّها، ياغبي. فهمت؟

كان ادمون يهزأ. لم يكن ينقصه سوى هذا العواطف العظيمة. بول وفرجيني. روميو وجوليت. في هذه الأثناء، أين تكون قد ذهبت بيرينيس، في هذه الليلة؟

« هل دعوتني، ياسيّدي؟

قالت السيدة دوفيني ذلك وقد عادت الى الظهور عند عتبة الباب. ولا بدّ أنها خشيتْ اقتتال الرجلين. كانت تتسمّع عند الباب، دون شك.

ـ دعينا وحدنا، سيّدة «دوفيني»..

انسحبت مرة أخرى، وهي تهمهم. وأخيراً انسحب ادمون:

ـ أخبرني إن عرفت شيئاً، بهاتف؟

أضحك تعبيرُ اوريليان القلقُ بارينتان:

ـ نعم، نعم، موافق... تحيات الاحترام لسيمون... لا تنسَ... تحياتي العميقة..

ابتلع ليرتيلوا فنجان الشاي الثالث. وتناول شريحة الليمون بين أسنانه، وتذوّق حموضتها. اوه كل هذا في مقابل سكْر هذه الليلة.. ومضى ليستحمّ.

كان في وسط الغرفة عندما رأى امامه بيرينيس واقفة.

* * *

كانت في فستان المساء الأبيض التي ارتدته في منزل «ماري» وقد برزت كتفاها وذراعاها العاريتان من البياض الذي كان كأنه يرتعش، وكان في يديها قفّاز طويلٌ أسود مكفوف. وكانت تجرّ على الأرض المعطف الرمادي الباهت الذي تركته يسقط في هذه اللحظة بالذات. وكانت قسماتُها تعبّر عن التعب، عن ضَرْب من الفزع من ضوء النهار، وكان شعرها الأشقر مشعثاً. كانت تنظر الى اوريليان وهو صامتٌ. لم يكن عندهما مايقولانه. لقد قيل كلّ شيء. كان كل شيء واضحاً على نحو فظيع. وفكرّ في أنها كانت صورة الشقاء ذاتها. وكانت شفتُها ترتجف أكثر من أي وقت مضى وكانت لُيَيْفاتُها أكثر ظهوراً وهي بلا حمرةٍ وكانت برينيس تفكرّ: ليس مافعلتُه في مصلحتي» تنهّد الرجل انتابه شعورٌ بالانحطاط، فقال:

- هل سمعت؟

- كل كلمة...

لم يكن ذلك ليسهّل الأمور. أراد ان يوضّح لها أمر سيمون، وأن ذلك لايعني شيئاً على الإطلاق... سيطر عليها كرهُها لابن عمها... قالا كلاهما مالاينبغي أن يقولاه. قال هو: «أقسم لك أنني لا أحبُّ غيرك..» وقالت هي: «كان بوسعه أن يستغني عن وصفٍ «لوسيان» بالغباء!

في كلمات مثل هذه يمكن ان تُفْهم بغموضٍ جملة من الأشياء العامّة. إن كان ذهننا متجهاً الى علم النفس. مثلاً الى أي حدّ لاتكون محادثةٌ بين كائنين. وكان من شأن ذلك ان كلاً منهما سعى بإرادته الى متابعة فكرة الآخر ليصحّح القدر. وعندما قالت بيرينيس: «كذبت عليّ»، سمعت جوابه. «آه؟إنما كنتِ تفكرّين فيه!»

كانت السيّدة «دوفيني» في جانب تنبش في الغرفة دون هدف. صدرت عنه حركة تنمّ عن نفاد الصبر، وخطا خطوة نحو الباب. كانت الخادمة ترفع أدوات الشاي:

ـ سيدة «دوفيني»، دعي ذلك، دعينا...

حطّت الصينيّة، المثقلة، وقد بدا عليها مايُشبه الاحتجاج، ووأضحتْ، وهي تنظر الى الفنجانين وقالت:

ـ حاولتُ أن أعلمك، ياسيدي، لكنك لم تدعْني أتكلم..

ـ طيّب، سيدة دوفيني، طيّب...

ـ هذه السيّدة الشابة المسكينة... كانت هنا نائمة على المقعد لم يكن بوسعي أن أدعها في الخارج...

نظر إليها وهي خارجة. وعندما عاد الى الغرفة. كانت بيرينيس جالسة عند قائمة السرير. وكان معطفها على كتفيها. كانت مُشيحةً بوجهها.

ـ أنمتَ هنا في الأريكة... على قرص الدرج.

أجابت «نعم» برأسها. كان الكلام شاقاً عليها، فأجبرت نفسها، وتغيّر صَوتُها وغدا مصطنعاً:

ـ وصلتُ، حوالي منتصف الليل.. لم تكن هنا. أردتُ أن انتظر... ومرّ الوقت فنمتُ، هنا على المقعد. ووجدتني الفرّاشة هنا..

لاحظ أن فستانها كان مدعوكاً... تذكرّ منتصف الليل، في حانة لولي، والذراعين اللتين طوّقتاه... همس:

ـ وهكذا جئت حقاً..

أشاع ذلك صمتاً لاقرار له. وعلى حافته قاسا كلاهما مقدار الشقاء، مالاسبيل الى إصلاحه، ذلك الشيء الشرس، تلك الورطة. كانت في عيني بيرينيس تلك الليلةُ الطويلة، الانتظارُ، الهولُ والضعف أخيراً. لم يعلما أن أفكارهما تلاقت في لحظة من هذه الليلة، كما التقت في منتصف الليل.

كان يعلم أنها لن تغفر له تلك الخيانة، تلك الزلّة في نهاية العام... سيمون... والحقيقة ان ذلك كان حمقاً شديداً! «سوف أشرح لك..» دفنت وجهها في يديها. كانت تبكي: «أتبكين؟ بيرينيس... بيرينيس..»

ـ لا، لا تَمّسسْني، دَعْني، دعني..

تركها. كان قادراً على قتل نفسه من أجل مافعل. لم يكن يستطيع أن يقوله، لقد فعله. كان هناك حياً،. وجاءت هي لتلقاه... وأنا...

- جئتِ لتلقيني، وأنا... وأنا...

- وأنت!

ماذا كان يمكنه ان يقول أكثر من ذلك؟ ألم يكن كلُّ شيء واضحاً تمامَ الوضوح؟ كالشقاء. انتفض:

- لكنك تعلمين أنني أحبك... ولا احبّ سواك.. وأنك حياتي..

الحاصل أنه استخدم جميع الألفاظ الضخمة ا لمسكينة. تركتها تتساقط كما يتساقط البلاط. مع طنينها الجميل! أخذ يتمشّى طولاً وعرضاً. أغرق يديه في جيبيه. هزّ كتفيه. تنهّد. توقّف عند ستائر النافذة. وداعبها بغباء. رأى يده تفعل ذلك فردّها الى جيبه بحركة نزقة. ثم ألقى بنفسه على المرأة التي كانت تبكي بهدوء على المرأة. وفكرّفي تلك المرأة وصاح تقريباً: «آه! تكلّمي... تكلمي! في النهاية! لا أستطيع أن أتحمّل صمتكِ.. أهينيني.. ابصقي في وجهي... ماتشائين، لكن لاتبقي هكذا، هنا .. تبكين.. بصمت... تكلّمي!

هزّت رأسها مرةً أخرى ونظرت إليه، الى الذي دمرّ كلَّ شيء أكمل تدمير وأشدّه. الحبّ والحياة. كليهما. لم تره قط ساخطاً هكذا. بعد ثلاث دقائق او أربع سيكون هو الذي يهينها، هي... ستحمل وزر جميع الأخطاء. لم يعد ممتقعاً. لقد طلعتْ لحيتُه في الليل، زرقاء. وكان في وجهه بقعٌ كالرخام عملها وهو يشد بأصابعه، في حركات لاشعورية. كان سيخجل منها لو رآها في المرآة. قالت:

- يا الهي، ما الذي صنعته بنا!

- لكن، مهلاً، ذلك ممكنٌ إصلاحه، نعم، أعلم، وأطلب صفحك. كلُّ شيء يرهقني، في الواقع لم..

رأى في عيني بيرينيس ملاحظة هازئة: هو مخطىءٌ، لكنه ليس مخطئاً جداً كالآخرين.. كجميع الآخرين... سمعها وكأنها قد صاغت فكرتها، وتوقّف ثم استأنف بامتعاض عميق ويائس في صوته:

- أنا أبله... أنا مخطيءٌ! لكن مع ذلك، ألا يمكننا أن نستأنف... تكلّمي، هيّا تكلّمي، صمتك يجنّنني!

جهدتْ جهداً محموداً لتتغلّب على نفسها، لتتغلب على القدر الذي انتصر. حاولت أن تشرح:

- ياصديقي المسكين... كنتُ دائماً هكذا... الشيء الملّطخ، المثّلم، المهشوم.. وإن كان أجمل شيء في الدنيا... لا أستطيع أن أراه.. يجب أن يُرمى... لا أستطيع أن أتحمّله.. تعرّف تلك الحركة، حركة الراعشة التي كثيراً ماتصيبها.. ولم يكن بوسعه أن يقبل بهذا الحكم القطعي. لم يكن بوسعه فقال:

- أتريدين أن ترمي بحبّنا؟

تدثّرت بمعطفها أكثر، وأخذت يداها تمران بالتناوب الواحدة فوق الأخرى، وكأنها تصقلهما. حلمتْ عند كلمة الحب. وتاه فكرُها. كان قطعُ الصمت صعباً كما كان قبل قليل.

- بيرينيس، في هذه الليلة، سواء قصَدْت أم لم تقصدي، أقدمت على شيء خطير: لقد تركتِ زوجك من أجلي..

نظرت إليه، وحاولت أن تضحك. كان ذلك قاسياً

- ولم أجدكَ... هذا كلُّ شيء!

استولت عليه فجأة هذه الحقيقة: لم يبق فيها شيءٌ من الفتاة الصغيرة التي عرفها، التي أحبّها كثيراً. كانت امرأة بائسة، متعبةً، عيناها متهجّجتان، حمراوان... رآها بقسوة مارسها أولاً على نفسه... ولم يكن يعلم كيف يكلّم هذه المرأة، هذه المجهولة.. المجهولة... ثم إن الأمر تافهٌ! لقد نام مع سيمون... مفهوم... وماذا في ذلك! هذه الزفرات القصيرة من بيرينيس! لا يُحتمل ذلك! كانت ردّة فعله هي ردّة فعل الرجل، جميع الرجال: كلّهم يعتقدون هكذا، أن في أذرعهم سحراً. في تماسّهم، في قوّتهم. ودون تمهيد، أخذ بيرينيس بين ذرعيه. لم تتمنّع وضمها إليه. وطافتْ يداه عليها وكأنها شيٌ له، وردّ رأسها الى الخلف، وتحرّى شفتيها، وقبّلها... قبّل ميتةً.. تركته يفعل بسلبية مرعبة، أسوأ من

التمرّد، من الصراع... ومضى في عناده ومدّ ضمّته للفراغ، أبي أن يُهزم.... قالت فقط. لقد آلمتني.. فخجل وأرخاها.

عاد الصمتُ. الدوارُ. بيرينيس هي التي قطعت الصمتَ هذه المرة، وقد خنقها الصمتُ الذي مدّه اوريليان بخبث.

- «الواحدة بعد الأخرى.. لم تكد تتركها بعد... ومازال عطرها يفوح منك...

تمتم بشيء. أممكنٌ ذلك؟ لاشك ان هذا العطر من اختراعها.. ثم ساوره فرحٌ غبيٌ. إنها تغار! وقال لها ذلك. «أتغارين؟ آه وهذا أيضاً ماكان ينبغي أن يقوله فما الذي ينبغي ان يقوله، على كل حال؟ أمن الأفضل أن يتكلّم. أن يُطنب أن يغرق بيرينيس بالجمل، أن يخدعها. أن يستولي عليها؟ وفوق هذا وجع الرأس الشديد. كان يعلم أنه يقامر طوال حياته بأوراق خاسرة مع الرغبة في أن يرميها وأن يطلب غيرها..

- وماذا ستفعلين الآن؟

أثارها بهذه الجملة. لم تجب.. تابع:

- تعودين، تعودين بتعقّل... وربّما طلبت الصفح.. وعلى كل حال، تسلمين امرك لذوق زوجك ولباقته..

- لاتتكلّمْ أرجوك لاعن زوجي ولا عن لباقته..

قالت ذلك بجفاف. ارتمى على ركبتيها:

- بيرينيس، أنا وحش... لكني أحبّك... لكنك كنتِ تحبينني، أو كنتِ ستحبينني، أو كنتُ سأعتقد ذلك... لقد جئتِ الى هنا هذه الليلة.. هذه الليلة... ماذا يبنغي أن أعتقد؟ لا أستطيع أن أتصوّر أن هذه الحماقة، هذا ا لخطأ... سمّي ذلك كما تشائين..

- لا أريد، ياصديقي... لا أريدُ.. لن تغيرّ الكلماتُ من الأمر شيئاً.. هذا الاسم أو ذاك... أتظن ذلك يُرعبني أقّل مما يرعبك؟ لقد انتظرتُك هذه الليلة، على المقعد.. ساعاتٍ... ساعات... وتسنّى لي أن أفكرّ.. ذاك مُرعب. لكن لابد من ذلك... ولا شيء غير ذلك! إلا لأني بطبيعة الحال، وفي نهاية الأمر سأعود ،

وستكون هناك ساعاتٌ، وربما أيام كريهة.. واستفسارات أو ماهو أسوأ· عدم الاستفسار... كرم الصمت الذي هو أسوأ من كل شيء... تلك الطريقة من المشي على رؤوس الأصابع في الحياة... وكأنها غرفة مريض لانريد أن نوقظه..

بدرت منها حركةُ سخطٍ وعجز، ثم تمالكتْ نفسها:

ـ لا... بل لأن هناك الحياة، اوريليان، الحياة الطويلة كلها، كلّ أيام الحياة.. آه! لا أستطيع أن أفكرّ في ذلك.. صمتتْ وعضّت شفتيها عضاً شديداً حتى غدا مُستغرباً ألا تدْميا.

قال.

وإذن، وإذن..

قال هذا بذلك العناد الذكوري الذي يَنزِّع الى استخلاص النتائج المتفائلة دائماً، الى البرهنة بالخُلف. الى اعتبار المأزق دليلاً مقنعاً على خطأ طريق السير. كان هنا مثل كلب كبير، مستعداً لمداعبتها، ومرتبكاً. نظرت إليه، ورأت عدم فهمه الكلّي، عدم فهم في الطبيعة بينهما، فآلمها ذلك أكثر من أي شيء آخر. صاحت:

ـ لكنك لاتفهم ما أقوله لك. الحياة كلها، الحياة كلها!

من المؤكد أنه لم يفهمها.

* * *

لو أمعنّا النظر في إنسان ما بحيث لا نرى فيه إلاّ مايجعله مختلفاً عن الآخرين، إلا الخاصّ فيه، فإن من المثير أن نجد، وبقدر أكبر من القوة كلما نسينا، أن الجوهريّ فيه هو مايُشبه الآخرين. فأهمُّ من كل ما يكوّن اوريليان لدى بيرينيس، حتى بالنسبة الى الأفكار التي تسكنه، ان يكون مبنيّاً على النمط الذي نجده في المعاجم، مسلوخاً، مثني المرفق، واحدى قدميه على درجة السلمّ. لم يستطع اوريليان أن يحوّل تفكيره عن هذا اليقين وهو ان بيرينيس قد جاءت إليه ليلاً. تملّكه هذا التفكير. عندما تأتي امرأةٌ الى منزل رجلٍ بمفرده في الليل، فنحن نعلم ماذا يعني ذلك. ولو كان قد فكرّ في ذلك. لوجده حمقاً لكنه كان بداهةً هكذا، دون تفكير. وأيّ أحدٍ غيره كان سيستنتج الأشياء نفسها، لم تأت

دون أن تتصوّر... إن فظاظة هذه الفكرة لا تمنعُ صحّتها. وهي مثل ترخيص مُعطى. وبدءاً من اللحظة التي تفكر فيها امرأةٌ في رجلٍ على نحو ما، فإن لهذا الرجل عليها حقاً لاينازعُه عليه مُنازع. وماسوى ذلك، مجرد سوء فهم. وهل يُحسب له حساب؟ هاهي ذي هنا، في بيته، وما عليه إلا أن يُغلق مزلاج الباب.

خالجه فجأة، وعلى نحو فظّ ، إحساسٌ بعدم اللباقة. ماذا سيقولان؟ كانت الكلمات تتصالب في معركة، قيمةُ الكلمات فيها أقلّ من قيمة المقاصد الخفية فيها. كان يتصوّر الحركات التي ستتلو، ومقاومة بيرينيس، والفستان المخرّب، الفستان الأبيض... جاءت الى بيته ليلاً... وكان هناك أيضاً ماتركتْهُ من أجله، تلك الشجاعة، تلك الطريقة في الارتماء في الماء.. هل كان ادمون مخطئاً؟ ولا الزوج الأقطعُ.. لقد رمتْ بحياتها من فوق الضفة. ولذلك فلم يكن يعتقد بهزيمته. لم تفعل ذلك كله لتسمح للمصادفة ان تُحبط مسعاها. وشعر بكبرياء عظيمة مما فعلته من أجله. إن الكبرياء هي خاصيّة الإنسان. وهو يُشبه الآخرين بهذه الكبرياء أكثر ممّا يشبههم بذراعيه وقدميه وشهوته. لقد تركتْ «لوسيان» والحياة المنظمة والبيت هناك وعاداتها. انتشى بشجاعة بيرينيس. إنها لم تفكّر في العالم، في الناس. نعم، بل أفضل من ذلك، لقد فكرّت في ذلك كله. وانتابه فجأة فيضٌ من الاعتراف بالجميل:

ـ لا، بيرينيس، لن تعودي الى البيت، لا لن ترجعي الى ذلك الرجل.. لن تعترفي بالهزيمة... لايجب أن تطلبي الصفح... أو ان تتحمّلي ذلك الكرم القاسي.. ولم تفعلين ذلك؟ أنت تعلمين أنني أحبّكَ، وأنتِ تحبينني، تحبينني! تجرّئي وقولي إنك لا تحبينني..

صمتت. وانتصر.

ـ أرأيت. يجب ان نواجه الحياة مواجهة.

بشّ وهو يقول هذا! أوضح.

ـ تطلّقين... وتصبحين زوجتي..

أخذت بيرينيس تضحك. هذه ثالثة الأثافي! مع مَنْ يظنّ علاقته؟ هؤلاء

الرجـال عندمـا يحـدّثونك عن الزواج يظنوّن أنهم قالوا كلَّ شيء. فـلا هي بنت صغيرة، بنت خائفة، ولعلهـا ليست كسيمـون.. إنها تعرف الزواج.. ما أقدر الرجلَ على وضع الأشياء فجأة على صعيدها التافه! كفّتْ عن الضحك. فليس في ذلك ما يدعو الى الضحك. لقد أتيح لها قبل هنيهة أن تقيس دنياً، هوّة. وهذه الدنيا تلك الهوّة هي الدنيا التي يحملها اوريليان في ذاته.

الانسـانُ ليس وحيداً. ومـايفكرّ فيه، أفكاره هـي مايفكرّ فيه هذا العالم، هـي أفكار الآخرين، جميع من حوله، الأسرة، الأصحاب، اللامبالين، السيدة «دوفيني».. كفّتْ عن الضحك لأن اوريليان هـو الذي فكرّ واوريليان.. نعم، إنهـا تحبّ اوريليان. انـهمرتْ الدموعُ من جديد، نشقت. كيف كانت تبدو، ياآلـهي! وبحثت بعينيها عن المرآة.

كان بجنبها. أخذ يديها. سأل: «ألاتريدين أن تصبحي زوجتي؟» لم يكن في هذا السؤال شيءٌ من الخبث. قدّم ماعنده. حاولت ان تتصوّر هـذا الشيء: السيدة اوريليان ليرتيلوا.. سيقول الناسُ ان ذلك كان مفهوماً، رجل فاتنٌ، أما الآخر فـهو صيدليٌ في مدينة صغيرة من مدن الريف.. إلام يؤول ذلك كله! كانت منتشية بقصة هذا الحب، اليوم، في هذه الغرفة بل في منزل العزب. في فستان المسـاء، في وضح النهار مع هذا الفتى المديد القامة الخارج من عند عـاهرة، والذي سيقدّم لـهـا مع ذلك السـرير وغطاءه، وسيلمس نهـديهـا.. ثم سيطلب صفحها، وسيربط من جديد ربطة عنقه، وسيكون الغداء في «المارينييه» أو في مكان آخر. الحاصل أنها ستكون السيدة اوريليان ليرتيلوا. أصابها الغثيان من جرّاء ذلك، وفوق ذلك أنه كان مسترسلاً في الكلام، يعدها بكل الوعود كأن يعيشا في الريف، أو في امريكا. أو في تاهيتي إن كانت تفضّل تاهيتي. كان جديراً بالرثاء. أهذا حقاً هـو الذي جعلت منه إلهاً لها؟ وقديماً أيضـاً أخطأت بصدد «لوسيان». قرصها ذلك في قلبها. لوسيان... آه، من هذه العبودية! مهما يَجْرِ يجب أن تحسب حساباً للوسيان، فهي لاتستطيع أن تتناسى ماسيقع للوسيان. لن ينام ولن يأكل. كان كذلك في مثل هذه الحالة. ابتزاز حقير. لكنها لاتستطيع تحمل هذه الفكرة. كيف سيبدو بعد ثلاثة أيام أو أربعة، مع ذلك الكم

الفارع الكئيب...

عبثاً انفق اوريليان كنوز البلاغة. أغمضت عينا بيرينيس برفق. وقد حملقت عدة مرات وهي تجفل. قالت عفوك، ياصديقي إني أنام، فأنا ميتةٌ من التعب..

أجلسها على السرير، وهو مرتبك. لقد دفعها بين ذراعيه وهي مطمئنة. تغير كلُّ شيءٍ، ودّس وسادةً تحت رأسها .كانت نائمة بسط عليها الشرشف الكبير. لم يكن يجرؤ على النظر اليها. عادت من جديد طفلاً.

❋ ❋ ❋

المرة التي احتاج فيها اوريليان الى السيدة «دوفيني» كانت قد انسلت من البيت. ولعلها كانت مغتاظة. وتركت كلمة على طاولة المطبخ ستعود في اليوم التالي، في الساعة المعتادة. كان في الخزانة زبدة وغسلت الأواني والصحون، لكنها لم ترتّب ا لبيت. وبدلاً من العنوان كتبت. سنة سعيدة، سيّدي. وهذا أيضاً، لم يدعْ لها مجالاً لقوله.

لابأس. سيتدبّر اوريليان أمره بنفسه. خرج يبحث عن الطعام، عن وجبةٍ باردة. ليس الأمر متيّسراً في أيام الأعياد في الجزيرة. كان عليه أن يقطع الى ضفة السين الأخرى حيث توجد ملحمةٌ تبيع لحم الخنزير. كان الجو رديئاً بثلجه الذائب، مع تلك النسمة الباردة التي تلسع الأذن. كان السين يجري دائماً في مجراه، ماراً بالمنعطفات المعقّدة نفسها. وعندما عاد وذراعاه محملّتان بالأسفاط، ولم يكن له مثيل في هذه الوجبات المرتجلة، وكان اليوم جائعاً جوعاً شديداً، خشي أن يكون قد ايقظ بيرينيس بسب علبة السمك المحمر التي تدحرجتْ.

تقدّم نحوباب الغرفة ونظر الى السرير بتحنّن. لم يكن على السرير أحدٌ، ولا في الغرفة، ولا في اي مكان. لكن بيرينيس لم تترك كلمةً مثل السيدة «دوفيني».

ساد الذعر في شارع «رينوار». كانت «بلانشيت» مثل ذئبة تطوف من غرفة الى غرفة و«لوسيان» يتبعها بنظرةٍ شاردة، ووجهه وجهُ الدمية مصطبغٌ بالحمرة في أحد جانبيه، وكأنه على وشك أن يُصاب بذات الجنب. ظهرادمون عدة مرات. وكان يحسّ أنه أفحم في ذلك كله على نحو غير معقول، ثم انه ضاق ذرعاً ببيرينيس ولوسيان. جاءت لتقضي خمسة عشر يوماً وشيئاً فشيئاً.. وحدث أنها في اليوم الذي كان سيذهب فيه هو وزوجته الى رياضة الشتاء... الحاصل انه يريد ان يذهب الى رياضة الشتاء. العقبة الكأداء الآن هي البنتان اللتان كانتا ستُرسلان مع السيدة موريل وزوجها... اوه،ثم ان المربية ستحرسهما في باريس. وفوق هذا كله فلست أدري ماذا فعلت الصغيرة «ماري فكتوار»، لكن أمها صفعتها. وكانت دموعٌ وصرخات. كفى. اتّصل هاتفياً باوريليان للمرة الثالثة. لاجديد دائماً؟ وضع يده على الجهاز «بلانشيت» وناداها بحركة منه وأعطاها ا لسمّاعة. اوريليان يقول أن لا جديد... وهو الذي دهش الآن: «ألم تعد حقّاً؟ كم الساعة؟ لستُ أفهم شيئاً من ذلك..

نعم، استغربت بلانشيت ماقاله اوريليان. لمّ فكرّ في أنها ينبغي ان تكون قد عادت؟

كان منظر «لوسيان» مؤلماً. لقد ضايقها بسبب أشياء تافهة، ولذلك فلْتعدْ ولن يقول شيئاً... أبداً... انفجر ادمون: «هذا أسلوبك، وأنت ترى ماينُتج! لا تقل شيئاً... دع الأمور تجري في مجاريها.. افعل ماتفعله النعامة!

سأل الصيدلي على نحو يثير الرثاء:

- ماذا كان علي أن افعل؟

هز ادمون كتفيه. آه، من لوسيان هذا! وفي هذه الأثناء، إنه يحمل عبء لوسيان وزوجته. وهو الذي ينوي ان يتناول الشاي مع روز..

وأخيراً وصل رسولٌ ومعه كلمة للوسيان. وثب ادمون، من أين جاء؟ مَنْ

اعطاه الكلمة التي حملها؟ كانت خادمةً في مقهى، سيّده.... لا، لقد رجعت...
أعطوها شيئاً من المال!

كانت بيرينيس تقول للوسيان أن يذهب. ليعُد الى بيته، الى حيث يدعوه عملهُ وأنها في حالة حسنة.. وليس هناك مايدعو الى القلق، وهي وحدها ولن تُقدم على حماقات. إنها بحاجة الى أن تكون وحدها وسترى، فيما بعد، وستكتب، وستُنبئه بعودتها. لكن على شرط ان يتركها الآن لتعود الى شارع «رينوار» عندما يسافر. ويجب ألا يحاول الاحتيال عليها ليبقى وينتظر. ستستاء من ذلك. تريد أن تبقى وحدها. وبعد ذلك تستطيع ان تعود وكأن شيئاً لم يكن. وهي لاتريد ان تُشقيه، ولو لقيته الآن فلن تكون مسؤولة عمّا لاسبيل الى اصلاحه..

تأوّه لوسيان:

- يا الهي، ياالهي! ماذا فعلتُ لها؟

كان العرق يتصبب منه بقطرات كبيرة. وقد جعلته البقعُ في وجهه يبدو كدُمية المسرح. عرف ادمون على الفور ماذا ينبغي أن يفهم من تلك الكلمة. من الطبيعي ان تكون الصغيرةُ على حق، فليَذْهبْ لوسيان، كان الأمرُ على الدوام، كذلك.

- أتظنُّ أنني يجب أن أسافر؟

- اسمعْ .إما ان تكون قد ضقت ذرعاً بها، فلا تكن حينئذٍ كالدمية المتحركة. امضِ! وإما ان تذعن لما تريد هي، فافعلْ حينئذٍ ما تقوله لك: امضِ! على كل حال: امضِ!

وفيما عدا ذلك فينبغي لابنة العم ألا تعتمد على أننا سنهتم بقصتها طويلاً. سيذهب الى «ميجيف»، سيذهب الى «ميجيف». كانت بلانشيت تفضل لو يبقى لوسيان. هل يعلم أحدٌ ماسيكون؟

لغيري أن يقول هذا! أنا خارجٌ.

تركهما تراقبه ويُراقبها، في المكتبة، ويدوران حول الهاتف. كان كلاهما

يودّ أن يتصل باوريليان هاتفياً لكن بغير حضور الآخر. رنّ جرسُ الهاتف. تناولت بلانشيت الجهاز. كان اوريليان. نظرت الى لوسيان ولم تُجبْ عن سؤاله «مَنْ هذا؟»: هذا أنت، بلانشيت؟.. ألم تعدْ بعد؟ لكن ماذا يعني ذلك في النهاية؟...» تركته بلانشيت يتكلمّ ويتألم هو أيضاً. كانت تتنشي بتلك المرارة على كل حال، لم يكونا معاً. ولم تقل له إن بيرينيس أرسلت كلمةً.

لم تقلْ شيئاً يكشف للوسيان عن أنها تكلّم اوريليان. وكم كان يحبهًا مع ذلك! لم يكلفّ نفسه التصنّع الآن. لم يرحم بلانشيت. لكن لماذا تدهش مادامت لم «تصل»؟ كانت كلمة «تصل» غريبة فهمت فجأة. لقد رآها، وتركته فظن أنها عادت الى شارع «رينوار». سألت: «هل قالتْ لكَ أنها ستعود الى هنا رأساً...» أجاب دون تفكير: «لا»، لقد وشى بنفسه لكنها وشتْ بنفسها أيضاً أمام لوسيان الواقف، والذي تقدمّ ليأخذ الهاتف. أغلقت الخط.

ـ هذا السيد ليرتيلوا؟ لافائدة من الكذب عليّ، بلانشيت.. كان هو بعنيه. سأهتف إليه. يجب أن أعلم، إن لي الحق في أن أعرف، في النهاية.. أنتما هنا، كلاكما، تتحركان بيني وبينهما..

ـ وبينهما؟

فطن لما قاله، لما اعترف به، لما أقرّ به. فعضّ شفتيه. تأوّه. بينهما. إنه يفكرّ في بيرينيس وفي شخصٍ آخر، بينهما. كان بيده ألا يفعل ذلك. لم يكن هناك «بينهما». ماذا سيتصورّ؟ كان بوسعه ان يسأل بلانشيت: ليرتيلوا يعشق بيرينيس، أليس كذلك؟ لكنه تذكرّ الأزمة التي مرّت بها، فلا يجوز له ان يؤذيها. فقد طالما ردّدت ذلك عى نفسها... وذاك الانتحار الفاشل اتخذ الآن معنى.. أمن الجائز أني كنتُ أعمى!

لم تكن رقيقةً معه. نظرت إليه وقالت بلهجة البغضاء:

ـ «نعم... هما متحابّان... وماذا ينتج عن ذلك؟ ألم تكن تعلم؟ وماذا بوسعك ان تفعل؟ ماذا بوسعنا أن نفعل إزاء هذه الأشياء؟ أذن! متحابّان.

ـ ماذا فعلتُ لك، بلانشيت؟

ـ أنت؟ اوه. هذا مضحك! أنت! لكنك لم تفعل شيئاً، أنت! لا أدري لماذا

يجب أن أكذب عليك. لست ولداً. أنت في السنّ الذي يجوز أن تتألم فيه. أيؤلمك هذا؟ أيؤلمك حقاً هذا؟

لعلها كانت تبتغي رفيقاً في شقائها. رنّ الهاتف. اوريليان مرة أخرى. طلبها مرة ثانية لأنه علم أن بلانشيت لم تقلْ له كلَّ شيء. ولمَ تقول له كلَّ شيء؟ ماذا، كل شيء ، من جهة أخرى. آه أرادت أن تستغل أقصى مافي ذلك السرّ الهزيل. كانت تنتقم، بين هذين الرجلين الممزقين. لم تستطع هذه المرة أن تمنع لوسيان من أخذ الهاتف. تراجعت بضع خطوات. رأته يكلّم الآخر. رأت شفتيه المرتجفتين، ويده العصبية، وكمّه الفارغ، وحركة قدمه، وذلك التشنج الذي يدفعه الى تحريك الرقبة بحركة كأنه يريد أن يخلصها من القبة..

ـ نعم أنا لوسيان موريل... ياسيدي... لا، لم تعد زوجتي... وقد تلقّيت كلمة منها... (الصيحة في الطرف الآخر من الخط أرنّت الصفيحة المعدنية) كلا... طبيعيٌ جداً.. فهمتُ... قالت لي... سوف... أؤكد لك.صدّقتُك، ياسيّدي... قالت لي...»

كانت بلانشيت تتابع هذا الحديث الذي لايُصدق. كانت تكره لوسيان. هذا الرجل الرخو. إنه يخاطب عشيق امرأته، هكذا، دون ان يرفع صوته، ويبدو عليه أنه يشاركه قلقه، لعمري! آه! لو كانت هي! كان عليه أن يقتله، أن يقتل اوريليان... وفجأة استولتْ عليها هذه الفكرة، ونظرت الى الرجل الذي كان يهتف بشك؟ لعل هذا الهدوء كذبٌ؟ حيلة؟ كان عليه أن يسافر كما طلبتْ بيرينيس. يا الهي. إنه يفكرُ في ذلك!

عندما ردّ السمّاعة قالت: أتريد أن أساعدك على ترتيب حقيبتك؟

ـ حقيبتي؟

ـ لكنك كنت قد صممّت على السفر..

ـ كنتُ.. كنت تقولين على العكس...

ـ أين ذهنكَ؟ بما أن بيرينيس طلبتْ منكَ ذلك وها أنت ترى أن كل شيء تحطّم بينهما... وأنه لم يستمرّ ألا بسببك.. بسبب هفواتك... وكلماتك الرعناء.. مثل مساء امس... ولولاك لكانت قد سافرت دون أن تلقاه..

- أتعتقدين ذلك؟

لم يكن يعلم ماذا يفعل، وماذا يعتقد. تجهّم وجهُها، «بلانشيت» وزمّت شفتيها. مظهر التصميم الذي جاءها من أبيها. ولم يكد يعرفه لوسيان، أباها «كيسنيل»، لكنه في النهاية تذكر...

- إذن.. أترتّب الحقيبة؟

سلمّ بذلك.

❋ ❋ ❋

لم يسافر لوسيان في هذا المساء، مساء رأس السنة. لم يستطيع أن يَعْزم على ذلك. وتباطأ يومين في شارع رينوار. وهتفت بيرينيس ثلاث مرات أثناء هذين اليومين. أين كانت؟ أبت أن تقول. وقبلت أن تكلّم لوسيان لتحثّه على السفر. وهذا ما أقنعه أخيراً بالسفر.

هذان اليومان الممتلئان بسوء مزاج ادمون، وبقلق بلانشيت، سحقا اوربليان سحقاً لانهاية له. فالشعور بالذنب الذي انتابه إزاء بيرينيس. وزيف موقفه تجاه الزوجين باربنتان، ألقيا بأفكاره في فوضى جديدة اختلط الأمرُ فيها عليه. كالفراغ والانتظار وشيء لم يكن اليأس، بل غياب الأمل، كلّ أمل. لم يكن يتمنّى شيئاً بل كان من غير المحتَمل ألا يَعْرف أين بيرينيس، وماذا تفعل. تجوّل في اليوم الأول وهو يحمل هذه الفكرة المجنونة وهي أن المصادفة ستجمعه بها في مكان ما. وفي اليوم الثاني لم يجرؤ على الابتعاد عن هاتفه. وقد صدّه ادمون لفَرط ماخدّش أذنيه بأسئلته التي كانت هي نفسها. يُضاف الى ذلك أن أباه هاجمه. بعد أن تسلّطت عليه الأقاويل شبه الرسمية، واستفزّه سقوط «بريان» الممكن وأن «بوانكاريه» وعده.. وفي هذه الحالة يَحْسنُ به ألا يكوّن جمعية «ملروز» على الفور لكيلا يتقوّل الناس عليه.. وهنا، انتفض ادمون كيف؟ أبوه رعديد، ولم يصل الى اكتشافه. لكنه يستطيع ولو مرة،. أن يؤدي له تلك الخدمة! كل ذلك يسبب سراب الحقيبة الوزارية الدوري. آه، لا، عجباً! لقدْ قرّعكَ الشيخ. سنرى. ولم يتوانَ، فهتف الى «ادريان» وأمره بتنشيط تكوين الشركة ماذا كان يفعل هذا الرجل؟ لا، لن يُصغي الى ايضاحاته، واعتذاراته. كفاه

تضييعاً للوقت! ووضع السمّاعة.

كان الشيخ ينظر بدهشة الى غضب ابنه فقال : لست أفهمك. ادمون... يبدو لي ان منصبي... أبوك وزير، هذا مع ذلك... أو على الأقل نائب وزير!»

كان مضحكاً . نظر ادمون الى نفسه في المرآة كان محمّراً وقد شعّث شعره المدهون. فغدت أصابعه دسمةً، وفوق ذلك بيرينيس، ولوسيان وأشياء اخرى! كان يُدمدم هذا بغض النظر عن بلانشيت التي تزايدت غرابةً.

هدأ كلُّ شيء حوالي المساء مع سفر لوسيان.

في اليوم التالي جاءت بيرينيس تطلب أغراضها . كانت ترتدي فستاناً بسيطاً اشترته من «الغاليري»، وبدا المرض على وجهها .سألها ابنُ عمها: أين اختبأت، يابنتي؟ كانت مراوغةً. لدى الأصدقاء. الأصدقاء؟ لم تجب. اوه ثم انها بلغت السن التي تتيح لها أن تتصرّف وحدها ! كان اللقاء مع بلانشيت أقرب الى الحدّة دون ان يُقال فيه شيٌ خاص، اعتذرت بيرينيس بخصوص لوسيان والصغيرتين، وقد أسفت لأنها لم تصطحبهما .. كانت بلانشيت ترتجف. كانت تحرص على إشعارها بأن الغلبة فيها لشعور وحيد. وحيد. ولا حاجة الى تعريفه تعريفاً آخر. نوع من الاحتقار المرّ. لقد قطعت بيرينيس عهداً على نفسها وخانت العهد، أليس كذلك. هذا وحده المهم. كان الكلام يدور على السيد ليرتيلو! لكن لم تذكر أي منهما ليرتيلو . آه! بالمناسبة، لقد اتصل هاتفياً عدّة مرات. ساد صمتٌ. وتنوين العودة الى لوسيان ... قريباً؟ لا أدري. سنرى فيما بعد. وستذهبان الى «ميجيف»؟

انفجر «ادمون» وكيف لا، سنذهب الى «ميجيف». وبحدة: شبعْنا من باريس، ومن الناس، ومن الأسرة! الثلج والزلاجات... إن سقطت الوزارة فلا أودّ أن أكون هنا، لأرى مرةً أخرى، أبي يجهد نفسه على نحو مضحك. ويكدّه الأمل في أروقة المرشحين لرئاسة الوزارة. الهواء النقي، الطبيعة! في الجبل ننسى التفاهات.

- «إني أتساءل مَنْ هؤلاء الأصدقاء الذين كانت عندهم... ألديك فكرة؟

بعد أن ذهبت بيرينيس مع حقيبتها، أخذت بلانشيت تقدر. قال ادمون:

- أنا؟ ولا أدنى فكرة! مالم يكن... من يُدري؟

- أتعتقد ذلك؟

أسرعتْ في قولها: «أتعتقد ذلك» إسراعاً احمرّت خجلاً منه. ضحك ادمون:

- وأنت... أتعتقدين؟

- لكن عمّ تتحدّث؟ لا أفهم.

- دعك، ياعزيزتي، تعلمين ماذا أقصد..

كان بغيضاً. وفاجأ كلٌّ منهما الآخر وهما ينظران الى الهاتف. كان الجهازُ هنا على الطاولة مثل إله حديث، أسود ومُهدِّد. وبلغ من عدوانية ادمون أنه داعبها.

- «قلْ لي»..

حمله صوتُ بلانشيت على رَفْع عينيه إليها. كان يَسْتفهم بنظرته.

- قلْ لي... في «ميجيف»... هل سنلتقي السيِّدة «ملروز»؟

كانت هذه اول مرة تتكلّم عنها مباشرة. كان ادمون رياضياً، وكانت ردود فعله سليمةً:

- لن نلتقيها هذه المرة، ياعزيزتي... فلديها التزام.

كا ن يحرّك كتفيه وكأن سترته أصغر من منكبيه. هذا الرجل لايؤخذ أبداً على حين غرّة، كلٌّ شيء صالحٌ عنده ليسجِّل انتصاراته على خصمه. وكانت بلانشيت تُهزَم في كل مرّة. أضاف بشيء من التهاون:

- أتريدين أن أدعو اوريليان معنا؟ فلابأس به في التزلّج المتعرج.

- لم تقول لي ذلك؟ قبلَ لحظة، كنتَ تقول...

- اوه! كنتُ أمزح! ومادام ذلك لايسرّك أبداً! ثم من جهة أخرى، سيبدو في هيئة حزينة، من جرّاء قصة بيرينيس...

لم تُجبْ كانت جالسةً تقطع آلياً صفحات كتابٍ أوصتها به السيدة «كروبي»، كاننتيغريل، الفائز بجائزة «فيمينا» الحياة السعيدة.

منذ أن صار الزوجان باربنتان في «ميجيف» لم يَبْق لأوريليان من يتّصل به، لم يبق أحدٌ يُسعفه بأخبار بيرينيس. أين هي؟

وهل بقيتْ في باريس. وقد مرّت به لحظاتٌ تمنّى فيها لو أنها عادت الى مدينتها مع زوجها . إن العذاب المبتكر لهذا الصمت، والسرّ الذي يكتنف بيرينيس، وذلك الاختفاء الكلّي، كلّ هذا ظنه اوريليان لايمكن ان يدوم. ظنّه لن يدوم . والأيام الثلاثة أو الأربعة الماضية كانت تحدّياً للصبر. ومالا يُحتمل تحوّل الى ألم، وهذا عكس الأوجاع الجسدية. آه، لو أمكن أن يشكّ في نفسه لما شكّ في حبّه لبيرينيس! لايشك الإنسان في جرحٍ حيّ. الفظيعُ والمعضلُ كان هذا السلوك...

كان اوريليان يعتقد أنه سيهدأ، وسيجعل كلّ شيء محتملاً، وهو يسعى الى الفهم، وهو يفهم. حينئذ أخذ يفتّش في هذه ا لظلمات الحديثة العهد لهذه الأسابيع القليلة غير العادية، ما قد سمّاه سعادة، وكان... فإلامَ آل ذلك كلُه؟ كان ليرتيلوا يعذب ذاكرته، ويمزّق قلبه، وهو كان يُعيد، دقيقةً فدقيقة، بناء تلك الحقبة التي انتهت، تلك المغامرة التي كان يُفاجيء نفسه أبداً مذهولاً بقصرها . حجَّ الى الأمكنة التي اجتمعا فيها . وفي مقهى «البوليفار» حيث أمسك ذات صباح يدها، شعر بغياب بيرينيس أكثر من أي مكان آخر.. وجعل من هذا المقهى محطة معتادة لأنهرته[1]. لكن، كيف يعود ليلاً الى حانة «لولي»؟ لا لأنه يخشى أن يرى سيمون: بل كان يبدو له أن ذلك سيّءٌ بالنسبة الى بيرينيس وإن لم يمنعه شيءٌ الآن من عودته الى منزله بعد منتصف الليل. أيّ حكمٍ مسبقٍ غريب، أي طقس عجيبٍ، بدا له أنه يمتثل له، يمكنه ان يفسّر قطيعته لعاداته؟ فقدت حياتُه من جراء ذلك توازنها، واتّخذ ذلك حقاً طابع العقاب الذي يفرضه على نفسه. كان يتألّمّ من أن يكون في بيته، ومن أنه لايطوف في الشوارع وأنه لا يُلازم الموسيقا . ولايصاحب النساء، ولا يعاقر الخمر، ولا يستضيء بالأنوار،

(١) جمع نهار.

أي ذلك الفردوس الاصطناعي الذي يصعب عليه ان ينام دونه. فكأنه مُدمن أفيون قُطع عنه فجأة مخدِّره. كان له بسبب ذلك تشنجاته وحالاته العصبية. كان يمشي في بيته مثل دبٍّ في قفص. ورأت فيه السيدة دوفيني إنساناً آخر. وانقلب نظامُ حياته، فكان يقع له أن يتهالك على سريره ظهراً، ورب ساعة كان في كامل لباسه والنعاسُ ينهكه فيها؛ ثم يلقى الليل والأنوار والذكريات وتعذُّر إغماض عينه.

وقع في الأسبوع حدثان.

كان الحدث الأول سفطاً حُملَ إليه ذات صباح. صورة بيرينيس التي رسمها «زامورا» وقد أرسلت من قاعة العرض عند إغلاق المعرض. كانت السيدة «دوفيني» هنا، وما أكثر الأسئلة التي طرحتها، والصيحات، والشروحات! كان اوريليان قميناً بأن يقتلها.

عندما عُلِّقت الصورةُ في الغرفة، مع قناع الجبس في مواجهتها، كان في ذلك مايُجنّن. تلك المزحة القذرة. تلك التكشيرة الراقصة لرسمين توضَّع أحدهما فوق الآخر: أخذ اوريليان الذي قلّما أحبَّ الفنَّ الحديث يكرهها. وليس هناك مايُثبت أن كرهه هذا لأن شخصية زامورا تلازمه. بل إن كل شيء قد جرى كما لو أن «الفن الحديث»، تلك الشخصية الماكرة قد استخدمت ضده أساليب الأحتيال. وعندما يستعير من بيرينيس ثنائية التعبير، وذلك في هذه اللحظة بالذات فإنما يلعب اللعبة الرابحة ضده. وقد استفاد «زامورا» من ألف شيء ليست من الرسم. ولم يكن اوريليان يملك فلسفة التفكير في أن هذا هو دائماً شأن الأعمال الفنية. الحاصل أن هذه الصورة المشوّشة المعلقة في الجدار، والانصراف عنها حوالي يومين مزج أكثر أفكار اوريليان سرّيةً وألماً بفوضى الاعتبارات الغريبة عن السرّ والألم. وشيئاً فشيئاً فقدت الصورة من سلطانها، واستعاد القناع، قبالتها، سلطانه، وطابعه، طابع الهاجس الملازم.

الحدث الثاني كلمة من «ادريان ارنو» يطلب فيها من السيد ليرتيلوا المرور على مكتبه في شارع:« بيليه ويل».

مرّ عليه بقلبٍ خفّاقٍ من خبرٍ يُخْبَرُ به ،أو دليلٍ يعثر عليه. لكن لم يكلمه أحدٌ عن بيرينيس، ومع ذلك فقد كانت هي مدار الأمر في نظره. لقد نظر دائماً الى تلك المقايضة الغريبة بين «سان جينيه» وسندات «ملروز» كأنها مرتبطة ببيرنيس. فلماذا لم يعد يعلم عن ذلك شيئاً إلا بغموض. حدّثه «ادريان ارنو» عن القضيّة على أنها قضيّةٌ مفروغٌ منها. وكان السيد باربنتان يعتبرها كذلك. ثم إن عرضه كان من نمطٍ غير منتظر . فعندما كان «ادريان» يتكلم، كان يبدو كمن يتلمّظ، معنوياً. لأن «أدريان» لايَفْضُله أحدٌ في الأعمال التجارية من حيث مراعاة الكرامة والجدّية.

وكيف يتهربّ اوريليان من ذلك؟ ألم يرتكب بحق بيرينيس خطأ عليه أن يُصلحه؟ ألم تُضحّ له بطمأنينتها البرجوازية؟ و «سان جينيه» هي الضحيّة الاسترضائية. وفي مناقشة الأمر شيءٌ من اللؤم. ثم إن القضية، مباشرة على الأقل، كانت قضية رابحة. اختلط كلُّ شيء في رأس اوريليان، التضحيةُ والصفقةُ، وبيرينيس، وسان «جينيه». وأضفتْ العناصرُ الغريبة عن الاعتبارات الماليّة على هذه القصّة كلها نوراً لايخلو من الدوار. ربما كان يُقدم على حماقة. وسيحتقر نفسه إن لم يُقدم عليها. واتّهم نفسه بشيء من الجشع. أفلم يكن يخدع ادمون؟ الواقع أنه لم يسع إليه. وأعطى موافقته.

رجاه ادريان أن يمرّ في اليوم التالي، وستكون المستنداتُ جاهزة. وقد ترك السيد باربنتان تفويضات موقّعة على بياض. وللكفالة لم يكن يلزم سوى توقيع السيدة ملروز. آه نعم، هذه! نسيها اوريليان.

عندما رجع في اليوم التالي الى شارع «بيليه ويل» كانت «روز» العظيمة في طقم من الحرير الأسود، رفيع الصنعة مع قرنفل أبيض، وباقة على الظهر، وساقيها... لم يكن يُرى سوى ساقيها، وهي جالسة، ومصالبة بينهما، مع هذه الفساتين القصيرة التي ترتفع عند الحركة. ساقان بديعتان. لوى اوريليان عينيه عنهما. قال.

- لم أكن أظنك في باريس، ياسيدتي العزيزة.... لتزيني الجوّ. ماعُدْنا نرى الدكتور...

ضحكت «روز» بكل أسنانها الجميلة.

- «ديكور» مغمورٌ بالعمل الى مافوق رأسه، ياعزيزي، بالعطور، والمختبر، والدعاية، والموضع الذي سيقام.. تصوّر أننا نباشر عملنا بين أثاثنا ، جادة «شانزيليزيه»... الحاصل..

قاطعهما «ارنو»، توقيع هنا: وآخر هناك، وشرح آلية العملية .حاول اوريليان أن يتابعه. كان في رأسه شيءٌ من الضعف.أضاع السياق. فهو لم يكد ينام في الليالي الثلاث الأخيرة. طرح بعض الأسئلة. حفاظاً على الشكل. يجب أن يبدو عليه الاهتمام.

كانت عيناه تنزلقان على نحوٍ قاهر، الى الساقين العظيمتين، الحريريتين، الفتيّتين جداً، الحيويتين جداً. ساقان تبدوان كأنهما تعلمان أن الناظر ينظر إليهما. ياآلهي، مأعظم عريَ ساقي المرأة! حتى بالجورب. وكان النشّاف ينشّف التواقيع.

قالت روز: «أمعك سيّارتك». كانت معه سيارته.

- كن لطيفاً، وأنزلني عند «هيليسترن». إنهم لايُحتملون. هذه ثالث مرة يُعيدونني فيها وليس ما أضعه في قدمي من أجل مسرحيةٍ «كوكتو».. كيف، لاتعلم! سأمثل كوكتو... أجل..

تم الأمر. لم تعد «سان جينيه» ملكاً لال ليرتيلوا.. كم ستحكي «ارماندين»! اوه، وبعد ذلك..

عندما صعدا سيارة الأحصنة الخمسة، قالت «روز»: «ألا أضايقك هكذا من أجل تغيير السرعة؟» وأحس بساقها تلامسه عندما انتقل الى السرعة الثالثة. خُيِّل إليه أنها تشد على يده. أي وحشٍ بدا! أيضطرب لروز الآن. قالت أيضاً: «في الواقع، أحسّ، يا سيد ليرتيلوا، أننا نحن الأثنين.. مهجوران قليلاً في هذه الأيام..

ما أشدّ فراغ باريس!

ماكان ليُقال ذلك، مع هذه السيارات. تمتم بشيء. أضافت «روز»: لنتناولْ العشاء معاً..» أوقف اوريليان سيّارته في ساحة «الفندوم». أحسّ بدوار غريب، حرارة في الرأس وبرودة في الرجلين. لم ينم جيداً، أليس كذلك..

قال: « اعذريني، فلستُ في صحة حسنة..»

نظر اليها وهي تدخل محل بائع الأحذية. بالهذه المشية!

كان بائعو الصحف يصيحون على جرائد المساء. اشترى صحيفة «الانتران». سقطت الوزارة، بعد سنة من ممارسة السلطة. سنة كاملة بالتمام. المرة الماضية كان «ليغ» هو الذي فشل. والآن «بريان».. لماذا، كان ذلك، من جهة أخرى، غير واضح لمن لم يكن مطّلعاً.

سنة... وزارة كبرى.. ستكون هذه المرة وزارة الرؤساء... وقد دعا الرئيسُ الرئيسَ السابق «بوانكاريه»، أخذ كل شيء يدور حول اوريليان. تشوّش نظرُه. ليس سقوط الوزارة هو الذي ترك فيه هذا الأثر؟

والارتعاشات. ياالهي، نوبة أخرى! وقد لقي أقسى المشقات قبل أن يوصل سيارته الى جزيرة «سان لويس». هناك أنواع شتّى للحالات البطولية.

وجد في البيت كلمةً من العم «بلين»، يطب إليه فيها أن يمرّ عليه في ساحة «كليشي». كان عاجزاً عن الذهاب. ارتمى على السرير بثيابه. والتفّ بالغطاء. كانت الحمّى تخضّه خضّاً.



كانت هذه أول مرة يُصبح فيها رئيسٌ سابقٌ للجمهورية رئيساً لمجلس الوزراء. وكان «سيتفان دوبوي» بعقدته البرجوازية، وشاربه الذي يمسّده، وشعره الخشن، وبنطاله غير المألوف، ينتظر منذ ساعة، عند الدكتور عودة «روز» التي جاء ليجري مقابلة معها. قال: «بوانكاريه»، فلم لايكون «ديشانيل»؟ ماداموا فيها!» ليته يعلم الى أي أحدّ يهزأ الدكتور بذلك!

«خليطٌ عجيب... ماجينو وبارتو، ثم «سارو» في المستعمرات.. فوشز يحضّر عدداً عن التصوير..

- ما العلاقة؟

- كيف؟ لكن مادام سارو في المستعمرات! فوشز يريد اشتراكات.. والوزير أحد هواة الفن... آه، داهيةٌ، «فوشز» الصغير! كان يطبطب على فخذيه: «وفوق هذا كله، أن رئيسكم أنتم... الشيخ، فهمت؟ ها هوذا في البحرية التجارية! وذلك هو المطلوب لدى الطبيب! وسوف يُمشّي ذلك عطورِ «ملروز»!

- آه، هاهي ذي!

وصلت «روز» مُتعبةً، فاتنةً، لو لا تغضّنٌ قرب الشفة. كان عليها أن تبقى مع «ماري دي برسيفال»، لتشدّ من أزرها. كانتا كلتاهما في حانة صغيرة. ولا بأس بقليل من الويسكي في مثل حالة ماري. سأل الدكتور الذي نحل حقاً بشكل مخيف: لكنه استرد عافيته في هذه الأيام. ذلك أن رياضة الشتاء — كما يقول — نفعته. سأل. «ومابها؟»

- سوف أشرح لك... اعذرني، ستيفان! سأرتدي مئزري!

مع الأسف، لاينبغي أن نأخذ كلامها على ماري حرفياً. والحقيقة أن الجميع لم يكونوا يكترثون لما يحدث لماري. فماري هي التي قادت روز أولاً لتناول كأسٍ من الويسكي. لكن في منزل «ليرتيلوا» لا، في البار. لاشيء يستحق أن يُخبّأ في الحقيقة. لقد دعا ليرتيلوا المريضُ «ماري» إليه، وأخذت تعتني به.

كان بحاجةٍ الى أن يُسرّي عن نفسه. وكان ابتكارها أنها جاءت بروز وبحلوى صغيرة. وأية سحنة كانت سحنة ليرتيلوا. كل ذلك من أجل تلك الحمقاء. هناك نساءٌ محبوباتٌ ولايُدرى لماذا. لاشيء يستحق أن يُخبّأ، لكن روز كانت تحب أن تكذب. وعندما خلعت فستانها، في غرفتها، نظرت الى ثدييها. لبستْ مئزراً بتشجيرات، من باباني، ورمت بحذائها الصغير. البابوج الأحمر. وكان مئزرها كأنما يريد أن ينفتح أبداً. «وهذه المقابلة»؟

كان ستيفان ينظر إليها، «روز» العظيمة، مثل طالب حصل على عنوان: «أتريد أن أكلّمك عن العطور، أ و عن المدلك السيركاسي؟ أو عن مسرحية كوكتو؟ لاتعتمد عليّ في اغتياب غابرييل! فأنا لم أراه منذئذ.. وهذا الذي لايردّ إليّ شبابي!» كانت تبتسم، لقد حملت زهوراً فأخذت ترتّبها في أوعيتها.

- آه! لا؟ تريد أن تعرف إن كانت العطور مسرورةً من الوزارة الجديدة؟ اسمعْ اكتبْ تقريريك. ثم أرني إياه. إن كان حسناً فسوف اوقّعه.. هل يلائمك هذا؟ وأضفْ إليه هذا التمهيد:

« روز ملرون، جيوكوندا التي لاتُنسى، لم تشأ أن تحتفظ لنفسها وحدها بسرّ شبابها، الخ... هذه هنتك بعد كل شيء!... ألم يطلبني أحدٌ اليوم؟

خاطبتْ بهذه الجملة الأخيرة الدكتور. كشّر. بلى من هو، ياترى؟رسّامك... أخذت تضحك... لن تغار من «بيبي» بعد كل حساب؟ لا، إنه لا يغار من هذا العجوز الطّيب. لكن...

- وإذن فقد انتظرتُ من أجل لاشيء؟

كان «دوبوي» يعضّض شاربه الى حد ُمثيرٍ للسخط.

- يعني... نعم ولا.. إنك قابلتني، ياصغيري! ثم إنك صحافي... إذن! اسمعا، اذهبا وتعشّيا معاً، أما أنا، فعليّ جملة من الأشياء التي يجب أن أعملها قبل المسرح... ولن آكل.. اوه. اصغ، لا! لاتُقلب وجهك! اذهب وكلْ مع «سيتفان»، واتركني في نصف الساعة هذا... تريد أن تراني داخلةً خشبة المسرح، في ذلك الديكور الأزرق، بهذا الوجه! سأراكما في المسرح.

في الساحة الصغيرة، أمام مسرح «مونمارتر»، كان الحو بارداً، لكنه كان جافاً، ولم يكن حسن الأضاءة. وعندما وصل الرجلان، كان هناك جماعات. وحركة ذهاب ومجيء، شباب يصرخون، يلوحون بعصيّهم. قلق الدكتور، على الفور. المتآمرون. آه، لعل ذلك ضد «روز»!

أوقف ستيفان أحد المتظاهرين. كان هؤلاء أصدقاء «بول ديني» الذين لايطيقون «كوكتو». وقد عُلم أنهم سيُشاغبون فمُنِعوا من دخول الصالة. ولذلك هاجوا في الخارج. وعندما شاهد «بول ديني» الذي كان مع شخصٍ «قصير» ضخم «ديكور» انفصل عن ذلك الشخص واندفع نحوه:

ـ دكتور. هذا غير معقول! دفعنا ثمن أماكننا! فأخرجونا! قلْ للسيدة ملروز... هزّ الدكتور كتفيه. كان يعلم جيداً أن نيّاتهم قد انكشفت. صاح بول ديني «ذلك لايُتصوَّر! هذا عار! الشعراءُ يُطردون! «وقال بصوت أخْفض أتعلم، لن نُشاغب ضد السيدة «ملروز».. يمكنك أن تقول لها ذلك..

ـ تا، تا، تا، ياعزيزي ديني... ليس هذا من عملي.. ولن أرى روز قبل الاستراحة..

ـ اسمع، دكتور، دبّر لي ذلك... وإلاّ فسوف انتظر الخروج لأحطم أنف «كوكتو»...

ـ اوه. اوه! ما أقل صبرك!

ـ سأضطرٌّ الى ذلك... لا لأن ذلك يسرّني... لن يفهم الآخرون أنني لا أفعل ذلك... ولا أحد.. حتى ولا فريديريك..

قال الدكتور:

ـ لا، لا، لأن ذلك يضايقني. لكنْ دبّرْ الأمر مع «ماري».. فهي أقدر مني..

كدر اسم ماري وجه الشاب:

ـ كيف، ألا تعلم؟ انتهت العلاقة بيني وبين ماري...

دهش من ذلك دهشته حين علم أن الدكتور يجهل أيضاً تأليف الوزارة الجديدة.

ـ ولهذا بالذات.. لابدّ لي حتماً..

وألقى نظرة على ستيفان الذي غلط فسمّى نفسه:

ستيفان دوبوي.. لقد التقينا في الصحيفة. سلمٌ عليه بول بجفاف، ونحّى الدكتور جانباً

ـ يجب أن أشرحَ لكَ... يمكنك أن تؤدي لي خدمةً عظيمة.. وقعت لي قصّةٌ لا تُصدَّق... أنا عاشق...

ـ تهانيَّ!

ـ شكراً، لاتمزحْ. أنا عاشقٌ حقّاً. عجيبٌ ذلك. هجرتُ كلَّ شيء: العجوز، ودراستي، ومعهد علم المحيطات، والأسرة.. سنذهب معاً.. الى أي مكانٍ خارج هذا العالم... لكنْ .. هناك الآخرون..

ـ كيف، الآخرون؟ بما أنك هجرتَ كلَّ شيء!

ـ هجرتُ كلَّ شيء، هجرتُ كلَّ شيء.. إلا الشعرَ، وأصدقائي.. والحركة.. هذا كالحبّ، لا يجوز لنا أن نمزح معه..!

وهذه هي المسألة.. إنهم لايفهمون.. لايعتقدون أن ذلك جدّي.. ثم أتعرفهم، لا؟ مستبدّون، جاهزون أبداً للشكّ فيك، إن ظنوا أنك تتسلّ هارباً. وكانت مسرحية «كوكتو» هذه... فضيحة! وعبثاً تريد السيدة ملروز.. أنت تعلم من الذي يَدْفع، على ما أعتقد.. حسناً، وإذنْ فقد تقرّر أن نأتي الى هنا في مساء الغد، ونوقف المسرحية، ولو ذهبنا الى السجن، ولو قُتلْنا! وفي غضون ذلك، وقعتُ في العشق. وسأسافر غداً. وكانت كارثة. في الساعة السابعة، في المقهى. تحامل عليَّ مينيستريل! لن أراك في حياتي ثانيةً. قمتُ بحمله ضدّك . سأقول كذا وكذا. لا لأني أخشى ماقد يقولُه. لكنّي لا أريد في النهاية، أن أغاضبهم... جميع أصدقائي... أفضل أصحابي «جان فريديك سيكر»، الموسيقي... يُعطي الحقَّ لمينيستريل... وسوف يتبعونه، كما تعلم! لا تستطيع أن تتصوّر سلطة مينستريل على الآخرين! حينئذٍ قلتُ: «حسناً، في هذا المساء.. ليكن... سأجازف بكل شيء للحصول على كل شيء... وغداً سأذهب.. لكن على الأقل، في هذا المساء . وأنت ترى أننا منعنا من الدخول!

وصلت السيارات الى الساحة. نزل الناسُ من سيّارات الأجرة. تدافعت جماعةٌ قليلاً أثناء المرور. اصطبغ وجهُ «بول ديني، بما له من حركة فائقة، اصطبغ فجأة، بتعبير غريب جداً حتى أن الدكتور التفت الى الوراء.

ـ آه، دكتور! أنت مع هذا السيد الصغير؟ تعال إذن، «روز» تنتظرنا في مقصورتها!

كانت هذه ماري دي بيرسيفال في فرو الشنشيلة. فقد «بول ديني» ثقته بنفسه، وهمس: «ماري..» قالت· ماذا تريد. أنت شابٌ فظّ. وليس عندي ما أقوله لك!» وجرّت «ديكور».

ألقى مينيستريل، وهو شخصٌ طويل، لفّ نفسه بلثام، ومعه عصا أمسك بها من وسطها وكأنه سينهال بها على جميع الناس، وقد أحاط به ثلاثة من أصدقائه متبايني القامات والهيئات تبايناً عظيماً، ألقى بنفسه بين ماري وبول، دون أن يأبه لما كان يفعله بول، ولا للناس الذين قد يكلّمهم وقال بلهجةٍ ساخطة. «إذن ماذا نفعل نحن هنا؟ كوكتو هو الذي سيفرح! أنتِ تضحكين علينا. حقاً. تضحيكن علينا! وخلفه كان الشخصُ القصيرُ الضخم الذي كان مع بول قَبل قليل يخبُّ. فريدريك الصديق الأمين لبول، بعينيه اللتين تبدوان دائماً كأنهما تسبقانه. رفع بول ذراعيه الى السماء وفوق كلّ هذا حرس المسرح، والنورُ الاصطناعي، وطائفة من الناس، المعروفين، ومن الصحفيين، كل باريس. وسُمع صراخ أمام الباب. لم يُفهم بدقّة ماهو. لكن مينيستريل استأنف الصراخ. وكانت يداهُ تحركان العصا بحركة رائحة آتية. وكان لثامه يتطاير في كل الجهات. وكان الآخرون يجارونه. ومعهم «ديني».

سأل الخياطُ شارل روسيل السيّدةَ غودمان التي حيّاها: «ماذا يقولون؟» لم تكن تدري، يعيش بودلير! » على ما أعتقد. ولماذا يعيش بودلير؟ آه، أسرفت في السؤال عن ذلك! قال الخياط: إني أتساءل مادَخلُ بودلير في هذا الجحيم! الحاصل أن هذه الشبيبة هي..

وفجأةً علتْ الضوضاء، وأخذ الناس يركضون وحدث هيجان. تراجعت جماعة مينيستريل أمام دفعِ الشرطة. مَنْ دعاهم؟ لا أحد. أيُّ أحدٍ ورُئي المراقب في لباسه الكامل عند مدخل المسرح. مرَّ «ديني» كالإعصار وكاد يقع على «روسيل»... أمسكه هذا من ذراعه، وقد انتابه الخوف. «مالكَ أيها الشاب.. آه، أهذا أنت؟ لقد تلقى لطمة شديدة في أنفه فسال دمه. فقاده الخياطُ بسرعة الى المقهى المواجه.

كان الآخرون في الخارج يتضاربون بقوة. نظر روسيل الى «ديني» الصغير بنوع من الإعجاب. كان يلهث. وقد نُزعتْ قبتُه، وسال الدمُ على ربطة عنقه.

هذه الشبيبة هي... ألا تريد أن تكتب لي مذكرّة صغيرة لمكتبتي عن هذه الأمسية الغريبة؟ عندي مخطوطة المسرحية، وقد اشتريتها من كوكتو.. وسأجلّد مذكرتك معها.. وستكون فائدتها أن..

أصلح «بول ديني» مظهره. وطلب شراباً فاخراً. وفجأة خطرت له خاطرة فالتفت نحو محدّثه، وقال:

ـ سيد روسيل...

ـ مابك، ياصاحبي؟

ـ سيد روسيل، أنافي لحظة فريدةٍ من حياتي... لم أبحثْ عنك... ولكن ها أنت ذا... وإذن...

ـ وإذن؟

ـ أتستطيع أن تفعل شيئاً شديد الأهمية لي... هاهوذا:

أنا عاشقٌ، ياسيد روسيل..

أظهر الخياطُ اهتماماً مفاجئاً:

ـ ألا تظنّ أننا نحسن صنعاً لوجلسنا؟ هنا، هياً.. اروِلي قصتك..

في الخارج كان رجال الشرطة يمرّون، وهم يسوقون متظاهرين. كان أحدهما القصير الضخم بعينيه الجاحظتين، جان فريدريك سيكر. الموسيقي، صديق بول.

- ٦١ -

قالت «ديان»: لكن هذا هائل!»

كان هذا ا لفرو الفاتح يناسبها على نحو رائع، المعطف المفتوح على فستان أسود بسيط جداً مع بنفسج بارم عند الزنّار، وقُبّعة صغيرة ظريفة فوق العين. كان «شلزر» فخوراً جداً بالسيدة دي نيتنكور. ولم تكن زيارة معهد «ملروز» لتستهويه، لكن إن كان ذلك يسرّ «ديان»..

كانت الآنسه «أغاتا بولوس» تستقبل حسب الأصول: وضعتها ماري هنا كمديرة. لقد رفضت «زوي» طلبَ أبيها العودة الى اليونان فقُطع عنها معاشُها، وكان لابدّ لها من العمل، وإني لأسأل فيم تعمل؟ بدتْ مثل فهرس لمستحضرات المعهد، أزرق الجفون، صِبغة الحواجب، البودرة المغراء، صبغة الأظافر القرمزية. ولم يكن كل هذا ليغير لها ذلك الأنف البارز للعيان، ولا مفاصلها جميعاً. لكنها كانت في فستان الممرّضة الوردي ذاك، ومع ذاك النقاب الملبّس على جبينها والكل اسطواني! وبزة البائعات اللواتي كن ينتظرن في الصالات، كانت تفعل بجلاء وبترفٍ كلّ ماكان يُطلبُ منها.

كانت الشقة من تلك التي يبلغ ارتفاعها ضعف الارتفاع الطبيعي كالتي في الشانزيليزيه»، حيث تُفلس المصارف بسرعة كبيرة منذ أن يغيّر الناس الذين يسكنونها كسوتها الداخلية. ومن الدرج الفخم الذي تحيط به مصاعد في إطارات الخزائن الجدارية الخشبية، يُدلفُ الى جناح دائري مقبّب ذي زخارف بارزة رمادية، وبساطٍ خبّازي، ومقاعد خضراء، كل ذلك من «بول ايريب» الذي نزّل في وجه الباب أعمالاً لـ «جوان غري» اشتريت من عند «كاهنويلر» (كانت لوحات بيكاسو باهظة الثمن!). ومن هنا تتفرّع فروع الى ثلاث صالات لها شرفة على الجادّة، وقد تضاعف اتّساعها بالغرف التي انتُزعتْ حواجزُها، بحذاء ممرّ فيه المكاتبُ، والمحاسبةُ الخ.. وفي نهايته، يُصعَدُ، بدرجٍ داخلي صغير، الى ماسمّته «زوي» «العيادة»: أي الشقة العلويّة التي طُليت فيها بالنيكل

والدهان غرفُ المعهد بحصر المعنى، للتدليك، والرياضة البدنّية، وصالات الزينة، والتطرية، ومجموعة أصبغة الأظافر، والبخار، والدلاّكات الاهتزازية، وأشياء أخرى. وفي الجهة الأخرى تحتُ، ترى غرف مستودع السلع... هذا وبالطبع، لم تُدفع نفقات الصالات، وظلت كما وُجدت، بورقها المخطّط، ودهانها الكستنائي، ووضع هنا على العكس، حواجز صفراء ملمّعة وأقيمت مكاتب صرافة، مقطعة بحواجز نصفيّة. وكانت هنا نساء من صنفٍ آخر، في بلوزاتهن الرمادية، وشفاههن بلا حمرة، وعلى الثنيات دبابيس، وفي الأذن قلم، ومسلمّو البضائع الى جانب الأسفاط، من الكرتون الأنيق المكدّس الذي يُرى فيه توقيعُ روز مكبّراً عشر مرات.

قالت ديان. لكن ما أفضلّه، هو الصالون الصغير!

وهو صالون الوسط. وكله مذهّب. أثاث صيني، أسود وثلاث لوحات لـ «فوجيتا» الأولى بين النافذتين، والثانية فوق مدفأة من طراز لويس الخامس عشرة والثالثة على حاملة علّق عليها «بروكار» اسباني قديم بشيء من الإهمال.

كانت العطور في واجهتين كواجهتي المجوهرات، في الصالون الأحمر والأبيض، مع لوحة كبيرة للسيدة «مارفال» نساء تحت أشجار التفاح. أما لوحات «ماري لورانسان» في الصالون الثالث المنجدً باللونين الوردي والأزرق، فهي الأثيرة عند «زوي» وهي لم تُخفِ ذلك.

سألت ديان: هل ستمرّ ا لسيدةُ «ملروز» اليوم؟

قالت الآنسة «اغاتوبولوس»: نادراً مانراها... لكن: أن كنتِ ترغبين، فالدكتور هناك، في مكتبه.. وبين استشارتين..

- لا، أشكرك، ياآنسه. نحن مستعجلون..

صوتُ ضحكات وناس، في الجناح الدائري. تقدّمت بائعةٌ من «زوي» وألقت نظرةً سريعة. كانت روز بالذات مع سيّد ينفّض نفسه. وكان الجوّ مايزال سيئاً. صاحت «ديان»:

- اوه. عجباً! سيّد ليرتيلوا. قيل لي إنك كنت مريضاً.. اعذريني ياروز العزيزة. الفضول... بديعٌ المكانُ عندك.. أتعرفين «شلزر»؟

كان الجميع متعارفين. بدت روز على شيءٍ من الحزن تحت ضحكاتها. لاحظت ديان ذلك عى الفور وتطلّعتْ الى اوريليان. لم يكلّف اوريليان نفسه إخفاء سوء مزاجه. لقد احتفظت ديان بالميل إليه. وهي تعرفه جيّداً. وعند خروجها هي ورفيقُها، كانا مستعجلين جداً. قالت له. أتظنهما ينامان معاً؟ سخر «شلزر» كثيراً من ذلك. قال: «قريبي باربنتان ليس في باريس..» وقالت ديان: «أتعلم... بدأ عمرُ روز يتجلّى..»

كان اوريليان جالساً حيث علّقت لوحاتُ «فوجيتا». صعدت روز الى مكتب الدكتور. ثم إنها أرادت أن تأخذ موعداً من«السيركاسي» لمغنيّةٍ برازيلية صادفتها في الوزارة.. قالت: في الوزارة، لأنه لايجوز أن يقال في وكالة الوزارة.. وقد أقيمت أمسيةٌ في «البحرية التجارية» ألقت فيها روز «الدعوة الى الرحيل»[1]. كانت اللوحات بسعر متهاود. كان اوريليان يكره هذا التزيين الدعيّ، لكن كان لابّد من هذا، على مايبدو. لم يكن يحب لوحات فوجيتا، لكن النموذج الواحد، المرأة نفسها دائماً، كان يعجبه. فمنذ نوبة البرداء التي أصابته شعر شعوراً حاداً بفراغ الحياة. عجيبٌ: لم يكن يلاحظ أنه لايعمل شيئاً، ثم إذا بذلك، ذات يوم، يغدو غير محتمل.. ولو لم تك هناك روز..

عادت بآخر اعداد «فوغ». وجدته فوق: «ألستَ جائعاً؟ أنا أتضوّر جوعاً! والساعة الواحدة، أتعلم! على كل حال، أنت بحاجة الى اللحم، ياصغيري... يجب أن تسترد عافيتك..» وداعبت خدّه.

كان حقّاً أن عمرها بدأ يتجلّى فجأة... لا، في هذا الكلام مبالغة.. لكنْ كان يُلاحظ أنها لم تعد غضّة الشباب. لقد كان في وجه السيدة ملروز شيءٌ من الأعياء. وأصبح التغضّن قرب الشفة مألوفاً. وبدا أن مساحيق التجميل والتطرية تخفي بشرتها ولا تمتزج فيها بتلك الحياة المجاورة التي كانت ماتزال تُحسُّ في وجنتيها قبل خمسة عشر يوماً. ولابدّ أنها تعبت في مسرحية «كوكتو» التي كان دورها فيها مرهقاً. وكان في هذا الافتتان المفاجيء الذي أعلنته باوريليان ليرتيلوا شيءٌ من الغرابة أيضاً. فكأنها كانت تركض وراءه: ولم يكن ذلك من شيمتها.

---

(١) لبودلير المترجم.

«قلتِ لي... كنتِ تريدين أن تقولي لي شيئاً ما؟»

كان اوريليان يستفهم منها في حانة شارع واشنطن حيث كانا جالسين أمام «السباغيتي»، مع قنيّنة مقشّشة من خمر «شيانتي»، وفوقهما صورٌ ممثلين في إطار المرآة. تنهّدت «روز»، وغضّنت عينيها الى أقصى درجة. ووضعت شوكتها مع كدستها المتقنة من المعجنات: «غريبٌ، ياعزيزي.. إني أتساءل عمّا أصابني.. أعتقد أن ذلك خورٌ عارض.. لكن..

ـ مابك، ياعزيزتي؟

ـ تسالني؟ أنت ترى أني لست بالبشعة ولا أنا بالعجوز بعد.. تصوّرْ أنني منذ خمسة عشر يوماً.. نعم خمسة عشر يوماً على الأقل.. وليس هذا! ليس هذا المقصود! لا، لكن هل تعتقد أن هذا قد أصابني من قبل، مرة، ولو مرة واحدة قبلك؟ لا... اسكتْ! أشتهي ان أتكلم، لقد بدأ الأمر يهمني، لو لم أكن أعرف ديان... وماري... لظننتُ أنك لست.. في النهاية طبيعياً...

هزّ كتفيه، وهكذا فإن ماري روتْ لروز... النساء كلهن متشابهات. اتخذ مظهراً رقيقاً وقال: «لكن، أقسم لك أنه يتوقف عليك وحدك أن...

ـ دعْك من هذا، ولا تتغابَ! فلست طالباً، وأنا لستُ صديقة لأمك! وليس من عادتي اغتصاب الفتيان الصغار، لم أصل الى ذلك بعد! إن قلبك في مكان آخر، إن قلبك في مكان آخر، هذا كلّ مافي الأمر. لكن هذه أول مرة ألاقي مثل هذا: في الحقيقة إني أجدُ ذلك حسناً جداً، لكن هذا يحيّرني... وأنا أتساءل أيضاً..

أخلدتْ الى الحلم، حمُلِ «الشنيتزيل»، تركت النادل، وهو أسمر جميل، بعمل، كانت يداه اللتان لم يعتن بهما تصبّان المرق،

استأنفت روز كلامها:

ـ قلْ لي، اوريليان... دون تصنع،.. أتعتقد أن من الممكن أن أحبّ بعدُ؟ لاتضحكْ.. لعلي قاسية، لكن هناك أياماً..

نظر اليها بدهشة كان يعرف ثلاثة رجال مشغوفين بها على الأقل،

الدكتور، وادمون والعم «بليز». قال لها ذلك. هزت كتفيها. المسألة مختلفة تماماً
كان هناك أيضاً. شبابٌ رأوها في المسرح. وهل يُحسَبُ لذلك حسابٌ؟ لا،
شخص لايعرفها. يراها في مكان ما، دون أن يعلم مَنْ، ولاماذا! ولا كيف...
قالت: «قديماً، عندما كنت أنظر الى الرجل، كان ذلك يُدير له رأسه. كان سيهجر
كلَّ شيء..

تناول مرة أخرى شيئاً من عصيدة البطاطا.

همس" «وبعبارة أخرى»، إنني أسلك سلوكَ الأنذال..

- لاتتبـاله.. ليست المسألة مَسألة أدب... خذ مثلاً، ذات يوم، في
فلورنسا..

لم يكن يُصغي الى الحكايات إلا بذهن شاردٍ كان يعلم أن عندها شيئاً
آخر تريد أن تقوله له. قال لها ذلك. اعترفتْ: «نعم، وماذا تريد... أحبّ الكلام
على نفسي، أتعلم أن «بيبي».. يَعْني «بليز».. صادفته أمس... لايجب أن أروي
لك ذلك ! لقد حلَّفني..

غضَّن اوريليان أنفه. مادَخْلُ العم في ذلك؟ ومزح: كأنك تحافظين على
قسمك!»

لم تغضبْ، وأمسكت بيده: «من الطريف أن تعجبني الى هذا الحد..
الواقع أنك لستَ جميلا جداً ولا ذكيّاً جداً..»

- علامَ حلفتِ للعم بليز؟

- ألاّ أقول لك.. آه! صه! عنده أقامت السيدة موريل عندما هربْت من عند
ادمون...

كفَّ اوريليان عن المزح:

- كيف؟ عند العم؟ وكيف لم يُخطرني؟ أما تزال عنده؟

لم تبق عنده. سافرت. وقبل كل شيء وعد ألا يقول شيئاً. ثم إنه وضع
كلمة في منزل ليرتيلوا يطلب إليه أن يمرّ على ساحة «كليشي».

ـ « لم أكن أعلم لماذا.. لقد مرضتُ.. تعلمين جيداً!»

دون شك. وفي هذه الاثناء. فتنت بيرينيس الصغيرةُ «امبيريو».كانت العبراتُ تنهمر من عينيه وهو يتكلم عنها، ولم يكن بعيداً عن اعتبار اوريليان شخصاً خبيثاً. ما الذي لعلها قالته له؟ ومن المؤكدّ أنها لم تعدْ الى زوجها..

ـ يانادل، الحساب! اعذريني روز... أنت تفهمينني، فيما أظنّ؟

كانت تفهمه. وطلبتْ مع ذلك قهوة، وكأساً صغيرة. انصرف اوريليان. أخذت تحلم. عادت إليها أشياء كثيرة، وصعد الى حنجرتها، الى رأسها، هذا «الارمانياك» الرديء. أية مكْلبة هي هذا العالم! هو كالمسرح: الأضواء، الرسوم الخدّاعة، خشبة ا لمسرح... ثم انظر الى الممثّلين بعد ذلك في مقصوراتهم، آه! سيكون من الواجب عليها التصرّف بحذر. لن تقبل أن تكون طُعمةً للآخرين كغيرها. ومايزال أمامها القليلُ من الوقت. يجب أن تكون النهايةُ حسنةً.

أي ولدي، أي أختي،

هلا حلمتِ بحلاوة الرحيل..[1]

آه، اللعنة! دعكت السيجارة التي أشعلتها.

على المقعد المقابل، جلس شابٌ أنيقٌ جداً أشقر مع شيء من النمش. وأنف أفطس. شخص إليها بنظرته شخوصاً عرفته جيداً من قبل. نظرت هي إليه أيضاً بعينيها القصيرتي النظر، بوقاحتهما. احمرّ، وشحب فجأة. حينئذٍ تذكّرت كيف نظرت الى «هيبوليت» وهي تمثّل «فيدر». وابتسمت له.

* * *

(١) البيتان من «دعوة الى الرحيل» لبودلير. المترجم.

- ٦٢ -

عالم بأسره يمضي.. عصرٌ من..

كان السيد «روسيل» منفعلاً جداً. في سنّه. هو عالمه بعد كلّ شيء عصره. تذكر الفساتين التي عملها «للمرأة العارية». ثم إن «باتاي» كان جاراً له. جارٌ.. لكنه جار على كل حال. كان هناك شيءٌ من الشمس، وألوان فاتحة في الحقول، ونثار من العشب المصفر على المخمل المفلوح البيج والأبيض والأسمر والورديّ! وظهرت الأزهار البيضاء الأولى في الأشجار المثمرة. كان المشهد يتّكيءُ على الهضاب المجاورة، المجلّلة بالادغال والتي تقطّعها مقالعُ الحجارة، مع خطّ حديدي بالرمل، ثم يأتي الطريق والحقول والركام الذي يخفي السنين. كل ذلك كان يمتد أفقياً على كيلومترات. وفي الجانبُ الآخر من الوادي، كان كلُّ شي مستوراً، تخمّن فيه هضابٌ وديارٌ تكمّلها.

توقّفت سيارةُ الليموزين الكبيرة في الدرب النازل الى الطاحونة، مع السائق باللباس الكحلي وقبّعته المسطّحة وهيئته كمن ينتظر الخروج من الاوبرا. كان الخياطُ وبول ديني يذرعان الطريق الصغيرة في أسفل الحقول، قرب ملكيّة توجد فيها كل هذه الأزهار. قال روسيل: «تذكّرتُ هناك .. «الإيبيت»، أليس كذلك؟ مررتُ من هنا، منذ.. اوه! سنوات... لأرى «اوكتاف ميربو». كان هذا رجلاً من ..» وبطرف مظلّته الملفوفة، التي اتخذها كالعصا، نقفَ حصاة. تابع بول ديني الحصاة بعينيه ونظر الى قدمي زائره: بلفافتين مصفّرتين على حذاء أسود.

- «ما الذي حفزكَ الى المجيء الى هنا، ياصاحبي ديني؟

- تعلم، ياسيدي، هنا.. أو في أي مكان آخر! كان لي صديقٌ امريكي. كاتب شاب اعتزل هو وامرأته ليكتب رسالةً عن «ديدور».. حينئذٍ قلتُ في نفسي: يجب أن أعجّل، أن أجد ركناً.. وقعت عليهما من غير توقّع.. فكرّا على الفور في

الطاحونة.. قدّمني ارشيبالد لصاحبيها.. الزوجين اللذين رأيتَهما.. واتفقنا.

- الطعام مقبول؟

- باه! يَعْني.. ليس هذا مايهّمنا. مانريده بخاصة إنما هو ركن لا مشاكل فيه. ولا يعلم أحدٌ أننا هنا سوى «ارشي» و«مولي». وتعلم أن الامريكيين... أراهما متى شئت... مرةٍ في الأسبوع.. إنها العزلةُ العظمى.

- أأنت سعيد؟

- نعم، أستطيع أن أقول: إنني سعيد جدا.

صمت. يكاد يتعذّر التعرّف إليه. دون سترة، «وبلوفر» رمادي، دون قبة، وقد لوّحته شمسُ حزيران، وفقد عصبيّته. وكان نظره يشرد في أثناء مخاطبته. كان يفكرٌ في شيء آخر. وكان في مشيته مرونة الذين يمشون كثيراً ويتسلقّون الهضاب، وينسون الوقت في الغابات.

لاحظ الخياطُ: «ينبغي أن تقصَّ شعركَ، ياصغيري». هزّ بول رأسه: «سأذهب غداً الى «فيرتون»...» لابدّ أنه يقول ذلك كلّ يوم منذئذٍ.. ومع ذلك فقد كان مديناً لروسيل بمعروف كبير: ألف فرنك في الشهر، وليس هذا بالشيء الزهيد. ثم، فجأة، هكذا، لمجرّد أنه قال له: «أنا عاشقٌ، ونريد أن نختبىء في مكان ما في الريف». الواقع ان هذا الرجل الكهل كان كريماً، مع كل عيوبه، وأساليبه في.. كان الناسُ يهزؤون منه: كم من الناس كان سيفعل ذلك؟ مقابل مراسلة أدبيّة لمكتبته. عشر صفحات أو خمس عشرة صفحة في الشهر. لا، من هذه الناحية كان كريماً جداً.

ومن الواضح انه لم يستطع أن يقاوم. لقد حمله الفضولُ، وكان لابد له من أن يأتي ليرى كيف يعيش مَحميُّه الشاب. ومن المحتمل أنه أراد ان يرى أيضاً تلك المرأة التي تحيط بها أسرار والتي لايتكلم عنها إلا مجازاً. عندما وصلت السيارةُ الى «الطاحونة»، لمح «شارل روسيل» فستاناً فاتحاً تحت الأشجار، شخصاً انسلّ هارباً.. وعلى الفور ظهر «بول ديني» وتقدّم، بينما كان الخياط يحادث ذلك الشاب في بنطال الغولف على دراجة نارية. مالك البيت المؤجِّر، على مايبدو. أما الهاربة فلم تكن طويلة، وكانت شقراء. ومن المؤكد أنها

لم تكن فائقة الجمال.

قاطع نفسه فيما كان يقوله عن موت «هنري باتاي» الذي هزّه مع ذلك. وسأل: «وأصدقاؤك؟ مينيستريل وشركاؤه؟» ندّتْ عن بول حركةٌ متهرّبة في هذا المشهد الذي يكاد يكون ربيعياً، مع السين هناك، حيث سيتمكّن الناسُ من السباحة فيه، عمّا قريب، فإن أواخر نقع الشتاء في الوحل الريفي، والبراعم، والكثير من الأشياء التي بدت له ضرورية من قبل، ولاغنى عنها لحياته.، فقدت أهميتها لدى هذا الشاب. لقد مشوا عشية أمس أربعين كليومتراً ذهاباً وإياباً.. لاحظ روسيل ان بول يتكلم دائماً بصيغة الجمع.

ـ الحاصل.. أنهم لم يسعوا الى لقائك؟ وهم يعلمون أين أنت؟ شرح بول:

«واحدٌ منهم فقط يعرف عنوانه. وأذا شاؤوا أن يكتبوا إليه. فعليهم أن يسلمّوه الرسائل. لا، لن يقول شيئاً. لقد أقسم. من المؤكد ان «مينيستريل» غاضب لكن الحبّ له احترامه بين الجماعة. الحبُّ هو الذريعة الوحيدة التي يمكن أن تقدّم العذر..

ـ وهل يعرف السيّدة... أي صديقتكَ، «مينيستريل»؟

ـ اوه، لا. ومن جهة أخرى، فلست بحاجة الى عدم موافقته عليها.

ـ إنه مستبدٌّ في..

صَرَف «ديني» أسنانه قليلاً، لم يكن يحب أن يقال عن مينيستريل إنه مستبد، أو ديكتاتور. وكلمة ديكتاتور هي التي كانت تَخْطر للناس على العموم. وعندما كان الناس يتكلّمون عن الديكتاتورية بصدد مينيستريل، فلأنهم في حالة سيئة. مينيستريل على حقّ دائماً. تكلمّ بول عن شيءآخر وأوضح أمرَ هذه «الطاحونة».

ـ نعم.. زوجان شابان.. وهو ليس متين الرئتين.. استقرّا هنا، وعدُّه من «فيرتون».. المرآب في المدخل، كما ترئ... وهي جدّ لطيفة.. هذه الشقراء

القصيرة التي هربتْ عند وصولك.. لأنها لم تكن مرتَّبةً..»

آه.. لم تكن هذه إذن هي الشخص الذي نحن بصدده..

هذا المكان يشبه مكان «الاوبريت»، من النوع الريفي، وبأي ثمن، النقوش الانكليزية في الداخل، والخزف في كل مكان. ثم إنهما غير حريصين على الأخلاق. أما الزُبُن فهم الرسّامون. الكثير من «مونبارناس»، وأحياناً في عطلة نهاية الأسبوع تستأجر امرأتان الغرفة الكبرى تحتُ، عاهرتان. وأما أنا، فبسبب ما أجده..!

ـ وهل تصاحب الناس الذين يأتون الى هنا، هكذا؟

ـ بالضرورة... لكن المصاحبة... ليست هي الكلمة المناسبة. الناس يأكلون معاً، ويتحدّثون حينئذ معاً. ثم هناك «الحاكي»، وأحياناً، يرقصون في المساء. وفي ليلة مضتْ، عندما هبّت تلك العاصفة الهوجاء.. انقطعت الكهرباء وخافت النساء... فأشعلت الشموع، ونزل الجميعُ ، يجب أن أقول لك أن هاهنا بيان صغير رديء، وأنا لا أحبُّ أن أمسه في العادة.. لكن ، في هذا المساء.. وحتى الثانية صباحاً..

كان شارل روسيل قد اعد مفاجأته مسبقاً.

ـ ألا تقبل أن آخذك الى الغداء في «فرنون»؟ ففيها مطعم فاخر.. همس:

ـ لستُ وحدي.

ـ أعلم جيداً. أعلم جيداً، لكن إن شاءت السيدةُ.. اوه! المسألةُ أن... رجلاً كهلاً مثلي..

لامجال للرفض. لقد جاء روسيل ليراه، وهو، في نهاية الأمر، مَنْ يُعيّشهُ، هو «ديني». ومع ذلك، ساوره إحساسٌ قذرٌ. فكأنه يفتح الباب واسعاً على سعادته. هذا الشيخ المنقِّب، بعد كل حساب، مراقبٌ لأفعال العاشقين. كم يتحرّق شوقاً لمعرفتها. لابدّ من إقناعها: «افهمي لا أستطيع أن أرفض طلب السيد «روسيل»... نحن مدينان له بذلك...» كان بول يعرف الجواب سلفاً،

ـخرية الصوت، آه يالها من كارثة!

لم يحدث شيءً من ذلك. وسارت الأمور بكل سهولةٍ. ربما، وبعد خمسة ـابيع من الريف، بدأ تحرّقُها الى الحياة الاجتماعية. أو أن رؤية روسيل ـلّيها. أو أن تتناول غداءً أفضل قليلاً من غداء الطاحونة... وليت روسيل يخطر ـاله فقط أن يطلب شمبانيا طبيعية: «قولي، أتحبينني؟» هزت رأسها وقالت: «لا ـستطيع أن أكذب».. فقال: «اوه! أتعلمين ان هنري باتاي مات! - وماذا تريد أن ـعل بي موتُه؟» نعم، ماذا يريد أن يفعل بها موتُه؟ لكن يُقال أن امرأته الاولى، برتي بادي» كانت تنزل الدرج، في الريف في الساعة نفسها، في اللحظة فسها، وبدون أن تعلم شيئاً، فتحطّم قلبُها، وماتت. ألا تجدين ذلك غير طبيعي. ـا حلوتي! قالت بيرينيس: لا، بل أجد ذلك طبيعياً جداً.



تركتْ نفسها للزمن يحملها حيث شاء، ولم تعدْ تقاوم مايقع لها، من فوضى الحوادث والأفكار. بدأ كلُّ شيء كالاختلاس.. بدا لبيرينيس في البدء أن كلَّ شيء لن يدوم. كان ذلك في اللحظة الأولى مثل تسكعٍ أخذ يتطاول. أتعرف هذا الإحساس: علينا أن نكون في مكان آخر، في بيتنا، مثلا لكن ليس ذلك بالضرورة. هناك شيءٌ مثل وليمة تنتظرك، ولا تذهب إليها مع شعور متزايد بالذنب، بعد خمس دقائق. بعد دقيقتين. بعد دقيقة. ولا تذهب.. هكذا الزمنُ المختلس. زمنٌ ليس كبقية الأزمنة. زُمن أُفسدَ، بُذِّر. عادة عميقة للواجب تمتزج بحسّ غريبٍ للاقتصاد، اقتصادٍ للدقائق غير مفهوم. وكأننا لا نعيش ونحن نفعل شيئاً آخر غير المفروض أن نفعله.، غيرما يجب ان نفعله. ليكنْ، لن أذهب. ونحن لا نفضّل البقاء هنا لأننا نحرص على الخصوص أن نمكث هنا. نَحن هنا، وكفى، بنشوة تأبى أن تنصاع، كانت بيرينيس تتذكرّ، وهي طفلة، عندما كانت تصنع عجيناً وهي تنقل الرملَ بسطلها الأزرق من كومةٍ في الجهة الأخرى من الممّر، مثلما كانت تمكر بنفسها حين تضيع الرملَ، كلّ الرمل تقريباً في الطريق، مكراً مُنكراً لاسبيل الى تفسيره. وكان عليها أن تُعيد الكرَّة. في الحقيقة كان المفروض أنها تلعب بصنع المعجنات . لكنها كانت تلعب بنقل الرمل دون أن تقول ذلك لنفسها. عاد كلُّ ذلك الى ذاكرتها اليوم، حاملاً مشابهات مبهمة، غير محقّقة، بهذه الحياة التي بدأت سنة١٩٢٢.

بدت ملامحُ الربيع في البلد كله. وهو لايَردُ الى الريف، في هذه التخوم النورماندية، كما هي حاله في «ر...» حيث يكون المباغتةَ نفسها. ولا كما هي الحال في «البروفانس» حيث يفوتُها الربيع في الغالب، إذ تدخل الصيف دفعة واحدة. ولاكما هي الحال في باريس، إذ تستنير ذات يوم، حسب ذلك التقليد المسرحي الذي تشتعل فيه انوار مقدّمة المسرح حين يدخل الممثّل ومعه شمعة صغيرة. لا. كان الربيع يجتاح عالم أعماق الأرض، رطوبة الحقول. كان مثل

بُخارٍ يرتفع. كان له بطءُ الماء الفاتر وثقلهُ. لم يكن الربيع بعدُ. كان قلقَ الربيع. ياللغرابة! لقد وجدت فيه بيرينيس مذاقَ الوحدة. بشائرُ الربيع كانت تفصلها عن «بول» أكثر من أيّ شيء اخر.

لأن بول كان داخلاً في ذلك كله. وغرابةٌ أخرى هي ذلك الشاب بفمه الغريب، وشعره الكستنائي الذي جعلَ الهواءُ لونه يَنصل، وهذا الهزال، وتلك العصبية الصبيانيّة. بول... مجهولٌ دَخَلَ حياتها مصادفةً واستمرّ فيها. واكتسى أهمية غير متناسبة. من هذه الجهة، نعم غير متناسبة.

كانت تحب الصباحَ، عندما يمضي لزينته، وينزل وهو لم يغسل وجه ليأكل لقمةً بالزبدة في القهوة بالحليب، عندما يستلقي على بطنه في فراشه بين أوراقه وهو يكتب أشياء لا أول لها ولا آخر، ولا تكتسب معناها إلا فيما بعد. كانت تحبّ أن يتركها في الصباح «بول» فتستغل ذلك الكسل، أو أحلام اليقظة التي تريحها لكي تتنزه وحدها في الحقول، الآن وقد أصبح ذلك ممكناً بحذاء فاخر دون واقية الحذاء وبالمعطف الكستنائي القصير الذي كان واقياً من المطر تقريباً، بيد أن المطر لم يكن يهطل أبداً، فقد كان هناك انقشاعات عن الشمس تكاد تطير الصواب، وتبعث الخدر.

كان هناك بول، لكن كان هناك غير بول ايضاً، ذاك الذي لم يتكلّم عنه أحدٌ. كان يكفي أن ينزل المرء من هناك، خلف ستار الأشجار، وأن يجتاز التلّة المخضرّة حيث تتّصف الأرض باللزوجة والألوان المتغيرة ليفضي الى درب الأوراق الميتة، السوداء منذ الخريف، حيث يسهل المشيُ، بالرغم من الأغصان الكبيرة الشائكة التي ترتمي عليك بين الحين والآخر من الأدغال الواطئة، والتي تنشب فيك في الوجه أو الساقين. من هناك يمكن الصعود أو النزول، بحسب الأيام، لكن كان هناك دائماً ذلك الحضور الرقيق والصاخب، تلك المداعبة وذلك العداء، الماء الأصفر والأبيض، والأخضر أحياناً، المحوّم عند جذور معروقةٍ، الماء الطويل، الماء المملوء بالأفكار، الماء الذي يمكن أن ننظر إليه بلا نهاية، الذي يكلّمك، الذي يهدهدك، والذي يغنّي لك.

كان هناك بول، لكن كان هناك «السين» أيضاً.

هذا «السين» نفسه. طريفٌ عند التفكير، هذا السين نفسه...

سيأتي يومٌ عما قريب، عندما يصبح الجوُّ أدفأ، يود فيه «بول» أن يستحم بالسين. كان يتكلم عنه كثيراً. بل لقد حمل معه لباس البحر، وكان يخرجه، في بعض الأيام، من حقيبته، وينظر إليه وكأنه فستان سهرة راقصة. ياله من صبيّ! لايمكن أن تحقد عليه لكونه كما هو، وفيه جوانب مدهشة، ولطافة... إذا عزف على البيان، فهو رائع.. على شرط ألا يعزف موسيقا صديقه العزيز «جان فريدريك سيكر»... لأنه حينئذٍ.. لولا أن بول لايظل شارداً في بعض الأحيان.. حين لاينبغي له أن يشرد..

ليس في «السين» شرود. وما أعظم تلاحم الأفكار لدى الجداول! إنه يجري هكذا، في الاتجاه نفسه، دون ان ينسى البتّة، دون ان يُخطىء.. وعندما نصعد من حافته، فهناك مناطق من الخضرة، وآكام من الركام اكتسبت شيئاً فشيئاً، لدى بيرينيس، طابعها الخاص، كأنها أصدقاء، كأنها أناس تعرفهم... كانت الأشجار تحيّيها لدى مرورها، بطريقتها الخاصة، الفردية، المتميّزة.. وكان هناك نوع من شطٍّ حيث يأتي قليل من الزبد ليموت على الحجارة، ثم الحقل الكبير الذي ينحدر انحداراً مستقيما الى النهر، وانعطاف في الضفة، وصفصافة.. وهكذا نصل على نحو غير محسوس الى مُلتقى «الإبيت» والسين، حيث ينبغي أن نعود الى عالية الجدول لنمرَّ، إذا شئنا أن نتابع طريقنا الى الأعلى، نحو هَويس القناة، بعد تلك الملكيّة المهجورة، بمنزلها الخشبي ذي المصاريع المغلقة، وتلك الحديقة التي اجتاحتها الظلالُ وحزنُ الأعشاب، مكان للأحداث المختلفة، مع صوت التهويس، والموج العالي المزبد بعد قليل، والشرفات الحديدية الصغيرة التي تجتاز الماء نحو الجناح، في الجانب الآخر، الصغير جداً والبعيد جداً، على الضفة اليسرى، حيث تمرّ الطريق الكبرى، وعرباتها في كلا الاتجاهين، وحركتها الدائبة الغامضة.

السين نفسه. وقواربه التي تنزلق بأعجوبة، وعلى ضفته أنسانية غير مفهومة، ناسٌ يبدو عليهم أنهم يقضون حياتهم، هكذا، وقوفاً بلا حراك، محمولين. وأغصان ميتة مجروفة في المياه الدوارة. وأحياناً ضربٌ من الحطام. السين نفسه. المنوِّم. الآتي من باريس والذاهب الى البحر. أبداً. ولايكون غير ذلك أبداً. الآتي من باريس. والذاهب. الى البحر.

كانت بيرينيس هنا، وحيدةً حقا. إنه غير عادي أن ترى الى أي حدّ يكون الريف فارغاً. وإزاء فلاحٍ في المدى البعيد، وشخصهُ منحنٍ أحياناً كمن يكافح الدود في الأثلام، نحسّ إحساساً أكبر بالفضاء، بالصحراء العجيبة. ولايخطر ببال أحد أن يسير على طول السين. ولم يَفعل ذلك؟ ومَنْ يفعل ذلك؟ الناسُ عقلاء. فلامعنى لأن يسير الإنسان على طول السين. إذا يجب ان يعود بعد ذلك. بعد أن يكون قد مضى بعيداً. كان بول يتكاسل، العزيز الصغير. كان لابد له من ساعة ليلبس جوربه.. وكانت بيرينيس حرّة. كانت تحبه حقاً بول. دون شك. لكنهما لم يكونا دائماً معاً. كانا هو يتمنى ذلك! إلا إذا شغله اللهو. الواقع، أنه كان يود أن يكون معاً عندما يلائمه ذلك. ومثل هذا القول ليس صحيحاً كلّ الصحة، لكن على الإجمال.. وقد اغتبطت بيرينيس لأنها لم تتنازل في مسألة الغرف. فقد أصرت على أن يأخذا غرفتين، في «الطاحونة». ولم يكن بول يريد غرفتين بل غرفة واحدة وسريراً مزدوجاً. وكانت له مبّرراته الممتازة. السعرُ أولاً، ثم مَنْ يغشّان بذلك، هما الاثنان؟ وقد حدّدا سلوكهما ولم يكن من شأن الزوجين «فانهوت» صاحبي الطاحونة. أن يجدا في ذلك مايعيبانه، بحجّة أنهما غير متزوجين. كانا لطيفين.. زوجين ظريفين، ومتكتّمين تماماً. ومع ذلك فإن بيرينيس أبتْ. كانت زوجة لوسيان دائماً، ولم يكن لها من داعٍ لأن تفعل ذلك بل كانت تفضل ان تلحق ببول في غرفته، مساءً، عندما تنام الخادمة. مع بعض الاحتياطات لكي لا تُرى داخلة. وكان لذلك هذه المزية وهي أنها كانت تستطيع أن تنصرف إذا شاءت، ومع أنها لم تكن تكره أن تنام مع بول. كان يُحسن النوم، ولم يكن بشعاً وهو نائم. إلا أنهما لو كانا في غرفة واحدة.. كان الأمر أفضل هكذا..

كان قرب الهويس مقعد. مقعد عتيق متعفّن، لكن الخشب ليس بارداً كالحجر. جلست عليه بيرينيس، ونظرت الى الأبواب المتحركة التي تنظم جريان الماء وهي تعمل. وقاطرة نهريّة نازلةٌ في النهر لتأتي بقارب دون شك. وسوف تجرّه بعكس التيّار كما تُجَرُّ بنتٌ من شعرها. وستُلزمه هذا الطريق المنافي للطبيعة. وستقوده بالقوة الى مكان ما. الى مقرّه، ربما. ولعلها ستمرّ – من يدري – أمام جزيرة سان لويس.

كان على بيرينيس أن تذهب في اليوم التالي. على أبعد تقدير، الى «فيرنون». وفي مركز البريد كانت تتسلّم رسائل لوسيان وتضع فيه رسائلها إليه. وهكذا، تأمن المفاجأة الممكنة. كانت حذرةً من لوسيان، وظهوره بمظهر مَنْ يفهم كلَّ شيء، وتلك العاطفيّة. لم تكن المسألة مسألة لوسيان. لكن كان عليها أن تكتب إليه بانتظام مرة في الأسبوع، لمجرّد تفادي الكوارث، الابتزاز بالقلق. هناك كائنات تضطهدك بوجودها فقط. يضع المرء بينه وبينها مئات الكيلومترات، فلا يُجدي ذلك نفعاً. طبعاً، هي لم تكتب إليه عما وصلت إليه مع بول. أما هو فما إن غاب عنها اوريليان... ماجدوى أن تهبه غذاءً للألم، أن تُساعد على تعذيب نفسه؟ كفاه عذاباً دون معرفة وجود الصغير بول... هذا مع أنه كان قادراً على القبول به. لكن ذلك كان سيتجاوز الحد: فربما لم تغفر له بيرينيس ذلك أبداً. فلماذا تضع بينها وبينه مالاسبيل االى إصلاحه؟ إو أنه كان سيناقش أأنتِ واثقة من حبِّك له؟ أهو يحبّك حقّاً؟ أهو قادرٌ على إسعاد امرأة؟ «إن زوجاً من هذا النوع لأسوأ من أمّ.

في السين، هناك، جزيرةٌ. هناك جزرٌ على طول السين. وهذه الجزيرة لا يذهب إليها أحدٌ، فهي لاتصلح لشيء. هي طويلة وضيّقة مع بعض الأشجارالتي نرى النهر من خلالها، من الجهة الأخرى، الى حيث تمضي ا لسفنُ. هذا المكان يجعل كلَّ شيء حميماً. تساءلت بيرينيس أتستطيع السباحة الى هناك إذا نزلت الى ا لنهر. بول سبّاحٌ ماهر، فيما يبدو وهي لاتتخيله جيداً وهو يسبح. إنها قلقةٌ قليلاً عليه بينما هي ترى جيداً كيف يسبح اوريليان. وقد حدّثها عن ذلك مطوّلاً.

وهذا على كل حال أحد الأشياء القليلة التي يحسن الكلام عليها . فهو ليس بالبليغ جداً . انها تراه في السين. يسبح. ما أحسن سباحته! وليس الذهاب الى الجزيرة مما يضايقه. فلابد أن يكون على ضفاف الجزيرة وحلٌ. وإنا لنراه، من هنا، وهو يَخْبِط في الوحل، وهو خارجٌ من الماء. ذلك الجسم الطويل الأخرق. جلست هنا، على المقعد، لتراه رؤية أفضل، هناك، في الجزيرة إنه رجل الجزر. وليس في ذلك مايدهش.

قطعت القاطرةُ النهرية تجربة الحوض، ومضت فخورة من الجهة الأخرى من الأشجار، بصوتها العظيم الأجش. كانت سوداء مع شريط كستنائي وأبيض في المدفأة.

آه! يا الهي، قد تأخر الوقتُ. الغداء! وبول الذي سيحرد، والذي أهملتُه!



ـ بالطبع... إذا كنتُ لم أضطجع مع ليرتيلوا فلانه لم يشأ ذلك!

غضب ادمون. ما أجمله حين يغضب! ضحكتْ روز، ضحكتها المسرحيّة. جرى ذلك في المكتب الصغير، قرب الصالونات في المعهد. أولاً لقد رجع بلون بديع، هذا الملعون باربنتان. خزفةٌ خالصة، ملوّح. أملس. بأسنانه البيضاء، بالروعته، في هذا الطقم الرمادي الوردي الذي كان سيبدو انثوياً على غيره. و«روز» في فستانها الأسود الضيّق، مع قبعة مستديرة، وقفاز أسود طويل، وحذاء أسود، وصدرة غريبة خضراء من القماش المنشّى. قالت باللهجة التي تُصطَنَعُ مع الأطفال: «ومع ذلك فإياك أن تغار وتُحطم وجهك الصغير؟»

ـ كفى مزاحاً ياعزيزتي. ولمَ لا أغار؟ هاأنذا أعود لأسمعك تقولين... ياللعودة الحلوة!

ـ أتفضّل أن أخفي عنكَ الأشياء. لقد عدتَ وحينئذٍ قلتُ لكَ ماجرى عندما لم تكن هنا. متى تريد أن أفعل ذلك. لقد سافرت حضرتُك لقضاء ثلاثة أسابيع، في رياضات الشتاء كما قلت.. ثم تبقى هناك شهراً، ولاتعود، وتمضي الى الساحل، اللازوردي.. وتنتظر الكرنفال، وتقضي الكرنفال... كل ذلك مع امرأتك... ثم تسمح لنفسك بالغَيْرة!

ـ أنت تعلمين أن امرأتي، لايُحسَب لها حسابٌ..

ـ هذا مايُقال دائماً... لكني لمْ أضاجع ليرتيلوا بينما أنت...

إذا كنتَ لم تضاجع امرأتك فقد ضاجعت غيرها!

شرح ادمون انه ينبغي له أن يُسري عن بلانشيت. إنه لايَنْبغي أن يُطلّق، على الأقل حتى الآن..

قاطعتْهُ «روز».

ـ كلاّ! إياك والحماقات، ياصاحبي! إذا طلّقتَ.. فلن أتمكّن من ضَبْطكَ! أنت وامرأتُك لتشغلك.. ذلك يظلّ مقبولا!

تنازل فضحك ضحكةً صفراء بسبب اوريليان. لمَ اوريليان؟ دائماً اوريليان! مع امرأته... وعشيقته..

آه، لا، إنه يبالغ، اوريليان!

قالت روز.

- أنصحك بالاعتراض. رأيت صورتك في «المدينة أوالريف».. مهرجان على «الريفييرا الفرنسية».. مع الدوق «دي كونوت». والسيد والسيّدة باربنتان، وفي الجانب الآخر السيدة كيسنيل الجميلة.. وأنا أقبل امرأتك، فهمت.. أما امرأة حميك فلا! لستُ مرتاحةً لـ «كارلوتا»..

لاحظ ادمون.

- غريب. قالت لي بلانشيت. مع السيدة «ملروز»، لك ما تشاء... أما كارلوتا فإني سأغضب!

صَفرتْ روز:

- حسناً، أرجو ذلك! وهكذا فقد نلتُ مباركة زوجتكَ؟ بلانشيت تجدني طاعنةً في السنّ بالنسبة إليك!

- حمقاء!

وقبّل يدها.

- وما الزيّ الذي من المفروض أنك تزيّيت به؟

- لاشيء خاص. بزة منقولة عن «مازاكيو». كارلوتا لها صديق فنّان... إذن فهو لم يقبل بسبب بيرينيس، اوريليان الوسيم؟ وأنا أتساءل أين يمكن ان تكون... هو في حداد؟

غيرّت روز مجرى الحديث. هل يعجب ذلك الشريك كلُّ شيء هنا؟ الصالونات، الزخارف، الورود، الآلات الكاتبة، المدلّك، المزيّنات.. ما أسرع مافعلناه! سباقٌ، أنت لا تتصوّر.. لكن إن فوّتُ آخر كانون الثاني فسيكون فصلاً ضائعاً. إذ سيأتي جمعٌ غفير!

- ألا يكفيك هذا، ياسيّدتي، لتشغلي نفسك؟

- آه! مهلاً! أنا، ياصاحبي، أمين لمن هم بيننا: الحياةُ قصيرةٌ وأنا أحب ذلك. ماذا ستعمل الآن؟

أجاب بفحُش مُقذعٍ خجلت منه روز نفسها. لكن هذا ذاب في التصنّع. تنهّدت:

- إذا شئت، وإن لم يكن هذا هو ما أفضّله.. لكنْ الى يوم آخر.. أما اليوم فأنا أطلب إليك أن تجرجرنا، أنا وامبيريو، أمعك سيّارتك؟

- عجباً! السيّدة ورسّامُها! إذا حسبتِ أنني عدتُ من أجل ذلك! لديّ مدّخرات وعلي أن أستنفدها... وليس بي مَيْلٌ الى التنزّه!

- أبله، أبله. لم تُخْطر ني.. ووعدتُ «بيبي»..

- حسناً، تُلغين موعد هذا العزيز، ، وهذا كل شيء.

- مستحيل. فلدينا موعدٌ.. كنتُ أرغبُ منذ زمن بعيد... أخذ «بيبي» لي موعداً من «كلود مونيه»...

- كلود مونيه؟ أتظنين نفسك نيلوفراً؟

- انتهِ من حماقاتك. امبيريو صديقٌ قديم لمونيه... وطالما وعدني... وموعدٌ مع مونيه لايُلغى... وهو يسكن الريف...

- آسف. بلانشيت تستخدم السيّارة. والأخرى في المرآب، في طور التصليح. ويالها من فكرة سخيفة!

- طيب، سأطلب من ليرتيلوا. وسنحشر أنفسنا في سيّارة الأحصنة الخمسة، وكفى!

- قولي، أتريدين أن تُسعديني بـ...

- سأسعدك غداً... عندما...

وعبّرت بحركة عسكرية. رفعت سمّاعة الهاتف بينما كان ادمون يستشيط غضباً.

- آلو؟ هذا أنتَ؟ هلاّ نزلتَ؟ هاهنا باربنتان وهو يريد أن يسلّم عليك! وقالت للآخر: «زوجي!»

تمتم ادمون بأنه يستهين بهذا الزوج المخدوع. قالت:

- أوه! تلك الكلمة الخبيثة! وإذا كانت وبالاً عليكَ؟»

— ٦٥ —

« شيٌ لايصدق»! الطقسُ حارٌ تقريباً...»

في الغرفة المؤثثة تأثيثاً يسيراً، والتي تفتح نافذتُها على سقف قرميدهُ قديمٌ أسمر، كانت الشمسُ تدخل مع زنابير فتيّة مبكرّة.

إن ماء الصابون الأخضر في السطل الذي لم يُفرغ، وفوضى الثياب المرميّة على عجلٍ والحقيبة المفتوحة، وربطات ا لعنق التي سُحبت لاختيار بعضها، كل هذا الذي كانت بيرينيس الجالسة على السرير غير المرتب تنظر اليه بعينين ناقدتين، بدا كانه يرقص الفالس حول بول الذي كان يرتدي ملابسه. قالت.

ـ الأفضل أن تحلق لحيتك.

ـ أتعتقدين؟

وقف فجأة أمام مرآة الخزانة المصنوعة من صنوبر المناقع.

ـ مرّ بيده على خدّيه وأردف:

ـ يقول. «فانهوت» أن الرجل إذا حلق لحيته صباحاً، فهناك شيءٌ لايسير سيراً حسناً في المنزل...

ـ «فانهوت» يقول هذا؟ وهو لايحلق ذقنه إلا كلّ يومين.. لن تكون جاهزاً أبداً، بما أن أصدقاءك سيأتون.

ـ أتظنين؟ باللوقاحة! أنا لم أدعُهم.

ـ كلاّ لم تدعُهم... الأفضل لك أخيراً أن تكون نظيفاً لاستقبالهم... ساد صمتٌ.

ـ أنا لم أسمح لفريدريك أن يعطي عنواني..

ـ لم تسمحْ له، لكن عنوانك معه... وإذن..

ـ كان لابدّ أن يكون مع أحدهم، أليس صحيحاً؟ لكي يُسيِّر الرسائل.. ثم إذا ماحدث شيٌ ما..

ـ آه! نعم، إذا ماحدثَ شيءٌ ما... ثم إن هذا لا أهمية له. لكن لاتدهش إن عادوا. لابدّ أن يقع ذلك.

ـ أنتَ غاضبة، ياحلوتي!

ـ رمشتْ. كانت تكره أن يدعوها حلوة. لا، لم تغضب. كانت تتهّرب من الغداء. هذا كل مافي الأمر.

ـ حقاً، لاتريدين أن تريهم؟ ولا تريدين أن تري مينيستريل؟

ـ ما الحاجة الى ذلك؟

طالما كرّر لها أنه لايَحْرص على أن تعرفه. لايريد أن يخاطر... الواقع ما الذي لايريد أن يُخاطر به؟ مينيستريل أمامها، وهي أمام مينيستريل؟ ابتسمت ولم تفه بكلمة. كانت تعلم جيداً أنه يخاف حكم هذا الصديق المستبد. لكن قد انتهت اخيراً ا لصحراءُ والوحدةُ.

ـ كم سيكون عددُهم؟

ـ خمسة عشر. البرقية تقول خمسة عشر أو ستة عشر. قلتُ «لفانهوت» خمسة عشر. لأنه بعد... ثم إن الطعام الذي يكفي خمسة عشر يكفي ستة عشر..

كانت البرقية هنا، على الطاولة.. تناولتها بيرينيس وقرأتها. أخذ بول يحلق ذقنه. كان يبدأ دائماً من أدنى ذقنه. بموسى حلاقة آلي. وبعد قليل سيلتفت يميناً وشمالاً بحثاً عن طرف جريدة لمسح الصابون.

ـ العجيب أني استطعت العيشَ دونك!

هذا الضربُ من المكاشفة المفاجئة كان يغيظ بيرينيس دائماً. ماحيلتُها في ذلك؟ كان هكذا: «كانت ماري عندك»...

ـ اوه! هذه...

ـ ماذا؟ كانت لطيفة جداً معك.

ـ نعم... لكني لم أكن أحبها، تعلمين ذلك جيداً.

ـ ظننت نفسك تحبّها على مدى خمسة عشر يوماً.. أنت نفسك قلت لي ذلك... ثم كانت هناك باريس، ودراساتك... أواثقٌ أنت من أنك لاتأسف على معهد علم المحيطات، الزحافات البرمائية؟

ـ واثقٌ، أؤكدٌ لك أني واثق! «اوه!» جرح نفسه. فكشرّ أيمّا تكشير بفمه الغريب. فلم تتمالك نفسها عن الضحك. ماذا جرى؟

أضحكْتُكِ. جرحتُ نفسي...

نظرت الى هذا القليل من الدم قرب الشفة.

قالت: دمكَ حلوٌ! فاستدار وقد أرضى ذلك غروره. ولولا الصابون لقبّلها حقّاً.

ـ تقولين إني لا أسف عليها، الزحافات البرمائية! و«آسنيير» وماما، وإخوتي الصغار، والشقة الصغيرة التي نشتّم فيها رائحة ورق ارمينيا لتخفي رائحة الملفوف!

ـ نعم، لكن كان هناك مقهى ساحة «بيغال»، ومينيستريل والآخرون... ألست غاضباً من رؤيتهم؟

لم يجب رأساً. ثم قال بلهجة متجردّة:

ـ اوه! تعلمين، أنه يسرّني، بالطبع أن أرى أين وصلوا... ففي مدى خمسة أسابيع لابدّ أن يكون قد ابتكروا شيئاً ما... في مدى خمسة أسابيع سيكفّون عن الكلام على القصائد الاوتوماتيكية.. يبدو أنهم أخذوا ذلك عن طالب اكليريكي تركَ الرهبانيّة.. كتب فريدريك «تانغو» لآلات «الاوكارينا»...

فكرّت بيرينيس: عجباً، لاشك أنه تلقّى رسالةً لم يحدّثني عنها. إنه يحبّني، طبعاً، لكن على طريقته. سوف يستغرب لو قلتُ له رأيي في ذلك. سوف يُقدم على عمل جنوني، لكلي يُثبت لي أنه يحبني حقّاً. علام يدلّ ذلك؟ مع هؤلاء الناس، الحب ينسجم مع اللوحة ومع ذلك فهو يحبّني.

قال بول.

ـ فهمتِ، ماذا بوسعي أن أفعل إزاء ذلك؟أبرقوا لي، ووضعوني أمام الأمر الواقع، ولا أستطيع أن أمنعهم من المجيء، حينئذٍ... هذه هي طريقة مينيستريل! ولابدّ من الخضوع لمطالبيه.

كان بول يحسب حساباً لمينيستريل أكثر من العالم كله مجتمعاً. لكن كان عليه أن يظهر بمظهر المستقل، وكانت بيرينيس لاترغب في أن ترى أصدقاء بول، هذا النزول الكامل لأفراد الجماعة، لن تحضره بيرينيس، ولن تكون هدفاً لفضول خمسة عشر زوجاً من العيون أو ستة عشر. شكراً جزيلاً. كانت تعلم أن مينيستريل يشتاق الى بول، وهي لاتحرصُ أن يُنظر إليها على أنها الشخص الفظيع الذي يمنعه من الذهاب ليتناول شراب الكوروساو، في ساحة «بيغال»، وأن يكون الأثير لدى مينيستريل، والعجبُ أن هذا الفتى الهزيل، الذي عجز اسمرارُه عن إخفاء بياض سحنته القديم، هو الذي ذهبت معه هكذا بقرارٍ مفاجيء، ومرّت بلحظات تساءلتْ فيها إن كان ذلك حقيقةً. كانت ناقدةً لكل شيء، عندما لقيته مصادفةً، في ذلك اليوم من كانون الثاني، وهي تتسكّع على الأرصفة، من جهة شارع بونابارت. كانت تنظر الى السين، السين دائماً.. كانت تفكرّ في المجهولة، وفي مستودع الموتى... لم تشأ ان تعود الى لوسيان، لتمثّل دور التائبة.. والآخر، آه، لا فائدة من تعذيب النفس بالتفكير في الآخر! في البدء تضايقت من لقاء هذا الشخص.. منذ ثمانية أيام نامت فيها لدى «امبيريو» ضاقت ذرعاً بالعظات الأخلاقية التي كان يلقيها عليها العجوزُ «بليز».. السين... ثم كان لابد لها من ان تكلّم أحداً.. كانت تصغي الى نفسها وهي تتكلم، فتدهش، ولا تتعرّف نفسها... أخذ « بول ديني» يديها... لا، لا، يجب ألا تقتلي نفسكِ... أنتِ مجنونةٌ؟ هل قالت إنها ستقتلِ نفسها؟ لم تعد تتذكرّ ذلك. على كل حال، بدأت الأمور هكذا...

كان جميلاً، حليقاً، راضياً عن نفسه قال وهو يرتمي عليها:

ـ عيّدي لحيتي!

ـ بول، مهلاً!

ـ اوه! يا حلوتي!، سيطول فراقُنا! سوف نفترق! بعد الظهر كله، تصوّري! لاول مرة... هذا فظيع!

ـ كلا، سترى.. سيمرّ الوقتُ بسرعةٍ... سيكون هناك الطالب الاكليركي، ومينيستريل، وقصص كوكتو.. وأخيراً سيأتي المساء دون ان تفكرّ فيه!

أومأ «لا» برأسه. نظر إليها بعينين لامعتين. لم يبدُ عليها الحزن على الإطلاق. مدّ إليها ذراعيه. قالت: اوه، لاتفعلْ ذلك طوال الوقت!

تجّهم لكن ا لغيمة مرّت سريعة.

ـ اسمعي «نيسيت»، بما أننا سنفترق... لنخرج معاً... أتريدين.. سنقوم بجولةٍ... حتى منزل «مورفي»...

ابتسمت. كان بحاجة الى «مورفي» كهدف... ولمَ لا، في نهاية الأمر؟ والعجب أن الإصغاء إليه عندما وصلا هذا المكان، كان كأنما هربا الى الحبشة.. لم يكن الزوجان «مورفي» كريهين، من جهة أخرى، هو برأسه الضخم وبالهيئة التي يصطنعها كلاعب البسبول..

ـ انتظرني في الأسفل... يجب أن أمرّ على غرفتي..

كان عليها أن تنزل طابقاً، وأن تدور في الممّر المظلم حيث توجد درجة. وكان لغرفة بيرينيس ستائر صغيرة ذات مربعّات حمراء وبيضاء، متناثرة عليها، وأثاث من الطراز النورماندي. وكانت الحقائب التي من جلد الخنزير الخبآزي تذكر في الداخل بما في هذا الديكور من طابع عارض. وضعت بيرينيس شيئاً من العطر على منديلها ونظرت الى نفسها في مرآة منضدة الزينة. كانت بحاجة الى البودرة. وكان بول يُزيلها عنها طوال الوقت.

غريبٌ مافي غرفةٍ كهذه عندما يُرتَّبُ كلُّ شيء فيها، وعندما تكون في وضح النهار، من صلةٍ واهية بالغرفة نفسها في الأضواء، وفي فوضى المساء، وفوضى الحب أيضاً. بما أن هذا يُدعى حبّاً أيضاً. تذكرّت الأيام الأولى، بحثت أول الأمر عن لهوٍ يُلهيها. كانت تريد أيضاً أن تُفسد شيئاً، أن تُدمّر، أن تضع بينها وبين الآخر.. ولذلك استسلمت لتوسّلات الصغير لأنه يعتقد اعتقاداً راسخاً

أنه عاشقٌ. ولعله كان عاشقاً... فمنذ المساء الأول الذي التقيا فيه عند ماري، لم يَحْلم بمغازلتها، ولا حتى أن ينظر إليها.. كانا يحبان ان يتحدّثا في الموسيقا معاً.. ولم يرها بول قبل هذا اليوم عند درابزين رصيف «مالاكيه»... والرؤية هنا يجب ألا تؤخذ بالمعنى الحرفي... لم كان هذا التولّه العاصف، إن كان هناك تولّهٌ عاصف، من النظرة الأولى؟ فقد يوجد مع شيءٍ من التأخير. كانت تقول في نفسها إنه ربما كان في ذلك اليوم مُتعباً من كل شيء، من حياته، من السيدة دي بيرسيفال، من اسنيير، من الزحافات البرمائية، وحتى من مينيستريل... وكان قد تشاتم مع كل مَنْ في مقهى «بيغال» بصدد فكتور هوغو..أسقط عليها ملكاته الحماسية.. لم تصمّم على النزول... لم تكن ترغب كثيراً أن ترى «ارشيبالد» ، و«مولي» أيضاً. نظرت الى غرفتها، الى ماكانت غرفتها..

في اليوم الأول تركته يفعل مايشاء. بما أنها جاءت لذلك. كان يبدو سعيداً جداً. كان كالمجنون. كان يستنزف نفسه الى درجة غير معقولة، فلا يدعها تنام. ولم يكن لديه فكرة عن حدود إمكاناته. فكان يدهش فجأة من عجزه الذي كان طبيعياً جداً. ويبكي من ذلك كما يبكي الطفلُ. وكان عليها ان تعزيه، برفقٍ. فينام فجأة. ويستغرق في النوم. وتظل هي وحيدةً بجنبه، وحيدة حقّاً.

حينئذٍ فضّلتْ ان يجري ذلك في غرفته. لأنها تستطيع أن تدعه ينام وتعود الى غرفتها.

- ماذا تفعلين؟ مضت ساعةٌ وأنا أنتظرك تحت، مع الصغيرة «فانهوت» التي لزمْتني... روت لي طفولتها البائسة، تصوّري!

قالت: كنتُ أفكر فيكَ، بكل نيّة حسنة.

ذاب سروراً.

كان الجوّ صاحياً حقاً، حتى ليظن المرء نفسه في أيار، على الأقل. كان في طرف الحديقة ليلكٌ. وفي الطريق الضيقة المتعرجة أريجٌ عَذْبٌ مُدَوِّخٌ لم تستطع بيرينيس أن تجد اسماً للزهر الذي يبعث هذا الأريج. همس بول:

- هل تذكرين.. مساء العاصفة؟

ارتعشت، آه نعم، هو كذلك. كان هذا الأريج هو الذي يأتي مع الريح، قبل المطر بالذات، لعلها هبّتْ من هنا. رقّ بول: «مساء العاصفة..» دسّ ذراعه حول خصر بيرينيس. كانا يمشيان متلاصقين، وثبت لتتّبع الخطوة. ولم يكن بول يتبع الخطوة.نعم لن تنسى في زمن قريب، ذلك المساء.. العاصفة...

كانا قد صعدا بعد العشاء. كان الجوُّ خانقاً. ثم بدأت العاصفة. الأبواب التي تصطفق. الريح، الجلبة ، البروق التي لم يُر مثلها قط، القرقعة التي هزّت البيت. ذلك المطر العنيف. القساطل الرصاصية المتطايرة.الأصوات في الظلمة. وفي الأسفل. ذلك الغبيّ الذي يدندن على البيان، هل لعب هذا كلُّه دوراً؟ ربّما.. لكن الذي شعرت به بين ذراعيه لايشبه في شيء ما أمكنها أن تعرفه من قبل.. عنفٌ... كانت تَجْهل أن يكون فيها ذلك.. الإمكان. وأن يكون هذا الصبي «بول» الذي تحملّته منذ أسابيع دون أن تكترث له اكتراثا آخر، هذا الصبي بالذات هو الذي منحها تلك اللّذة...

لايكاد يُصدّق ذلك، وهي لم تصدّقه على كل حال. لعلها العاصفة. وفكرّت: سيكون لي ولدٌ الآن.. وكانت تعلم جيداً أن ذلك مستحيل.

كان يحبّ أن يحدّثها عن مساء العاصفة ذاك. كانت جدّ مدهوشة مما وقع لها حتى لقد أنبأتْهُ بذلك.

وما أعظم الكبرياء التي استمدّها من ذلك! وهو لا يدع فرصةٍ تفوتهُ دون أن يتحدّث عن ذلك المساء، عن أن يلمحّ إليه. لقد كانت مجنونةً حقاً حتى همست إليه: أحبُك.. ماحيلتُها في ذلك؟ أفلتتْ منها هذه الكلمة. وعبثاً حاولت أن تكذّب نفسها بعد فوات الأوان. وكان من الواضح أن بول لم يصدّقها. هذه الـ «أحبّك» نفذت الى قلبه. ولم تكن فظةً الى الحدّ الذي تسحبُ معه كلمتها تماماً. لكنها شعرت الآن بضغينة أخرى على الحياة: إن أمكن لذلك أن يكون كذلك... فما الذي لايكونه ذلك مع آخر.. إن أمكن أن تؤمن به..

لم يكن بول يتحدث بتاتاً عن اوريليان.

مرّا أمام تلك الحديقة الجميلة - يالروعة هذه الأزهار! كان البستانيون يغيّرونها في الليل، لكيلا يرى المعلمّ أزهاراً ذابلة. كانت زرقاء منذ الفجر. البارحة، كانت الرياضُ برتقاليةً. تظاهر بول بأنه يرى ذلك شذوذاً. لكنه لم يكن يكره الشذوذ. والواقع أن ذلك كان يَفْرض هيبته عليه. كانت الطريق الضيقة المتعرجة تمرّ من الملكيّة· وكانت تستمرّ من الجانبْ الآخر حيث تتلوىّ ساقية، مع جسر خشبي مرتفع الوسط.

قالت بيرينيس:

- انتهيتُ من قراءة «مرتفعات ويذرنج». تساءلت كيف يمكن أن يُترجم هذا العنوانَ الى الفرنسية... كان يجب أن أعيد الكتاب الى «موروفي»، ثم نسيتُه...

- حسناً، وأنا؟ أنا لم أقرأه.

- كما أنك لن تقرأه.

- ولماذا لا أقرؤه؟ تقولين إنه رائع. أهو قصة حب؟

- أجل قصة حب.

كان آل مورفي يسكنان في أطراف القرية. في منزل السيدة «فريز» البقّالة. منزل قروي بجدران مرتفعة، وبلا حديقة:

فناء فيه دجاج، وزبلٌ. في الطابق الأول درجٌ على طراز السلالم، وهو يفضي الى الغرفتين الكبيرتين المتّصلتين، ومخازن عاليةٌ للغلال حولِّت الى مشاغل سكنها رسّامون، حيث يُرى إطار سرير حديدي قائم، وأثاث بسيط، وحاجز لتأمين مطبخ له قسطل كبير أسود مكّوع يمرّ بالهواء ليخرج من السطح، وكانت كافيةٍ لإسعاد «ارشيبالد مورفي» و«مولي» امرأته، وهي امرأة فكهةٌ، ذلقة الأنف، غير جميلة لكنها كثيرة الاهتياج.

كان آرشي يكره مينيستريل كرهاً قلبياً. لم يكن يستطيع أن يرى «الجماعة» في الرسم. باستثناء «بول ديني» الذي كان يسلّيه لأنه يرى فيه الفرنسي النموذج الذي لم يعد يشبه القائد روكامبول في الأفلام بشاربه ولحيته

المقرّنة، وسترته الرسمية على قده، وبطاقات الزيارة التي يبرزها في وجه القادم في كل مناسبة. وكانت «مولي تطبخ شيئاً غريباً أكّدتْ أنه نصف أرنب. وعلى المائدة زجاجة من الخمر الفاخرة، وقماش مشمّع، لأننا في فرنسا، ويكفي أن ليس عندنا ثريات معلقة كسائر الناس.

استبقيا بيرينيس للغداء وكانت تنوي أن تمضي حتى «لاروش غويون»، لكنها اقتنعت بالبقاء. برْطم بول: «علي إذن أن اعود وحدي؟ كل هذا الطريق...» كن لطيفاً مع ذلك. الى اللقاء ياصغيري.

- نسيتُ أن أعيد إليك «مرتفعات ويذرنج» أليس عندك ماتعيرني إياه، أرشي؟

إن ماكان يميزّ «ارشيبالد مورفي» هو ميله الى أن يكون بالقميص وحده، وأن يكون القميصُ خارجاً من البنطال. صالب ذراعيه المتينتين الخارجتين من قميص وأمسك ذقنه بيده ليفكرّ: «انتظري، هل قرأت «موبي ديك»؟. صادف أن بيرينيس لم تقرأه.

صاحت مولي بلهجتها الفرنسية المغرقة في فرنسيتها «الى المائدة، أيها الفرسان والآنسات! الأرنب يحيّيكم والفجل ينتظركم!» وكانت ترقص والطبق في يديها. وقالت بالانكليزية:

- غليونك! ياعزيزي! هلاَّ دخنت فيما بعد..

الفوضى هنا كانت مختلفة عن فوضى «بول ديني». كانت «مولي» تملك عبقرية التنافر. فحيثما مرّت تزاوجت الأشياء ببشاعة، الطوابع البريدية في كؤوس البيض، وشوكات الطعام في الكتب، وماسوى ذلك على هذا المنوال.

التفتت الى بيرينيس، وبحركة مفاجئة غير منتظرة، قرصتها في ذراعها.

- اجلسي! هذه وصفة السيدة فريز. أرنب فريز... أتريدين شراباً مشهياً؟

سُمعتْ صرخاتٌ من تحتُ.

- لا تُعيريها انتباهك! هذه السيدة فريز تشاجرُ نفسها... هل يُقال هذا؟

كانوا جالسين ثلاثتهم حول منضدة مفرطة الصغر، وكانت السيدة مورفي تنثر على الأرض من حولهم أشياء نافعة للوليمة، الفلفل والخردل، والزبدة. والصحون منضّدة حتى لاتعود الى النهوض.

سأل «آرشي» بصوت خافت

ـ ألاتعرفين مينيستريل، يابيرينيس؟

ولفظ «بيرينيس» بلغته، لغة تترك في السامع انطباعاً طريفاً. وأخذ يتحدث عن مينيستريل. إنه لايشبه الصورة التي أعطاها عنه بول. إنه شخصية متصنعّة، متحذلقة، وبين هؤلاء الناس دسائس لبلوغ رضا ذلك المتّسلّطن. ومن الطريف والكريه أن رجلاً واحداً يمكن أن يخلق عن نفسه صوراً شديدة الاختلاف. كان ارشيبالد يتكلم ببطء، مع وقفات، خافضاً ذقنه. وكان له شعرٌ مجّعدٌ، غريب، أسمر مع ندبة صغيرة تحت العين اليسرى. وكان يصب النبيذ الأحمر في كؤوس هائلة الكبر.

فكرّت بيرينيس:

ـ أنا هنا، أصغي الى مايقوله عن مينيستريل، و«مولي» تنبّهني بقدمها، تحت الطاولة. والسيدّة «فريز» تنقّ تحتُ. وأزهار الحديقة التي كانت برتقالية غدت الآن زرقاء. كيف وصلتُ الى هنا؟

ماذا يعني ذلك كلُّه؟ «بول» يظنّ أنه يُحبنّي ويجري ليرى طالباً اكليريكيا رمى بثوب الرهبانية. لوسيان يكتبُ اليّ بكثير من التعقّل رسائل تُحفظ في شباك البريد. ويتأوه وهو يبيع حبوب الاسبرين. وأنا ، لا أفكرّ في شيء إلا في اورليان. لم يكذب المرء على نفسه؟ لا أفكر في شيء إلا في اوريليان. ومع ذلك فقد انتهى مابيني وبين اوريليان. انتهى دون ان يبدأ، لأنه كان ينبغي ان يكون بالغ الرفعة والعظمة والمال لكي يكون، لمجرّد أن يكون... كنتُ أستطيع.. وماكنتُ أستطيع... لا، ماكنتُ أستطيع.. مع اوريليان.. «بول» شيءٌ آخر... لايُحسب له حسابٌ...

صمت «ارشيبالد مورفي»، كان يأكل بنهم، كمن ترك لعبة البسبول ومازال في ذراعيه جوع. انتهزت مولي شرود بيرينيس لكي تُطعمها من أرنب «فرين»، وكان أرنب «فرين» ظريفاً، كرتون ببصلٍ صغير. كان «آرشي يصبّ النبيذ الأحمر، وفجأةً قال:

ـ عفواً، بيرينيس... لمَ لاتحبّين بول؟

أحدث ذلك صمتاً مُحرجاً، أصغتْ بيرينيس الى امتداد هذا السؤال فيها، وكان تأكيداً غير متوقع. التفتت نحو آرشي وقالت:

ـ هذا واضحٌ إذن؟

لم يُجبْ . فأردفتْ:

ـ هو لايظن ذلك، أتعلم...

انحنى آرشي حتى الأرض لكي يطول السلطة، الخسّ. وقلّبها برصانه، ثم قال:

ـ يجب ألاّ تؤليه، فهو فتىً لطيف...

لم تدهش بيرينيس، فهذا الحديث استكمالٌ لأفكارها . أنا هنا، لاعب البسبول يقلّب الخس، «مولي» تقرض أظافرها، نحن تتحدّث عن «بول ديني» الشاعر الشاب، المتلىء بالمستقبل، عشيقي.. ارتعشت. لم تفكرّ قط أن لها عشيقاً.

كرّر «آرشي»

ـ يجب ألا تؤليه.. بول أفضل من جميع هؤلاء الناس في ساحة «بيغال». وهو لايعلم بعد مَنْ هو، وهو يحمل كلّ شيء على محمل الجدّ بفظاعة. بإفراط أكبر ما يبدو عليه. وهو يظنّ الأمر معك جدّياً.. وإذا فارقته فسيكون ذلك طعنة رهيبةً له..

كانت «مولي» ترفع الصحون وتقدّم الطعام. جعلتها الحلوى تبرْم قدميها في الهواء، وكانت المربيّات تحت الصوان، وتدحرج التفاح في كل الاتجاهات. انحنت بيرينيس لتلتقط واحدة، وقالت وهي تنظر الى الأرض:

ـ ماذا تقترح أن أفعل؟ لايمكن أن يدوم هذا الى الأبد.. وأنا لم أعدْهُ بشيء.

ـ تعلمين جيداً، ياسيدتي، أن المسألة غير هذا..

فخمَ كلمة «سيدتي» تفخيماً امريكياً، ورافقَ ذلك انحناءٌ من جسمه كلّه. وكانت له طريقته في تقشير التفاح حلزونياً بحيث لاتسقط ذرّة من القشرة التي تظلّ قطعة واحدة. وكان يخلط التفّاح بالجبن الايطالي الأزرق. أفرغ كأسه.

قالت بيرينيس:

ـ بول له أصدقاؤه.. وهو لم يُخلَقْ ليعيش في الريف. وعليه أن يقرأ مجلاّته، جميع المجلاّت؛ وأن يسخط على الأسعار التي لايحبّها وعلى الناس الذين لايميزون تمييزه. وعليه أن يبتكر بدَعاً وكتباً غير معروفة، وأبطالاً غير معقولين. وهو يحبّ البيان. وربطات العنق، والسينما. وهو حسّاسٌ للثناء. وهو يظنّ بسهولة أنه يُعجب النساء. وهو ينسى لماذا بكى لأنه يهتمّ بكل شيء ولن أكون سوى حلقة من حلقاته..

ـ لا تظنّي هذا!

تحركت الآن «مولي» لتعمل القهوة. كلّ ماكانت تشرع فيه يبدو مشهداً في مسرح المنوّعات. ادارت المطحنة وكأنها حصان أصيل. وكان الاحتفال بتصفية القهوة حافلاً بأنغام القدّاس. وفي نهاية المطاف كانت القهوةُ حساء القهوة ، وأمرتْ

ـ ضعي كثيراً من السكرّ. فالقهوة رديئة!

وأضافت قطعتين من السكرّ الى فنجان بيرينيس. ستكون هذه القهوة شراباً محلّى ساخناً.

قالت بيرينيس:

ـ أنت ترى بوضوح أنه قد تركني ليلقى «مينيستريل».. المهمُ في حياته الجماعةُ... لا النساء..

قال «ارشيبالد»:

ـ الجماعة!

وجدّف تجديفاً فظّاً بكلمات شكسبيرية. وضحك هو نفسه من تجديفاته. وشرحها لبيرينيس بلهجة مفخّمة، مع ثنيّة كبيرة من الدهن كانت كالعقد حول ذقنه، لفرط ماشدّ على جوزته. وتحدّث عن المسرح الاليزابيتي. لم تقرأ بيرينيس المأساة الأسبانية»، وكان يترجم بهيئة أبويّة، وبصوت شديد الخفوت «المأساة الاسبانية...» كانت نبرته تُشرّح الكلمات ببطء اس...با-نيـ..ية.. مادّاً الحرفَ الأخير... ولقد شرحوا له في بال» أن الفرنسية ليس فيها نبرة صوتية، وأن المقاطع تُلفَظَ فيها على مستوى متساوٍ: تا- تا - تا - تا -.

لم تلاحظ بيرينيس أنها عادت هي الى الحديث عن بول لا هو

- ومع ذلك إن كنتُ لا أحبه.. أحبه بالطبع.. لكن لا كما يريد..

- كما يظن.

- كما يظن. وأنا موجودةٌ أيضاً، آرشي. ولي قلبٌ.

- وهل في هذا القلب أحدٌ؟

لم تجبْ، تركت مولي نفسها تنزلق الى الأرض ولتّ منها شيئاً ثقيلاً وخفيفاً ظنّ وهو يسقط. كان آلةَ «البانجو» الموسيقية، وأخذت الآن تتبع بهدوء هذا الحديث الذي ظلت غريبة عنه بصورة غريبة.

وإذا كان في قلبي أحدٌ؟

قالت بيرينيس هذا وهي تَشْحبُ.. همس «آرشي» كما تهمس الرعود مسكينٌ بول الصغير... «عزف البانجو» «اولد كنتوكي»... ابتلّت عينا «آرشي». الظاهر أن ذلك من أثر الموسيقا. ولعلها الخمرة الفاخرة أيضاً. فقد كان يشرب شرب المقتدر.

- إن كان في قلبك أحدٌ... بيرينيس، فلماذا سلّمت نفسك لبول، لا لأحدكِ؟ لماذا؟

لم تكن تعرف «آشيبالد مورفي» إلا لماماً. رأته خمس مرات أو ست مرات. عشر دقائق، ساعة.. فكم يكون مجموعها؟ فمن أين استمدّ الحقَّ في استجوابها؟ أنها لم تتساءل عن ذلك. لمَ سلّمتْ نفسها لبول لا لـ....

قالت بتحدٍّ:

ـ أنت تعلم أنه من الأسهل كثيراً علينا أن نُضاجع مَنْ لانحبّه حقاً من أن نضاجع مَنْ نحبه.»

نظر إليها «مورفي» وهزّ رأسه. وقال مخاطباً نفسه أكثر من مخاطبته لبيرينيس:

ـ أنتم ، الفرنسيين، شعبٌ غريب... ولذلك نجد مشقة كبيرة في فهم «راسين»... ونسائه... إنهن يَجْتذبننا ويُخفْننا مثلكن...

هنا توقّف البانجو، وصاحت «مولي» التي لم يكن يُظَنُّ أنها تُصغي حقاً، بالانكليزية:

ـ أرشي! أنت حيوان، كلب هرم!...

وطار شيءٌ لعله البابوج. ثم استؤنفت الموسيقا،، عاطفيةً، فيها كل مافي أنهار الجنوب من ذبول. وماكانت تعزفه كان ينفذ الى صميم قلب مورفي، لأنه ماكاد يتفادى البابوج حتى أخذ يرافق الإيقاع برأسه، ويغنّي وهو يدير عينيه.. وظلّتْ بيرينيس وحدها، وكان بوسعها أن تتابع أفكارها، وتضيع فيها مع الموسيقا.. وأخيراً نهضتْ.

ـ أشكركَ أرشي، أنك قلت لي ماقلته... هذا عملُ صديق. وسأفكر فيه. اعذريني مولي، أشتهي أن أتنزه، أن أشم الهواء، وأفكر قليلاً..

صحباها الى الأسفل بحجّة حمايتها من السيّدة «فرين». ومن البّوابة التي فتحها أرشيبالد لها، صاح بها: «لا تعودي بسرعة الى الطاحونة! وإلا أكلكِ «مينيستريل»! وضحك ضحكة صاخبة في ذقنه المنحنية. ابتمستْ له. وتبيّن أن قميصه خارجٌ من بنطاله خروجاً فادحاً عند الزنار: خروجاً مبالغاً فيه هذه المرة،

قالت بيرينيس في نفسها: سأذهب الى «فيرنون» ربما وجدتُ رسالةً من لوسيان. وما علي إلا أن أقطع الطريق التحتاني. فلا أُرى من الطاحونة. لعلهم الآن في الحديقة يلعبون تلك الألعاب الجماعية التي يملكون سرّها. انسلت بين

جدران القرية الساترة. كان الجو صحواً حتى لُينسي كلَّ شيء آخر. دلفتُ الى الطريق الضيقةّ ا لمتعرجة حيث ينعطف نحو «الابيت»، وصعدت باتجاه الطاحونة. كانت أشعةُ الشمس تَعْلَقُ بالأغصان الجديدة الخضراء. وقد ظهر الغبار. مرّت بها عربةٌ. نظر إليها الفلاحُ الشابُ بإلحاح. وأبعد من ذلك بقليل سلّمت عليها بنتٌ صغيرة، وكانت تحوّم في الفضاء فراشاتٌ صفراء.

عندما بلغتْ الحديقة الجميلة التي تقسم الطريق، وقفتْ ونظرتْ الى الجسر على يسارها، والى الماء والأشجار الخفيفة، ورقّة البراعم، والنباتات المائية. ثم انعطفت باتجاه منزل ذلك الشيخ الطويل الذي طالما رأته من بعيد، والذي كانت المنطقة كلها تتحدّث عنه. ذاك الذي لايستطيع ان يرى الأزهار الذابلة. رأت أزهاراً زرقاء. وعند أسافلها الأرض المحرّكة حديثاً. الأزهار زرقاء في كل مكان. الممرّ الصغير نحو المنزل. العشب الفاتح. وأزهار أخرى زرقاء. اتّكأت على شبكة الحديد وأخذت تفكرّ. ليتنا نستطيع، عندما تذبل الأزهار، فينا، أن نقتلعها على الفور. وأن نستبدل بها غيرها؟ أن نغيرّ لون القلب أثناء الليل... أنْ نظل أبداً في لحظة الإزهار الكامل... أن ننسى.. بل ألاّ ننسى... ألا يكون لدينا ماننساه...

كان النورُ جميلاً جداً على الأزهار... ماهذه الأزهار؟ يقولون إنه ليس هناك أزهار زرقاء حقيقية. ومع ذلك... مَنْ يدري! إن كان ذلك الشيخُ الذي في الداخل، يراها زرقاء؟ ويقال إن عينيه مريضتان. وقد يُصبح أعمى. رهيبٌ ذلك عند التفكير. رجلٌ كانت حياته كلُّها في عينيه. كان عمره ثمانين عاماً. فإذا غدا أعمى... جاز لنا أن نتصوّره يقضي بقَلْع الأزهار قبل ذبولها. تلك الأزهار التي لن يراها بعدُ، على كل حال... الأزهار الزرقاء تدع مكانها لأزهار ورديّة. ثم ستكون هناك أزهار بيضاء. في كل مرة لون، فكأنما كان البتسان يُصبغُ من جديد. أيّ حدّ من الحنين قد بلغه حتى يأمر بذلك؟ مرّ في الحديقة بستانيون. بدا عليهم القلق والفراغ وكأنما كانوا يفتشون الأزهار. لو نُسيتْ عرضاً إحدى الأقحوانات البرتقالية التي كانت هنا أمس؟ في ركنٍ ما... أفندري ماسيبقى في مكان ما في قلبه؟ أية رسائل منتثرة في أدراجنا؟

أسندت بيرينيس وجهها الى شبكة الحديد. كان البيت خلف الأدغال هادئاً وكالفارغ. لعل مَنْ فيه نيامٌ. مصاريع البيت خضراء وسقفه أحمر... كان البيت يبدو مثل بيتٍ في المستعمرات. وكان انعكاس الأزهار الزرقاء ينسحب على حصا الممرّات. لعل المكان خالٍ من كل أحدٍ إلا من ظل البستانيين، بأقدامهم الصامتة.. وبيرينيس، وأحلام بيرينيس. لاشيء الآن يكبح هذه الأحلام. لا أحد، ولا بول، ولا آرشي، ولا الابتسامة المتواطئة من «فانهوت»، ولا بانجو مولي. كانت بيرينيس تحلم، ناسيةً شكواها، تتملكها أغنيةٌ لم يُغنِّها أحدٌ من قبل، بين الأزهار الزرقاء، والحصا المُتْرف، وأمام المنزل الذي يشبه جميع المنازل في الأحلام. وفي هذا الحلم، رجلٌ، رجلٌ طويلٌ بطيءٌ ومترددٌ، مع حركةٍ رفيقةٍ هزّازةٍ من الكتفين وشعرٍ أسود.. رجل يخلع القلبَ، رجل قليل الكلام حسن الابتسام، اوريليان... حبيبي.... اوريليان...

«بيرينيس»!

ارتعشتْ. مَنْ ناداها؟ من الجانب الآخر من شبكة الحديد. مستحيل كان هناك، واقفاً، حاسر الرأس، يبتسم ويدير نحوها عينيه المبلّلتين... رجلٌ طويلٌ ومتردد.. اوريليان.. مرّت بيدها على جبينها.

«بيرينيس»!

ردّد اسمها. لم يكن ذلك حلماً. كان اوريليان هنا، في حديقة «كلودمونيه»، ينظر إليها. دامعَ العينين. كانت الأزهار زرقاء، بلا جدال. والشمس تراقصت على جلده الأسمر. أحسّتْ بيرينيس بقلبها يخفق. خافت، وكان عليها أن تهرب. لم تتخلّ يداها عن شبكة الحديد. وفجأة رأته يتجه الى الباب.

حينئذٍ انطلقت ركضاً في الطريق الضيقة المتعرّجة.



جرى وراءها. أكان قلبُها يخفق خفقاناً شديداً، أم أنها أحسّتْ بلا جدوى هربها. أو أنها وَعتْ مافي ردّة فعلها من مخالفة للعقل والحسّ السليم؟ استدارت وهي تلهث واستندت الى تلعة.

تقدّم اوريليان نحوها، ورأى صدرها يعلو، والعرقَ الرقيق في صدغيها، ووجهها مرفوعاً، ورأسها مُنقلباً الى الوراء بشعره الأشقر المنسدل في جانب منه! رموش راعشة، والدائرة التي تحيط بالعينين وتزيد من إثارتهما، وهذا الفم ا لمترجف الذي كانت أسنانه المضمومة سنّورية، ناصعة البياض... توقّف، كان أمامها، على مقربة منها، مُشرفاً عليها. لم يرها قطّ في ثياب الريف هذه. تنورة صغيرةٌ بيج، وقميصٌ أصفر. كان كلٌّ منهما يصغي الى أنفاس الآخر، دون ان يقول شيئاً.

كان لها، بذلك الحسّ ا لدفاعي الأنثوي، فضلُ الكلمة الأولى. قالت

ـ وهكذا فأنت تَقْفو أثري، وتتجسّس عليّ..

احتجّ:

ـ أقسمُ لك...

ـ لاتُقسمْ..

ـ لكن المصادفة. يابيرينيس، هي التي...

ـ المصافة! دَعني أضحك...

بعد زوال المفاجأة، قادت اللعبةَ. قَلَبتْ المواقعَ. ولو جرت ثلاث خطوات أكثر لأخذها بين ذراعيه. واندفع الى الإيضاحات:

ـ الأمر خارقٌ للعادة... أعترفُ لكِ بذلك... لأيصدِّق، لكن المصادفة.. مصادفة عجيبة.. أوصلتُ روز والعم بلين، الى هنا، في سيارتي، الى منزل كلودمونيه... أرادت روز أن تراه ولم مرّةً واحدة... أن تراه أخيراً... ووعدها العمّ منذ زمن بعيد.. وقد سمعت «روز» الممثّلة «شارلوت ليبس» تتحدّث عنه... قالت إن هذه أعْظم ممثّلة عندنا... وهم في المنزل... لم أشأ أن أفرض نفسي...

لا دخل لي في هذه القصة سوى أنني كنتُ السائقَ.. وكنتُ أطوف في الحديقة عندما.:. لماذا ظننتهُ يكذب، في نهاية المطاف؟ لكن كان عليها ألا تفقد سيطرتها عليه. قاطعتْه قائلةً:

- لنسلِّمْ بذلك... لكنْ ماهذه الصلة الحميمة بالسيِّدة «ملروز»؟ أعتقد أنها هي المقصودة؟

عضّتْ شفتيها. كان وَقْعُ سؤالها يَشي بالغَيْرة.

وأردفتْ

- اوه! على كل حال! السيدة ملروز! وسيمون!

لم تكن هذه الجملة بأبرع من تلك، حتى إن اوريليان أحسَّ بذلك فقال:

- بيرينيس.... بيرينيس... لمَ تهربين مني؟ مازلتِ تحبيِّنني...

نظرت إليه. علا وجهها تعبيرٌ بالغ عن الخوف أخطأ في فهمه اوريليان:

- لن أمسكَِ بيرينيس.. قولي لي فقط إنك مازلت تحبينني..

لم تكنْ تخافه هو بل كانت تخافُ نفسها. كانت كالوحش المطارد. كانت تتخبطُ في حيلها، وتعلم علم اليقين أنها تحبّه هذا الذي كان يهيمن على كل شيء، في هذه اللحظة، كان هذا هو الخطر الوحيد في هذا العالم... مَن نحبُّه هو الخصمُ اللدود، الرجل. لم تعد بيرينيس تتمالك نفسها، لم تعد سوى امرأةٍ سوى غريزة المرأة، الغريزة الهاربة..

- لماذا جئتَ؟ هل دعوتُكَ؟ ألا تستطيع أن تدعني وشأني؟

- أقسم لكِ ، بيرينيس..

- هذا كل ماعندك لتقوله؟.. ألا ترى، ألا تفهم أن بيننا شيئاً تغيرَّ، تحطم... هذا مُستحيل... كل هذا بسب أمسيةٍ، ليلةٍ، مصيبة ليلة، تلك البنت، السكر... كنتُ بائساً جداً.. أتكونين قاسيةٍ الى هذا الحدّ؟

- لا... ليس ذلك بسبب تلك البنت... لو لم يكن بيننا سوى تلك الليلة..

- اوه! أنتِ مازلتِ تحبينني! وتغفرين لي!

هزت رأسها. وجاء دوره هو ليخاف:

- ما السببُ إذن؟ ما الذي يمكن أن يفرّق بيننا غير ذلك؟ لا أتصوّر...

قالت:

ـ ليست تلك الليلة.. بل الحياةُ كلُّها... الأيام كلها والليالي كلها من هذه السنة الجديدة... أيامي ولياليّ أنا...

ـ ماذا تقصدين؟ لامعنى لذلك، بيرينيس!

ـ أيامي ولياليّ أنا... نعم، لقد غفرتُ لك، أنا، ذلك الضعفَ، تلكَ الخيانةَ.. لكنّي أنا... لو غفرتَ لي لما غيرَّ ذلك شيئاً بالنسبة إلي.. أراد أن يُمسك بمعصمها، أن يجذبها إليه، بعد أن أحسّ على نحو غامض بتلك المداورات، وأن في ذلك شيئاً أكثر من كل واقع هو المناورة السوداء للمرأة، وتعرّجات الخوف الأولى. في هذه اللحظة، حدث صوتُ عظيم، وثار غبارٌ... صاحت: «احترسْ».

ألقى بنفسه جانباً. كان ذلك درّاجة نارّية، عليها شاب بقبعة من الطراز الانكليزي في الصور. حرّك يده باتجاه بيرينيس وهو يصرخ بشيء أثناء مروره. بدا عليها الضيقُ الشديد، وابتسمت ابتسامة مُقتسرة. سألها ليرتيلوا: «أتعرفينه؟».

ـ نعم، هذا مزعجٌ.. ماذا سيخطرُ ببال الذين يروننا هكذا... وحيدين... وكأننا نتخاصم..

أحسّ بأنه أُرتج عليه. إن ذلك يفترض حياةً من العلاقات لبيرينيس في «جيفرني» وأناساً تراهم... لم يتصوّر حياتها، تخيلّها وحدها هنا، حيث لقيها... لم يكن بوسعه أن يعلم أن راكب الدّراجة ذاك ليس سوى «فانهوت».. أثار راكب الدرّاجة هذا عالماً من الاستفهامات. قالت:

ـ أنت ترى جيداً أن هذا الحديث ستحمل..

حيلة جديدة. يتحمل معها سرّها. لم يكن اوريليان يَقوى على ذلك. لكن بعد اللحظات الأولى، تشوّش، وأحس إحساساً قاسياً بالكلمات الأخيرة التي قالتها قبل مرور الدرّاجة:

ـ ماذا كنتِ تقولين... إن ذلك لايغيّر شيئاً بالنسبة إليك؟

رمشتْ أهدابها:

ـ لا أدري ماذا كنتُ أقول..

وهكذا حوصرتْ في معقلها فحاولت ان تكسب الوقت. لم تكن لها خطة تسير عليها. فلم تدر ما تقوله له. لم تدر إن كانت تنوي أن تكذب. الآن استعاد تفوّقه.

ـ أين تسكنين؟ هيّئي متاعكِ وسآخذك الى مكان لايعرفكِ فيه أحدٌ، حتى ولا راكبو الدّراجات.. مكانٍ تكون لك فيه حريّة الاختيار.. وفيه نقرّر حياتنا...

ـ لا، لن تأخذني.

قالت هذا بلهجةٍ من الطمأنينة حيّرتْهُ، فهمس:

ـ لماذا؟ ومَنْ يمنعني؟ مَنْ؟

تردّدت في الجواب. كانت ستقول:

ـ عشيقي..

لكن التحدّي ماتَ على شفتيها. وخجلت أيضاً. ومع ذلك، أهي جريمةٌ، أن يكون لها عشيق؟ وماذا في ذلك؟ قالت بكل بساطة:

ـ أنا.

صمتا. دوّى الذبابُ. سَمع صوتَ قارب خلال الأشجار. فكّرا كلاهما في السين، في تلك الحتمية طوال قصتهما.

أردف اوريليان:

ـ أنتِ تكذبين، تكذبين عليّ.. لمَ تكذبين عليَّ، بيرينيس؟

ارتعشت. استبدّتْ بها صورةُ الماء، والغرقى. في كل يوم كان بول يسأل «فانهوت»: «أتظن الماء أبرد من ان نسبح فيه؟» حتى غدا ذلك مزعجاً. رأت أمامها الهالات التي تتشكّل حول السبّاح، أغمضت عينيها وقالت: «اوريليان، لستُ وحدي هنا...»

لم يفهمها في الأول الأمر. وما أهمية ذلك؟ هزّت رأسها. كانت تهزّ رأسها طوال الوقت. لا؟ لوسيان؟ غير لوسيان؟ دام الصمتُ مثل قطعة من قماش تُمزّق. تطلّع «ليرتيلوا» الى حصا الطريق. كان يرفض أن يفكرّ بوضوحٍ فيما قالته له مع ذلك وفرض ذلك نفسه ببطء في هواء الربيع الثقيل، مثل

خفقانٍ في الصدغين. لم تعد السماء زرقاء، دون ان يُعلم متى هجرت زرقتها، وتشربتّ بخار العاصفة. انعطفت الشمس الى هناك، الى الجهة التي تمضي إليها الشمس.. كانت تُرى، عبر فتحة الفرجة الحقولُ والهضابُ والغاباتُ البعيدة. أراد اوريليان أن يسأل" «ومَنْ هو؟» لكن السؤال اختنق في لهاتِه. لم يكن يؤمن إيماناً كافياً بهذه الشخصيّة، بشقائه، حتى يحاول حقاً ان يُسبع عليها ملامح رجلٍ من الرجال. وألفى نفسه يسأل: «أوتحبينه؟»

حينئذٍ رفعتْ بيرينيس عينها نحو السماء الباهته. العالم برطوبته التي لأتحتمل. اوه. لقد طُلب منها ماهو فوق طاقتها! ولا يمكنها أن تجيب . بـ «لا» عن سؤال اوريليان. ما الذي تسمح به هذه الـ «لا»؟ ليس لها الحق في أن تقول «لا» لاوريليان بالذات، وبول مايزال يؤمن بها. وشرعت تلعب لعبة الوفاء غافلة عما في هذه اللعبة من عِدم الوفاء. نحو نفسها قبل كل شيء. وكانت تخشى أيضاً احتقار اوريليان. إن أقرّت بأنها لأتحب ذاك الذي جاءت معه. وأسهلُ من قولها «لا»، قالت. نعم..» هي تشيح بوجهها.

في هذه اللحظة سُمِعَ مَنْ ينادي· اوريليان، اوريليان، واضطربت أشباح في حديقة «كلود مونيه». فستانٌ فاتحٌ، ورجلٌ... عاد «بلين» و «روز».

- أصدقاؤك ينادونك... لا أسطيع أن أراهم.. الودا ع، اوريليان!

نظر إليها وهي تهرب. حنتْ كتفيها... تظاهرت بأنها لاتُسرع... اقتلعت عشبةً في طريقها.. كانت الطريقُ الضيّقة والمتعرجةُ تنعطف... إنها تحبٌّ، قالت إنها تحبّ... مَنْ ذا الذي تحبّه؟ ودّ لو يصرخ: مَنْ هو؟ جمّده هذا الاعترافُ الذي لايُصدّق. كانت تكذبُ، دْعكَا! لا لم تكن تكذب.

قالت روز: حسناً، ياعزيزي، ما الذي حولّك الى تمثالٍ من ملحٍ؟ هل صادفت أحداً؟ بدا لي أني شاهدتُ..

قال:

- أنتِ على خطأ. أنا تحت تصرّفكَ. أنعود الى باريس؟

عندما كان «ادريان ارنو» ينظر الى الوراء لم يكن يتمالك نفسه من الإحساس ببعض المرارة، لا لأنه لايكسب عيشه كسباً حسناً، ولا لأنه لايُراوده أملٌ عظيم بالمستقبل. كان عمره ثمانيةً وعشرين عاماً، تسعة وعشرين تقريباً. وليس ذلك سناً متقدّماً، كان باربنتان عوناً قاسياً على دربه، أخرجه من البؤس غداة الحرب بعد الإفلاس الأبوي. وكان ادريان يتقدّم الى جانبه تقدماً بطيئاً وأكيداً، لاهياً لهواً معقولاً، عائشاً عند أقارب وفّروا له الغرفة. وكانت «ايزابيل» زوجة مضيفه عاشقة مريحةً، نظيفة، يسهلُ تركها دون فضيحة، في اليوم الذي يذهب فيه ادريان ليسكن في مكان آخر. ورث عن أبيه الذي لم يكن له مثله الجلد الأصفر، وبنيته المسكينة، وعقلية التوفير المتينة. كان يعرف كيف يكفي نفسه. بل كان يوفّر ليشتري أسهماً في «رويال دوتش» وفي «مكسيكان ايغل» وكان يرى برضاً صعود أسعار أسهمهما.. كل ذلك لم يحل دون المرارة.

الوقت يمرّ ولن يكون غير ماكان، لن يملك غير ماملك.. مع الشعور بأنه يستحقّ أكثر. بيد أنه عندما كان يلعب بالكرات الخشبية، في «سيريان» وكان مايزال الوارث لـ «دور العرض الجديدة» المسيطرة على جماعة أنصار الوطن التي أسّسها، وشبيبة المدينة، بدا عليه أنه ينطلق في هالة ذهبية. من أجل ماذا، وعلى أيّ درب، لم يكن بوسع أحد أن يعلم.. بالتأكيد لم يكن ذلك من أجل هذا المنصب، منصب الرجل الثقة لدى ابن باربنتان، رفيقه، وهو في الواقع أدنى تألقاً، وإن كان أكثر اجتهاداً، وسيكون دون شك، في رأي الناس، وارثاً صالحاً للدكتور، لا أكثر. فكيف دارت الأشياء! يجب أن يُنصفَ ادمون. لقد استطاع ان يتدبر أمره في الحياة ولم ينس أصحابه الصغار، وماذا كان يستطيع ادريان ان يفعل لولاه.

بيد أن ذلك لم يكن من العدل في شيء مع الحرب التي خاضها، وهي حربٌ ليست كحرب سائر الناس. الأوسمة التي كأوسمته معدودةٌ. مامن محارب

مثله. لقد شهد الحربَ في كل مكان كانت فيه على أشدّها، في «مورثوم»، وفي «فوكوا»وفي «الايبارج»، وفي فردان... وكان يمكن أن يظل في الجيش، لكنه كان سيرى الطريق مسدودة بالذين تخرجوا من «سان سير». لا. كانت معاودة التدرّب على الحياة المدنية قاسيةً أسوأ قسوة. ولولا ادمون.. وحتى مع ادمون. لقد استسلم لكل شيء، أليس كذلك؟ لأهواء ادمون. وعندما يفكرّ في أنه أنشأ «التاكسي».. تماماً. الآن غدا كلُّ شيء طبيعياً أكثر من ذي قبل، دون شك، ثم إنه قد نال ثقة المعلم. المعلم!

ذلك الشخص الذي كان يغلبه في لعبة الكرات قد أصبح المعلّم. ما أعجب هذه الحياة.. في الأوقات الأولى، أحسّ بكثير من الإذلال.. أما الآن فلا، لقد تعوّد ذلك. ثم إنه يتأنق في ملبسه، وكانت ايزابيل تُعنى بثيابه الداخلية فكأنه في مقاطعة «الشيمانيي»

لم يكن ادريان مغامراً. كان له طموحُه، لكنه لم يكن مغامراً، ماكان يمكن له أن يندفع في قصة يقامر فيها بكل شيء. يكفيه أنه تحمّل إفلاس والده. لقد ورث عن أبيه تلك الروح العملية التي جعلت ادمون يقول عبارة التقطها من «ماري دي بيرسيفال»: «ادريان واقعي، عملي.. لم يكن ادمون يعمل شيئاً: وحين ننظر إليه عن كثب نُصاب بالغم. وإذا ماقيس بالآخرين من رجال الأعمال تبيّن أنه لايفقه شيئاً لاشيء. لو لم يكن حوله اولئك الناس... إن تلك الغندرة الغبيةَ التي يباهي بها. تلك الفلسفة التافهة، كل ذلك إنما يُراد منه أن يخفي عجزه القذر. وشيئاً فشيئاً أخذ ادريان يحسّ بأنه لا غنى عنه. ولقد أدّى للمعلم خدماتٍ جلّى، والآخر يقرّ بذلك، على كل حال. أو أن ادريان اعتقد أنه يقرّ بذلك. يجب أن تراه في شارع «بييه ويل» في مكتبه، مسترسلاً في الكلام.. لكي يوجعك قلبك.

لاشك أن باربنتان لم يصل بعبقرية ادارته للأعمال. لاشك أنه يعجب النساء. وبصدد ذلك أيضاً، كان لأدريان أفكاره. لأنهما كانا معاً في الأغلب، في «بانييه -فلوري»، في «سيريان» وإذن، فما أعَرفه في هذا الموضوع بالمعلم ! كان

متوسطاً جداً. وكان ادريان في ذلك الزمن المنصرم يحلم بماري ريبول، جَعْدة «باينيه» الصغيرة.. استعاد تلك الجلسات لا. لقد واتاه النجاحُ من هذا الجانب دونما سبب شأنه شأن نجاحه في الأعمال، قضية حظٍّ، وهذا كل مافي الأمر. والحظ لابدّ من مساعدته قليلاً...

أفلا يُعجب النساءَ هو، ادريان؟ كفى فهو ليس أعمى. وهناك غير ايزابيل. الغريبُ فقط أن نجاحاته كانت محصورة في مستوى اجتماعي معين لايتجاوزه. كان له سقفُه. كان يُعجب على الخصوص، آنسات المخازن وضاربات الآلة الكاتبة. ولاتفسير لهذه الأشياء، وما حيلتهُ في ذلك؟ الأمر كذلك. ويجب الاعتراف به. مثلاً تلك الصغيرة أمينة السر شارع «بيبه ويل»، كان واضحاً أنه لايحتاج الى أكثر من بادرة يبادرها.. لكنه لم يكن يفعل لا بسب ايزابيل، ولا لأن الصبيّة لا تُعجب ، لا بل إن ذلك كان يناسبه. «إني أدرك خفاياها: ولشدّ ما أعرف ذلك»، ثم إنها مع ذلك تبتسم له. تأخذ في الإسراع في الضرب على الآلة، وهي مرتبكة. انها جديرة بالرثاء. آه، لقد ضاق ذرعاً بهذا النوع من الفتيات . ولاسيّما أنه في بحثه عن الثأر، في الأيام التي اشتدّ فيها إحساسُه بالظلم، قد انساق، أمام ذلك النداء الصامت لفتياتٍ من هذا النوع، انساق للرغبة في إثبات أنه لا يُقهرَ... إن إشباعه لرغباته على نحو رخيصٍ يغرق نفسهِ، ويؤكد لها مصيرها، المصير الذي لايرضى عنه. الرجلُ بما يصنع نفسه، مع النساء ومع الحياة على حدّ سواء. انظروا الى ادمون: هناك كارلوتا، ثم امرأته، ولاحظوا أن امرأته ليست فائقة الروعة.. كانت كارلوتا أبدع قواماً بكثير منها.. لكنه، في النهاية، كان يعلم مايريد، الخ.. وكان له ذلك... وفوق كل شيء جميع العاهرات والنساء المتزوجات... وكم مرَّ بأدريان منهن! ذلك أن ادمون كان به هوسٌ شيطانيٌ لأن يعرضهن أمامه اوه، لايشركه في شيء. لكن ليذلّه بالذات، على الأغلب. وتلك عادة قديمة تعوّدها في «بانيه فلوري».. الحاليّة، الممثّلة، هذه، ليست على الإطلاق، من طراز ادريان. وكان يمكنه أن ينالها، «روز» هذه، وهي، في نهاية المطاف، ليست شرسة... لو تملّقها... بيد أن في ذلك مخاطرة جسيمة،

لأن ادمون لن يرضى عن ذلك بالتأكيد.. ومن أجل هذه المرأة المتواضعة الجمال والمُسنة.. إنها تحافظ عل أناقتها، لامراء في ذلك، وهو يفهم ادمون، بالرغم من كل شيء، ولاشك أنها تملك المهارة أيضا . وهي ليست خاملةً على الفراش. هذا واضحٌ من أول نظرة..

كانت كلُّ هذه الأفكار تُضني ادريان، ولا سيّما أنه كان كل يوم، يزداد درايةً بأعمال المعلم. وكان يرى بوضوح كيف كان سيُدبرها لو كان وحده. كان عليه ان يصغي الى الآخر وهو يتخابث ويدعي الانهماك، ويظهر بمظهر الرجل الذي أنهكته مسؤولياته. مَسْخرةٌ. فمنذ إنشاء عطور ملرون، مع كل ما يستتبعه إنشاءُ هذه المؤسسة، بدأ يشهد تحت عجرفة بارينتان قلقاً خفياً يستطيع المعلّمُ أن يخفيه عن الآخرين لا عنه. ولاشك أن لعبة الكرات قد بُدئت بداية سيئة. اوه! إنه يعرفه. من جهة المعرفة، إنه يعرفه!

ليس من الصعب رؤية موضع العيب في الدرع. إن ميكيافيلية ادمون البرجوازية لايمكن تفسيرها بطرقٍ شتى. ولم يكن ادريان يهتم بها أول الأمر إلا لأنه قدّر أنه يثأر ثأراً خفياً فيما يتعرّض له المعلم من مضايقات. لكنه سرعان ماتبيّن أيضاً ان ذلك قد يكون له انعكاسات سيئة على أمنه هو. طبعاً كان يعاون جهده رفيق طفولته القديم. وكانت مصالحهما مترابطة. وأذا ما انهار ادمون فماذا سيحلّ به، ادريان؟

بيد أن هناك طرقاً عدّةً في النظر الى الأشياء ومن الغباء ان يقامر المرءُ بكل شيء على ورقته. قلت إن ادريان وإن كان طموحاً فإنه لم يكن مغامراً. وإذن فقد أخذ شيئاً فشيئاً يحلم بما حدث لو أن وضع بارينتان تدهور ذات يوم. لن يبدو ذلك غريباً لأحد. ولكن بما أن ذلك ممكن، فمن غير المجدي أن ندفن رؤوسنا في التراب كما تفعل النعامة. بل تجب مواجهة الأشيا. غدا ذلك هو الموضوع العادي لأحلام يقظته. في مطلع الأمر، تساءل ادريان كيف يتخلّص بلباقة أمام مثل هذا الاحتمال. ثم شيئاً فشيئاً، كيف يقلب الأشياء لمصلحته، كيف يكون بجانب الأقوى، كيف يُخرج الخيرَ من الشر.

كان هناك على الإجمال، خطران بالنسبة الى ادمون.

عمل جماعة «بالميد» في اتحاد الشركات الذي يبدو أن رئيسها قد أهمله اهمالاً كلّياً، ولعله على خطأ... ثم مايبدو أنه يشغل باله. امرأته.. كون ثروة الزوجين هي ثروة امرأته.. وأنه في هذا اليوم او ذاك..

كل مافي لعبة «عطور ملروز» من حذق، وتلك التركيبة بينه وبين اوريليان ليرتيلوا، أثار ذهنَ «ادريان ارنو»حول القضيّة، ووجّه أحلامه. لقد كان له صلاتٌ حسنة، لامع «بالميد» بل مع صهر بالميد، وهو شخصٌ واسع الحيلة، مشهور في عالم السياسة. وكان ذلك اضطرارياً على نحو ما. ففي قصة مضخّات الوقود، كان لابدّ له من أن يراه وأن يناقشه. لأن ذلك يمكن أن يُستخدم في هذا اليوم أو ذاك. ثم إنه كان يتصرّف تصرفاً مختلفاً عن تصرّف حميه. ولم يكن منغلقاً على العروض التصالحية..

وباربنتان قبل كل شيء لايمكن ان يتعامل مباشرة معه: ولذلك فقد كان طبيعياً أن يتوسّط ادريان بينهما..

لكن ماجعله يحلم، على الخصوص، كانت أعمال ادمون وزوجته. ولو تبينت السيدة باربنتان ذات يوم... ومهما أحبّت زوجها فإن الثروة تظلّ، بعد كل شيء، ثروتها، مال بنتيها. وكان ادريان يجد في نفسه اللعبة التي لعبها ادمون حقيرةً. كان في صفّ بلانشيت، لا عن مودّة لها بالذات، بل لأنه كان في صف الأسرة والأولاد والمنزل. ثم إن إحساسه بأن كل شيء يحمله على الوقوف في هذا الصف كان يرفعه في عينيه نفسه. وهو يستطيع ان يَدين ادمون على هذا الصعيد، كما يحلو له. فقد كانت الاستقامة والنظافة الى جانبه. وكان يرتاح إليهما قليلاً.

أهذا ماجعله يهتم أكثر من المعقول ربما بأعمال ادمون؟ كانت «عطور ملروز» ذريعة ملائمة. أما من جهة الشركة العقارية فقد كان مطلّعاً اطلاعاً مقبولاً، لكن هناك أشياء فاته فهمُها. وهو مدينٌ كثيراً لأمينة السر الآنسة ماري التي تركت له تكديس إضبارات «بيبه ويل» أثناء الساعات التي لانهاية لها والتي كان ينتظر فيها المعلم ليجيء أو لايجيء. لابدَّ من تزجية الوقت. وكان يُعِدُّ

الذراع اليمنى للمعلم الى حدٍّ بدا معه هذا العمل طبيعياً جداً.

إن ما اكتشفه في تعقيد أعمال ادمون وتشابكها، استهواه بسرعة كبيرة. كانت مخالفات النظام عديدة. وكانت تدور بخاصة على خداع مصلحة الضرائب. اوه، ليس ذلك خاصاً بشارع «بيبيه ويل»! فذلك يُمارَسُ في كل مكان. وأخيراً كانت هناك عدة تلاعبات عجيبة. وعندما اطلع عليها ادريان خطر له أنه يفعل ذلك بفضول ذهني أكثر من أي شيء آخر. وجد أسلحةً في عملية مرتبطة بالتاكسي، ضد جماعة «بالميد». لم يتنبّه أحدٌ الى ذلك، وقد ينفع ذلك ادمون، ذات يوم... أو ادريان نفسه، عندما يناقش قضيّة المضخاّت مع الصهر... وكان كلما أمعن في ذلك كله ازداد احتراماً لآليات المجتمع الضخمة، وقلّ احترامه للهواة، وبالاختصار للنطناطين من طراز ادمون الذين يشاركون في ذلك كله دون أن يفهموا شيئاً منه. تلك الآليات تسير بجانبهم ويؤمنون أو يتظاهرون بأنهم يؤمنون أنهم هم الذين يقودون. ذلك جدير بالرثاء! إنهم طفيليّون. الحقيقةُ أن السيدة باربنتان إذا أرادت الطلاق بين دقيقة وأخرى، فماذا يبقى من هذا الرجل المزيّف العظمة، من هذه الشخصية الباريسية التي أوهمت بأنها أحد قادة الصناعة؟ وفي نظر مَنْ، من جهة أخرى!

ـ «آنسة ماري، ناوليني هذه الإضبارة... قضية أراضي الدائرة الثامنة عشرة... في ملفٍّ وردي، على ما أعتقد...»

نظرت إليه أمينة السر، كان عليه ان يكرّر. لم تكن بطّالة، هذه الفتاةُ الصغيرة. وبينما كانت منحنية تبحث عن الملف الوردي، لم يتمالك نفسه من مداعبة عنقها. ارتعشت. ولم تنسحب. ظلّت تبحث عن الملف الوردي. أطبق أصابعه المهيمنة ببطءٍ على قذالها الواهي حيث تجعدّت خصلات صغيرة شقراء.

في هذا اليوم كانت الغلطةُ غلطة باربنتان. كان «ادريان» من كل بُد بحاجة الى أن يراه، من أجل توقيع، لكنه لم يأتِ. وحينئذ تربع «ارنو» على كرسيّ الإدارة، وأخذ يقرأ ويقرأ ويسجّل ملاحظاته. تَمْتمت الآنسة ماري: «لاأدري إن كان ينبغي لي أن...» عمّ تتحدّث؟ هل قصدْت تلك الملاطفات قبل قليل، أم الإضبارات التي أخرجتها من قطعةٍ من قطع الأثاث دون أن يطلبها؟

كانت هذه الفتاةُ ذكيّة. كانت تعلم مايريد فسارعت الى تلبية رغباته. ابتسم لها:

- دعي ذلك، آنسه ماري، أنا أتحمّل مسؤوليتها...

خرجت من المكتب وهي جد مرتبكة.

وبما أن ادمون لم يحضر مرةً أخرى في الموعد المضروب، قرّر ادريان ان يتبعه الى بيته. كان بحاجة الى شمّ الهواء، الى المشي. نزل في الجادات. والكونكورد، و «كورلارين».. مهما يكن من أمر فلن يكون باربنتان في بيته.. وأذن، لماذا أذهب؟ لم يتساءل ادريان عن ذلك. كانت له عن ذلك فكرةٌ مبهمةٌ تختلط بها صورةُ بلانشيت باربنتان. والعجيب أنه لم ينظر الى امرأة ادمون قط. ولم تكن له من وسيلة ليتخيّل بوضوح هيئتها ووجهها. لاهي بالجميلة ولا هي بالبشعة. ثقيلة قليلاً. لعلها لاتحسن تدبير أمورها. مع رجل قربها يُحسن أن يقول لها.. ومع ذلك فقد يكون ادمون هنا. باريس الربيعية هذه لها سحرها الخارق للعادة. لولا كل هذه السيارات. كانت حدائق «التروكاديرو» ماتزل ملأى بالأطفال في الساعة الخامسة. لم يكن ادمون يستعجل بحذاء الرصيف. فكلما وصل متأخراً كان حظُّهُ اكبر.. كان يحب هذا الحي الذي يقطنه الأثرياءُ وفي محطة «باسي» للمترو صعد بالدرج.

ومع ذلك، فلو كان يملك مالاً كثيراً لما أحبّ أن يسكن هنا، ولبحث عن شيء أكثر ارستقراطية من شارع «رينوار». الضفة اليسرى. رفع أنفه ونفخ قليلاً وهو ينظر بعين حاسدة وناقدة الى المبنى الكبير الذي يسكنه آل باربنتان. هذه السجون الفخمة... ثم إن الشارع كان ضيقاً... وتكفيه سيارةٌ شاحنة كهذه السيارة القادمة لتسدّه...

وفجأةً أخذ يركض، قبل أن يفكرّ فيما يفعله. صرخ الناس. لقد أخذ بين ذراعيه هذا السقط الصغير من الثياب ومن الدنتيلا. وقفز جانباً أمام الوحش، وانزلقت قدمهُ، وتلقّى الصدمة.... ترنّحت السماء، وسُمع صوتُ المكابح المشدودة. وصعدت رائحة الغبار وشحمُ الآلة...

أُنهضَ. لا، الولدُ سليم. كانت الصغيرةُ «ماري فكتوار» تبكي، والمربّية

تحرّك ذراعيها، الأسودين، والسائق يبرّر سلوكه أمام الشرطي...آخ!

الألم فظيعٌ في الساق.. وضعفٌ.. سقط ثانية، ولم يستطع ادريان المشيَ. سأله الرجلُ ذو الصدرة الذي سنده. ضمّ شفتيه وابتسم، وقال

ـ «ليس هذا بذي بال، أظنُّ رجلي كُسرتْ...»

كان ينظر الى بنتي ادمون ومربيتهما . لقد أنقذ ابنة المعلم. وأحسّ بالضعف مرة اخرى. قال صوتٌ رجل...» لايستطيع أن يقف». وقال آخر: يجب ان يُحمل الى صيدليةٍ.. في هذه الأثناء صرختْ امرأةٌ هي المربيّة «لكن هذا هو السيد آرنو! صديق المعلم! جئت بجنبه وحدّقتْ. قال:

ـ ليس هذا بذي بال، ستصلح الأمور...

ـ لقد أنقذتَ الصغيرة...

من هذه الجهة، نعم، لقد أنقذ الصغيرة. وساوره نوعٌ من النشوة. كان يحب الأطفال. ثم... لقد كان أضعف كثيراً من أن يستخلص النتائج من هذه الواقعة الجديدة، غير العادية، الحاسمة...

ظلت المربّية تصرخ، لا تأخذه الى المشفى، مهلاً! هذا صديق المعلم! انقلوه الى منزلنا! لن تغفر لي السيدةُ ذلك! لقد أنقذ الصغيرة! ساعدوني، أنتم، ياسادتي...

أخذه أحدهم من ذراعيه، وأراد آخر أن يُمسك بقدميه فحرّك الساق المصابة. فصرخ ادريان.

وبألف احتياط. حمله ثلاثةُ رجال لم يرهم بوضوح الى المنزل المواجه، هناك. وكانت الصعوبة شديدةً في إدخاله المصعد. كانت المربّية تصرخ: «سأصعد ماشية لأهيىء السرير، وأهتف للدكتور!

كان ألم السّاق فظيعاً.

المصادفة، المصادفة العجيبة..

* * *

لاينبغي أن يعرف «آل فانهوت» ماكان يجري. تنفّس «بول ديني» بعمق.. ومسح جبهته بمنديله. لقد ركض، ركض بلا جدوى. لقد كان متضايقاً بهذا القميص الواسع المثقوب، وقد سقط زرُّ القبةُ. ابتلع تلك الشهوة للبكاء لن يبكي، والإقلاع عن البكاء سهولتُه غيرُ متوقعة. ومع ذلك فالغداء مع جميع الناس... لم يكن بوسعه ان يمكث طويلاً في الغرفة ذات الستائر الصغيرة بتربيعاتها الحمراء. ودّ لو يبقى فيها، أمام الخزانة المفتوحة، والقمقم الفارغ المتروك على طاولة الزينة، والأوراق القليلة على الأرض، والسرير الذي لم يُرتَّبْ بعد. ماذا سيقول الناس لو حَبَسَ نفسه فيها؟ فنزل. ناولته السيدة «فانهوت» بريده: «لم تأخذْ بريدك، سيد «ديني»...» كانت تبدو كمن تُشفق عليه: آه لا، عجباً. كان بريده رسالتين ومجلة وجريدة. «المعذرة» سيدتي، لن أتناول الغداء اليوم... هل تأخرتُ في إعلامك؟

ـ لا، لا، لا أهمية لذلك، سيد ديني...

يالشهر نيسان المبكّر العذب! في هذا الصباح، استطاع «بول» ان يستحمّ لأول مرّة في «السين. لم يكن الماءُ دافئاً، بعد، لكن يالمتعة الماء والأعشاب وحتى الوحل في الضفة التي نغرق فيها القدمين الحافيتين. كانت الشمس محرقة. وكان رأس عنقه مذهباً نحو الصدر عند فتحة القميص. كان بودّه لو اصطحب بيرينيس الى هذا الحقل المغلق بالأسيجة، قرب النهر، حيث يستطيعان أن يأخذا حماماً شمسياً، بلا فضائح. وكان سيخطف منها كتابها الانجليزي، بينما تشرع هي في قراءة مخطوطته: «نزهات سوداء» التي أنهاها والتي لاتعرف منها بيرينيس سوى فقرات. ومن أجل ردة الفعل جرى في وهج الشمس على الدرب، وانحدر الى «الطاحونة».. وهناك وجد الغرفة خاليةً ووجد رسالة صغيرة: «أنا راحلة، ياصغيري، بول لا أود أن أؤلمك. كان خطأ منا الاثنين.

والاستمرار في هذا الخطأ يُسيءإليّ أنا.. لاتسرف في البكاء وفكّرْ في شيءٍ آخر: ماتزال لك حياتُك، وماتكتبه (تذكّرْ أنني أحببتُ كثيراً ماكتبته)، ولك أصدقاؤك.. لاتبقَ وحدك. اذهب والقهم. إنك غيرُ متمسكٍ بي بالقدر الذي تظنّ. ربما ابتكر مينيستريل شيئاً شائقاً، ففي ساحة بيغال جُددٌ.. لاتحاولْ رؤيتي. أليس من الأفضل ان نفترق هكذا، دفعة واحدة، دون صراخ، ولامشاحنات بنظافةٍ؟ قراري لا رجعة عنه. أنا راحلةٌ الى الأبد، افهمْ ذلك جيّداً. لقد قضينا معاً نحو ثلاثة أشهر، آخر الشتاء، ومطلع الربيع، قُضي الأمر الآن، وعاد الربيع. سنفترق، وسوف افكّر برقّة عذبة في هذه الأشهر الثلاثة. وعلينا ألا نُفسدها، أترضى؟ لاتكشّر بفمك الصغير الظريف. دْعني وحياتي. شكراً لأنك أعطيتني حياتك طوال هذا الوقت، لأنك ساعدتني في لحظة صعبة. مرّت تلك اللحظة الآن. أنا قوية وسأرحل.

أقبلّك بحنان.

بيرينيس

ماذا قالت لآل «فانهوت» وهي ذاهبة؟ أمن المفروض أن يعرف بول سبب رحيلها؟ وماتفسير الزوجين لغياب بول عند انصرافها؟ وأنه لم يرافقها الى «فيرنون»؟ ما أصعب تحمّل شفقة الناس! وعليه ان يتصرّف وكأن كلّ شيء كان طبيعياً، مدبّراً. أن يظهر بمظهر الرجل المطّلع.. أيّ قطار استقلّتْ؟ في الثانية عشرة والنصف، ربما. الساعة الآن تجاوزت الثانية عشرة والربع. ماأسوأ حظه! كان بوسعه أن يعود قبل عشر دقائق. يستطيع ان يُدركها بالدرّاجة. لكنه... لو وثب على آليّة «فانهوت» على درّاجته النارية، فهي أسرع... لكن ربما سافرت في قطار الحادية عشرة والدقيقة السابعة والأربعين.. لا يستطيع أن يسأل عن ذلك، ثم إنها قالت له ألاّ يسعى الى لقائها.. «خطأ الأثنين». كانت ماتزال تفكر في «ليرتيلو» عادت لتلقى « ليرتيلو. وماذا في ذلك؟ إن كان هذا هو ذوقها! فلتذهبْ مع ليرتيلو! وكرّر هذا الاسم الذي كان يؤذيه. مستحيل. مع ذلك. أيمكن للمرء أن ينخدع هكذا؟ كانت تحبّه، تحبه هو «بول الصغير»...

«أقبلّك بحنان...» عضّ شفتيه. كاد يبكي هنا في المكتب الصغير بمنقوشاته الانكليزية مع آنية من القصدير، ومسندٍ للغلايين، والأثاث المغطّى بغطاء وردي واخضر. بدا على السيدة فانهوت أنها تنفّض الأشياء، لكنها كانت تنظر إليه خلسةً. تبيّن أنه لم يقرأ بريده، وأن رسالة بيرينيس كانت في يده المفتوحة. مزّق مغلّفاً وخرج.

كانت رسالة من ناشرة يطلب فيها «نزهات سوداء» ويقول ان رسماً من بيكاسو يُساعد على بيعها، ولاسيّما إذا استطعنا أنْ نحصل فوق ذلك، من أجل الإصدار الفخم.. عبّر عتبة الباب. صاحَ به فانهوت المقرفص تحت السقيفة التي يستخدمها مرآباً لدراجته النارية التي بجنبه:

- أتدري، ياسيد ديني أنني نَوّزتُ البيان! سوف تصل الآنساتُ بعد ظهر اليوم.. وهنّ يتوقعن أن تعزف لهن هذا المساء! هؤلاء النساء هن العاهرتان. كان اليومُ يومُ السبت، ودمدم بول بشيء ما. على الأغلب.. ابتعد عبر حقل النفل. أراد ان يترك انطباعاً بأنه ذاهب للغداء عند «مورفي».

ماذا سيفعل الآن؟ أيبقى في جيفيرني؟ أيتحمّل بلاءه؟ أيعزف على البيان منْ أجل هاتين البنتين ، أيلعب الشطرنج مع «فانهوت»، أيكتب الى بيكاسو يسأله الرسم الموعود، والى «روسيل» يسأله بعض ملاحظاته حوّل المجلاّت الجديدة.. آه اللعنة!

بلغَ الطريقَ المتعرّجة الضيقة. أحسّ بعبراته تتصاعد. كان ينظر الى الأرض، التخوم المتصالبة، الأعشاب في التلعات، الفراشات السمراء والزرقاء.. عند المنعطف شوّش عاشقين: فتاةٌ من البلدة تحشرُ قرب حاجزٍ أخضر فتى متين البنية بسترة سوداء، يرد قبعته الى ا لخلف وعيناه ضاحكتان وشاربُه أصهب. نظر الرجلُ الى بول نظرة تواطؤٍ، فأشاح بول بوجهه. ماذا سيفعل بوقته.. بالحياة؟

وصل الى أمام حديقة «مونيه» التي غمّته. وفكرّ طويلاً وعلى نحو غامضٍ بالشيخوخة والمجد. لابأس بمونيه، بعد كل حساب، وبالانطباعيّة... ما مثّلتْهُ هذه قديماً..

في فترة ما... كلّ القصص التي تُروى في المنطقة عن شباب هؤلاء الناس... الفوضويين ربّما.. لكن لابأس بهم، في النهاية.. كلُّ شيء ينتهي بملكية صغيرة، وبورود.يجب أن أذهب الى «الاورانجيري» في باريس، لأرى لوحة «النيلوفر» العظيمة.. ويقال مع ذلك أنها عمل مجنون... سيكون مبهجاً لمونيه لو أُجريت له عملية لإزالة الكثافة السادة في عدسة العين... وله ابن أخ يصنع الحرير الملّون، شيطان كبير صادفه بول عند آل «مورفي»...

أين ذهبتْ؟ الى باريس؟ لن تبقى في باريس عند باربنتان؟ عند امبيريو؟ لن تفعل ذلك، وفجأةً فكرّ في اوريليان، تصوّر اوريليان، فقرصه ذلك في قلبه، كلا، كلا: انتهى كلُّ شيء بينهما، كان يعلم أن بيرينيس لن تهرب منه لتقع ثانية في يدي اوريليان، لا، لقد عادت الى زوجها، وتلك هي البداهةُ بعينها، محاولة تمرّد، هروبٌ.. لحظةٌ معترضةٌ في الوجود... ثلاثة أشهر بل أقلّ.. وعودة الى منزل الزوجية، ضحك،

برجوازية صغيرة كغيرها، دعْكَ، يجب، الاّ أفكرّ فيها، أيركضُ وراءها؟ أحياناً! ماذا كانت تريد غير ذلك؟ كانت حياتها كئيبة جداً، وكان لابدّ لها من مغامرة، الآن لن تضيرها قصةُ فاجعة - لن يكون أحمق الى هذا الحد كلا، وهي على كل حال قد أدركت ذلك حين قالت له: إن له أصدقاءه، مينيسستريل، ومايكتب.. كان لطفاً منها أنها الحّتْ هكذا... «تذكّرْ أني احببتُ كثيراً ما كتبته..» هناك جانبٌ لطيفٌ في بيرينيس، اوه ياحلوتي، ياحلوتي!

اتخّذ حلمٌ يقظته مساراً دقتّهُ مؤلمة، فيزيائية، وصل الى ضفة السين، الى حيث استحمّ قبل قليل، نظر الى الجزيرة الصغيرة قبالته، لكن ماْرآه لم يكن الجزيرة، بدأ يخاف الليلَ المُقبل، ربما كانت بيرينيس على حق: يجب ألا يبقى في «جيفيرني»، يجب أن يذهب الى باريس، الى ساحة بيغال، الى شراب الماندارين، الى الأصدقاء.. ويمكن أن يلجأ الى السينما إذا ساءت الحال حقاً، وثمة أنوارٌ عند المساء.. وحوالي منتصف الليل، أو الساعة الواحدة، ربما لقي ليرتيلوا في حانة «لولي»، وقد يتأكد على الأقل من أن ليرتيلوا ظلّ وحيداً وحزيناً.. مَنْ يدري؟ وقد يتناول كاساً مع ليرتيلوا...

لم يكن الماء نظيفاً تقريباً حيث سبح. كان الماء يحمل فُتاتاً من الخشب، ورأى ماء «الإيبت» يصل أكثر خضرةً وبارداً متحيّراً في أن يذوب بغيره. وخلف أشجار الخليج الصغير حيث خلع ثيابه، صعد بول نحو الرافد، متردّداً، أيمضي الى باريس أم لا؟ ترك الدربَ الذي يفضي الى الجسر، عند مطلع القرية، الذي يقود الى هويس القناة، كما كانت تحب ان تفعل بيرينيس.. الراجعة الى لوسيان، أممكنٌ ذلك ، يا الهي؟ تذكر بقسوةٍ حديثاً لم يسمعه دون أن يرتعد. حديثاً لبيرينيس، ذات ليلة. ففي تلك العفوية التي تغدو بيرينيس معها كالظل ذاته دفئاً ورقّةً، ألصقتْ نفسها به، ولم يكد ينتهي من متعته، وهمستْ بحماسة: «لايمكنكِ أن تعلم مدى روعة الرجل الذي يملك ذراعيه!» كلمة فظيعة تذكّرها اليوم، وماتزال تُرجِفُه. لقد عادت الى لوسيان.

قادته قدماه الى البيوت الخرساء عند الظهر. أدارت الشمس رأسه. وكان هناك ذبابٌ ضخم، وسُمع حصانٌ يرفس في اصطبله. سلك بول بصورة طبيعية الطريق الى منزل مورفي . تذكرّ أنه لم يفتح سوى رسالة من اثنتين، وأنه يحمل بريده في يده. الرسالة الثانية كانت قائمة طبيب الأسنان، خمسمئة وخمسةً وستين فرنكاً.، وكانت الجريدة تحوي مقالةً عن «ديشانيل» الذي مات منذ فترة قريبة، بعنوان: «مفترى عليه». أزال «بول» لفافة صحيفة الكوخ ونظر الى الرواسم، وصور الحرب، وذكريات الملكة «رانافالو» ومقالة عن أغاني «الهر الأسود».

بين العناوين الحمر، وفي زاوية، مقالة «لفوشن» ضدّ «مينيستريل»: مقالة سوءُ النية فيها والخبث لايُصدَّقان. صكَّ بول أسنانه واستشاط. كم من السفاهات يبيحها لنفسه مثل فوشن هذا... مينستريل فوق ذلك، بالتأكيد، لكن مع ذلك! الكارثة أن هاهنا كلمةلطيفةً له هو، بول ديني. هذه لعبةٌ من لعب الصحفييّن ليسودو، ليشككوا الأصدقاء بعضهم ببعض. ماذا سيقول مينيستريل عن ذلك؟ أعاد بول في رأسه عبارات رسالة الى فوشن: «سيدي... هل ينبغي أن يدعوه سيّدي؟ لعل «سيّدي القذر» أقرب الى الأسلوب المناسب. «سيّدي العزيز

القذر» هي التي تصلح. ساكتب إذن: سيّدي العزيز القذر، ما الذي أباح لك أن ترى فيّ موهبةً..» لا، هذا ضعيف... «إني أتساءل مَنْ الذي يسمح لنفسه، في السجون حيث تطلبُ أن تكتب مقالاتك بسعرٍ مخفّض، أن يمْنحني شهادات...» وشيئاً من هذا القبيل.. ثم : «بين مينستريل وبيني لامكان لفنطيستك اللئيمة..» وسوف يُرتِّب ذلك عند الكتابة. كانت هذا الرسائل فوزاً عظيماً لبول ديني، كانت تثير كوارث ومضاربات. كان يقول إنه يعبد هذ. والواقع أنه يكرهه. لكن كان لابدّ من المحافظة على سمعته. وفي هذه المرة كانت فكرة الاقتتال لاتسوءه فذلك يَصرفُه عمّا هو فيه. ثم إن نمطَ المحارب القديم في جريدة «الكوخ» كان يثير اشمئزازه. لكن ما الذي قبل لهذا النّخاس «فوشن» في «دي ماغو»؟ لقد سحب فوشن شيكات بلا أرصدةٍ، وقلّد توقيعات... وأحد ضحاياه هو الذي خلّصه من ورطته، وهو ممن يُسلّيهم النصّابون دائماً على مايبدو.. طبعاً إن أناساً من هذا النوع هم الذين يهاجمون «مينيستريل»! إذا مافكّرنا! ما الذي قالته له بيرينيس عن فوشن، ذات يوم؟ ولأنْ تكون بيرينيس قدْ عرفتْ فوشن ضربٌ من الجنون الذي لايوجد الا في باريس.

أين سأجد مبلغ خمسمئة وخمسة وستين فرنكاً؟ أرسلت قائمة طبيب الأسنان الى «روسيل» فربما دفعها في نهاية الأمر. وسوف أهديه رسماً صغيراً «لكسلنج»، فعندي من ذلك كميةٌ كبيرة.. لا لأن ذلك يثير اهتمامه... بل لأنه أقل إزعاجاً..

ـ هو، هو... اوه؟ أيمكن أن أصعد؟

في الدرج الأسود الصغير لدى السيدة «فريز» تدحرج حذاء آرشي الضخم الى منتصف الطابق، وانحنى مورفي صارخاً: «بول!» مضخماً المقطع على الطريقة الامريكية التي كانت تجعل بول ديني الفرنسي يرتاب في أنه هو المدعّو: هيّا، بول، اصعد».

كانت مولي على الاريكة، وعلى رأسها منشفة معقودةٌ، تدخّن الغليون، منبطحة على بطنها بين الوسائد، مع كأس صغيرة والقهوة بين الكتب قربها.

كانت تقرأ الإعلانات الصغيرة في صحيفة «المتشدّد» وكانت بقايا الطعام تنت
على المنضدة وعلى الأرض، وكان في الجو دخانٌ، ورائحة السمك المشويّ.

ـ هل تغذّيت حقاً... لأن ذلك سهل... اجلسْ..

ـ شكراً... تغدّيتُ...

– قهوة، إذن؟ ولن ترفض كأساً؟ أنا أعرفك!

كانت «مولي» بالاصبع المهدّدة، والـ ها، ها من أعماق الحنجر والحركات الضخمة من امرأة اجتماعية، والرأس الذي تهزّه كمن تعرف ك شيء..

كانت في أوج احتفائها.. من البديهي أن عرضها لايُرفَضُ..

وكان ارشيبالد مورفي، جالساً بطقمه على الأرض، مع أوراق في أرب كوم أو خمس، وكتب قديمة فوقها، وكان يتحدّث عن ديدرو، وقد عثر على قرابا، بين «جاك القدري» والنزهات السوداء»، وكان ينظر الى بول من فوق نظار خيالية: «لكن بينهما هذا الفرق.. هذا الفرق.. وهو ان «جاك القدري» ليس م عمل الشباب.. وعندما أنوي أن أقارن بينك وبين ديدرو فعليّ أن أتصور.. أ أتصور ديدور ابن اثنين وعشرين عاماً... او بول ديني ابن خمسة وأربعي عاماً... كيف ستكون هيئتك في الخامسة والأربعين، أنا أتساءل؟ سيكون ل كرشٌ.. وشعر وخطه الشيبُ... عندما تصير رجلاً تاماً... قصدت عندما لاتظ صبيّاً...

قال بول: لن أبلغ الخامسة والأربعين أبداً..

سخّنتْ «مولي» القهوة، رفعت المنشفة التي كانت مشدودةً على رأسها لكن شعرها لم يكن قد جفّ بعد، وبدتْ في هيئة محزنة، هيئة الكلب المبلّل، كانت تحاول أن تنفخ شعرها دون جدوى سألت

ـ كيف صحة السيدة الرفيعة والقوية بيرينيس؟

لم يجب بول، وكانت «مولي» أمام مرآة صغيرة تخطّ حاجبيها. دهشـ

من صمته والتفتت. وكان آرشي منهمكاً في لمِّ أوراقه ووضعها في كوم منتظمة، وهو لم ير بول يتغيرّ وجهه لكن مولي سارعتْ الى القول بالانكليزية: ألا ترى أنه يبكي؟ بول، عزيزي بول.. ماذا دهاك؟ أنت وحش بصاحبك ديدروا بول، اشرب القهوة وهي ساخنة... لا، لا، لا. تقلْ شيئاً.. عندي شرابٌ آخرا تناوله سهلٌ... معي... اوه، «آرشي»! أنتَ لاترى شيئاً بتاتاً! ديدروا أنا أسألك...

وقف وهو لايدري مايقول. سأله مورفي: هل رحلتْ؟

أجاب بول «نعم» برأسه. حينئذ ساد صمتٌ عظيم. طبطبت «مولي» على الوسائد ووضعت واحدة خلف رأس بول، وقبّلته في جبنيه. كانت رائحة الكحول تفوحُ منها. تمتمت: أيها الولد المسكين، وأمسكت بيديه. في الخارج كان محرّكٌ يخشخش، ونبح كلبٌ. قالت مولي بفرنسيتها المشوبة:

ـ قل لنا الآن كل شيء بهذا الصدد..



لم يدمْ طويلاً سرُّ بول وبيرينيس، كان ذلك السرّ مثل كومة من الهشيم أشعلت من كل جانب: فكيف يُعرفُ مُشعل النار! كان هناك شارل روسيل الخياط. لاشيء أرهب من تكتّم هذا الخياط، وتظاهره بمعرفة كلّ شيء. كل ماحرص ألاّ يقوله هوَ اسم السيّدة. لكنه قال إن بول ديني كان في «جيفيرني» مع شخص.. مع سيّدة راقية.. متزوجة.. وهلمّ جراً، وكان في ذلك دائماً مايثير فضول السيدة غودمان التي تناولت غداءها عنده مع زامورا، ليحكما على أثر لوحة «القوّادة الخنثى» بعد أن أطرها «ليغران» ووضعت كمصراع على مفصّلة على جدار صالة الحمام بحيث تستطيع السيدة روسيل ان تخفضها وألاّ تراها أثناء اغتسالها. وقد سأل زامورا مينيستريل الذي كان في «جيفيرني» مَنْ تلك المرأة، لكنه لم يرها. بيد أن جان فريدريك سيكر الموسيقي والمؤتّمن على أسرار «بول ديني» قد لمحّ بأن زامورا يعرفها وأنه لايستطيع أن يصرّح بأكثر من ذلك ولو قطعته إرباً إرباً. وكانت عيناه الجاحظتان تنّمان وهو يقول هذا، على معرفته بالسرّ الخفي! من الذي تجاسر ان يُحدّث بذلك ماري دي بيرسيفال؟ لعلها «ديان دي نيتنبرغ» وما الطريق الذي اجتازه السر إليها؟ ويبقى أن ماري حدّثت روز بذلك.. وأن السيّدة ملروز حلمت بذلك.. جيفيرني، الطريق المتعرجة والضيقة، ذلك الشبح وكذب ليرتيلوا. لايحتاج الأمر الى دهاء عظيم.. وكيف لم تحدّث بذلك لا ادمون ولا ديكور؟ في المؤسسة حدّث الدكتور «زوي آغاتوبولوس» التي بادرت الى إكمال معلومات صديقتها الكبيرة ماري، وعندما اطّلعت بلانشيت على الخبر من ادمون، قهقهت قهقهة مرّة. بالهذه الصغيرة بيرينيس! جميل للغاية حقا... وروت في الحال الخبر لأدريان الذي سيُغيّر جبسه في اليوم التالي. كسرهُ سيّء مع ذلك، على أن لا يؤدي الى قصر الرجل! ياالهي عندما تتذكر تلك العودة، في ذلك ا لمساء! والانفعال الذي ألمّ بها.. صغيرتها ماري فكتوار.. الحقُّ مع المربّية: كيف يجوز أن نترك منقذ ماري فكتوار يذهب الى

المشفى؟ ففي البيت متّسع وفي نقلة ماقد يؤذيه. ثم ان ادريان أليس أقدم صديق لأدمون؟ كسرٌ مضاعفٌ، وشريان خرقتْه شظيةٌ، ما أدراني! وفضلاً عن أنها مدينةٌ له بذلك فان ادريان قلّما كان يُزعج، أي إنه قلما كان سيُزعج لولا ابنةُ العم تلك.. امرأة طويلةٌ سمراء، رخوة ذات عينين غارقتين، كانت ستستقرّ بسهولة عند رأس السيد آرنو لو ترك الأمر لها، ولو لم تُفهم، اوه! بكثير من اللباقة! أنها لايمكن أن تأتي في كل مناسبة الى منزل ناسٍ لاتعرفهم. وأن في المشفى بالطبع لافتةً للزيارات من الساعة كذا الى الساعة كذا. الأمر اسهل هناك. لكن لابدّ أيضاً من الذوق المرهف. لعل بينها وبين ابن عمها شيئاً ما، غير ممكن ولا سيّما من جانبها هي: لأنه هو كان يبدو مُرهقاً..

كان شيئاً ظريفاً ان يسمعهما المرءُ وهما يتكلّمان معاً. ادمون وادريان. كانا يتناولان القهوة، على العموم، في غرفة الأصدقاء، عندما يكون ادمون هنا. وكان بينهما طفولتُهما، والمدينة الجنوبية الصغيرة حيث نشأا، ولعبة الكرات على الأسور، وطيشهما قبل العشرين. كانت بلانشيت تصغي إليهما بدهشة. كانت تكتشف ادمون مختلفاً عن زوجها. شاباً أسفتْ لأنها لم تعرفه، ودوداً جداً، وكانت توحّد بالضرورة بين ادريان وبين ادمون ذاك. بطلٌ من جهة أخرى. ادريان... ادمون قال ذلك لهما: لقد سلك سلوكاً رائعاً في الحرب. وليس في ذلك مايُدهش اذا قسْناه بالطريقة التي رمى نفسه بها تحت الشاحنة لانقاذ الصغيرة!

في غضون ذلك كله، كانت بلانشيت تفكرّ في اوريليان بمرارة ولكن برضاً ايضاً. لأنه سقط من جراء مغامرة بيرينيس تلك. وأن بيرينيس قد أسلمتْ نفسها لآخر، لصبيّ... الشعور الذي كانت بلانشيت مسكونةً به لايمكن تسميتُه. غَيْرةً. كان عكس الغيرة. تنزّلت عليها سكينةٌ عظيمةٌ وعندها لم يكن يسوءُها ان تعلم أن ادمون حين تركها أنما ذهب للقاء ملروز. لم يكن يسوءها إطلاقاً. كانت تحس أنها خيّرة، وشكرت الربّ لأنها لم تصلّ عبثاً.

الصغيرتان تعلّقتا بالسيد آرنو، وذلك مفهوم جداً. الكبرى بخاصة، التي كانت تحب أختها كثيراً امتلأت اعترافا بالجميل لمنقذ أختها. كان ادريان صبوراً مع الصغيرتين الى حدٍّ لايُصدق! إذ ان أباهما لم يعوّدهما ذلك. وعلى العموم كان ادريان ارنو يُظهر استواءً في طبعه مدهشاً تماما.. والواقع ان المرء يشي بنفسه في مثل هذه الظروف: لنتصوّر تلك الراحة الاضطرارية لشاب شديد النشاط، لم يبلغ الثلاثين، وجميع متاعب ذلك الجمود. ولا ألحُّ على ذلك، اضافة الى ساقه. فظيعةٌ أجهزة التمديد لكن كان لابد أن تجبُر الكسرات دون ان تتراكب، ولاسيما ان الكسر عندما يكون بسيطاً فإن الألم ينقطع مع الجهاز. لكن مع الجرح ، الضماد.. لم تكن بلانشيت لتقبل أن يُعْنى به أحدٌ غيرها على الإطلاق. كانت ممرّضة أثناء الحرب،. أليس كذلك؟

تغيّرت حياةُ بلانشيت. لم يعد البيتُ فارغاً، لم يعد الأولادُ كالذباب، ولا الساعات التي تنتظر فيها ادمون عذاباً. ولاسيمّا أن ظلّ الخطيئة كانما فارقها. لم تكن تفكر في اوريليان إلا نادراً، وبصورة هادئة جداً. ومن البديهي أن لمجرى الأشياء يداً عظمى في ذلك، ولزوال تلك الصورة الشاعرية عن ليرتيلوا بعد مغامرته الفاشلة مع بيرينيس. لكن يجب الإقرار بأن لحضور السيد آرنو أثراً أكبر ايضا. فكأنما طردت الهاجس الذي حاصرها. كان ادريان يحمي بلانشيت بحضوره وحده، ويَهدِّئها. فإذا أحسَّت انبعاث الهمّ القديم فيها، جاءت تعود ضيفها المجمّد، بأية ذريعة كانت، فيستضيءُ وجهه في الحال. كان سعيداً أبداً برؤيتها. وكأنما لم يكن ينتظر سواها. وكان محدِّثا مشوِّقاً. لقد رأى كثيراً وتجوّل كثيراً وإن لم يَبْدُ ذلك عليه. وكان الى ذلك. محافظاً على احترامه لها، مجانباً المزحَ أو الكلمة النابية. لكن عينيه كانتا بليغتين وهما تتبعان المرأة حتى الباب عندما تنصرف وتتركه.

في غضون ذلك كله، جاء الوزير ليعود ادريان. كان عضو مجلس الشيوخ باربنتان رجلاً طيّباً. كان يعبد حفيدتيه، اللتين لم يتسنَّ له ان يراهما. ولقد هزّته قصةُ الاصطدام. والى هذا فإن ادريان... مَنْ هو... نعم، بالتأكيد..

فتىً من «سيريان» تذكّرتُ.. ابن صاحب «المعارض الجديدة»! كان أبوه خصماً سياسياً لي، بل لقد خدعني خدعة غريبة بصدد احلال سيارات نقل الركاب الكبيرة محل الحافلات الكهربائية.. كان ذلك في ١٩١٣.. او ١٩١٢.. لستُ أذكر... الخلاصة قبل الحرب. ياه، كل هذا غدا بعيداً جداً! لقد ساءت اموره، وأفلس على ما أظنُّ.. ليس الابنُ مسؤولا بعد كل شيء. ثم إننا مدينون له بصغيرتنا «ماري فكتوار»! كانت المقابلة من النوع الفخم. وبدا الوزير كمن يعلّق وساماً على صدر ادريان: «أيها الشاب» إن أسرتك حاربت أسرتي قديماً لكن كل هذا غدا في طيّ النسيان... بين الطيبين... كلنُّا فرنسيون.. عندما تتعافى زُرْني في الوزارة.. لعلي استطيع أن افعل شيئاً من أجلك.. وعدٌ منك؟

كان ادريان حسّاساً شيئاً ما لما يُضحك. وقد أثّرت فيه لهجة الشيخ الوزير أقلّ من غيرها كانت هذه لهجته، مع بروز أكبر، هذا كل مافي الأمر، لأن ادريان بذل وسعه منذ الحرب ليتخلص منها. لكن الذي أثر فيه أكثر من ذلك ان وكيل الوزارة قد كلّف نفسه ليعوده. وعندما يُقال وزير ليكون الوقعُ أكبر فإن ادريان قد رأى ان وكيل الوزارة تسمية أكثر خفاء وأكثر واقعية. كان، يُضمر منذ البدء احتراماً عميقاً لكل ماهو رسمي، للسلطة، للدولة، للحكومة. لقد بارك ذلك الحادثَ الذي أتاح له هذه العطلة الغريبة، ساعات الحلم الطويلة هذه ، هذه، المغامرة التي أخذ يتوقع نتيجتها.

كانت ايزابيل تُزعجه· كانت نوعاً ما، حياته الماضية التي تتشبّث به، تفاهة تلك الحياة. ماحاجتُها الى اللحاق به في هذا المكان؟ وعندما يقارن بين الغرفة التي كان فيها والغرفة التي كانت له عند أقاربه؟ ولاسيّما أنها كانت تتحرّق دائماً لتظل وحدها معه، وأنه كان يخاف من أن يُفاجئهما أحدٌ. من باب يُفتح، من الخدم، من السيدة بارنبتان. لايمكن القيام بذلك عند الناس. ايزابيل هذه، يالها من نهمة للذّات! لا سبيل الى افهامها.

وإذن، فمن الأفضل أن يَستْبق الأشياء. فإذا لاحظت السيدة بارينتان شيئاً... أسرَّ إليها ادريان بسرّه.. ماكان ليجرؤ قط على ذلك.. ثم بسبب ابن

عمّها .. التكتّم الذي كان طبيعياً فيه... لكنك تفهمينني. في النهاية، ياسيّدتي.. لاينبغي أن تحكمي حكماً ظالماً عليّ.. سأصاب باليأس.. بيد أن ايزابيل لم تدرك ذلك. الغلطةُ إذن غلطتها. ثم إن ادريان يثق ببلانشيت ثقة مطلقة، غير خاضعة للعقل قالت:

- أنت لاتعرفني.

رفع إليها عينين بليغتين. اوه بلى، إنه يعرفها أكثر مما تظن! لقد قامت العلاقات بينهما على نحوٍ غير تقليدي تقريباً. قالت:

- طيّب، حدّثني عن ابنة عمك... أتحبّها؟

كان سيّئاً منه أن يقول له إنه لم يكن يحبّها. لاشك أنه يكنّ لازابيل مودّةً عظيمة، ومع شيءٍ من الاغتياظ. وهي مودّة مستمرّةٌ منذ زمن بعيد. فلم يكن ادريان رجل الحبّ العابر، لكن الوفاء يُستَنْفَد إذا لم يكن الحبُّ أساساً له، الحبّ الحقيقي. ولابد من القول إن ذلك قد تم بفعل القدر. كانا يسكنان معاً. وكان ابن عمه غائباً في الغالب. كان يعمل لدار ضخمة من دور الحبوب، الاستيراد، وكان عليه ان يذهب الى مرسيليا، والى «سن نازير».. وإذن ففي بيتٍ خالٍ، الرجلُ والمرأة، الشابان...

قالت بلانشيت:

- اعذرني. فسوف ألقي بعض الأوامر..



«اوه!... اوه!... إذا قصدت الافتتاحَ فهو افتتاحٌ رائع!»

كان الناس يتزاحمون على المصطبة بين المصابيح النّوارة. وكان خدمُ التشريفات في بزّاتهم المذّهبة يشكّلون سياجاً، وكان الآخرون ينسلّون خلف حوض الماء، وكان القادمون الجدد ينزلون في الرمل الخبّازي. كان المنظر كله بغابته الكبيرة المنفتحة على الأرض المعشبة المغطاة بغطاء ذهبي هائل الحجم، والأشجار المصبوغة كل ورقة منها مكسوّة بورق مذهب، كان لذلك طابعٌ غير واقعي، حيث جمالُ الأكتاف العارية، وقيافة الرجال المضحكة الذين تزيوّا بشتى ثياب التنكّر، جعل رأس بلانشيت يدور بسهولة، وقد جرّها ادمون الى هذا المكان لأسبابٍ خاصة به. وقلّما كان يهتمّ بها، فقد تركها بين يدي انكليزي قُدِّم له قبل قليل، من النوع الاكسفوردي، سمينٍ وأصهب، كهل شبه عارٍ، مع رمح وترس وشباك ذهبي كبير. ما اسمهُ؟ رجل واسع الثراء على كل حال.

منذ ثلاثة أشهر لم يتحدّث فيها الناسُ إلا عن هذه السهرة في باريس، من يَخْطر بباله أن يتغيّب عن حفلة الدوق دي فالموندوا؟ كان بيته، جنونه كما كان يقولُ، قريباً جداً من بيت «كوتي» في «لوفيسيين». وقد لبَّسه بلوحات مذهّبة تنكرية، وصبغ أبا الهول على الدرج بمسحوق النحاس. وكان الداخل أكثر غرابةً، وكانت الزحمة على أشدّها عند منتصف الليل. فكم كان فيها من جواهر! ولذلك كانت الدار محاطةً بأشباحٍ مخيفة، رجال الشرطة في كل مكان، وكان الناس الذين يريدون أن يذهبوا ليشربوا الشمبانيا بين الغياض المذهبة يجدون أنفسهم فجأة يُستجوبون علىَ أيدي شخصيات انبعثت من خصاص الأدغال. ذلك أن الأهالي الذين ألبّهم الاحتفال قد تجمهروا عند مدخل الحديقة، وأخذوا يحومون حولها ويحاولون أن يشاهدوا شيئاً من خلال حباك القصب المحيط بها. كان يُقال إإن هذا البذخَ جعل الناسَ يتذمّرون، وخشيت مديرية الشرطة من

الاضطرابات. وقد شتمت نساءٌ حاسرات الرؤوس بعض المدعوين وهم في طريقهم، وأضاف ذلك الى الأمسية شيئاً من الاضطراب الذي لايخلو من السحر.

عندما صعدت الاثنتا عشرة امرأة اللابسات ثياب ربّات العناية درج الشرف وهنّ يغنّين: «هيوتو- هو - هيا - ها!» بحسب القواعد المتّبعة، اندفع رجل تنكّر بزيّ دوج ايطالي نحو بلانشيت وهو يحرّك كميّه حركات ضخمة. كان هذا هو «كوسي دي بالانت» الذي كان معطفه يتطاير من جهاته كلها «سيّدتي العزيزة، لكنْ ما أنت؟ اراهن أنك «دانايي»! ألم تستطيعي أن تعثري على شيء أقلّ أناقةً؟ وأنا الذي كان يعتمد على هذه المناسبة لأمتّع ناظري! نظر الى ذلك الرفيق الغريب الذي يرافق السيدة باربنتان. قدّم الآخرُ نفسه «هوغ والتر تريفيلان...» هل يعني ذلك شيئاً بالنسبة الى «كوسي» ألست التريفيلان، ياترى؟ بلى بالذات - وأنا الذي كان يعتقد أن كل شيء مزوّر هنا في هذا المساء! ألا ترى ان فكرة هذه الحفلة الراقصة المذهبة تجعل من هذا المكان مكانا تجارياً الى اقصى حدّ بالنسبة الى «فالموندوا»..

تركهما كما طلع عليهما. كان يود أن يتنكّر بزي ساعي البريد على عادته، لكن هذا لايتناسب مع الديكور، ومع هذا المعطف الفينيسي. كان كلّ شيء غارقاً في «الجاز» الذي كان يُرى من النوافذ المفتوحة، كان الرقصُ جارياً في صالونات الطابق الأرضي. وفي الطوابق المضاءة كان على الشرفات أزواج يضحكون. مسرحٌ. قال: تريفيلان: «فستانك رائعٌ ، وهو الفتسان الوحيد الذي لايبدو تنكرّياً..»

ابتسمت بلانشيت لهذه ا لمبالغة. ومرّت بيدها على قطع الكرتون الملّون التي انهمرت حولها. وتأكدت ان حلاها، وعقدها، والأساور، والإكليل، أن كل ذلك مثبتٌ جيداً. كل هذه الأحجار الملوّنة من ابتكار «شانيل». وكذلك الفستان. فهو من عند «شانيل». وقبل ان تخرج، مرّت على ادريان وأرتْه نفسها. سرّها انذهالهُ. لقد وجدها ادريان جميلةً بصدقٍ. لقد تعوّد مضيفته. لكن ظهور الثروة

ظهور «دانايي» هذه مغطاة بالذهب وبالأحجار الكريمة مسَّ شغاف قلبه، وقد تأثرت بلانشيت جداً بتعجبّاته. والحقيقة أنها كانت تودّ لو بقيت معه، بدلاً من أن تأتي لتتسكع هنا. بعد أن تكون قد ألقت نظرة سريعة. لكن كان لابدّ من انتظار مشيئة ادمون.

تناول تريفيلان عن طبقٍ بين يدي الخادم كؤوساً أثناء مروره. جلسا تحت نافذة في منْحى عن الناس تقريباً. أخذا يتكلمان بالانكليزية دهشَ هو من إتقانها للغته.

ـ لكنك امريكية.

ضحكت قليلاً:

ـ ظننتَني تخلصتُ من لهجتي... عشتُ في امريكا..» وفجأة لم تعدْ تسمع ماكان يقوله. لقد مرّ أمامهما زوجان: ديان دي نيتنكور، في زي ديان الهة الصيد، مع نجوم في شعرِها. ممسكة بكلبين سلوقييّن أحمرين، والرجل في ثياب ثمينة سوداء وعلى وجهه قناع مذهب، وعُلى رأسه شعر مستعار. سلّما على بلانشيت . مدّت إليه يداً باردة وتمتمت.

ـ هذا أنت، اوريليان...

من أجل هذا إذن كانت هنا. كان حتماً ان يلتقيا ذات يوم وجهاً لوجه. غريبٌ ان تراه متنكراً بقناع، بلا وجهٍ، قال

ـ أنت تدركين أني لا أستطيع أن أترك السيدة «دي نتنكور» تأتي وحدها الى هنا... طلبتُ مني... سيحضر جاك مع امرأته..

ممَّ كان يعتذر؟ تذكرّت أنها قريبة بيرينيس. لقد رأت السيدة شلرز في أعلى الدرج تستقبل بوقاحة منقطعة النظير. والحق أن اوريليان لا حاجة به الى مصاحبة عشيقة جاك شلزر، بينما تَعْرضُ امرأة هذا علاقتها بفالموندوا على الملأ. قالت.

ـ هذه عودةٌ الى الحياة، ياصديقي العزيز. فلم نرك هذه السنة في أي مكان من الأمكنة.

انحنى مستأذناً بالانصراف.

- لقد تغيّبتِ طويلاً...

نظرتْ إليه وهو يبتعد مع «ديان» وكلبيها.

سأل «تريفيليان»:

- مَنْ هذا الشاب الوسيم؟

أجابت إجابة متملّصةً. كان هو نفسه موضوع الحديث.

- أنت لاتتصوّرين كم أجد باريس متغيرة.. الحقّ أني لم أتعرف فرنسا.. لقد بقيتُ زمناً طويلاً خارج فرنسا.. نعم... تفهمين، في وقت الحرب، كنتُ في افريقيا.. أنا أكره الحرب. بقيتُ في افريقيا... هناك كلُّ شيء جدّ بسيط... لكِ خادمكِ، أو شيء آخر إذا شئتِ... أحبّ أبناء المستعمرات.. هم ناس كرماء.. يشربون كثيراً، ولا يطرحون أسئلة.. أنا عائدٌ من «كينيا»... لستُ أتعرف فرنسا... الحقيقة ما أطول الطريق الذي قطعته منذ نهاية الحرب!

قالت، من أجل المشاركة في الحديث، إنه كان من غير شك صغير السنّ جداً قبل الحرب. فضحك ضحكاً قوياً لهذا الإطراء. «عمري ثمانية وأربعون عاماً، ثمانية وأربعون! لا تصدّقين! لم تتعب الساقان كثيراً بالنسبة الى سنيّ؟ الواقع أنه لايُصدَّق أن يكون ابن ثمانية وأربعين. كان عمره إذ ذاك خمسة وثلاثين عاماً ونيّفاً. قالت:

- ما الذي غيّر فرنسا كلَّ هذا التغيير، ياترى؟ نحن، لانعرف..

- نعم، أنتم منخرطون في التغيير، وإذن فأنتم لاترون. لكن ليس لي، في النهاية. أن أكون الواعظ الأخلاقي. بيد أن هذا البلدْ أصبح منحلاً انحلالاً كبيراً. لم تعد الرذائل لذّة..

- انحلالاً كبيراً؟

- طيّب... هذه الأشياء في «غاب بولونيي»... مع غيره... لايمكن أن يذهب المرءُ الى السينما دون خطر.. تكونين عند اناسٌ محترمين، فيقترحون عليك ان

تنهي السهرة لا أستطيع أن أقول أين... وقد اخترعتم كلمة غير عادية، الحبّ الجماعي.. في كينيا لا يخطر ذلك ببال.. قالت بلانشيت: عفواً، فسأقول كلمةً لزوجي!

تظاهرت بأنها تتبع ادمون الذي مرّ وهو متعلّق برجل عجوز لم تعرفه. صعدت الى سطح الدرج، وبلغت المنزل، بين انغام الجاز، وعبرت الصالونات حيث كان الناس يرقصون، وبرقشة البّزات، والحرارة المفاجئة، والجو الذي لم تكن تتوقعه والذي هو امتدادٌ لأحاديث تريفيلان. قال صوتٌ من خلفها:

- أنا هنا، بلانشيت.

كان يعلم أنها تبحث عنه. واعترف بأنه يعلم ذلك. ونزع قناعه بشعره النحاسي الغريب الذي بدا جلده تحته أشد دكنةً. جلسا في كرسيّين صغيرين متطاولين، وسط الضجيج وحركة الذهاب والإياب. كانت الغرفة عالية مفتوحة من جميع جهاتها، على الحديقة، والصالونات، مع كثيب صغير مركزي عليه أزهار، وتمثال «كويزفوكس» في كوّة. شرع يقول إنه إن كان هنا فلأن «ديان» رَجَتْه أن يأتي، وأن وضعها صعبٌ.. سخرت بلانشيت من الصعوبة التي تلقاها مثل هذه المرأة الجميلة في العثور على مراقص غير اوريليان بسحنته الكئيبة: «كثيراً ماقيل إنك ماتغيبّت إلا لأن حزناً عظيماً ألمّ بكَ...» أهمل الردّ على هذه الجملة. لم يكن بحاجة الى مظهر بلانشيت الخادع. كانت تعلم ما الذي ينتظرهُ منها، حقاً؟ لكنها لم تكن تعلم أكثر مما يعلم سائر الناس...

- وماذا يعلمُ سائرُ الناس؟

- اوه! لا تتظاهر بالسذاجة. فالناس قد تحدثوا عن ذلك كثيراً. صحيح، نسيتُ أنك لاترى أحداً.. قالت لي ماري...

- لماذا تقولين ذلك؟ السيدة دي بيرسيفال من الأشخاص النادرين الذين رأيتهم هذا الشتاء...

ـ حقاً؟ إنما تتعزّيان معاً؟

نظر الى بلانشيت، هذه المتنكّرة، العدوانية،. مرّ كلُّ شيء على هذا الصعيد الاجتماعي. فالعواطف التي يحملانها قد تغطّت بقصاصات الورق المذهبة مثل أشجار الحديقة. تذكّر فجأة أن هذه المرأة أرادت ان تنتحر، منذ زمنٍ غير بعيد، ولم يرها منذ ذلك الوقت. أمسك بيدها.

ـ بلانشيت، ألا يمكننا ان نكون صديقين حميمين؟

سحبت يدها بجفاف:

ـ لا، هذا، لا، ياعزيزي، أبداً لا!

كان شيئاً غريباً. أبسبب هذا الشعر المستعار غير المعقول، أم بسبب المكان؟ لم تعد تُحسّ وهي تنظر إليه بذلك الاضطراب الذي اعترفت بأنها ركضت وراءه، حين تركت تريفيليان. كان بوسعها أن تنظر الى اوريليان دون أن ترتجف. ما الذي جرى فيها؟ لم يبق فيها تجاهه الا بعض الضغينة، بعض الخبث. وقبل لحظة لم تكن تعلم من ذلك شيئاً. وكان لذلك أثرُه غير المألوف.. ولعلها كانت تأسف عليه. فقد فكّرت هي ايضاً بأنها أرادت أن تقتل نفسها منذ زمن غير بعيد..

صاح بهما «كوسي دي بالانت في عبوره وهو يراقص ربّات العناية:

ـ كم يظهر بمظهر الفن حيّ «سان جيرمان»..

هزّ اوريليان كتفيه:

ـ أليس لديك أخبارٌ، أي خبر؟

لم يلفظ الاسم، فاستثارتْه:

ـ أخبار عمّن؟

فتحامل على نفسه:

ـ عن بيرينيس..

وهنا، في هذا العالم غير المعقول، والمزوّر، قرصهما ذلك الاسم المحبوب والمكروه في قلبيهما كليهما ولأسباب مختلفة:

ـ اخبار جديدة.. لا. علمت أنها كانت في مكانٍ ما قرب «فيرنون»؟

علم ذلك نعم. ولقيها، مصادفة. دُهشتْ بلانشيت. لقيها؟ لم تكن تظن أن ذلك يحدث فيها أثراً. الغريب ان فكرة بيرينيس ماتزال تهزّها في حين غدت غير مبالية بحضور اوريليان. وروى لها كيف أنه كان في «جيفيرني» مع بعض الأصدقاء، لزيارة «كلود مونيه»، ولم يجرؤ ان يقول مع السيدة «ملروز»، لباقة منه.. كان بحاجة شديدة الى ان يروي ذلك لأحد الناس. وكان أن وقع ذلك على بلانشيت. أصغت إليه. لم تكن قد شفيتْ تماماً بعد. عندما كان هو عند «مونيه» لم يكن ينتظر هذا اللقاء. لكنها هي، العارفة بالأمر، كانت تنتظر هذا اللقاء في نهاية القصة التي تأتّى في روايتها. كان يقول الحديقة... الأزهار الزرقاء، ذلك الشيخ بعينيه المغشّاتين، وفجأة عند شباك الحديد..

كان شيطان بيرينيس معهما. كان يتحدّث عنها كما لم يتحدث عنها قطّ لأي إنسان. حتى ولا لنفسه. كانت حاضرة، بتنورتها القصيرة البيج وعينيها السوداوين، وشعرها الحرَون. كانت نفحة الاحتفال الذهبية تمرّ عليهما دون أن تُلهيهما. كانا في الطريق الضيقة المتعرّجة، قرب الجسر الصغير على المياه الراكدة، حيث فقد النيلوفر في عيون الناس جماله القديم. وعادت اليه الآن أشياء لم يلاحظها آنذاك، رسمٌ من ا لعساليج على الأرض، حاجز أخضر، وتلك الطريقة في دفع بيرينيس لكتفيها وفي عطف قذالها عندما رأته آتياً نحوها... وماكان أشدّ ارتجاف شفتها، تلك الشفة التي لم ينلْها!

كان شيءٌ يدُمدم في بلانشيت. روح الغضب. لقد حرّك فيها شيئاً شبيهاً بآية «من التوراة». كانت تكره بيرينيس، تلك الفتاة المنافقة. أتقول لاوريليان أن ادمون تلقى رسالةً هذا الصباح من لوسيان تتهلّل سعادة، يُعلن فيها عودة زوجته الى «ر»؟ آه! ليس متصعباً زوْجها ذاك! وهي مع زوجٍ كذلك الزوج، يلعب

دون أدنى جهد! كانت تصغي الى اوريليان، الأناني، اوريليان القاسي القلب. الناس لا يسمعون الا صوت قلوبهم. ستُقسم منذ الآن أنها لن تسمع غير صوت قلبها. وفجأة وبصورة غامضة حزرت ان ليرتيلوا يجهل اسم عشيق بيرينيس، كيف يكون ذلك ممكناً يا الهي؟ فقالت:

ـ ألم تقل لك ماري شيئاً؟ ألا تعلم أنه «ديني» الصغير؟ آه! معذرة، أن آلمتك.. أجل ، هو هذا الفتى الصغير، التافه... لعلك، في الحقيقة،تفضّل ذلك...

نظرت اليه وهو يتألم. ولم تكون له أفضليّات في هذا المجال؟ بول ديني.. ألقت على المجهول اسماً وألقت عليه وجهاً.. سيشرع في تصوّر الأشياء التي امتنع بعناد عن تصوّرها..

رأت بلانشيت فجأة ادمون أمامُها. كانت عينُه عليهما. تبّسمتْ. ولأول مرة، واجهت هذه النظرة دون أن تحسّ انها مذنبة



كل ماكان يطلبه ادمون من الحياة هو ألا يضجر - وكان دائماً موشكاً على الضجر. كان يحرص على المال ولا يحرص عليه. كان يخشى أن يفقد بفقدانه جاهزيّة الغنى العجيبة، وفي الوقت نفسه كان يتساءل لأي شيء، ياترى، يجعله جاهزاً. كان شيءٌ من ذلك في تلك اللعبة الرهيبة التي كان يلعبها مع نفسه حول بلانشيت، شيء من ذلك التناقض: بلانشيت، وأمنها. كان يحب ان يشعل النار، وأن يطفئها حالما يشعلها. كان يطيب له ذلك وكانت لذته في خداع امرأته ناقصة مالم يعلمها بذلك، ودون انتصاره عليها بأن يراها تنصاع، وتقبل بهزيمتها. لكن ذلك كان أدنى أحلام يقظته قيمةً، كان النصيب الأصغر من الإثارة الضرورية، التي استلذّها وكأنها الكوكايين: حتى إنه فقد ميله الى الملاحقة والإغراء، وهو ميلٌ كان يشكل مهاد السنين الأولى من زواجهما. فما أن يكون له، خارج بلانشيت، امرأة حاذقةٌ في قضايا الحب، حتى يفقد جاذبية الفَرفرة السهلة التي كانت له قديما"، ذلك التشتّت غير المجدي. لقد بدأ الضجرُ يدبّ اليه. لايمكن القول إنه تعب من روز ملروز. على العكس كان مسروراً منها، كما يسرّ من تحفة فخمةٍ نشعر كلّ مرة إزاءها انها تخدم كبرياءنا المشروعة.كانت كاملةً حقاً. وكاملة إذ هي غير شابة بالذات. مثل طقم ارتُدي من قبل، أوحقيبة سافرت من قبل مع صاحبها، فهما اصحّ ذوقاً وأوْكدُ لذّة من طقم جاء لتوّه من يدي الخيّاط، أو حقيبة خارجة من عند البائع. والناس الذين لديهم خزانة ثياب عامرة يحتقرون أبداً اولئك الذين يرتدون الملابس الجديدة كلّياً. وهل يمكن فهمي إذا قلتُ إن «روز»، بكمالها ذاته، قد ردّته الى قرب بلانشيت أكثر من أية عشيقةٍ أخرى؟ إن روز وحدها، مهما يكن فخوراً بها، ومهما يكن عظيماً نفوذُ المسرح عليه، تلك الحياة التي ظلّتْ تُقلت منه قليلاً، إن روز وحدها كانت قمينةً بأن تُضجره. ثم إنها كانت ترهقه قليلاً. ولم يكن يزعجة أن يضع في

العلاقة بينهما شيئاً من الفضاء متذرّعاً بـ «ميجيف». وهكذا فقد وجد الوقت الكافي لأن يلاحظ بلانشيت، ان يرصدها كذبابة في شباكها، أن يبتكر أسراراً جديدة هي مركزها ممتزجة بمخاطر جديدة بالنسبة إليه. كانت تشغله. في الحقيقة، كان ذلك ضرباً من الحب، ذلك الضرّب الذي مايزال قادراً عليه، تلك القسوة التي يكنّه لها. كان يلهو بغيرتها، بأن يغذّي ويجسّد تلك الغيرة الظاهرة التناقض. بل إنه كان يقرّ بفضلها لذلك الطبع الجفول والمنغلق الذي لها، لذلك التحفّظ المتشدّد الذي يميّزها عن كثير من النساء. ولولاها أكان يمكن حقاً لروز أن تثير اهتمامه...؟ كانت بلانشيت تسبغ على كل شيء طعم الخطيئة، الخطيئة التي كان إحساسُها بها قوياً جداً، ،كان إحساساً سائغاً لدى ادمون. لأنه بالتحديد لايؤمن بشيء، فلا يستطيع ان يجد في ذاته مذاقه الغريب. لم يكنْ مالُ بلانشيت وحده مفتاح ذلك العالم الراقي، مملكة الروح، التي يُحرم منها الفقراءُ: ان بلانشيت نفسها التي مارس عليها روحَ الدقّة، تلذّذه البسيكولوجي، كانت مصدراً للذّات لاتوفّرها روز. ولولا قليل، لجعلته يُدرك الله، والدين... لقد كانت رحلة الشتاء مليئة عنده بمسرات فريدة: في الحقيقة، لقد نظر نظرة حسنة الى محاولة بلانشيت الانتحار، وإن لم يعترف بذلك، إذا أنها أسبغت على علاقاتهما معنىً وأريجاً. لقد بدأ يلعب لعبة احترام زوجية بعد هذا الحادث الرهيب، ويداري مراحل نقاهتها العاطفية، وهكذا كان يضطهدها لفرط لباقته وأي فنّ افتنّه ليردّ الى وجدان بلانشيت ظلّ اوريليان، دون أن يلفظ اسمه. لقد انحنى فوق تلك النفس المضطربة وكأنه منحنٍ على تمثال عَرْض الملابس، وأي غذاء لطيف كان يُعدّه لأسماك العتمة! كان يترصّد خوَرَها، ولايثيره. وكان لديه الوقتُ الكافي. كانت لكل كلمة يقولها براءة التورية، ولم يكن سعيداً قط إلا عندما تفطن زوجته لتلك التورية، مع شيء من التأخر. وكان يزيد تدريجياً مقادير تلميحاته. دون استعجال. كان يجر تلك التعسة الى غابةٍ معتمة تبدو لأول وهلة ذات خضرة نديّة مهدّئة... دون استعجال. بل لقد مدّد عطلته ولم ينتبهْ

الضجرُ فيها ثانية واحدة. حتى ولا في ذلك اللقاء مع كارلوتا على الساحل الذي أضاف الى الموضوع الرئيسي لانحرافه فتورَ الأسف العذبِ، وأناقة الذكرى.. لا. ولا سيّما أنه كان مستريحاً حقاً، لبضعة أسابيع، من كل لذةٍ غير لذة الروح.

وعند عودته الى باريس، وفضلا عن لهوه بلقاء روز، وبمؤسسة ملروز ومتفرّعاتها المسلّية، فقد هيّأ طويلاً ذلك اللقاء بين بلانشيت واوريليان. كان كل شيء ينتظم انتظاماً رائعاً الى حدّ إلغاء بيرينيس التي لعبت دورها والتي صارت تشوّش اللعبة. وكان ادمون قد التقى اوريليان لكنه تحاشى تسريع ذلك اللقاء المحتوم الذي انتظره. كان فيه شيءٌ ربّاني: تلك الطريقة في التصرف بأقدار الآخرين. لقد حددّ مسبقاً الحفلة الراقصة عند الدوق «دي فالموندوا» وكأنها استحقاقٌ محسوم. وأي ديكور يختا ر أكثر صنعة وأقدر على أن يروع الخيال من ديكور جنون فالموندوا، المزدان بألوان الذهب؟ وكان ادمون يحب سراً أن يرى في الذهب رمزاً تمتزج فيه بلانشيت والثروة، والجرأة على أن يغامر معها بثروتها الخاصة.. الخ.. ونحن نجد في التنكّر الذي اثاره للسيدة «باربنتان» مايدل على تطويرات لانهاية لها التذّ بها أسابيع طوالاً. ابتكر لها أن تتنكر في هيئة «دانايي» واعتنى عناية غير عادية بذلك الفتسان الذي حرص على أن توصي عليه لدى «شانيل»، والذي بصدده حادث الخياطة الراقية طويلاً، وأشرف على تجريباته بهوىً مدهش. كان يعرف بلانشيت معرفة رائعة ويعلم أكثر من أي شخص ما يناسبها ومالايناسبها. وكان يستمتع استمتاعاً عظيماً بقدرته على أن يفعل، دون علم بلانشيت ولا الخيّاطة، مامن شأنه ان يجعل الفستانُ المفضّل من امرأته بسبب جزئيّة صغيرة، كائناً لاسحر فيه، أو الجمال الخالص تقريبا. وكان يُستشار بصدد ذلك قليلاً، فيرُمق بتعليماته الخياطة، مُلقياً الاضطراب في قلب بلانشيت التي كانت تتساءل من أين ولماذا هذا الاهتمام المدُقق. ويتظاهر في عيني نفسه بالتردد في معرفة إن كان بهذا الفتسان سيدمّر نهائياً حظ بلانشيت مع اوريليان، أو سيساعده على العكس... وكانت بلانشيت تغدو عصبيّة من جراء ذلك، وتفضل كثيراً كعادتها أن تعهد

بأمرها الى «شانيل» نفسه، ولاسيما أن هذه السهرة المذهبة لاتكاد تكون عندها سوى همّ اجتماعي، وأمسية كان يمكن ان تستغني عنها بكل طيب خاطر.

ومع ذلك فكم كانت عظيمةً مكافأتها عن أتعابها، وعلى نحو غير متوقع هذا المساء، عندما دخلت لتُري آدريان ارنو نفسها، كما رجاها أن تفعل. لاشك أنها كانت تعلم أن ذلك لمصلحتها، وتقدّر تقديراً صحيحاً من أين يمكن ان يأتي إصرار ادمون في أن يجعلها في هذا اللباس كذلك.

فهي لم تعهد فيه هذا التفاخر بما هو شائع في المجتمع الراقي. وهل لقي فجاةً مايُرضي غروره حين يُستقبلان في منزل «فالموندوا»،؟ أكان يشتهي أن تظهر امرأته في مجلة «فوغ» وأن تُذكرَ زينتُها؟ كان ذلك بعيداً عن ادمون.. لكن عندما تلقّاها ادريان بذلك الانذهال، غير المتصنّع، التلقائي... نسيت ادمون، والمخاوف التي غذّتها في نفسها من لعبةٍ شيطانية وراء هذا الاهتمام المفاجىء بفساتينها. أحست أنها توردّت تحت المساحيق، من جراء ذلك. وفقدت رغبتها في الذهاب الى أمسية «فالموندوا». وكان بودها لو ظلّتْ عند رأس ادريان، بفستانها الجميل، ونُثارها الذهبي، وأحجارها المتعددّة الألوان.

لن يعلم أحدٌ أن بلانشيت في هذه اللحظة التي تُمثّل فيها «دانايي»، هي، في آن واحدٍ، لزوجها ولأدريان هذا الذي تنهشه مطامحُه وإن كان قد علِقَ في رغباته، وهي صورة الُدوار بعينها.انها في هذه الدقيقة تملك، في الحقيقة، كلَّ ماتشتهيه امرأةٌ من هذين الرجلين: الإعجابَ الخالص. لن يدوم ذلك دون شك. لكنها في هذه الدقيقة محبوبةٌ لذاتها. هذه هي ذروة حياتها كامرأة . إنها لاتعلم شيئاً عن ذلك، لا أحد يعلم شيئاً عنه. الغريب أنه كان لابد لهذا الفتسان من أجل ذلك؛ هذا الفتسان الذي قدّم لهذين الرجلين الجشعين صورة الغنى المادّية التي ينتشيان بها، فجعل من المرأة التي ترتديه امرأة تثير اضطرابهما، جعلها بكلمة واحدة، امرأة لأول مرة، وربما لآخر مرة.

عندما لّفها ادمون بمعطفها، راودته نفسه لحظةً أن يقول لها. «لنبقَ وتبّاً للحفلة!...» وقد ارتعشت من الطريقة التي بها ضمَّ ذراعيه. أخافها هذا المساء

ماذا وراء قناع هذا الاهتمام؟ لكنْ باربنتان كان يعلم حقّ العلم أن الامتناع عن المرأة عند اشتهائها ألذّ من امتلاكها وهي في متناول اليد. ولن يُفسد هذه الأمسية بأي شكلٍ كان، لقد هيّأ كلّ شيء. ألم يُقنعْ «ديان دي نوتنكور» أن المواضعات الاجتماعية تقضي أن يتم دخولها لدى عشيق السيدة «شلزر» متأبطة ذراع الذي كان صديقه على الملأ؟ أولم ينصح اوريليان مفضّلاً إياه على ويسنر، مثلاً.. نسيتُ أن أقول كيف تنكرّ ادمون باربنتان. كان يرتدي ثياباً فينيسيّة مع دثار مخصّر خالٍ من الحشمة؛ لأنه لم يكن يفخر بساقيه وحدهما. والكل مذهّبٌ، طبعاً. لكن المثير في الأمر هو أنه صبغ وجهه ويديه باللون البرونزي حتى بدا كالزنجي، ووضع شعراً جعداً. كان «عطيل»، وهو ما لايستطيع أحدٌ سواه أن يُدرك مذاقه.

وهكذا ألفى نفسه يُفاجيء بلانشيت واوريليان في غمرة الرقص، تحت كوة «كويزفوكس». وفي مدى لحظة ظهرا له جدّ منهمكين بنفسيهما حتى أنهما لم يرياه، حيث كان، وحيث لم يستطع في دوّامة رقص الراقصين، وجنون النساء وضحكهن، وجلبة «الجاز»، أن يسمع ما كانا يقولانه. وودّ لو يخلّد هذه اللحظة لكي لاتضيع لُوينةٌ صغيرة من لوينات عواطفه. عواطفه الشكسبيرية تماماً. لكن بلانشيت رفعت عينيها.

حينئذٍ حدث الشيءُ غير المتوقع والذي هزّه هزّاً: بدلاً من أن تشحب ابتسمت. لقد فشلّ ذلك جميع خطط ادمون وحساباته. نظرت الى زوجها بهدوء وابتسمت. لعله قد تجاوز الحدّ حين برقش نفسه بهذه الألوان، ولعل الزنجي هو الذي اضحك بلانشيت؟ لا، لا، لقد شعر شعوراً غامضاً أن عاملا بسيكولوجياً لم يحسب حسابه قد دخل في الموضوع. وحينئذٍ خفق قلبُه حقاً.

بيد أن وجه اوريليان، الغائب، الذي كان فريسة لفوضى الأفكار قد طمأنه. وتحرك قليلاً الشعرُ المستعار بنُجارته قليلاً، كشعر أولئك القضاة الانكليز المائل جانبيا والكاشف عن الطبيعة تحت كرامة المنصب. لم يكن مظهر

ادمون مظهر الرجل المنتصر ولا مظهر الرجل الموفورالحظ. وقد تزوّد ادمون من ذلك، عند التفكير، موضوعاً جديداً للقلق. لقد نوى أن يتقدّم نحو العاشقين المفترضين، على نحو مسرحي، وأن يمثل مشهداً، قدّر فيه الردود مسبقاً، بلهجة مرحة، متجردّة، مع شيء يسير من الإثارة.. لكنه امتنع عن ذلك أمام ابتسامة بلانشيت.. ومن بعيد، رَصَدهما ونظر إليهما وقد بدا انفكاكهما احدهما عن الآخر. وحار على أيهما يركز انتباهه. ورأى أن اوريليان يطفو على سطح هذا الاحتفال كالحُطام، كرجلٍ لايدري ما يفعل. والظاهر ان بلانشيت قد فقدت اهتمامها به. هل في ذلك حيلةٌ؟ استخدم ادمون كلَّ مهارته ليتحاشى امرأته. لم يشأ ان يجابهها بعد هذه الابتسامة رأساً، وأخيراً بدا له أن بلانشيت تريد أن تصل إليه. وكان يعرفها ويعلم أنها شبعت من هذه الحفلة الراقصة، وأنها ستطلب منه العودةَ الى البيت. فتهرّب منها ودعا الى الرقص «ديان دي نتنكور» في اللحظة ذاتها التي وصلت الى قربه. وإذا لم يستطع أن يعذّبها على نحوٍ آخر، فَلْيعذّبْها على الأقل بهذه الليلة الطويلة، بالانتظار، بالنعاس، بالضجر القاتل الذي يعلم أنه يصيبُها. كان ينتقم دون أن يعلم من أي شيء ينتقم. استمرّ ذلك حتى الرابعة صباحاً. ورآها تُعييها الحيلةُ فتراقص «تريفيليان»، وتحادث «كوسي دي بالانت»، وجاك شلزر. أبلغ بها المللُ أن جاءت تحدّث هذا! أشفق عليها، فاقبل عليها يُنقذها.

لن ترفضي لي هذه الرقصة، ياصديقتي العزيزة؟

رفعتْ إليه عينين متوسّلتين: «اوه، ادمون. أرجوك... لم أعد أستطيع الوقوف!» لكنه أصرّ: «ولو مرّة واحدة، حقاً، ياعزيزتي...»

قال ذلك بلهجة ملاطفة من زوج محبّ. لاحظ شلزر ذلك، وتراجع خطوةً بتحفظ كاذب. وضعت يدها على كتف ادمون وتركته يجرّها. كانت الاوركستر الجديدة تعزف موسيقا الجاز البطيئة. والعجب أنها كانت ستعطي كل ماتملك، في أوقات أخرى، من أجل رقصةٍ كهذه الرقصة، مع إصرار ادمون ورقّته. لكنها

كانت تحسّ في هذه اللحظة بشيء مثير للشك ومخيف. وضمّها إليها وهو يمرّ في فتحة الباب. رفعت عينيها الى وجهه وارتعبت تماماً. ذلك الزنجي المسرحي الذيٰ كان يشبه ادمون. انحنى عليها وهمس في أذنها: «أتريدين العودة حقّاً؟...» بطريقةٍ خافت معها أن تجيب: «أنا منهكةٌ...»

قادها الى البيت. وفي الليلة التي حولتها المصابيح الى نهار والتي كانت الأشجار المذهبة والرمل فيها لاتخلو من كابوس الأحلام، بدأت زحمةُ المدعوين تنجاب، وهُرع الخدمُ الى فتح أبواب السيارات التي تودي عليها. وتردّد الاسمُ بعيداً: بارينتان... بارينتان... مثل صدى اليوم الأخير. وجاءت سيارة «الوسنر» الكبيرة لتصفّ أمام مطلع الدرج. فدلفا إليها. اوصى ادمون السائق بالإسراع عند الخروج من الحديقة: يقال إن ناساً قفزوا قبل قليل على مرقاة سيارةٍ ومزّقوا فستان السيدة «رينو» البيروفيّة الثريّة.

رأيا، لدى مرورهما، وجوهاً ملّوحة لجمهور لم يستطع ان يعزم على الذهاب لينامُ لفرط ماكانت «الفولي» تتوهج بديكورها المذهّب. وبلغا دون عائق الطريق المظلّلة، الذاهبة الى نانتير. همست بلانشيت: «أيوجدُ حقاً كلُّ هذا الشقاء من حولنا؟»

قالت ذلك بخاصة لتقطع الصمت المشغوف الذي اقامه ادمون حولها، ولتبعد بعض الأفكار التي أحسّت بوطأتها. أجاب:

«لا أدري، كنتِ شهيّةً هذا المساء..»

مرّر ذراعه حولها، فارتجفت من رأسها الى قدميها. وقد راودها النعاسُ أيضاً بشدة. لماذا خاطبها بضمير الجمع، هذه الليلة، مع أنه كان يخاطبها دائماً بضمير المفرد؟ بدا كأنه قد نسي وجهه المسودّ الذي قرّبه منها. إن هذا الدهان المضحك، والدقة ا لمفرطة في حركاته. كلّ ذلك جعل تلك العودة بغيضة على بلانشيت: «ارجوك...»

سارع قليلا الى الانصياع، حتى لا تفهم أن الأمر لم يكن سوى امر مؤجل، وعندما بلغا شارع رينوار وعندما لحق بها ادمون خلسة الى صالة الحمام التي تفصل بين غرفتيهيما، وجذبها ليضمّها بين ذراعيه، أصيبت بذعرٍ حقيقي. فمنذ زمن بعيد، لم يطلب منها شيئاً، وتخبّطت تخبّطاً ضعيفاً.قال: «ألستُ زوجَكِ؟»

بدا مطلعُ الصبح في النوافذ، وكان لهذا الرجل المصبوغ، وهو في مباذله، شيء مضحك ومشؤوم. وعلى كرسيٍّ، كان فستان «دانايي» الواقع مع نثاره الذهبي يبدو كالميتة. وكانت حنفيةُ الماء الساخن تسيل برفقٍ في حوض الحمام المرمري الأسود. ماذا جرى فيه؟ كان ادمون يشتهي امرأته بضربٍ من الوحشيّة. وعندما سقط ضياءُ الفجر الشاحبُ على وجه بلانشيت وأظهرها محلولة الثياب، وبشعة تقريباً، لم يغير ذلك من الأمر شيئاً. على العكس.



ـ ٧٢ ـ

منذ أربعة أشهر واوريليان يسير على غير هدى. كانت سفينة القديس لويس تبدو كأنها محمولة على تيار الديمومة، دون هدف، دون سبب خارجي، جانحة على جميع أرصفة الرمل لتنطلق من جديد بين زوابع الذاكرة. أيهما كان أشقّ على اوريليان، الغياب الفيزيائي أم الحضور الخيالي اللذان كانا يختلطان؟ لم يكن يستطيع ان يقول أيهما ، كما أن الغريق لايملك ا لخيار بين الماء والطحالب. ومَنْ لم يكن فريسة لهاجس «مُحاصر» لن يفهم اوريليان، ولا مرضَ اوريليان. ولذلك فإن اوريليان لم يفهمه وإنما عاناه. وبدا له أنه عقاب عوقب به على خطيئة لم يدركها ولم تترك أثراً وكان يعذب نفسه باستخلاص العظة الأخلاقية ممالا يحتوي عظة. كان يود بأي ثمن ان تتمّ اللعبةُ على المستوى الاخلاقي ليتمكن من القول وهو مرتاح: حَسُنَ ذلك فعلاً..! وحينئذ سوف يستمدّ من ذلك، في زعمه، السكينة. فما أن اختفت بيرينيس حتى فتح ملفّ حياته كلّه. ومن أين جاءته هذه السلبيّةُ، هذا النقصُ في الجرأة، إن لم يكن من شعور غامض بأن ماعرضه على بيرينيس لم يكن جديراً بها؟ وكان عليه، إن لم يشأ ان يرهق نفسه، أن يبدّد عضّة الظلم هذه التي يحسّها في قلبه، بأيّ ثمن. كان يحاول ألا يتألم. وكان مقتنعاً ان ذلك سيكون سهلاً. سيكون سهلاً أن يفكرّ في شيء آخر، سهلاً ان يرفض الالم. كما أنه كان سهلاً الامتناعُ عن الحب. هكذا كانت محاكمتُه ليعثرعلى مالا يُطاق في نهاية محاكمته.

لقد قبل هزيمته دفعةً واحدةً، وهذا مالم يصدّقه هو نفسه. كان موقناً أنه فقد بيرينيس الى الابد. والأمرُ بالنسبة الى المرأة كالأمر بالنسبة الى الوطن: فقدانه اندهاش. والمرءُ الذي قاس أعماق القدر هذه قد يموت، لكن فَلْيعشْ بعد ذلك. إنه لن يكون هونفسه. نرى بعضهم فريسةً لضلالات غريبة، والبعض الآخر تصرعه العاصفة مثل حبّة لن يُتاح لها النهوض. اولئك وهؤلاء ينتظرون شمساً لن تطلع. من أين جاءَ اوريليان ذلك الدفءُ الضروريُّ، ذلك الإشعاعُ؟ لم يكن

يؤمنُ بالله، وكـان منعزلاً عن الناس. ولم يكن يتماسك إلا على هذا الطوْف الهشّ، والشقة، والدخل الضئيل، والبطالة. ولو وجب عليه أن يقاتل الحياةَ فربما سلك طريق بيرينيس، أو، إن لم يفعل ذلك، فربما نسي بيرينيس. لكنه ظلَّ في هذه الحياة التي لاعائق فيها، يصارع ظلاً ولاشيء سوى الظل. وكانت اللوحةُ، وقناع الجبس المرآتين ا لدائمتين لذلك الدخان. وليس شيئاً تافهاً أن اله اليهود حرَّم الصور المنحوتة. ففي نقل تقاطيع الكائن ذي الجسد عملية من عمليات السحر. على الأقل لمن لايمسك الخيطَ الهادي. كان اوريليان ضحيّة سحرٍ مزدوج.

الوطن الضائع... المهزومُ عشية هزيمته يتساءل ماجدوى أي مجهودٍ بعد الآن. لماذا ولمن يعمل، ومامعنى التضحية بقوته، وهو يخشى ألا يكون سوى ألعوبة في يد الغالب، يخشى أن يرى نفسه وقد سُلبَ قوّته كما سُلبَ أرضه. يرى نفسه وقد انحطَّ الى مستوى الدوابّ، لكن اوريليان... لم يعمل قطّ، ولم يُطلب منه شيءٌ فوق ذلك قطعاً لكل حساب عن فشله، ليس له سوى صحرائه اولاً وأخيراً. أيبحث عن التعب غير المثمر، عن عرق الألعاب. عن النوم المريح الذي توفّره الرياضة؟ كان يغرق في الشعور بالجبُن. كان فراغُ حياته يبدو له في كل لحظة هائلاً. ماذا، هل ينبغي له ان يتميّز عن سائر الناس بحظ بائس، حقير الى هذا الحد، ويقبل به؟ ويعثر من جديد، وقد توارت بيرينيس، على الجراح الدفينة التي قنّعتها. لقد غطّى الحبُّ، لبضعة أسابيع، بضعة أسابيع فقط، هذا الخجل المتصاعد فيه. وأراد أن يرى في هذا الخجل حالةً من الإمهال والجاهزيّه للحب الذي سيكون والذي كان. لكنه اليوم، في وحشته، كان يتّهم نفسه أبشع اتهام بأنه استخدم ذلك الخجل كعذر حقير لما لاعذر له. أليست دناءته في الحياة هي التي جعلته دنيئاً في الحب؟ لا أهمية لأن تكون بيرينيس قد وعَتْ أو لم تَعِ هذه الدناءة. وهي لم ترحل عنه ولم تيأسْ منه بسبب سيمون. فوراء الأحداث التافهة، والكلمات المقولة، حكمٌ أعظم خطراً. لقد مرّ اوريليان أمام محكمةٍ غير مرئية. لقد حُكمَ عليه، وغُلبَ. وكيف لا يفهم أنه حتى لو حدث

المستحيل وأدرك بيرينيس وطيّب خاطرها، واستأنف حبهما وأعاده الى سابق عهده، فلن يكون ذلك بعد الآن سوى إصلاح رديء له؟ لقد قالت له بيرينيس إنها لاتُطيق شيئاً مكسوراً أو مشعوراً أو مثلّماً، وأن ذلك لايُحتمل عندها، مثل اللوم الذي لانهاية له. آه، هل يُرتَقُ الحبُّ؟ لقد رفعا حبّهما عالياً جداً، وافتخرا كلاهما بهذا الحب افتخاراً قوياً، بحيث أنهما لن يقبلا أن تستمرّ حياتُه بضروب التنازل والنسيان، بالاسترخاص. ذلك مثل رسم امرأة قادمة، الخط فيه واضح، ثم ينشّ فجأة، إذا ارتجفت اليدُ. ولايبقى سوى تمزيق الرسم. وإذا ما صُحِّح فلن يكون هو نفسه، ولن يكون شيئاً. كان اوريليان يسمع في أعماقه، وهو يفكرّ في ذلك، صوتاً غامضاً يقول أنه يمكنه أن يتدبّر الأمر بذلك الحطام الحيّ؛ ربما هو... أما هي بيرينيس فلشدّ ما قرأ في عينيها ذلك الدوار فيها الى المطلق، ولن تقبل أبداً أن تخفض من مطالبها من أجل سعادةٍ مخجلة، على افتراض أنه هو مايزال على ضعفه، وإنسانيته إزاءهما، فليس فيها ذرةٌ من روح التنازل. وفي بعض الأحيان، كان اوريليان يثور. كان يريد أن يكون سعيداً، ولايُسلِّم بأن تكون ممتنعةً عليه. كان ينسى أنه مهزوم، ليبني خططاً غير معقولة، ومشاريع جسورة، ثم يتغلّب عليه الشعورُ بهزيمته. وحينئذ يبدو له أن العقل كله يكمن في ان يقتنع بذلك، أن يتشرّبه. وأن يحاول التأقلم مع هذه الهزيمة، أن يمتثل لها، وأن يؤول بحياته وأفكاره الى إطار هذا الواقع، وألا ينساه لحظةً واحدة. وعليه ان يقيس مطامحه ونشاطه، بمذلّته. أن يعيد تكوين حياته تبعاً لهذه المذلّة ذاتها، ومَنْ يدري؟ فلعله إذا عرف حدودها استطاع ان يكوّن لنفسه، وفي نظر نفسه، كرامةً، وأن يعيد بناء وجودٍ مقبول. وعليه قبل كل شيء، طردّ صورة بيرينيس.. كان القول أسهل من الفعل، وعاد القناع واللوحة الى الجدار بعد يومين من إنزالهما. كان مثل شعبٍ أراد أن يتنكّر لأبطاله؛ إنهم ينبعثون في كل مناسبة، وتغدو التماثيل أشباحاً.

كان اوريليان يتردّد بين عَزْم وعَزْم، ويغرق من هاوية الى هاوية. فكرّ في أنْ يفعل شيئاً ما، أي شيء، أن يُلقي بنفسه في مهنةٍ من المهن. وكانت أحلام

يقظته تدفعه الى إيثار أشدّ المهن شاعريةً، مهنة في الهواء الطلق، مكسّر أحجار، سائق شاحنة، بل لقد فكر في العمل في الأرض. ولم يكن ذلك كله، بعد كل حساب، سوى خيالٍ مفتنّ. كان يقبض دخله، ويذهب الى المطعم والسينما، وينتظر بغموض أن يهدأ ألمُه. ولم يكن أمامه أيّ انقلابٍ يؤمّله في قدره، ولا أي منظور مستقبلي. كان كل شيء يعيده الى بيرينيس حتى أبعد قراءاته. فقد شُغف مثلاً لبعض الوقت بالتهام بلزاك. «المعكرِّةُ» فرضتْ عليه صورة مهلوسة لأنصاف المرتّبات. وأخذ يفكّر في أنه من ذوي أنصاف المرتّبات في الحب. هذا التفكك الرهيب للجندي النابوليوني كان يبدو له إيذاناً بمصيره. كان كل شيء صالحاً لأن يجد فيه نفسه، لأن يفقد شجاعته. لكن لم يكن شيء أقوى من بيرينيس من أجل ذلك. تلك ا لمرأة القصيرة، التافهة، بشعرها الأشقر الذي لاملاحةَ فيه ووجهها المقرّن، وعينيها الزائغتين والسوداوين. كان يراها دائماً على طريق «جيفرني» في صورتها الأخيرة، بتنّورتها البيج التي كان ينقصها في جانب منها، زرّ كبّاس، وببلوزتها البيضاء بكميها ا لقصيرين اللذين ظهرا مثل منقارين في منتصف الذراع... وكيف كان ذهابها وهي تتظاهر بأنها لاتركض، مقتلعة أعشاباً من التلعة، وهي حانية قذالها، رافعة كتفيها. هذه اللحظة كانت هزيمته، قبول هزيمته. من أجل أن يكابد ذلك إنما تخلّص من مخاطر الحرب في «فوكوا»، «فردان» سالونيك.. وفرّه الموتُ كي يُعَدَّ لما هو أسوأ من شظية قنبلة. كي يُعَدَّ لاحتقاره لنفسه.

لم تُغيّرْ شيئاً المحوّلاتُ التي أراد ان تُلهيه عما هو فيه، لا القراءةُ ولا الكحول ولا الوحدة. وعندما طلبت منه «ديان» أن يرافقها الى حفلة «فالموندوا» ضحك ساخراً. كان في طلبها شيءٌ غير معقول، ثم قال في نفسه: «إن ذلك يُمضي الوقت. سوف يثمل بما هو مضحك في الحفلات الاجتماعية الراقية. مَنْ سيلقي في «لوفيسيين»؟ وعليه أن يتنكّر. الحقيقة أن التنكّر هو الذي حداه الى مرافقة «ديان» قصّة قمرية. ناسٌ أنهوا نموّهم وصار لهم منذ بعض الوقت غددٌ يستخدمونها، وارتدوا فجأة ذات ليلة ماشاؤوا من اللباس، المذهب الحواشي ويا

للعجب! ينبغي ان يكون بين هؤلاء الناس ولو من أجل المرارة وحدها . وعندما يحتقر المرء نفسه، يعثر على عظمته في أقصى دناءته. إن الحفلة الراقصة لدى «فالموندا» أتاحت لاوريليان الفرصة التي يحسّ فيها أنه فوق الآخرين بالشعور الذي يمكله عن لاشعورهم. أيّ إنسان يمكنه أن يتجرّد من هذا الارتياح، وبخاصة إذا كان غارقاً في الشك والخجل؟ ويمكنه أن يذهب الى دور الدعارة بهذا الشعور ذاته. ولقد فكّر في ذلك على كل حال. فطلب ان يُعمَل له شعرٌ مستعار بنُجارة النحاس بناء على تعليمات ديان التي كان ذهنها مايزال ذهن تنانير ماقبل الحرب، مع قليل من الميل الى الزخرفة.

لقد قيل من قبل إن اوريليان لايمكن أن يهرب من بيرينيس، وهي التي لقيها في بلانشيت، ومنذ هذه الدقيقة لم يبق من أهمية للديكور والضوضاء والاحتفال والناس! وبما أنه لايُغذي أي أمل، فماذا كان يطلب وهو يُسائل السيدة باربنتان؟ لم يكن بوسعه أن يقول ماذا، لكن بالتأكيد لم يكن يبحث عما وجده. لأنه أفلح منذ «جيفيرني» في ان يستبعد من ذهنه باستمرار ظلَّ الظلّ. المجهول الذي بلغ به الأمر عدمَ الإيمان به تقريباً. ولعل بيرينيس، بعد كل شيء قد اخترعت هذه الشخصية الخياليّة لتخلق بينهما مالا سبيل الى إصلاحه، لتخلق الهوّة. لقد كذبت وتأكد من كذبها. على كل حال. ان ذلك الحبيب المجرّد، ذلك الكائن بلا وجه لم يضف أية صورة جارحة لهرب بيرينيس، لاشيء لم يتلّخص في هذا الزوج المشاهد، لوسيان المقطوع الذراع. لم يكن له عمرٌ كما لم يكن له وجهٌ. كان اوريليان ينكره عمداً.

وفجأة، وفي ايقاع موسيقا الجاز، تجسّد ذلك الشبحُ ورآه آخرون، ولم يعد كما كان من قبل حركة شفتي بيرينيس المرتجفتين. صار له اسمٌ وهيئة، تعرّفه اوريليان ورآه ينبعث من ذاكرته «بول ديني» هذا الفتى الشاحب الهزيل.. رآه اوريليان بعين الخيال حين لقيه في بيت ماري، في ذلك المساء الذي ألقت فيه «روز» شعر رامبو، ويداه متشنجّتان على كأسه، ووجهه ممتقع من الكره... ورأي بيرينيس قرب بول على البيان.. وتذكر غيرته يوم أن كانت بيرينيس وبول

عند بيكاسو معاً.. كم كان لهذه القصة من جذورٍ بعيدة، كم سطعت ازدواجية بيرينيس... كان يتألم بشراسة من أن يكون هذا الصبيّ القذر هو الذي ظهر له في ضوء بيرينيس، على آثار بيرينيس. وكان اوريليان جديراً بأن يبذل كلَّ مايملك ليكون ذلك الشخص كائناً من كان ماعدا بول ديني. كلُّ الناس بدوا له أفضل منه. زامورا، ديكور، بليز العجوز. وكان يستحضر أية هيئة بشرية فيجدها أكثر احتمالاً من هذا الصبي،، وأسهل هضماً. كان جديراً بأن يقبل أن تكون بيرينيس فريسةً لأي وحشٍ، لأي نخّاسٍ، لأي شخص دموي عات، لأي رجلٍ من مقاطعته، لأي مسافر لقيها في قطار، لأي عشيق بالمصادفة. أما بول ديني...

لقد امتحن بول ديني كبرياء اوريليان شرّ امتحان قُدِّر له أن يكابده. غيّر العالمُ لونه. كان الراقصون،بلانشيت ، ادمون، الناس في الاحتفال، كانوا الآن ظلالاً، وخلف هذه الظلال رؤية أشد قوةً من واقعهم المزيّف. بيرينيس المرتبطة الى الأبد بهذا الصبّي الذي يضمّها بين ذراعيه، هذا الصبّي الذي عاد فمُه السميكُ والغريب، الشديد الحركة، الى عيني اوريليان مرسوماً كرسم الأشياء الذي لا يعتوره الخطأ والذي نعتقد اننا لم نره قط.. لم تكن بلانشيت هنا. كان الناس يكلّمونه فيجيب بكلمات شاردة جعلهم يتفرّسونه بدهشة. وقد أنهى هذه الليلة مع «تريفيلان» الذي روى له قصصاً من كينيا. وحكايات عن أعوام اوسكار وايلد الأخيرة. لماذا مايزال يجرّ نفسه حتى الفجر مع هذا المروّض الأنجلو سكسوني الذي كشف النورُ الطالع على صدره المنتوف لدغات حشرات صغيرة، او ندوب مقصات أظافر؟ خُيِّل إليه أنه ينتظر ديان التي اختفتْ منذ زمن طويل مع جاك شلزر. ولم يكن حريصاً على ذلك. وقال في نفسه إن القضية قضيّة ملاطفة لها. وكان بعضُ الناس ينامون على أثاث الصالون الوردي، وكانت الشموع تدخن في شمعداناتها تحت ثريات الكريستال الكهربائية. وكان الخدم يمرّون بين المقاعد، يجمعون الأقداح والصحون. وفي الخارج سُمع صراخ القطار والديكة، وفرار آخر السيارات. اقترب «فالموندوا»،

كرب منزل لايُدهشه شيءٌ، من تريفيلان وأمسك بذقنه بدالّةٍ غريبة:

- أتريد مزيداً من الشمبانيا، ياعزيزي هوغ؟

كان اوريليان قد سمع الناس يتكلمون عن شباب الدوق، لكنه نسي ذلك. سمع أنه كان يصيد الفيلة في مكان ما؛ بدت محسوسةً عند الفجر الثمانيةُ والاربعون عاماً لتريفيلان، وكانت شبهةُ ذراعيه العاريتين تضفي على ذلك كله بشاعةً خاصة.

تملّص اوريليان، ووجد سيارته في أدنى الحديقة. طلع النهار تماماً، وكانت الأوراق الذهبية تلمع على الأشجار لمعاناً كريهاً.

خرج من هذا العالم كما يخرج من متجر حلويات. كانت الشاحنات على الطريق تمضي الى باريس، سُمعتْ صافرةُ معملٍ، ووطءُ رجالٍ بثياب العمل أبعد قليلاً. استعاد كلُّ شيءٍ مكانه، وسرعته، وحنينه الى وضح النهار. كان اوريليان متهالكا من التعب، وراء مقوده، يخلط بين مجموعات صور الذكريات وهذا الدرب المغبر. كاد يدهس امرأة. لم يحافظ على يقظته الاّ بشقٍّ النفس.



امتلأت باريس من جديد بالبحارة الامريكيين. ففي هذه الأمسيات الجميلة من أواخر أيار التي دهش الناسُ من عذوبة الليل وشدّته فيها، الليل الذي يدأ متأخّراً، كانت البزاتُ البيضاء تُشيع حمّى رشيقةً ومرحة. وبدا أن هؤلاء الشبان يحلّون في جميع طوابق المدينة، وكانت جماعاتهم تفترق وتتلاقى مثل مدرسة في العطلة، كما بدا عليهم أنهم يعرفون بعضهم بعضاً فيتلاقون وهم يضحكون ضحكات جنونية. كانوا يزورون لعبة عظيمة. وكان منهم مَنْ يُرى وحيداً، سكران في معظم الأحيان. وضاقت بهم المقاهي في «مونبارناس» وفي «مونمارتر» حيث بلغ الأمرُ غايته بوجود الاحتفال، بأراجيحه الكبيرة البخارية، والخيول الخشبية، وأماكن الرمي. كانوا ينبسلون على الطرق المرصوفة الباريسية. كما ينسلون على ظهر سفينة كبيرة نُظّفت تنظيفاً رائعاً. بُخطاً مرنةٍ، خرساء، مثنّية. كانوا يغنون طوال الليل ويصرخون بكل قواهم في الشوارع السوداء.كم كان عددهم؟ لم يكونوا بهذه الكثرة. كان عددهم بحيث يحسّ الباريسون أنهم ليسوا في بيوتهم.

« لم تكن هنا عندما جاؤوا في ١٨؟ صحيح، كنتَ في سالونيك... حسنٌ، كانوا هكذا!»

كانت يد «كوسي دي بالانت» تشيرُ لأوريليان على زمرةٍ من البحارة البيض الذي اقتحموا لعبة الخيول الخشبية وهي في أقصى دورانها.

- تصوّر! إني ما أزال أراهم قرب «شاتو تييري».. كنا خارجين من البلدة، يكفي أن أقول لك ذلك... وطبعاً كنا في غاية الهدوء عند التبديل. كنا ننسحب على رؤوس أصابعنا.. وفي غضون ذلك سمعنا ضجة هائلة.. كانت غناء وصراخاً، وكأن ثمة قدوراً تتحرك، وتجديفاً... ثم إذا بالغلايين! صرخنا بهم: غلايينكم! اه! لم يكونوا يعلمون عمّ نتحدّث كانوا يمزحون ويقولون لنا: عاشت فرنسا! لم يدمْ ذلك. وما أعجب ذلك التبديل! وكم تحمّلنا! لم يبلغوا خط القتال حتى رأيناهم يعودون في السيارة، في ترتيب مضحك..

طافا في هذا الاحتفال. بالانت في طقم قصير مصّمغ يملك وحده سرّه، والذي بدا كأنه يريد أن يتفتّق في مواضع درزه؛ وعلى أذنه قبّعةٌ من القش. الأعيادُ السوقيّة، هو عارف بها. كان في مركزها. طلب مشاهدة المصارعة الرومانية، وكوّن وحده جانب المصفقّين وجانب المتآمرين في جمهور لم يلبث أن كسبه إليه. وكم لهوا بالرماية! وفي الحلقات، ربح زجاجةً، وفي السكاكين، ربح لعبتين من نوع «بيليلبن». ومن أين حصل على هذه الورود الورقية التي يحملها حول عنقه، وغنائمه بين ذراعيه؟ وكانت أحاديثه مع الفتيات عن الخنازير مذهلة. كان هو الرفيق الذي يحتاج إليه اوريليان في هذا المساء. كان القادر على دفعه بالقوة الى المتاهة أو الى سوق السلع القديمة. وبديهيٌ أن مايحبه بالانت هو مسرح الكلاب، مع العرس، والجنديّ الفارّ الذي يُرمى بالرصاص.

انتهيا الى حانةٍ قرب «أنفير» على المصطبة، وهي مصطبة غير حسنة الإضاءة، مع طاولات حديدية، وجمع غفير، وحاكٍ يُصدر في الداخل ألحاناً قديمة نوعاً ما. وكانت الجعة تسيل، وليتك ترى. لاتكاد الطاولاتُ تجفّف حتى تسيل من الأنصاف التالية. كانت الصينية التي توضع تتراقص فوق الشاربين. ولم يبد على الندُل أنهم راضون. كم مرة مسحوا بالمسحة؟ ثلاث خمسينات... والكراسي المتحرّكة، والجالسون مكان الذاهبين. وضع بالانت لعبتيه وزجاجته ووروده أمام اوريليان. وكان يَعْقد صداقة مع سيّدات من طاولته الى الطاولة المجاورة. كان كائناً لايستريح. وقد ترك اوريليان نفسه ينْساق بهذا التيّار الآلي. وفجاةً سمع أطرافاً مما كان يقوله جيرانُه. أربعة رجالٍ انيقو الثياب يدل مظهرهم على استقامتهم، وأنهم هنا من أجل تأمّل الأشكال الجميلة. وفي وسطهم امرأةٌ مديدة القامة، جامدة، صامتة، مبتسمة، وعلى رأسها قبّعةٌ بيضاء.

حشرج أحدهم قائلاً: «ليبقوا في بلدهم، إن لم يُعجبْهم هذا!» وقال آخر: «إنهم مُقْرفون! هذه فرنسا، هنا، لاشيكاغو!» وضاعت كلماتٌ في ضوضاء الأنصاف المسكوبة. أخذ اوريليان يفكر من جديد في حديقة «مونيه»، في ضوء بعد الظهيرة ذاك على الأزهار... وصاح الرجل الطويل الذي أراحَ يده الربلة

المليئة بالخواتم على كتف المرأة. إنهم يضايقوننا، أبناء سام! السينيغاليون، هل هم زنوج أم ليسوا زنوجاً؟ وإذن! لقد قاتلوا من أجلنا. السينيغاليون!».

وإذا «بكوسي دي بالانت» يحرّك ذراعيه في هذه الأثناء! ثم يضع يديه في فمه على شكل بوقٍ، وينادي.. جماعة بأسرها من الأصدقاء.. وحينئذٍ، ياللحظ! كلما ازداد الجنونُ ازداد الضحكُ! لم يكن هذا رأي اوريليان تماماً. لا ياصاحبي، هيّا استمرّ معهم إن كان ذلك يُسلّيك... لم يشأ «بالانت أن يدع صاحبه مغتماً. اقترب الناسُ من طاولتهم. وقف بالانت وأخذ يُعرِّف. خمسة أشخاص أو ستة، وامرأتان...همس الرسّامُ في اذن اوريليان: « سأشرح لك فيما بعد... روى أحدُ الرجال ان عشية أمس في مكان لشرب الشمبانيا كان فيه امريكيون.. لا البحارة.. ناس راقون.. طردوا زنجياً كان يشرب.. كان هذا الحديث استمراراً غريباً للحديث المجاور.. حدثت حوادث في الشارع مع البحّارة.. ودندن «كوسي دي بالانت»: الى المارتينيك... مارتينيك... مارتينيك!...» الزنوج بالنسبة إليه، هم العُريُ، مع سروال داخلي على الاكثر.. والزأزأة(١)، واللغة الفرنسية المشوّهة، وكوخ الخيزران الخيزران.. تجمّعوا مع ذلك حول أصدقاء دي بالانت» ونزلوا نحو «بيغال».

قالت إحدى السيّدات، الطويلة الساقين، الجميلة اليدين، المرتدية فستاناً أحمر متوهّجاً، والتي كانت تتأبّط ذراع زوجها: «أنت تسكن في منزل الأمير «ر»، أليس كذلك؟ نحن جيرانك، ياسيد ليرتيلوا. أي لسنا جيراناً على التمام... على رصيف آنجو... وكثيراً ماأراك... آه! ما أغرب ذلك، وقد ذهل اوريليان بهذه المصادفة. ماذا كان بوسعه أن يفعل غير ذلك، على كل حال؟ كان يتساءل بالضبط أين شاهد.. إننا نرى هكذا أمام أعيننا مشهداً مألوفاً.. ولانستطيع تحديده...

عند باب «سيرك الشتاء» كانت زحمةٌ، وشرطةٌ، وحركة ذهاب وإياب، وأضواء مُعْمية.. سارعتْ هؤلاء النسوةُ؟ ماذا يجري؟ تصوير فيلم. في الضوء

(١) لفظ الجيم زايًا – المترجم.

المسلّط كان الممثّلون في ثياب التمثيل ينتظرون بصبرٍ وكان رجالُ أعمالٍ يلقون أوامرهم، وقد أُبعدَ الجمهورُ من أجل وصول تاكسي التعيين..

همستْ جارة اوريليان التي في رصيف «آنجو»: انظرْ الى ذاك ، ما أجمله!» كان ذاك زنجياً رائعاً بقميص الفلانيلا الرمادي في الصفّ الأول من المتسكّعين. وأضافت: «ثمّ، يالهؤلاء الموسيقيين»! أساء ليرتيلوا فهما: «أهو موسيقي؟» لم تجبه، كانت تدعى السيّدة «فلوريس.كانت رائعةً. باريس، تعجّ بالنساء التي لايعرفهن. قال الزوج: «سيد ليرتيلوا، يجب أن تزورنا...» لكن، طبعاً، طبعاً. وزّع «كوسي دي بالانت» لعبتيه على النساء. أما القنّينة فكان يلوّح بها. ليتنا تذهب فنشربها، عند «ارنست»؟ كان ارنست أحد هؤلاء الرجال، وله مسكن عزب لطيف. لكنه كوخ سيءُ السمعة، وليس فيه مايضايق. يمكننا الخبْطُ بأرجلنا، والغناء صراخاً، وتكسير الصحون.. كان ارنست يضحك، وهو رجلٌ مائلٌ الى الحمرة يُناهز الأربعين... اعتذر اوريليان. إذن هذا ليس لطيفاً! أنت تتركنا؟ وضع له قلادة الورد حول عنقه. ضحكت السيّدات قليلاً. استأذن اوريليان.

مضى وحده عبر ساحة بيغال، محتفظاً بهذا العقد المتعدّد الألوان. وكان يضحك في داخله قليلاً وبرفقٍ من ذلك.. كان يمضي على وجهه، دون أن يعلم ماذا سيحلّ به. لم يغيّره ذلك عن الساعات الأخرى في حياته، في حياته. ولو كان شخصاً عادياً، شخصاً كسائر الناس، لظلّ مع «بالانت» والآخرين، ولغازل السيّدةَ «فلوريس» وهي امرأة تسكن بجواره، تصوّرْ، وماأعظم هذا الحظ! ولكان ضاجعها في هذا اليوم او ذاك. لم يكن نهداها بأرزين كما يجب أن يكونا، لكنها في النهاية... وحاول أن يتصوّر ردفيْ السيدة «فلوريس»...

صاح صوتٌ حنقٌ: «ألا يمكنك أن تنتبه!» اوه! ماكان له همٌ سوى الاعتذار. لقد دفع هذا المارَّ الى حافة الرصيف. بسبب ارتداد الجمهور وكانت سيارةٌ تجتازُ الساحة، حيث كان الناس يتفرّجون على مقياس القوى الذي كان يضربه بالمطرقة بحارٌ امريكي شمرَ كميّه عن ذراعيه المحروقتين.. وفجأة تطلّع الذي صاح باوريليان واوريليان أحدهما الى الآخر. وحدث بينهما شيءٌ من

الذهول. وقد نزع اوريليان الورود التي علّقها بالانت ورماها أرضاً. قال«بول ديني»:

- جئت في أنسب وقت. كنتُ أبحث عنك...»

— ٧٤ —

قالت بلانشيت: لا، لا أعتقد.. أنت تعلم أننا عندما تزوّجنا، اعترفتُ له في العقد بمبلغ.. الخلاصة بمبلغ لابأس به من المال... جلستك غيرُ مريحة؟ أتريد أن أصحح لك جلستك؟ بوسادة؟

كان هذا أول مساء استطاع فيه ادريان، بجهاز المشي، أن يتناول عشاءه في صالة الطعام مع بلانشيت. كان ادمون غائباً على عادته. شعر ادريان في هذه الصالة الأنيقة بشعور غريب: ان يكون وحده مع بلانشيت لا، في خلوة حميمة، بل رسمياً هكذا، أمام أعين الخدم، يخدمه ذلك الخادم بقفازه الأبيض، وفي مواجهته بلانشيت، وفضيات «بويفورسا» وألف نعومة طبيعية كالخمر التي جعلته يتلمّظ بتحفّظ، وقد صُبت من دورق.. تأنقتْ بلانشيت في ملبسها تكريماً له.. ارتدت فستاناً بسيطاً، أسود. واللون الأسود يناسبها تماماً، صاعداً من الأمام بقيّةٍ تُحيط بعنقها، عاري الظهرتحت هذه القبة السوداء. وكان ظهرها رائعاً. وكان ادريان قد تعوّد قسمات وجهها الكبيرة قليلا والخالية من الملاحة. بل لقد اخذ يجد فيها سحراً. وكان يفكّر. ليتها تنفخ شعرها قليلاً.. سأعلّمها... ولديها لألئها.

بعد العشاء انتقلا الى المكتبة وكانت النافذة مفتوحة على المصطبة، وبيكاسو العظيم الأزرق في الظل، والأضواء الخافتة. كانت تهيمن عذوبةٌ تخفق فيها باريس على نحو غامض. كانا وحدهما، لكن المدينة العظيمة في الخارج جعلت هذه الوحدة مهيبة وعكرةً في آن واحد..

قال ادريان وهوحالم. ينفض رماد سيجاره بلطف في المنفضة الزرقاء:

- ادمون سيّد نفسه.. خلاصة القول..

تنهّدت بلانشيت. لابدّ أنها كانت تفكرّ في شيء آخر همست:

- تقريباً..

لابد أنها رأت خلف هذه الكلمات الرمادية ابتسامة السيدة «ملروز»

المتصنّعة، وقسوة زوجها. في جميع الأمسيات الشبيهة بهذه الأمسية التي تتناول عشاءها وحيدة. البنتان اللتان لاتعانقان أباهما. في هذه الغرفة الرائعة التي دخلها ادريان قبل قليل. كرّرت: «تقريباً...

لابد أنها كانت تتأسف بمرارة على استقلال ادمون ذاك الذي أنشأته بنفسها وكأنما تنبأت بفكرة ادريان قالت.

- يظن المرء انه يسعى الى ماهو أفضل.. فإذا به يصنع شقاءه نفسه..

حرّك رموشه الطويلة، وأغمض عينيه نصف إغماضة. وكان يراقبها هكذا مراقبة أفضل:

- أتعتقدين أن ذلك كان يمكن ان يغير من الأمر شيئاً....

لم تسألْ ما «ذلك» ولا ما «الأمر». استغنت المحادثةُ عن تركيب الجملة، وأجابت:

- أخشى ان يكون ذلك من أوله الى آخره سوءَ تفاهم مأساوياً...

- أولادك ليسوا سوءَ تفاهم...

- آه! نعم... هناك الأولاد.. ولولا البنتان... وعندما أفكرّ أن صغيرتي «ماري فيكتوار» لولاك..

يد ادريان في الفضاء بدت كما لو أنها تقول: لنتحدثْ عن شيء آخر، أتقبلين، وأسقط شيئاً من الرماد على الأرض وتظاهر بالانحناء. قالت برقّة:

- دعْ ذلك. لا أهميّة لذلك... هذه الأمسية عذبة...

- عذبةٌ..

نظرت إليه. ما أعجب أهدابه! كأهداب المرأة. لقد فقد قليلاً ألوانه الحيّة حين ترك الخروج والحركة. ولم تعد تجد فيه ذلك الجندي الصغير المبرقش الذي لم يعجبها قديماً في ادريان. لمس بلطفٍ شاربه فتساءلت كيف تكون هيئة ادمون لو كان له شارب.. قادها ذلك الى المهر الذي قدّمته له. وشرحت:

- لي ميزانيتي للبيت والأولاد وفساتيني.. لكن الثروة بالمعنى الحقيقي، الثروة إنما يديرها ادمون.. في «العقارية» أولاً ثم في مجمّع الشركات....

- أعلم ذلك...

- اوه! نحن لانعيش في الحقيقة على مستوى ثروتنا، يجب ان نفكّر في المستقبل.. والأولاد..

لابّد أن ذلك ممّا يقوله لها ادمون. ثم إن في هذا التواضع النسبي عن نسق حياتها شيئاً يُرضي فيها تشددّها الديني. وفكّر ادريان في الإضبارة التي سلّمته إياها الآنسة ماري، شعر بالضيق.

- في نهاية الأمر.. عفواً أودّ أن استند الى وسادة..

- اوه! لكن كان يجب أن تقول ذلك..

سارعت الى ذلك وبينما كانت تُنهضه، دسّت الوسادة الخضراء وراءه، فلامست وجنتُها شارب الرجل. أحسّت أنه أوقف نفسه دفعةً طويلةً، وتباطأت في التراجع. نظر الى قذالها المنحني والى خط الظهر الذي كان ينادي نداء حاراً يده. لن يفعل ذلك هذه المرة. ويجب الأسراع في الكلام على أي شيء بعيدٍ عن هذا الظهر، عن هذا الاضطراب.

- لا أفهم ادمون.. غدا لايَشْبعُ..

- لا يَشبع؟ ماذا تقصد، ادريان؟ أنت تعلم أنه لايطلب مني شيئاً البتّة.. ماعدا السنة الماضية «الباكار»..

قال ارنو في نفسه:

أنت تتحدّثين عن قطعة صغيرة. وقولها ماعدا السنة الماضية» يدل على مقياس الخريطة. انقلب قليلاً الى الخلف ولمس بيده الجبس .

- هل تتألّم؟

- أنا؟ اوه، لا... كنتُ أفكّر..

فيمَ كان يفكّر، في الواقع؟ رأى أنها تتساءل عن ذلك. كان في صوته، بالرغم منه اضطرابٌ يُطلُّ برأسه. اضطراب لم يُحسن تحليله. دُوار امرأة، بعد تلك العفة الطويلة.. أو دوار الثروة.. حلم الثروة.. كان فيه شيء من ذلك كله، لاشك. وكان، بالطبع، يحاول أن يُخفي اضطرابه. وفي الوقت نفسه، كان يشعر

شعوراً غامضاً بأنه لاينزعج لو تركه يتراءى، يبرز.. وكانت بلانشيت تبالغ في الهدوء..

- غريب، ادريان، لستَ على عادتكَ ،هذا المساء..

أكان سؤالها متهوّراً؟ حرّك أهدابه أيضاً، وأخذ يبحث بعيداً في نفسه عن صوته وعن كلمات مقصودة الابتذال:

- لعل ذلك لأن الجو جميلٌ جداً هذا المساء.. جميل جداً حتى إننا.. توقّف سألتْ بشيء من الجفاف، جفاف غير مقتنعة به

- جميل جداً حتى إننا «ماذا»؟

- ... جميل جداً حتى إننا نؤمن بالله..

نمّ هذا الجواب على ذوق رديء، حائدٍ جداً، غريب وسط هذا الحديث عن موارد منزل بارنبتان. كان ذلك صدمةً لبلانشيت·

- ألست مؤمنا؟

- بلى.. بالتأكيد... لقد تربّيتُ..·لكنا أحياناً.. ثم إن هناك أمسيةً...

طالما تألمت هي من جحود ادمون الساخر. فقالت برصانة

- أنت كاثوليكي.

أجاب «نعم» برأسه. وهذه صعوبة أخرى بينهما. لكنها من نوع آخر وتوقّعت بلانشيت أحاديث طويلة جادة ، تمسّ جوانب منها لم تُظهر عليها أحداً. ولا ادمون بالتأكيد. هناك سرٌ لدى الكاثوليك. ذلك الميل الى الكنائس، الى زجاجيّاتها المزخرفة، الى الارغنات، الى العذراء.. عبادة العذراء بخاصة كانت تضايق بلانشيت.. كان يمكن ان تقبل عند الضرورة بالحضور الواقعي.. خافت من هذه الهوّة، وعادت الى ادمون «من أي عمر عرفت باربنتان؟» قالت باربنتان ولم تقل ادمون لتجعل الأشياء أكثر بعداً بينهما. أماهو فقد فهمها فهماً مختلفاً.

- اوه! لم أعد أذكر، منذ ان كنتُ صغيراً...

- من الغريب مع ذلك، أنه لم يؤمن قط بشيء، لم يؤمن قط..

ـ تعرفين أباه... لقد تألمت السيدة باربنتان كثيراً منه..

ضمّت شفتيها على فكرة حماتها. هذه اول مرة في حياتها تفكّر في «استير» على أنها كائن بشري.. أيّا كان الأمر، إن المغامرة نفسها تنتقل من جيل الى جيل آخر، وكريهٌ أن يلاحَظ ذلك. لكن أمن المؤكّد حقاً ان الغلطة بين ادمون وبلانشيت هي بالتحديد ذات طابع ديني. على كل حال إن التفكير في أن الأمور تسير على هذا المنوال يُسوِّي كلّ شيء.. في هذه الأثناء، ماذا كان يقول ادريان؟ كان يتكلّم عن «سيريان»، عن لعب الكرات الخشبية، عن جماعة أنصار الوطن التي أسّسها. لمساعدة قريب شلزر الذي كان يصنع الشوكولا.. نعم، لقيت بلانشيت آل «باريل».. جاكلين التي حدثت معها تلك القصة..

ـ في الحقيقة، ادريان، أنت تعرف جيداً أعمال ادمون.. بيننا، قلْ لي.. هل تستطيع أن تقول لي. مامشاركته بالضبط في «عطور ملروز»؟

ـ يا الهي، أنت تضعينني في وضع محرج.. قلتُ لكِ، بلانشيت، إنني أفضّل عدمَ الكلام على ذلك..

ـ أنت مضحك.. وما أهمّيةُ ذلك؟ أتظنني أغار حقّاً؟ وبالنسبةالى المال، لايمكن ان يكون المقصود، على كل حال، سوى المال الذي يخص ادمون.. فهو المالك له.. قلتُ لكَ إنني اعترفتُ له بمبلغ وافر..

ـ اسمعي، لنتكلّمْ عن شيء آخر، إنني أكره الحديث عن ذلك...

ـ لستُ أفهمكَ، ذلك مضحكٌ حتماً... لابد أن الفكرة التي كوّنتها عني فكرةٌ حقيرة..

ـ بلانشيت!

ـ ثم ماذا تريد أن أتصوّر أمام ارتباكك؟ أنت تحملني على التفكير...

ـ أرجوك...

ـ أوكدّ لكَ أنك أنت، بطريقتك في الدفاع عن باربنتان وإن لم يهاجمه أحدٌ، توحي الي بأفكارٍ..

ـ أؤكد لك.. لا تفهمين أن وضعي إزاء ادمون دقيقٌ من وجهين؟

ـ من وجهين؟

- أنا في الواقع موضع ثقته..

- من وجهين؟

لم يجب. أحسّت بقلبها يخفق، واختلطت المشاعرُ فيها. أنْ يكون ادمون قد دبّر شيئاً ضدّها، قذارةً ماليّة ما، أخذت تتأكد شيئاً فشيئاً من ذلك، في كل حديث، بالرغم من استقامة ادريان الكبيرة، ووفائه حين رفض ان يقول شيئاً، وفي الوقت نفسه الذي أخذت تتفكّك فيه الثقةُ التي وضعتْها في والد أبنائها، جُنَّتْ فيها مشاعرُ أخرى. لعلها هي التي لم تعد وفيّة جداً. أدهشه صوتُها الذي تبدّل عندما سألته:

- ألم تتعب كثيراً، على الأقل؟

- لا، اصغي..

إن صوت الحنين في الليل الهابط كان الميترو الذي يجتاز السين. كان حسّاساً إذن للشعر ادريان هذا، الذي بدا مثل ضابط باللباس المدنيّ. وتذكّرت ماقاله لها ادمون عن ارنو في الحرب. كان بطلاً.

تنهدت:

- تصوّرْ أنني كنت أستطيع أن أعرفك قديماً... قبل غيرك..

- بلانشيت!

صاح تقريباً. ،نسي ساقه واندفع نحوها.

- اوه! لاتتحرك! هل توجّعت! ادريان.. ادريان.. أيها المجنون الكبير.. ألقت بذراعيها حوله لتمنعه من السقوط وضمّته لاشعورياً إليها. أما هو فأخذت يداه، يداه الدافئتان، تركضان على طول الظهر العاري وتنزلقان الى تقويرة الفستان... الشارب.. ورائحة السيجار.. لم يعانقها أحدٌ قط مثل ذلك.. وأخيراً أراحت خدّها على كتف الرجل وأنّت.. ادريان.. في نهاية النهايات، وجدتْ مَنْ يحبّها..

قالت

- ياصديقي، رجلك المصابة..

ساعدته على بلوغ مقعده. كان مثل طفل كبير يهمس بكلمات قليلة رقيقة، وبالاعتذارات، وبالوعود. وعندما انتصبتْ داعبتْ حلاها وجه ادريان.

* * *

ـ قبل كل شيء، ما الحبُّ؟

ـ ليست القضية قضية أسئلة. إما أن نحبّ أو لانحبّ. ـ

ـ ومع ذلك. إذا أخطأ المرء.. وإذا لم يكن هناك حب..

كان هذا الحديثُ حديث رجلين ثملين... بيد أنهما لم يكونا سكرانين إلا بأقوالهما، بالأمسية الدافئة، بالساعة المتقدّمة، بهذا البغض بينهما أولاً الذي سكن مثل ريح عاصفة.

ـ لو كنت تحبّ بيرينيس لما تساءلت عن ذلك.

ونظر الى الآخر في عينيه، متحدّياً وشاحباً، في ضربٍ من الخبث المتعمدّ الذي لم يملك الاستمرار، والذي كان ينحسر هارباً. والحقيقة أنه لم يكن يستطيع ان يكره ليرتيلوا. فالمرأة نفسها سبّبت لهما الألم نفسه. كان بوسعه ان ينهال عليه ضرباً على الفور، لكن ما ان بدأ الكلام... في هذا المقهى في ساحة «سان جورج» بمراياه في كل جانب وقضبانه النحاسية، وحجره الصغيرة مثل المقاصير في قطار غريب الشكل، وطائفة من النور... وهو شبه خالٍ... والنادل الذي يتثاءب، وهو يقرأ جريدة المساء..

قال اوريليان:

ـ أتظن، أتظن، ياصغير. أنني لا أحبّها؟

سأله هذا السؤال ببطء، غير واثق من نفسه، بادئاً مخاطبته الخشنة بضمير المفرد. لأنه في النهاية لم يكن سوى صبّي هذا المخاطب، صبّي مرتعش وهزيل، وكأن سحنته من العالم الآخر، وزاد النور في شحوبها، لكنه صبي على كل حال..

دمدم بول

ـ أمْنعُك من تسميتي صغيراً!

هزّ اوريليان كتفيه. العجيب أنه كان يمكن ان يقتله في اللحظة الأولى، هذا الصبي. والغريب ان يفكرّ فيه على اعتباره عشيق بيّرينيس. ذلك غريبٌ ومثير. كالطلبة الذين يُقبض عليهم وهم يدخّنون سراً. كيف جاز لها أن تفضل

عليه هذا، أن تفضلّ.. أخيراً غضب على نفسه لامجال لمناقشة الوقائع.

ـ ربما وجبَ تصديقُكَ، أيها الصغير...

كان يلح على كلمة «صغير» الممنوعة. لكن بدا أن بول ديني نسي مَنْعه.

ـ لعلي لا أحبّها... وأن الحب غير هذا... لكن ما الحبُّ إذن؟ أتظن أنني كنتُ أروي لنفسي قصصاً؟

ساد الصمت، ثم قطعه اوريليان.

ـ أتظنها جميلة، أنت؟

التفتَ رأس الصغير بهياجٍ .كان له ما سمّته بيرينيس فمه الغريب، فكأنما يريد أن يجهش بالبكاء.

وأكمل اوريليان كلامه

ـ أنا، لا أجدها جميلةً

ضرب «ديني» بقبضته الرخام، فأطار الملاعق الصغيرة. رفع النادل نظره عن جريدته، وأدرك أن ثمّة خطأ. صفر بول:

ـ أنت لاتحبّها، ولم تحبّها قط....

ـ لعلك على حقٍ.. وهذا يبسّط كلَّ شيء..

أغمض عينيه. كان يتوجع. رأى مرة أخرى وجه الجبس المعلّق على الجدار، في منزله، والمرأة بلحمها ودمها، والنور على وجنتيها، وقد ارتدّ رأسُها الى الخلف. وكم كان يعاني من جهدٍ ليتمثّلها كاملةً، بجسدها، لا بجزئيات الجسد، بل هي كلها، في الشارع، على مسافة منه. لم يستطع ان يتخيّلها إلا في «جيفيرني» وهي تنأى، مع تلك الحركة في كتفيها... كان بول ديني يتكلم ويتكلم.. وقد مضى ساعتان على وجودهما معاً

ـ ثم وقبل كل شيء هل الأمران سيّان؟ انها لم تكن لكَ، لكَ..

(وضرب صدره): لكَ.. مَنْ يزعم أن المقارنة ممكنة! آه! نعم، الحب دون الامتلاك، الحب الذي في الرأس، وغير ذلك من الهراء! لا، لكن انظر الى نفسك في المرآة، شخص مثلك، هل يثبت هذا للمقارنة؟ لقد كانت لي، أتفهم، ثم

فقدتُها! هذا شيءٌ جديرٌ بالاهتمام... عندما أستيقظ وأجد نفسي وحيداً... وعندما أفكّر أنها في مكان آخر، في أي مكان... أما أنت، فماذا يضيركَ من ذلك؟

كان يصغي إليه وهو يتكلم، ذلك الصبّي. في الحقيقة كان يحترم هذا الألم.لعل ذلك لايثبت لسكْرةٍ يسكرها. لكن بول ديني كان يتألم، هذا مؤكدٌ. همس اوريليان.

ـ لا تَثُرْ، لم نقلْ كلَّ شيء بعد...

نظر أحدهما الى الآخر مثل متصارعين بين جولتين. تناوله ليرتيلوا بفكرةٍ مقرِّعة:

ـ بيد أنها تركتك...

حديث قذر، ضربة غادرة. خفض بول رأسه وتحمّلها.ثم ردّ عليها

ـ كان هناك الزوج..

عجباً، هذا صحيح! هذا الذي لم نكن نفكّر فيه. وكان وقوعُه بينهما مدهشاً لبول الذي ذكره، بمقدار ماكان مدهشاً لاوريليان. الزوج!

قال اوريليان:

ـ لابد أنه حلوٌ بالسروال الداخلي.

قهقها. أصدر بول المكفهر، المشمئز حركة كحركة الأكتع بمرفقه الأيسر،، شعرا كلاهما بالحاجة الى هذه السخرية. كان رأساهما يعملان. وكان عليهما ان يتخيّلا العلاقة الحميمة بين الزوجين، بيرينيس وزوجها الأقطع.. وكان بوسعهما أن ينحدرا بعيداً في هذا المضمار، وأن يغدوا كلاهما ماجنيْن..

روى بول ديني عن بيرينيس أحاديث على نحو معيب، قالتها في عفوية نسيانها لنفسها. وبدا عليه أنه يستسيغ خيانتها. وربما كان يحاول ايضاً ان يُصيب هذا الرجل أمامه، بذلك الصدى غير المباشر لعلاقةٍ حميمة تشقّ عليه. بل لقد تجاوز الحدّ وكان بينهما تضايقٌ شديدٌ..

استأنف اوريليان:

- ومع ذلك فربما كانت تحبّه، على كل حال؟

الخبيث. لم يكن يعتقد شيئاً من ذلك. قال ذلك ليعذّب بول. انتقم بول. «لابد أنك تغار بصورة قذرة لتقول هذا..» نعم، كان اوريليان يغار. يغار غيرةً جنونية. لقد صعدت الغيرةُ الى رأسه دفعةً واحدة، كالموجة. بيرينيس مع هذا الصبّي آه، العاهرة، العاهرة!

لاحظ الآخرُ:

- نحن هنا، ونحن نتكلم عنها معاً.. هذا فظيع... فظيع بكل صراحة!

التذّ ليرتيلوا بهذا الحديث، كما تُنزَع قشرةُ الجرح. كان يعلم أن كل كلمة، كل فكرة، كل نظرة ستجعل التتمة أشدّ وطأة، التتمّة المحتومة خارج هذا المقهى، عندما يعود الى وحدته في الظلام، الأيام الآتية. مالم يتوقّف ذلك فجأة فيقرّر ألا يعود الى التفكير فيه؟ ولم يكن «ديني» هو الذي يسهّل عليه ذلك. قال:

- ألا تفهم إذن؟ لم أحسب حساباً لأية امرأة أخرى... أية امرأة... عندما أفكّر في النساء الأخر أشتهي أن أضحك.. كنت أقضي لحظتي مع الأخريات.. وهذا كلّ ما في الأمر.. كنتُ أحتقرهن... سحناتهن، وطرائقهن.. وخصوصاً أنني لم أكن أحب محادثتهن... إن لهن دائماً دوافعهن في أن يستسلمن لكَ.. كان ذلك لشيء آخر... يناسبهنّ... وكان عليّ ألا أكون مغفّلاً...

- أما هذه المرة فقد أُصبْتَ وسُلبتَ، أليس كذلك؟

- قلت لكَ أن ذلك غير وارد هنا. أنا أحبّها. أفهمت؟

غريبٌ الحب. لم يكن أحدٌ منهما يعلم ماالحب. حاول اوريليان أن يفكّر: أنا لا أحبّها، لكن تفكيره ذهب هباءً. لايمكنه ان يتخلص من مأزقه بالتجديف.

- «أنتَ تحبُّها، أنا أحبها، نحن نحبّها... الزوجُ يحبّها أيضاً، على طريقته... لكن هي... مارأيُها؟ قلْ... ماذا يمكن أن يكون رأيُها. ياترى؟ أستطيع أن أقسم بأنها كانت تحبني... وقد ضاجعتْكَ..

- أستطيع أن أقسم أنها كانت تحبني..

- ولاذت بالفرار.

- أيسرّك أن تجرحني؟

ـ ربما.

ـ حسناً. لا أسمح لك أن تعتقد أنك قادرٌ على ذلك! هي التي جرحتني، أتفهم؟ هي، وأنت منهمكٌ هنا في النّبْش...

ـ أنت غبي! إني لا أنبش سوى نفسي...

أصبح وجود بيرينيس بينهما لايُطاق. انصرف كلٌّ منهما عن الآخر. في الخارج كانت أبواقُ السيارات تُزمّر. لابّد أن ذلك كان ساعة الخروج من المسارح. كان بول ديني يتابع حلماً أسود وعيناه زائغتان. وارتجفت شفته الغريبة وقال وهو شاخصٌ أمامه، غير متوجّه الى ليرتيلوا إطلاقاً.

ـ سوف أهلك نفسي.

اهتزّ اوريليان بغباء من جرّاء ذلك. هذا الصبي! آه لا، هذه المرأة لاتستحق هذا الغباء.

ـ اسكت، ياصغيري، أنت مجنون؟ يقتل المرءُ نفسه من أجل مَنْ هو جديرٌ بذلك... أما هذه التي تنتقل مَن واحد الى آخر..

ـ اولاً منعتُك من أن تدعوني صغيراً.. ثم بمَ تَهْذرُ؟ من واحد الى آخر؟ ماذا يضيرني إن كان في حياتها من قبلُ غيري! إن كان هناك أحدٌ...

ـ هذه المرة، لم أشأ أن أجرحك، بول صدّقني: لكني أقسم لكَ...

ـ اقسمْ ماشاء لك القسمُ! أنت تضحكني في النهاية، بأفكارك.... أنت إذن شخصٌ من ذلك النوع، ماذا، وهل تَبْلى النساءُ وهنَّ ينتقلن من يد الى يدٍ بحسب رأيك، وأنت، أحياناً؟

ـ ليس الأمر سيان. وأنت تعلم ذلك جيداً.

ـ لستُ أعلم شيئاً على الإطلاق. آه اسمعْ، إن أخلاقيّتك كرجلٍ تحملني على الغثيان!

ـ أنتَ لستَ في حالتكَ الطبيعيّة.

قال ليرتيلوا ذلك بجفاف شديد. لقد اصطدم بمالايحبّه كثيراً. بعالمٍ بجميع أفكار هؤلاء الناس الذين يظلنون أنفسهم ماكرين، بهذه الفوضى، بهذا النمط المتقدّم. وكأن الرجال والنساء شيءٌ واحد، همس بول ديني: «ربما لم أكن

في حالتي الطبيعية»

زاد اوريليان على الفور

- يظن المرء انه يحب... ويود لو يحبّ كثيراً... ويحتاج الى الحب، يا صغيري، وبكل بساطة، يقع على هذه المرأة أو تلك.... فهل يختار؟ أقول لكَ إني لم أجدها جميلة. ومع ذلك أحببتّها. وأنت أيضاً. المهم ليس المرأة، بل الحب.

كان يقول ذلك كله ليُقنع نفسه. كان يُصغي الى نفسه وهو يتكلّم. لم يكن يعلم أنه قد فكّر في ذلك كله. كان ذلك يأتيه ابتكاراً على شفته. وكان يتساءل عمّ سيقوله. عمّ سيفكّر فيه بعد ذلك.. أراد بول ان يشرع بإنكارٍ مُبهم. فقطع عليه اوريليان كلامه

- إننا نكوّن فكرةٍ عن المرأة... ونجمل هذه الفكرة في نفوسينا ... ثم نلقى بيرينيس... يجب أن تتطابق مع تلك الفكرة... بأي ثمن... ونطابق بينهما...ُ ولا أقول لك إن ماكنا نبحث عنه هو امرأة جديدة بالضرورة... امرأة لم يقربْها رجلٌ. لا! لكن ما الذي تعرفه عنها، قلْ لي؟ أتظن أنك تجربتها الأولى؟ ففي المقاطعة، وفي مدينة صغيرة، تتضايقُ..

- اسكتْ!

- اوه! أسهل على المرء أن يسدّ أذنيه! لم يدم الأمرُ طويلاً... مني إليك... وتريد أن تنتحر من أجلها؟ ياللشقاء!

- لا، أنت لم تحبها قط. أنا أفهم ذلك، أنا أفهم ذلك.

- لأني أراها كما هي؟ لاتنخدعْ: فالرؤية تختلف، فتحسنُ أو تسوء بحسب الأمْسية. ثم .... ربما كان الأمر كذلك، على العكس، عندما نحب... وأخيراً فالصورة التي كوّناها عنها، قبلها، أكانت هذه، ماقولك؟ كنْ صريحاً؟ لا، أليس كذلك؟ الحب! اعذرنْي إن كانت نظرتي نظرة رجل.. هذا يثير اشمئزازك... لكني لا أستطيع أن أتصرّف على نحو آخر... كانت بيرينيس بالنسبة إلي فتاةً تقريباً... أرأيت كيف يمكن أن يكون المرءُ غبياً!

ضحك ضحكاً زائفاً. رفع الآخر رأسه وتطلّع. كان وجهُ اوريليان

مختلفاً عمّا قدّره بول. كان يتصبب عرقاً، لعله حلق ذقنه ولم يُنعَّم، ولم ير بول من قبل هاتين الوجنتين البارزتين، والمسافة الطويلة بين الوجنتين والفكيّن.. فتاة تقريباً... ما أغباه حين ينظر الى بيرينيس على أنها فتاة؟ ثم الميل الى الفتيات، ميل هؤلاء الناس، فئة من الناس...

سأل بول:

- إذن، لو كانت... فتاةً، كما تقول لأحببتها حقاً؟ لا، تصنّعاً؟ ولأنها ضاجعتني فهي لم تعد صالحة!' إلا لأن تُرمى للكلاب؟

كان يريد أن يقول أشياء جمّةً، فاختلط كلُّ شيءٍ في رأسه. فهمه اوريليان، مع ذلك، عرضاً، فهم لهجةَ الغضب التي نمّ عليها مافي أفكاره من فوضى.

- قبل كل شيء من الذي حدثّك عن الفتاة (نسي أنه هو) والحب غير المضاجعة.

- لا. لكن ماتسميّه مضاجعةً لايدنّس الحب. لستُ مثلك روحاً خالصة ياسيدي.

هزّ اوريليان كتفيه. لم يكن الصبي يغيظه. تابع الآخرُ

- أني أعلم جيداً، أنك أنت وأمثالك، تمنحون أيضاً النساءَ الزانيات حق الحب بشرط الا يفعلن ذلك سوى مرة واحدة. أما الزوج فلا حساب له. المرأة المتزوجة عذراء. يمكننا ان نغفر لامرأة تخون زوجها مع عشيق واحد. مقابل بعض الدموع. طبعاً... وحياة طويلة من الذكريات، بعد ذلك.. آه عجباً!

العجيبُ أن يجد «بول ديني» ذلك مثيراً جداً ! ولم يفكّر اوريليان في ذلك قط، أجل، هكذا، في الواقع، هو رأيه في الزواج والزنى.. أفكار غير جديدة جداً، غير أصيلة جداً، لكن هل المقصود هنا أن يكون المرء أصيلاً؟ إن المرأة يمكنها أن تسقط إذا ألقت بنفسها على فتى صغير، على أي «بول ديني»، تماماً. ولو أن بيرينيس عادت رأساً الى لوسيان، دون أن تمرّ «بجيفيرني» لاحتفظ عنها بذكرى مختلفة، نقيّة، بها جسٍ لن يفارقه طوال حياته، ولظلّتْ

حينذاك حبه. لكن هذه الـ «بيرينيس» المدّنسة.. ومع ذلك ما الفرق الذي يُنشئه هذا المثقف الشاحب؟ في أزمنة أخرى، المرأة التي لها عشيقٌ امرأة ساقطة. فهل تقدّمنا اليوم بأننا لم نسمح لها باثنين؟ عمّ كان يتكلم إ ن ديني الصغير؟ لم يكن اوريليان يصغي إليه. كان يفكّر في أمه. لم يكن في حياة أمه سوى رجل واحد. سوى رجل واحد خارج زوجها. كان يفكر في ذلك. لكن مامقدارُ علمه؟ على كل حال لم يكن يحكم على النساء وفقاً لأمه. كانت له أفكارُه عن النساء، عن الحب، يَعْني... أفكاره الخاصة به. ولاشك أن عدداً لابأس به من الناس يشاركونه فيها. لكن مَنْ الذي يملك أفكاراً خاصّة به وحده؟ مئةُ رجلٍ يفكرون في آن واحد· الشمسُ طالعةٌ. الشمسُ تطلع ببساطة.

- قال. لو غيرنا المكان. طال جولسنا على هذه المقاعد...

لقد انهى علبة سجائره.

ألفيا الليلة فاترة وحاضرةً، كانت من ليالي باريس التي لايشتهي فيها المرءُ أن ينام، حيث تحمل الشوارع ثقل الأسرار. وحيث أصوات المارّة مطالع لآلاف القصص، وحيث تبدو كل امرأةٍ مدهوشة فيما تعجز العتمة عن اخفائه. شارع «سيّدة لوريت» شارع «فونتين».. و«الطاحونة الحمراء» تُرى، في الأعماق. فوق، وهي تلمع. صيدلية الليل عند مفترق الطرق دفعتْه الى الكلام من جديد على الزوج. تجاوزا حانة ليلية، ونساءً معهن ورود، ورجالاً أنيقين وكانت ساحة «بلانش» تتوهجّ من كل جانب. وبالرغم من الساعة المتأخرة كان الناس في كل مكان، على المصاطب. وفي الجادات، كانت السوق المطفأة تمتدّ مثل تجمهر الأشباح. وقرب الطاحونة، في ذلك الضرب من النَفَس الناري، عند مدخل ا لمرقص، كانت هناك باقةٌ من البحارة الامريكيين. قال اوريليان:

- لا أدري، هؤلاء الناس يغيظونني. ولستُ الوحيد.

أكدّ بول.

- إن لي أصدقاء امريكيين ممتازين.

- وما العلاقة؟

ما العلاقة بالفعل؟ ومن جهة أخرى، ماأن يتكلم عن الزنوج، اوريليان، حتى يرى بول ينحاز الى هؤلاء الزنوج، وبعنف، وهذا يثير أسئلة شتّى، الجاز، العروق الدنيا. وكان ليرتيلوا يرى أن ثمّة زنوجاً قد يكونون تطّوروا، كالذي نال جائزة «غونكور... لكن في النهاية من هنا الى... الواقع انه لم يكن لامع الزنوج ولا مع الامريكيين.

- وبيرينيس، ياصغيري، ماذا تظنّ رأيها في هذه المسألة؟

سأل هذا السؤال بصوته الساخر. أما في هذه اللحظة، فما كان يروعه، على الخصوص، هوأن يكون هنا ليتسكع مع «بول ديني» لهذا السبب. ليس غير، وهو أن هذا الصبّي قد ضاجع بيرينيس. ولولا ذلك لما كان بينهما موضوعٌ للحديث:

وفي دكان بيع التبغ حيث أراد اوريليان ان يشتري علبة «لوكي سترايك»، كان المشربُ مزحوماً بالبحارة البيض والزرق، باللحم الأشقر والأصهب المقهقة، وكلهم سكارى، مع صوتٍ أنفي من الحاكي، في الأضواء المحرقة، وبعض الفتيات المتعلّقات بأكتاف هؤلاء العمالقة. فكّر اوريليان تفكيراً غامضاً بسيمون. لابد أن يكون هذا الأسبوع مُجْزياً. وكان جمهورٌ من الفرنسيين، من الرعيّة المحلّية يتفرّجون. وكانت السيدة التي تمسك الصندوق، سمراء جميلة، أعياها العمل، فأخذت تعتذر وهي تردّ على الخمسين فرنكاً. وكان لها سنٌ ذهبية جانبية.

حدثت ضوضاء في الخارج ، وصرخات. كان ذلك كالمشفاط، ففرغ الدكانُ، ونهض الناس. دُفع «بول» عبر برقشة هؤلاء الأشخاص. لم يُدرك اوريليان جيداً ماكان يجري وقد ضايقته العملةُ التي رُدّت إليه. كان بحارٌ سكران يرفع بكل مافي ذراعه من قوة منضدة رخام في المصطبة. صرخت نساءٌ، وشوهد زنجيٌّ كبير، هزيل وطويل، في بزة من الفلانيلا الرمادية. وقد ثنى ذراعيه ليتقي المنضدة التي تهوي... وقد أصيب في وجهه وفار الدمُ، وارتفعت المنضدةُ أيضاً. وكان تدافعٌ فظيع من البحارة الآخرين الذين أحاطوا بالمعتدي،

الزنوج الذين بوغتوا قليلا في جميع الأرجاء، ومن الأصدقاء الصغار بقمصانهم الخضراء والوردية. الذين هزوا أكتافهم. بحنق صاخب لإقصاء البحارة الزرق حيث كانت تتكىء أيدٍ هائلة. حمراء، في نور مصابيح القوس الكهربائية.

وجد اوريليان نفسه في الخارج. بدت ساحة بلانش كأنما تلّقفتها شرّاقة هواء. فمن كل الأرجاء، كان ينسل رجال، مثل زوبعة، رمليّة، نحو دكان التبغ. وخلفهم كانت تتكون جيوبٌ فارغة، غريبة مثل الطريق المكدّم، حيث كانت تطوف سيارتا تاكسي أو ثلاث وقد بدا عليها الذعرُ. وعلى الرصيف المقابل، هناك في زاوية الشوارع التي تنحدر الى المدينة. شريطٌ من النساء يصرخن دون ان يعلمن شيئاً. ومن حولهن هديرٌ منسابٌ بين التخشيبات المطُفأة.

كان نورُ القتل سائداً.

كانت الأصوات الامريكية تطغى على الجلبة. وانعقد طوقٌ حول السكران من البزات البيضاء، وقد سقطت المنضدةُ بين أذرع البّحارة، وبدا ذلك مثل الالتحام في لعبة الركبي. وكوّن الآخرون بالغريزة شريطاً حول الذين كانوا يكبحون جماح ذلك الهائج الذي يزعق: «زنجي دموي، زنجي دموي» واهتزّت الساحةُ بالتمرّد الأسود وبسخط البنات ورجالهن، بخوف الزنوج وهياجهم. والى الخلف من هؤلاء المدافعين غير المتوقعين عن قضيتهم، شوهد منهم مَنْ يُخرج سكيّناً.

ـ قال النادل بجنب اوريليان.

ـ مامن شرطي، كعادتهم دائماً!

أطبق الجمهور على البحارة. وكان يتقدم ويضغط عليهم بغضب صامت. حاول البحارةُ تهريب المجرم. وكان الجريح أمام الطاحونة الحمراء يُري وجهه المدّمى رجالاً آخرين أشدّ سواداً منه.. ومن رؤيته وهو ينزف تبين أنه كان زنجياً شديد الشحوب. نادى أحدهم سيارة تاكسي، ورفع أربعةٌ أو خمسةٌ من البحارة زميلهم غير الواعي الذي كان يردّد: «زنجي دموي». سدّ الجمهورُ طريق العجلات. أخذ السائقُ يشير بحركات عريضة. كان من المستحيل ان ينطلق وكان هناك صرخات: الموت له! فخاف الرجلُ، وفاوض. لم يشأ ان ينقل

البّحارة، والجمهورُ في ظهره.

ومن التاكسي. أراد بحّارٌ امريكي أن يخاطب الناس فتفجّرت الشتائم، وطارت أشياء. حمى جبينه بذراعه. وكان الطابع البريء للبزات الكتانية يزيد في غرابة جوّ «سان بارتيليمي» هذا. وفجأة، ومن الجانب الآخر للرصيف الذي يشكل زاوية شارعيْ «بلانش» و «فونتين». شوهد أحدُ هؤلاء الأشداء الذين يتسكعون في هذه النواحي، وهو شخصٌ فوق الربعة، ممتلىء الجسم، بسترة «بيج»... وهو يمضي بكل سرعته ويصل فوراً الى مرقاة التاكسي.

بيد أن سرعته لم تكن لتحول دن انقباض نفوس مئات المشاهدين الذين أيقنوا انهم سيشهدون جريمةً، قبل ان يروا ذراعاً ترتفع وسلاحاً يلمع. لم يجرؤ أحدٌ على الاندفاع والمشاركة في الأمر، لاتقاء الضربة. فظاعة حلم لاصوت له ليصرخ.

لا أحد؟ بلى. فتى هزيل، ولدٌ بجنب هؤلاء العمالقة بثيابهم الكتّانية، وهذا القاتل بسترته الفاتحة. شوهد ينطلق من دكان التبغ، أمام «سيرانو» وقبل أن يُدرك أحدٌ ماذا كان يجري. ألقى ذلك الفتى بنفسه على التاكسي، بين الرجل المسلّح والبحّارة. وعندما أهوت الذراعُ بالطعنه. صعدتْ صرخةٌ رهيبة ثم خيمّ الصمتُ.

ولم يوقف أحدٌ الرجلَ الذي طعن عندما انسلّ خلف الجمهور الى العتمة، في شارع «ليبيك» ليلاً. لكن اوريليان رأى، وسط البحارة البيض، جسد «بول ديني» المتلوّي، يسقط خرقةٍ حقيرة. اللهُ أعلم كيف ركع قرب التاكسي، ورأس الصبي عليه وهو يئن: «لا أهمية لذلك.. دعْني... لا أهميه لذلك...» وقد امتلأت يداه بالدم، وحاول أحدهم أن يحل ربطة عنقه، وقال بحارٌ «لم يمت أليس كذلك؟ والجرح المخيف في العنق، والدم، الدم، وهذا الجسد الذي أخذ يرتخي عليه. عندما وصل رجالُ الشرطة أخيراً.

صاحت امرأة ترتدي فستاناً أزرق فاتحاً وقفازاً أسود الى المرفقين، وقد استشاطت غيظاً وبصقتْ في وجه السائق

ـ هذه غلطتك!

* * *

كان ذلك كله فظيعاً. نُقل الصغيرُ في التاكسي الى بوجون، في هذا المبنى العتيق الذي له مظهر السجن مثلما أن له مظهر المشفى. وقد تأرجح اوريليان الذي جاء مع التاكسي بين مكتب الدخول، والطبيب المناوب، وتحقيق الشرطة، والهاتف. وإذْ لم يكن يدري ما الأوْلى به أن يفعله فقد قرّر أن يتّصل هاتفياً بماري، التي لم تفهم على الهاتف إذ أُوقظت على غير توقع نعم. إنها تعرف عنوان أهله. وسوف تتصل بهم، كان هناك الهاتف.. وكان الطبيب الداخلي المساعد صديقاً لصديق اوريليان هذا، أخي الكاتب، الذي حلق شاربه إرضاءً لامرأة. أُجلس ليرتيلوا في صالة المناوبة، وهي غرفة صغيرة ، واطئة، مدخّنة، الى اليمين في الفناء، مع رسوم فاسقة بلون عصير التبغ. وعاد بعد لحظة، وكان الصغير يُعطى مصلاً. لكن، لكن كان أول القادمين مينستريل وزوجته: وكانت ماري قد أبلغتهما. وكانت زوجته فتاة جميلةً، نحيفةً وشقراء لقد هزّ النبأ السيدة مينستريل فألقت طائفة من الأسئلة، لكن كيف حدث هذا؟ كيف خطر له أن يتدخّل في هذه المشكلة؟ وكان مينستريل يذرع الغرفة طولاً وعرضاً، وهو يشدّ على عصاه بكلتا يديه. قال ماكان لمجيئنا من فائدة. ولن نُسوّي شيئاً. وكان على الطبيب المناوب الطالب قراءةٌ، فغيّر مجيء مينيستريل بالنسبة إليه، مظهر الأشياء، وفي غضون ذلك، دخلت ممرضةٌ تبحث عنه.

كان اوريليان قد تملكته فكرةُ أن بول قال:

«سأقتل نفسي» قبل المأساة بالذات. وحاول أن يروي ذلك. هتفتُ السيدة مينيستريل. «هذا انتحارٌ، إذن»، وقال زوجها: «مهلاً، مهلاً، فهناك كلماتٌ لأتقال جزافاً هكذا.. ثم إن ماري جاءت تسأل عن الأخبار... أصبحت صالة الحراسة صالوناً... وكانت ماري تثير الشفقة، هكذا، في الليل، كان عمرها مئة عام. وقد وضعتْ على رأسها أول قبعة صادفتها. وكانت تقول: «هذا الغبي الصغير... هذا الغبي الصغير...».

نزل الطبيب المعاون الطالب بوجه ملائم للظَرْفَ. الجريح... أليس من عائلته أحدٌ؟ وأخيراً مات بول ديني. وقد نزف كثيراً في الطريق... ثم... التدقيقات التشريحية... في هذه اللحظة دخلت الأمُّ، وهي امرأة في الخمسين لادم تحت جلدها. رمادية الشعر، هزيلة. بطقم عاتم. اعتذرت. «آسنيير» ليست قريبة. السيدّة هي التي اتصلت؟ خاطبت السيّدة مينستريل. لا... تقدّمت ماري، وأمسكت بيديها. وشوهد فجأة رجل كبيرٌ يدخل خلفها. شاربُه اشقر متهدّل، وعمرهُ لاسبيل الى تحديده، وقد ارتدى مشمعاً طويلاً ولفّ على كمّه شارة الحداد، ووضع على رأسه قبّعة سوداء وهو مُصابٌ في وجنتيه بعدّةٍ وردية. قدّمته السيدة «ديبي» للجماعة. أخي جان بيير بيداريد..»

اوه، من هذه المشاحنة التافهة. لم تفهم الأم. هذه البرجوازية الصغيرة من «اسنيير»، ارملة الموظف، التي ألقي بها بين هؤلاء الناس، كانت على ثقة من أن هذا الابن الوغد قد ارتكب حماقةً من حماقاته، وكانت مستعدّة لتشكو منه، لتوبّخه. وفجأة لم تجد من توبّخه. كان الأمر يتجاوز حيل الصبي القذرة، كانت القصة شبيهة بما في الصحف، معركة في الشارع، وهو جريح. لم يجرؤ أحدٌ أن يقول لها الحقيقة. انفجرت، وقالت لأخيها «أعتقد ان ذلك من صنع «مينيستريل» أيضاً! زاد ذلك في الضيق. لاشك أن مينيستريل كان في نظرها، القدوة السيّئة لابنها. وفجأة أخذت ماري تنتحب. وفي هذه البلبلة، أفلح الطبيبُ الداخلي واوريليان في أن يقولا للخال همساً ان الصغير قد مات.. رفع السيد «بيداريد» وهو يرتجف،قبّعته ليُخفي وجهه وتنهد: «جانيت!» نظرت إليه أخُته وفهمت. كانت شفتها كشفة ابنها، الشفة الغريبة. اقتيد الخال الى الأعلى، الى جانب الجثمان. ولعل الأفضل ألا تراه أمه... أو ألا تراه على الفور.. أرادت ان تذهب إليه.

ظلّ اوريليان وماري، ومينيستريل وزوجته وحدهم. قال مينيستريل. «الأفضل ان ننصرف، فنحن هنا زائدون عن اللزوم». جُنَّ من اتهام الأم الأحمق. أصرّت امرأته على البقاء لمعرفة التفاصيل من الطبيب الداخلي. وكانت

تبكي برفقٍ، ليتهم يستطعيون أن يخبروا «فريدريك».. فهو يحب أن يرى صديقه، بالتأكيد.. قال مينيستريل إن الأمور هكذا حسنة، ولاجدوى من ذاك... تهالكت ماري على كرسي. وكان اوريليان ينظر الى العتمة، وجبينه على الزجاج.

عاد الخال مع الطبيب الداخلي. وقد اصطنع لهجة المحقّق. أراد أن يستوضح. آه، هذا السيد كان مع بول؟ وأصابَ ليرتيلوا شكٌّ الأسرة. أجاب ليرتيلوا بغموض. ماجدوى تأجيج الهذيان الذي يوشك أن يولد. لم تُسوِّ عودةُ الأم شيئاً. وهي تودّ لو تنقل ابنها، وألا تتركه في هذا المشفى الفظيع، الحزين جداً، الحزين جداً. أن تأخذه الى البيت، مع الورود والشموع والأصدقاء الذين سيأتون ليمرّوا أمام جثمانه، والدموع الحارة التي تنهمر بين أربعة جدران في بيتها. رُفض طلبُها هذا. فالشرطة لاتسمح، ويجب الانتظار الى اليوم التالي، مُن أجل الشكليّات، لأن هاهنا جريمة قتل. كيف جريمة قتل. وإذن فالأمرُ ليس حادثاً عرضياً. التفتت الى الحاضرين على نحو مأساوي، وتفرّست فيهم مَنْ كان القاتل فيهم؟

حاولت السيدةُ مينيستريل، وهي ترتجف بشدة، وعيناها ملتمعتان، وقد أمسكت بيديها، أن تشرح لها في ضربٍ من الاندفاع

- ابنك بطلٌ، ياسيدتي.. لقد أراد أن يدافع عن الزنوج...»

يدافع عن الزنوج. جُنَّتْ السيدة «ديني».

طُردوا برفقٍ، لكن بعزمٍ. على الرصيف، تفرّقت الجماعة، بشكل يدعو الى الرثاء، وفي بلبلةٍ من العواطف. عادت الأم لتنظر الى جدران المشفى، وقبّة المدخل الهائلة الضيّقة والعالية، والنافذة التي خلفها. فيْ مكان ما. يرقد جسدُ ابنها المهجور... وكان صوتها المتهدّج بالنحيب يعلو في الليل، بينما كان الرجل ذو المشمّع يجرها الى تاكسي أحمر توقّف على إيماءة منه، وكان نازلاً من الضاحية. وشوهدا وهما ذاهبان من شارع «فريدلاند».. هزّ مينيستريل كتفيه: «عندما أفكّر فيما كان «ديني» يقوله عن أسرته! وصلوا الى المحطة. اوريليان عزم على مرافقة ماري، وصعد مينستريل وزوجته الى مونمارتر.

سألت السيدةُ مينستريل زوجها: «أتظن أن فريدريك يعرف عنوان هذه المرأة...؟ ينبغي ان تخبرها.»

هزّ مينيستريل كتفيه.

اضطُرّ ليرتيلوا في اليوم التالي الى الإدلاء بشهادته في مفوّضية الشرطة. كانت القصة بسيطة. ومرّت بشكلها الصحيح. لكن صحف المساء وضعت يدها على القضية. بدلاً من ثلاثة أسطر في صحف الصباح تمّ إخراج حادث «ساحة بلانش»، وحصلت تلك الصحف على صور «بول ديني». وتحدّثت عن جماعة «مينستريل». اوه! هذا مما لاجدال فيه. وفي اليوم التالي، بالغت صحيفةُ «الباريسي الصغير» في أهمية الحدث، ثم استمرّ ذلك الى المساء، في أدنى الصفحة في صحيفة «المتشدّد» بعد ذلك، صار الحدث من التاريخ القديم. وجرى الكلام عن حوادث بين البحارة الامريكيين والسود في مونمارتر، لكن دون كبير إلحاح. بسب السفارة.

الدفن . لن ينسى اوريليان في زمن قصير هذا الدفن... وجد نفسه مضطراً الى المشاركة فيه. اسنيير.. الحرّ... هستيريا النساء في خمرهن يُحطن بالأم... رجال الأسرة ... ونحو أربعين شخصاً، عالم «ديني»... في وسط ذلك أحسّ اوريليان بنفسه كالعاري. إحساسٌ غريب. هذا القطيع الصاخب، الثرثار، المتباكي. بحث عبثاً عن «مينستريل»، جميعُ مَنْ في الجماعة امتنعوا عن المجيء، التزاماً بمبدأ. فهم ضدّ الدفن. حتى فريدريك. لم يكونوا على خطأ. وبعد القاءالتراب على النعش، وعندما حيّا اوريليان آل ديني وشركاءَهم المصطفين عند باب المقبرة، تقدّم السيد «ديباريد»نصفَ خطوة منه، وانكسر مثل قطعة من الخشب اليابس، وهمس عبر شاربه: «أشكرك على مجيئك، سيّد ليرتيلوا... وستكون أختي المسكينة حسّاسة لهذا التكريم..»

خلفَ اوريليان، كان زوجان من الامريكيين لايعرفهما أحدٌ. الرجل بلا قبّعة، بوجهه الضخم الحزين، وامرأة صغيرة مقرّنةٌ، مرّا أمام ا لأسرة دون مصافحة. كان ا لزوجان «مورفي» موزّعيْن بغرابه بين الحزن الذي انتابهما والدهشة التي واجهتهما بها التقاليد المأتمية للبرجوازية الصغيرة الفرنسية.

ذهب ادمون رأساً الى ماري يتحرىّ الأخبار. المسكينة. عبثاً هجرها بول.. لقد كانت في حالة عصبية مرعبة جداً. أهملت كلّ شيء. وكسرت كأساً كبيرة ثمينة كانت تحرص عليها أشدّ الحرص: «سأقول لروز أن تأتي لتراك.. - آه! هذا ، لا! أحب روز كثيراً لكن.. هناك مناسبات.. روز رقيقة القلب. لكنها مضايقة. طبعاً أنت... المسرح، لايشدّني، في هذه اللحظة!

كم كانت ظالمة! روز التي تتّصف بكثير من اللباقة. تحدّثا عن روز، لكنها لم تكن هي المقصودة. ولم يكن ليخطر لإدمون إطلاقاً أن يسمّي ابنة عمه. بيد أن ماري انفجرت. لقد قتلتْه، ادمون. لقد قتلتْه! وكانت السيدة دي بيرسيفال تكره بيرينيس. آه، قصة الزنوج غير واردة! لقد تحدّثتْ مع ليرتيلوا ، فقال لها كانت آخر كلمة من بول. «سأقتل نفسي» وإذن! انتحار. بسبب هذه المرأة. والغيرة غير واردة. لقد قتلته، وهذا كلّ مافي الأمر.

أراد ادمون ان يقف على جليّة الأمر، فذهب يستنطق اوريليان. تعب حتى لقّيه. هاتفه لم يجب، كان مشغولاً، مشغولاً، لعله رفع السماعة. وعندما أدركه وهو يثب من سريره، في ثاني يوم، كان الآخر سيّء المزاج، ولم يستخلص منه شيئاً. كان ذلك حادثاً، مُنعكساً من هذا الصبي غير المعقول... لا، لاشيء يريد أن يبلّغ السيدة موريل به من جانبه. لاشيء. وفكّر ستكون مسرورة أن يُقتل وول من أجلها، هذه المرة، حصلت على المطلق«في الحب! يا للحقارة.!

أقبل وفدٌ من أصدقاء الميت الى جزيرة «سن لويس»، جان فريدريك سيكر، مينستريل، وآخران. أرادوا أن يكوّنوا فكرة عن الحدث. وأن يحدّوا من الروايات المُختلفة.. بدا فريدريك متأثراً تأثراً جاداً. وأسبغت عليه عيناه هيئة سمكةٍ مُطاردة.. وكان في نيّتهم البحث أيضاً في «جيفيرني»، في الطاحونة، وفي منزل مورفي، كما أنهم سيذهبون ليسألوا السيدة «دي بيرسيفال»، وقد وجد اوريليان في لهجتهم التفتيشية براءة قد تغدو كريهة. بقوا هنا أكثر من ساعتين وقد ملؤوا البيت بالدخان وبأعقاب السجائر. ثم جاء دور «فوشز» عند اوريليان، أراد ان يعترف له اوريليان. وكان لديه مخطوطةٌ صغيرة غير مطبوعة

لبول ديني، ولا بأس بها في عدد «الكوخ» القادم، لكن لا بدلها من تمهيد أنت الذي كنتَ أحد أصدقائه.. كان هذا مطلباً فوق الطاقة. ولم أكد أعرفه. لكن قصة الزنوج أخيراً، ماذا تُبْطنُ؟ طرده اوريليان.

تسرّع فوشز حين أعلم بذلك كله «ستيفان دوبوي». كان يشارك مشاركة غير منتظمة في مجلة اسبوعية مسرحية وأدبية كانت دائماً في عجز مالي. وفُتن مُدير هده المجلة بأنه سبق فوشز الى القضية. وقد نشر جنباً الى جنب مقالةً لرينيه ماران حول المسألة الزنجية، وورقة دوبوي. الممزوجة بجميع صنوف الاعتبارات حول جماعة ساحة «بيغال»، مينستريل، والتشاؤم والدادائية والأصول «الميونيخية» لذلك كله، والأشربة المقبّلة التي كان يتناولها الميت. شراب المانداريين الخالص. وكان فخوراً مع ذلك بأن يريك بأن ذلك كان يقرض رخام الطاولات. بصرف النظر عن التحليل النفسي، «فرويد»، شاركو. والزنوج. الشكل الجديد أيضاً لعقدة اوديب .

جرى اجتماعٌ مستعجل في منزل «مينيستريل. ثار جميع أصدقاء بول، ولاسيمّا فريدريك. ما أردأ أهذا المقال! و «دبوبوي» قذارة حقيقية.. وجرى الحديث عن تحطيم أنفه. لن يُسوِّي ذلك شيئاً وقد يكون له استطالات غير مرغوب فيها. ثم إننا عندما ندافع عن بعض الافكار فلا يجوز لنا أن نتوسّخ. وأعدَّ مينيستريل جواباً توجه به الى مدير المجلة، يردّ فيه على المثال نقطة فنقطة، قرأه. جيد جداً. ممتاز. لكن ذلك لايكفي. لابدّ ان بول ديني قد مات من أجل شيءٍ ما، الانتحار، المصادفة، كل هذا جميل جداً. لكن عمله كان تلقائياً. هنا يكمن الشيءُ الأساسي. «الفعل التلقائي» آخر جوادٍ في المعلركة التي تخوضها الجماعة. وفي النهاية، تقرَّر ألا يُترك المجالُ للناس، لأحدٍ ، كي يستغل هذا الموت. كان الموت يخصّهم. ومن حقّهم أن يَهبوا هذا الموت معنىً، سيُصدرون بياناً. يجتمع أربعة او خمسةٌ ويحرّرون بياناً.

في هذه الأمسية، كان هناك واحدٌ تصرّف تصرّفاً غريباً. هو زامورا. لقد تبذّل بشكل مُقرفٍ. لقد قطع الحديث ليروي حكايةً ويتكلم عن ساقي راقصة

الحاصل أنه لم يُجار الجوّ على الإطلاق. والسيدة «غودمان» التي لم تقل شيئاً. والتي خرجت عن صمتها في نهاية الأمسية لتتحدّث عن «روز ملروز» و «شارل روسيل». وبالمناسبة فان هذا الخياط قد جاء ليرى «مينيستريل»: كان مستعداً لأن يشتري كل ما لعله مرّ بيد «بول ديني»، المخطوطات والقصائد والرسائل.. وحتى الموسيقا المنسوخة... احتجّوا، لكن أحدهم استرعى أنظارهم الى أن الأفضل لذكرى بول أن يُجمعَ كلُّ شيء، وسيوصي «روسيل» بمجموعاته لمدينة باريس. وهنا انتاب زامورا ضحكٌ جنوني في غير محلّه. فخاشنه مينيستريل. وكان الرسام شديد الخبثُ، فاتخّذ الحديثُ مساراً سامّاً، ورمى أحدهم الآخر بأحقاده القديمة. بأشياء كانت تُظنُّ منسيّة، بل كانت تُظَنُّ خافية على النظر. السنة الماضية في «الباليهات الروسية»: وعندئذ لم يجد «مينيستريل» مايقوله وهو الذي.. كان الفراق بينهما أقرب الى البرودة.

نتَج عن ذلك ان عدد المجلّة التالي نشر ردّ مينستريل بخط صغير مع حذف لبعض المقاطع، في زاوية من المجلة، في حين أن الصفحة الأولى نشرْت مقابلة مع «زامورا» مزيّنة بصورته. وبلوحات له، وبرسم يزعم أنه بول ديني، وصورة خاطفة التقطتها «زايس» السيدة «غودمان» في السنة الفائتة، وفيها يُرى «بول ديني» في «توكيه»، وزامورا وفتاة اسبانية، في منزل السيدة «دي بيرسيفال»، وكانت المقالة مسرفة السخرية، تهزأ من «الفعل التلقائي»، وأعلن زامورا أنه كان يعرف التحليل النفسي قبل «فرويد»، وروى قصةً عن كلب الأوكار. كان ذلك قطيعة مع مينيستريل وأصدقائه الذين اختلط بهم، كما يقول لأن العفونة صحيّة، ولاسيّما عندما نستحّم بعدها جيداً. وصرّح: «على العموم، إني أبدِّل أصدقائي كما أبدّل جواربي، لأن ذلك أنظف».

ثم تطرّق الى موت «بول ديني»، واستنكر الصخب الدعائي الذي أراد أصحابُه الصغار أن يثيروه. والواقع أن القضية لم تكن إطلاقاً الدفاعَ عن الزنوج، ولا تلك الرومانسيّة المغشوشة، القديمة قدمَ القاطرات. لقد انتحر بول ديني من أجل امرأة، كل الناس يعرفون ذلك لكنهم، لايقولونه، لأنهم يجدون هذا

الانتحار قد عفا عليه الزمنُ. ولاشك أنه قد عفا عليه الزمن كالبطاقات البريدية، وسوق الأشياء العتيقة، الخ، وإن كان سائداً لدى الرجال المزيّفي الحداثة، هؤلاء المدّعي الفن الرمزيين المتخلّفين. لكن «ديني» كان ضحيّة، ضعيفاً عانى جوّ ساحة «بيغال». ولم نعدْ بحاجةٍ الى هذا، ولا الى الفن الذي يعكس تلك العادة المدبّرة، عادة قرض الأظافر. وكانت مناسبةً ملائمةً له ليصفّي حسابه مع الطليعة كلّها التي كانت ترعبه، وفي الوقت نفسه مع «بيكاسو» عدوّه اللدود. وقد مزج «كوكتو» بذلك كله لكي لايتعرّف على الأمر أحدٌ.

وهنا سألت المقابلةُ. «وتلك المرأة الخفيّة؟... إن لم يكن في ذلك شيءٌ من الفضول!» تصنّع زامورا اللباقة، لكنه شرح في طريقه أنه يعرفها جيّداً. وأنها امرأةٌ مثيرة، كان قد رسم صورتها. وأنها عاشت مع المرحوم في «جيفرني». وأتاح له ذلك التعرّض «لمونيه» بالنميمة. ومن الواضح، أن هؤلاء الشباب مازالوا مفتونين بالنيلوفر. ولاسيما بتصوير «برنهيم».

وفي رأي زامورا ان «الجميع كانوا يعلمون» أن «برنهيم» ذاته (وكان يمارس الرسم الذي لايزيد رداءةً عن غيره باسم جورج فيلييه) هو الذي كان يبتكر جميع اللوحات ويبيعها ويوقع عليها باسم «مونيه» ديغا، سورا، ماتيس، روسيل... بحسب مزاجه اليومي. وكان زامورا، شخصياً، لايجد أي مانع في ذلك، وكان، على الأغلب يكلّف السيد غودمان أن يعمل له لوحاته إذا ما أراد برنهيم أن يعمل لوحاتٍ باسمه... على كل حال، كان لابّد من فن جديدٍ، إذا ما أريد الخروج من ذلك كله، كفن زامورا يكون فيه كل شيء جديداً، مطليّاً بالنيكل، كيميائياً -كهربائياً، مع أولاد جميلين بطحين «نسله»، دون أي ظلٍّ من التكعيبيّة والانطباعية، والوحشية على وجه الخصوص.

صدر بيان «مينيستريل» في هذه الأثناء. لكنه تأخّراً كبيراً عن أن يحسب حساباً لهذه المقالة الرعناء التي أثارت أشدّ الغيظ.

هاج فرديدريك سيكر. أن يُستخْدم بول هذا الاستخدام! «ولاحظوا أن أسوأ مافي الأمر. محاولة الإغراء إزاء «برنهيم»! أن ذلك القذر يأمل ان يثير

اهتمام بائع اللوحات بتصويره، وهو الذي استعصى عليه إرضاؤه!

جاء «جان بيير بيداريد» الى جزيرة «سان لويس» ومعه عتاده: الصحف والمجلات والبيان... وصاحبٌ بدا عليه أنه يُجلّه، وهو رجلٌ في الأربعين يرتدي بنطالاً مقلّماً، وسترة رمادية حديدية، وقبّعة قش، رجلٌ حليق، مقرّن الوجه «دبّ الشيبُ الى رأسه، وبدا عليه كأنه ممثّل من الضفة اليسرى، وفي يديه خواتم، وهما تتحركان بجملة من الحركات العريضة. كان هذا بكل بساطة، «ارنالد دي بفيستر»، الروائي «دي بفيستر»، البسيكولوجي الكبير. ذلك أن هذه الحالة تتطلّب بسيكولوجياً.

قال السيد «بيداريد»، وهو يخلع مشمّعه:

- أنت تدرك لماذا جئتُ بـ «ارنالد دي بفيستر». يجب أن نقف على جليّة الأمر، ولي أعظم الثقة بكاتب «الوحش ذو مئة الوجه». تحية سريعة.

أجاب السيد «دي بفيستر» ببعض إيماءات بخواتمه، تنم على التواضع.

«لا تقلْ لا، يا عزيزي، أنت تعلم أنني أثق بك!

كان المنكودُ الحظ اوريليان بين هاتين الدميتين، في شقّته التي اجتيحت، وقد ألقيتْ تلك الأوراق على الطاولة. وردَّ السيدُ «دي بفيستر» شعره الطويل الى الخلف، وهو يمسّده بيديه. كان الروائي يكره « مينيسستريل» وأصحابه وكانت قضية «ديني فرصة لامثيل لها، وكذلك تعدّد الآراء بصددها. وقد هاجم هجوماً لاذعاً جداً ربّ البيت الذي لم يسعه إلا أن يكون أحد اولئك الطليعيّين المضحكين، ككلّ أصدقاء الميت. وخلق ذلك سوء تفاهم لانهاية له. وعندما ردّه اوريليان عن خطئه ردّاً لا يخلو من مشقّة، تضجرّ ذلك البيسكولوجي. لكنه غيّر لهجته. وكان على اوريليان أن يكابد خطبةً عن اللاشعور والشعور وماتحت الشعور. والنزعة الجنسية الشاملة، نعم، ياسيدي، النزعة الجنسية الشاملة! ما حاجتنا الى ذلك في فرنسا؟ هذا يصلح للانجلوسكسون المصابين بالإمساك أو الجرمان السكنديناڤيين المتجمّدين! كان السيد بيداريد يهزّ رأسه. ووجد أن هؤلاء الشباب قد ضلوّا الطريق قليلاً. ومايودّ ان يعرفه هو، لماذا ضحّى بول بنفسه كما يقال، ان كان عاشقاً لامرأةٍ راقيةٍ من أجل الزنوج. وهو في الواقع قد أنقذ امريكياً! «وجاء الناسُ يقولون ذلك لأمه المسكينة..

قاطعه «ارنالد دي يفيستر»،كان من أنصار اتلاف.. لا أقول أعمال جميع هؤلاء المسطوحين. انظرْ الى مايقوله «زامورا» وهو ليس بأفضل منهم، لكنه، في النهاية خبيرٌ بهم. وهو رجل بالغ الذكاءورجل رياضة، واحد، اثنان! وأضيف الحمّامات! وفجأة تجمّد، وشخص بعينيه، وفغر فاه، وبدت عليه الرهافة، مع تنوّع الانفعالات على الوجه، كما نتصوّر افلاطون داخلاً عالم المثل. قال:

« هذه، هذه!» وأشار الى صورة بيرينيس

ـ آه! لايمكن الآن للسيد ليريتلوا ان يحاول التخلّص وأن يزعم انه لاعلاقة له مع اولئك المنحطّين!» أترى، ياعزيزي بيداريد، الطابع العُصابي في هذا الرسم؟ من نوع النُوام، التجسيد، المخدّرات، دار المجانين؟

بدأ اوريليان يغضب ، أوشك أن يطردهما بلطف عندما ألمّ بعالم النفس إشراقةٌ. لكن تلك السيّدة المحاطة بالأسرار! لقد رسم زامورا صورتها! لاشك في ذلك! وإذن... الصورة عند شاهد جريمة القتل... لأن ماجرى هو، في النهاية، جريمةُ قتل...

تنهّد السيد «بيراديد»:

ـ إنه عجيب! هو شرلوك هولمز بلحمه ودمه!

كانت هذه القصة كريهة. ماكان يجب أن تُحشر بيرينيس في ذلك كله. ولو أنه طرد هذين الدخيلين بناء على هذه الملاحظة لهداهما الى الطريق. ولذلك اضطُرَّ أن يتحمّل أكثر من ساعة، هذه المسخرة، سيلان أفكار الرجل، وهوسه البسيكولوجي، وكرهه، وهزليّاته.

في المساء ذاته، استشار دليل الخطوط الحديدية، وجهز حقائبه، وتأكد من أن جواز سفره لم تمضِ مدّته. قرّر أن يُسافر الى «التيرول» حيث يستطيع، مع سقوط العرش، ان يبيح لنفسه جميع أنواع الانحرافات. وسيتخلص قبل كل شيء، من رؤية عصابة المجانين هذه، ولن يسمع شيئاً من ذلك بعد الآن، ثم سوف يعيش في شيء من البحبوحة ليستعيد قواه، لينسى. هناك فوق

«أنسبروك». طرقٌ على الذرى يستطيع المرءُ ان يمشي فيها ساعاتٍ وساعات ولاشيء معه سوى الشمس والريح... سوى ا لشمس والريح... سوى الشمس. والريح... وفي القطار الذي أقلَّه، كان يردّد ذلك مثل اسطوانه ممحوّة.

لاشيء سوى الشمس... لكنه كان يعرف هذه العبارة! فبماذا تذكّره؟ من المستحيل ان يجد ذلك في دماغه... لاشيء سوى الشمس والريح...



«انظرْ قليلاً: بيرينيس الصغيرة التافهة هذه، يتقاتل الزنوج من أجلها!».

هزّ ادمون كتفيه. كانت روز تبالغ برفق. كان يفضل، أخيراً ان تتخلى عن لازمتها: لقد أصبحت في ا لأوقات الأخيرة، مزعجة بمسرحها الذي ليس من السهل تدبيره. كان لابدّ لها من المسرح اولاً، ثم المال، ثم أن يدّر المالُ دخلاً وأن يكون ثمة تغطية، وشخص يضطلع بهذه المهام. قالت بأسف:

ـ لم يعد الناس يقتلون أنفسهم أو يتقاتلون من أجلي... هل امرأتك في حالة حسنة!

هزئ، قالت:

ـ لأنني أشكُّ أنك تخدعني معها، اوه لاتقلْ لا! أنت منحرف. ناولْني قميصي الداخلي.

كانت تجهّز حقيبتها. مرة أخرى. لقد عادت قبل قليل من «داكس» ،من استشفائها السنوي مع «جيكي» الذي عُيّن في المؤسسة. وقد تركته هناك. كان هذا هو الموسم الميت بالنسبة الى مؤسسة ملروز. ثلاثة أسابيع في «داكس». التضحية التي قُدِّمت «لديكور» كافيةٌ هكذا. وبعد بضعة أيام في باريس،، ولقاء ادمون فسوف تسافر من جديد، وستأخذه معها الى السويد. وهذه أول مرة يسافر فيها ادمون هكذا في رحلة.

ستمثّل «روز» جيوكوندا في ستوكهولم، قال: «داننزيو» هذا لا أطيقه!»

ـ اوه ! إنه يغار، أنا أعبدك! لكن لاتنسَ مسرحي..

ـ سيهتمّ ادريان بذلك أثنا سفري..

ـ وهل عوفي تماماً، ساقُه؟

ـ اوه! إنه مايزال بحاجة الى عكاز. لكن في النهاية...

ـ أنت مدين له. لابسبب الصغيرة فقط، الحبيبة الصغيرة! لكن تصوّرْ الأنغام التي كنت ستسمعها من امرأتك لو دُهست الصغيرة! اوه ويا للضجر! أحبّ ألا أفكرّ في ذلك...

غيّرت علاقاتها طابعها. وربما كان ذلك لتعويض فراق الشتاء: غدت أكثر

ألفة وحميميّة، كان ادمون ينفصل كلّياً عن بلانشيت التي هدأت الآن وأقلعت عن أسئلتها، كان يملّ معها، كان شهر اب بديعاً في ستوكهولم، لقيت فيها روز فتى جمالهُ صاعقٌ، وعلى شيء من الرخاوة، وقد أغرم بها، وفوق ذلك فقد كان يملك كل ثقاب البلاد، وقد عرض عليها ان يشتري لها مسرح «الشانزيليزيه»، ،كان هذدا المسرح محطّ أنظار الناس في ستوكهولم بسبب الباليهات السويدية لجان بورلان. ويمكن ان يتمّ ترتيبٌ مع «رولف دي ماري» الذي قد يستخدم الاوبرا، الصالة الكبرى، قال ادمون:

- اصغي، ياصغيرتي إن أعجبكِ فضاجعيه، لستُ أبالي: لكن إن أخذت ماله فسوف ينتهي الأمرُ بيننا، وإلا فكيف سأبدو؟

قبّلته: «أنت مضحكٌ جداً! أنت تعجبني، ثم إن المرأة لاتخدع رجلاً له مالكَ من متاع جميل.

وأيّ متاع جميل لباربنتان! لكنه أبرق أخيراً لأدريان ليقوم بما هو ضروري من أجل المعهد الرياضي إن لم يأخذه «برنستين»، فليكن، المعهد خيرٌ من مسرح «الشانزيليزيه».

على كل حال لم يكن تاجر الثقاب شيئاً ذا بال في الفراش... ثم النرويج... ممثلة مثل روز ملرون، ولا تعرف النرويج! بلد «ابسن» تفهمين، وإذن فقد ذهبا الى النرويج، وكتب «ادريان» أن الإمور لا تسير سيراً حسناً في مجمّع الشركات مع جماعة «باليد»: معارضة مطلقة في قضيّة بيع الوقود في باريس، ياه، ماعلى ادريان إلا أن يهتمّ بهذا المجمّع الذي لم يكن يهمّ ادمون! إلا بمقدار ما يَضمْن حريّته، فإذا حدّ من حريته فليذهبْ الى الشيطان! فلسنا من الأخسّاء، وفي غضون ذلك، لم يذكر ادريان المعهد، وإذا لم نستطع ان نحصل على المعهد فمن الأفضل ألا نحتقر مسرح «الشانزيليزيه».

- لكن بما أن «ايغار» ليس شيئاً ذا بال على الفراش، ياعزيزتي؟

- ليس شيئاً ذا بال، ليس شيئاً ذا بال: لست مهتمة الى هذا الحد كله!

وصلتهما كلمة من ماري وهما في«نرويك»، وفيها تمزج بين قصص عن

العطور وبين حزنها على موت بول. وتحدّثت كثيراً عن هذا الموسيقي الشاب، صديق المرحوم، جان فريديريك ماشنشويت، ولاشك أنها ضاجعته. لكن الدكتور كتب الى زوجته رسائل تفتّت الأكباد... أرادت روز أن تعود. سيطلعون على حقيقة أمور المعهد. وهي مدينةٌ ببعض الأيام «لجيكي». خنزيرٌ ادمون. أي متاعٍ متاعُهَ،

- اسمعي، لاهدوء للمرء معك، أنت لاتفكّرين بغير مسرحكِ...
- وبزوجي. فأنا مهمومةٌ له. ثم ماذا تفعل بي، إن لي حرفتي.
- ومؤسسة ملروز؟ لعلها ليست شيئاً؟ وسوف يشغلها جيكي.
- لم أقلْ ليست شيئاً، لكنني لم أخلق لكي لا أكون سوى ماركة

للعطور... عند عودتهما، في ايلول، لم تكن بلانشيت في شارع رينوار. لقد قادت الصغيرتين الى دارتهم في «بيارتيز». وجرّت روز «ديكور» وراءها. وكان يتكلمَ بالأرقام طوال الوقت. المؤسسة تسير سيراً حسناً بل مفرط الحسن. ولايبدو أن العطلة وموسم «داكس» قد خفّفت من ذلك السباق الجهنّمي. ولابدّ من طلب أموال جديدة للتداول. إذ أن الطلبات قد تجاوزت الحدّ توتر لقد فقد الناسُ إحساسهم! وتعقّدت قضيةُ المعهد، وكان الأجدر أن يكون المشروعُ أصغر، لكن روز هنا، تتهيّأ للمشاحنة. فباريس في الصيف تؤثر الأعصاب. ولاسيما أنه قد تشكلّ في شركة السيارات تجمّعٌ من المساهمين الصغار يطلبون الحسابات، وينوون ان يدسّوا أنوفهم في كل مكان. ويصيحون ضدّ مختلف الشركات العقارية، ويتحدّثون عن الرَسْملة.

قال ادمون لإدريان:

- سأصبح عنزاً إن بقيتُ هنا. اهتّم أنتَ بكل شيء. وساقُكَ، بالمناسبة؟ قلّما كان يظهر بها.. يمّم باربنتان شطر «بيارتيز». كبرتْ الصغيرتان. كانت أمهما متحفّظة، وبدت متخدّرة، كأنها في حلم. في الكازينو كان اللاعبون موسرين. كان ادمون محظوظاً. وكانت «ديان دي نيتنبرج» رائعة «تختال بين الطاولات، ولم يكن «شلزر» بعيداً جداً. كانت تُرى كثيراً مع مصارع ثيران، مما

دفع الناس الى التقوّل. فاجأت «روز» ادمون. لقد أخذت غرفة في « سان جان دي لوز». وعندما رأته يقامر غضبتْ. «ترفض مسرحاً لي وترمي بمالك من النافذة. إن لك حظّ الزوج المخدوع. لكن لا كما تفكّر أنتَ! قضى معها ثمانية أيام في «سان جان». لم تعد بلانشيت تبالي بشيء، لكن هذه الزحمة! يُسحق المرء هنا. ثم إن اسبانيا قريبة جداً، وهي مُغرية. كانت روز تبدو وطنية متطرفة عندما يحلو لها ذلك. بلاد الباسك جميلة جداً. لكن، لكن... ألا تَعْني «طليطلة» شيئاً لك؟ الى طليطلة. هاجمته بصدد الملعب. انظرْ الى مايُكتَبُ إليّ، لا، انظرْ! جملةٌ من المزعجات.. «بالميد»، تحقيق عن شركة السيارات، ما أدراني؟ قالت: «لستُ امرأةَ أعمال.. ولست أفهم شيئاً فيها...» حينئذ قصدا الاندلس.

في الأيام الأولى من تشرين الأول، عندما نزلا في قرطبة، كانت اللافتات ماتزال ممدودة فوق الشوارع الضيّقة. كانت الحرارة رائعةً . وعند المساء بعذوبته المكسيكية، كان يفوح أريجُ أشجار البرتقال. وكان كلُّ شيء رومانسياً بتلك الحدائق غير المنظورة، وبالرجال المتشبثين بشباك النوافذ التي نتصوّر خلفها حبيباتهم ومربياتهن قربهن. قالت روز:

- أعتقد حقاً أني سأصبح سعيدة لو علمت فقط أن أمر المعهد سيُسوى.

وفجأة إذا ببرقية تستدعي ادمون الى باريس: كانت بلانشيت تطلب الطلاق: «ماذا دهاها؟ سوف أتدبّر الأمر... ابقي هنا إذا شئتِ، أما أنا فسأذهب.

- اوه! ما أحزن ذلك! لكن كم كنتُ أود أن أذهب الى اشبيلية. لقد قلتُ لك من قبل أن امرأتك ليست سوى برجوازية... سنقع في ورطةٍ إذا تخلّتْ عنا!

- قلتُ لكِ سأسوّي كلّ شيء.

- لاتنسَ المعهد!

لقد كان المعهد هو الموضوع حقا. بل بدا أنه القطرة التي طفَحَ بها الكيلُ، وكيف علمت بلانشيت بذلك؟ وهي في النهاية، لاتطلب الطلاق فقط لكنها طلبت أن يتم البحث في أعمال ادمون، بحجّة الصغيرتين. ثم إنها ماكرة! فعندما كانت تبدو في «بيارتيز» غير مبالية، أرسلت المخبرين على آثاره. في «سان جان

لون»، دفع حساب السيدة ملروز. وكان يسكن قريبها، وهناك شهادت من الخدم. ثم ألم يعدْ من السويد؟ كما شوهدا في اسبانيا. القذرة! بلانشيت هذه التي كانت تتظاهر بأنها تكتشف... نعم، إنها تركض وراء فلوسها. قال المحامي له: «نعم، لقد كنتَ غيرَ حذرٍ».

هُرِعَ بارينتان الى أبيه هل يُدرك الوزير ماذا ستفعل الصحافة بهذا الطلاق إذا أعلن؟ والسيارات، ومصلحة الضرائب التي بدأت قصصها بسبب بلاهة صغار المالكين. سأله الشيخُ

«وبالميد... مادخلُ «بالميد» في ذلك كله..» آه! لايجوز أن نُفاجأ هكذا. لقد شَرَحتُ لك مئة مرة..

«بالميد، ياصغيري» هو الحزب.. وفي آخر مؤتمر صوّتنا معاً، لعله لايجوز أن يضع الراديكاليون العقبات بعضهم لبعض!

لن تردّه عمّا هو فيه، وما غاظ صاحبَ السعادة، على الخصوص، ان الشرطة سيئة التكوين الى حد أن زوجة ابنه أمكنها أن تطلب الطلاق دون أن يُخْطَرَ بذلك على الفور. «سوف أشكو ذلك في «الداخلية»، وكيف حال السيدة ملروز؟ «ياالهي! لقد أهمل ادمون التفكير في المؤسسة! ولو أثيرتْ هذه القصة أيضاً... «وأنت رئيس مجلس الإدارة، لاتنسَ!» هزّ الأبُ كتفيه. سيُحدّث «بوانكاريه» عن ذلك كله

ومما زاد الطينَ بلّةً أن ادريان لم يكن في باريس. كان شارع «بييه ويل» كئيباً في الخريف... ولم يكن «سيمونو» في المستوى المطلوب. كان مستخدماً ممتازاً، وموضعاً للثقة، لكن بالنسبة الى المبادرات في حالات خارجةٍ عن المألوف! وقد ساد المكاتب ذعرٌ ثقيل الظلّ. كانت عينا الآنسة ماري حمراوين. وتاه ادمون في ركام الأوراق. سيمونو، على الأقل، كان واثقاً من أن عملية السنة الماضية يتعذر تعقّب أثرها. لم يكن سيمونو واثقاً من شيء. لايجب أن ينسى مؤسسة ملروز.. كان ينبغي ان يرى ماري، ليرتيلوا، وما شنشويت رسّام روز..

كانت ماري تبادل «فريدريك» المودّة، وقد لحقتْ به الى لندن حيث كان يقدّم عزفاً منفردا. وكان العم «امبيريو» متعذّر الوجود لهذا السبب البسيط وهو أنه أراد هو أيضا مثل اوريليان، ان يستغل الفرصة ،ليجدّد العهدَ مع أصدقائه القدامى في ميونيخ. ولقد فُصل عنهم طويلاً بتلك المكلبة!.. ولم يأسف ادمون على غيابهم لأسباب اجتماعية. كان ينبغي له أن يدبّر أموره دونهم.. ليس هناك آجر للمؤسسة؟ سيمونو! سيدي؟ «أرسلْ برقيّةً الى «آرنو» في «سيريان».. أقال إنه سيذهب الى سيريان؟ وكتب الى «روز» كي تعود. ليس هذا الوقتُ وقتُ تبذير المال. آه! نعم، يجب ألا أنسى مؤسسة التجميل. الآنسة «آغاتوبولوس» في وجنتها دملٌ، هذا يصلح طبعاً كإعلان لمؤسّسة التجميل!

أوضح المحاسبُ لإدمون أنه بحاجة الى مئة ألف فرنك لاستحقاق منتصف الشهر. والناسُ لم يكونوا يدفعون. لذيذ! أما «ديكور» فكان يسكر سكراً شديداً. وبعد مرور موسم «داكس» لابد من سنة لتتفرّغ روز حقّاً له سأل ادمون ما الذي فعله بامرأته، سؤالاً فيه شيءٌ من الكبرياء ومن التذلّل الفظيع. كانت جميلةً، باريس. لكن ليت اوريليان هنا. إذن لكانت الأمسيات محمولةً. إنه شخصٌ مريحٌ جداً ويمكن التفكير معه بصوتٍ عال. لكن ذلك غير ممكن،الآن، إن ليرتيلوا مسافرٌ في ألمانيا. فبعد ان انتشى بالجبال، انحدر من «التيرول» الى «سالزكاميرغوت»، ومنها الى «فيينا». ومن فيينا الى برلين. ومادم «المارك» يسير هذه المسيرة فلن يعود قريباً. كان يرسل بطاقات بريدية ملوّنة وقد وجد ادمون ثلاثاً منها أو أربعاً في شارع رينوار! إنه لمأزقٌ حرجٌ! استقلّ القطارَ الى بياريتز، فلم يجد بلانشيت فيها. لقد مضت الى «آنتيب». ذهبت لتضع نفسها في حماية حماتها. وذلك يُميت من الضحك. بلانشيت عند كارلوتا. ليست عند كارلوتا، بل بجنبها. في الجناح الذي بنياه لهما. مع كارلوتا، حسنٌ ستكون كارلوتا شريكة متواطئة معه. في هذا المكان الطريق من بياريتز الى آنتيب جهنميّة حقاً مع هذه التغيّرات، وقطارات الجنوب الغربي، لايُحتمل ذلك! ولانهاية له!

ليت سيارته معه على الأقل.كان ادمون طوال الطريق يقدّر النفقات، وكلما فكّر فيها ازداد اغتباطاً بالحصول على دعم كارلوتا. بيد أن كارلوتا كانت في مصر تغيّر الجوّ. فلم تكد ترى كنّتها تستقر مع بنتيها في الجناح حتى انصرفتْ. هيّا، يجب عليه أن يكابد المشاحنة الكبرى مع بلانشيت.

أخذ غرفةً في «جوان ليبان»، وذهب الى الحلاّق، فقُصَّتْ له أظافره، ودُلِّك. كانت «جوان ليبان» في تشرين الأول، تزعزعها ريحٌ عاتية،. خسر عشرة آلاف فرنك في «الكازينو». هل يتراجع أمام العقبة؟ لقد منح نفسه أربعاً وعشرين ساعة قبل أن يقرب بلانشيت. ليجعل الجمعة تمرّ... لم يعدْ واثقاً من نفسه.



كان الفندق بجدرانه السميكة، المبنيّ للثلج، بارداً في قلب الصيف، وكان اوريليان يضيع فيه بين الممرّات المظلمة والجدران المطلية بالكلس. وكأن فيه شيئاً من الدير وشيئاً من فندق ملتقى الأجانب لقد عسكر جندُ نابليون في المنطقة، وأقام مارشالٌ هنا. يقع هذا الفندق في الضيعة بالذات، في قاع الشارع المتسلّق من الجانبين. وهو يغص بجمع غفير كلّه من لأجانب. لم يكن ليريتلوا يحادث أحداً. كانت تغيظه قلّةُ لباقة الناس. كان لهم طرائقهم في إخراج الأوراق النقدية وفي عرضهم لعشرة آلاف كورون أمام الخدم! والحقيقة أن الخدم كانوا يهزؤون من ذلك. لم يكن ينقص شيءُ على الإجمال. الحليب موجودٌ والبيض والفواكه ومالابأس به من اللحم. ذلك فظيعٌ، في المدن ُعلى مايبدو. أما في الريف! فالمرءُ يخلّص نفسه دائماً في الريف. ياله من بلدٍ رائع! تلك الوديان المنخفضة مع الشلالات في أعماقها، والسفوح الخضراء، والكنائس المبعثرة هنا وهناك، والقليلة الشبّه بالتي في بلادنا، البيضاء بسطوحها الخضراء، والقبة الشرقية، الغريبُ الريفي في كل مكان... والبيوت الخشبيّة، المنخفضة، كلّها سقوفٌ. الناس نظيفون، وديعون، مهذّبون. وكان اوريليان يحب ان يردّ على تحيّتهم! على الطرقات. أعداءٌ؟ الحقيقة أن ذلك لايُصدق.

فوق «ستيناخ»، كانت الجولات التقليدية التي تحتاج الى بضعة أيام، وكان ليرتيلوا يقضي أيامه في الجبال الوعرة والموحشة حيث الدروب غير واضحة المعالم أو قليلة الوضوح، بلا دليل، وكما يتيسّر له، بالرعم من نصائح صاحب الفندق المتخّوفة. وكان يبلغ المرتفع مباشرة عبر الغابة، وهو مرتفعٌ مستعصٍ عل التوقّل، ومنه تعلّم أن يصل الى خواصر الجبل الجرداء في بلد من القمم. كان يمضي صباحاً قبل الفجر، بحيث يكون في ساعة مبكّرة، في حقل «اديلويس» بعد ثلاثة ساعات من التسلّق، ومن هناك يلتفت خلفه فيرى تصالب

الأدوية، حتى «انسبروك» في الشمال، وهناك في الجنوب نحو «الدولوميت»، كان هذا حقاً سقف اوروبا، حيث نتشوف سويسرا وايطاليا. هنا تبدأ الوحشة العظيمة للمرتفعات.

من هنا كان اوريليان يحاول بضراوة ألا يقطع صلته، بالسماء، غير مبال بمخاطر التسلق. ومعه عصا علّق بها قميصه، وهو عاري الجذع، بلا قبعّة، وقد أحرقته الشمسُ، مع بقايا ممتقعة من ضربات الشمس في الأيام الاولى. كان يسلك هذه الذروة أو تلك أو غيرها دون اعتبار للبركان. أو نصائح صاحب الفندق المضادّة. وهذه الذرى جليّةٌ في هذه الانحاء مثل حدّ السيف، وهي تكوّن هنا وهناك أسواراً يعبرها المرءُ عبر مداخن حيث تنفصل الأحجارُ الضخمة عند أقل نأمة. وقد تخبّىءُ زواياها المباغتة مفاجآت. فيكتشف المرءُ فجأةً سفحاً آخر، ووادياً مثل ساقية الجبال، وهوّة تتلوى فيها أفعى من المعدن تتفتح محارتُها عن شلال بحذاء غابةٍ في الأسفل. وبعد ذلك جحيمٌ من الصخور، جيبٌ ضخم من الوحشة. ويَعودُ الى الذروة، الى خطّ الفصل بين عالمين، ألف مترٍ هنا، ثماني مئة هناك، عالم من الأغوار تحت قدميه. والشمس الهائلة فوق ذلك كله ، تلقي ظلال قمم الجبال وهي تدور في تلك المنخفضات الجبّارة. ولا يلاحظ المرءُ من ذاته لفحَ نار السماء لفرطماينعش الهواءُ الجلد، ولفرط مايبدو الظل غير جدير بهذه المرتفعات ، وأنه إنما صُنع لتلك المناطق المنخفضة، ويُؤْخَذُ المرءُ بنشوة المشي والجهد والصعوبة المقهورة. وهو يكبر بعلوّ الجبال. أيّةُ قوّة لايجدها في العزلة! قوّته في ألاّ يفكّر في شيء. الى الحدّ الذي يتشبّع فيه بالمشهد، الى الحد الذي يغدو فيه عَبْدَ عينيه، وعبد هذا العالم النقيّ وغير المتناسب، بحيث يصبح المشهدُ فكرَنا، وجنونَنا، وبحيث يبدو أنه يُملي خطوات الانسان ودّقات قلبه، وحركة أفكاره. وعليه أن يراعي، لدى كلَّ خطوةٍ يخطوها، يقظةً مستمرة لجميع العضلات' ويزعم الأدلاّء أنه إذا شاء المرءُ عبور منطقة الجبال هذه الى المنطقة هناك، التي يوصَلُ إليها، على العموم، بدورةٍ طويلة، لاعبر الذرى، فلابدّ أن يكون قد وُلد في هذا المكان. يالها من نكته ساذجة! يريدون ان يظهروا بمظهر مَنْ لا يُستغنى عنهم، دون شك.

كانت الملاجىء نادرةً في هذه الجهة. وكان ينبغي الرجوع الى «التساليه» وهو الملاذ الوحيد، حيث يستطيع المرءُ أن يستعيد قواه بعد أربع ساعات أو خمس من المشي. وفيه يلقى سيّاحاً، وفلاحين يتمتّعون قبل أن يترنّموا ترنّماً يملأ الانكليزيات بأعظم الفرح. وكهنةً مع جمعيات الرياضيين، أو شباباً في نوع من الرفقة، موزّعين في جماعات صغيرة، ونصف عراة، شقراً وبرونزيين، وفي أعناقهم مداليات. أصدقاء الطبيعة. وآخرون مع نساء ريفيّات.، ألمان على نمط مايُرى في الصور؛ القرن التاسع عشر في كتب غالية الثمن. وكان هناك أيضاً معلمون يرتدون القمصان فقط، ويتميّزون بطريقتهم إذ يمتنعون عن التحية الفلاحية في طريقهم كسائر الناس. ويبدو أن هؤلاء في منظمات اشتراكية. وكان اوريليان لاينحدر الى «ستيناخ»، على الأغلب، إلا عند حلول الظلام؛ وكان يتعشّى في الصالة الكبرى التي تكون فارغةً تقريباً. إذ أن اواخر السيّاح يكونون عند تناول الحلوى، وكان يُسمع في الغرفة المجاورة الشّبابُ وهم يديرون الحاكي.

بيد أنه رأى، ذات مساء، بينما كان يصل الى مدخل القرية في نحو الساعة السادسة، لأنه أحسّ بنذر العاصفة، رأى زوجين ينحدران من الرابية، في مواجهته؛ زوجان مضحكان جلّلتهما الشمسُ الغاربة بذهب الاوبريت. كان الرجلُ متنكراً في هيئة «تيرولي»، عاري الركبتين، بجورب أخضر، وسروال قصير عريض الحمالتين، وصدرة مفتوحة على قميص مطرّز، وقبعة تقليدية عليها ريشةٌ، وهو يبدو كأنه فرنسي من زمنٍ غابر، في الأربعين، شاربهُ نحيفُ، أحمر الوجنتين، يبلغ طولهُ متراً وسبعين، ومعه كلب «سكاي» يقوده، أسود، شعره طويلٌ وخشنٌ، دوديّ الشكل، وأذناه مستدقّتان. وكان جهاز التسلّق في يده الأخرى يكمّل صورة هذه الشخصيّة. وكانت المرأةُ بفستانها الأسود الموشّى بالأزهار، وقبعّة القش التي اشترتها مع الفستان من «انسبروك» بعيدةً عن أن تكون فلاّحةً بُعدَ الرجل عن أن يكون جبليّاً، وقد صبغت عينيها. وخضبت

أظافرها، لكنها كانت فتاة جميلة طويلة، لدنةً يتلوّى عقباها بين الحجارة. تساءل ليرتيلوا: «أين رأيتُ هذين؟ لا شك أنهما لم يبتعدا عن القرية أكثر من ثلاثمائة متر. وفجأة صدرت عنهما حركات عريضة. وإشارات وصرخات. كانا يناديان اوريليان. لا مجال للشك! كانا الزوجين «فلوريس»، جاريه في رصيف «آنجو»، اللذين لقيهما في سوق مونمارتر مع «كوسي دي بالانت». لقد تعكّرت وحدتُه.

لقي كثيراً من المشقّة كي يتفاداهما. لقد استأجرا بيتاً فلاحياً، رُتِّب على نمط لباسهما. وكان لديهما خادمان من المنطقة. وكان الكلب يأكل معهما على المائدة، وقد قتلهما المللُ. لم يكونا يعرفان الألمانية، وكانت السيدة فلوريس تُكلّم خادميها بالإشارات. قال الزوج بأسلوبه البرقيّ تقريباً.

- ليرتيلوا، لولا سعر الأشياء الباهظ حقاً! من الغباء تفويتُ مثل هذه الفرصة.. يعيش المرء بعينيه... ذكرى للزمن الآتي... لحظةٌ مثل هذه الحياة!

كان يملك محلاً لبيع القرطاسية في وسط باريس. ومع ذلك كان ينزعج. تبيّن اوريليان ماسوف يجري، مايهدّده.. فبذل بشرف وسعه لكي يهرب منهم. لقد ضاجع بالطبع، ربجين فلوريس. لاسبيل الى غير ذلك. كانت مضاجعةً يفكّ بها نفسه. ولقد كره دائماً هذا النوع السريع منها. ومن حسن الحظ أن الهواء الطلق يعقبُ ذلك... وجال جولات استمرت يومين أو ثلاثة، وبلغ رُكامَ الثلوج في أعلى الوادي، وصعد حتى الحدود الايطالية حتى «برنير» وتحدث مع حرّاس مركز الحدود. آه! هنا يُحسّ المرءُ ان االحرب قد وقعت... لم يعد يفكّر في بيرينيس بتاتاً.

ومع ذلك فقد كان يحس بالقلق ينمو فيه شيئاً فشيئاً. ويبدو ان ذلك قد بدأ منذ أن تعرّض لهجمة الزوجين «فلوريس». كان يتعب كثيراً، ياالهي!. لكن كانت هناك أمسيات «ستيناخ»، الطويلة، المتباطئة، سحر الليالي الدافىء. وحينئذ يعود الى تسلّق المرتفعات، منذ الفجر. كان يستمتع بالتسلّق، لكن الغريب ان شيئاً قد انكسر، ولم يعد المشهد كافياً ليملأ رأسه. كان يقع له أن

يحلم بمدينة فرنسيّةٍ صغيرة، مركز ناحيةٍ في الجنوب الغربي، مبتذلة ومليئة بالغبار، مع صيدلية في الشارع الرئيسي؛ وكان يتخيل أواخر النهار، عندما يترك الناسُ أعمالهم، ويغصّ ذلك الشارع بالجمع الغفير من الناس لمدة عشر دقائق، وتمرّ بيرينيس، فتحييها جماعةٌ بأسرها من الرجال... «سيّدة موريل! تحيّاتي، سيدة موريل!» وفجأة يتلفّت حوله فلا يرى غير السماء والصخور، وغير دير صغير، في قاع هذا التيه القاحل الممزّق، الشبيه بكومة من الحمصّ، هناك حيث تربطه الأسطورةُ بذكرى «شارل كنت» لأمرٍ لايعلمه أحدٌ.

هيّا. عليّ أن أقول «لريجين» انني أكره ذلك بسبب «فلوريس» سوف تضحك كثيراً. ولقد ضحكتْ كثيراً.

- كفى حماقةً، اوريليان! قلْ لي مارأيكَ بآخر مقتنياتي؟

كانت لوحةً كنسيّةً داكنةً برّاقة من القرن السابع عشر «حديقة زيتون».. أضيفتْ الى مشتريات الزوجين التي لاتُحصى. رسومات فلاّحية بدائية، صور مقدّسة على الزجاج، أصْونة، أقراط، الخ. قال «غونتران فلوريس»: «إنني أتساءل إن كنا سنواجه متاعب مع الجمرك؟ يبدو أن النمساويين قد اتخّذوا تدابير تعسّفية لكي لايتمكن أحدٌ من إخراج شيء من البلد.. هتفت ريجين فلوريس» وهي هائجة.

- لاينقصنا إلا هذا! هل دفعنا ثمنها أم لم ندفع؟ وإذن! فما هولنا...

ظلت محاولات «غونتران» الخجلة لإفهام زوجته ان فكرة الملكية نسبيّة متعلّقة بالأحداث، دون جدوى. «ثم هل نحن، في النهاية، المنتصرون، نعم أم لا؟» كانت هذه أول مرة يسمع فيها اوريليان هذه العبارة من فم امرأة. وتركت فيه أثراً غريباً. على كل حال لم يكن يحب طرائق الارتزاق هذه بين مواطنيه. لم يكن كثير الفخر بهم. وعندما وجد نفسه وحيداً. ذات صباح، على طريق الذرى الذى كان يحب ان يسلكه، في الشمال الشرقي من سيتناخ، وقد تاه قليلاً عن الدرب، معرّضاً جذعه للريح، وصرّةٌ أغراضه على كتفه، وفي داخلها شطيرتان، وقبالته

نحو اثني عشر ألمانياً. من الألمان الحقيقيّين، كلهم يرتدي اللون ذاته البيج والرمادي الأخضر، ومعهم عدة نساء اكتشفن الأجنبيَّ في هذا السائح الأسمر، فهززن قبضاتهن وصرخن بأن هؤلاء الأجانب سيُطردون جميعاً، وعما قريب، وبينما كان الرجال يُهدّئوهن، ويهمسون إليهن، وكان اوريليان مضطراً ان يمرّ أمام الجماعة على الدرب الضيّق بين هوّتين، وبه إحساسٌ أن دفعةً من كتف أحدهم كفيلة بأن تلقى به من علوّ كليومتر، فلم يشعر حقا بأنه جدّ منتصر، وشعر بالخجل ولاسيّما بسبب هذا الإحساس فيه، وهو أنه لو كان مكانهم لشعر في نهاية الأمر، شعورهم' وأن شبيهات «فلوريس» لن يجعلنه يفكّر تفكيراً مختلفاً، على العكس. وأخيراً فإن هذا النوع من الحوادث كان نادراً جداً. فقد كان أهل هذا البلد اللطفَ بعينه.

لقي صعوباتٍ ماليّة؛ تأخر التحويلُ الشهري، حماقة المصرف وسقوط «الكورون» في الوقت نفسه... اوه! يمكنه التخلّص من هذا المأزق، لكنه قبل دعوة «فلوريس»، وحلَّ في غرفة الأصدقاء في الدارة. كان هذا البيتُ فسيحاً· ولم يكلّفهما ذلك سوى غسل الأغطية. ثم إن «ريجين» كانت ستحمل رفضه على محملٍ سيّء.

لم يمنعه ذلك من أن يشعر شعور «ليفنغستون» عندما أطلّت من الأفق قافلةُ «ستانلي»، وذلك حين تلقّى رسالةً من العم «بليز» الذي قصد «ميونيخ» وانعطف انعطافةً صغيرة عبر «انسبرك» ليرى اوريليان ، لكنه كان يطلب منه أن يُوافيه الى هناك، لأن ستينباخ كانت بعيدة جداً عن الطريق.. وما أعظم سروره للقائهما في المحطة ،العمّ والعمة «مارت»، لم يتغيّرا، كانا شبيهين بذاتهما... آه، ان اوريليان يعرف ذلك الطقم العتيق من الحرير الهندي الطبيعي الذي كان «بليز» يخرجه كلَّ عام في مواسم الحرارة! والعمة في طقمها الرمادي، بحقيبتها الكبيرة وشغلُها في داخلها، وعلى رأسها قبّعة القش السوداء.

ـ أنت لاتتغيرين، عمّة مارت! أنت الآن مثلك يوم كنتُ صغيراً، ويوم كنتُ

أذهب لإحضارك مع أمي والجواد الصغير..

قالت بصوتها الأجش:

- تبدو كالملّون، ياصغيري، لكن هذا البلد ليس لنا!

كانت العمةُ مرتعبةً جداً لأنه قد جرى عشيّة أمس نوعٌ من المظاهرة عند صرْح وطنيّ «تيروليّ» أطلق النار قديماً على جند نابليون. وقد أغلق كثيرٌ من التجّار حوانيتهم احتجاجاً على الأجانب.

تنهّد اوريليان

- كأنهم لايحبّوننا هنا..

فردّت «مارت»،

- وأنا أتساءل علام يلوموننا!

هزّ كتفيه، لكن العمّ اوضح:

- يبدو انهم يجوعون في المدينة..

الشيء نفسه دائماً، لا لأن لدى الناس أفكاراً، لا لكن عندما ينضمّ البطنُ الى الخصومة! يقول اوريليان إن فرنسا وألمانيا سيّان: الناسُ فيهما ماديّون على نحو دنيء، وفي هذه الأثناء، من المفرح ان يلتقوا فيما بينهم. لمساء لاثنين؟ اوه! لاثنين، ياعم، ولن أترككما حتى مابعد الغد!».



ـ أؤكد لك، يابني، أنك مخطىء..

كان «بليز» يمضغ التبغ فوق الدرابزين. وقلما كانت تشارك العمة مارت في الحديث، إذ كانت منصرفة الى سماطها الصغير بتطريزه الانكليزي على نسيج خام زائد عن الطوق الأصفر الذي شُدَّ عليه، ومن تحتُ القماش المتسمّع الأخضر والأسود المنقّط بثقوب الإبرة.

ـ قلتُ لك إنك غير عادلٍ.. مينيتسريل موهوبٌ.. ثم لا أهميّة للموهبة... فلديه ماهو أفضل منها. ففي كل الأجيال نماذج من هذا النوع. ومن المؤكد انهم محاطون دائماً بأشخاص غريبين.. وأنا أتذكر، أنني أعجبتُ وأنا شابٌ، اوه! في زمن الرمزيين، بأشخاص غريبي الأطوار! ونحن نضحك. فيما بعد، عندما نفكر في ذلك... هذا لا يمنع، ياصغيري، من أن مينيستريل، مينيستريل... سوف ترى فيما بعد.

كيف انتهوا الى «مينستريل» أمام هذا المشهد الهائل، وهذا الضياء الباهر؟ لقد استقلّوا القطار السلكيّ، وبلغوا هذه المصطبة المترامية الأرجاء التي يشرفون منها لا على «انسبروك وحدها، بل على وادي «الإين» بأسره، والتي يُزعمَ أنها تُطلّ من بعيد على الدانوب. قُدّمت البيرة للعمة ولاوريليان، أما بليز فقد طلب كأساً من الحليب.

ـ قالت العمة مارت:

ـ أنا لا أفهم شيئاً ممّا يكتبه هؤلاء الناس.. لكن إذا كان عمُك يَستْحسن ذلك، فلابد ان كتاباتهم تخفي شيئاً ما. لأنني لاحظتُ: أننا عندما نستهين برسّام أو بكاتب، وأنه هو يهزّ رأسه هكذا (هيّا، انظرّ إليه) فبعد عشر سنوات يحدث العكسُ.. والذين لم يكونوا يفهمونه يولعون به، وبليز يذمّهم ذماً شديداً.

الحقيقة ان ليرتيلوا لايأبه لمينيستريل! وكان بول ديني هو موضوع الكلام دون أن يسمّياه. وقد ظل «بول ديني» جرحاً مضاعفاً بالنسبة إليه. حتى في

الذاكرة. ربما كان ذلك شعوراً حقيراً، لكن ماحيلتُه؟ كان هذا الشعور فيه. وكان يقع له ألا يفكر في بيرينيس، لكن موت «ديني» ذاك ظل يحزّ في نفسه. كان شيئاً في غاية السخف. ترك مرارة، تعاودك.

ـ ليتك ترى، ياعم، عندما جاء «بيداريد» مع «بفيستر»! اسئلة مُمرضة...والواقع أن أصحاب مينيستريل الصغير لم يكونوا مختلفين. بتقصّيهم... شيء مثيرٌ للغثيان... وعندما أفكر أن سيكر دي فريدرك قد لزق بالأرملة «بيرسفال»! مسخرة...لكن قلْ لي...

بدا عليه الضيقُ. شجعّه بليز ماذا،، أقول لك...!

– حسناً... لقد فكّرتُ... فيكَ..» ألم تكتبْ إليكَ قط، بيرينيس؟

– بلى، كتبت مرتين أو ثلاثاً. لاشيء بارز. رسائل شكرٍ مع بعض أخبارها. ولا كلمة عن اوريليان. تحدّثتْ مرّةً عن زوجها: «كان لوسيان ممتازاً... لا أكثر.

آه! أخلد اوريليان الى الحلم طويلاً. كان في قلبه شيءٌ. شيءٌ تعب من حَمْله وحده. عاد إليه ألف مرّة، ويجب أن يكلّم أحداً عنه ذات يوم... كالعم... نظرَ الى العمة: كان حضورها مَبْعثاً لشيءٍ من الضيق، مع أن ذلك لم يكن، على كل حال، مباشراً جداً.. شيء حميم.. ثم صه! قال:

ـ اسمعْ، وتوقّف طويلاً... اسمعْ. في المساء الذي مات فيه الصبيُّ ديني ، روى لي الشيء التالي.. اوه! كان الأجدر به أن يصون لسانه! هذا يُظهر مدى ماكان قادراً عليه. ثم... تصوّرْ أنها باحت بسرها الى صبيّ مثله! النساءُ مجنونات.

نقّتْ العمة مارت.

ـ لاتَحْكِ على النساء!

لاحظ «بليز» بصرامة عليها:

ـ أنت تقاطعينه.

ـ ماذا كنتَ تقول،يابنيّ؟ يُخيّل إليّ أنك تدور حول الموضوع.

ـ أنا؟ لا... ذلك لأن... يَعْني أن هذا ا لحديث مـثيرٌ جداً... وربما كـان الصبيٌّ كاذباً، على كل حال...

ـ طال انتظارُنا عبثاً لهذا الحديث..

ـ عفواً. أجل، في المساء الذي مات فيه. لا أدري كيف ورد ذلك. الحاصل أن بيرينيس قد قالت له، على حدّ زعمه... وكانا في السرير، على ما أفترض... عفواً، ياعمتي!

صاحت:

ـ ماهذا! أنت تتصنّع معي! إذنْ كانا متضاجعين، كما قلتَ؟

احمرّ اوريليان تحت سُمرته. واستأنف ببطء: «فقالت له بيرينيس فجأة.. وأعتقد ان هذه هي كلماتها نفسها، وعلى أي حال إنها كلماته هو نفسه. «لايمكنك أن تعلم كم هو رائعٌ الرجلُ الذي له ذراعاه...»

صمت، ثم همس ايضاً: «لايمكنك ان تعلم»... كان مغتماً. كان امبيريو يهزّ رأسه. لقد صُدم، ومن حقّه ان يُصدم. بدا الصمتُ منكراً. كان منظر الجبال العريض يلمع مثل دكة من جلود العظايات.

أصدر العم بشفتيه صوتاً قريباً من: باه! باه!... ثم حك أنفه وكان مُجعداً ، ومع بقعٍ من الشمس ممتزجةبتضاريس الجلد، ودمدم: «إنه لمن سوء الذوق ان يحدّثك «ديني» بذلك!».

وضعت العمّةُ طوقها وشغلها على ركبتيها وصاحت:

ـ آه! من الرجال! لا، لكن انظرْ الى هذين ! يالهما من منافقين! أما أنا فأجد ذلك جدّ طبيعي، من هذه الصغيرة... لاتُحملقا فيّ هكذا.. إنه لمن المُفزع ان تثورا عندما يقع لامرأةٍ ان تقول شيئاً مباشراً.. حسناً. مارأيكما لو قلت لكما الشيءُ الرائع الذي كنتُ أجده في الرجل؟ لاتَقْلب سحنتك هذه، بليز! لقد نسيتُ تماماً ماالشيء الرائع الذي استطعت أن أجده لديكم. أنتم الرجال!

غيّر العمُّ الحديثَ. كانت قادرةً على أن تقول كلّ شيء، واوريليان...

اوريليان في الحقيقة تربّى تربيةٍ مختلفة.

- قلْ لي، تلقّيتُ رسالةٍ من ذلك السيد «ارنو»... أليس اسمه ارنو؟

من أجل مؤسسة ا لتجميل...

لم يقل مؤسسة ملروز، وألقى نظرةً على «مارت» التي كان تعالج إبرتها، وتُهمهم أنها لو كانت هي بيرينيس الصغيرة تلك.. قرَّب العمّ كرسيّه من كرسيّ «ليرتيلوا»

- لا أدري ما الذي يريدُه مني... لكن لديّ انطباعٌ.. انطباعٌ فقط.. أن هناك خللاً ما...

الخللُ بالنسبة الى ليرتيلوا هو أنه طلب تحويل مخصّصه الشهري عن طريق المصرف.. إذ لم تكن الحوالات تُحّول الى النمسا... وأن ذلك قد امتّد طويلاً، وبما أنْ الدفع لم يكن يجري بالفرنك بل بالكورون وأن الصرْف.. يكون بتاريخ الإرسال وأن الوقت الذي تسلم فيه المال كان الكورون قد انهار فيه. انهار... لقد سُرقتُ وكأنني في غابة.

قال النادل الذي دفع الكؤوس بفرنسيّة صحيحة جداً: «هؤلاء السادة ألا يريدون أن يجدّدوا مشروبهم» ابتسموا. كان واضحاً أنه أجنبي.

وبعد ذلك فقط، تجرأ العجوز امبيريو، بينما هم عائدون الى «انسبروك» ان يطرح سؤالاً كان يردّده في فمه منذ زمنٍ بعيد: «قلْ لي، ياصغيري، هل تألّمت كثيراً؟ وهل انتهى ذلك على الأقل..

- نعم، أظنّ، في الحقيقة... إني لا أفكّر في ذلك بتاتاً، أو على الأقل أني لا أفكر في ذلك إلا نادراً. بل إن من المضحك أن يتخلّص المرءُ من ذلك بتلك السهولة.. عكس ماكنا نتصوّره.. لم أعد أفكّر في ذلك، هذا كل مافي الأمر...»

صمَتَ اوريليان صَمْتَ ا لحالم، ثم

- بيد أن الكلام على ذلك يعودُ معه.. مثل شظايا قنبلة، شظايا صغيرة يتركها الجرّاحُ. نتنزّه وهي معنا. ثم قد يتفق لنا أن نضع إصبعنا عليها...

سعل العمُّ سعالاً خفيفاً، قال.

- عفواً... ماكان ينبغي لي أن..

- لابدّ من وقت الى آخر أن نعلم أين بلغنا. في بعض الأحيان يبلغ بي الأمرُ حدّ الصراخ.. حدّاً لا أريد معه أن أعلم شيئاً عنها...

- لماذا لاتكتب إليها؟

- وإذا لم تجب؟ لا أريد أن أعرّض نفسي لهذا، أن آتي به وبيديّ الاثنتين.. ثم إن ذلك يعني إثارة القضية فيّ، تحريك كلّ شيء في داخلي... لم أعد أعرف ما الذي ابتغيه. الحقيقة أن الصبيّ «ديني» قد فرّق بيننا.

- ألن تغفر لها أنها اتخذّت لها عشيقاً؟

- طبعاً، لن أغفر لها.. الحاصل اني مكوّن كسائر الناس، كنتُ سأغفر لها لو ظلّ حياً.. لكن هذا الموت.. العقبةُ هي بول ديني ميتاً.. ميتاً من أجلها.. يبدو لي أني لا أملك الحقّ..

- أنت تتفوّه بحماقات! وأنت لاتؤمن بها. على العكس، فيما أنه ميتٌ..

أيستطيع اوريليان ان يعبرّ عن تلك التناقضات التي كان يجرّرها معه عَبْر الجبال؟ لن يفهم العم شيئاً من ذلك. رعشةُ الزمن الذي يمرّ دون ألم مثلاً، وعندما يحدّد فكره فيه، يغدو الألمُ... نعم، اننا نخرج من الحب كما ندخله، بناء على قرارٍ يُتّخذ؛ وعندما استوثق ليرتيلوا من ذلك، أصيب بخيبةٍ عميقة، لقد خرج من هذا الحب صفْرَ اليدين، وخلت حياته من المعنى أكثر من ذي قبل. تذكرّ ان الدكتور «ديكور» قال: «حبّي أنا هو حربي...» خرج من حبّه كما خرج من الحرب.. بذلك الأسف المبهم نفسه، بالذهول نفسه. إنه يشك اليوم كما شك إذا ذاك بالدوار الذي خالجه. كانت تعاوده ضروبُ الغثيان وهو يفكر بأيام تشرين الأول في نهاية الحرب، عندما شارك الآخرين في تمجيد النصر.. النصر! كان جميلاً النصر! وما عليه إلا أن يتطلّع حوله. هنا، في «التيرول».. نصر «فلوريس.. كان كل شيء صالحاً للانزلاق عن فكرة بيرينيس الى شيء آخر. كيف سيكون المستقبل؟ عالماً لاشرف فيه. عالماً لاحبَّ فيه يسوّغه وبعد «ريجين» ستكون هناك «ريجين» أخرى. الشتاء في باريس، الباليهات الروسية. أيمكنه أن

يدفع نفقات رياضية الشتاء في «ميجيف»، والغولف في باريس وعودة الربيع، وتُسمَّى هذه حياةً. كل مانفعله ونحن نظن أننا نُحسن صنعاً.. سيُقدَّر بالمال ذات يوم. كانت «الايبارج» لتشتري «فلوريس» تلك الأثريات التي ستُصادر في الجمرك، ويموت الصغيرُ «ديني» من أجل ان تكون بيرينيس... ما ان عاد اوريليان الى «ستيناخ» حتى وقع رأساً على «فلوريس» عند الخروج من المحطة. فلما رآه الآخر لوّح بذراعيه:

- آه، ياعزيزي! كيف نعتذر لك؟ انسَ نهائياً ماجرى... مرّ ساعي البريد، والبريد على الطاولة، حسابات أيضاً! ونحن نروح ونجيء لأن ذلك الفلاح قرّر أن يبيعنا صندوقاً رائعاً من القرن السادس عشر.. بثمن زهيد! بسبب الصرْف طبعاً.. بدا لي ان هناك شيئاً لك... كان مستحيلاً أن نضع يدنا عليه... سألتُ ريجين: لم تر شيئاً..

ياالهي! لعلها رسالة من بيرينيس؟ كيف كانت الكتابة؟ لم يتطلّع غونتران الى الطابع البريدي، كل مايستطيع ان يقوله أن الرسالة من فرنسا. وعندما سئلت يريجين» أجابت بأنها لم تر شيئاً، وسألته بحدّة إن كان ينتظر رسالةً من امرأة؟ لعلها اختلستها وقرأتها. من المؤكدّ انها رسالة من بيرينيس... يستحيل عليه أن يكتب، أن يسأل بيرينيس... لكن، أما تزال تحبّه؟ وأيّ حب غريب، مذعور، غير معترف به. إذن، سيحمل أبداً، في ذاته، ذلك القلق الكامن الذي بعثه حادث الرسالة؟ لقد كانت هذه الرسالةُ الضائعة كافية لترميه مرّةً أخرى في تلك الحياة المنسيّة. يجب أن يكون صريحاً مع نفسه. إن المشهد الذي يحيط به قد ألهاه زمناً طويلاً عن بيرينيس، وفجاة بُعثتْ بيرينيس حيّةً. او لم يكن ذلك أيضاً عندما بلغ هذا المشهد حدود الاشمئزاز... تذكّر ذلك المساء مع ارماندين عندما قرّر، عندما قرّر بالضبط أنه كان يحب بيرينيس: كان ذلك بعد تلك الأيام مع «ريكيه» ثم ارماندين.. كل ماكانت ارماندين تمثّله من فظاظة عائلية، وطفولة... الوسط الذي لايُفلت منه الإنسان.. لقد قرر ان يحب برينيس. أنْستْه بيرينيس الناسَ والحياة، حياته. وعندما أراد ان ينسى بيرينيس استعان عليها، في المقابل، بالعالم، عالم الأعالي، «تيرول» الشمسِ الساطعة، المقفر والحر، لكنه

لم يكن مقفراً الى الحد الذي منعه من أن تكون له ديانه مع آل فلوريس، وحتى على دروب الذرى مع سيّاحه وأهوائه. وشيئاً فشيئاً أعاد هذا التيرول الذي ألهاه عن بيرينيس طرَح أسئلة «ريكيه» وأسئلة «ارماندين» بشكل آخر. وشيئاً فشيئاً، غدا هواءُ القمم ذاته غير صالح للتنفّس. حينئذ تشكّلتْ من جديد صورةُ بيرينيس، ومكّنته مرة أخرى من نسيان ماحوله، والقرارات التي ينبغي ان يتّخذها.. يجب ان يكون صريحاً مع نفسه لم يكن الأمرُ سوى ذلك.

ضاق ذرعاً بريجين. لم يغفر لها اختلاس الرسالة. كان مزعجاً له أن يسكن معهما. صاربوسعه أن يعود الى الفندق ، وقد وصل مُخصّص الشهر التالي بشكل سريع.. لكن كان مزعجاً أيضاً أن يبدو عليه ذلك. . كان يكره أن تصعد «ريجين» الى غرفته، في كل مناسبة. أقبل الخريف، والفصل الرديء. أعلن أنه سيسافر. لقد كتب له زوجُ أخته... لم يكتب له زوجُ أخته شيئاً وبدلاً من أن يمضي الى باريس، انحدر الى «سالز كامرجوت»، ومنها الى«فيينا »، ومن فيينا الى برلين، آوه مأأبدع التخفّف من آل فلوريس!

إن زوبعة البلاد والمدن، وهذا الترف وهذا البؤس، «وجاهزيّة اوريليان»، لاشيء تقريباً يُضطَرُّ الى الامتناع عنه في هذه الأيام التي أبعد فيها المالُ الفاقدُ قيمته حدَّ اللذات المعتاد، كلُّ ذلك جاء مرة أخرى ليشوّش صورة بيرينيس وليُعتّمها، وليمحوها...

ان البريق الطفيف الذي كان في قلبه والذي حرّضه العم بليز لحظةً من الزمن، قد كفَّ مرةً أخرى عن الحركة.

في تشرين الثاني، كان في مقهى «نو لندورف بلاتز»، عندما هاجمت الشرطُ الجمهور، أمامه بالذات. لم ير قط منذ الحرب شيئاً بهذا العنف، وأخذ الفتيان على المصطبة المغطّاة ينظرون الى الخارج وهم شاحبون ومرتجفون، في الداخل، كانت الاوركستر تعزف «يوبشن»... كانت القهوة صالحةً للشرب. كانت هذه المانيا. وكانت هناك إعلانات كبيرة بأحرف غوطية، وصور تكعيبيّة على نحوٍ ما. فكّر اوريليان «على كل حال، ما الذي حلَّ بي حتى أقلب رأسي؟ النصرُ كذلك دائماً . ونحنُ المنتصرون، هذه المرة...»



إن فَتْح التحقيق القضائي في شركة السيارات بناء على طلب جماعة من المساهمين أثار العاصفة. ذلك ان وضع ادمون بارينتان الصعب ازداد حَرجاً لأنه ترك مكانه لممثّل مصالح زوجته، وهو محامي أعمال كان يعمل ضدّه. وإذا كان مايزال يجلس في الشركة أو في مجمّع الشركات فذلك باسم السيّدة «كيسنيل». إذ أن كارلوتا لم تسحب منه ثقتها، ومنذ أن أُعلن الطلاقُ أخذ الناسُ يتوافدون. لارصيد. حتى ليرتيلوا الذي كتب له من برلين... آه من هذا! سيكون لادمون لبعض الوقت المال الضروري ليدفع له. وبعد ذلك لن يبقى عليه إلا ان يرهن «سان جينيه».. لأنهم في مؤسّسة التجميل، وبسبب النفقات الباهظة التي وظّفها «ديكور»، بالتواطؤ غير المفهوم «لأدريان ا رنو» اضطروا الى الاستعانة برؤوس أموال جديدة، مما وجدوه أي مما وجدته «روز» التي استُدعيتْ من الأندلس، لدى شخص مشكوك، فيه يُدعى «موزار»، «موزار» بكل بساطة، وكأن شيئاً لم يكن! وكان «موزار» هذا عارفاً بالموسيقا. وقد حلَّ هو وجماعتُه في «الشانزيليزيه»، ودسّوا أنفهم في الحسابات، واعترضوا على الديون، وطردوا بعض الموظفين مبتدئين بـ «زوي آغاتوپولوس»، وعندما اطلعوا على المبالغ التي يدفعها بارينتان شهرياً لمن يُدعى «ليرتيلوا» أطلقوا صرخاتهم عالياً وقالوا هذا غير وارد: إذا كان هذا الرجلُ مساهماً فله الحقُّ في الأنصبة المعتادة. طيب، ينبغي لأدمون ان يتدبر أمره على صندوقه.

لم تعد مسألةُ المسرح واردةً، ولا المعهد الرياضي او غيره. وستكون روز سعيدة إن تخلّصت من هذه الورطة دون انهيارٍ مالي فاضح. ماحاجة ادمون الى أن يحشرها في ذلك؟ و«جيكي» الذي بدت سحنتُه كسحنة الميت والذي أشرف على الخور العصبي! وعندما كانت تفكرّ في ذلك الفتى الجميل في ستوكهولم، . كان سيكون أكثر بهجة من السيد موزار! لم يُفاجأ ادمون فوق الحدّ بعقوق «روز». كان يعلم دائماً أنها هكذا، ثم إن فكره كان في شيء آخر، في هذه الفترة. ينبغي إنقاذ ماتبقى من فُتات. لقد طلّق، جيّد، لكنه عمل زمناً

طويلاً تحسّباً لهذا الاحتمال، ولقد أخفى كلَّ ما استطاع إخفاءه. لكن الشيء الرهيب هو أن رجل أعمال بلانشيت كان ذا مهارة شيطانية. ولقد وقع مباشرة على الأصول المخفّية، والمبيعات الكاذبة الواحد بعد الآخر. فكأن هناك من يزوّده بالمعلومات. وهو لايكاد يضع يده على الأدلة حتى يُعلم ادمون بواسطة محاميه «بلوتيل»، أنه إن لم يعترف بهذا الشيء أو ذاك فان القضية ستتبع مجراها. وكان ادمون يستسلمُ أملاً في إنقاذ بعض الحطام الجميل. وهكذا وجد نفسه في النهاية مربوط اليدين ومجبراً على قبوله الأخطاء في قضية الطلاق، وعلى ان يوكل أمره الى كرم بلانشيت المشكوك فيه أعظمَ الشك.

ـ ولشدّ ما أدهشه أن ادريان ارنو كان يُظهر له في كل ذلك تحفّظاً بارداً. هذا الفتى الذي جرّه من لاشيء والذي أمّن له وضعه! وعندما جاء ادريان ليقول له ان قراره قرٌّ على تركه، وأنه لايُريد أن يُحشرَ في ذلك كله، وجده ادمون على كل حال، يغالي قليلاً: روز تصرّفُها طبيعي لكن ادريان! صديق الطفولة! قال ادريان: «وماذا تريد أن أفعل! لايمكنني أن أوافقكَ.. ولا أريد عند الضرورة، أن أكون شاهداً عليك.. ففي الأعمال كثيرٌ من الأشياء التي أعرفها والتي ساءتني.. وبعد الطريقة التي رعتْني فيها زوجتُك...» هذه هي الطامّة، أقول لكَ. هذه هي الطامّة! إنه ينحاز الى بلانشيت الآن! كان المشهدُ عاصفاً، لكن ادريان تخلّص منه، وهذا كل مافي الأمر.

وبعد بضعة أيام فقط طلبَ محامي السيدة باربنتان ان توضع تحت الحجز الأموالُ التي حصل عليها ادمون أثناء فترة التفريق عن طريق سوء استعمال الثقة، وبصفته موكّلا بأعمال زوجته. حتى أنه لم يتسنّ له أن يرهن «سان جينيه». ولم تكن «سان جينيه» إلا صفقة طفيفة في ذلك كله، لكنها تدل على مدى استطاعته. كيف سيتدبّر امره؟ الحقّ ان كل شيء كان يجري وكأن هناك من يحمل الوثائق بيديه ويزوّد المحامي بالمعلومات.

كان ادمون يسكن في «الكارلتون». لقد وجد أن من الأناقة ان يترك

الشقة لزوجته. كان يتخبّط بصعوبة شديدة في أعماله. والحقيقة أنه قد علق في التعقيدات التي حبكها هو نفسه. ثم إن سيمونو الآن يُحجم عن مدّ يد العون إليه. وكان سيمونو وكيلاً قديماً لال «كيسنيل»، وتستطيع الأسرة أن تعتمد عليه. ليت ارنو بقي هنا على الأقل للقضية التي يعرفها مع مجمّع الشركات والمؤسسة.. وبالميد يطعن عليه. وكان لابد له من ان يبيع بالخسارة محطات الوقود التي اشتراها في باريس والضاحية. وكان واضحاً ان بالميد هو الذي يشتريها سراً. واضطر ادمون الى ترك «الكارلتون» وأقام في شارع المرصد، لكن الشيخ وايستير كانا يسكنان في الوزارة. لم يكن الشيخ مسروراً من هذا التدبير: لقد قُدِّمتْ له تقارير مُغرضة عن وضع ابنه، وكان لها أصداؤها في الصحف الصغيرة.

لاحاجة الى أن يكون المرء عالماً كبيراً ليرى أن ادمون يسير سريعاً الى الإفلاس. لقد اختلى بوانكاريه، بوزير دولته ليخطره. كان بالميد وراء ذلك كله، ويجدر بالدكتور بارينتان أن يتفاهم مع بالميد الذي لم يكن شخصاً سيئاً وكان مخلصاً للحزب. وقد وجده كما قيل له، غير متصلب، بل ومستعداً لبعض التسويات... لكن الصعوبة أنه بسبب مجمّع الشركات كانت له الآن مصالح مشتركة مع السيدة بلانشيت بارينتان، ابنة «كيسنيل» الممتاز؛ بل لقد كانت بينهما اتفاقات على عدة نقاط، أبرمتْ بفضل وساطة شاب ذكيّ جداً، هو السيد «ارنو» فيما أظن الذي كلّفه ابنُ بالميد... آه! عجباً! ياله من قذر! ذُهل ادمون عندما حدّثه أبوه هذا الحديث، فحينئذٍ اتّضح كلُّ شيء.

لم يكن ادمون من صنف اولئك الذين تلقي بهم مثلُ هذه الاكتشافات في الجمود. على العكس، لقد أيقظ فيه ذلك قتاليّة كانت تثلّمتْ من جرّاء الثروة والهدوء، ورأى بسرعة أنه يجب ان يترك شيئاً لكي لايخسر كلَّ شيء. وسوف تمضي الأمورُ أبعد كثيراً مما تصوّر في أول الأمر. لابّد له من تغيير سلوكه تغييراً تاماً. أولاً الانتهاء بأقصى سرعة من الطلاق، والكفّ عن عرقلته كما حاول زمناً أن يفعل، وتسريع الإجراءات. ثم...

وصلته برقيةٌ من الاسكندرية تحمل إليه جواباً عن برقيةٍ كان أرسلها.

كارلوتا تقبل ان تصبح امرأته. كانَ ذلك ضربةً رابحة. فثروة كارلوتا تُعادل ثروة بلانشيت. وقد أخذ يقدّر مدى انتصاره وعودته الى مسرح باريس مع كارلوتا وهي تتأبط ذراعه. وسيكون ذلك ضربةً لبلانشيت. سوف يصحّح وضعه ويثأر لنفسه. وبوسعه الآن أن يكلّم بالميد نداً لندّ. ولن يبقى مايخافه. وعليه فقط أن يزيل آثار الماضي. وهو لايستطيع أن يحمل الى زوجة السيد ادمون باربنتان الثانية مهراً من ديون زوج بلانشيت وإزعاجاته وصعوباته. وماعليه إلا أن يتخلّى عن كل شيء، عن المؤسّسة، والشركة العقارية، وسان جينيه، وماسوى ذلك، لمصلحة أم بنتيه. ولن يحتفظ إلا بما تنازلت عنه له في العقد. وبعض الأشياء الصغيرة التي تسرّبتْ بين القطرات...

كانت روز تقوم بجولة في امريكا نظّمها السيد «موزار». وقد انتقلت المؤسسة التي تحوّلت وأقيمت على أسس جديدة الى أيدي دكتور يُدعى «بيرلتر» وأشخاص متعددين مَهرَة نظمّوا تصدير كريم ملروز، وعطور «روز –ماري» الى اوروبا الوسطى والولايات المتحدة . ولم يكن الدكتور حاضراً إلا من أجل الشكل. وقد صادفه اوريليان الذي عاد الى باريس ذات مساء في حانة لولي وهو سكران مع نساء صغيرات. وقد ارتعب من التغير الذي طرأ عليه، ومن هزاله، ومن شحوب وجنتيه: ألا تجلس معنا؟ لوسيت، قولي للسيد أن يجلس!... كان مع لوسيت «بالون» ورديّ طائر معلق بخيط، وقد فجرّه أحدهم بسيجارته، فصرخت: وحش، وحش! وقال ديكور: ليس وحشاً، يالوسيت، هذا الشاب.. ما اسمهُ؟، مضى اوريليان الى الحانة. جاء الدكتور لينضمّ إليه. «مالكَ، هل نسيتَ الأصدقاء، ليرتيلو، أم أن القلب سقيم؟ ثم اندفع يروي قصصاً طويلةً عن نجاحات روز في نيويورك ومزايا السيد «موزار» كمدير لها. قال: «آه! لعلك لاتعلم... انتهى مابين روز وبيني.. انتهى... غريبٌ، أليس كذلك، زوجان جدّ متحدّين؟ أو كذلك يبدوان... ما الحيلة، كائنٌ من النخبة مثلها... وشخص تجرّه وراءها مثلي... لايمكن لذلك أن يستمرّ أبداً، وأنت، ماذا جرى لذلك الحب العظيم. لأنه كان حبّاً عظيماً!

كان يُرثى له. سيء اللباس. القبّة المضافة ليست نظيفة جداً وعلى

سترته الرسمية بقع، ممَّ كان يعيش؟ أحسّ اوريليان فجأة بالشفقة العظيمة عليه. رأى ان يدي «ديكور» ترتجفان. ليس السكرُ هو الذي يهزّه هكذا. لابدّ أنه مريضٌ جداً. «يجب أن تعود الى بيتك، دكتور، وأن تنام...» قال الآخر:

- لا أستطيع. فمعي هؤلاء الآنسات.. لوسيت... بيننا، ألا تستطيع أن تقرضني ألف فرنك؟

لا، لم يكن بمقدور اوريليان ان يقرض ألف فرنك لأيّ كان. كفاه ماتجرّعه من سمّ. فأرض «سان جينيه» انتقلت حيازتُها الى بلانشيت وقد أعلمه ادمون أنه لايستطيع ان يفعل شيئاً له. بما أن مؤسسة ملروز لم تكن تضمن سوى مبلغ زهيد سنوياً، الفائدة العادية للمال الموظّف. والأمر عائدٌ الى بلانشيت، بمقدار ماتعترف بالالتزامات الأخلاقية الصرفة.. أما هو ادمون فلا يستطيع ان يعطي ماليس له، فضلا عن ان التفاهم مع بلانشيت دقيقٌ على نحو فظيع. فوجىء اوريليان حين وجد هذه المرأة وقد تحولّت كلّ التحوّل، وجدها جشعة للربح جشعاً لم يكن يخطر على بال! ومستعدّةً لأن تُظهر عجرفتها على رجل ظنّت أنها تحبّه ولاسيّما أن هذا الرجل كان يبدو لها متواطئاً مع ادمون لكي يخدعها، وقد ردّت عليه بخشونة ورجته أن يتوجه الى رجل أعمالها. والتسوية التي خرج بها اوريليان من ذلك كله كانت فوق ما أمّل، بعد أن ظنّ ان مسعاه قد خاب. لكنها لم تكن كافيةً لكي يعيش. كما كان يعيش ولم تكن تساوي نصف ماقدمّه له في السنة السابقة مستأجرُ «سان جينيه». والى جانب هذا كله. رجتْه ارماندين ألا يفعل شيئاً يمكن ان يُزعج السيدة ادمون بارينتان التي تفاهم معها «ديبريه» بصدد المصنع.. من المعلوم أن ادمون كان قد وظفّ فيه مالاً.. ولابد من القول أن «جان ديبيريه» كان كريماً مع أخي زوجته. فقد عرض عليه مركزاً صغيراً في المعمل يعوّضُ عليه مانقص من دخله. لم يقبل اوريليان على الفور فقد كان عليه أن يترك جزيرة «سان لويس» وأن يسكن «ليل»... لعله سيُجبر على ذلك، لكنه أراد ان يفكّر.

في هذه الأثناء، استأنف تسكّعه في باريس. مضى عامٌ على لقائه

بيرينيس. وبدا له أن كل ماقلبَ مصيره انطلق من هنا، من هذا اللقاء. كان يسير في خطوات السنة السابقة خطواته هو وبيرينيس. لم يحتفظ شيءٌ بهيئته نفسها، بحرارته نفسها. تتالى شتاءان... ولم يعد مغرماً بتلك المرأة، لم يكن مشغولاً بها. ويمكنه ان يُقسم على ذلك. لكنها تركت في حياته والى الأبد حنيناً ظلَّ أسيراً له. وكان يحزن حين يمرّ على آثار هذا الحبّ الذي لم يُفْهمَ في نهاية الأمر، وحين يمر بأجواء أيّام نُواره. أراد ان يتحقّق من مدى تلاشي ذلك كله، من مدى بقاء الحياة بلا عطر إذا تبدّد هذا العطر. لم يخطر له ولو لحظة واحدة، لو مرةً واحدة. أنه يمكن أن يجد هذا العطر من جديد. أيستقلّ القطار ويلاحق تلك المرأة. لا، مافات مات. لكنه هو القبر. وفكّر اوريليان في أنه سيحمل في نفسه الى الأبد هذا الحبَّ الميت مثل حمل من زهور ذابلة. ومن ناحية اخرى، فقد تغيّرت الأزمنة. ولايمكن لحب أن يُلهيه عن ضرورة كسب معيشته. كانت تباشيرُ سنة ألف وتسعمئة وثلاث وعشرين صعبة. وقد بذل ليرتيلوا جهوداً شاقة لينأى عن ريجين فلوريس، وبخاصة أن «غونتران» قد تدخّل في ذلك: أراد بكل وسيلةٍ أن يؤمن لاوريليان وضعاً. أما هذا فلا: ان له ،بادئه.

في مطلع شباط كتب الى زوج أخته أنه بعد أن فكرّ مليّاً قبل ان يعمل في المعمل.



خاتمة

- ١ -

لمساتُ الفجر الواهية أبرزت الأغصان المتدلّية، والأوراق السوداء. لم يكن ذلك طريقاً بل درباً في غابة على الأكثر. وكان لابد من التوقف عند أواخر الأشجار وكانت الأراضي المزروعة والمسوّرة، البيج والمخطّطة تنمّ على قرب الإنسان. كانوا يمرّون بين الأسيجة ذاتها بناقلاتهم. وكان الزنجير الضخم المجزّأ، الساكن، يجمد من التعب في هذا الضياء الطالع. وكان ضبّاطٌ يضربونَ أذرعتهم، ويضربون الأرض بأحذيتهم، ويجهّزون الرتل بعصبيّة أكثر مما هو بواجب عليهم ان يقوموا به. وفي الطريق، كانت الاوجه تطلّ من العربات.

كان ذلك كله رمادياً، بلون السهاد، متسائلاً. كان الجنود المتكوّمون تحت الغشايات يتكلّمون فيما بينهم بصوت خافت، وأخذ المعدنُ يلمع، الأسلحة والقصعات. ماذا كانوا ينتظرون؟ ما أدراهم؟ انهم يتبعون العربة التي تسير في الأمام، هذا كلّ مافي الأمر. وهذه التنقلات في الليل قاتلةٌ ولاسيّما بسبب بطئها. لا تنزلوا، ويْحكم! كانت العرباتُ في هذا المستوى يُرافقها سائقو الدراجات النارية والدراجات ذوات العربات. تبسُّلٌ للعجلات والرجال. كان أحدُ المرشحين ينام في عربة دراجته، ومنخراه متّجهان الى السماء، وفمه مفتوح، وهو شاحبٌ كالوقت. أما الآخرون فكانوا على مقاعدهم، وبنادقُهم على أكتافهم، وقد رنّحهم النعاسُ. وكثير منهم أغفوا وهم جالسون وقد تكسّرت أجسامُهم. وآخرون انتهزوا هذا التوقّف فاضطجعوا على آليّاتهم التي توقفّت عجلاتها، وكأنهم في مهودهم، قذالهم على مقاعدهم وأرجلهم على المقود، والخوذة مشدودةٌ على الرأس إلى حدّ أنهم لايستطيعون ان يناموا دونها. رجال من الجلد والمعدن نتعجّب عند الفجر حين نرى أن لحاهم قد طلعت.

منذ ثلاثة أرباع الساعة وهم راكدون. طويلةٌ ثلاثةُ أرباع الساعة بعد ليلةٍ طويلة كهذه وهم كامنون في العتمة. القرى التي اجتازوها، وهذه المدينة، ماهذه المدينة بجدرانها العالية، وهؤلاء الناس الذين زعموا أن الالمان كانوا فيها، كل ذلك، ضجة دبابات مجهولة في مفترق طرق، الآثار المفقودة، هاجس البقعة الصغيرة البيضاء التي تحدّد على واقية الوحل في العربة التي تسبقك، إعياءُ الانتباه الدائم، كل ذلك، الطريق بمسالكه المُجهدة دون خارطةٍ ولا ضوء، هذا المسير الأخرس، وهذه الوقفات التي لاتنتهي، كل ذلك بدا متلاشياً في الذاكرة، بعد الكثير من مثل هذه الليالي، وضباب الأفكار في الصباح. لقد نسوا حسابَ طائفة من الأشياء، الشعور الجغرافي أولاً، فلقد اجتازوا الكثير من أراضي فرنسا حتى إنهم لايعلمون أين صاروا، والرجال، مَنْ تجاوزوهم في طريقهم، بشرط أن تتبعهم المطاعمُ المتنقّلة! فلقد التهموا الغبار بخاصة. ارتفعت أصواتٌ لانبرة فيها. قال أحدُهم إننا لن نعثر على عربات الراديو .طيب، مادامت غير المطاعم المتنقلة. كان في الجوّ عصبيّة لأن القافلتين عند تصالب الطرق قد تداخلتا، وحينئذٍ تعذّر التفريق بين القافلتين، فقد شُطرتْ سريةٌ شطرين، ومصلحة الخدمات الصحية تضاعفت، ومَنْ هؤلاء الأطباء؟ عناصر الفرقة. هؤلاء الناس ينهكون أنفسهم ويلقون عليك كلّ شيء مقلوباً. لمن هذه «الرينو» ذات الأطنان الخمسة؟ آه، رجال الدرك. عجباً، ما الحاجة الى رجال الدرك هنا؟ وهؤلاء ليسوا من عندنا، ففيم جاؤوا يعرقلون القافلة؟ في السيارة السياحية، الرمادية كسائر الجيش، تحرّكت أشكالٌ ورفع كتفٌ الغطاءَ. كانوا أربعة متجمعين فيه. لصقَ رأسٌ أصفر بالزجاج ونظر الى السماء. وعندما أحسّ الجنديان الماشيان أنه ضابط ابتعدا. كان الرأس أصفر وشعره أسود، وقد بدأ يتساقط.

كان النقيب «ليرتيلوا» منحنياً في السيارة، متضايقاً من جزمات النائمين، وقد أحسّ بالانزعاج. ليس مريحاً أن يُصاب المرء بالحمّى في وسط مثل هذه القافلة. في هذا الصباح، تراجعت الحمّى، ولكن عندما لا نخلع

ملابسنا أثناء أيام، مع العرق والقميص الوسخ، والحذاء الذي لم يُترَكْ.. ومافي المطرة نقطةُ ماء... ليتهم توقّفوا فقط في تلك القرية المحترمة، بدلاً من أن نكون هنا، في وسط الحقول، ربما كانت مقدمةُ القافلة قد بلغتها. عندما ننتقل وحدنا الأمرُ مقبولٌ، لكن مع فرقة فوق رأسنا.. آه صحيح؛ الباب لايفتح: لقد رُتِقَ مقبضه بشريط حديدي. كان لابدّ من تخطّي الملازمين. قال «بليزو»الذي كان يغفو على المقود: «أتريد النزول، سيّدي النقيب؟» قال اوريليان: أريد أن أشمّ الهواء.

فاجأته البرودةُ، والملامسة الصلبة للأرض. كانت إحدى ساقيه متخدّرةالى حدّ أن قدمه كادت تخونه. التنملُ، مثل الف ضوء. عندما نتجاوز العشرين.. كان أشخاص يبولون في الحقل. تنهّد رجل قصيرٌ وسمين: «آه، ليتنا ننام!» خبط اوريليان قدميه بالأرض آلياً كما رأى الآخرين يفعلون. ارتعش، ربما كان عليه أن يُنْقَل كما أراد المقدّم. لكن ماذا. أيترك جنوده ثم إنه فضّل أن يقطع اللوار مع جنده. الذين يُنقلون كانوا يُحملون الى هذا المشفى أو ذاك، على مايتّفق لهم، وفي اليوم التالي، يغدو الذين كانوا يبدون بعيدين جداً. وفي مأمن حقيقي، مُتجاوَزين. لكي يعالج قدميه في المشفى. شكراً. الأجدرُ به ان يجرّ جسمه جراً مع بقايا سريّته. لقد تعلّق هؤلاء بهذه الفرقة الآلية في مكان ما من جهة آنجيه» بعد أن قُطعوا عن الآخرين. وقد صادر «ليرتيلوا» شاحنةً صغيرة، وأصلح هو نفسه شاحنةً مهجورةٍ وألقى بجنوده الخمسين فيهما. ومضى بهما! لقد تجهّز بهاتين الآليتين مثل جميع الرفاق في هذه الساعة. وعندما استقبله الجنرال «ت» عرض اوريليان عليه الوضع، فألحقنا بمتاع الفرقة. وكان النقيب وملازميه يأكلون مع الأطبّاء. كانوا ينظّمون أنفسهم. وقد استمرّ ذلك منذ «السوم».. أما الخيّالةُ فعادوا من دنكرك عن طريق انكلترا، حتى الهيئة الطبيّة التي كانت لها كبرياء الفرسان. ووُضع المشاةُ في كنف الفرقة. أناس يقاتلون وهم على أرجلهم. فكأن هذه الحرب، في الواقع حرب المئة عام.

كان اوريليان جائعاً. هذا الجوع المعذّب عند الفجر. قطع وقته بالثرثرة

مع رجاله الذين كانت سياراتهم مفصولةً عن سيارته بأربع من الدبابات المجهّزة بمقاعد، وهي تبدو مع تمويهها الأخضر والأصهب، كأنها تنقل الفرسان المحمولين الى عرسٍ في القرية. أعطاه ضابط صف قطعة من البسكوت. هذا العريف الذي ارتعب عند المرور على «السين». كان ثمّة مايُرعب، على كل حال. ويالهذا القدر الغريب الذي جعل المشاة يُجرّون هكذا خلف الدارعين والفرسان! وسوف يُستفاد منهم جيدا عند الطلب، فأسلحتهم معهم، لا كهؤلاء الهاربين الذين يُرون وهم يمرّون على الطرقات، بعضهم على الدراجة النارية، وبعضُهم الآخر مع نساء هيئتيهن رثّةٌ. من كان سيصدّق هذا! حافظت الفرقةُ على التماسّ مع العدو بدءاً من «السين» الأدنى. وقد ظُنَّ أول الأمر اننا كنا نكسب مواقع، من نهر الى نهر. ستكون المعركة معركة «الاور»، معركة «اللوار». وكان ثمة حرصٌ شديد على أن تكون المعركة على ماء ما. في المساء، في مدرسة مهجورة، قام رئيس الأطباء بدور الخبير بالستراتيجية، مع خرائط اوروبا، وجملٍ بيضاء بطولية باقية على اللوح الأسود. يمكننا الصمود على «المين»، هكذا... أركّز الدبابات هنا، «مقهى التجارة»، حتى إذا قطعوا اللوار لم تعد الانهار تسيل في الاتجاه المطلوب. ولم تعد المقاومةُ ممكنه طولاً. ولم يبق من داعٍ للتوقف. ومع ذلك فإن بين أيدينا قرى وخطوطاً مرسومة على خرائط «ميشلان»، وهي الخرائط الوحيدة الموجودة مع مَنْ يملك الخرائط. ولقد تم اجتياز المنطقة التي قام فيها ضباطُ الخيّالة بلعبة الحرب وقت ماكانوا في «سومور»: «الفريق الأبيض يواجه الفريق الأزرق..» وقد استأنفوا بصورة طبيعية المسألة الخياليّة، سوف أحتمي بالجناح، وسأضع رُماه الرشّاشات وراء قمة السفح.. الآن، لم يكن العدو يُلحّ.. وعندما كانت دراجاته النارية أو دباباته تصل الى مدخل الضيعة التي كنّا فيها، كان يعود أدراجه عند اولى الطلقات. كان يمكننا انتظارهم حتى المساء: لن يعودوا. كانوا يجرّبون الطرقات، ويتحاشون مراكز المقاومة ويتجاوزوننا. على اليمين، أي في مواجهتهم، كان ثمة فتحة واضحة بين الجيوش الفرنسية، عناصر دفاعيه متحركة في مكان ما، لكنْ

الارتباط كان غير ثابت. وكان المطلوب تأخير سير المنتصرين، ولم تكن ثُقال آنذاك كلمة «المنتصرين». وكانت أيام انتظر فيها الناسُ الهُدنة. لكن الهدنة لم تأتِ. وفي كل يوم كان يُقتل قليلٌ من الناس، ويؤسر بعضُهم. وكان عنصرُ المكتب الثاني يتشدّد في استنطاقهم. كان يقوم بعمله. وقلما كانت المعلومات التي يجمعها صالحة للانتفاع بها، لكن هذا لم يكن سبباً كافياً للأقلاع عن عمله.

أخذت السماء تزرقّ. سوف يغدو الجو شديد الحرارة مرةً أخرى . لكن الحرارة لم تكن محسوسة الآن. هزّ جسمُ اوريليان الكبير كتفيه. تحقّق من حميلته، من نطاقه، ومن أزرار كتفيته تبعاً لعادة تعوّدها في مطعم الضباط، مع أنه إن فُرض الآن جزاءً على جميع الذين تنقصهم أزرارٌ... ودّ لو يغسل فمه. مرّر يده على شعر الشارب الطالع. لن يكون ترفاً أن يحلق ذقنه. فكّر برقّة في جورجيت والولدين. كانت فكرة خشنة أنه بعث بهم في عيد الفصح الى الشاطىء. لقد قلق قليلاً عندما انضمّت إيطاليا. لكنه على كل حال جنّب الأسرة محنة تلك الهجرة الجماعية، وتلك الطرقات الرهيبة. مَنْ يدري ماذا حلّ بارماندين وصهرها وإني لأتساءل ما الذي بقي من المعمل. يزعم قائد الأركان العامة الضخم ان القتال من هذه الجهة كان شديداً.. وفجأة تخيّل «ماري دي بيرسفال» التي لابّد ان تكون في «توكيه» هاربة على دروب الشمال. العجوز المسكينة! في سنّها. والآخرون جميعاً. دهش اوريليان، الواقع ان هذه أول مرّة يفكر فيها في الناس بطريقة شخصية. في مصير الناس الذين باغتهم ذلك الاندحار. لم يكد يتسنى له الوقت. وفيما عدا جورجيت، بمن يتمسّك؟

« صباح الخير سيدي النقيب. كيف حالك، هذا الصباح؟»

كان هذا هو الطبيب الملازم. وكان يبتسم بوجهه الصيني المرسيلي، وخوذتُه في نطاقه، وعلى رأسه قبعة شرطة غائرة الزاويتين على الطريقة الانكليزية. صعد مع الرتل، وتوقفوا ليفسحوا الطريق للدبابات. وبعد ذلك تصبح الطريق هي الطريق الرسمية. ظل الاتجاه غير مؤكد: لقد نزلوا خمسة وسبعين كيلومتراً ليقطعوا الخطّ على عناصر آليّة عدوّة، لكن رجال الاستطلاع

أكّدوا أنهم لم يروا أحداً. إشاعةٌ كاذبةٌ أخرى على أساسها زُجّتْ فرقةٌ كاملة.. «الأجدرُ بنا أن نضحك منها..»

خاض «سوربان» أيضاً الحرب الأخرى، وربط هذا بين الرجلين. أشعل الطبيبُ سيجارةً : «ليتنا نستطيع فقط الاستماع الى الراديو». هزّ اوريليان كتفيه. لم يكن يحبّ الراديو. قال: «مع ذلك فلابدّ ان رئيس الأطباء قد تلقى تعليمات، حول المأوى الذي.. سوف نستريح حتماً في مكانٍ ما...»

ضحك «سوربان» بصمت: «آه! آه! تتشاطر ولم يمض عليك عشرون عاماً. العجيب أن مكانك الطبيعي كان في منطقة المراحل! لعلك فتّشت عنها.. وحدّثني عن منطقة المراحل؟ فيما يتعلق بالمراحل، على كل حال... إذن ماذا قال رئيس الأطباء؟

ـ قال إننا سنقف، هذا الصباح، في ر... ونحن في انتظار الأوامر..

زال خدرُ الساق. لكن اوريليان كان يسمع في رأسه أجراساً، أجراساً بعيدة، خافتة. وكان يرتعد أكثر فأكثر لاشك أنهم داروا على أنفسهم بشكل لايُحمل. في هذه الليلة الطويلة. كان يظن نفسه أقرب الى الجنوب ومنحرفاً نحو الغرب. ولقد تطلع أمس الى «مصوّر الخمور الجيدة» وهي مجموعةٌ للاعلانات عثر عليه «بيليسييه» الطاهي، وكان ينفعهم جيداً بدءاً من «فيرنيي»، بخرائطه لكل منطقة، وهي خرائط غير متقنة، ومزيّنة بصور بيوت صغيرة، وبالكرمة وبالفنادق. لكن بما أن خرائط ميشلان» مفقودة في السرايا...

ـ الى «ر»...؟ أواثق أنت، دكتور؟

كيف يسأله إن كان واثقاً! هناك أشياء لا نسمعها إلا كاملةً: «ولاسيّما مع هؤلاء الأشخاص، سيدي النقيب! كادوا يوقعوننا في التهلكة ثلاث مرات هذه الليلة.. بلى، بلى، بلغ الألمان «سان ميكسان» قبلنا..

ـ كيف تريد، دكتور، ان تُزجّ فرقةٌ كاملة..

ـ كيف أريد؟ لاتسلني وتلحّ في السؤال! كانوا في «سان ميكسان» في الساعة السادسة. وقد مررنا بها نحو منتصف الليل هذا كل ما أعْرفه. وتلك

البلاهة. أمس، في تعريضنا ثلاثا مرات بدلاً من مرة واحدة لعبور بارتناي»، كان يمكن ان يكون ذلك كارثةً..

- كنت أظن أننا نسير مباشرة الى «سان جان دانجيلي»..

- طبعاً، حتى اللحظة الحاضرة، وإن كان الملازم «غرو» قد وعدنا بالكونياك من قبوه.. سيغتاظ حين يرى أننا نندفع الى الشرق..... في القرية هناك لاقى الأعيانُ الدبابات... وقد وضع رئيس البلدية وشاحه، وعندما رأى أنه أمام فرنسيين، هاج وقال:

- ألن تدافعوا عن الضيعة. أنتم تتركوننا نُذبحَ...

- لن نبقى فيها إذا أردنا ان تكون في «ر»... هذا الصباح... ما المسافة التي قطعناها؟

- انتظرْ، سجلتُ على ورقة صغيرة.. اثنان وعشرون.. اثنان وعشرون وخمسة ، سبعة وعشرون، وتسعة، ستة وثلاثون. ستة وثلاثون كليومترا.. وأنا أسوق بنفسي، فقد أغفى سائقي على المقود..

سته وثلاثون كليومتراً. ر... لم تعد شيئاً غير واقعي، مدينةً مثل بغداد، ستة وثلاثون كليومترا. ر... كان لابد من كل هذه البلبلة، هذه الهزيمة، قصة هذين الشهرين غير المفهومة. هذا الانسحاق، هذا البلد الذي جرفه التيّار، هذه الفوضى الهائلة، هذه الهجرة لشعب.. عندما نظر عشية أمس الى خريطة «بيليسييه» قرأ فيها اسم ر.. غير بعيدة كثيراً معلّمة بكنيسة على رابية بجنبها زجاجاتٌ صغيرة. بل إنه لم يقل في نفسه قط إنه سيمر بجنبها. وأنه سيوشك على بلوغها، تلك المدينة التي سكنتْ أحلامه زمناً طويلاً جداً حتى إنه لم يؤمن بوجودها. لا. لم تكن على محور السير. كان يظن أنهم يسيرون الى «سان جان دانجيلي»، وإذن فقد كان ذلك بالنسبة إليه مثل مدينة الغجر مثل بلدٍ بعيد. ان اسم ر... موجود على الخارطة لكن ذلك طبيعي. إن إسماء المدن موجودةٌ على الخرائط، وذلك لايعني أننا سنمّر بها.

عادت إليه الرعشاتُ. كان يرتعد. لم تكن الحمّى، بل شبابه. عالم ساقط.

في غمرة نهاية العالم، سيجتاز تلك المدينة الخيالية. ستّة وثلاثون كليومتراً. سيبلغونها، إن واتاهم الحظُّ، بعد ساعتين، ساعتين ونصف. وفجأةً، رأى جميع الناس في الطريق يرتمون على التلعة، في الحفرة. صوت محرّك في الهواء. التفتتْ الرؤوس نحو السماء لم يرَ شيءً. لعل الطائرة قد حلّقت هناك نحو الجنوب. على كل حال، لقد تجاوزتهم. نهض الرجال على مضض، ومزحوا. وامتد الهمسُ على طول القافلة.

ستة وثلاثون كليومتراً. أحسّ اوريليان بهدوء وببطء ان صورةً أخذت تتشكّل فيه. لم يرفضها لم يستعجلْ وصولها. لم يعد يرى حوله العربات والدراجات النارية والطريق المغطىّ والحقول. ذهب «سوربان» وظلّ وحده في هذه الشرذمة من الجنوب والعربات، وحده مع أحلامه، مع بخار أحلامه.. كان لابدّ من الهزيمة. هو الآن هنا، وسيذهب الى ر... الى ر.. التي تحاشاها عشرين عاماً. لن يحول شيء دون توجّهه إليها. كانت الآلة تمسك به. ولو أنه قبل أن يُنقل وهو مريض لما وافى هذا المكانَ، الموضع الذي حتّمه القدر. هذا ما يُسمى المصادفة. عشرون عاماً مضتْ تحاشى فيها ر... وهاهو ذا يصل إليها. لم يفكّر في بيرينيس بل في جورجيت. لم تكن له حيلةٌ في ذلك. فالأمر غيرُ منوط به. لايمكن لجورجيت ان تحقدّ عليه. بيرينيس. ومع ذلك كانت بيرينيس التي تتخبّط فيه، لاجورجيت، ولا ر.. قسمات بيرينيس المشوشّة. تعبير شفتها. التعبير المزدوج للوجه والعينين.كان يحاول ان يهرب منها، ويتألم لأنه لايجد صورتها الحيّة في ذاكرته. شعرها الذي لارشاقة فيه. كيف كان ذلك يدور قرب الفك؟

وعلى نحو غريب رآها بخياله قرب السيدة «دي بيرسيفال» بينما كانت روز ملروز تُلقي شعر «رامبو»، في ذلك الفستان الفضّي... لا لم يكن الفستانُ فضّياً... وذراعاها ذراعا فتاة صغير. كل مّا جرى بعد ذلك المساء. الحياة. الحياة بأسرها. كثير من الأحياء اختفوا. وفكّر، لماذا، وعلى الخصوص في الدكتور «ديكور»، وفي بول ديني. الموتى. ليست الحربُ وحدها هي التي تقتل. كان يبحث عن الأشباح لينحيّ شبح بيرينيس، رأى ثانية بوضوح غير عادي

وطء البشر في الليل، في مساء شباط سنة أربع وثلاثين تحت أشجار الشانزيليزيه. من الجانب الأيسر صعوداً... وكليمانصو من البرونز الأخضر الذي لا يكاد يرتفع فوق الجمهور.

سته وثلاثون كليومتراً...

صفرت صافراتٌ على طول القافلة. ارتمى الفرسان بسرعة على سياراتهم التي بلون الربيع والخريف، كان هناك نداءات تفقّد، ومحّركات تجرّب وتسعل. ضوضاء الدراجات النارية وهي تتأهب للانطلاق. نوعٌ من التموّج الفوضوي. مرّ سوربان وهو يركض.

انطلقوا دون ان يعلموا كبير علم كيف. دار اوريليان حول عربته. فُتح له بابُها. تسلّق. ابتسم له الملازم «دي بيكفيل»، بهيئته، هيئة كلبٍ فتيّ. كانت البطّانيّات غير مرتّبة ومكدّسة تكديساً سيئاً. فضايقتهم في جلوسهم. هزّتهم الانطلاقة. يالها من سيّارة؛ مالكَ «بليزو»، انتبهْ يافتاي... ويقول النقيبُ ليرتيلوا. «آه»، وكأن الانطلاقة أوجعته، فاستفسر «بيكفيل» بقلق: «هل تتألم ، سيدي النقيب؟

- أنا ؟ لا..

لم يبدُ عيه أنه أدرك مايقصده الآخرُ، لكنه رأى قبل هنيهة بيرينيس تفتح عينيها.



- ٢ -

ستّةٌ وثلاثون كليومتراً، التعب، الحمّى، في هذا النعاس، كان اوريليان مسكوناً بالأشباح، وفكرة ر.... القريبة جداً، ماكان يتراقص في رأسه كان استعادةٌ للماضي، صورٌ غير واضحة، صورٌ بُدِىء بها، صورٌ ضائعة، ادمون باربنتان في مراكش مع زوجته الثانية، كارلوتا، وملكيتهما الضخمة، ويَختهما. بلانشيت ارنو الذي يكون ابنها قد بلغ الخامسة عشرة، وإحدى البنتين قد تزوجت، وادريان الذي تدخلّ في جميع تحوّلات السنين ا لأخيرة، فنظمّ جماعات دراسيّة للتفاهم بين العمال وأرباب العمل، وشارك في اتفاقيات ماتينيون،تم... النهاية المحزنة للدكتور «ديكور»، ورز ملروز سيّدة قصر. تموّل داراً لإيواء الممثلين، وتقدمّ تحت أشجار حديقتها في «بورغونيي» عروضاً لراسين في ثيابٍ من العصور الوسطى. جميع الممثلين الصامتين في المسرحية القديمة، أكانت مسرحيةً؟ كان على المسرحية الحديثة أن تتعهدهم بيديها.

الآن علم اوريليان وهو يقترب من ر... علم اليقين ان بيرينيس لم تخرج قط من قلبه. لقد أحبّ جورجيت ومايزال يحبّها وهي لم تعلم شيئاً عن بيرينيس. ولولا الحرب، لولا هذه الفظاعة لما رأى بيرينيس ثانية ولما رأى بوضوح دخيلة قلبه. منذ تسع عشرة سنة.. نعم، تسع عشرة سنة ونصف.. حمل في قلبه تلك الذكرى الصافية جداً، تلك الذكرى المصفّاة. لقد أحبّ جورجيت، وكانت حياته كلها من أجل جورجيت ووليهما. لكنه عندما كان يغمض عينيه كان يرى بيرينيس. سرّه؟ منذ ذلك الحين لم يكلّمْ أحداً عن ذلك السرّ. منذ ذلك الحديث مع العم «بلين» في «انسبروك». ياالهي، ماذا حلّ بالعمّ في هذا الإعصار؟ إن عمره يبلغ الآن خمسة وثمانين عاماً على الأقل. لم يكلّمْ أحداً قط. وقناع الجبس مخبّأ في جوف خزانةٍ مع لوحة زامورا. ولم يره أحدٌ قط، وقد أمسكهما اوريليان بيديه عند انتقاله من منزله سنة الف وتسعمئة وست وثلاثين، كان بودّه لو يعود الى ا لمنزل وأن يحطمّهما. كان شيئاً كريهاً أن يتركهما خلفه. أحبّ جورجيت،

لكن بيرينيس كانت سرّه، شعْر حياته، ذلك الشيء الذي لم يكتمل.. كم من مرةٍ، في لحظات القرار، تساءل ماذا ستقول بيرنيس فيما ينوي أن يفعله؟ كان يتوافق معها. كان يخشى ان يبدو لها أدنى من تلك الفكرة العالية عنه التي كان ينسبها إليها في أسطورة حبّهما. وهي فكرة تصحّحت بهدوء، وجاءت ببطءٍ الى سطح أفكاره، عندما خمِد ألم الفراق والفشل. لم يعرف جورجيت رأساً. كانت جورجيت حبَّ نضجه. تزوّجا في الثلاثين. لكن بيرينيس كانت وحدة حياته، وشبابه، ماظلّ حيا فيه من شبابه. وعندما كان يفكرّ فيها كان يلاحظُ أنه لم يعرفها ولم يرها إلا شهرين ونيّفاً. هذان الشهران كانا شبابه كله، وقد طردا كلَّ ماسواهما من شبابه، وهيمنا على مابقي من حياته. نحو عشرين عاماً. وعندما كان يغمض عينيه كان يجد بيرينيس، بيرينيس في صورة مثاليّة.

حياته! في هذه السيّارة التي تكدّسوا فيها مع البطّانيات والحمّى، ومع النور الساطع، الآتي عبر شباك السيارة، العالق بهذا المشهد التافه من الطرق والقرى، كم كان غريباً ان يستذكر تلك الحياة التي لم يكد يختارها، والتي لم تكد تتناسب مع إرادته! ماكان يمكن لاوريليان الذي عرفته بيرينيس أن يتصوّر مصادفات هذه الحياة. لقد عرفته بيرينيس في الفترة التي بدأت تنحلّ فيها أزمةُ التردّد، وليدة الحرب الأخرى. وكان غريباً ان يُعيد التفكير فيها الآن. آه! نعم حينذاك أفسدنا على أنفسنا انتصارنا! بدا لنا إذ ذاك أن النصر وحده كافٍ.. كنا ننتظر حياة جاهزة، آليّة.. كان لابدّ من هذا الفشل المزدوج، ضياع بيرينيس، وانهيار باربنتان.. حينئذ كان المطلوب بالنسبة إليه أن يُعيد تكوين وجوده تكويناً كاملاً.، كان عليه أن ينظر الى الوجود بعينين مختلفتين. إن العمل في المعمل عند صهره والادارة العملية التي اضطلع بها في المعمل بسرعة فائقة، لان اوريليان الذي تغلّب على الكسل، كان في الحقيقة رجلاً قديراً، كما يُقال، كل ذلك أجبره على تبديل أفكاره. فعندما يُقْذف بنا في الحياة العملية لابد من أن يُساير مانفكّر فيه شروط هذه الحياة. كان المعملُ نهاية الهواية. ففيه يكفّ المرءُ عن مغازلة المفاهيم الأخّاذة التي كنا نحبّ أن نحلم بها لما فيها من ضروب الخطر بالذات. لامزاح بعد الآن، لامزاح.

لكن الإنسان محتاجٌ الى نسبة ما من الإوهام. لابد له من الحلم لكي يتحمل الواقع. وكان هذا الحلمُ «بيرينيس»، بيرنيس المتماثلة مع جميع الأفكار النبيلة، مع كل مايمكن أن يحتويه العالمُ من إباء ورفعة. ربط اوريليان بينها وبين جميع أحلام يقظته. منها استمدّ النصيحة، وهي التي قادته الى جورجيت. آه! مع جورجيت وابنته وابنه، وإدارته لمشروع توسّع كثيراً بفضل الدعم المالي لآل «ارنو» -ومن الواجب الاعتراف بذلك - قد يصعب التعرّف على اوريليان الزمنِ الماضي الذي كنا نجده حتماً في حانة لولي نحو الساعة الثانية صباحاً، يصعب التعرّف عليه في هذا الرجل النظاميّ، المكبّ على عمله.. إن الطريق من اوريليان ذاك الى اوريليان هذا لم يسلكه احد، ماعدا بيرينيس من تحت أهداب عينيها. بيرينيس هذه التي كان يحادثُها... في هذه المنطقة الصناعية من «ليل» كان عليه ان يقيس قدراته ازاء مشكلاتٍ لم يكن يتوقّعها. ظريفٌ جداً ان نقول في أنفسنا: سوف نبقى خارج بعض الأشياء، لكن هذه الأشياء تأخذك بخناقك دون ان تكون قد فعلت شيئاً من آجل ذلك. السياسة مثلاً. ولو أن أحداً قال لليرتيلوا أنه سيكون ذات مساء من أمسية سنة ألف وتسعمئة وأربع وثلاثين مع الاف الآخرين السائرين تحت أشجار الشانزيليزيه، عند حلول الظلام! ذلك المساء، من السادس من شباط، لم يكن ذلك سوى نتيجة وهم. وهمٌ عنيد. وعندما يكون شبابُ المرء قد دمّرته الحرب، أو في الحقيقة عندما لايكون له شبابٌ بسبب الحرب، فمن الطبيعي ان يُؤمن بحركات المحاربين القدامى، وأن يؤمن بأن كل مايجده فهو سيء الصنع، متعفّن، ويمكن التخلصُ منه بأن يتحّد مع الآخرين، مع الذين كانوا معك في الخنادق... المصيبة أن الناس كانوا منقسمين.. ولم يكونوا يؤمنون بالعقائد نفسها.. كلّهم مستاؤون. لكنهم يقفون بعضهم في وجه بعض.. ومع ذلك فقد جاء اوريليان هذا المساء من «ليل» الى «باريس» مع الآخرين... كلّ شيء قد غرق في الهياج الشعبي، في الطلقات النارية، في الباصات المحروقة. الأمرُ غير مفهوم. وفي اليوم التالي، ظنّ اوريليان، بدهشة الموتى، وبالإحساس أنهم قد أثاروا البلاد، وأن الأمور

ستمضي بعيداً، وان شيئاً لابد ان يخرج من ذلك. لكن لم يخرج شيء. لاشيء البتّة، ضربٌ من الاختناق. وفيما بعد... كفّ عن الإيمان بعمل هذه الجماعات المخوّلة للعمل. بالناطقين الرسميّين، الناطقين باسم الحرب. لابّد من طرائق أخرى. لقد اعتقد بطرائق اخرى، لا الطرائق نفسها. كلّ شيء خيّب آماله. الصراع السياسي والانتخابي في هذا البلد الذي يعيش فيه، لا أمل فيه. كان من اولئك الذين يؤمنون انه لايمكن إعادة صنع العالم إلا بالعنف. لقد استمع الى هؤلاء واولئك. لم يكن يحب ان يفكر، في هذه السنوات الأخيرة. كل ذلك للوصول الى ما وصلنا إليه.! ربما خرج الخيرُ من الشرّ المستطير.. في هذه اللحظة، غَمضتْ عينه، فرأى بيرينيس...

ماذا كان يروي «بيكفيل»؟.. إلامَ نذهب هكذا سيّدي النقيب؟ ان أرادوا الهدنة فالأفضل ان يفعلوها الآن..

دخلوا ضيعة لاشكل لها ذاهبةٍ في كل اتجاه، مع شارع طويل، صاعد يتسلّق كتف الوادي. ربما كان مَحور المدينة الصغيرة. لكن هذه تتخذ شكل الأسروع بأرجل جانبية،وشوارع أخذوا يدورون فيها.

قال «بليزو». انظرْ قليلاً، سيدي النقيب، هذا المكان قديم.. فيه منحوتات.. مع كثير من الناس...» لامجال للكلام.أخذت القافلة تتفكك في الزحمة، فجأة على ساحة عرضانيه، محفّرة، أمام الطاولات الحديدية. وبيوت كلهامنحرفة. الناقلات مصطفة، جهتها الخلفية الى الرصيف. وعلى مئة وخمسين متراً جنود يتسكّعون، وجماعة من الضباط، وجنرال اجتاز الساحة تتبعه فئة صغيرة من أركانه. والمدنيون على عتبات بيوتهم. وكأنهم تراجعوا ليكونوا متفرّجين. مرّ سنغاليون مكوّمون في عربات صُنعت لاستعمال آخر. نودي بالأوامر فتوقّف الرتلُ. شوهدت من الخلف سيارات الفرسان ا لمحمولين. خرجت دبابةٌ من شارع ودارت على نفسها. تراجع الناس.

قال النقيب ليرتيلوا. أين صرْنا؟ لابّد أنها ر.. إذا أخذنا برأي «بليزو» أيّده بيكفيل :« إنها «ر...» سيدي النقيب..» كان المطلوب أن يجدوا مأوى لهم.

– ٣ –

« آه! سيد ليرتيلوا.. سيدي النقيب.. يعني... كنتُ سأتعرفك بين ألف شخص...»

كان الصيدلي قد غدا ضخماً، تام الصلع، مع شعرات على صلعته، بيد أن وجهه مازال فتياً. أما الكمّ الفارغ فقد اكتسى بطولةً عى مرّ السنين، لكون لوسيان موريل يعلّق في عروته الآن شريطاً غير واضح، ناصل اللون. كان الجو شديد الحرارة. وقد واجهت اوريليان أشياء كثيرة رآها دفعة واحدة. بيت بيرينيس، الناس، العجوز في مقعد مجدول بالخيزران، الكلب الأصهب الذي كان ينبح، النباتات الخضراء العالية.. كانت الصيدلية تطلّ على الشارع الرئيسي، مع تمثال لعذراء في زاوية الزقاق، وهي بناءٌ عالٍ، قديم، يبدو سقفه من بلدٍ آخر؛ لكن المرأة الشابة ببلوزتها البيضاء، وبشعرها الجعد الأسمر، وبجسمها الملاصق للبلوزة حتى ليظنْ أنها قد خرجْت لتوّها من الحمّام، قادت النقيب من باب الشارع الضيّق، دائرة حول الزاوية، الى المدخل الخاص لمسكن موريل، الى باب عالٍ يطل على فناء للتفرّج، مائل، واقع بين جدار بلا نوافذ والمنزل... فناء مثلث له أرصفة حجرية حول مركز من الحصا الناعم، ونباتات خضراء كبيرة في أصصٍ خضراء وطنف غير متناسب مع مدخل الشقق، وأزهار في آنية زرقاء وبيضاء، ويجنبها سفنٌ. والناس يشكلون زمراً ببزات رسمية وفساتين خفيفة، ورجال بالقمصان وحدها. سأل الصيدليُّ الذي انشق عن إحدى الزمر، أول الأمر: «ماهذا جيزيل؟» وتبيّن من سؤاله على الفور العلاقة الحميمه القائمه بين جيزيل وبينه هيئة المالك .وكان واضحاً وضوح النهار أن ذلك الشاب المعروق والأصفر الذي يلبس قميصاً ذا مربّعات صغيرة والذي نهض، يتألم من تلك الحميميّة: كان يمسك بيده أغصاناً كبيرة أوراقها مقطعّة، شديدة الخضرة. والأرجح أن المرأة العجوز عمياء. كان هذا هو الدكتور «سوربان» ومعه المساعدان الصحيّان. احتفوا بليرتليوا . وقف الرجلان اللذان ربما كانا هنا مصادفةً ولوّحا بالتحية.

«آه! ياللعجب!»

كان البيت عتيقاً، وربما من القرن السادس عشر، وقد جُصِّص من جديد على نحوٍ مقبول، وكان في هذا الفناء المستور أقفاصٌ تغرّد عصافيرها. وكلها من الكناريّ. لكنها بدت لأوريليان ملوّنة بألف لون. وكان ثمة هرٌّ يلعب بكبة السيّدة التي تسرد، والمرتدية ثوباً أزرق سماوياً، وعلى حطام عنقها شريطٌ أسود عريض. جرى التعرّف مصحوباً بالأصوات. انسحبت جيزيل صاح بها الصيدلي: جيزيل، احزري مَنْ هذا؟ لم تحزر جيزيل. «هو السيد ليرتيلوا أتعلمين، اوريليان ليرتيلوا..» وكأنه يقول فيكتور هوغو. أحسّ اوريليان بالضيق الحّمى أكثر من هذه الشهرة الغريبة. عادت جيزيل الى المحلّ عبر البيت. وكانت تسير القهقهري تقريباً لتحسن رؤية السيد ليرتيلوا الشهير. سارع الشخص المعروق ليمسك لها الباب الزجاجي الذي أوشك تيارٌ هوائي غير متوقع أن يصفقه.

قال سوربان بذهول: أتعرف النقيب؟ تخلّى «بريمون» أحدُ المساعدين للقادم الجديد عن كرسي القش. ما أحلى الجلوس، كان هناك أكثر مما تتحمّل الرؤية والسمع.. إن ذلك مرهقٌ مثل عرض مسرحي. جميع الأشياء المقدّرة الكلمات النافلة والضرورية، ذقن الصيدلي المضاعفة، العجوز التي لاتفهم، ولا تكاد تسمع، والتي أخذت تستعيد اسم ليرتيلوا. «السيد ليرتيلوا؟ لا أذكره. السيد ليرتيلوا.. أليس ابن عم «بريزانج»؟ «وينفجر لوسيان» مالكِ ماما، مالك؟ السيد ليرتيلوا... اوريليان! ويتّضح أخيراً كلُّ شيء، هناك أصواتٌ مختلطة، وسوربان الذي يصرّ. «إذن هذه مصادفة!» وأسئلة المساعد القصير، والشخص المعروق بلهجة راعدة: «يجب أن نخبر بيرينيس.. كانوا يشربون شراب اللوز في كؤوس زرقاء. بدا الجميعُ مطّلعين حتى الرجلين المارّين اللذين استفهما فقالا «آه» ونظرا معا الى الوافد الجديد. كان لأحدهما عقدةٌ في جبينه. سُمِع صوتُ الراديو في غرفة مجاورة. كان الحصا ذا لون غريب، ليموني تقريباً، بسبب مسحوق الآجر الذي امتزج به، من غير شك. بدا البيت مليئاً بالظل، إذ مشربيات النوافذ مغلقة. ومن الباب المفتوح، شوهد التماع النحاس فيه.

أنّتْ العجوزُ وحاولت ان ترى بوضوح أكبر وعبر نظارتها القادمَ الجديد.

قالت. «اعذرْني،كل ذلك بسبب هاتين العينين الرديئتين.. إذن أنتَ اوريليان بيرينيسنا؟ أحسّ اوريليان بتعاظم الضيق. مامعنى هذا؟ انحنى الرجل الهزيل المديد الجسم، وهمسَ:«لاتندهشْ، أنت هنا كالكائن الأسطوري..» وضحك لوسيان موريل ضحكاً مهزوزاً. دُعيتْ الخادمةُ، بنت ستة عشر عاماً، قوية، فجاءت بشراب اللوز. كان فيه حلاوة لكنه بارد. أخذ «سوربان» يروي من جديد حربَهُ.كان في مكان ما في جهات «البان سان نازير» أكانوا يصغون إليه.؟ نعم فتاة طويلةٌ حزينة، شديدة السمرة جالسة، متراجعة قليلاً، لم يلحظها اوريليان في أول الأمر: في ثوب كتانيّ مخطّط رمادي وأسمر، وذراعاها قد لوّحتهما الشمس حتى بياض الكم القصير الذي كان يمكن ان ينزل الى أدنى مما هو عليه... عالم بيرينيس حيث تدحرجت خوذة «فينستر» الملقاة أرضاً قرب الصندوق الأخضر، بجانب خريطة «ميشلان» التي طُويت طيّة سيئة.

نقّ لوسيان بصوت متحمّس:

- كل الأشياء وصلت في وقت واحد، الحرب، الهزيمة، جميع هؤلاء الناس الذين يمرّون في بلدٍ ناءٍ، السيد ليرتيلوا بعد كل تلك السنوات! أتعلم. ياسيد ليرتيلوا، مَنْ كان عندنا منذ ثلاثة أيام، لا، أكثر من ثلاثة أيام (لم نعد نعرف كيف نعيش).. ادمون.. نعم، ادمون وكارلوتا.. آل باربنتان... في سيارة، كان ينبغي ان ترى ذلك! اللحفُ على سطح السيارة، والبطانيات وصناديق، صناديق! شيء لايُصدَّق! كانت كارلوتا تحمل جميع ثيابها.. جُنَّ الناسُ، أضاعوا دماغهم!أنا ، إن وصلَ الألمان الى ر...

صاح الشخصُ المعروق:

- لن يصلوا إليها!...

قال سوربان:

- إني لأخشى ذلك .

أردف لوسيان.

- أما أنا فلن أرحل من هنا، وليذهبْ مَنْ يشاء... لكن ماذا تفعل بيرينيس؟ ستجنّ إن عرفتْ

تحرّك الرجلان الدميتان. كان على أحدهما سترة من الكتان زرقاء مغسولة ألف مرة، وكان الآخر ظلاً لوقاره، مرتدياً الثياب اليومية التي أرهق نفسه بها وله لحية قصيرة تحت الورم .

صاح لوسيان:

- لاتقلْ لي إنك أخذت غرفةً في مكان آخر! لن أسمح بذلك! دعْكَ من ذلك، دَعْكَ! سيذهب الجندي المرافق ليحضر أغراضك!

قال سوربان:

- وفوق هذا، فالنقيب موضوعٌ.. .

حينئذ جرى ماهو أدهى، إذ تدخلت السيدة العجوز وصاحت أن حمّاماً حسن السخونة.. كان على الجميع عرقٌ مصفرٌ. لاحظ الصيدلي أنه لم يبق بسكوت صغير... «ياالهي! كيف نستقبلك!... عندي ماراسكان»... نعم، نعم! لكن لعل «الأرمانياك» أصحّ لحالتكَ؟ دكتور؟ مارأيكَ؟ الارمانياك؟ حسناً، وأنت نفسك، ولستَ مريضاً؟ سأحضر الأرمانياك وأنت، غاستون، أر السيد ليرتيلوا الغرفة الصفراء، وسيخبر الجنديُّ المرافق لك أحدُ هؤلاء السادة.. هُرع مساعدوه. أنا! لا، أنا! ،جلسوا جميعاً معه. لم يكن للنقاش من جدوى. والحقيقة أن اوريليان كان يشتهي اشتهاءً عظيماً ان يستلقي. تبع غاستون حين وجد غاستون. بدا له المنزل، في نوره المخفّف مليئاً بالقماش القاتم، وبأثاث من طراز فلاحي، وخزائن للأطباق مُثقلة بالخزف المزخرف، وبالصحون على الجدران. آه نعم، فالصيدلي من هواة جمع الصحون. حاول غاستون الهزيل، في طريقه أن يشرح عن قطعتين أو ثلاث قطع نادرة، على نحو سريع. كان يود أن يُحرز السبق على رب المنزل، ويبطل تأثيره. لم يكد اوريليان يستمع إليه. كان يعبر منزل بيرينيس في ضَرْبٍ من الذعر يقارب الغرابة. كان كلُ شيء في مكانه المناسب، الدهان الذي جُدّد حديثاً، وذوق «الأحياء الثلاثة» في ذلك كله، هذه

الحداثة القديمة الزائفة، هذه البساطة في ألف تفصيل، تلك التحف المقبولة إذا نظر الى كل واحدة على انفراد. كان اوريليان يحسّ بأنه ضخمٌ، هائلٌ في هذه الغرف التي ليست بأكبر أو بأصغر من غيرها. ولعل ذلك بسبب حذائه الوسخ. وكان يبدو له أن حركة خرقاء ستقلّب كلَّ شيء. كان ذلك فريداً جداً. في غمرة الحرب، ومع قافلة الصباح، والمعلومات عن تقدّم ا لعدو. الألمان في ر...! كابوسٌ..! لم يصلوا بعدُ، لكن لا بدّ من ذلك... انفتح البابُ على الغرفة الصفراء.

« سيدي النقيب، خذْ راحتَك، على الخصوص... وإذا مانقصك شيءٌ.. فلا تتردّد... لن تغفر لنا السيدةُ موريل...

لابد ان تكون تلك الغرفة في الزاوية، مع نافذةٍ على الزقاق، وأخرى على الشارع الرئيسي، فوق الصيدلية. وكان فيها رفوفٌ عليها كتبٌ، دائرة معارف «كييه».. سرير أريكة.. مقاعد كبيرة من المخمل ا لأصفر لها مساند للرأس.. فتح غاستون باباً على غرفة الحمام، وطشتاً في خزانة، وفتح الحنفيتين ثم أوقفهما. الماءُ جارٍ، يا لها من أعجوبة! خلع ليرتيلوا حميلته. وضع رأسه في هذا التيار البارد. كان الآخر ينظر إليه وهو يفعل ذلك. «سيدي النقيب..

ماذا يُريد هذا الرجل العاجيّ الغريب؟ أدار عينه نحوه من تحت الحنفية. كان في صوت غاستون ذلك الانزعاج الذي في اسطوانة بالية.

- «سيدي النقيب... اعذرني إذا تدخلتُ فيما لا يعنيني، لكن... إنك تُوافي هذا المكان دون ان تعلم.. أودّ أن أخطرك... بسبب بير بـ.... بسبب السيدة موريل على الخصوص..

قال اوريليان:

أرجوك...

وامتخط في الماء. رأى ان لغاستون عينين جميلتين، عيني كلبٍ أمين مع عُريق صغير تشظّت حمرتُه في بياض إحدى العينين.

جلس غاستون متعمداً على احد المقعدين الأصفرين وصالب ساقيه

الطويلتين. رفع البنطال عن جورب لولبي الشكل، وداعب ربلته المشعّرة. انحنى ليُحسن الكلام. رُسمت علامة الغاسلة على كتف قميصه ذي المربّعات الصغيرة الخضراء والخبازية على أرضيّة بيضاء. قال بلهجة مَنْ يُسرّ سراً.

ـ أولاً يجب ان تعلم أن موريل وزوجته غريبان أحدهما عن الآخر منذ سنين.. هل رأيت «جيزيل» المتمرّنة في الصيدلية، فهمت؟

تنحنح قليلاً. قال اوريليان بجفاف:

ـ هذا لايعنيني...

هزّ الآخرُ يده:

ـ بلى، بالضبط.... بلى.. يجب أن تعلم. سوف ترى السيدة موريل. فهي لم تخرج إلا اللحظة.. إن كلمةً واحدةً منكَ، إن لم تعلم، كفيلةٌ بأن تُفسد كلَّ شيء..

لم يقبل احتجاجات اوريليان، وتغلّب عليها بصوت غدا حاداً على حين غرّة:

ـ إن بيرينيس تعيش على الذكرى منذ عشرين سنة... أتفهم؟

لا؟ أ نت حياتُها، كنتَ حياتَها كلَّها..

ـ هذا سخيف! لمَ تقول لي ذلك؟

ـ هذا أولاً. ثم يجب ان تعي قبل أن تلقاها أنه عندما تكون كلُّ حياة المرأة...

دفعه ذلك الى الكثير من التفكير. جلس على حافة السرير، ولاحظ، دون أن يعلم حقاً لماذا، الرسم المدموغَ على الغطاء الأصفر. كانت قدماه تؤلمانه، وصَعُبَ عليه فكّ عقد رباط جزمته. ألقى فردةَ الجزمة على الأخرى. كانتا إنسانيتين على نحو غريب، مثل يدين متصالبتين. سحب ليرتيلوا قدميه اللتين آذاهما الجلدُ، وتناولهما بين يديه الواحدة بعد الأخرى، مع الجورب الرماديّ المبقع. كان بحاجة الى أن يستلقي، تابع الآخر كلامه...

ـ ظل لوسيان زمناً طويلاً يحاول أن يستميلها إليه. لم يكن يريد أن يقبل

فكرةً.. ثم ما الحيلة؟ الحياةُ أقوى... كانت له صواحبُه... وبقيت وحدها. عدّت ذلك في البدء بركةً.. والآن،لكن كيف لم تدرك ذلك من النظرة الأولى، «جيزيل».. إنها تدرس الصيدلة في تولوز، جاءت الى هنا في العام الماضي... إنها فتاةٌ غريبة الأطوار، فتاة أنيقة..

كان كل شيء يصل الى اوريليان عبر ضبابٍ ضوءٍ كابوسٍ، عدم تماسك الأحلام، منطق النوم. وكان ذلك يمتزج بمرارة الأيام الأخيرة، بهذا الشعور. شعور السقوط في بئر. بذلّ الهزيمة، بعدم قابلية مايحدثُ للفهم... مادا قال الصيدلي قبل قليل عن ادمون وكارلوتا؟ كان الرجلُ الغريب يتلوىّ على مقعده. كان في عينيه هوى الشباب، وكا يكشر بفمه البشع، فم تأباه النساءُ. ماذا كان يقول؟ إنه كان يحبّها، هو؟ من هو؟ وجيزيل هذه... لا، غير ممكن؟ كان عاشقاً لبيرينيس... آه! من أجل هذا... ماذا كان يقول عن أمها؟ تذكرّ اوريليان بغموضٍ قصة أم بيرينيس التي سافرت الى افريقيا.. وقال شيئاً بهذا المعنى.

- لكنكَ رأيتها، تحتَ. إنها العجوز بالثوب الأزرق!

آه! السيدة العجوز أم بيرينيس.لقد عادت! إذا صدق غاستون فإن قصة حياتها انتهت بالفشل. فقد تركها صاحبها عندما كبرت. وجاءت الى جوار ابنتها لتُنهي هذه الحياة المحكوم عليها بالموت. الحق أنه لو لم ينتزع من غاستون هذه الكلمات، فإن ماكان يشتاق الى الكلام عليه هو حياته، طفولته والده الرياضي الفذّ.. سُمعَ من بعيد صوتُ انفجار.ونظر غاستون الى النافذة بقلق: «ماهذا»؟

همس اوريليان: «قنبلةٌ طائرةٍ».

وانقلب على سريره ويدهُ على عينيه. ودّ حقّاً لوينام.

- «في ظلّها»، منذ ست سنوات عشتُ في ظلها... مع هذا الشبح إزائي.. لاحيلة لي على هذا الشبح.. وها أنت ذا، وأنا أكلمك، أنتَ مضطجع في الغرفة الصفراء... لقد كرهتكَ، لكنها تحبّك..

كل ذلك كان غير معقول.. جورجيت. ا ستنجد اوريليان بصورة

جورجيت. لكن صورة جورجيت لم تتشكلّ في عينيه المغمضتين. فكأن جورجيت والولدين قد غرقوا في زاوية مظلمة من ذاكرته. وهذا العالم الذي تهزّه الجلبةُ. صوتُ غاستون العتيُد.. غاستون ماذا؟ على كل حال..

ـ حينئذ، كنتُ استقلّ سيارتي الصغيرة.. عندي سيارة «وسنر» قديمة.. وكنتُ أهرب الى الريف... أتعرف الريف في هذه المنطقة؟

سقط اوريليان في ظلمة رجراجة. وبه ذلك الإحساس بالخطأ، إحساسه بأنه لاينبغي ان ينام، في وسط قافلة ليلية، عندما يبذل وسعه، يجنب السائق، ألا يغيب عن نظره المربعُ الأبيض المدهون في مؤخرة السيارة التي تسبقك، في الغياب الكلّي للنور. المربع الأبيض الذي ينأى ويدنو. بخطر، المربع الذي يرقص أمام العينين المحملقتين، المربع الأبيض الذي لم يعد سوى مانحلم به، ما نراه، المربّع الأبيض للواجب غير المعقول، للسهرة غير المحتملة..

أين كان؟ على تلك الطريق في شمالي «آراس»، حيث كانت تضطربُ على نحو ملتبسٍ كتلةٌ بشرية مجزأة، في تلك الليلة من ركام الأنقاض المهدّدة والمأتمية، وكانت تشتعل في مكانٍ ما ناقلةٌ محترقة وارتمى سكيرٌ على مرقاة السيارة وهو يبغي أن يسوق بهم، فألقاه اوريليان بقدمه التي أسندها الى صدره..

وفجأة أحس بما في الصمت من مخالفة للمألوف، مثل غطاء ينسدل عليه. تحرّك في الفراشَ بإحساس من الضيق. لم يكن بحاجة الى أن يفتح عينيه، كان يعلم أنها هنا، ان بيرينيس هنا. وفتح عينيه.

كانت بيرينيس هنا.



— ٤ —

كانا وحيدين في الغرفة الصفراء. وقد تلاشى غاستون، لم يبق مايراه سوى بيرينيس، لكن كل شيء كان يحلّ محلها، كان يَصرف انتباهه،، صورة عاصفة ومغارة، تتقدّم فيها، في آن واحد، خرائبُ رومانية وصيادون. وقارب يغرق في إطار أسود،، وما على الرفّ الى اليمين غرق في الضباب.... وبيرينيس،،، وعلى حاجز مدفأة رسم ديباج زعفراني حزوزُه مختلطة بمحارٍ وبقرون وفيرة مع زبد ثمار أو أزهار،، وبيرينيس. قالت:

ـ ينبغي ان تلزم الفراش، فالطبيب يقول أنك لستَ في صحة حسنة...

ارتعش لهذا الصوت الذي ظلّ مألوفاً. كان السرير يهرب من تحته مثل سفينة. تمكنّ من الجلوس ، وهو ساهم، وأمسك بيدي المرأة. تركت له يداً. وبالأخرى التي أفلتتْ سحبت الوسادة من تحت الأغطية. وسندت خاصرتي ليرتيلوا.

ـ بيرينيس،،

ماذا بوسعه أن يقول وراء هذا الاسم الذي يلخّص كثيراً من الأشياء التي لا سبيل الى صياغتها؟ فهمتْه، وابتسمت ابتسامة شاحبة:

ـ نعم،، اوريليان،،، كان لابدّ من أن تكون الأشياء هكذا...

أخذ يراها رؤية اوضح. لم يكد يتغيّر وجهها، لعله قسا، واشتد بروز الفكيّن. وظلّ التعبير هو نفسه. لكن الأجفان كانت ثقيلةً، ومصبوغة قليلاً. ثم إن الشمس لوّحتها. وقد صُفِّف شعرُها على نحو مختلف، مع عقائص في المقدمة، وطوقٍ حيث كان كيّ المزيّن محسوساً، ولعل لون الشعر قد نصل. الشيء الجوهري لم يكن هذا الثقل الخفيف في قامتها، لكنه كان في الوجه: السرّ المفقود، ربما كان رونق الوجه. وقد صبغت شفيتها بالحمرة أكثر كثيراً من ذي قبل. ولعلها قد وضعت شيئاً منها قبل أن تدخل الغرفة الصفراء. خفض اوريليان عينيه، وكرّر:

- كان لابدّ ان تكون الأشياءُ هكذا..

لاحظ قدميه الحافيتين، فهبّ كمن سينهض، اوقفته.

- هلا بقيت، هادئاً، ياصاحبي، ولا تتكلّف معي...

كانا صديقين قديمين، وهو لم يرها منذ «جيفرني» في ربيع السنة الثانية والعشرين، أي منذ مايزيد على ثمانية عشر عاماً. قال:

- كان يمكن أن يكون لنا ولد ابن سبعة عشر عاماً.

أشاحت بوجهها، فاستغل هذه الحركة ليقول:

- بيرينيس.. لمَ لمْ تكتبي إلي قط... ولم تجيبي قط؟

- جاءت رسائلك متأخرة جداً. كانت تصل في أزمنه شتّى. ولو أني أجبتُك.. ما الذي كان سيغيّره جوابي؟ على كل حال، لقد ،أجبتُك ،كتبتُ إليك، ياأوريليان، كلّ أيام حياتي..

- لكني لم أتلقّ شيئاً!

- لاشك، وذلك لأني لم أرسل شيئاً.. قط

ربما كانت في الثانية والأربعين. وهذا الفستانُ البيج ، السابل، لاخير فيه. وقد هزلت ذراعاها قليلاً، وكان الوشاح الصغير الذي برزتا منه دون كمّ يدوّر كتفيها، ولا يزيد في حسنها.

تمشّت أصابعُ اوريليان الواهية صُعداً وببطء في إحدى الذراعين الباردتين. ياللغرابة! لم يعد يستطيع أن يفكرّ في جورجيت لم يعد يعلم ماهيئة جورجيت. قالت بيرينيس:

- ينبغي ان تظل فصيلتك هنا وقتاً كافياً لتتمكن من الاستراحة..

عاد كلُّ شيء في هذه الجملة، الحرب، الانسحاب، الألمان الذين سيبلغلون ر... إن لم توقّع الهدنةُ مباشرة، وقد طال انتظارُ هذه الهدنة.. والشعورُ بضعفه، والحميّ في عروقه.. إن ظروف هذا اللقاء كانت تتدفّق على هذا اللقاء مثل موج اعتدال الربيع. وكانت تلك الظروفُ تتخذ أهميّة مبالغاً فيها. الظروف. نوى ان يقول جملةً فقال غيرها: «هل مرّ ادمون من هنا» أجابت نعم

بجفنيها، بهذين الجفنين المسمريّن اللذين كان عليهما بقعٌ صغيرة، بل شذرات. لم تعد شابة. ولاشك أنها قرأت ذلك في عينيه، وبدرت منها حركة بكتفيها وذراعيها كأنها تريد أن تحمي نهديها من نظرة الرجل. قال.

ـ ألم تنسيني؟

وكم كان الصمتُ. شاقاً فكان عليه أن يضيف..

ـ لقد أفسدْنا حياتنا..

حينئذٍ قالت بشيء من المرارة، وهي طبيعية مع ذلك، وعلى وجهها ذلك التعبير القديم الجليّ الذي ما إن شوهد ثانيةٍ حتى استحضر دفعةً واحدة ذكرى مقهى على «الجادّات»، ونوراً باريسياً من كانون الثاني:

ـ امرأتك جميلةٌ.. أروني صورتها.. وصورة ولديك...

ماهيئة جورجيت؟ لم يتذكّر منها سوى الفساتين. الولدان.. حركةٌ محتْ ذلك كله. كانت الحمّى تلطم صدغيه. كانت في اوريليان قوة تدفعه الى الكلام. وكأن شخصاً آخر غيره يتكلّم:

ـ لا تصدّقيني، إن شئتِ، بيرينيس... لم أحبّ قط غيركِ... وأنتِ لم تفارقيني قط... ولم آسف على شيء من شبابي.. إلا عليك... إلا عليك... وددتُ لو أقول لكِ.. طوال هذه السنوات جميعاً، كنتُ اهيّيء جملاً للنهار... ثم إن النهار كان مختلفاً عّما كنتُ أتصوّره.. اعذري هيئتي؟

ضحكت ضحكة طفولية، متحرّجةٌ، وقالت:

ـ أهذا ما هيّأته لتقوله لي؟ لاتعلم كم خفتُ عليك، حين علمتُ أنك مُستنفرٌ. لكن البقاء هكذا دون أخبار! لأنك منذ خمسة عشر عاماً لم تكتب إلي.. وعندما مرّ ادمون وكارلوتا منذ مدّة...

كانا لايعلمان شيئاً عنك... قيل إنك ربما التحقت بالجيش على «السوم».. ياالهي! أي كابوس!...

ظل ممسكاً بالذراع العارية. شدّ عليها. بذلتْ قصاراها حتى لاتُجهش في البكاء. ومرّة أخرى تقدّمت الظروف. فهمس.

ياله من عالم غير معقول! لقد أفسدْنا حياتنا. لاحياتنا نحن الاثنين فقط.

بل حياتنا جميعاً وكلَّ شيء. انتصارنا كان ينبغي...

توافدتْ الى حنجرته كلماتٌ، جميعُ الكلمات التي كان لايفتأ يردّدها هؤلاء الرجال المغلوبون، هؤلاء الضباط فيما بقي لهم من سلاح، وسط الجند المتألمين الثائرين. جملٌ جاهزةٌ، تفسيرات سريعة، اعتذارات، أفكارٌ مبتذلةٌ تتولّد، كلمات جديدة متجمّدة، انتقلت تدريجيّاً، من وحدة الى وحدة، في هذا الجيش الذي كان يرى كالهاجس مقدّمة «البيرينيه» المتدرّجة. والذي كان أفراده يقولون في أنفسهم «وماذا بعد ذلك؟» الكلمات المحرِّقة والمهدّئة التي كانت تلقي مسؤولية الفظائع على أشخاص وهميين، على أشباح.. وتسمح بمتابعة الحياة، والتخلّص بلباقة... كانت بيرينيس تصغي إليه وهو يتحدث عن كل شيء ماعدا الحب... ولعلها أحسّت إحساساً غامضاً أنه يقرن جميع ضروب الخيبة بعضها ببعض، خيبتهما، خيبة الجميع الكبرى، وجميع ضروب الخيبة في حياته، في هذه الكلمات التي لم تكن عندها كلمات مكرورة، والتي لم تكتسب بعد ذلك الطابع الآلي الذي ستكتسبه، فاشتهت أن تناقشها... وحاولت مرةً أو مرتين أنْ تعترض على تلك الأشياء التي يقولها، لكن تلك الأشياء كان فيها شيءٌ من نبرة الهذيان. ويجب ألاّ يغيب عن البال ان اوريليان كان محموماً..

- يجب ان تنام، ياصاحبي.

أخذ يتوسع، بخشونة مفاجئة، وبلهجة انتقامية، في موضوع السهولة. كانت هذه أول مرة تسمع فيها بيرينيس ذلك. ونسيت قليلاً مَنْ المتكلّم، وحمّى ليرتيلوا. والغرفة الصفراء، فقالت:

- لستُ أفهمكَ، مَنْ الذي كانت الحياةُ سهلةً عليه، سهلةً الى هذا الحدّ؟

نظرتْ إليه فجأة وكأنه غريبٌ، لا الى اوريليان احلام يقظتها، اوريليان الزمان المنصرم، اوريليان شبابها، وكأنه رجلٌ آخر: شخص كبير، اسمر، داكن السمرة، خفّ شعرُه، وأبيضّ عند الصدغين، وتحدّدت تقاطيعُه، شخصٌ طويلٌ وهزيل، وكأنه محزومٌ بعضلاته، ضابطٌ فرنسي ارعدته الحمّى ونزع سترة النقيب وتهالك هناك، على مسند كرسي، خلع جزمة الطيار، وجلس على السرير

الأصفر تسنده وسادة، في قميص خاكي، وبنطاله مربوط عند الساقين، وهو يقول كلمات يصعبُ هضمها، وفي وجهه تشنجّات غير معهودة. أكان اوريليان حقّاً؟ لقد حلق ذقنه قبل أن يأتي الى بيتها. لكنها كانت حلاقة سيئة، فقد ترك شيئاً من الشعر المزرق عند قرن الذقن. كان الآن يتّهم السياسة. هزّت كتفيها:

ـ اوريليان... ونحن، نحن نتحدّث في السياسة الآن؟

كان بينهما ارتباك كبير.



— ٥ —

تراجعت الحمّى، عند المساء. وبالرغم من تعليمات الطبيب، قصد ليرتيلوا الذي حلَّ في بيت «موريل» الى مكتب الفرقة ليرى ماذا يجري. كان عليه أن يصعد الشارع الطويل الذي يتسلّق رابيةً ببيوته المسكينة المستندة بعضها الى بعض، وبناء قوطي طويل، ليبلغ فندقاً صغيراً منعزلاً خلف شباك رمادية مغطاة بشجرات الورد التي كادت تتعرى من ورودها. كان ثمة حركةٌ لاتُصدَّق لرجال من جميع الأسلحة قلّما يحيّون الضبّاط، وجنود من السنغال عند مفترق الطرق، وجماعة من الجنود المشاة يتصايحون مع امرأة ضخمة كانت تصرخ من شباك بيتها الأرضي بكرهها للجند، واستعجالها أن ينتهي ذلك، وأن يأتي الألمان أخيراً ليُحلوا النظام. ولم يكن المدنيّون على العموم، يُظهرون الودّ. وكانت تمرّ سيّارات غريبة. وكانت الفرقة تقيم في ثلاث غرف مظلمة في أسفل مسكن تفوحُ عفونتُه، وفي البهو المعتم، تماثيل بالحجم الطبيعي لمقاتل من ١٨٧٠ ورجل يبتسم ويمدّ منديلاً لامرأة غير مرئية. همسَ العريف الشاب الذي أدخل اوريليان الى المقدّم «بوبيه» كان والد السيدة غريزوري فّناناً..»

كان المقدّم بين خرائطه الكبيرة المقياس، بوجهه الضخم الأنيس وشعره الرمادي، وهو يشطب عليها بالقلم الأحمر والقلم الأزرق، حتى ليُخيّل إلينا أننا في أيام دخول بلجيكا. «آه! أهذا أنت، ليرتيلوا... اعذرني، فقد يبدو الأمر...

وضع قلميه وتنهّد: «وصحّتك؟» أكدّ ليرتيلوا انه على أتمّ الاستعداد. فرك الآخر منخريه. كانت هيئته كهيئة كلب «دوغ» عاطفي، وأدنى وجنتيه تثيران العطف. «حسناً، سنؤجّل هذا... نعم.. سنحلّ. محل الفرقة التي حلّت محلّنا أمس... لقد أزلقونا نحو الجنوب، بسبب رتلٍ آليّ اخترق في الغرب، على حد قول بعض الناس الحسني الاطلاع... ثم بُحث عن هذا الرتل، فلم يعثروا عليه لافي الغرب ولا في... مزح بلطف، لكن بدا عليه التعبُ. كانت تُحملُ إليه أوراقٌ ليوقعها، وحشرج: «سنظل نوقّع أوراقاً حتى عندما نكون في «سان سيباستيان!» ثم التفت الى اوريليان:

«وأذن فسوف نصعد من جديد.. خمسة وسبعين كليومتراً نحو الشمال هذا المساء.. يا الهي! متى تنتهي هذه الحرب التي لاجدوى منها؟

وكيف نقول لهؤلاء الرجال اذهبوا وقاتلوا حتى الموت في حين تُفتحُ المدنُ، وبينما يسبّنا المدنيون، وعندما نعلم أننا مغلوبون! سأتركك هنا، ليرتيلوا، مع رجالك.. لستُ بحاجة إليك للرياضة.. وقد أُفرزتّ في الإعاشة الى السنغاليين... وإذا مانزلوا من هنا فتشبّثْ بمطابخنا... ربما غداً مساءً... هل رأيتها، أنت الحربَ الأخرى؟» كانت ضحكة المقدّم مريرة. وكشّر. فتهدّلت وجنتاه، من كل الجهات حول آنفه الأفطس، «أنت حاربت في الحرب الأخرى؟ أليس كذلك؟ لا أنصحك في الإكثار من الكلام عليها..»

لم تخفّ الحرارة مع مرور النهار، واختلطت بالبنزين والعبار. السماء وحدها أظهرت شيئاً من الرقة بين البيوت، حيث الشوارع تنفتح على الغرب العجيب الاختراع للساتان الوردي واللون البرتقالي في أواخر الانعكاسات على الزجاج. وكانت تُرى الأشجار خلف جدار وقد بدت كأنها استيقظت لتوّها. مر اوريليان على مركز السريّة. لمْ يكن أفرادها مغبونين الى حد كبير. كان لابدّ لهم من انتظار الصباح زمناً طويلاً لُيسمح بالدخول، وتدبّر أنفسهم، والنوم كيفما اتّفق. لكن الامور انتظمت. وقد سهر «بيكفيل» على كل شيء بينما كان النقيب يرتعد على سريره. «لاتقلق، سيدي النقيب، فعندهم كلُّ مايلزم.. إذن سنذهب؟» لا، سوف يبقون. «ستتناول طعامك» معنا؟ رُتِّب المطبخُ في المدرسة.. المعلمة لطيفة... لم يكن يستطيع البقاء. فآل موريل ينتظرونه ، وكان يفضّل ان يشارك جنوده طعامهم، نصيبهم. وهل يقبل «بيكفيل» على العكس، أن يأكل معه، عند آل موريل؟ رفض بيكفيل بسب المعلمة. كان نورمانديا ظاهر النعمة، ممتلئاً، لاتثنيه الهزيمة، صياداً بالفطرة، ولايطارد غير النساء: والعجب ان هناك من يزعم ان الفرنسيين في سبيلهم الى الانحلال!

البطء الذي تجشّمه اوريليان ليعود الى منزل «موريل».. هذا العشاء: ستحضره الأم العجوز العمياء، والمتمرّنه الصغيرة، وعشيق بيرينيس، والصيدلي، والحديث... مستوى هذه الحياة الريفية... كان الصيدلي يقرأ

«ديهاميل» و«جيرودو» ويعجب بـ «سيزان». وكان يعرف ماله أهميةٌ ومالا أهميه له. ثم كانت هناك الصحون. نموذج ايطالي منسوبٌ الى شخص ما، دي غيبيو.. تذكرّ اوريليان شارع «واغرام». لماذا شارع واغرام فجأة؟ ربما بسبب «فندق سيراميك» مقابل «الامبير»...

الغريب ان ليرتيلوا لم يكن يستطيع ان يتصورّ المستقبل، الاشياء عن المستقبل، ولا اليوم التالي، ولا الأمسية. المرء هكذا في العشرين، لكنه عندما يشرف على الخمسين.. لم يكن يتخيّل انه سيتابع حياة التنقلّ هذه ولا أن يتركها. جورجيت، والولدان... المسافة التي قامت بين جورجيت والولدين وبينه.. خيّل إليه أنه لن يستأنف أبداً حياة ماقبل الحرب... المعملُ هُدم. كان فصلا منتهياً منذئذ. جورجيت، كل حياته مع ذلك. وكيف يقارن بيرينيس، الأربعين سنةً التامة من عمر بيرينيس بنضارة تلك الأم الشابة، الناصعة البياض، المليئة بالحيوانيّة، العظيمة الإمتاع... لقد تبيّن له أنه تصرّف طوال هذا اليوم - ودون ان يصوغ ذلك بوضوح - وكأنه سيمضي ببيرينيس، وكأنه سيعيش معها، وسينسى كل شيء من أجل بيرينيس. كان يخضع لهيمنة هذه المرأة، لحب هذه المرأة الهائل. دعْك! لابد انها فكرّت في تلك الأثناء، في شيء آخر غيره وهل نسي «بول ديني». وما كان اوريليان يقوله في نفسه هكذا قلما كان يُصيبه هو. لقد هزّه هذا التعلّق قبل عشرين عاماً أو نحوها وراوده إحساسٌ بالذنب إزاء بيرينيس وأراد أن يتدارك الذنب. وعبثا حاول أن يحتمي ببول ديني... حب بيرينيس.. ودّ لو يُعطي حبّ بيرينيس هذه النتيجة، هذا التأليه... كان به دوارٌ هو أنه أخيراً فردوسٌ لآخر. حلم اليقظة هذا كان يسكب شيئاً من عظمة قصة الحب التي لامثيل لها على أنانية رجلٍ ابن خمسين يَحْمل في ذاته الهلعَ من شباب امرأته، على كل حال لم يعد يفكر بامرأته. وكل ماقد ذبل من بيرينيس كان حجّةً تنضاف الى رصيد هذا الدوّار الخيالي.. كان يتحنن على نفسه قائلاً: «كم تغيّرتْ!» علا صياحُ المذياع من إحدى النوافذ: صوتُ الحقد العنيف الذي كان يصرخ احصوا رجالكم! اتبعوا تعليمات حاملي البطاقة الصفراء!

ما المقصود بذلك؟ هزّ اوريليان كتفيه.

كانوا يتناولون طعامهم في الفناء، حول طاولة كبيرة مدورة، غطاؤها أزرق وعليها ثلاث كؤوس ثقيلة حسنة الصنع لكل شخص. لم تكن الأرض قطّ برتقالية مثلما هي في هذه الساعة من آخر شمس، مع ظلال بحريّة وكأنها القار الذي يقطع الطاولة وأجسام المدعوين، كل مابقي من نور ساقط على السيدة العجوز العمياء، ورديّ متوهج، وكأنه يسخر سخرية. الخادمتان، الفتاة ذات الستة عشر عاماً الجميلة والقوية التي رآها اوريليان من قبل، وامرأة تجاوزت الشباب، منهوكة، لها ذوائب طويلة سوداء على وجه ترابي تدور حول الآكلين مع الأطباق، والأواني الفضيّة، ورائحة الحساء. وكان لجيزيل في تنورتها السوداء وصدرتها الشفافة من الشيت الأبيض التي تشف عما تحتها، من شرائط وردية، نضارةُ السمراوات الفتيّات، نضارة كأنها من نبع الجبل. لكن في ابتسامتها شيئاً سوقياً. ولاشك ان موريل مغرمٌ الى حدّ الإسراف. فهو وإن وجّه الحديث الى تلك الفتاة الكبيرة الحزينه، ابنة عمه، بذراعيها، وفستانها المخططّ المصبوغ، والأسمر، التي كانت تجيبه بكلمات مقتضبة، وإن التفت نحو النقيب وفي عينيه اضطرابٌ شديد، وأن مرّر الأطباق نحو بيرينيس، وإن تساءل مع الرجال، فقد كانَ واضحاً أنه لايفكّر إلا في «جيزيل»، وفيما تأكل، وفي كأس جيزيل، وفي عزلة جيزيل وسط هؤلاء الناس وقد أوشكت ان تغدو مُهملة. كان مدوّراً، منتفخاً، وبما أنه كا ن يدور على نفسه، فإن كمّه الفارغ كان يتمايل على نحوٍ غريب. وقبالته هزالُ غاستون الذي ضاعت عظام وجنتيه اللامعة في لون لامع كريه حفر فيه الفسقُ ظلالاً خضراء. كان الجميعُ يتحدّثون على نحوٍ جدّ مزيّف، حتى السيدة العمياء. كان الصمتُ في بيرينيس وحدها، في شقرتها الذابلة. لاحظ اوريليان التغضّنين اللذين بدأا يحتفران على جانبي فم بيرينيس، وكان يُرى لدى الأم، إلام سيؤول هذان التغضنان، حفرتا الخيبة. لكن بيرينيس كانت تمحوهما بابتسامة مُقتسرة متجمدّة، أبدية وكأنها الحفاظ على الثمانية عشر عاما. وكان

أجفانها التي تثاقلت تلقي ثقلها على النظرة السوداء التي تُستشفّ استشفافاً.
ولعلها قد مُسحت بمسحوق أمغر يتنافر مع اللون، وربما كان ذلك من انعكاس مغيب الشمس. كان وجه بيرينيس هو وحده هنا الخالي من أي أثرٍ من آثار التعرق. ماكان يمكن ان يوجد فيه شيء من صورة زامورا، ومع ذلك، تذكّر اوريليان، برعشة تعبير وجه الغريقة في قناع الجبس. لم تغيّر بيرينيس فستانها للعشاء، لكنها تقلّدت في عنقها خمسة صفوف أو ستة من المرجان الوردي، المبتذل، الرخيص الذي يتدلّى حزماً عند بائعي الذكريات في فلورنسا. بدا ذلك كأنه يشدّ رأسها الى الأمام. وكان الكلب الأحمر يُنطنط حولهم.

لم تكن للأقوال كبيرُ قيمةٍ، وتشعب الحديثُ. وفي كل ماكان يتطاير من نتف الأفكار، في مزق المشاغل المختلطة، وفي تصالب الحيوات بتلك الكلمات الفارغة، كان اوريليان يجد فكرةً مشتركة واحدة بين الجميع، لعلها انعكاس أحلام يقظته الخفيّة، التي لم يكشتفها أحد. الهزيمة. لم يكن أحدٌ يقول شيئاً عن الهزيمة، ومع ذلك فقد كانت تصبغ الكؤوس والصحون وظلال البسمة ولامبالاة الأحاديث. إنها «هذا غير ممكن ياالهي»، التي كان المرءُ يجدها دائماً في ذاته. ومَنْ الذي قال قبل حين لاوريليان «تصوّر أننا انتصرنا...»؟ بمرارة تُلامس السكر. كان يحمل نفسه على التفكير ان الأمر سيكون أسوأ لو انتصرنا. يجب ان نوطّن أنفسنا على الهزيمة. طريقة «كوي». كيف سنكيّف أنفسنا مع الهزيمة؟ لأننا سنكيف أنفسنا مع الهزيمة، ارتعش : كانت بيرينيس تكلّمه. بم أجابها؟ إن هذا اللقاء بعد عشرين عاماً هزيمة. كان عليه في الحقيقة أن يجبر نفسه ليتعرّف في هذه المرأة الغريبة على كائن حبه ذاته. لقد احتفظ في نفسه بفكرة بيرينيس، لكن بيرينيس كانت تجعل هذه الفكرة مضطربةً. وفكّر بينه وبين نفسه، بمرارة، أن الأمر نفسه كائنٌ بالنسبة الى جميع الأشياء، ولقد جرت الحياةُ بينه وبين حماساته، وحملته الى بلاد ضاعت فيها معالمُ الأشياء، لا بيرينيس، ولا فرنسا. أهي فرنسا شبابهِ، فرنسا الحرب الأخرى، هذا الاندحار، هذا الفرار الهائمُ على الطرقات، هؤلاء الشباب على دراجاتهم النارية، هؤلاء الفتيات

بالبنطال القصير، لا، لا، لا.... الجمهورية لا فرنسا.... من أين جاءته هذه الفكرة؟ من أوحى بها إليه. ماكان بوسعه ان يقول. كانت هذه الفكرة تساعده على ان يحيا، كانت في الجوّ ، كانت تجعله يتحملّ العار. شأنها شأن بيرينيس. لم تكن بيرينيس، هي بيرينيس هذه المكتهلة. بيرنيسيه كانت ذلك القناع من الجبس، تلك الميتةُ الشابة، الجميلةُ أبداً. وفرنسا أيضاً التي يحبها ميتة، وليست هي فرنسا هذه التي تمكن رؤيتها . إنها لسعادةٌ ألن نحبُ ميتةً، فنحن نفعل منها مانشاء، وهي لاتستطيع ان تتكلم وتقول فجأة جملةً كنا نود لو لم تقلها... سألت بيرينيس هل رأيت إعلان عُمدة المدينة؟ لا، لم يره. نشطت السيدة موريل. كادت تكون بشعة، وكان في عينيها غضبُ شديد: «يقول العمدةُ إن الألمان سيدخلون المدينة، وهو يطلب تجاههم موقفاً مهذباً، محترماً... وبهذا الثمن يمكننا أن نؤمّل التساهل من المنتصر، وفهْم وضعنا، بل واللطف....» قهقة الرجالُ لم يكن العمدةُ محبوباً، لم يكن العمدة المنتخب الذي عُزل في الشتاء السابق لأسباب خاصة، بل كان راديكالياً يمينياً. انتظر حياته كلها هذه الفرصة ليكون عمدةً، وقد عُيِّن عمدةً بقرار، آه، راديكالي، أحسّ اوريليان أنه في صف بيرينيس، إذ لم يكن يحب الراديكاليين. الأب باربنتان مثلاً،. قهقه مع الآخرين.

قالت بيرينيس" «أظن أننا لانتكلم على الشيء نفسه...» نظر إليها أهي. تلك التي عاشت ثمانية عشر عاماً في ذكرى تلك الأيام القليلة من شبابهما؟ هي التي لم يكن لها شمسٌ غيره؟ لحظة أخرى ويثمل من ذلك ثملاً شديداً . وكأنما يثمل من خمرٍ محرّمةٍ.

أغمض عنيه وفكر" «إنها لم تعدْ شابةً... وما أهمية ذلك؟ سأضحّي لها بحياتي.. سأجعل لهذه القصة هذه النهاية المذهلة. طابع أنشودة الحب..» شعر دفعةً واحدة بعدم الرضا كله عن حياته الخاصة. لم يفكر في ذلك قط لكنه صعد الى حنجرته. زوجته وولداه، كان مستعداً ان يترك كل شيء لكي ليستأنف حلماً من أحلام يقظته الماضية.. لقد انساق على الأقل وراء هذا الإغراء، هذه

الرعشة التي سرت فيه من جرّاء ذلك. قال في نفسه: «سأرحل مع بيرينيس.. وسأجعل تلك المرأة سعيدة..» قال ذلك بكبرياء هي كبرياء تلك الفكرة. والواقع أنه كان يعلم أنه لن يفعل شيئاً من ذلك. ولعل ذلك كان جبناً... قال: «انتصر علينا الألمان لأنهم كانوا أفضل تجهيزاً منا، وأكثر انضباطا على وجه الخصوص.. وليس لديهم هذه الثرثرة الدائمة.. كل الناس يريدون ان يأمروا..

سأل موريل وإذنْ، ماذا تستنتج من ذلك؟

أوقفته عينا بيرينيس. عبث بسكينه. وقال غاستون «على اللاعب أن يرضى بالخسارة، لقد خسرنا ، لقد خسرنا...» ولم يسمع اوريليان ما الذي كانت تصرخ به جيزيل. قُدّمتْ الخمورُ العذبةُ. لم يكن الجميع على وفاق. رأى موريل ان الخطر يكمن في خوض هذه الحرب. وغرق ليرتيلوا في لجّة الكلام. أراد ان يُمسك بيد بيرنيس. فسحبتها دون تكلف. مَنْ الذي ألقى أولاً بهذه الفكرة المنافية للعقل في الحديث؟ لقد كانت تطوف، منذ زمن طويل، في الصحون الوسخة وفوضى الحلوى. لابد أن الكلام دار حول هذه ا لمغامرة منذ بداية العشاء. لعله موريل، أو غاستون . لم يصغ إليه أحدٌ اولاً. وكانوا يتكلمون عن شيء آخر، ويتخاصمون. ثم عادت الفكرةُ بإلحاح. ولقد نُحِّيتْ لكن دون جدوى. لقد استقرّت وأخذوا يناقشونها . غضبت بيرينيس وصاحت. هذا جنونٌ، في النهاية... لن تفعلوا هذا! اوريليان مايزال مريضاً..

قال:

- أنا كلا، على الإطلاق... ذهبتْ الحمّى ولامجال للكلام عليها . وكأنما كانت بين الجميع مؤامرةٌ ما، مؤامرةٌ تحيط بهما الاثنين. تواطؤ. الحبيبان اللذان التقيا وعُثر عليهما. ولم يكن موريل آخر الناس في ذلك. وقد شربوا ولم يقتصدوا في الشراب. انتابهم إحساسٌ بأن كل مايشربونه كان كسباً من العدو. فشربوا . وكان شيء من النور مايزال ينحلّ في الأقداح، ولم يبرد المساء. كان كثيفاً، ثقيلاً، مثل ذراعي امرأة عاشقة. تخبّطت بيرينيس. قلتُ لكم لا.. مالكَ

اوريليـــان، قلْ لـهـم إن هـذا جنـون.. لايمكـن الـســيــر علـى الـطـرقــات..

بدا غاستون مُقنعاً· مع هذا! سنأخذ السيارة الصغيرة، سيارته، دعوني افعل ذلك، فالدركُ لهم همومٌ أخرى...

ـ أنت مجنون، غاستون! فاوريليان نقيب... وإن سبّب له ذلك مشكلة..

لم يكن أحدٌ يبالي بذلك. ولابد من القول أن النقيب ليرتيلوا لم يكن يسعى أحياناً الى النجاح في مهنته. قالت جيزيل إن منزل غاستون جميل جداً. كا ن أشدهم ضراوةً موريل. هزّت العجوزُ العمياء رأسها بأسى. وسألت: أما تزال الشمسُ طالعة؟ هذه الجملة في غمرة جلبة الآخرين. وتفاهة القهوة التي جُلبت. كانت لها نبرةٌ من الأسى الواقعي العميق الذي تتمزّق فيه حياةٌ. نظرت بيرينيس الى أمها وارتعشت.

« الأفضل لك أن تصعدي الى بيتنا، ماما...»

كان صوتها مختلفاً عن الصوت الذي عرفه اوريليان. كان صوتاً عميقاً، مـهـمـوساً. كـان صـوتاً آتيـاً من الطفولة، ولاشك، عندمـا كـانت الأم والطفلة تتخاطبان سرّاً عن ذلك الأب الرهيب، ذلك الرجل العاصفة في البيت الكبير... واندفعت الى اوريليان القصة كلها كما حدّثتها بيرينيس له في باريس قبل عشرين عاماً... أمسك به غاستون من ذراعه·

ـ ياعزيزي. ان قلت إن ذلك يُسلّيك... بيرينيس...

نظر اوريليان إليه، وعيناه فارغتان، ماذا يريدون جميعهم منه؟ .

وموريل: « لاتتصوّر، سيد ليرتيلوا، حديقة غاستون.. تحفةٌ.. فيها أشجار كستناء كبيرة، أشجار كستناء كبيرة...

ماالذي يذهب بالقناعة، ما الذي يُطلق الرغبة من عقالها؟ نظر الى بيرينيس التي كانت تقود أمها نحو البيت. قال ان ذلك يسلّيه.

* * *

— ٧ —

لم يوقف السيارة أحدٌ. وقد ساقها غاستون عبر الشوارع، الصغيرة الى خارج المدينة ببراعة فائقة، او ببراعة السكّير. لم يلقوا سينغاليين يحرسون في هذه الجهة. كانوا يمرّون بين الخرائب التي تطلّ على ريف فارغ، على حقولٍ، على بيت ريفيّ، على الكرمة. وكانت أعمدة الدوالي زرقاء من الكبريتات وكأن الليل بدأ بها. تسلّق الطريقُ، أو مأيسمّى طريقاً، الأكمةَ مثل كلب يتنحّى جانباً ليتفادى العجلات. الكلب الأحمر... صحبهم لحظة، وعندما تركهم انحنت بيرينيس وتبعته بعينيها... يا للعجوز المسكين، فهو لايستطيع ان يتبعنا أيضاً..» لاحاجة لأن يسألها من تعني بـ «أيضاً» فذلك لاينطبق على شيء، ولا على أحد. وكان ذلك مفهوماً.

أحس اوريليان بها مُلاصقةً له، محصورة بينه وبين غاستون الذي يسوق السيارة. حضورٌ وغياب ممتزجان.كانت ذراعه خلفها، تُحيط بكتفيها، لكي يوسّع لها في المكان. كان يشعر بتنفس بيرينيس المحتبس، بالهيئة الغريبة للمرأة التي تَعْزم ألاّ تترك نفسها على سجيتها. وفي صدر هذه الـ «وسنر» الصغيرة المرتّقة التي أطال غاستون عمرها عشر سنوات على الأقل، كان يُسمع ضحك «جيزيل» بين موريل وابنة العم الحزينة، وموريل وهو يضطرب ويكثر من الكلام. كان المساءُ خانقاً. ماذا تعني هذه الرحلة الى الريف، فجأة يوم هزيمة، في آخر النهار، مع طيور تهبّ من الكرمة، وغبار يغشى كل شيء. كان القصدُ تذوق خمر المنطقة الموجود لدى غاستون وكان ذلك لايخلو من الجنون. وبيرينيس التي استند صدرُها الممتلىء على الرجل الذي أحبّته طوال حياتها. لكنه صدرٌ مسكونٌ بفكرة غريبة. وكالغريبة تلك الساق بحذاء ساقي، وتلك الشفة المرتجفة التي لن انحني عليها. وإنه وإن كان المنزل لا يكاد يبعد أكثر من خمسة كليومترات عن ر... إلا أن هذه المغامرة تبدو بلا نهاية، خرساء مع ملاحظات غاستون الضائعة، كأنها تغيرات مفاجئة لسرعة.

كم كانت حياتي شاحبة من ورائي! لم يرتسم منها شيء جديرٌ بذلك.

أهي كذلك بالنسبة الى جميع الناس؟ لاشك ان هناك مصائر مثقلة بالشمس، مثل العنب الأسود. لمَ لمْ أكن كذلك؟ لم هذا الفرار بحثاً عن لاشيء، هذه المناورة الطويلة الزائفة، حياتي؟ ذلك مثل لامعقولية هذه النزهة. انحدار يبدو مثل رشقة.. كأنني مررت بجانب كل شيء. ألا يجوز ان نبدأ من جديد، ان نعيد خلط ورق اللعب، أن نصيح أن في توزيعه غلطاً؟ فرنسا. بيرينيس، جورجيت.. تغيّر المشهد وراء ظهر الأكمة. ودلفوا الى قاعٍ تسدّه أشجارٌ كبيرة، وغاب المنظور عن السهل والمدينة. ومال المساء برفق الى الليل. وضع اوريليان ضرباً من الصلاة في الضمّة التي أطبق بها على بيرينيس بصورة غير محسوسة. كانت كالميتة. بدت كأنها لم تلحظ تطويق ذراعي الرجل. تنهّدت مرة. انحنى عليها. قالت: «لم يتراجع الحرّ».. أرخى ذلك التوسلّ الذي لاجدوى منه، ذلك السؤال الحيواني الذي كان رفضُ الكلمات كافياً للردّ عليه. ضحكُ جيزيل الأبله. غاستون ينفجر ضد محركه الذي توقّفت مسارعتُه: كانت الطريقُ صاعدةً، فداروا وتصافحت أغصان الأشجار فوق المسافرين. وكانت ظلالها إيذاناً بالليل الحقيقي. كان البلد أراضي مهجورة. محا لجنحُ الظلام شيئاً فشيئاً الفرق بين الأراضي المستريحة والأجزاء المزروعة مثل قطع لثوب لايستحق نفقتها. وكان ايضاً بلداً بيوتُه مهجورة. مساكن فلاحيّة صغيرة أخذت أحجارها تتلاشى وبرزت هنا وهناك تحت فوضى الآجر الذي فقد لونه. وهي على العموم ضيّقة وأبوابها مخلوعة، والريح تلعب فيها بحرية.ثم أشجارٌ أخرى، ونزلةٌ وأشجار أيضاً.. وصوت مياه.. تباطأت السيارةُ وانفجرت سوقيةُ «جيزيل» مثل صوتٍ مسرف الشدّة في كنيسة. صاحت: «عجباً، لقد عطشنا، «غاستونيه»! ولوريل: آوه! وأنت، أنت شددتني كثيراً..

بلدٌ خربٌ يَهبط الصمتُ عليه. خربٌ، لا من الحرب بلدٌ خرّبه ببطء سرطانٌ يحمله في ذاته. يصيبُ الحقول، ثم البيوت. صحراء. صحراء تُخال مأهولة إذا لم يُنْظر إليها عن كثب. صحراء بأشجار. وماء. صحراء مُقفرة من الرجال. من الغريب أن يدلف المرء إليها بعد دورب الانسحاب والهجرة الجماعية

إن هذه الأشجار هذه الطرقات، هذه الجدران المهجورة، ماتزال على غير علم بالكارثة. بذاك النهر المجاور الذي تدفّق على هذه المدينة، من الطريق الكبرى، والذي تنحّى عن هذه البيوت الفارغة في بلدٍ هو أكبر من المصيبة. ولقد يُخيّل إلينا ان هذه الأرض سوف تستقبل انحسار هذا الشعب وتلك الجيوش، كل مدرة، كل حصاة. دعكَ من ذلك. إن في هذه المشاهد أعماقاً سوف تظل مجهولةً. فكّر اوريليان فيما قاله له ضابطُ استخبارات الفرسان. جرى الكلام على حكومة مع لافال والمارشال. حينئذ قال الآخر: «كل شي إلا «لافال»! إن جاء «لافال» فسوف ألجأ الى المقاومة وسوف أتآمر! لابد أنه ماسوني.لماذا فكرّتُ فيه؟ آه! نعم، أعماق البلد.. سوف ندخل في زمن المؤامرات، والمشاكل.. أعماق البلد... هناك مساحاتٌ كبيرة لن تعرف شيئاً... أو على العكس... بالنسبة الى المطارَدين...

صُفّت السيارةُ في درب مغطىً بأوراق الشجر في أعماقه حاجزٌ خشبي بدا جديداً جداً بالنسبة الى الجدار التالف. نفض الركاب أنفسهم. أفلتتْ بيرينيس من اوريليان وكأنها أفلتت مْن الخطر. كان في الحديقة وردٌ ذبلت دون ان تُقطف، بستان فاكهة مربع. وسماد. قال غاستون: «سترى، البستان الحقيقي يقع في الجانب الآخر..» دخلوا البيت المظلم، الخالي من الكهرباء. تلمّس غاستون دربه في عتمة غرفة عريضة ومنخفضة بحثاً عن مصباحٍ بترولي. صاح «انتونيو! أين اختفى هذا الرجل؟» انفتح بابٌ وشحوب نافذةٍ على الحديقة من الجانب الآخر. «انتونيو!» أوضح موريل: «هذا اسبانيُّه»... أي اسباني؟ أضاء المصباح إضاءة سيّئة غرفةً تجمع بين المطبخ الريفي والمكتبة. كان فيها رفوفٌ مثقلةٌ بالكتب المغبّرة، ومدفأةٌ كبيرة وبقايا نارٍ متفرّقة... رأى اوريليان وجّه ابنة العم أقلّ حزناً في نور الأشباح هذا. كانت في بيئتها. فتحت «جيزيل» خزانة صغيرة وكأنها من آلاف المنزل، وأخرجت أقداحاً، وتعجبتّ من أن البسكوت قد نفد تقريباً. كم نحن؟ خمسة.. ستة، ستة حين أعدّ نفسي!» وأمام مرآة مؤطرّة بإطار مذهب من طراز «لويس فيليب»، كانت بيرينيس تسوّي شعرها بصمت.

قال موريل: «نعم، اسبانيه... انتونيو... جمهوريّ آواه ليسرّ بيرينيس، بعد هزيمتهم...» وقد فخّم ضمير الغائب في هزيمتهم تفخيماً جديداً كلّ الجدةّ. شعر الرجلان بالحرج في الوقت نفسه. وضحك الصيدليّ ضحكة طفيفة تنّم على الحياء. «الأمرُ مضحكٌ، إنّ لنا الآن هزيمتنا.. ليسرّ بيرينيس... استفهم: «ولم يسرٌ ذلك بيرينيس؟»».

ـ اوه! أنت تعلم جيداً كيف هي، وكيف تدخل لجاناً وتضع نفسها في مشاكل.. لأن غاستون ليست له أفكارها على الإطلاق. هو من جماعة «العمل الفرنسي».... لكن انتونيو يؤدي له خدمةً حسنة، فهو يحرس البيت، ويزرع الأرض... وغاستون له غرفة في المدينة... هذا منزَل والده، العالم الكبير كما تعلم... والذي كان ينظم قصائد بلهجات جنوب فرنسا.. نعم،نعم..

عاد غاستون بفلاح متين البنية ، شاب وسيم الوجه وديعُه، أسود العينين، شخص ليس طويلاً لكنه متين، وعليه قميص خاكي مفتوح ملفوف الكميّن، وبنطال كتاني أزرق. كان يتكلم برطانة بدا على غاستون أنه يألفها، وكان يحمل سلةً كبيرةً من الكرز الأبيض. صاحت جيزيل «مرحباً، انطونيو!» انحنى الاسباني وابتسم ابتسامةً يملء فمه. نظر إليها اوريليان وهو يردّد كلمات موريل: «أنت تعلم كيف هي، كيف تدخل جميع اللجان... ليس البلد وحده هو الذي يحوي أعماقاً لاتخطر على بال،،، مصباحٌ آخر منح الغرفة تقريباً جواً من البهجة مفاجئاً، شوهدت فيه صورةُ امرأة من زمن «فيليكس فور» وشهادة من معارض الزهور، شرحتها ابنةُ العم لاوريليان. وفي أثناء ذلك رأى بيرينيس تحادث الاسبانيّ، هزّ كتفيه. ما أكثر ماسيتصوّره! وفجأة تعالى صوتُ الموسيقا.

كان هذا هو البيان الذي استيقظ في عتمة هذا المطبخ. من تحت رزمة من الدفاتر بينها حوض أزهار من الخزف أخذ يرتجف. كان غاستون يعزف لـ «شوبان» مقدّمة «مينورك». صاحت جيزيل. «شيئاً من الجاز!» والتفتت الى ليرتيلوا: لاتستطيع أن تتصور الى أيّ حد يتعلق غاستون بالعتيق البالي ليس ها هنا من حاكٍ، ولامذياع!».

فاحتج من عند البيان:

- آه! بلى، ما من مذياع هنا! الحقيقة أن المرء يعاف المذياع لما لاينفكّ يغنيه كلّ يوم... قال موريل لجيزيل:

- أتتذكرين الربيع الماضي، وكل ذلك الليلك...

طبعاً إنها تتذكر. لكن ذلك النبيذ المحليّ، أين هو، هلاّ جاء؟ قال غاستون من عند البيان إن انتونيو ذهب ليأتي به.

وسيحمله مع بيرينيس التي رافقته. «منذ متى تتكلم بيرينيس الاسبانية؟ أجابت ابنة العم.

- اوه! لقد تعلّمتها! بيرينيس تتعلّم شيئاً ما طوال الوقت...

الاختزال مرة... والاسبانية مرة أخرى...

أكانت ابنةُ العم تجد ذلك حسناً أم سيئاً؟ لايمكن ان يُحزر ذلك. توقّف البيان وفجأة. نادتهم جيزيل: الى المائدة.

كان على المائدة كرز، وحلوى صغيرة، وجبن أزرق ونبيذ أبيض. كان النبيذ الأبيض ممتازاً يستحق هذه الرحلة إليه. وضع غاستون على المائدة «المارك»، وهو شرابٌ حدّثْ عنه ولا حرج، وشراب الماراسكي لهؤلاء السيدات، وهو من جهة أخرى، شراب موريل، لكن الجميع كان رأيهم ان يعيدوا الكرّة على النبيذ الأبيض. إذا شاء النقيب أن يحمل زجاجتين لمطعمه العسكري.. فذلك لايُرفض له. كان موريل يتكلم كثيراً، عن الحرب، والخزفيّات، وذكرياته مع جيزيل. كانت ابنةُ العم التي دارت الخمرُ برأسها تدندن لحناً مأخوذاً من فيلم. أيّ فيلم؟ كان غاستون يُري اوريليان مجموعة صور عائلية، مع «هنري غارا»... حيث كان طالباً ثم انصرف الى الريف، صور أبيه... أخذ يُنشد ورأسه منقلبٌ الى الخلف، قصيدة باللغة البروفانسيّة على مابدا للبيرتيلوا ، كان يتلمّظ بها... تظاهر اوريليان بالإصغاء، وعيناه على بيرينيس، الخرساء، الناظرة الى الفراغ، وهي تفتّت قطعة حلوى مع اهتزاز عصبّي في أصابعها. ضحكت جيزيل ضحكاً

شديداً عدة مرات. ظهر الإسباني عند الباب ورطَنَ بشيءٍ جعل غاستون يدير رأسه. لا، لا، شكراً انطونيو. من الخارج كان يأتي صوتٌ أزرق. مدوّخٌ. الضفادع.

قالت بيرينيس: أليس الجوّ حاراً؟ مَنْ خاطبت.؟ الجميع ولا أحد. على كل حال، إنها لم تخاطب اوريليان، أولم تخاطبه على وجه الخصوص. غاستون هو الذي أجاب، لم يُجب بيرينيس، بل قال لاوريليان همساً «ألاتريد أن ترى الحديقة؟». الحق ان الجو كان حاراً. والنبيذ الأبيض يصعد الى الرأس. مرّ اوريليان بالغرفة الثانية التي أنارها إنارةٍ سيئة مَسْحبٌ من النور آتٍ من المطبخ، ومرّر بيرينيس أمامه. توقّفا عند عتبة الحديقة. كانا وحدهما. لم يتبعهما أحد. كان الظلام دامساً، ولا قمر، في هذه الليالي. كانت الحديقةُ بئراً من العتمة بين أشجار الكستناء. وكانت ذاهبة طولاً، مع سخافة جدارين كبيرين منخفضين تحدّانها عن الحقول التي يحدَس وجودها حدساً. وفي ركنٍ ضربٌ من أيكة خانةٍ ريفيّة، مع مقعد وطاولة مدوّرة. كان كل ذلك مُهملاً أشدّ إهمال، وفي الممر أعشابٌ بريّة، وحبّات كستناء تدُحرج أغلفتها عند الأقدام.

تقدّما معاً دون أن يقولا شيئاً، وكأنهما رادا ان يجعلا بينهما وبين المنزل مسافةً طويلة. وفي طرف الحديقة، كان جدار من الأحجار الجلفة يؤلف شرفة على السهل. ولم تكن الظلالُ المتراكمة لتسمح بتكوين فكرة عن المشهد الريفي. وأبت البرودة ان تُقبل. وكان البعوض يطنّ.

- قال اوريليان: «كيف جرى أن هذا الاسباني ليس في معسكر الاعتقال؟»

لم يكن يحرص على الجواب. كان يتكلم ليطرد القلق. في الليل كانت بيرينيس تعود، بيرينيس الصغيرة لعام ١٩٢١، ودهش أنها لم تسمعه على الإطلاق. اوه نعم، لقد سمعته... ومع ذلك قالت دون أي انفعال خاص «غاستون له علاقاته... وقد كفله....» كان كلُّ شيء يبدو وكأن علة وجوده أن يقيس الهوة بينهما. ارتعش اوريليان. «ألا تشعر أنك معافى، يا صاحبي؟» تصاعد هذا

السؤال في العتمة مثل نغمة آلة موسيقية صدمها أحدُهم عرَضاً. ودّ لو يقول لها أكان لهما الخيار كليهما؟ لن يعود شبابُهما. كان كلاهما أنشودة الآخر. ولن يسعهما أن يجعلا الأشياء غير ماهي عليه. قال: «بيرينيس..» ومات هذا الاسمُ في صمت مالن يقوله، والذي فاته الى الأبد أن يقوله. قالت

- «لك ولدان. ما أغرب ذلك وما أعجبه! إني أغبطك وأودّ لو أعرفهما. لعل الصبي يشبهك، ولعل للبنت حركاتٌ من حركاتك. همس

- الصبيُّ يشبهني.

كان يطير في الهواء، غير بعيد عنهما، شيءٌ ما. استشفّ أكثر مما رأى أن بيرينيس رفعت يديها الى شعرها. هل فهمتْ، وأنّى لها، أنه فاجأ هذه الحركة. سألت

- أليست هذه خفافيش؟

لم يكن يعلم شيئاً من ذلك. فزعم:

- لا أظن.

أكانت تحلم حقّاً بالأطفال. كان الظلام حالكاً بحيث يحول دون ا لكذب. كل ماكان اوريليان يود أن يقوله لها، كونه أراد أن يكون في مستوى الوضع. لقد تألم طوال حياته من أنه لم يكن في مستوى الوضع، لكنه لم يحسّ قط بمثل هذا اللذع.. من أنه ليس في مستوى...

- أرأيت، يابيرينيس، فهاهنا، في هذه الحديقة، في ظلمه هذه الأعشاب البرية، ينبغي لي...»

أراد ان يقول «أن أمسك بيديك» فلم يقلها. ولم تطلب إليه أن ينهي جملته. لعلها ستنهيها عنه ؟وكيف ستنهيها؟ ماذا كانت تنتظر أن يفعل، وهي تنهي جمله، فلم يفعله ولن يفعله، لأنه كان يجهل أن هذا هو بالضبط ماتنتظره منه.. أو على الأقّل ماتنتظر أن يفعله...

أراد أن يقول «أن أمسك بيديك». فلم يقلها. وقد فات الأوان الآن، ثم ان كلماتٍ أخرى دفعت هذه بكتفيها، كلمات أخرى لم تُلفَظْ، كانت تتساقط

بعضها فوق بعض في الصمت، مثلما تتساقط وريقات تويجة الزهرة. وغيرها، وغيرها من الكلمات. فحمل نفسه على أن يقول كلمات أكثر رصانةً. ولم يقل هذه المرة بيرينيس لأنه خشي مرة أخرى، أن يوقفه هذا الاسم، مثل حجر مسرف الثقل، وعطرٍ يقطع الصوت.

ـ «كنتِ أفضل وأعمق مافي حياتي... لا، لاتُقاطعيني، فلقد عانيت كثيراً قبل أن أقرّر.. أنتِ كلّ ماغنّى في حياتي... وإذا شئتُ، مع ذلك، أن أحصل على نظرةٍ عن حياتي... عنيتُ.. اتفهمينني؟ إننا نسعى الى تبرير أنفسنا أمام أنفسنا... ونطعن في السن. لايجوز لنا أن نفوّت أنشودتنا العاطفية. نحن لانسمح بذلك. أليس كذلك؟ أما في هذه الليلة، ولايمكنها أن تكون دون حلم.. أو أسوأ من ذلك، مع الأسف على حلمٍ فسدَ... الحلم الوحيد...

ماذا أراد أن يقول بالضبط؟ لم يبد أنها تبيّنت قصده إذ قالت بعد صمتٍ، وبلهجة بعيدة: «إنك لاتتكلم إلا عن نفسك...» وغلط في فهمها فقال إنه يتكلم عنها أيضاً. أرادت ان تقول إنها استغربت أن تمرّ بذهن اوريليان أفكارٌ غير الأفكار المتّصلة بالهزيمة، بهذه المغامرة الرهيبة، بفرنسا... بدا اسم فرنسا بالنسبة الى ليرتيلوا، ناشزاً، مفخّماً. في فمها غير المرئي الذي تذكّره بشفتيه اللتين كانتا مثل شقّين صغيرين عموديين. ورأى قناع الغريقة، قديماً، ووجنتيها... وهاهي ذي تقول. فرنسا... أحسّ بحنق لم يُحس تفسيره. شوشه ذلك، ودمّر فيه «بيرينيسه». إن هذا يظهر المسافة بين الدميه التي في ذاكرته وبين هذه المرأة الحيّة، مسافة عشرين عاماً خارجه.. كل ماجرى في هذه الأعوام العشرين كلّ ما فرّق بينهما.

ـ تكلّمت بيرينيس:

ـ إني أصغي إليكم، أنت والآخرين... فإذا ماصادفكم موضوعٌ لحديث أقبلتم عليه ولم تفوّتوه!... وأنا أصغي إليكم... وأنتم مغتبطون أشد اغتباط بأن تخرجوا عن جادة الصواب أو أن تتألقوا.. الرجالُ... كلهم متشابهون... أنتم في رضاً عن الواجب الذي اتممتوه... لقد عبّؤوكم.. فقمتم بواجبكم.. وماذا

يُطلب منكم بعد ذلك إذن؟ الآن انتهى الأمرُ انتهى الأمر، خمد عزمكم... وذلك كـأن تكفّوا عن حلق ذقونكم بسبب الهزيمة... ها أنتم بالقميص وحده في الحياة..

- لكن لاشك، يابيرينيس، أن الأمور قد انتهت... ماذا تريدين ان نفعل؟ ليس بوسعنا، مع ذلك أن ننطح الجدران برؤوسنا!

- ولمَ لا؟ الحاصلُ أنكم إن لم تفعلوا ذلك هذه المرة، فمن المؤكدّ أن لن يكون لديكم أبداً أدنى فرصة لتفعلوه! رؤوسكم الثمينة! اعترفْ بأنكم تنفّستم الصعداء عندما أدركتم أن الأمور انتهت؟

- اولاً. لم تنتهِ الأمورُ بعدُ..

- لم تنته بعد؟ ألم تسمعْه، ذاك؟

- مَنْ هذا؟

- المارشال.. يا أولادي.. والدموعُ في عينيه. آه ياالهي!

- لا تتكلّمي هكذا. كان مؤثّراً، هذا الشيخ.. ثم ماذا تريدين أن نفعل، في آخر المطاف؟

لم تجبْ. انتصر.

- وهكذا. فأنتِ ترين جيداً..

انفجرت من الغيظ

- ماكنتُ أريده؟ أن نُقاوم! أن نُقتل!

- لكننا قاتلنا.

- نعم، قتال الأشقياء الذين ظنّوا أنهم يقاتلون حقاً، في حين أن...

- لستُ أفهمك: تقولين شيئاً. ثم تقولين شيئاً آخر... ألم يقع مايكفي من القتلى، في نظرك؟

- وقع مايكفي من القتلى بحيث لايحقّ لنا أن نخونهم، بحيث لايكونون قد ماتوا من أجل لاشيء.

- إذن كان يجب ان نُقتّل أنفسنا..

- أن تقاتلوا، قلتُ، أن تقاتلوا. تصوّر أننا لم ندافع عن باريس!

ـ برأيك أنه كان يجب ان نترك باريس تُدَمَّرا نعم، شكراً
ـ كان الأفضل ان تُدمّر باريس.
ـ سهلٌ عليك أن تقولي هذا، وأنتِ تعيشين في ر..
ـ لا تكنْ غبيّاً. يمكننا أن نحبّ باريس من ر... مثلما تُحبُّ من «ليل» أو من باريس نفسها.. وإذا وصلوا ر.. غداً..
ـ أتريدين أن تموتي في رماد ر...
دهش من هذه اللهجة الساخرة. واستدرك
ـ ماذا جئنا نقول هنا؟
فردّت بيرينيس.
ـ جئنا نقول الأشياء الوحيدة التي علينا أن نقولها اليوم... الليلةَ... لا، لاتُعارضْ، لاتقلْ إنك تبغي ان تكلمني عن الحب.. كما كنت قديماً.
كل المرارة كانت في الكلمات الأخيرة، بعد وقفة. وإذا كان اوريليان، ان صدّقنا غاستون، حياتها كلّها أثناء هذه السنوات الميتة. فكيف قام اليوم بينه وبين بيرينيس عالمٌ، وهو أسوأ من حياة؟ وعالم من الأفكار أيضاً، أفكار كان يعدّها مضحكة، بدائية، لكنها كانت من جراء ذلك محسوسةً، مدوّخةً على نحو أشدّ، مثل عطرٍ سوقيّ وجده عليها، فحقّر ووسّخ الذكرى المجمّلة التي يحملها في نفسه عنها. قطع الصمتَ:
ـ بيرينيس... لقد تركتُك، تركتُ بنتاً صغيرةً مشغوفةً، عفويّةً، جاهلة العالمَ، آه، غريبة بعمق عن هذا العالم الذي يتقاتل فيه الناس ويتعارضون، ويترامون بالأفكار، الأفكار التي لاتُحسن أن تخفي المصالح والدسائس.. وها أنا اذا ألتقي المرأة التي تحمل الهوى نفسه الذي كانت تمنحه الحياة.. تحمله الى تلك الأشياء الملطخة .. الضبابيّة.. الى تلك الأشياء التي كانت داعنا... ثملةً بتلك الألفاظ الجوفاء التي تقود جماهيرنا. ثملها السهل وهي بنتٌ صغيرة بمنظر باريس، وبأمسية، وبأغنية...
ما حاجته الى أن يكون صوتُه متوسّلاً؟ بمَ كان يرجوها؟ لم يكن هو نفسه يدري، وأحست بيرينيس بأن في ذلك نشازاً، ومراءاةً. لم يبق بينهما

الشبابُ ليوهمهما بذلك الوفاق العجيب الذي احتفظ كلاهما بذكراه المعظّمة. بيرينيس على حقّ. عمّ يمكن أن يتحدّثا هذه الليلة؟ إن الكلمات التي انتظرها منها وانتظرتها منه، على نحو غامض، كالسديم، كانت تنحلّ في العتمة. تلك الكلمات المؤثّرة التي إن لُفظتْ انبأت بالكذب. وإذن فمن الأفضل أن يبقيا عند هذا الحدّ.

صاح صوتٌ من مربّع النور الرجراج في الباب خلفهما: «من يُريد «الارمانياك»؟ أتريدان شيئاً من الارمانياك أيها العاشقان؟ كانوا يضحكون في الداخل، وكان البيان جارياً مع التيار، ثم تصاعد صوتُ «جيزيل» وهو صوتٌ ضبطته بعد بعض النغمات. غنّت أغنيه مضى عليها شيءٌ من الزمن، شنيعة، مقطّعة، بأسلوب الجاز الفرنسي.

ماذا ننتظر لنكون سعداء!

سألت بيرينيس : «ألا تظن المطر سيهطل؟»

كان الجو، بالفعل، ثقيلاً. لم يشأ اوريليان أن يقبل أن يكون معنى ذلك «لندخلْ». فقال باللهجة الخشنة التي أزعجته قبل حين: «ما الذي يجعلك تهتمين بهؤلاء الاسبان، بهؤلاء الحُمْر؟»

لم يبدُ عليها أنها بحثت عن الجواب الذي جاءها بسرعة. فقالت. مُصابهم...

أغضبه ذلك، فردَّ: مصاب الذين اخطؤوا ماهو إلا العدل...

قالت:

ـ هذا ماسيقوله الألمانُ اليوم عن مصابنا... حدث ثقبٌ عظيم من الصمت في هذه الدنتيلا السوداء التي تحيط بهما. ثم بدا صوتُ بيرينيس كأنما يتسلّق بمشقة جرُفاً وعراً:

ـ لم يبق في الحقيقة جامعٌ مشتركٌ بيني وبينك، ياعزيزي اوريليان. لاشيء.. ألم تدرك ذلك؟ وإني لأتساءل لم قُدر لنا آن نتلاقى في هذه الأيام... ربما من أجل ذلك نفسه، لكي نعلم ذلك بالذات، ويحمل كل منا من جهته...

ضاعت الجملةُ مهموسةً. كان قلبُ اوريليان يخفق. مزيج هائج من

العاطفة. الهولُ من إحساسه بأنها قد أصدرت حكمها عليه، اليقين بأنه على حق، الغضب من أنه وجد امرأة تحاكم محاكمة عقلية بدلاً من فتاة ذاكرته... أكرهُ المحاكمة العقلية.. وعادت إليه ذكرى امرأته وشبابُها ونضارتها مثل نفحةٍ من الذاكرة. «آه! ياربي! لم تكن جورجيت هكذا». وجدها في بعض الأحيان محدودة من الناحية الذهنية كان ذلك ظلماً لها. إن للمرأة نوعاً آخر من الذكاء.. وعندما تتدخّل النساء فيما لايعنينهنّ...

« وإذن فقد أفسدْنا ذكرياتنا، هذا كل مافي الأمر..»

قال ذلك بلهجةٍ متجردّة. ومع ذلك فقد تلقّى الجواب في صميم قلبه:

ـ هذا كل مافي الأمر..

العجبُ أنه حلم باصطحاب بيرينيس معه، بأن يفسخ علاقته بكل شيء، بسببها. بسبب تلك القصة التي مضى عليها ثمانية عشر عاماً! إنه محمومٌ، في الحقيقة.... وفكرّ.. على كل حال، لا يمكننا أن نبقى في الهزيمة» ثم استولى عليه معنىً آخر لهذه الجملة، بمرارة. بسخرية. فضحك ضحكة جافة، قصيرة.

ـ سألت بيرينيس:

ـ أيُضحكك ذلك؟

اعتذر:

ـ لا، خاطرةٌ.... شيء آخر... ألا يهمّك أنتِ في شيء أن يكون ذلك كلّ ما في الأمر؟

هذه المرة، تركت سؤاله يطفو في الظلام.

ـ لا.. بلى يمكننا ان نتكلم عن ذلك بتجرّد... لولا تلك الكبرياء الرجولية التي تملكها كالآخرين، ياعزيزي اوريليان....

لاحظ أن لها طريقتها الخاصة بها، هذه المرة وسابقتها، في التشديد على «ياعزيزي»، وليست وقحة ولا عدوانية. وكأنها تتحدّث الى ميتٍ...

ردّدت.

ـ ياعزيري اوريليان...

وكان من الممكن جداً أنها تبكي.

- ٨ -

كان «الارمانياك» مفاجأة غاستون. لقد احتفظ به الى ما بعد المارك والماراسكان العاديين، فعل الفنان البارع، المفاجأة المسرحية في هذه الأمسية. كانت ردود الفعل جليّة. بدءاً من موريل وهو عاطفيٌّ، عاطفي الى حدّ لايُصدّق، وجيزيل المفتونة، أما ابنة العم فلاتسلْ عنها... إلا أن الوقت تأخّر، وقد قالت بيرينيس وهي تقاطع الجمل الانفعالية لزوجها عن الظروف الغريبة، والأحداث الخارقة التي تضافرت لتأتي بليوتيلوا الى هذا المكان، وهو يلقي على بيرينيس نور عينيه المسرف الرقة، قالت إن الوقت قد تأخّر، وإن الحرب، على كل حال، ماتزال قائمة. وقال غاستون ان السير على الطرقات ممنوعٌ، لكن الناس كانوا مشغولين بأشياء اخرى، وكانت ابنة العم تُلقي أشعاراً من «بولييكت»، لماذا بولييكت؛ كان بولييكت هو ماتحفظه عن ظهر قلب، وليس . «اعتنِ بأميلي».

جلسوا في تلك السيارة العتيقة المغبّرة، وعندما انطلق غاستون وثبت بهم وثبةً جانبية بدت لهم كأنها دعابة. استقروا في الأماكن التي جاؤوا فيها . طوّقت ذراع اوريليان كتف السيدة موريل وكأن شيئاً لم يكن. لقد اتفقا ضمناً على أن يقوما بجميع الحركات المنتظرة منهما ليحولا دون الاستفسارات. همس موريل: «لقد التقيا، جيزيل، لقد التقيا! كان ذلك أعجوبة!» ممّا حرّك كتفي غاستون بحركة غريبة، وحاولت ابنة العم ان تلمس واقية الريح وهي تؤكد أن لها هشاشة الزجاج مثلما أن لها بريقه.

كان مشهد الرجوع هو المشهد نفسه وقد ساروا فيه القهقهري، هي الطريق التي جاؤوا بها معكوسة. لقد طفوا من العتمة المليئة بأوراق الشجر ليسلكوا تلك الطريق المغطاة أيضاً بأشجار أقل تراصاً، المتموّجة التي تنسلّ فيها «الوسنر». لم يعد الجوُّ شديد الحرارة، وكانت السماء مكفهرّة، وكانت السحب الكثيفة تركض أمام النجوم. كان غاستون يسوق سيارته بشيء من

العصبيّة. لايمكن القول إنه كان ثملاً. كان مستعجلاً للعودة فقط ممّا جعله يسوق بشيء من العصبية. غرابة هذه الطريق المعادة التي ألفها الجميع والتي كان اوريليان يعرفها معرفة تكفي لأن يشارك السائق عصبيته.. وقتامة السماء أيضاً... كانوا يغوصون في الظلمات. وبعد ليالي القافلة تلك كان شيئاً غريباً الطوافُ في سيّارة حرّة، رجّاجة لا يحدّها في وثبها ذلك الجسمُ الكبير المترابط الحلقات، الممتدّ خارج المدى البشري في ذلك الخطر المظلم. كان اوريليان يسعى الى عدم التفكير في شيء كان يعود الى ر... وهذا كلّ مافي الأمر. إن التعب الذي زادت الخمرُ في ثقله كان أقوى هيمنة من شبكة تلك الذكريات، ومن نتف الأفكار في رأسه. تشنّجت ذراعُه التي حول كتفي بيرينيس. وبدت له أصابع تلك اليد بعيدةً ومتوجّعة، ومع ذلك فلم ينقلها من موضعها. ما الذي كان يجري في هذه المرأة البكماء؟ ذلك الطلاق بينهما الذي غُلِّف بكذب غير معقول، بتحنان الآخرين الملتبس، الذين لم يُنبِّهوا الى خطئهم... قال في نفسه بين حين وآخر إن قصتهما، والفشل التام للحب، وتكذيب الحياة للحب، وأيضاً وهم الحب، غير المفهوم، المتولّد من ثمانية عشر عاماً من النسيان المتعاظم... قال في نفسه.... ما من شيء كان يقوله في نفسه قد أفلح. وتغلب فيه على نفسه، تصلّب... مهلا الكلام على الفشل في الحب بصدد مثل هذه القصة التي توقّفت في بدايتها، والحياةُ كلها بينها وبيني، دون التفكير فيها تقريباً.. لا، ليس ذلك صحيحاً، لقد فكّرتُ فيها دائماً... على كل حال ليس ذلك شبيهاً بما.. ألقت الرجّاتُ بكلّ منهما على الآخر فتزايد حرجهما. انتابه إحساس رجل في سريره مع امرأة خاصمها وظلّ نائماً وإياها مع ذلك.. الرجّات.. ثماني عشرة سنة من النسيان المتعاظم، لكنه نسيان... كان يقول في نفسه... كان يقول في نفسه: الحياةُ كلها.. حياتي كلها... ولقد تحنّن على نفسه تحنناً غير معقول.. مثلما تحنّن عليهما هؤلاء الناس خطأ... وربما كان تحنّنه على نفسه خطأ ايضاً في ليلةٍ مثل هذه مع كل مايجري في البلاد. شعر اوريليان أنه مثل حيوان في العاصفة لم

تُحسن إخفاءه أوراقُ الغابة. قصته هو نفسه في تلك الأحداث غير محتملة الى أقصى حد، ومهمة الى أقصى حد. إلهاءً في الحريق. كان في الأفق البعيد ضجة مخنوقة. وكانوا يسيرون نحو تلك الضجة. صاح به غاستون أستمع؟ نعم. دبابات. كأنها دبابات. ماهذا؟ لعل الفرقة تعود، أوهل تركنا المدينة؟ ضاعت الضجةُ، كانت متعاظمة فخفّت في قطن العتمة. لا. بدّ أننا قد ابتعدنا كثيراً عن ر... كان صمتُ بيرينيس ثقيلاً بينهم. حاول ركابُ المقعد الخلفي ان يقولوا شيئاً. وتغييرٌ في السرعة. لقد خرجت السيارة على الطريق الرئيسية عند التصالب. وبعد ذلك .

« ماهذا؟.. مامعنى هذا؟.. ماذا يجري؟ اختلطت الأصوات، وخفتت في ضجة المكبح. الانحراف... الرشاشات. صوتٌ سمّاني، صوت الرشاشات والنارُ من على اليمين. فكرّ اوريليان: «قُضي الأمرُ، وجرحتُ. »كانت ذراعه ثقيلة، ثقيلةٌ لم تكن تؤلمه. ولاشك أنها كانت تنزف. الذراع التي حول بيرينيس. صاح بغاستون. «اجر ولاتقف!» كان غاستون قد ألجأ السيارة الى الطريق الترابية الممتدة قبالة الطريق التي.. وأخيراً فبدلاً من أن ينعطف الى الطريق الرئيسية اوتي حضور البديهية.. وطلع صوتُ زجاج واقية المطر. وهطل عليهم شيءٌ من الزجاج . سأل موريل وهو قلقٌ وقد صحا من نشوته: ألم يُصبكَ شيءٌ؟» قال اوريليان: لا، لا، خشي ان يتوقفّ لو قال.. «بيرينيس غاستون؟ همس غاستون: «وأنتم في الخلف؟ في الخلف، كانت ابنةُ العم تضحك ضحكاً هستيرياً، هذا كل شيء. قال اوريليان لغاستون: «اسرع، ياصاحبي، سيان..أتعرف الى أين تُفضي هذا الطريق؟ لا... المهم أن تخرج من دربهم..

- من دربهم؟ من هم؟

جاء الاستفهامُ من الخلف.كانت جيزيل واقفة. اجلسي، بالله، ياجيزيل!» وشدّها الصيدلي الى تحت. وغدت الرجّات خياليةً.

قال اوريليان: «من المؤكد... أنهم الألمان! لم تكن ذراعه تتحرك. ولاشك أنها تفقد دمها. كانوا، دون شك، في سيارة مصفّحة. من تلك المصفّحات التي

يرسلونها هكذا كالطفل الضائع، لَتسْبر الطرقات، في هذه الأيام، كانوا يقومون بالسبر. لكي يتفادوا الخسائر التي لاجدوى منها. وهم لايترددون عندما يصادفون العدو. وهم يجرون الى اليمين أو الى الشمال ليدوروا علينا من طرق أخرى.. أراد ان يلمس ذراعه المتخدرة في ألم بعيد..

كان غاستون يجدّف. وكان الآخرون في الخلف يصيحون بكلمات حانقة: «أهم يتبعوننا؟ - لا أظن، أتستطيع أن ترى، أنت؟ كان هذا السؤال موجّهاً الى ليرتيلوا. أما هو فتلمس وأحس برطوبة الدم الذي سال من ذراعه على كتف بيرينيس. سوف تفطن لذلك قال لها: «بيرينيس، لاتخافي.. همست: - لستُ خائفةً. كان هذا الصوت هو صوتها فيما مضى، في سيارة أجرة باريسية. أحس اوريليان بكبرياء غير معقولة تصعد إليه، لكونه جُرح» وهمس لجارته همساً: ليس هذا بذي بال. قالت: «أعلم.. ليس هذا بذي بال..» حتى إن ذلك أغضبه قليلا: أراد ان يقول ان جرحه ليس بذي بال. لكنها كم استهانت. بما قال! ولذلك قال لها: أنا جريحٌ»... لكن غاستون سمعه، فكبح السيارة كما توقع: «جريح» - اوه، جرحاً خفيفاً... أحس ليرتيلوا برأس بيرينيس يتهادى عليه.

نقّت ابنةُ العم من الخلف: السيد ليرتيلوا جريحٌ!

أخرج غاستون مصباح الجيب، أنار بحزمة الضوء الصفراء الرُكب أولاً، ثم قفز الى الوجهين باحثاً عما يجب ان يُنظر إليه. قال ليرتيلوا ليقود الضوء. «الذراع».

سقط الضوء على تلك اليد المتدلّية، على هذه الضمّة لعاشقين زائفين، على تلك الذراع الدامية التي كانت تسند بيرينيس وقد سال الدمُ مدراراً على الفستان، وكان رأس بيرينيس منحنياً.

«بيرينيس!»

صرخوا جميعاً معاً. رفع اوريليان وجهها بيده الصحيحة. كانت عيناها مغمضتين نصف إغماضة، وعلى وجهها ابتسامةٌ، ابتسامة مجهولة السين.. لقد

اخترقها الرصاصُ اختراقاً مميتاً على شكل متصالب قاتل، كانت ميتة، رأى اوريليان على الفور أنها كانت ميتةً.

قال:

«وأنا الذي كان يتكلم عن ذراعه!»

لم يسمعه أحدٌ لحسن الحظ. أخذت جيزيل تنتحب، وكان الصيدلي يصرخ ويتأوّه:

- «نيسيت، هذا غير صحيح! نسيت!

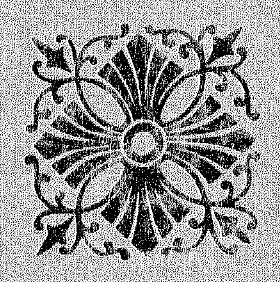
انطفأ الضوءُ. قال صوتُ غاستون الذي لانبرة فيه:

« الآن يجب أن نعيدها الى البيت.

انتهت



٣٥٠٠ ط١ / ١ / ١٩٩٥



الطبع وفرز الألوان في مطابع وزارة الثقافة

دمشق ١٩٩٥

سعر النسخة داخل القطر

٣٠٠ ل.س

في الأقطار العربية ما يعادل

٦٠٠ ل.س